نون والألم...

الحظور والمنشور في الشأن السُّوداني

المؤلف:

فتحي الضَو
Wheaton, IL 60187, USA
faldaw@hotmail.com

تصميم الغلاف:

سامح الكاشف

التنسيق الداخلي:

جابي فايز غبريال

الطابعون:



مكتبة جزيرة الورد
٤ ميدان حليم - خلف بنك فيصل الإسلامي
شارع ٢٦ يوليو - القاهرة - مصر
ت: ٢٧٨٧٧٥٧٤ ٢ ٢٠+ - ٠٠٠٠٤٠٤٦ ١٠٠ ٢٠+

الجزء الثالث

القاهرة ٢٠١٥

رقم الإيداع:

٢٠١٥ / ١١٠١٢

الترقيم الدولي

٩٧٨ / ٩٧٧ / ٢٩٠ / ٤٨٩ / ١

دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ج.م.ع.

فتحي الضَو

نون والألم

المحظور والمنشور في الشأن السوداني..

الجزء الثالث

إهْدَاء..

إلى الذين دفعوا أرواحهم فداءً لهذا الوطن الصابر أهله..
لا بُدَّ مِنَ الدِّيمُقرَاطِيَّة وإن طَالَ السَّفر!

مقدّمة الجُزأين.. الأوّل والثاني

أما آن لهذا الليل الطويل من آخر؟! عندما شَرَعتُ في كتابة هذه المقدَّمة قفز إلى ذهني مباشرة هذا السؤال، أو التساؤل الحائر. مع التأكيد إنه لم ينتُج عن ضيقٍ ولا يُعبِّر عن إبهام، ولا يُجسِّد حالة من حالات التيئيس التي دأبت العُصبة ذوي البأس على نشرها بشتى السُبُل، وفي مقدِّمتها الإعلام، ذلك السِّلاح الذي سَخَّرَتْ له الملايين من إمكانيَّات الدولة.

في واقع الأمر، هو سؤالٌ تقريري، كلنا نعرف الإجابة عليه، بما في ذلك الذين تسلَّطوا على رقاب الشَّعب السُّوداني لأكثر من عَقدين من الزمن. نقولُ ذلك بثقةٍ شديدة، لأنهم يعلمون قبل أن نعلم، إنهم يحكُمون بالخِداع والكَذِب والأباطيل، والاستغلال البشع لسماحة الدِّين الإسلامي. غير أنَّ المُهم في الأمر، أنهم توصَّلوا إلى قناعة بأنَّ ذلك طريقٌ قصير، حتى لو طالت سنينه، ولعلَّهم اقتنعوا أيضاً باستحالة إعادة صياغة الإنسان السُّوداني، بعد أن أعاد الشعب صياغتهم، حيث ارتدُّوا عن كلِّ الشعارات التي رفعوها، وآل المشروع برُمَّته في نهاية الأمر إلى بوار.

لسنا بصدد تفصيل كوارث وَضَعَت بصماتها بوضوح في الواقع السُّوداني، فتلك من المُسلَّمات التي ظلَّ الشعب الصَّابر على المكاره يُعايشُها، بل عبَّر عن تمرُّده عليها بوسائل عديدة، أدناها الصَّمتُ، وإن كان أضعف الإيمان، والذي لا يعني الخنوع ولا الانكسار، ولا الخضوع للأمر الواقع، بقدر ما أنَّ التجارب أثبتت أن صبر الشَّعب السُّوداني على قهر الأنظمة الديكتاتوريَّة يندرج تحت باب "الإمهال" وليس "الإهمال"، ولنا في انتفاضتين مشهودتين في عامي ١٩٦٤ و١٩٨٥ أسوة حَسَنَة. تلكما هُما "الرَّبيع السُّوداني" اللذين سبقا "الرَّبيع العربي" الماثل الآن في زماننا هذا، بعد أن اكتسح بعض الأنظمة الديكتاتوريَّة.

من جهة أخرى، لا نود تقليب المواجع في الأدوار السالبة لبعض النُخبُ السياسيَّة، فذلك أمرٌ تناولناه بتشريح موضوعي في سياق مادة هذا الكتاب. ولكن يكفي في الحدِّ الأدنى الإشارة إلى أنَّ ضعف القوى السياسيَّة الوطنيَّة والديمقراطيَّة يُعَدُّ سبباً رئيسياً في بقاء هذا النظام القمعي، وتطاوُل سنواته. هذا إذا لم نشأ التحليق في سماءٍ أرحب، تضع الأزمة بكاملها في طبيعة وخصائص الشخصيَّة السُّودانيَّة، الأمر الذي يتطلب منا إعادة قراءتها – وليس صياغتها –

وفق ظروف العصر الذي نعيشه بمتغيِّراته الهائلة، حتى نستطيع مواكبة الدول والخروج من دائرة الفشل.

إن المحنة التي أدخلت العُصبة ذوي البأس الشَّعب السُّوداني فيها لعميقة. ولا يُعتَقدُ بأنها يمكن أن تزول بزوال النظام. لكن ذلك لا ينبغي أن يُقلق الحادبين على مستقبل الوطن، ذلك أن الديكتاتوريات برغم اجتهادها الشديد في وضع بصماتها على الشعوب، فإن التجارب أثبتت أنها سُرعان ما تزول بزوالها. نقولُ ذلك ليس لأن التفاؤل أمرٌ مطلوب، ولكن لأنه الواقع الذي تخشى الأنظمة القمعيَّة مواجهته من باب أنه السلاح الخفي الذي يعمل على تفتيت عضدها وارتخاء قبضتها. من هذا المنطلق، نحن نؤمن بأن مستقبلاً زاهراً ينتظر الشَّعب السُّوداني الصابر، على الرغم من مرارة الواقع الحالي بكُلِّ موبقاته التي تدعو إلى اليأس والخنوع.

إن مادة هذا الكتاب تقدِّم نفسها بنفسها، لذلك تجنَّبنا الحديث عمَّا تناولته من موضوعات شتى في القضايا السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة والفكريَّة، ذلك ما سيلمسه القارئ ببساطة. وفي واقع هذا الأمر، فقد قُدِّر له ذلك من خلال ما نُشِرَ، وأيضاً من خلال ما حُصِرَ. فهذه الأخيرة هي سلاح العاجزين في ظلِّ تقنية باتت تطرق الأبواب دون استئذان.

عوداً على بدءٍ، ففي محاولة للخروج من النفق المظلم، والذي وضع النظام فيه نفسه، ومن باب الإيحاء بالظهور بمظهرٍ مختلف، بات أهل النظام يتحدَّثون عمَّا أسموه "الجمهوريَّة الثانية"، وتمهيداً لتسويق هذه الفكرة البائسة، ابتدعوا ما سُمِّي بـ"هامش الحُريَّات" لدسِّ السُمِّ في الدَّسم. لكن على الرغم من محدوديَّته يمكن القول أنه كان حافزاً لبعض الكُتاب والصَّحفيين على استغلاله بكتاباتٍ راتبة ومتواترة، هدفت إلى تعرية دولة الفساد والاستبداد، حتى صَعُبَ على الحيَّة أن تغيِّر جلدها، الأمر الذي أجبر العُصبة الحاكمة العودة إلى سيرتها الأولى، حظراً لما يُكتب، وإيقافاً للصُحُف نفسها، وتشريداً للعاملين فيها.

بيد أنه تكفي الإشارة في هذا الحيِّز إلى الأقلام التي باعت نفسها للشيطان، ومن المُؤكَّد أنه سيأتي اليوم الذي تُبسَطُ فيه الموازين، وتُنشَرُ فيه المخازي، بالرغم من أن ذلك لن يحرِّك شعرة في رأس من دأبوا على خدمة الديكتاتوريَّات، ونذروا أنفسهم لصناعتها على مدى السنوات التي قضتها العُصبة ذوي البأس في السُّلطة.

بما أن الشيء بالشيء يُذكر، لم يكن متاحاً لنا المشاركة في توصيل آرائنا ووجهات نظرنا للمواطن الذي يقبعُ تحت قبضة النظام داخل القطر، ذلك على عكس ما دأبنا عليه في المنابر الإعلاميَّة الخارجيَّة الكثيرة، والتي نجحت إلى حدٍ ما في تغطية ذلك النقص. لكن تغيَّر هذا المشهد بعض الشيء بعد اتصالٍ محمود من الزميل الأستاذ عادل ألباز، طارحاً رغبته في مشاركتنا له بالكتابة في صحيفة

جديدة أطلق عليها اسم "الأحداث" في سبتمبر ٢٠٠٧، ومع قناعة منطقه، قبلنا ما عزفنا عنه سنين عددا، وشاركنا بمقالٍ أسبوعي راتب.

لكنَّ ذلك لم يكُن ليُسعِد النعُصبة ذوي البأس التي جَنَحَت إلى سلاح القهر بالعمل على منع المقال من النشر في كثير من الأحايين، غير عابئة بأن ذلك يُعد من شيمة المتخلفين عن ركب تكنولوجيا العصر، فعمِلنا جاهدين على استثمار ما هو متاحٌ للتعبير عن وجهات نظرنا في القضايا السُّودانيَّة المختلفة، وامتدَّ ذلك طوال سنواتٍ ثلاث، توقفنا بعدها عندما ضاقت صُدور الرَّاصدين بما نكتب، ونحن نستشعر الانتصار على الجلاَّد وهو في أسوأ حالات ضعفه.

بعدئذٍ عنَّ لنا، مواصلة للرسالة التي تواصينا على حملها، أن نحصر ما كتبنا في هذا الكتاب من باب التوثيق، كمساهمةٍ متواضعة في المعركة التي يخوضها الشعب السُّوداني ضد العُصبة الحاكمة.

يحتوي هذا الكتاب على المقالات التي نُشِرَت، إلى جانب تلك التي حُظِرَت، واستلزم ذلك حصرهم في جزأين. وشئنا وضعها كما هي وفقاً للترتيب التاريخي، وإن اقتضى التبويب الخروج عن ذلك في حالاتٍ قليلة.

في الختام، لا بُدَّ من الإشارة إلى دور القُرَّاء، ونُحني هامتنا لهم احتراماً وتبجيلاً، ونخُصُّ بالذكر الذين لم يبخلوا بملاحظاتهم، نقداً وتقريظاً، سواءً بالكتابة مباشرة على بريدنا الإليكتروني، أو الذين عبَّروا عن ذلك في المواقع الإعلاميَّة المختلفة، مِمَّا كان له أعظم الأثر في المُوازرة والسند، توخياً لاستمراريَّة الرسالة.

سواءٌ هذا أو ذاك، صفوة القول، فقد تأكَّد بل ترسَّخ في أذهاننا مدى تفاعُل السُّودانيون بقضايا وطنهم وتوقهم إلى حياة حرَّة كريمة، وتطلعهم لوطنٍ شامخ، يتباهون به بين الأمم. وممَّا يُحزن النفس في هذا الصَّدَد، تبعثُرهم في المنافي والمهاجر وديار الاغتراب، بل من نكد الدُّنيا على من ظلَّ منهم داخل أسوار الوطن، إنهم لا يعلمون بصورة علميَّة حضاريَّة كم بقي منهم على قيد الحياة، وكم عدد الذين غادروها، وكم عدد الذين هاجروا، سواءٌ داخل وطنهم أو خارجه، ناهيك عن فئاتهم العُمْريَّة وكل ما يتصل بتفاصيل حياتهم، وهُمومهم وتطلعاتهم وطموحاتهم، لكأنما الإنسان خُلق في السُّودان لقضاء رحلة مُرهِقة من المهد إلى اللحد.

إن اختلاف الرأي لا يُفسِدُ للوُدِّ قضية.. ذلك ديدننا ولو كره المكابرون!

فتحي

يناير ٢٠١٢م

مُقدّمة الجُزء الثالث

بيد يديك – عزيزي القارئ – الجزء الثالث من هذه السلسلة التي هدفنا من ورائها إلى التوثيق. وهو هاجسنا الدائم وفق ما يعلم القرَّاء، إذ أن ما وُصمنا به – وهو بالطبع واقع – من ذاكرة مثقوبة، جعلت الأحداث تتساقط من خلالها كما الغربال. ثم تعيد نفسها بصورة سمجة ومملة ومستفزة لا تمت بالطبع لأي سلوكٍ حضاري يرتئيه الناس في تقدم بلدانهم ازدهارها واستقلالها.

تراكمت سنوات نظام العُصبة الحاكمة في الخُرطوم، وتراكمت جرَّائه مشاكل السُّودان السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة. وبالرَّغم من أن هذه المقالات التي يحتويها الكتاب تغوص في تلافيف هذه القضايا المُختلفة، إلا أنَّ الأزمة في تقديرنا تضخَّمت بأكثر مِمَّا تصوَّر المُراقبون والمُتابعون بحيث صارت في مُبتداها ومُنتهاها أزمة أخلاقيَّة، ستترُك جُرحاً غائراً في جسد المُجتمع السُّوداني، ويحتاج تعافيها لسنين عددا، حتى بعد رحيل النظام.

إن الشفافيَّة والصراحة تحرِّضاننا على القول إن بقاء السُّودان نفسه ككيان جُغرافي وديمُغرافي رهينٌ بقُدرة الحادبين عليه من أبناء الوطن لكي ينتشلوه من تلك الهُوَّة العميقة والخروج به سليماً إلى آفاقٍ جديدة.

بَيْدَ أن القارئ سيلتمس من خلال قراءة هذه المقالات أن المؤلف لم يُسقط راية التفاؤل التي جُبل عليها في كتاباته على مدى سنوات القحط والجفاف التشاؤم، على الرغم من التيئيس الممنهج الذي برع فيه النظام وسدنته.

مع كل ذلك نقول بوضوع لا لبس فيه، أن أي حلول تهدف إلى إنهاء الأزمة السودانية، وتغفل المحاسبة الصارمة على كل الجرائم التي ارتكبها هذا النظام، ستصبح مجرد حلول لإعادة إنتاج الأزمة ومواصلة التنكب فيما سُمِّي بصراع الدائرة الشرِّيرة المعروفة.

من منطلق ذات التفاؤل، الذي رفعنا رايته، يمكن القول أن أزمة النظام قد بلغت مداها، إذ تشير كل التقديرات إنه يعيش حالة "الموت الإكلينيكي"، وأن جرابه قد فرغ تماماً من كلِّ الطرائق والأحابيل التي أتبعها للبقاء على سُدَّة السُّلطة، ولعلَّ آخرها ما سُمِّي بـ"حوار الوثبة" لتمديد أمد بقائه.

حريٌّ بنا القول إن الخلاف بين الجزأين الأول والثاني من جهة، وهذا الجزء من جهة أخرى، هو أن مقالات الأخير لم تُنشر داخل السودان للأسباب المعروفة، في حين أن الأولين نشرت بعض مقالاتهما داخل السودان، وحُظر بعضها الآخر في ظل ما سُمِّي بـ"هامش الحريات" الذي أوجدته اتفاقية نيفاشا أثناء الفترة الانتقالية.

لن نخوض فيما استجد من أمور، وذلك مما أولته المقالات بعض حقه، وبالذات التطورات التي حدثت في أروقة القوى المعارضة السياسية والعسكرية، بعد "إعلان باريس" و"نداء السودان".

نأمل أن يجد القارئ ما يروي ظمأه...

فتحي

شيكاغو - مطلع ٢٠١٥

تُصبِحُون على ثورة.. تُمسُون على وُطن!*

في السنوات الكالحات، وعلى مدى أكثر من رُبع قرنٍ أو يزيد، كانت الأزمة أكبر مِمَّا نتصوَّر، اتسعت المحنة حتى ضاقت العبارة.. ضنكٌ في العيش، وفسادٌ في الذمم، وتدهوُر في الأخلاق، وبلدٌ انقسم ثلثه إلا قليلاً، وشعبٌ أصبح هائماً في الخارج وحائراً في الداخل. وبين هذا وذاك.. ونحن في غمرة لهاثنا المستمر في مناهضة نظام العُصبة ذوي البأس، تسمو أحزاننا حيناً حتى تبلغ عنان السماء، ثمّ تخفُت حيناً آخر، لتنتظر حُزناً جديداً يخرج من بطون التاريخ.

في تلك السنوات الكالحات، رَحَلَ عنَّا أعزاء من قبل أن يشهدوا اليوم الذي خططوا من أجله طويلاً وتمنوه كثيراً.. لكن أرواحهم ما زالت تحلق فوقنا كلما اجتمعنا في محفلٍ للتفاكُر والحوار حول قضايا الوطن وهمومه التي تكاثرت..

ليس حصراً، وذواكركم حاضرة، ما زالت قبورهم طريَّة ونديَّة، رغم تقادُم السنين! تذكرون...

رَحَلَ عنَّا في السنوات العجاف عبدالعزيز العميري، قبل أن يُكمل أنشودة الحُب والحياة والحريَّة..

رَحَلَ عنّا علي عبدالقيوم في هيبة وجلال الشعراء، وهو يردّد وما زال يوصينا:

أي المشارق لم نُغازل شمسها
ونميط عن زيف الغموض خِمارها
أي المشانق لم نُزلزل بالثبات وقارها
أي الأناشيد السماويات
لم نشدد لأعراس الجديد بشاشةً أوتارها..

رَحَلَ عنَّا مصطفى سيد أحمد، وهو يحمل بيمينه حُزنه الدفين ويهش به على الفقراء والمساكين والكادحين:

والله نحن مع الطيور..
الما بتعرف ليها خرطه
ولا في إيدها جواز سفر..

رَحَلَ عنّا الذين اغتالتهم الأيدي الآثمة في "بيوت الأشباح" والجامعات والطرقات: التاية أبوعاقلة.. محمد عبدالسلام.. علي فضل.. عبدالمنعم سليمان.. علي الماحي السَّخي.. وتطول القائمة حتى تصل علي موسى..

رَحَلَ عنَّا شباب غض، كانوا من البراءة بمكان، وصمُوهم بتهمة أصبحت دين العُصبة فيما بعد، وكعبتُهُم التي يطوفون حولها.. مجدي محجوب محمد أحمد.. بطرس القس يُسطس.. وأركانجلو داقاو..

رَحَلَ عنّا محمَّد عثمان وردي شامخاً كالطود الأشم، وما تزال في آذاننا بقايا لحنه الذي أصبح تعويذتنا في معارك الحريَّة والكرامة..

إنني أؤمن بالشعب حبيبي وأبي
وبأبناء بلادي الشرفاء
الذين اقتحموا النار
وكانوا بيد الشعب مشاعل
وبأبناء بلادي البسطاء
الذين انتفضوا في ساحة المجد.. فزدنا عددا
وبأبناء بلادي الشهداء
الذين احتقروا الموت وعاشوا أبدا
ولأبناء بلادي سأغني
للمتاريس التي شيَّدها الشعب نضالاً وصمودا
ولأكتوبر مصنوعاً من الدم شهيدا فشهيدا
وله لما رفعناه أمام النار
درعا ونشيدا

رحَل عنّا شهداء بورتسودان، كما ترحل النوارس نحو مرافىء بعيدة في غياهب البحر الأحمر..

رحل عنّا شهداء كجبار، كالنسمة في هجير صيف الشمال الحارق، وفي قبضتهم صاع من تراب وصاع من تمر وصاع من ألم..

رحَل عنّا شهداءُ أشاوس، فيما اسميناه في حقبة نضالية بـ"الجبهة الشرقيّة" وما أكثر جبهاتنا، ولم نلق عليهم نظرة الوداع الأخيرة، أو نُشيّعهم كما يُشيَّع الأبطال العُظماء في مسيرة الأمم والشعوب..

رحَلَ عنّا أكثر من مائة يافع في معسكر العيلفون، هربوا من الموت إلى الموت.. لم تثكلهم أمهاتٌ تحجّر الدمع في عيونهن وتيبّس الحُزن في أفئدتهن..

رحلت عنّا سارة الفاضل محمود، سيّدة تعطرت بمِسكِ النضال ضد أنظمة السوء، ذاقت مرارة السجون، وختمت حياتها بعد ساعة واحدة فقطْ من اجتماع لمناقشة قضيّة السلام في بلد عزّ فيه السلام!

رَحَلَ عنَّا أحمد عبدالمُكرَّم ووديع خوجلي وزين العابدين أحمد محمد وبشار الكُتبي وسامي سالم.. متوسِّدين جراحهم وحلم نون والألم..

رَحَلت عنَّا عوضيَّة عجبنا، جاءها الموت في عقر دارها، قتلوها ومشوا في جنازتها كما يمشي اللئام في جنائز الكرام..

رَحَلَ عنَّا الحاج مضوِّي محمَّد أحمد، مناضلاً عتيداً ضد الاستعمار البغيض، ومنافحاً جسوراً ضد الأنظمة الديكتاتوريَّة والشموليَّة، صال وجال وهو يُبشِّر بالديمقراطيَّة ولم ييأس رغم تطاوُل السفر، بل لم يسكُت إلاَّ بعد أن وضع عصا ترحاله على قبرٍ تخُفَّه مائة من السنين ويزيد..

رَحَلَ عنَّا عمر نورالدائم، فقيراً مثلما جاء للدنيا فقيراً، وللمُفارقة.. كان وزيراً لمالية أهل السُّودان..

رَحَلَ عنَّا خليل إبراهيم مغدوراً وواقفاً كما تموت الأشجار، وكان مناضلاً شرساً وعنيداً، شاء صعود الجبال وأبى العيش بين الحفر..

رَحَلَ عنَّا رجلاً أفنى عمره في النضال حتى تضاءل النضال خجلاً.. رَحَلَ عنَّا التيجاني الطيِّب بابكر.. آخر الأنبياء السياسيين..

رَحَلَ عنَّا محمَّد الحسن حميد، وترك لنا ما لن نضل بعده أبداً في مضمار الوطن والوطنية..

أركز.. أركز.. أركز
لا تجيب رخوة
يا مُتلبد في الأدران
الحجر الأسود ما هو البروة
وماها مكاوي الكعبة تجيها
حين يتكرفس توب التقوى
وما في خُرط للجنة تودي
وما في طريق مفروش بي رشوة
والمشروع الديني الخالص
ما محتاج لدراسة جدوى
يا من قال الله من قلبو
ردَّ الخالق دائماً أيوه

رَحَلَ عنَّا الشريف محجوب، وهو يرفع راية البشارة حتى آخر رمق من حياته.. مثلما كان عصياً على أنظمة "السَّجم والرَّماد"، صار عصي على دمعٍ شيمته القطر!

رَحَلَ عنَّا في دارفور.. هل أقول مائة ألف، هل أقول مائتي ألف، هل أقول ثلاثمائة ألف؟! ما أرخص الإنسان في بلادي.. هؤلاء تضاءلوا وتضاءلوا

وتضاءلوا، حتى أصبحوا كما قال صلاح أحمد إبراهيم: «**حزمة جرجير يُعد كي يُباع**»، لذلك لم يجد الرئيس "الضرورة" حرجاً أو وازعاً، حينما قال إنهم عشرة الاف شخص.. هَبْ يا من استرخص الإنسان الذي كرَّمه ربه، أنهم عشر آلاف ضحيَّة، أو ألف، أو حتى واحد صحيح، ألا يقبل ذلك القسمة على أمل والضرب على ألم والجمع على وطن؟! قُل لنا أيها المكتنز سُلطة ستُكوى بها جباهَكُم يوم ترى الناس سُكارى وما هم بسُكارى.. هل ذلك يستدعي الرقص على أشلائهم كلما صعدت منبراً وضُربت لك الدفوف؟!

رَحَل عنا آنساتي وسادتي، جون قرنق دي مابيور في لحظة شهق فيها التاريخ السُوداني شهقة الموت، وقلَّ أفٍ للحياة.. رحلَ رجُلٌ استثنائي في ليلة افتقد فيها الوطن ليله وبدره ودُجاه، وترك خلفه حلم "السُودان الجديد" معلقاً بين السماء والأرض!

بل رَحل عنَّا سنبلة الجنوب الحبيب كله، وبكينا مُلكاً مُضاعاً لوطنٍ رَحَلَ ثلثه بلا سميع أو مجيب، وضحاياه بعدد الحصى والرمل والتراب.. لم نُقِم لهم مأتماً ولا نصبنا لهم سُرادقاً، ولا أقمنا لهم عُرس شهيد!

رَحَلَ عنَّا بل يرحل كل يوم، زغب الحواصل، في جنوب كُردُفان وجنوب النيل الأزرق، إذا نجوا من قذائف "الأنتينوف"، كانت المجاعة لهم بالمرصاد.

في مثل هذه الأيام من العام الماضي رَحَل عنّا أكثر من مائتي شهيد تقدّمتهم سارة عبدالباقي وهُزاع عزالدين وصلاح السنهوري، وقُبورهم لم يجف ماؤها بعد، وما زالت أرواحهم تهفو لثأرها..

هكذا يرحل الأخيار في بلادنا، وما تزال العُصبة ذوي البأس تجثم على صدورنا.. مرّ رُبع قرن وما يزالون عطشى للسُلطة.. لم يرتووا وقد مصَّوا ضرعها حتى جفَّ، وما زالوا يعوثون فيها فساداً.. ما فتئوا يقتلون أبناءنا ويغتصبون بناتنا في الطرقات.. وما انفكوا يُذِلون طلابنا ويسومون طالباتنا سوء العذاب في المدارس والجامعات، وبالأمس رأيتم ما فعلوه في حرائر طردن من داخلية "البركس" وهِمْن على وُجوهِهِنَ في بلدٍ نردِّد في تُراثه ونحن نغني عن "أخو البنات" و"مقنع الكاشفات"!

الفقر – يا كرام – ينهش عظام بسطاء أهل السُودان وهُم يموتون من التُخمة. كلكم تعلمون كيف مضى العيد قبل أيام كما أعياد أبو الطيّب المُتنبي، ولم يأتِ بجديد.

الأمراض تفتك بالشجر والحجر والبشر، صغارهم وكبارهم.. أما هُم فكما تعلمون يجوبون الدنيا لمجرّد صُداع ألمَّ بهم، أو لإجراء فحوصٍ طبيَّة من قبل أن تداهمهم أمراض من حيث لم يحتسبوا.. مُؤسَّسات التعليم أصبحت فارغة كجوف أم موسى، وهُم يُرسلون أبناءهم إلى بقاع الدُنيا المختلفة، دون حياء أو وازع

أخلاقي.. الأحوال المعيشيَّة والأخلاق في سباق مع البؤس والتردِّي والانحطاط.. يلهون بالدِّين ويعبثون به، كما يعبث الأطفال بدُمِيِّهم.. يُقبلون على الدُّنيا بكُلِّ ما فيها من ملذات، ويحُثون الناس على أن يُدبرُوا عنها نحو الآخرة غير مأسوف عليهم.. يغُضُّون البصر عن الظلم، ويُطبِّقون العدل على سائر بقاع السُّودان بإشعال الحروب بقدر سواء.. بفضلهم أصبح المواطن السُّوداني مشروعاً للإرهاب والتطرُّف والتخلف، إذا استبقى نفسه داخل أسوار الوطن مات كما تموت الضأن في الفلوات، وإذا خرج طأطأ رأسه في بوَّابات المطارات خشية أن يُتهم بما ليس فيه..

الناس في بلادي أصبحوا في حيرة من أمرهم.. ماذا هُم فاعلون؟! إذا صبروا أهُينوا، وإذا أهُينوا اعتُقِلوا، وإذا اعتُقِلوا ضُربوا، وإذا ضُربوا عُذبوا، وإذا عُذبوا ماتوا كمداً وحسرة..

من أجل هذا لسنا في حاجة للقول، إن الإطاحة بهذا النظام الفاسد المُفسِد هي فرضُ عَيْن، على كل سودانيّة قبل أن تخضِّب يديها بالحناء، وعلى كل سوداني وإن كان في المهد صبياً..

من هذا المنطلق يمكن للمرء أن يقول إن ندوات الخارج، تُصبحُ غير ذات جدوى، إن لم تخرُج بما يُعين الناس في حتميَّة الإطاحة بهذا النظام القميىء.. ليس مطلوباً منها أن تسقطه بالبيانات والتمنيات الطيّبة والأحاديث الجاذبة، وليس مطلوباً منها أن تسقطه بأيدٍ غير سواعدنا السمراء، ولكن المطلوب منا أن نتواصى ونهتدي لخارطة طريق تستلهم نضالات شعبنا العظيم، وتحثنا على وقف محنته وإهانته، وتدلنا على بوَّابة النصر المُؤزر بحول الله ومواطنيه.. ونحن نعيش زخم ثورة أكتوبر العظيمة، مقبلين على ذكراها بأمل أن تأتي بالجديد المنتظر..

لله درَّكمُ وأنتم تصبحون على أمل.. وتُمسون على ألم!

تُمسُون على ثورة... تُصبِحُون على وَطن!

ولا بُدَّ من الدِّيمُقرَاطِيّة وإن طَالَ السَّفر!!

*** هذه الكلمة لازمَة ضروريّة دأبت على إلقائها في مُقدّمة ندواتي كأبسط ما تكون الذكرى والوفاء لمن رحلوا عن عالمنا من قبل أن يروا حُلمهم يتحقق!**

العُصبَة ذوِي البَأس وسيناريُوهَات الرَّحيل القَادِم!

كان ذلك في منتصف شهر يوليو من العام الماضي، وكذلك في منتصف نهار يوم قائظٍ لا ظِلَّ فيه إلاّ ظِلُّ الحقيقة. أما المكان، فكان شارع "المك نمر"، الذي اكتظَّ بسيارات مختلف أشكالها وألوانها، تزحف زحفاً وئيداً تارة، وتقف كحمار الشيخ في العقبة تارة أخرى.. وكلما أكثرت من التوقف؛ زاد تأفُّف سائقيها ومَن في معيَّتهم، وتناثرت لعناتهم المجهولة وهُم يُحدِّقون في اللاشيء. ثمَّة قوم آخرون يتحرَّكون في تكاسُلٍ واضح جرَّاء الشمس التي ألهبت رُؤوسهم، ويحاولون درئها بما ملكت أيديهم.. شيبٌ وشبابٌ بأعمار متفاوتة، يتحرَّكون كالأشباح بين السيَّارات، بعضهم يُنادي بصوتٍ مبحوح على بضاعة كاسدة يعرضها بإلحاح شديد على المشترين، ترغيباً وترهيباً.. ذاك رجُلٌ في منتصف عمره يحمل "ثوماً" مغلفاً في أكياس بلاستيكيَّة، يقول بلحنٍ مشروخ إنها تسُر الناظرين، وإنه وارد إيران! وبالطبع هو لا يعلم الأسباب التي دفعت بهذا الثوم إلى أرض معركة في غير معترك.. وهذا بدأت سيماء الشيخوخة تشق أخاديدها العميقة في وجهه المُرهق، لكنه يبدو غير مبالٍ بها بأكثر من مبالاته بـ"حفاظات أطفال" يعرضها للبيع وقد نالت من وقاره غَصبَاً.. وذاك صبيٌ رغم ثقل ما يحمل من "سجاد صيني" على كتفيه، إلاَّ أن عُمْرَهُ الغض ساعده على الركض برشاقة بين السيارات المُتراصَّة.. قد تعجَبَ هُنيهةً لِمَ هو في عجلةٍ من أمره، كأنه يود التخلص من بضاعته بثمن بخس.. يا إلهي سوق ضَلَّ طريقه إلى الشارع، وسلع مختلفة ومتناقضة كسحنات أهل السُّودان أنفسهم!

أما أنا، فقد شاء قدري أن أكون واحداً من حاضري ذلك المشهد الشكسبيري، حشرتُ نفسي في سيارة تُذكِّرك بالقبر وعذابه من فرط صغرها.. ومن شدَّة الشمس التي ترسل شواظها مدداً، باغتتني فكرة أن أحملها على ظهري وأشق بها عباب السيارات ركضاً.. لكنني استسلمتُ وطردتُ الفكرة المستحيلة من رأسي.. إذاً ما الذي يمكن أن يفعله المرء بأكثر من الصبر؟! هكذا شغلت نفسي بأسئلة فلسفيَّة في محاولة للهروب العقيم.. يا ترى، هل اختصَّ المولى سبحانه وتعالى أهل السُّودان وحدهم بالصبر على المكاره؟! أم أن في هذا الكون قومٌ مثلنا ابتلاهم الله بحُكَّام يصنعون المحنة ويطالبون شعوبهم بالصبر عليها؟! لكن لماذا يمضغ الناس في بلادي الصبر كما يمضغ السائل والمحروم فقره؟!

يقولون لك كلما ضاقت واستحكمت حلقاتها، "الصبر مفتاح الفرج".. يُظلمُون نهاراً جهاراً في حُقوقهم فتخرُج عليهم أشباح من الأنس لتحدِّثهم حديثاً عجباً.. يسألونهم عن المُفاضلة بين خسارة الدنيا وخسارة الآخرة؟! إذا قرأوا الصُحُف الصفراء، طالعوا آكلي السُحت يصفون للناس كيفيَّة خلط الصبر والصفرجل وحبة البركة وزيت الخروع لتتبوّأ بهم مكاناً عليّاً بين الأمم.. وإذا شاهدوا التلفزيون، تجمّدت أوصالهم من كثرة ما أصابها من وابل الصبر وشئونه، وإذا سمعوا مذياعاً، فلن تخطيء آذانهم عُلماء السُوء يُذكِّرونهم بالصبر وشُجُونه!

في خِضمِ تلك الخواطر اللولبيّة، رأيته من بين الذين يتقافزون بين السيارات.. شابٌ نحيل تكاد تشفق عليه من فرط هزاله، يحمل في يديه بضع زجاجات مياه معدنية.. لوحتُ له بيدي، فتوجَّه نحوي مستبشراً، وعندما اقترب مني أكثر، تفرّستُ في ملامحه.. عينان غائرتان لا يدري المرء هل هُما هكذا من جرّاء الشمس اللاهبة، أم بسبب فقر موروث؟! طلبت منه زجاجة ماء وسألته عن اسمه وأنا لا أدري لماذا؟! قال لي بطريقة آليّة توحي بأنه سئم السؤال ذاته من كثرة تكراره: عبدالرحمن يا أخي، وأردف ظناً منه أنني لم أسمعه.. عبدالرحمن يا أستاذ.. قلت له: نِعْم الاسم يا عبدالرحمن، وزدتُ مثله بلزوم ما لا يلزم.. كلنا عبيدٌ للرحمن، ولكننا لسنا عبيد للحُكّام يا عبدالرحمن، ولا مش كده؟! باغتني كأنه كان ينتظر شيئاً يُفرّغ فيه شحنة الشمس الحارقة، وقال: والله صَدَقت يا حاج!

بدا أن عبدالرحمن استهواه حديثي، فطفق يُحدِّثني عن أشياءٍ بدت له وساءته. قال بشيءٍ من الأسى إنه خريج اقتصاد جامعة الخرطوم، وأعقب بسرعة كأنه يود أن يبدد دهشة رسمت معالمها على وجهي، وقال متهكماً: ما فيش حاجة غريبة في البلد دي يا أستاذ.. فانا أطبّق عملياً الاقتصاد الذي درسته نظرياً.. ثمّ واصل دون أن ينتظر مني تعليقاً، وأضاف بأنه: فعل المستحيل وطرق جميع الأبواب بحثاً عن وظيفة، وبعد ثلاث سنوات من البحث المُضني لم يكن ثمّة مناصٍ من أن يلجأ للشارع بحثا عن لقيماتٍ يسُدّ بها رمق أسرة أحاط بها الفقر كما السوار بالمعصم، هو عائلها الوحيد، وفيها الأب الضرير، والأخ الصغير، والأخت الغرير، والأم التي أقعدها المرض.. قطع عليَّ عبدالرحمن الصَمت الذي ران بيننا، وقال كأنه استمرأ غلياناً بات يمور في صدري ولا يستطيع المرء منه فكاكاً.. طبعاً أنا أعلم بأنك لن تصدِّقني، فقلتُ له: ما الذي دعاك لتعتقد ذلك وأنا لم أقل لك شيئاً؟! قال: نظراتك.. هذا ما لا أستطيع المجادلة فيه، لكن الحقيقة أنه كان مخطئاً، فقد صدَّقته بمنطق أن صِدقه أو كذبه لن يضيراني شيئاً.. دسَّ عبدالرحمن يده في جيبه وأخرج ورقة أنهكتها الأيادي من كثرة ما تبادلتها فيما يبدو، كانت تلك شهادته الجامعيَّة، أما أنا، فلم أجد غير شهادة لا إله إلا الله أقدِّمها له ترياقاً لمحنته!

تركني عبدالرحمن غارقاً في بحر من التفكير العميق، ومضى كطفلٍ تاه من والديه في غمرة زحام.. لا أدري بعدها كيف تحرَّكت أرتال السيارات؟! وكيف انفضَّ سامر ذلك الزحام؟! وهل الشمس ما زالت ترسل شواظاً من لهب؟! بل كيف وجدت الدار بعد توهُّمٍ؟! ومثلما تمضي سائر الأشياء في البلد الحزين، مضت الأيام بعضها يأخذ بمعاناة بعض، لكن صورة عبدالرحمن ظلت راسخة في ذهني لا تبارحه البتة.. وبالرغم من أن حتمية رحيل العُصبة ظلَّ راسخاً في نفسي زهاء أكثر من عقدين، إلا إنني أصدُقُكم القول إنني توسَّمت في عبدالرحمن بشارة ثورة الرَّحيل.. قلتُ لنفسي إنه من اختصر سفر الخروج من الجحيم بعد أن قرأ علينا نصاً بهياً، حطَّ فيه النقاط على الحروف وأعرب جملة كانت تبحث عن تصريف لسنين عددا.. إن قلتُم إنه "بوعزيزي" الثورة السُّودانيَّة، صدقتُم، وإن قلتُم إنه "خالد سعيد" الثورة القادمة، صدقتم.. أما وأن قلتم إنه "أحمد القرشي طه" فتكونوا قد صدقتُم مرَّتين!

كلنا يعلم أن الثورات لا تأتي بغتة، ودروس التاريخ وعبره تقول لنا إن الثورات حتى التي كانت بالأمس القريب، هي عبارة عن تراكُماتٍ، يمتزج فيها الاستبداد السياسي بالفساد الاقتصادي بالغُبنُ الاجتماعي، والواقع أن العُصبة الحاكمة لم تترك سطراً شاغراً في هذه المسلمات إلا وملأته بممارستها النازيَّة والتي أوصلت الأمور إلى عُنُق الزجاجة.. ولأن المريب يكاد أن يقول خُذوني، فقد شاهدنا وراقبنا كلنا الهلع والجزع والخوف الذي سيطر على وجوههم مع بداية واستمرار سريان ما سُمِّي بـ"ثورات الربيع العربي"، عندئذٍ بدأت السُّلطة المغتصبة تتحسَّس مواقعها، وتتحدَّث عن الشباب كأنها اكتشفت وجودهم لتو.. ثمَّ بدأت الوعود الجوفاء تنهال من الأفواه المتضمضة بالأكاذيب.. ظهر من يحدِّثهم عن "خَلق" مليون وظيفة، وآخرٌ عن الدعم والرعاية التي يتولاها بالعناية صندوق تشغيل الخرّيجين، وثالثٌ عن الذهب الذي ذهب بعقولهم، بل لم يجد "الرئيس الضرورة" حرجاً في نفسه من أن يُقدِّم لهُم الوعود تلو الوعود، وهو الكاذب الأكبر!

جفَّت الأقلام ورُفِعَت الصُحُف.. لسنا بصدد الحديث عن أزماتٍ كتبنا وكتب عنها آخرون حتى كلَّ متنهم.. الآن بات كل شيء في العراء، فالسلام المزعوم اتَّضح أنه محض سراب بُقيْعَة حسبه الإنقاذيون ماء، والخزينة التي شبَّهها سيِّء الذكر "نافع" بمحراب السيِّدة مريم وسؤال أبيها زكريا، أصبحت فارغة كجوف أم موسى، وموارد أهل السُّودان بدَّدها الفساد وذهب بريحها الاستبداد.. أفاقت السُّلطة الغاصبة من نشوتها الزائفة لتجد نفسها محاصرة بواقع اقتصادي أليم، بيد أن الحقيقة الماثلة أمامنا تؤكد أن الأمور قد وصلت خيار الصفر، وهو الخيار الذي يقول بوضوح إن الشروط الموضوعية للثورة السودانية القادمة أضحت قاب قوسين أو أدنى، ولم يعُد في "جراب الحاوي" ما يعينه على ممارسة خدع جديدة! بيد أننا في هذا المقال نود أن نضع بين أيديكم السيناريو الذي نعتقد حدوثه، والذي

يتدرَّج صعوداً حتى يصل إلى خلاصة اكتمال دائرة الخلاص، وصولاً للرَّحيل الوشيك، وهو سيناريو قد تزيد عليه أيها القارئ الكريم وقد تنقص، ولا أعتقد أن مراقباً حصيفاً يرى الأمور تتدحرج أمامه بهذه الصورة المأسوية ولا يعضِّد ما اجتهدنا في التنبُّوء به، بوقائع ما سيحدُث في الساعة الخامسة والعشرين!

- **أولاً:** ستقوم السُلطة الغاصبة بتحيُّن ظروف تُعلن فيها عن ما أسمته بـ"القرارات الاقتصادية الجديدة".. أي رفع الدعم عن المحروقات (لفائدة القارئ الكريم، يقول الاقتصاديون إن ٧٠% من تلك المحروقات يستخدمها النظام نفسه).. إذاً، فرفع الدعم هذا يعني أن الحكومة سترفع الدعم عن نفسها، شريطة أن يتحمَّل المواطن آثاره الكارثيَّة. ومن عجبٍ، أن السُلطة الغاصبة من شدَّة حيرتها، بدأت تبحث عن يوم ثامن في أيام الأسبوع السبعة، حتى تعلن قراراتها المُهلكة على الناس وهُم غافلون!

- **ثانياً:** بعد إعلان الإجراءات الاقتصاديَّة، ستعمل الآلة الدعائيَّة الإعلاميَّة (تلفزيون محمَّد حاتم ذو الميزانية التي تبلغ أربعة مليار جنيه في العام) بالإيحاء أن تلك إجراءات حتمتها الأزمة الاقتصاديَّة العالميَّة، علماً بأنها ذات الأزمة التي نفوا تأثيرها من قبل!

- **ثالثاً:** يُسخِّر النظام ذات الدعاية الإعلاميَّة بسدنته المبثوثين في الأجهزة المختلفة ليُروِّجوا لما وصفوه بالحكومة الرشيقة، والإيحاء بتخفيض ما أسموه بـ"شاغلي المناصب الدستوريَّة"، والذين قال عنهم وزير الماليَّة إنهم يبلغون ٨٢٨ فارس، مع أن هذا افتراء.. لكنه صَدَق عندما قال إن عددهم الكلي نحو ٩٠٠٠ منذ أن جثمت العُصبة على صدورنا.. هل يعلم القارئ الكريم أن من تقاعد من هؤلاء ما زال يتأبَّط امتيازاته، فضلاً عن أنه قد يكون قد زاد عليها بمخصَّصات وظيفة أخرى باطنيَّة. فما على الحادبين سوى استخدام الآلة الحاسبة لمعرفة ما يستهلكه هذا الجيش الجرّار من الخزينة العامَّة، وسيجد بلا انحياز أن الحل ليس في تخفيض الدستوريين، وإنما في ذهابهم إلى مزبلة التاريخ!

- **رابعا:** ستصدُر الأوامر للأجهزة الأمنيَّة والشُرطيَّة بالتساهُل ابتداءً في التعامُل مع المواطنين، بمنطق أن الضغط سيُولد الانفجار، ثمَّ مع ازدياد رقعة التذمُّر تالياً ستنكص السُلطة الغاصبة على عقبيها وتُصدر الأوامر بضرورة إحكام القبضة على خناق المواطنين ترهيبا وترعيبا، وهنا تبرُز الحكمة الأخرى في ثقافة الشعوب المُضهدة، والتي تقول: إن العُنف يُولِّد عُنفاً مضادا!

- **خامساً:** إزاء هذا السجال صعوداً وهبوطا، يكتشف بعض أفراد الأمن والشرطة إنهم يُوجِّهون أسلحتهم نحو أسرهم الممتدَّة بترابط أهل السُّودان، وفيهم الأخ والأخت والعم والعمَّة والخال والخالة.. إلخ، وسيُدركون أن

معاناتهم لا تنفصل عن معاناتهم، وطبقاً لذلك ستبدأ أعداد كبيرة تقفز من المركب الغارق، لبيقى فيه فقط أصحاب المشروع الوهمي، الذين يدركون أن بقاءهم أحياء في بقاء النظام!

- **سادساً:** تتسع دائرة المُعاناة بصورة غير مسبوقة في المجتمع السُّوداني.. انهيار العملة الوطنيَّة، إفلاس الخزينة العامَّة، غلاء فاحش، نُدرة شاملة في السلع الضروريَّة، طوابير في كُلِّ ما يستهلكه المرء، ربَّما طال ذلك الهواء الذي يتنفسه! في مقابل ذلك، يتجلى جشع الموالين في أبشع صوره، فإزاء الإحساس بالدولة المنهارة والزائلة، يزداد نهمهم لمزيد من الفساد وتهريب ما تبقى من أموال للخارج!

- **سابعاً:** تبدأ الأسئلة الكبيرة تظهر بوضوح حتى في أذهان المُحايدين، ويبدأ الناس الإنتقاد الحاد، حيث تأتي كل كبائر العُصبة دفعة واحدة، حتى تلك التي ظنوا أنها سقطت من الذاكرة الجَمعيَّة، ومع اتساع دائرة التذمُّر وبلوغ الروح الحلقوم بوصول الأمور إلى نقطة خيار الصفر، تتجاوز طرائق التعبير لدى الأفراد، لتأخذ منحىً جماعياً يسقط خيار "الميتة أم رَمَاداً شَحْ"، أي الميتة العاطلة كما تعبّر عنها الثقافة الشعبيّة السودانيَّة.

- **ثامناً:** ستبدو علامات الشقاق في أوساط العُصبة الحاكمة، وذلك بتحميل طرفٍ المسئولية طرفاً آخر، وتلوح في الأفق نُذُر مُفاصلة أشد وطئاً وأقوم قيلاً، تلك التي لن يتورَّع الخصماء فيها من استخدام كافة أسلحة الدمار الأخلاقي الشامل، واستناداً على قاعدة "إذا اختلف اللصان سُرق المسروق" سيقف الناس على حجم الجريمة الحقيقي التي أرتُكِبَت في حق الوطن ومواطنيه، مِمَّا سيزيد النار أواراً!

- **تاسعاً:** بمثلما تآمَرَ أبناء سيّدنا يعقوب على أخيهم، ستعمل فئة في الظلام على محاولة تسليم الرئيس الضرورة بدعوى "إنقاذ المشروع الإسلامي"، استناداً على "فقه الضرورة" ولعلَّ أقصى ما يمكن أن يتوقعه المرء في هذا السيناريو يشير إلى احتمال التخلص منه مداراة لسوءتهم، بُغية الطموح في فتح صفحة جديدة مع المجتمع الدولي!

- **عاشراً:** مع إزدياد حالات التدهوُر الإنسانيَّة، من نزوحٍ ولجوءٍ وفلتانٍ أمني، سترمي القوى الدوليَّة بنفسها في أتون الصِراع عبر استصدار قراراتٍ أمميَّة، وتفعيل أخرى نائمة في الأضابير، واضعين في الاعتبار أن استقرار دولة الجنوب الوليدة يكمُنُ في ذهاب عُصبة الشمال، بهدف أن يكون الجنوب النموذج الذي تستقر به القارة الأفريقيَّة، وليس العكس.

- **أحد عشر:** ستنهض القوى السياسيَّة من مرقدها، وستخلع رداء الكسل والتقاعُس واللامبالاة، وذلك تحت تأثير اتساع قاعدة التمرُّد الشبابي في

أوساطها، ولن تجد قياداتهم بُداً من الاستجابة لمطالبهم ورغباتهم، حتى لو كان ذلك بذريعة "مُكرهٌ أخاك لا بطل"!

- **ثاني عشر:** عندما يتسع الفتق على الراتق، ستجد الأجهزة الأمنيَّة نفسها أشد عجزاً في مواجهة الطوفان البشري، وسيرتدّ استخدامها سلاح القوّة إلى نحرها، بحيث يمكن أن تتدخَّل في مواجهة بعضها البعض، عوضاً عن مواجهة المواطنين!

- **ثالث عشر:** يُصبحُ السُودان في عين العاصفة، ويحتل الخبر الأوَّل باستمرار في النشرات العربيَّة والأجنبيَّة التي ستجد ضالتها في بلدٍ سيناريوهاته مفتوحة على مصراعيها تدرُّجاً من السيىء إلى الأسوأ.. سيكثُر الخُبراء الذين يُشعلون الأجواء بتحليلاتٍ واستنتاجاتٍ قد تخيب وقد تصدُق.. تتحرَّك الكتل الجامدة في المهاجر والمنافي وديار الاغتراب، ومع اتساع المحنة، تتسع دائرة الاتهام لمن رمى بها في أتون تلك النار لسنواتٍ تطاولت، وتبدأ في التفاعُل 'الإيجابي الذي يتعدّى تظاهُرات "أضعف الإيمان" أمام السفارات، مِمَّا يلفت الأنظار لمحنة أخرى منسيَّة!

- **رابع عشر:** يقوم الفاسدون بتغيير جلودهم، واستنساخ أنفسهم للإيحاء بأنهم كانوا من المُنادين بالتغيير منذ زمنٍ، وأنهم كانوا ينصحون من وراء الكواليس، وذلك تأهُباً لركوب موجة التغيير القادم من وراء الحُجُب والأستار!

- **خامس عشر:** مع تمدُد المحنة وتغوُّرها، تبدأ العُصبة ذوو البأس في تقديم تنازُلاتٍ جزئيَّة، بغية شق صفوف معارضيها، الأمر الذي يُربك صفوفهم في بدايته، ولكن لأن التنازُل يورث تنازُلاً، يزيد الضغطُ الذي يطالب بأكثر من التنازُلات.. آنئذٍ يبدأ المُتقاعسون في الانحناء للعاصفة حتى لا تقتلعهم وسدنة النظام بقدرٍ سواء!

- **سادس عشر:** تزيد القوى المعارضة المسلحة التي تحارب النظام في الأطراف من مساحة تمدُّدها لإرهاقه بحروبِ استنزافيَّة، فتزداد معاناته مع خزينة خاوية، لأسبابٍ معروفة لن تُجدي وسائل تجييش الشباب وستزداد وتتطوَّر أساليب الرفض والتذمُّر والتمرُّد مِمَّا سيزيد من حدَّة المواجهات.

- **سابع عشر:** تتداعى مُؤسَّسات العُصبة الكارتونيَّة السياسيَّة.. يعجز الحزب الوطني الذي كان السُلطة تحصي عُضويَّته بنحو ستة ملايين مواطن، وتسميه في شعاراتها "الحزب القائد لوطن رائد"، يعجز عن إخراج تظاهُرة لبعض مئات من الناس، للإيحاء بأنه ما يزال موجوداً!

- **ثامن عشر:** تزداد رقعة التمرُّد بتمرُّد كتائب أمنيّة وشُرطيّة وعسكريَّة، وتتداخل سيناريوهات الكواليس والصوالين المغلقة.. ستعلو أصوات كثيرة

تطالب وتعمل على عدم اتساع دائرة الفلتان الأمني، الذي قد يدفع البعض ضريبته القاسية.

- **تاسع عشر:** سيظهر عبدالرحمن (الجندي المجهول في شارع المك نمر) وصحبُهُ بصورة مليودراميَّة في المشهد السُّوداني "الشكسبيري"!
- **عشرون:** هذا سيناريو مفتوح تُسدلُ فيه الستارة إمَّا بالهروب الكبير، أو بالذي لا يعلمه إلا الله، وينتهي بتكوين حكومة انتقاليَّة تتواصى على عقد مؤتمر دستوري شامل، وإيقاف الحروب الدائرة وإطلاق الحريَّات وإخلاء السُجون من المعتقلين السياسيين، وإجراء محاكمات عادلة لفلول العُصبة، وتجرى في خواتيمه انتخابات حرَّة ونزيهة بإشراف المجتمع الدولي، وتعود للسُّودان عافيته تدريجياً، باعتباره عضواً صالحاً في المنظومة الدوليَّة، ووطناً عزيزاً على أهله، وليس خصماً لهُم، كما توهَّمت العُصبة ذوي البأس!

هذا هو السيناريو "المتشائل"، ولا تسألوني عن مآلات السيناريو "المتشائم"، وبنفس القدر السيناريو "المتفائل"، فهُما من أمر شعبي!!

آخر الكلام: لا بُدَّ مِنَ الدِّيمُقرَاطِيَّة وإن طَالَ السَّفَر!!
٢٠١٢/٦/١٤

هلْ خُلِق السُّودان في كَبَدٍ؟! (١)

أرسل لي قارئ كريم – مِمَّن يُحسنون الظن فيما نكتب – رسالة جمعت بين العتاب والعقاب، أو إن شئتَ بين الترغيب والترهيب.. سألني فيها سؤال مُنكر ونكير – كما نقول في ثقافتنا العامَّة – عن الأسباب التي حدت بنا للتوقف عن الكتابة بعدما تطاول أمدها وتمطى أوانها؟! ولعله وجدها سانحة للتنفيس عن كُربة من كُرب العُصبة ذوي البأس المتعدِّدة الهُويَّات، فتقمَّص دور البشير النذير، وطفق يُعدِّد لي الظروف التي أحاطت بالوطن المنكوب وأهله، بصورة تفطر القلوب وتفتِّت الأكباد، وتمادى حتى طفر دمعي وخُيِّل إليَّ أنني أعلمها للمرَّة الأولى. وكأي لاعب ماهر من لاعبي كرة القدم، باغتني، مؤكداً ومستنكفاً في آنٍ معاً، وتساءل: كيف جاز لي أن أنام نوم قرير العين هانيها، وقد بلغت معاناة الوطن وأهله ذلك الحد من البُؤسِ والتردِّي والانحطاط؟! وبعد أن أسهب في تفاصيلها وأطنب، أقسم قسماً مُغلَّظاً أنه غير حانث، وينبغي أن أكون له من الصِدِّيقين.. قال: كان يجب أن تكون هذه الأسباب دافعاً لنا في الاستمراريَّة، لا مبرراً للتوقف المفاجئ. وحتى يسد عنَّا كُلَّ منفذ، فقد عدَّ التوقف نفسه جريمة مكتملة الأركان في حق الوطن المكلوم وأهله، وزاد أنها قد ترقى لدرجة الكُفر.. ثمَّ ختم بما تصوَّرته ترغيباً بعد ترهيب، وطلب مني أن أعيد قراءة آخر مقال كتبته، مشيراً فيه إلى ما اعتبره تزامُناً بين ما كان في رحم الغيب، وبين ما حدث في واقع نعيشه ملء السمع والبصر والفؤاد. أما وقد امتثلتُ لما طلبه، أقول قبل أن نعيد قراءته معاً: إنه لا هذا ولا ذاك خطرا ببالي، لا وقتذاك ولا عندئذٍ يا سيِّدي!

لكن فلنترك هذا جانباً إلى حين، ودعونا نتأمَّل بانوراما هذه الرسائل لتماهيها مع هواجس الواقع القلِق، فهي تعكس صورة مجرَّدة لما نحن فيه رازحون. إذ لم يكن القارئ المذكور أعلاه وحده، فثمَّة قرَّاء آخرون تقاطرت رسائلهم، وكانوا شُركاء في نفس التساؤُل، بقاسم مشترك واحد، حول التوقف ودواعيه؟! لكن بعضهم حلَّق في سماوات أُخَر – كلٌّ بحسب هواه – واتَّخذوا من نظريَّة "المُؤامرة" متكأً ومقيلا. وبعضٌ اخر، وهُم ما نسميهم بـ"حزب التيئيسيين"، أي الذين يُبخِّسون الناس ثوراتهم، وتعرفهم من سيمائهم، إذ بهم غلظة في المعاني وشظف في التعابير.. هؤلاء لم يجدوا مشقة في التقليل من شأن

الانتفاضة الجماهيريَّة أو الهبَّة الشعبيَّة الأخيرة حدَّ السخرية من توابعها، بل سرحوا وشطحوا ونطحوا، وجاءوا بطلاسم وهمهماتٍ تشبه فحيح الثعابين للقضاء على ثورة من قبل أن يستبينوا ليلها من ضحاها.. بينهم قارئ واحد، رمانا بذات الداء وانسلَّ، تاركاً وراءه ما ثقل حمله وصعب فهمه. إذ افترض – غفر الله له وسدَّد خطاه – أن الإحباط العام أصابنا بداء "السكتة القلميَّة" إن جاز التعبير. وهو يعني بالإحباط الانتفاضة الموؤدة نفسها، تلك التي ماتت في مهدها – بحسب زعمه!

بيد أنه إذا ما تجاوزنا عن تقريظ الذين نُقدِّر مشاعرهم ونتضاءلُ معها خجلاً ضمن ذات الرسائل، فإن المحنة لا تخلو من فكاهة، وقديما قيل: شرَّ البليَّة ما يُضحك وخير البليَّة ما يدعو للتأمُّل والتدبُّر والتفكير.. فقد فاجأني قارئ آخر بافتراض غريب، إذ عزا الأمر برُمَّته إلى الحَسَد، وقال إنه من المُؤمنين بهذه الفرضيَّة التي نبتت وانتشرت في مجتمعنا. وكنتُ من باب المجاملة قد كتبتُ له مستحسناً ما اعتبرته دعابة، فإذا به ينفي ويقول إنه جادٌ وليس في الأمر هذر أو مذر. بل لم يجد في نفسه حرجاً بتزويدي بصورة من شهاداته الأكاديميَّة حتى لا أحسبه من الجاهلين – أو كما قال. ثمَّ ذكر لي أنه شخصياً "شهيدٌ" لهذه الظاهرة، بل وإمعاناً في الإقناع، استشهد بكاتب سياسي من فطاحلة كتَّابنا المرموقين، والذي ذكر في أكثر من حوار أنه "محسودٌ"، فانظروا الدرك السحيق الذي نحن فيه غاطسون!

لكن الذي سقط منه سهواً أو عمداً، هو أن العُصبة نفسها قد جبَّت قول كل خطيب في هذا المضمار، حيث عزا – أحد خزنتها – تنكُّب البلاد وعثراتها إلى الحَسَد وليس إلى نهجهم الديكتاتوري، كما هو معلوم. جاء ذلك على لسان الدكتور عوض أحمد الجاز، الذي ظلَّ يتنقل بين الوزارات كما تتنقل الفراشة بين الأمكنة. إذ قال لنوَّاب المجلس الوطني الذين سألوه دون أن يُدركوا أن بعض الأسئلة تُبدا لهم فتسوؤهم "السودان بلد محسود"! وقيل إن الخليفة عبدالله التعايشي قال عن ذات البلد المغلوب على أمره إنه "راكبها شيطان أو جان" سِيَّان، والواقع أنني لم أعجب من قول الوزير ولا الأمير، فقط عجبتُ لمن يسبغ الظاهرة على من أبتلي بحُب وطن، قضاياه لا تشحذ همَّة حاسدٍ ولا تحرِّك نقمة جاحد. فالذي يعرفه المرء مثلنا أن المحسود هو الذي يرفُل في نعيم الدُنيا من مأكل ومشرب وملبس وتطاوُلٍ في البُنيان، وهي كلها أمور فسدت وأفسدت فيها العُصبة ذوي البأس، بدرجة بات فيها الشيطان يستعيذ منهم كل صباح!

في حقيقة الأمر، استعرضنا تلك النماذج، لنقول إن للديكتاتوريات ثقافتها التي تترك بصماتها في سلوكيَّات البشر، حتى ولو تحصَّنوا من شرورها. إذ كلنا يعلم أنها لا تجيء كالنسمة، ولا ترحل كالظل. فهي عندما تنقضُّ على السُلطة بليلٍ، تتستر بقناع الوطنيَّة وتتدثر بثوب النزاهة والتجرُّد، وحينما يخلو لها الجو

تُبيّض المُكر وتصفِّر الدهاء، ولذا عندما ترحل، فهي تخلِّف وراءها ركام ثقافة كارثيَّة تنوء بحملها النفوس. ولنضرب مثلاً بواقع نعيشه الآن، حيث وجد الناس أنفسهم في مواجهة حالٍ أليم، يتنازعون وطناً لم يكفه الانقسام، فصار قابلاً لانشطار عديد.. وطن لم يعصمه الصمود فأضحى آيلاً لسقوط جديد!

نعم، نعود للموضوع الأساسي، وهو ازورارنا عن الكتابة.. في الواقع لم أشعر بمرارة هذا الأمر إلا عندما توقف صديقنا سيف الدولة حمدنا الله لفترة مؤقتة وعاد امتثالاً لوعد قطعه. فيما عنَّ لي بعدها أن استمراريته كانت تغطي بالفعل ما اعتبرته تقصيراً من جانبنا. والحق أقول، إن سيف الدولة هذا كاتبٌ مجيد، بل هو سيفٌ مسلَّط على رقاب العُصبة فعلاً لا قولاً، يكتب عن إحساس صادق بقضيَّة شعبه، والصِدق كما تعلمون هو سنام الموضوعيَّة وذروتها، لهذا ظلَّ سيف الدولة يلاحقني بالسؤال المُرهق حول أسباب توقفي، مختصراً الجدل دائماً بالسؤال عن العودة، ومتى أوانها. وكلما لُذتُ بتاريخ ذكرته قطعاً لدابر أي نقاش، وجدته يذكِّرني بحلوله كمن يتحرَّى أمراً الناس عنه لاهون!

عطفاً على ذاك، وتأسيساً على هذا، ومن باب الشفافيَّة المُرتجاة بين الكاتب وقرَّائه، وجدتُ أنه لزاماً عليَّ أن أشرح أسباب ما انقطع عمداً وليس سهواً، تفادياً لأي تساؤلات شاطحة بمثلما سلف ذكره، ففي تقديري أن ثمَّة عقداً غير مكتوب بين الكاتب المحترف والقرَّاء، وهو ما ينبغي احترامه. ودونه، فالكاتب الملتزم الذي يتوقف برهة ثم يعود فجأة دون إبداء أسباب مقنعة، يكون أشبه بمن تسلل إلى دار على غفلةٍ من ساكنيها. وحتى لا يُقال عنَّا إننا ننهي عن خلق ونأتي بمثله، أقول إن تغيُّبنا طوعاً أو قسراً، من حق الطرف القارئ في العقد أن يتوعَّد الطرف الكاتب بعذاب مهين، بمثلما توعَّد سيِّدنا سُليمان هُدهُدَه إن لم يأته بخبر يقين!

فيا مَن كلت جنوبهم من أثر الانتظار، ويا من تغوَّرت عيونهم جرَّاء البحث عن الذي يُقرأ ولا يُقرأ، ويا من كلَّت متونهم من الضرب على لوح محفوظ، نضع بين أيديكم ما نظنه شافعاً في يوم بسطت فيه موازين التقويم والتقييم، وتساوت فيه مبادئ الأخذ والعطاء، وتماهت فيه أسس الحقوق والواجبات.. هاؤوم أقرأوا أسبابنا:

- **أولاً:** بذات الشفافيَّة، بل بوضوح الشمس في كبد السماء، نقول إن الكتابة بالنسبة لنا ليست ترفاً، ولأننا نعيش صراعاً مكشوفاً مع عُصبة مجرمة، فهو لا حياد فيه. سنظلُّ نُلهِب أفعالهم بألسنةٍ حِدَاد ونُشرِّح أعمالهم بأقلام مِدَاد. من هذه الزاوية، كان لزاماً علينا التفكير في خطوة تالية نسدِّد بها ضربة أخرى بعد "الخندق"، ونحن لها عامِلون. ودونما مُداراة نقول: هي خطوة نبشِّرهم فيها بعذابٍ واقع، وعقاب آتٍ، ولو بعد حين. نقول ذلك ونحن نعلم أن ليس

بمقدورهم أن يفعلوا شيئاً سوى إحياء عظام حاشية السُلطان، الذين يكتبون ببطونهم، ويفكرون بسيقانهم، لإنكار ما نكتب، وهُم كاذبون!

- **ثانياً:** في سبيل تعزيز التواصُل مع القرّاء الذين بيننا وبينهم ميثاق وعهود لا نتنكّر لها، عَمَدنا إلى طرق درب آخر من دورب التواصُل، وأسعدنا أننا وجدنا فيها ملاذاً.. كان ذلك في ندواتِ سياسيّة قدّرنا أن يكون للحوار فيها لسانٌ وشفتين حول قضايا الوطن المُتشعِّبة الدروب والمتعدّدة الالام. وفي هذا الصدد، قُدر لنا تلبية دعواتٍ كريمة من ناشطين قابضين على جمر هذه الوطن.. ابتدرنا هذه الندوات بمدينة دينفر (ولاية كلورادو) ثمّ منطقة واشنطن الكُبرى.. أعقبتها رحلة أولى إلى أوروبا، بدء بمدينة دبلن بإيرلندا ثمَّ مانشستر ولندن ببريطانيا، ورحلة تالية، انطلقت من أوسلو بالنرويج، وانتهت بلاهاي في هولندا.. كم كانت سعادتي بالغة بالتحاوُر مع مهمومين من أبناء وبنات وطننا، الذين تناوشتهم المهاجر واحتضنتهم ديار اللجوء والاغتراب، ولعلها سانحة نُزجي فيها الشُكر لكُلِّ من دعانا وثابر في إنجاح هذه الندوات، ولكُلِّ من حضر وقدّر ونظر في شأن الوطن المختطف. أمّا أنت يا عزيزي القارئ، فنسألك بعد هذا رضاء يشفع لنا فراغ الغياب!

- **ثالثاً:** المعروف أنه لا يأتي التوقف إلاّ ويكون مصحوباً بالتأمُل في ما ظلّ يكتبه المرء، وذلك بهدف مراجعة الذات، لأن الكتابة إذا ما كانت مصحوبة بالتزام واضح، يصبح حتماً عليها تحقيق غاياتها ولو بآخر نفس من أنفاس كاتبها. فبالرغم مِمّا أورثتنا له الديكتاتوريات وفُجُورها في القِيَم التي تضعضت، والأخلاق التي تدهورت، وما صاحبهما من مروءة باتت تبكي على قارعة الطريق، إلاّ أنه ما يزال ثمّة أمل في تقويم ما اعوجّ، وإصلاح ما انكسر. وفي تقديري، فإن الكتابة قادرة على ذلك، وإن عجزت عن تحقيق هذه الغاية، فذلك لا يُعَدُّ فشلاً لكاتبها فحسب، وإنما امتهانٌ كذلك لعقل قارئها. وعليه، نحن نعِد المتابعين والمهمومين والمثابرين، بنقد موضوعي للواقع في ضوء الانتفاضة التي بدأت وتوقفت إلى حين. أين كانت نقاط الضّعف، وما هي مكامن القوّة، وكيف يمكن أن تصل لغاياتها النبيلة، وذلك بمعلومات استقيناها من منابعها، ونقد ذاتي دون مواربة أو مجاملة أو "كلام مغتغت"!

عوداً على بدء، جاء المقال الذي طلب مني القارئ الكريم أن نعيد قراءته بعنوان "**الغصبة ذوي البأس وسيناريوهات الرحيل**"، ولننظر في الجزء الثاني من هذه السلسلة ما الذي استبطنه بحديثه.. سنقرأه معاً لعلنا نأنس فيه ناراً يضيء قبسٌ منها دياجير العتمة الماثلة!

آخر الكلام: لابُدّ من الدِيمُقراطيّة وإن طال السَفر!!
٢٠١٢/٩/٢٥

هل خُلِقَ السُّودان فِي كَبَدٍ؟! (٢)

ختمنا الجُزء الأول من هذه السلسلة بملاحظة القارئ الكريم الذي طلب منَّا العودة لآخر مقال كتبناه قبل التوقف المُؤقت. كان المقال المذكور قد نُشِرَ في ٢٠١٢/٦/١٤، في حين اندلعت المظاهرات الأخيرة بعد يومين، أي في ٢٠١٢/٦/١٦، ورغم أن أوراها ظلَّ متقداً، لكن يجب ألا ننسى أن من قدح زنادها آنذاك هنَّ صفوة من حرائر طالبات السُّودان اللائي يدرسن في جامعة الخرطوم، داخلية "البَارَكس". لم يكُن ذلك يعني تزامُناً فحسب، بل كان المقال يتحدَّث عن المظاهرات بحُسبانها أمراً حتمياً، وإن كانت في طيَّات الغيب، وهو ذات الأمر الذي نريد تأكيده الآن، وبخاصة للذين يظنون أن الانتفاضة أُجهضت بغير رجعة، وهو ما ظلت تُروّج له ماكينة الدعاية النازيَّة للعُصبة ذوي البأس. والمقال وفق ما يذكر الذين قرأوه آنذاك ارتكز على مرئياتي في الزيارة الخاصة التي قُمتُ بها للسُّودان في يوليو من العام الماضي. تلك المرئيات انداحت إثر مشهد لشابٍ في العقد الثاني من عُمره، قال إن اسمه عبدالرحمن، وهو أحد الباعة الجائلين الذين يتقافزون بين السيارات في شارع الملك نِمِر وهم يعرضون بضائع شتى، لا رابط بينها سوى الفقر الذي وحَّد بين حامليها في ذاك النهار القائظ.

كان قد دار بيني وبين عبدالرحمن الذي كان يحمل زجاجاتٍ معدنيَّة بيمينه وشهادة بكالوريس في الاقتصاد من جامعة الخرطوم بشماله، حديثاً مقتضباً رأيتُ فيه تباشير القادم من وراء المجهول، والتي وردت نصاً كما يلي: «**صورة عبدالرحمن ظلت راسخة في ذهني لا تبارحه البتَّة. وبالرغم من أن حتميَّة رحيل العُصبة ظلَّ راسخاً في نفسي زُهاء أكثر من عقدين، إلاَّ أنني أصدقكم القول إنني توسَّمتُ فيه بشارة ثورة الرحيل، قلتُ لنفسي إنه من سيختصر لنا سفر الخروج من الجحيم بعد أن قرأ علينا نصاً بهياً، خطَّ فيه النقاط على الحروف وأعرب جملة كانت تبحث عن تصريف لغوي لسنين عددا**»! وحتى تكتمل الصورة، رأيتُ أن اجتزئ السيناريوهات التي وردت في المقال وإعادة نشرها، لنرى معاً إلى أي مدى تطابق خيالها بواقعها، وذلك كي تكون تلك نقطة انطلاقنا نحو تسليط الضوء على ما حدث تقييماً وتقويماً واستقراءً.. وإلى نص الاقتباس:

«بيد أننا في هذا المقال نود أن نضع بين أيديكم السيناريو الذي نعتقد حدوثه، والذي يتدرَّج صعوداً حتى يصل إلى خلاصة اكتمال دائرة الخلاص،

وصولاً للرَّحيل الوشيك، وهو سيناريو قد تزيد عليه أيها القارئ الكريم وقد تنقص، ولا أعتقد أن مراقباً حصيفاً يرى الأمور تتدحرج أمامه بهذه الصورة المأسوية ولا يعضد ما اجتهدنا في التنبؤ به.. بوقائع ما سيحدُث في الساعة الخامسة والعشرين!

- **أولاً:** ستقوم السلطة الغاصبة بتحين ظروف تعلن فيها عن ما اسمته بالقرارات الاقتصادية الجديدة. أي رفع الدعم عن المحروقات (لفائدة القارئ الكريم يقول الاقتصاديون إن ٧٠% من تلك المحروقات يستخدمها النظام نفسه. إذاً فرفع الدعم هذا يعني أن الحكومة سترفع الدعم عن نفسها شريطة أن يتحمَّل المواطن آثاره الكارثيَّة. ومن عجبٍ أن السُلطة الغاصبة من شدَّة حيرتها وتوجُّسها، باتت تبحث عن يوم ثامن في أيام الأسبوع السبعة لكي تعلن قراراتها المُهلكة على الناس وهم غافلون!
- **ثانياً:** بعد إعلان الإجراءات الاقتصاديَّة ستعمل الآلة الدعائيَّة الإعلاميَّة (تلفزيون محمد حاتم ذو الميزانيَّة التي تبلغ أربعة مليار جنيه في العام) بالإيحاء أن تلك إجراءات حتمتها الأزمة الاقتصاديَّة العالميَّة، علماً بأنها ذات الأزمة التي نفوا تأثيرها من قبل!
- **ثالثاً:** يُسخِّر النظام ذات الدعاية الإعلاميَّة بسدنته المبثوثين في الأجهزة المختلفة ليُروِّجوا لما وصفوه بالحكومة الرشيقة، والإيحاء بتخفيض ما اسموه بشاغلي المناصب الدستوريَّة، والذين قال عنهم وزير المالية إنهم يبلغون ٨٢٨ فارس، مع أن هذا افتراء. لكنه صَدَقَ عندما قال إن عددهم الكلي نحو ٩٠٠٠ منذ أن جثمت العُصبة على صدورنا. هل يعلم القارئ الكريم أن من تقاعد من هؤلاء ما زال يتأبَّط امتيازاته، فضلاً عن أنه قد يكون قد زاد عليها بمخصَّصات وظيفة أخرى باطنيَّة. فما على الحادبين سوى استخدام الآلة الحاسبة لمعرفة ما يستهلكه هذا الجيش الجرَّار من الخزينة العامة. وسيجد بلا انحياز إن الحلَّ ليس في تخفيض الدستوريين، وإنما في ذهابهم إلى مزبلة التاريخ!
- **رابعاً:** ستصدُر الأوامر للأجهزة الأمنيَّة والشرطيَّة بالتساهُل ابتداءً في التعامُل مع المواطنين بمنطق أن الضغط سيولد الانفجار، ثمَّ مع ازدياد رقعة التذمر تالياً ستنكص السُلطة الغاصبة على عقبيها، وتصدُر الأوامر بضرورة إحكام القبضة على خناق المواطنين ترهيباً وترعيباً، وهنا تبرُز الحكمة الأخرى في ثقافة الشعوب المضهدة والتي تقول: إن العُنف يُولِّد عُنفاً مضاداً!
- **خامساً:** إزاء هذا السجال صعوداً وهبوطاً، يكتشف بعض أفراد الأمن والشرطة إنهم يُوجِّهون أسلحتهم نحو أسرهم الممتدَّة بترابُط أهل السُودان، وفيهم الأخ والأخت والعم والعمَّة والخال والخالة.. إلخ، وسيُدركون أن

معاناتهم لا تنفصل عن معاناتهم، وطبقاً لذلك ستبدأ أعداد كبيرة تقفز من المركب الغارق، ليبقى فيه فقط أصحاب المشروع الوهمي، الذين يدركون أن بقاءهم أحياء في بقاء النظام!

- **سادساً:** تتسع دائرة المعاناة بصورة غير مسبوقة في المجتمع السُّوداني، انهيار العُملة الوطنيَّة، إفلاس الخزينة العامَّة، غلاءٌ فاحش، نُدرة شاملة في السلع الضروريَّة، طوابير في كُلِّ ما يستهلكه المرء، ربَّما طال ذلك الهواء الذي يتنفسه! في مقابل ذلك، يتجلى جشع الموالين في أبشع صوره، فإزاء الإحساس بالدولة المنهارة والزائلة، يزداد نهمهم لمزيدٍ من الفساد وتهريب ما تبقى من أموال للخارج!

- **سابعاً:** تبدأ الأسئلة الكبيرة تظهر بوضوح حتى في أذهان المحايدين، ويبدأ الناس الانتقاد الحاد، حيث تأتي كل كبائر العُصبة دفعة واحدة، حتى تلك التي ظنّوا أنها سقطت من الذاكرة الجمعيَّة، ومع اتساع دائرة التذمُّر وبلوغ الروح الحلقوم بوصول الأمور إلى نقطة خيار الصفر، تتجاوز طرائق التعبير الأفراد.. لتأخذ منحىً جماعياً يسقط خيار "الميتة أم رماداً شَحْ"، أي الميتة العاطلة كما تعبِّر عنها الثقافة الشعبيَّة السودانيَّة.

- **ثامناً:** ستبدو علامات الشقاق في أوساط العُصبة الحاكمة، وذلك بتحميل طرف المسئولية لطرفٍ آخر، وتلوح في الأفق نُذُر مفاصلة أشد وطأة وأقوَم قيلاً، تلك التي لن يتورَّع الخُصماء فيها من استخدام كافة أسلحة الدمار الأخلاقي الشامل، واستناداً على قاعدة "إذا اختلف اللصان سرق المسروق" سيقف الناس على حجم الجريمة الحقيقي التي أُرتُكِبَت في حق الوطن ومواطنيه، مِمَّا سيزيد النار أواراً!

- **تاسعاً:** بمثلما تآمر أبناء سيِّدنا يعقوب على أخيهم – مع الفارق في التشبيه – ستعمل فئة في الظلام على محاولة تسليم الرئيس الضرورة بدعوى "إنقاذ المشروع الإسلامي" استناداً على "فقه الضرورة"، ولعلَّ أقصى ما يمكن أن يتوقعه المرء في هذا السيناريو يشير إلى احتمال التخلص منه مداراة لسوأتهم، بغية الطموح في فتح صفحة جديدة مع المجتمع الدولي!

- **عاشراً:** مع ازدياد حالات التدهور الإنسانيَّة، من نزوح ولجوء وفلتان أمني، سترمي القوى الدوليَّة بنفسها في أتون الصراع عبر استصدار قراراتٍ أمميَّة، وتفعيل أخرى نائمة في الأضابير، واضعين في الاعتبار أن استقرار دولة الجنوب الوليدة يكمُنُ في ذهاب عُصبة الشمال، بهدف أن يكون الجنوب النموذج الذي تستقر به القارة الأفريقيَّة وليس العكس.

- **أحد عشر:** ستنهض القوى السياسيَّة من مرقدها، وستخلع رداء الكسل والتقاعُس واللامبالاة، وذلك تحت تأثير اتساع قاعدة التمرُّد الشبابي في

أوساطها، ولن تجد قياداتهم بداً من الاستجابة لمطالبهم ورغباتهم حتى لو كان ذلك بذريعة "مُكرهٌ أخاك لا بطل"!

- **ثاني عشر:** عندما يتسع الفتق على الرَّاتق، ستجد الأجهزة الأمنيَّة نفسها أشد عجزاً في مواجهة الطوفان البشري، وسيرتد استخدامها سلاح القوَّة إلى نحرها، بحيث يمكن أن تدخل في مواجهة بعضها البعض، عوضاً عن مواجهة المواطنين!

- **ثالث عشر:** يصبح السُّودان في عين العاصفة، ويحتل الخبر الأوَّل باستمرار في النشرات العربية والأجنبية التي ستجد ضالتها في بلد سيناريوهاته مفتوحة على مصرعيها تدرُّجاً من السيىء إلى الأسوأ. سيكثر الخبراء الذي يُشعلون الأجواء بتحليلاتٍ واستنتاجاتٍ قد تخيب وقد تصدُق، تتحرَّك الكتل الجامدة في المهاجر والمنافي وديار الاغتراب، ومع اتساع المحنة تتسع دائرة الاتهام لمن رمى بها في أتون تلك النار لسنواتٍ تطاولت، وتبدأ في التفاعُل الإيجابي الذي يتعدَّى تظاهُرات "أضعف الإيمان" أمام السفارات، مما يلفت الأنظار لمحنة أخرى منسيَّة!

- **رابع عشر:** يقوم الفاسدون بتغيير جلودهم، واستنساخ أنفسهم للإيحاء بأنهم كانوا من المُنادين بالتغيير مُنذ زَمِن، وأنهم كانوا ينصحون من وراء الكواليس، وذلك تأهُباً لركوب موجة التغيير القادم من وراء الحُجُب والأستار!

- **خامس عشر:** مع تمدُّد المحنة وتغوُّرها، تبدأ العُصبة ذوو البأس في تقديم تنازُلاتٍ جزئيَّة بغية شقِّ صفوف معارضيها، الأمر الذي يُربك صفوفهم في بدايته، ولكن لأن التنازُل يورث تنازُلاً، يزيد الضغط الذي يطالب بأكثر من التنازُلات.. آنئذٍ يبدأ المتقاعسون في الانحناء للعاصفة حتى لا تقتلعهم وسدنة النظام بقدرٍ سواء!

- **سادس عشر:** تزيد القوى المعارضة المسلحة التي تحارب النظام في الأطراف من مساحة تمدُّدها لإرهاقه بحروبٍ استنزافيَّة، فتزداد معاناته مع خزينة خاوية، لأسبابٍ معروفة لن تُجدي وسائل تجييش الشباب، وستزداد وتتطوَّر أساليب الرفض والتذمُّر والتمرُّد مِمَّا سيزيد من حدَّة المواجهات.

- **سابع عشر:** تتداعى مُؤسَّسات العُصبة الكارتونيَّة السياسيَّة، يعجز الحزب الوطني الذي كانت السلطة تحصي عضويته بنحو ستة ملايين مواطن وتسميه في شعاراتها "الحزب القائد لوطن رائد" يعجز عن إخراج تظاهُرة لبضع عدد من الناس، للإيحاء بأنه ما يزال موجوداً!

- **ثامن عشر:** تزداد رقعة التمرُّد بتمرُّد كتائب أمنيَّة وشُرطيَّة وعسكريَّة، وتتداخل سيناريوهات الكواليس والصوالين المُغلقة.. ستعلو أصوات كثيرة

تطالب وتعمل على عدم اتساع دائرة الفلتان الأمني الذي قد يدفع البعض ضريبته القاسية.

- **تاسع عشر:** سيظهر الرَّمز عبدالرحمن (الجندي المجهول في شارع الملك نِمِر) وصحبُه بصورة مليودراميَّة في المشهد السوداني "الشكسبيري"!
- **عشرون:** هذا سيناريو مفتوح تسدل فيه الستارة إما بالهروب الكبير، أو بالذي لا يعلمه إلا الله، وينتهي بتكوين حكومة انتقاليَّة تتواصى على عقد مؤتمر دستوري شامل، وإيقاف الحروب الدائرة واطلاق الحريَّات وإخلاء السجون من المعتقلين السياسيين، وإجراء محاكمات عادلة لفلول العُصبة وتجرى في خواتيمه انتخابات حرَّة ونزيهة بإشراف المجتمع الدولي، وتعود للسُّودان عافيته تدريجياً، باعتباره عضواً صالحاً في المنظومة الدوليَّة، ووطناً عزيزاً على أهله، وليس خصماً لهم كما توهَّمت العُصبة ذوي البأس!

هذا هو السيناريو "المتشائل"، كما قال الأديب الفلسطيني إميل حبيبي، ولا تسألوني عن مآلات السيناريو "المتشائم"، أو نقيضه "المتفائل"، إذ هُما من أمر شعبي!!»..

انتهى اقتباس المقال.. ونترك للقارئ الكريم حريَّة إعمال فكره في التأمُّل في هذه السيناريوهات، ومدى تطابقها مع الواقع، بل مدى تواؤمها مع ما زال محتمل الحدوث في القريب العاجل!

آخر الكلام: لابُدَّ مِنَ الدِّيمُقرَاطِيَّة وإن طَالَ السَّفَر!!
٢٠١٢/١٠/٤

هلْ خُلق السُودان في كَبَدٍ؟! (٣)

من باب الذكرى التي تنفع المُتابعين، نقول إننا خلصنا في الجزء الثاني من هذه السلسلة إلى إعادة إيراد السيناريوهات العشرين، والتي كتبناها والانتفاضة الأخيرة كانت كائناً يتخلّق في رحم الواقع السُوداني.. أي أنها بمعايير السياسة كانت محض خيال على الورق، ولكنها عندما اندلعت أصبحت حقيقة تجسِّد واقعاً قائماً، الأمر الذي فتح باب الاجتهاد لمقارنة هذا بذاك. وبناءً عليه، يسوءني جداً على المستوى الشخصي أن أقرأ وصفاً للبعض يقول إنها أُجهضَت أو وُئِدَت. ذلك لأن المُجْهض أو الموءود تذهب رُوحه إلى بارئها، ولن ينفخ الله في صوره إلا يوم لا ظلّ إلا ظلّه. ولهذا يطيبُ لي عِوَضاً عنهما أن أقول إنها بدأت وتوقفت، فلم تصل لنهاياتها المنطقيَّة، وبهذا التوصيف يبقى تواصُلها أمراً محتملاً أو وارداً ينتظر زماناً ومكاناً معيَّنين. وحتى لا يُقال إن تلك مجرَّد تخرُصات أو تمنيات تخص قائلها، سوف نخوض في الأسباب الواقعيَّة التي أدَّت إلى توقفها، وما إذا كان هذا التوقف هُدنة في سجال مستمر أم إنه لشيء في نفس صانعوها؟! وبالقدر نفسه سوف ننظر في إمكانية استمرارها، وهل تحُفها فرص النجاح، أم سيحيق بها فشلٌ ذريع يطمرها في مقبرة التاريخ؟!

في البدء، ثمَّة وقائع وحقائق واستخلاصات من الحَدَث بما لا يمكن لأي مراقب تجاهُله أو غض الطرف عنه. ولأن البيوت تُدخَلُ من أبوابها – كما يُقال – نود أن نذكُر بعض آيات سورة تلك الانتفاضة، وفق ما تلاها الثائرون والمنتفضون والساخطون والمُتذمِّرون والمحرومون والمتمرِّدون على سلطة الأمر الواقع:

- **أولاً:** كانت تلك الانتفاضة هي الأولى من ناحيتيْ الكَمْ والكَيْف طيلة السنوات الثلاث وعشرين التي حكمت فيها العُصبة ذوو البأس السُّودان بالحديد والنار. ولعلَّ تطاوُلها يُعبّر عن خصيصة من خصائص الشعب السُّوداني، إذ أن حدوثها المتأخر قد يوحي للمراقبين كأنَّما هو إهمالٌ، ولكنه في الواقع يندرج تحت بند الإمهال المعروف في سايكولوجيَّة شعبٍ جُبلَ على الصَّبر على المكاره، وبالطبع ليس ذلك مبرِّراً لتقاعُسه، ولكنه الواقع الذي لا يمكن إغفاله أو تزيينه.. بغضِّ النظر عن مساوئ الإمهال وتكلفته الباهظة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ونفسياً!

- **ثانياً:** على غير ما كان سائداً، هذه الانتفاضة تميَّزت بتوسُّع مسرح الحدث، حيث انتفضت مُدُن وقُرى ودساكر، بعضها لم يعرف ثقافة التظاهُر منذ أن نزل سيّدنا آدم من الجنة، واستقرَّت بعض سلالته في تلك المناطق. على الرغم من أنه طاف عليها طائف الاستعمار بويلاته، وقَبَعَت تحت نير أنظمة وطنيَّة ديكتاتوريَّة بجبروتها ولم تحرّك ساكناً، وعليه تُعَدُّ تلك ظاهرة جديدة تستحق الوقوف والتأمُّل والاستقراء!

- **ثالثاً:** يُخطيء كثير من المراقبين – ولا نبرئ أنفسنا منهم – عندما يقارنون بين الواقع العربي، الذي أنتج ما سُمِّي بـ"ثورات الربيع العربي" وبين الواقع السُّوداني، مُغفلين خصائصهما في كيفيَّة تعامُل هذه المجتمعات مع قضاياها المختلفة، ولنضرب مثلاً لا يستدعي كثير اجتهاد.. عندما قام السُّودانيون بثورتين شعبيَّتين مشهودتين في تاريخهم السياسي عام ١٩٦٤ و١٩٨٥، كانت كل بلدان الربيع العربي بلا استثناء ترزح تحت قبضة حُكم سُلطوي، ربَّما كان أكثر استبداداً من الحُكام السُّودانيين الموسومين بالديكتاتوريَّة عصرئذٍ.. وثار عليهم الشعب وخلعهم من السُّلطة.. أي أنها ذات المعادلة القائمة الآن بطريقة معكوسة. وعلى الرغم من أن المقام ليس مقام مِلَح وطرائف، لكن في تقديري، ما من ديمقراطي بصورة عامَة، وسوداني على وجه الخصوص، لم يضحك حتى بانت نواجزه، عندما سمع رئيس العُصبة الحاكمة في أحد لقاءاته الرَّاقصة وقد أطلق لعقيرته العنان، وقال إن ثورة الربيع العربي حدثت في السودان في يونيو ١٩٨٩، أي عندما نفذوا انقلاب التآمُر في ذاك التاريخ التعيس!

- **رابعاً:** لكن لا بُدَّ لعاقلٍ أن يتساءل: لماذا قال "الرئيس الضرورة" ذلك في الأصل؟! الإجابة ببساطة: كان ذلك تعبيراً يسيراً لدرسٍ من دروس الانتفاضة رغم قصره، وجاء هكذا مُجسِّداً حالة الهلع والخوف التي اجتاحت العُصبة ذوي البأس حتى أيقن المراقبون أن بينهم وبين الرّحيل بضع فراسخ. وفي هذا الصَّدَد، يذكُر القُرَّاء الكرام كيف أقبَلَ بعضُهُم على بعضٍ يتلاومون، ومنهم فسطاط آوى إلى نقدٍ ذاتي حتى ظنّوا أن ذلك سيُنجّيهم من المركب الغارقة. ولعلَّ قمَّة التراجيكوميدي أن يحاول غازي صلاح الدين البراءة، أو أمين حسن عُمَر تزوير التاريخ، وينعي قُطبي المهدي عُصبته وتنظيمهم الشمولي، علماً بأن الأخير هذا يُعَدُّ أحد الذين ابتدعوا ظاهرة "البنك المنزلي"!

- **خامساً:** بالعودة لفِقهِ المُقارنات سالفة الذكر، والقائلة أن ثمَّة فارق جوهري بين ثورات الربيع العربي وبين انتفاضة أهل السُّودان. بالطبع كلنا يعلم أن السبب الحقيقي للأولى جاء على إثر غياب الحريَّات العامة، مِمّا حدا بديكتاتوريَات تلك البلدان التوهُّم بأنها ستعيش أبداً في ظِلِّ سُلطتها الغاشمة. في حين أن مبعث الحالة السودانيَّة كان الجوع.. نعم، الجوع في البلد المُفترض

فيه إنقاذ العالم إن تكالبت عليه المسبغة. ومن المعروف أن الخبز ظلَّ منذ عصر لويس السادس عشر وزوجه الغريرة ماري أنطوانيت سبباً رئيسياً في قيام الثورات، وإن تفرَّعت مطالبها بعدئذٍ. ذلك بالطبع لا ينفي أن موبقات نظام العُصبة الأخرى يعجز عن رصدها أي جبَّار عتيد، ولهذا نجنحُ للتأكيد أن الجوع كان سبباً رئيسياً وليس أوحداً، والجوع كما تعلمون يُهدِرُ إنسانيَّة المرء ويفقده كرامته، وجاء في الأثر أنه قد يقود إلى الكُفر «قال فيما أخرجه ابن أبي شيبة، قال حدَّثنا أبو معاوية عن 'الأعمش عن يزيد الرقاشي عن الحسن، قال قال رسول الله كاد الحسد أن يغلب القدر وكادت الفاقة أن تكون كفراً»، ولذا فقد استعاذ منه الرَّسول الكريم أيضاً!

- **سادساً:** من خَطل ما وقع فيه البعض من أخطاء، استغرابهم من غياب الأحزاب السياسية، التقليدي منها والعقائدي. كأنَّ هؤلاء لا يعلمون أن تلك الانتفاضة كانت نتاج واقع جديد، واقعُ كُتِبَت فيه شهادة عجز القوى السياسيَّة، ومُهرت فيه شهادة ميلاد قُوى اجتماعيَّة جديدة، هُم فئة الشباب. والذين ظهروا بقوَّة وفاعليَّة حيَّرت أهل النظام والأحزاب معاً. ومن المُفارقات أن معظم هؤلاء الشباب هُم من وُلد وعاش في حقبة الحُكم الاستبدادي العُصبوي الماثلة، وصبروا حتى ظنهم البعض جيلاً مدجناً أو "حناكيش"، بلغة الثقافة الشعبيَّة السائدة!

- **سابعاً:** اتساقاً مع ما جاء أعلاه، فإن 'الانتفاضة أيضاً كشفت بل عرَّت مواقف قيادات سياسيَّة وأفرغت بعض أطروحاتهم من محتواها بعدما شنَّفوا بها آذان العباد ردحاً من الزمن. اتصالاً مع ذلك، عندما أكدت الانتفاضة أن السُّودان ليس جزيرة معزولة، وأنه يؤثر ويتأثر مع محيطه الإقليمي والدولي. وقتئذٍ لم يجد المُتظاهرون الشباب من يُوصل صوتهم للمنابر الإعلاميَّة، ويفتح لهُم أبواب المحيطين بغية مُؤازرة مرجوَّة ومطلوبة ومحمودة، وهو حديث المواجع الذي سنخوض فيه تفصيلاً وتوثيقاً دون أن نخشى لومة لائم، وذلك حتى يعرف الناس فيما هم فيه مختلفون؟!

- **ثامناً:** يقولون: "لا فضيلة مع الفقر"، ونحن أيضاً نقول: "لا فضيلة مع الأمن". ذلك لئِن كانت الأولى هي المسئولة عن الانحطاط الأخلاقي الذي طفح كيله في ظِلِّ العُصبة ذوي البأس وأدَّى إلى ظهور "دار المايقوما لفاقدي السند" ومثيلاتها. فإن الثانية قد أوضحت بما لا يدع مجالاً للشكِّ أن المنتمين لجهاز الأمن هُم من شاكلة ما قال عنهم كبيرهم الذي علَّمهم التعذيب وبشاعته، الفريق أوَّل صلاح عبدالله قوش، وصفاً تقشعر له الأبدان. جاء ذلك في حوار بصحيفة 'الصحافة' ٢٠١٢/٧/٢٦م نجتزئ منه المقتطف المذكور التالي:

  - **طيب إحساسك شنو ورجال الأمن يتصدون للمظاهرات؟**

= أنا قادر أعرف، أستطيع تقييم هذه الحساسية، وعارف الناس بتقول عن ناس الأمن شنو.

- بقولوا شنو؟
= بقولوا ديل أولاد حرام وأولاد...

- يا راجل؟
= والله...

والحقيقة هُم ليسوا في حاجة لشهادة شاهد من أهلِها، فقد أثبتت الأحداث التي صاحبت الانتفاضة ذلك، إذ ذُهِلَ الرأي العام من طبيعة الممارسات اللاأخلاقية التي نالت من جسوم المعتقلين والمعتقلات، وإن لم تنل من عزيمتهم وإصرارهم وإرادتهم. وحتى لا يحزن هؤلاء، نقول إنها وضعت ما ظلّ السُودانيون يتغنون به شعراً ويتباهون به نثراً في مهبِّ الريح!

- **تاسعاً:** أكدت الانتفاضة أن من كان دينهم الفساد، وظلوا يعبدون الدولار والدينار والدرهم، هُمِ أول من سيُولي الأدبار يوم الزحف العظيم. فقد كشفت الانتفاضة عن أن النظام الذي ظلّ يُخصِص ٧٠% من الميزانية للأمن والدفاع طيلة سنواته في الحُكم، أي لأكثر من عقدين من الزمن (بما فيها عصر البترول الذي أفل نجمه) هو مجرَّد نمر من ورق، ولكن من ذا الذي يقول للأنظمة الشموليّة والديكتاتوريّة أن العِبرة ليست في القوّة الماديَّة بقدر ما في القوّة المعنويَّة والتي لا تعرفها قواميسها وأجندتها وكواليسها!

- **عاشراً:** خُلاصة الأمر، واتساقاً مع ما ورد أعلاه أيضاً، فقد أكَّدت الانتفاضة حقيقة أزليَّة، وهي أن الأنظمة الديكتاتوريَّة مهما أسرفت في القتل، وبالغت في استخدام البطش والعُنف والتنكيل، وسخَّرت موارد الدولة بُغية الحفاظ على وجودها في سُدَّة السُلطة، وتظاهرت للرائي بتطاول أمدها وطول سلامتها، فإنها حتماً ستشيع على آلة حدباء لتقبر في مدافن الذُل والخِزي والعار!

تلك حقائق أفرزتها الانتفاضة التي لم تبلغ نهايتها المنطقيَّة، ومع ذلك لن يستطيع أحد أن يمسح هذه الحقائق من خارطتها، سواء نهضت أو قُمِعَت.. تواصَلت أو تقاعسَت.. نجحَت أو فشلت!

وإلى بقيَّة السلسلة التي سنحاول أن نجيب فيها على المخبوء بين طيات الأحداث.. ونعم أجر القارئين!

آخر الكلام: لا بُدّ منَ الدّيمُقرَاطيّة وان طَالَ السّفَر!!
٢٠١٢/١٠/١٣

هل خُلق السُّودان في كَبَدٍ؟! (٤)

اتصالاً مع ما توقفنا فيه الحلقة الثالثة، انطلقت تظاهُرات أو انتفاضة (يونيو/يوليو) الماضية بصورة غير مسبوقة من قبل في التاريخ السياسي السُّوداني الحديث. وذلك ليس من أحاديث المُبالغة أو المُزايدة، أو حتى فيما يُدرجه البعض هُزُوءً بتمنيَّات المعارضين. فالواقع يقول إن الصورة التي كان متعارف عليها من قبل في تجاربنا السياسيَّة المشهودة، سواءً في الانتفاضتين الشعبيَّتين اللتين حدثتا من قبل العام ١٩٦٤ والعام ١٩٨٥، أو حتى في الانتفاضات الصغيرة التي اندلعت في كل عهود السُّلطات الديكتاتوريَّة ولم تبلغ نهايتها المرجوة، كانت تبدأ وتنهض من جامعة الخرطوم والمدارس الثانويَّة بالعاصمة المثلثة، وتتجه تلقائياً نحو قلب العاصمة الخرطوم أو ما سُمي سابقاً بـ"المحطة الوُسطى" مع تماثُل ذات الصورة في أجزاءٍ أخرى من العاصمة المثلثة، الأمر الذي كان يدفع بالنقابات والهيئات المدنيَّة لدُخول المعترك، مسلَّحةً بالشعار الشهير "الإضراب السياسي والعِصيان المدني" فيتعطَّل بموجبه دولاب العمل تلقائياً، ويندفع منسوبوها - أي النقابات والهيئات - نحو ساحات المظاهرات لتأجيجها وتصعيدها. وفي ختام ذلك المشهد، تتحفز القوى الحزبيَّة السياسيَّة فتلحق بقطار الأحداث.. وهكذا يتواصل السيناريو إلى أن تحقق الانتفاضة الشعبيَّة غايتها المنشودة برحيل النظام!

ذلك ما كان من أمر صورة نمطيَّة كلاسيكيَّة مُتعارف عليها.. بل اتخذت طابعاً سودانوياً محضاً أصبح مضرب الأمثال في تاريخ الثورات والهبَّات الشعبيَّة. ليس ذلك فحسب، وإنما كانت هاجس العُصبة نفسها فعملت على إبطال آلياتها بطُرُقٍ عديدة يعرفها القرَّاء الكرام، ولا داعي لتكرار سردها. وعليه لعلَّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما الذي حدث في الانتفاضة الأخيرة التي اندلعت منتصف يونيو الماضي، واستمرَّت طوال الشهر نفسه، وكذلك الشهر الذي تلاه أي يوليو ٢٠١٢، حتى تستحق صفة التميُّز والتفرُّد التي ذكرناها؟! قلنا في مُستهَلِ هذه السلسلة إن هذه الانتفاضة بدأت أولاً في جامعة الخرطوم، داخلية "البَرَكس"، وثانياً، أن من أشعَلَ فتيلها حفنة طالباتٍ تعاظم عندهن الحس الوطني بأسبابٍ مختلفة، ثمَّ لحق بهن زملائهن الطلاب تضامُناً وتآزُراً وإصراراً.. ثمَّ سُرعان ما تمدَّدت خارج أسوار الجامعة.. ثمَّ تواصلت، ليس في قلب العاصمة –

كما هي الصورة المألوفة – وإنما في مشهد سُريالي شَمِلَ أحياء شعبيَّة، أخذ بعضها برقاب بعض في ضواحي العاصمة. ثمَّ امتدَّ الأمر وطال مدناً في الولايات المختلفة في معظم بقاع السُّودان، ثمَّ زاد الأمر بدخول قُرى وبلدات صغيرة، في مشهدٍ دراماتيكي فريد لفت أنظار المراقبين السياسيين وغيرهم، بحُكم أن هذه المناطق المنسية لم تعرف التظاهُر يوماً في ثقافاتها منذ أن ظهرت للوجود!

ذلك من الناحية النوعيَّة، أما من حيث الكم، فقد اعترف إبراهيم محمود، وزير الداخليَّة أمام المجلس الوطني تواضُعاً، وقال إنها بلغت نحو ١٨٠ مظاهرة. وتعلمون أن الذي حدث بعدئذٍ تمثل في أن التظاهُرات احتلت موقعاً متقدِّماً وبارزاً في كل وسائل الإعلام العربيَّة والأجنبيَّة (بعضها اضطرَّ لذلك اضطراراً لأسباب نستعرضها فيما بعد).. بهذا المنظور الواقعي، وبناءً على ما سُقناه آنفاً، يمكن القول إن مظاهرات شهري يونيو ويوليو الماضيين تميَّزت بكونها انتفاضة فريدة لم تحدُث في تاريخ السُّودان الحديث من قبل، بغضِ النظر عن كونها وصلت لنهايتها المنطقة أو لم تصل.. زاد على ذلك ما حدث من ردود فعلٍ في مشاهدها الخلفيَّة غير المرئيَّة للبعض، حيث رشحت معلومات أكدت أنها قصمت ظهر النظام، رغم آلته الأمنيَّة الضخمة، وأن بعض سَدَنَتِهِ أزمع الهروب فعلياً، سواءً لإنقاذ الذات التي تحصَّنت لليوم الأسود بالقرش الأبيض، أو بحمل ما خفَّ وزنه وغلا ثمنه، أو حتى بغريزة البقاء الكامنة في النفس البشريَّة!

تلك صورة من صور الكواليس التي لم ير المراقبون من نارها سوى دخان تكثف في فضاءاتها، وكشفت عنه بعدئذٍ أكثر بروزاً تكتلات سلطويَّة استصحبت مرارات الماضي ومحن الأيدولوجيا وتناقُضاتها في إطار الحزب الحاكم. يومئذٍ أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، مرَّة بإلقاء تهم التقصير جزافاً بقصد تبرئة الذات كما ذكرنا، وأخرى بنصائح متثاقلة جاءت تجرجر أذيالها في ضحى الغد. وفي واقع الأمر، كُلنا يعلم من دروس التاريخ التي لا تمل التكرار، أن مثل هذه السيناريوهات ليست وقفاً على العُصبة ذوي البأس وحدها، فذلك شأن كل جماعة أو أفراد ولغوا في التآمُر بمثلما حدث بين هابيل وقابيل، أو مثلما فعل أبناء يعقوب بأخيهم يوسُف، أو كما هي شيمة كل الأنظمة الشموليَّة والديكتاتوريَّة حينما ينخسِف ليلها وينكسِف نهارها!

ذلك سيداتي وسادتي ما كان من أمر الفعل، فما الذي حدث في ردود الفعل؟! أي لماذا لم تتواصل انتفاضة بكُلِّ هذا الزخم والتميُّز والتفرُّد الذي ذكرناه، ولم تبلغ نهاياتها الطبيعيَّة أو المتوقعة أو المأمولة؟! بصورة أكثر وضوحاً.. إذا ما كانت الأكثر تميُّزاً وتفرداً.. لماذا لم تؤدِ لسقوط النظام؟! ما هي الأسباب الخفيَّة والواضحة التي أحاطت بها وحالت دون بلوغ تلك الغاية النبيلة؟! هذا "سؤال المليون" كما يقولون، نعلم أن المتأرقين منه كُثر، والهاربون أكثر،

برغم اجتهادات المتابعين والمراقبين والنشطاء السياسيين. وعليه فنحن حينما نعيد إنتاجه هنا، أو بالأحرى نحاول الغوص في أعماقه مجدَّداً، ينبغي علينا وضع النقاط فوق الحروف، وذلك بإقرار إجابة أمينة وصادقة وشفيفة، لا تجترَّ ما مضى ولا تفتئت على ما هو آتٍ، أي بشرط ألا تجنح للخيال ولا تتجنى على الواقع.. نقول قولنا هذا وفي الخاطر ما نسميه بـ"ثقافة الديكتاتوريات" التي وضعت أثقالها في وجدان السُّودانيين، فانقسموا بين خائنٍ وبطل، ومن إحنهم ومحنهم فإن "حكومات السَّجَم والرَّماد" لم ترهق نفسها في استقطاب من سيلعب الدورين معاً!

إن الإجابة الواقعيَّة لسؤال المليون هذا لن تستقيم، إلا إذا استصحبنا معنا – في هذه السفينة الباحثة عن مرسى – أسئلة فرعيَّة غاية في الأهميَّة: هل اندلعت تلك المظاهرات على حين غُرَّة، أم أنها كانت في حُكم المتوقع.. ليس للمراقبين فحسب وإنما لسدنة النظام الحاكم أيضاً؟! لماذا حدثت في الفترة المذكورة وقد أجمع الكثيرون على أن نظام العُصبة يحمل من الأوزار ما يجعل بقاءه ليوم واحد ضربٌ من ضُروب العبث والاستهتار واللامبالاة؟! أي لماذا لم تحدُث قبل هذا طالما أن الشروط اللازم توفرها كانت قائمة؟! هل كانت في حاجة لـ"ربيع عربي" لتصحو من منامها، أم أن العرب استلهموا ربيعها فتحرَّكت تواصُلاً معهم أو العكس؟! هل ثمَّة تآمُر حيكت سيناريوهاته في الكواليس أدى لتوقفها؟! وإن كان ذلك كذلك فمع مَن وضدَّ مَن؟! ما الذي قاله الدكتور حسن التُّرابي لكاتب هذه السطور ووافق فيه شنٌّ طبقة؟! وبنفس المستوى ما الذي قاله السيِّد الصَّادق المهدي للكاتب نفسه مستلهماً تجلياته من وادي عبقر؟! وتواصُلاً.. من الذي ظلَّ يمارس بانتهازيَّة واعية دور المغفل النافع وهو به من المقتنعين؟! لماذا صمت الحسيب النسيب السيد محمد عثمان الميرغني، فلا سعد الحال ولا سعد النطق؟! هل لتوقف الانتفاضة علاقة بسيكولوجية الشعب السُّوداني الراكزة بين ضفتي الإمهال والإهمال؟! هل ثمَّة ارتباط في المحيطين الإقليمي والدولي ألقى بظلاله على الانتفاضة سلباً أم إيجاباً؟!

وتتواصل الأسئلة الحيرى على الجانب الآخر.. من الذي كان يرى في أروقة العُصبة أن إنقاذ المشروع يتمثل في التضحية بالمُشير البشير ككبش فداء يجب تسليمه للمحكمة الجنائيَّة؟! هل تحوَّطت العُصبة بانقلاب قصر تحسُّباً في حال اشتداد أوار الغضب الشعبي بُغية إعادة ترتيب الأمور على نحو يعيد السُّلطة لحياض الحركة الإسلامويَّة؟! ثمَّ هل يمكن تكرار السيناريو بذات النمط أم بغيره؟!

هكذا – وعلى هذا المنوال – تتداعى كثيراً من الأسئلة المتواصلة، والتي سنحاول الإجابة عليها بمعلوماتٍ، بعضها من بنات أفكارنا واجتهاداتنا الموثقة، وبعضها الآخر استقيناه من مصادرنا العليمة في بطن أهل النظام نفسه، والتي

سبق ومدّتنا بما لم تكذِّبه الوقائع ولم تدحضه الأحداث. لن نفرّق بين هذا وذاك، وفي أذهاننا قرّاء أصبحوا من كثرة ما تمرّسوا على قراءة الواقع السياسي السُّوداني، بل ومن فرط ما خبروا ألاعيب العُصبة وفنونها، صاروا يعرفون دبيب النمل في شوارع الخرطوم. ولعلّ في ذلك مقتلهم – أي العُصبة – الذين ظلوا يعتقدون دوماً أنهم يحكمون شعباً قاصراً، يبنغي التفكير نيابة عنه بحيث لا ينبغي أن يرهقوا عقولهم!

أيها الناس، إن افة العقل السياسي السُّوداني – وأنا لستُ براء – تتمثل في ذاكرتنا الكثيرة الثقوب، فالأحداث تجُب بعضها بعضاً، لأننا ننساق وراء همجيَّة النظام التي تُسكرنا لتُبعدنا عن لُبِّ القضيَة، وهذا مقصدهم! فصبراً، يا من تعلمتم شيئا ولم تنسوا شيئا!

آخر الكلام: لا بُدّ مِن الدِّيمُقراطِيَّة وإن طَالَ السَفر!!
٢٠١٢/١١/٦

هل خُلِق السُّودان في كَبَدٍ؟! (٥)

هل نحن حقاً نستشعر المِحنة التي ألمَّت بهذا الوطن الرؤوم؟! منذ سنين وهو يئن تحت قبضة عُصبة مُستبدَّة.. مُنذُ سنين ونحن نشهد عرضاً مستمراً لمآسٍ تترى علينا كلما أشرقت شمس يوم جديد، بما يعجز الخيال عن وصفه والعقل عن تصوُّره.. حربٌ يدور رحاها في الجَنُوبيْن الجَدِيدين (جنوب كُردُفان وجنوب النيل الأزرق) فيدفع الأبرياء ضريبتها قصفاً بالأنتينوف والكاتيوشا ومدافع الهاون، ونحن عنهم لاهون.. ملايين من بني وطننا يهيمون منذ سنوات في معسكرات الذُلِّ والهَوَان بأصقاع دارفور، ويلوذون بتخوم دُولٍ كُنا نُطعِمُها من جوعٍ ونأمنُها من خوفٍ، ونحن عنهم غائبون.. أكثر من أربعين ألف جندي أجنبي يدُوسون بأحذيتهم العسكريَّة على كرامة وسيادة الوطن المستباح، بعد أن توعَّدهم سليل مُسيلمة الكذّاب وبشّرهم بعذابٍ واقع، ونحن لهُم ناسون.. مؤسساتٍ أفقِرت جواً (الخطوط الجويَّة السودانية) وأُفلست براً (سكك حديد السُّودان) وحُطمت بحراً (الخطوط البحريَّة السودانيَّة)، ونحنُ عنها سائلون.. بترول جاء وذهب ولم يَرَ الناس منه سوى "الزفت" الذي ماثَلَ سَوَادَ حُظوظهم وهُم لمُحزونون. وحتى يكتمل عرض التراجيديا، قُدِّر لنا أن نشهد وأد أهم مشروع زراعي في العالم (الجزيرة) ونحن عنه غافلون!

خدمات تعليميَّة تتردَّى لدرجة أصبح الطلاب يُعاقرون فيها الخمر والمُخدرات عِوَضاً عن العلم والأخلاق، ونحن مثلهم مُغيَّبون.. خدمات صحيَّة تنهار، فينام مرضى الكُلي على قارعة الطريق، ويموت الآخرون داخلها، كما يموت الجراد في الصَّحارى، ونحن على مأساتهم مُتفرِّجون.. الرئيس "الضرورة" يسافر بلا حياءٍ ليتطبَّب في بلدان الآخرين، ويترُك خلفه أشباح مواطنين تعثروا بأرض النيلين بلا غذاء ولا كساء ولا دواء، ونحن في أمره حائرون.. يتكاثر العطالى كما يتكاثر الذباب في البلاد، فيعمل دُهاة العُصبة على دفعهم نحو الفيافي بحثاً عن الذهب، حتى يذهب عقلهم.. بلد يُستباح أمنها القومي وسُفهاء بني أميَّة، يصرُفون المليارات على مؤتمر النفاق والخداع دونما وازع أخلاقي.. وكأنما كل هذا لا يكفي، إذ ينهض بين الفينة والأخرى مقطوعو النسب من سَدَنة جهاز الأمن، ويعملون على استباحة حُرمات الناس، وانتهاك ما تبقى لهم من كرامة، ونحن في شُغلٍ عنهُم فاكهون!

يا أيها السيّدات والسادة من "شعب السُّودان الفَضَلْ"، مُقيمون تحت نير الظُّلم والاستبداد، ومبعثرون في فِجاج الأرض، تجترون أفاعيل الظالم المُستبد نفسه. نقول مهلاً، فستتمدَّد هذه السلسلة بقدر تمدُّد محنتنا وخيبتنا ولا مبالاتنا. فنحنُ بلا ريبٍ أمام وطن تقهقر حتى بانت عوراته.. وطن ما زال بعض نُخبته يتجادلون في هُويَّته، بينما عُصبة فاجرة حسمتها قتلاً وتعذيباً وتنكيلاً، وسطرتها خداعاً وإذلالاً وتشريداً، وكرَّستها استغلالاً للدين وفساداً في الدُّنيا.. وطن تمزَّق وأهله شاهدون على محنته.. وطنٌ حاق به الفشل من كل جوانبه، بينما حُكَّامه في غيّهم يعمهون.. إذا سألتهم كابروا، وإذا تجاهلتهُم كذبوا، يُنافقون في الخفاء ويُداهنون في العلن، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، يجتمعون على الباطل وينفضُّون عن الحق، يقتلون أبناءه بالليل ويتساءلون عن حُرمة دم البعوض بالنهار!

من نكد الدُّنيا على هذا الوطن الجريح، أنه عندما تضافرت ظروفٌ ولاحت في الأفق تباشير انتفاضة أوحت بخلاصه وأنذرت برحيل عُصبته، انبرى الذين أحسن الناس الظنَّ فيهم وعملوا في الخفاء والعلن دون أن تستمرَّ الانتفاضة في خطِّها المرسوم، وحتى لا تبلغ نهاياتها المنطقيَّة. وبالطبع لم يحتاج الأمر لكثير جهد، فثمَّة ذرائع ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، يقولون تارة إن الأخطار التي تحدِق بالوطن تزيد من شهيَّة المُتربِّصين به، وتارة أخرى يقولون لك إن البديل لم يبلغ سن الرُّشد بعد، وثالثة يتحجَّجون بالاتفاق على برنامج كأنَّ هذا النظام داهمهم على حين غرَّة. وعندما لا يجدون لا هذا ولا ذاك، يلوذون بصمت القبور، أو يفرون بجلودهم لعواصم باتوا يزورونها أكثر مِمَّا يتواجد فيها أهلها!

فمن هُم هؤلاء؟! نقول بكُلِّ شفافية، إنهم المُتقاعسون الواقفون على السياج من أبناء الشعب السُّوداني في المقام الأوَّل، ومِن ثمَّ القوى السياسيَّة والحزبيَّة في المقام الثاني، فلا غُرُوَّ إن كانت الانتفاضة اختباراً عسيراً لهؤلاء، قبل أن تكون امتحاناً وبيلاً للنظام الفاسد نفسه.. بل لو أننا ذهبنا في اتجاه المزيد من إسقاط الأقنعة، فمن المؤكد أننا سنشير دون أدنى مواربة إلى قادة الحزبين الكبيرين – كما ينعتهم البعض – الذين قالوا لشعب الوطن الصابر أهله: "اذهبوا أنتم وربُّكم فقاتلوا، إنا ها هُنا قاعدون"!

بَيْدَ أنَّ الحسيب النسيب السيِّد محمد عُثمان الميرغني، قد جبَّ غريمه وجاء في طليعة المُخذِّلين.. ابتدع الميرغني، الذي كان يرأس أكبر حلف سياسي معارض في تاريخ السُّودان (التجمُّع الوطني الديمقراطي) استراتيجيَّة دخول النظام "بالتقسيط"، وله في ذلك أمرٌ عَجَب. حدث ذلك علناً لأوَّل مرَّة عندما التقى المشير البشير في أسمرا في ٢٠٠٠/٩/٢٦ وأطلق عليه "اللقاء الاستكشافي" لكأنما هبطا من الفضاء بغتةً.. وبالمعيار نفسه قال إنه "الشريك الخفي"، كان ذلك عندما شعر في العام ٢٠٠٢ أن الحليف المُعلن (الحركة الشعبيَّة) مضت في طريق "مشاكوس" وفي نفسها شيءٌ من حتى.. ثمَّ باغت الميرغني حلفاءه في

التجمُّع الوطني العام ٢٠٠٣ وعقد مع النظام الذي توعده بالاقتلاع من الجذور (اتفاقية جدة) وقد وقّع عليها من قِبَلِ العُصبة علي عُثمان محمد طه!

كانت الاتفاقيَّة في مُجملها تفريغ لمقرَّرات أسمرا من محتواها وقيمها، لا سيَّما، البند الخاص بمساءلة ومحاسبة النظام على جرائم الفساد والجرائم الجنائيَّة التي اقترفها في حق الشعب السُوداني، فاستبدلها الميرغني بمصطلح آخر في الاتفاقية الجديدة، سمَّاه: "رد المظالم".. اكتشف المراقبون فيما بعد أن المظالم التي كان يعنيها، هي ممتلكاته التي صُودرت. ولحكمة يعلمها البعض، فالمعروف أن وقعها في نفسه كان أشدَّ مضاضة من ضرب الحُسام المُهنَّد. لهذا زالت دهشة الذين لم يكونوا يعلمون ويستعجبون إصراره على تضمين أي بيان ختامي لهيئة قيادة التجمُّع الوطني هذه الديباجة، حتى حفظها الخُلفاء عن ظهر قلب!

على كلٍ، حمل الرَّاحل قرنق عصاه وغادر التجمُّع الوطني الديمقراطي بعد أن وضعه الاتفاق الإطاري "مشاكوس" في سرج واحد مع أهل النظام. أما الميرغني، فمن باب درء الحرج، أبرم اتفاقاً جديداً مع النظام الذي كان عدواً. وتمَّت المصاهرة بموجب ما سُمِّي بـ"اتفاقية القاهرة" (٢٠٠٥) ليقبل بموجبها الكيان الذي ملأت سيرته الآفاق (التجمُّع الوطني الديمقراطي) بقسمة ضيزى في المشاركة. وهُنا داهَمَ الحياء أيضاً الذين تدثروا بالنضال ضد الديكتاتوريات، فتفتق ذهنهم عن بدعة المشاركة في السُّلطة التشريعيَّة وحدها، في حين مضى الميرغني في اتجاه المشاركة في السُّلطتين التشريعيَّة والتنفيذيَّة، وبموجبها حاز على معظم مقاعد الأولى (١٤ من ٢٠)، وزاد عليها بثلاث وزارات في الثانية، منح منها الجنرال عبدالرحمن سعيد واحدة، فزاده تيهاً في متاهته.. أما هو، فقد قصد أن يتفرَّق خزيها بين الشركاء لأنها جاءت بأمر أدأ!

عاد الميرغني للسُّودان شريكاً خفياً بالفعل، كما نعت نفسه. بدليل إنه لم يشغل نفسه بالقضايا التي تهم أهل السُّودان، وكدأبه أصبحت عيونه مُصوَّبة على هموم ذاتيَّة، هي نفسها ما ظلَّ يشغل بها نفسه في كل الحقب السياسيَّة، ديمقراطيَّة كانت أم ديكتاتوريَّة. فقد كانت دارفور وما زالت تفور وتمور وتثور، والناس يموتون فيها كما تموت السوام من العطش، ومع ذلك لم تنل شرف نظرة من سيادته تزيح عنها رهق الحرب. أما الجنوب، الذي كان يعتبره "خطأً أحمراً"، فقد سار في درب الانقسام دون أن يحفِّزه ذلك على زيارته للذكرى والتاريخ. بل حتى عندما رحل قرنق وهرع الناس لتشييعه من كل حدبٍ وصوب، تخلَّف الشريك الذي استعصم بطاقيَّة الإخفاء، مع أنه كان يصف الرَّاحل بـ"الحليف الاستراتيجي"، وظلَّ يحتفل سنوياً بالاتفاقيَّة التي مهرها معه في ١٩٨٨/١١/١٦ دون أن يبالي بدوران التاريخ ولا تعاقُب الجغرافيا!

لكن الذين كانوا يعرفون طرائق الميرغني في الكَرِّ والفَرْ، أدركوا حينها أنه في طريقه لدورة كاملة سيستبدل فيها حليفاً بحليف. تزامن ذلك مع كذبة كبرى في

العام ٢٠١٠ زعم النظام فيها أنه سيغيّر جلده بانتخاباتٍ ديمقراطيَّة التزاماً باتفاقيَّة السلام. كان تلك واحدة من الحيل الماكرة التي استوجبت مد أيديهم بكل سوء للأحزاب (الكبيرة) فطلبوا منهما المشاركة حتى يكتمل الديكور، فلم يمانعا. لكنها كانت مشاركة مدفوعة الأجر. اكتشف أهل الإنقاذ في السيد الميرغني حبه للمال حباً جماً، عندما أعادوا له أملاكه المصادرة، طلب منهم أن يعتبروا سنوات المصادرة إيجاراً مؤجلاً. ثمّ صار كلما اشتهى المال أو تنسم رائحته ساوموه على مواقفه. فكان ثمن الانتخابات ١٣ مليار جنيه!

لن نأتي بجديد إذا ما قلنا إن النظام تحسَّب لاندلاع ما سُمِّي بـ"الربيع العربي" في تونس (ديسمبر ٢٠١٠)، ومصر (يناير ٢٠١١)، وليبيا (فبراير ٢٠١١)، واليمن (فبراير ٢٠١١)، وحالياً سوريا التي تقف في الطابور. كانوا يعلمون أن الحبل على الجرار كما يقولون، ماذا فعل الأبالسة الذين يدَّعون الطهر، وفي نفس الوقت تمرَّسوا على (القمار السياسي)؟! قاموا تحسباً بعدة خطوات، منها أولاً مد جسور الطوارئ مع السيدين الميرغني والمهدي، لتحييدهما إذا ما طاف عليهم طائف الانتفاضة. وقدَّموا لهما إغراءً ابتزازياً، وهو أن يقبلا دخول ابنيهما للمشاركة في النظام بمناصب "رفيعة"، فاستجابا.. ولكن، كل منهما دوافعه التي تتباين وإن اشتركت في محنة التوريث. ولنترك 'المهدي وابنه جانباً، أما الميرغني ونجله فقد تبعتهما خمسة مليارات جنيه حملها أحمد سعد عُمَر "عربون محبة"، حتى لا يكون هناك مجال للرفض. واستبقى الرسول "عمر" نفسه في القصر حتى يكون أقرب للمُتلقي والمُعطي.. من حبل الوريد!

بالاتفاق الباطني، حقق الميرغني ما ظلَّ يطمح له دائماً ويتمثل في موطئ قدم في السُّلطة، وهو الأمر الذي تمَّ من خلال تعيين ابنه "جعفر الصَّادق" مساعداً لرئيس الجمهورية، بغضِّ النظر عن فعاليته أو ما يمكن إنجازه، وبغضِّ النظر عن طبيعة السُّلطة نفسها. أما الأمر الثاني، فهو الاستحواذ على وزارة التِّجارة، وهذه قد تسنمها أحد جلاوزته (عثمان عُمَر الشريف) بشرط أن ينأى الحزب التليد عن أي إرهاصاتٍ تدعو لتغيير النظام، سلماً كان أم حرباً!

صفوة القول، لعلَّ السؤال الذي يجب أن يسأله السُّودانيون لأنفسهم: هل السيد الميرغني مهموم حقاً باستعادة الديمقراطية؟! ما الذي حرمته منه الديكتاتوريَّة حتى تمنحه له الديمقراطية؟! كيف يمكن أن يناضل أحد من أجل استعادة الديمقراطية وهو لم يكابد غيابها؟! هل يعرف الحزب الاتحادي "الديمقراطي"، الديمقراطية غير الصفة التي ألحقت باسمه؟! هل ثمَّة معيار آخر غير "المصالح الشخصية" يبتغيها أعضاء الحزب وهو يتقلبون بين الأحزاب جيئة وذهاباً؟! ما الذي صنعه الميرغني ليبقى جديراً بالبقاء على رأس حزب لنحو نصف قرن؟! ما هذا الحزب الذي يرحل أينما رحل صاحبه؟! كيف يعرف أهل السُّودان الذين يتحدَّث الميرغني باسمهم ما يدور بخلده وهو زاهد في الحوارات

الصحافية واللقاءات الجماهيرية والمؤتمرات التنظيمية؟! كيف يمكن أن يجمع المرء بين زعامة طائفة دينية وحزب يعد من منظمات المجتمع المدني؟! هذه أسئلة يمكن أن تتواصل بلا نهاية.. بل حتى لو كان النيل مداداً والشجر أقلاماً لما استطاع المرء لها حصراً ولا عداً!

كفانا وهماً وينبغي علينا الخروج من دائرة الغيبوبة، فهذا قدر حظّه السيد علي.. لم يكن غريباً أن يلعب السيد الميرغني دوراً سالباً في الانتفاضة التي لاحت بشائرها، وليس مدهشاً أن يعمل على عدم تواصلها نتيجة الاتفاق الباطني بينه وعُصبة النظام كما ذكرنا. وعليه، من كان ينتظر تغييراً من "حزب الميرغني" فإن ليله سيطول، وإن كان هناك حقاً شباب ناهض في الحزب كما يزعمون، وهناك إصلاحيون يتوخون أهدافاً وطنية كما يردِّدون، فعليهم أولاً الثورة على هذا الواقع البئيس حتى يستقيم السير في الطريق الصحيح، إذ لا يستقيم الظل والعود أعوج!

آخر الكلام: لابُدَّ مِنَ الدِّيمُقرَاطِيَّة وإن طَالَ السَّفَر!!

٢٠١٢/١١/١٨

هلْ خُلِقَ السُّودان في كَبَدٍ؟! (٦)

القُرَّاء الكِرام...

في البداية أقول.. إن سمو الذي بيننا يُحتِّم عليَّ الاعتذار عن انقطاع هذه السلسلة، والتي كنا قد خصَّصناها وشرعنا فيها بتحليل الأسباب التي حالت دون بلوغ الثورة أو الانتفاضة أو الهبَّة الشعبيَّة التي اندلعت منتصف العام – على مدى شهري يونيو ويوليو– نهاياتها المنطقيَّة، أي اقتلاع النظام الإسلاموي الفاشستي من جذوره. وتعود ظروف الانقطاع إلى السفر، حيث يتعذَّر على المرء مواصلة الكِتابة. على الرغم من أن بُؤس الواقع المرير الذي يعيشه أهلنا ووطننا يفرضها – أي الكِتابة – كدين مستحق. ومن ما لاشكَّ فيه، يمكن القول إن هذه الظروف جعلت من القضيَّة نفسها هماً مقيماً في أفئدتنا.. ما أقامت بين ظهرانينا هذه العُصبة التي لم تراع فينا ديناً ولا دُنيا!

عُدتُ من القاهرة والتي أصبحت اسماً على مُسمَّى كمْ تعلمون، وذلك بعد زيارة امتدَّت لنحو ثلاثة أسابيع. والذين يزورون القاهرة مثلي هذه الأيام، هُم قطعاً لا يقصدونها ابتغاء السياحة ولا الترويح عن النفس، أي لا شوق يدفعهم لرؤية أبي الهول، ولا حباً يحرّضهم لمشاهدة المُوميات التي ترقد باسترخاء في المتحف الكائن في ميدان التحرير. لكن من خلال تماثلٍ غير مرني لم يكن عصياً عليَّ ولا على غيري، أن ندرك من خلال مشاهدات هذه الواقع "الثائر" أنها ليست ببعيدة عمَّا نحن فيه غارقون. فالمسرح هو نفس المسرح، وإن اختلفت سيناريوهاته، والمسرحيَّة هي ذات المسرحيَّة وإن تبدَّل شخوصها!

عندما تكون في مصر، فاعلم – يا هداك الله – أن ثمَّة أشياء لا يُسأل عنها مطلقاً.. لماذا؟! لأنها إن تبدي لك ستورثك من أمرها عُسراً.. سيَّان ذلك، سواء دخلت مصر آمناً مطمئناً بالمنطق القرآني، أو جئتها قلقاً باحثاً عن إجابة لما استعصى عليك فهمه بالمنطق العلماني. ومع ذلك، فلا مناص من أن الأسئلة الحيرى ستحاصرك حتماً، وأنت تختال في قلب ميدان التحرير، متبختراً بين الثوار، تحاكي أبا دجانة في رهطِه. من يا ترى سمَّى هذا الميدان بهذا الاسم الجذَّاب؟! لا أدري، ولكن لا أشكُّ في أن ذلك كان في عُهود الاستعمار يوم كان الناس يتوقون للانعتاق من ربقته، ولم يخطر ببالهم أن قيصراً جديداً سيخرج لهم من بين مسامات جلودهم ليُلهب ظهورهم بما عجز الاستعمار نفسه عن فعله.

على كلٍ، هبْ أن التسمية هي كذلك، فلماذا لم تفطن الأنظمة "الوطنية" لهذا الاسم المُفخَّخ؟! وبعبارة أخرى، كيف غفلت الديكتاتوريات التي تراكمت عن الاسم دون أن تجرؤ على تغييره؟! أم يا ترى كان سدنتها يتساءلون سراً كما تساءل قوم لنا جهراً.. التحرير مِمَّن؟!

على كلٍ، سواءً تساءلت أم لم تتساءل، فلا جدوى من الأسئلة بعد أن أصبح الميدان قلب مصر النابض، ورغم صِغَر مساحته، فهو قادرٌ على ضخ الدماء في جسدها طولاً وعرضاً وارتفاعاً. وإذا قُدّر لك أن تزوره، ستدرك هناك أن الموميات القابعة في المتحف قُربه، نهضت ونطقت وأسمعت مَن به صمم، وستعلم أيضاً أن أبا الهول أصغى السمع لأمير الشعراء "أحمد شوقي" بعد ما عيل شعره:

أبا الهَول طالَ عليكَ العُصُر* وَبلِّغتَ في الأرضِ أقصى العُمُر**
كَأنَّ الرِمــالَ عَلى جانبَيــك * وبَيـن يديــكَ ذُنــوبُ البَشَــر!**

لستُ من الذين يميلون لاستنساخ تجارب الشعوب، ذلك ليقيني أن ما تعارف منها ائتلف وماتنافر منها اختلف. لكنها قد تتماثل ولا ضير في ذلك. وبصورة عامة، فالتاريخ نفسه كما حدثنا المُؤرّخ الكوني الأشهر أرنولد توِنبي (ما هو إلا قنوات متصلة لا فجوات بينها)، لهذا لا يغُرَّنك قولنا تفاخُراً إن ربيعنا السُوداني بثورتيه المعروفتين ١٩٦٤/١٩٨٥ سبق الربيع العربي بعقود زمنيَّة. حسناً، بغضِّ النظر عن أن ذلك يعني أننا نصَّبنا أنفسنا أمراء على مستضعفي شعوب الكرة الأرضيَّة، ولكن المأزق الذي لم ننتبه له، هو أن استمراء العُصبة ذوي البأس الجلوس على صدورنا لأكثر من عقدين حسومين، انتقص من رصيدنا المذكور في بنك الإنسانيَّة. عليه، فلندَّخر ذلك في ذاكرتنا لنتواضع أمام تجارب الآخرين، فذلك ربما أورثنا – على الأقل – حافزاً في استنهاض الهمم لكنس دولة العُصبة ورميها في مزبلة التاريخ!

دخلت مصر آمناً.. في البداية بدا لي كأنني أبحث عن ثورة استعصت – إلى حين – على الغُر الميامين من شباب بلادي، ذلك ما خطر ببالي كلما وجدت نفسي في خضم مسيرة أو تظاهُرة أو اعتصام أشارك في فعاليّاته كأن لي فيه ناقة وجمل. نعم، كان لي فيها ناقة وجمل، لماذا؟! ليس لأن النيل يجري شمالاً، فتلك هي ديكتاتوريَّة الجغرافيا التي لا نستطيع لحُكمها تبديلاً. ولكن لأن الظلم لونه واحد، وأن الاستبداد طعمه واحد، وأن الفساد رائحته واحدة، وأن الديكتاتوريَّة لسانها واحد وإن تحدَّثت بلغاتٍ ولهجات عديدة، وأن الشموليات دينها واحد وإن اتخذت من دستور ربِّ العالمين متكأ. وباختصار فدولة "الإخوان" ملَّتها واحدة، مِن حسن البنَّا وحتى حسن التُرابي!

أرجو ألا تأخذنا العزَّة بآثام التاريخ، فنحن قومٌ مجبولون على إطلاق القول على عواهنه، لا سيَّما، عندما يتعلق الأمر بفقه المقارنات بين شعوب وقبائل

وأمم. عليه، أشهد أنني رأيتُ وعايشتُ شعباً ثائراً بكل المقاييس.. يا إالهي.. ارتجفت أوصالي واقشعرَّ بدني وتلاحقت أنفاسي، عندما شاهدتُ فتيات وفتياناً في ميعة الصِبا يحملون أكفانهم في أيديهم وهُم على استعدادٍ للتضحية بأرواحهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. رأيتُ شباب يبيت الطوى لأيام وليال، لا يأكلون سوى خشاش الأرض من "فول وطعميَّة"، وبالرغم من تعطل مصادر رزقهم، وتوقفت حياتهم بكل ضُروبها، فهُم غير عابئين ولا غاية لهُم سوى تأكيد دولة المواطنة، وتكريس الديمقراطيَّة منهجاً للحُكم. هزَّني منظر أسرة بكاملها من الجد للحفيد وهي تعتصم بصورة فرديَّة، وترفع لافتاتٍ تُنَدِّد بالظُلم الذي حاق بها والوطن، ما أجمل الحريَّة.. اضطرب وجداني أيضاً عندما توقفتُ أمام رَجُلٍ مُسِن، بلغ من العمر عتياً، يستظل بلافتة كُتِبَ عليهِ سؤال فلسفي وجوديٌ قد يعجز جون بول سارتر نفسه عن إجابته.. "أنا مين؟!"..

جالستُ زملاء صحافيين، وسمعتُ من آخرين إعلاميين، وتحدثتُ إلى العديد من النُخب المثقفة، وخالطتُ المئات من غمار الناس في الشوارع والمقاهي والميادين والمواصلات العامَّة، حيث يتواصل الحديث عن الثورة الناهضة ومآلاتها، وذاك هو القاسم المُشترك الأعظم. كان الناس – ونحن منهم – يظنون وهماً أنهم شعب خانع، وينسون أنه عندما يتعلق الأمر بالشعوب ودروسها لا ينبغي أن تزرُ وازرة وِزرَ أخرى. بَيْدَ أن الصورة وجمالها لم تُنسِنا في لقاءات المكاشفة والمصارحة مع النُخب المهمومة بأمر وطنها أن نذكِّرهم بالخطيئة التي ارتكبوها – سهواً أو عمداً – عندما تقاعَسَ غالبيتهم عن إيلاء تجربتنا المريرة العناية الكافية. قلنا لهُم: لو أنكم فعلتُم لكنتم جنَّبتم بلادكم هذا المأزق التاريخي، منذ أن بدأ بتضاؤل الخيارات، عندما وجدتُم أنفُسِكُم أمام صناديق انتخاباتٍ لم تعكس الواقع بحذفاره. وصدق الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل في قوله: **«كل من أدلى بصوته لمُرسي كان نكاية في أحمد شفيق»** والعكس صحيح!

مهما تكن الصورة، فلابُدَّ لأي ديمقراطي مخلص لتوجُهاته أن ينشرح صدره وهو يرى تلك الوقفة الصلبة لشرائح المجتمع المصري المتعدِّدة ضدَّ الدولة الدينيَة، دولة المُرشد مُحمَّد بديع وأزلامه، الذين يريدون قبر مصر بكُلِّ تراثها الحضاري في قبوها. إنها ثورة حقيقيَّة، قِوامُها الشباب بكُلِّ عُنفوانهم وتطلعهم لمستقبل أفضل، وسندها القانونيون من قُضاة ومحامين، وعضَدها الصحافيون والإعلاميون والمُفكِّرون في مراكز البحوث ومنظمات المجتمع المدني والجامعات والمعاهد، وقِوامُهَا الفنانون والمُمثلون والمُوسيقيون، وقاعدتها الطبقة العاملة في جمهورية "المحلة الكُبرى" نموذجاً، وفي كلٍ كانت المرأة رأس الرُمح لإداركها أنها أوَّل من سيُعاني من "دولة المرشد" إن قيِّضت لها الظروف وصولاً. نعم، بمفهوم الثورة الميتافيزيقي فهي كذلك، لأن التغيير مسَّ العصب الميِّت في الجسد المُحنَّط، فأنت تلمسها عندما يُحدِّثك عن الدُستور قومٌ صنَّفتهم الظروف والطبقيَّة المقيتة أسفل درجات السلم الاجتماعي. وذاك لعمري ثقافة

جديدة وقولٌ لا يعض عليه بالنواجذ إلا من اكتوى بنار الظُلم وذاق مرارة الاستبداد منذ عهد الفراعنة وحتى عهد الأبالسة!

مأساة دولة مُرسي أنهم يريدون أن يفعلوا ما فعله إخوتهم فينا من بشير ونذير وسعير.. فالمُرشد والرئيس وقعوا في ذات الخطيئة، يظنون أن الله سبحانه وتعالى ابتعثهم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور. فامتحنوا الناس في دينهم وقسَّموهم بين فسطاطين، الكُفر والإيمان. ثمَ جاءوا بالخطيئة الثانية، وهي امتحان الناس في وطنيتهم، بحيث يدمغ الفرد بالوطنيَّة إن وقف إلى جانبهم ونعته بالخيانة العُظمى إن عارض مخططاتهم. ثم جاءوا بالخطيئة الثالثة، وهي أنكى وأمرّ حيث حيث قسَّموا مصر لأوَّل مرَّة في تاريخها، ذلك حينما عمدوا للتفريق بين المرء وزوجه، الابن وأبيه، البنت وأمها. فقد حدَّثني الصديق الدكتور (م.م.)، وهو حتى وإن خالفته الرأي، فإنه يُعَدُّ من المُفكِّرين الإسلاميين المستنيرين، وله كتبٌ عديدة تشهد بذلك، كما أنه على أعتاب العقد السابع من عمره.. قال لي، إن زوجته التي قضى معها العُمر كله باتت تصدُر عنها أحكام تكفيريَّة، بالرغم من أنها تعرفه أكثر من قرَائه، وقال ساخراً: أخشى أن تهجرني يوماً وتقوم بتطليقي!

الواقع أن مُرسي وحكومته، شأنهم شأن بني جلدتهم الذين خبرناهم، ما أن جلسوا القرفصاء على كُرسي الحُكم حتى باتوا يُفكِّرون في فقه "التمكين"، لم يقتنعوا بالمُمارسة الديمقراطيَّة التي كفلت لهُم أربع سنوات، فباتوا ينظرون لأربعمائة عام، فيها يُرذل الشعب المصري ويُهان. لهذا، رأى الرئيس ومن خلفه المُرشد وأتباعه في المنام ما سُمِي بـ"الإعلان الدستوري"، وهو في الواقع "لزوم ما لا يلزم" على حدِّ تعبير نجيب سرور، عطّر الله قبره. كان الإعلان اختصاراً عبارة عن مشروع فرعون، وتكريس ديكتاتور جديد، أراد أن يقول للمصريين في لحظة غفلة من الزمن: "أنا ربُكم الأعلى"، فتداعت لذاكرتهم مرارة الظلم والاستبداد والسنين الكالحات، وحضرت في خواطرهم تجارب الدولة الدينيَّة في أفغانستان وإيران والسُودان ومَن لفَّ لفهم، فأدركوا أنهم أمام مأزق خطير، إن غَفِلوا عنه سيقودهم الهَوَس الديني حتماً إلى القُرون الوُسطى!

لأن النيل يجري شمالاً، ولأن الدول مثلها مثل البشريَّة، إن عطست شمتتها الأخرى، فلا يظنَّن أحدكُم أننا عن همِّنا غافلون، ونتواصلُ حول محنتنا التي قاربت منتهاها الأسبوع المقبل بحول الله!

آخر الكلام: لابُدَّ مِنَ الدِّيمقراطِيّة وإن طَالَ السَّفر!!
٢٠١٢/١٢/٢٥

هل خُلِق السُّودان في كَبَدٍ؟! (٧)

اتصالاً مع ما مَضى من حلقات هذه السلسلة، كنا قد شرعنا في تناول الأسباب التي أدَّت إلى تعثر الهبَّة الشعبيَّة، أو الانتفاضة الأخيرة، التي اندلعت منتصف العام المنصرم معظم شهريْ يونيو ويوليو، ولم تصل لنهاياتها المنطقيَّة. وقُلنا إن ذلك لا يعني استحالتها، فالسيناريو ما زال محتمل الحدوث باعتبار أن الظروف التي أدَّت لاشتعالها ما زالت قائمة، بل الصحيح أنها ازدادت سوءً على سوء. من هذا المنطلق، رأينا تسليطَ الضوء على مواقف القوى السياسيَّة وقياداتها التي تخاذلت، أو تلك التي غلَّت يدها إلى عُنقها وقعدت ملومة محسورة. لعلَّ ذلك يسهم في سدِ الثُغرات تعجيلاً بالوصول إلى الهدف الجمعي لغالبيَّة أهل السُّودان، والمتمثل في إسقاط هذا النظام الشمولي الفاشستي بعد أن تكاثرت جرائمه وتعدَّدت خطاياه. علماً بأن سقوطه هدف مشروع سيتحقق بالإرادة الشعبيَّة والحتميَّة التاريخيَّة حتى لو تقاعست القوى السياسيَّة عن أداء واجبها الوطني!

كُنا قد آلينا على أنفسنا الحديث بشفافيَّة في هذا الموضوع، ونعتقد أنها مطلوبة لأن الأمر يتعلق بقضايا وطن يتقسَّم ويتقهقر ويتقزَّم أمامنا ونحن نقف مكتوفي الأيدي، بقلوبٍ واجفة تكاد تكون أفرغت من أي مشاعر وطنيَّة. كنا قد توقفنا في الحلقة الماضية عند المواقف المزدوجة، بل والسلبيَّة لـ"الحسيب النسيب"، السيِّد مُحمَّد عثمان الميرغني، ليس في هذا الأمر وحده، ولكن في التعامُل مع قضايا السُّودان بصورة عامَّة، وقضايا الديمقراطيَّة والحُريَّات العامَّة بصورة خاصَّة. وأكدنا بما لا يدع مجالاً للشك – دونما تجنٍ أو بُهتان – أن هذه وتلك تُعدَّان ترفاً في أجندته. وعليه، لا ينبغي التعويل عليه في اتخاذ الموقف الوطني المطلوب، سيَّما وأن هذه المواقف قد تعرَّت أكثر مِمَّا ينبغي، وباتت واضحة كالشمس في كبد السماء. ولا أعتقد أن العبارات التي يطلقها سنوياً دونما تغيير أو ابتكار تقنع أحداً، مثل قوله الأخير لصحيفة 'الشرق الأوسط' ٢٠١٣/١/١٤م: «**ضرورة التصدِّي للمُهدِّدات الكبيرة التي تحدِّق بالسُّودان وتوشك أن تدفع به إلى مخاطر جمَّة**». بَيْدَ أننا لا نجترُّ ذلك، ولكن نُعيده حتى نكف عن خلق الأوهام وصناعة الأصنام. فالمُحصِلة التي يجب أن نسلم بها قطعاً لدابر أي جدل، هي أن "الحسيب النسيب" ظلَّ منتفعاً من الأنظمة الديكتاتوريَّة بالدرجة التي تجعله لا يتمنى سقوطها، ناهيك عن العمل على إسقاطها!

على صعيدٍ آخر، ولأسبابٍ تبدو معروفة للجميع، أنه ما ذُكر هذا الحزب أو صاحبه، إلا وأشارت الأصابع للسيد الصّادق المهدي، الغريم الذي يقف على رأس حزب الأمَّة. فمِن عجبٍ أن هذين الحزبين ظلا يتنافسان في الخير والشر! بالرغم من كل ذلك لابُدّ من القول قبل الإبحار في الأعماق، أن ثمَّة فوارق كبيرة بين الرأسين. وليس عصياً على أي مراقب رصدها أو عدِّها، كما أننا لسنا بصدد ذلك إلا بالقدر الذي يستوي به هذا المقال على سوقه. فبينما ظلَّ الأول (الميرغني) مستعصماً بالبُعد عنا وعن قضايانا (يكتفي بمقابلة سنوية، يكتبها ويجيب عليها وينشرها صحافي اسمه محمَّد سعيد محمد الحسن، لا يعرفه الكثيرون، رغم أن عمره جاوز السبعة عقود زمنيَّة، وقضى أكثر من نصف قرن منها معاقراً السُّلطة الرابعة دونما هويَّة، ذلك ببساطة لأنه لم يسجِّل موقفاً واحداً في بلاطها) بينما ظلّ الثاني (المهدي) كتاباً مفتوحاً على الدوام، بغضِّ النظر عن محتواه.

بناءً على ذلك، كانت لنا حوارات متصلة معه كلما تهيَّأ ظرفها، وآخرها منتصف شهر رمضان ٢٠١١م، أي السنة قبل الماضية. وكانت قد استمرَّت زهاء الثلاث ساعات، وجاءت في محاولة منَّا لاستنكاه مواقف البعض حول ما يجري في البلد الصابر أهله. وحتى لا نُغمِط الرَّجُل حقه، فهو سواء معي أو مع غيري، فإنه لا يتوانى في منح محدِّثه الإحساس الكامل برحابة صدره وتقبُّله النقد، حتى لو كان من العيار الثقيل. ولكن قُل لي بربِّك، منذ متى كان ذلك وحده كافياً؟! بل ما جدواه إن لم يتبعه تقييم وتقويم وإصلاح؟!

في ذلك الحوار، سألتُ المهدي مباشرة عن رُؤيته لسيناريوهات التغيير المتوقعة في أجندته؟! فأجابني بما يعرفه الكثيرون، وطرح عدة سيناريوهات رجَّحها بالانتفاضة الشعبية. وبالنظر لتاريخ الحوار المذكور، كانت الانتفاضة يومذاك في رحم الغيب. ومن جهةٍ ثانية، كان قد أفصح لي عمَّا يخشاه في ذهنه وسمَّاه بسيناريو "الحزام الزنجي" - على حدِّ تعبيره. كان يقصد زحف الحركات المُسلحة، وتحديداً قطاع الشمال (عبدالعزيز الحلو من جنوب كُردُفان، ومالك عقار من جنوب النيل الأزرق) نحو العاصمة، بل لم يجد في نفسه حرجاً من التأكيد بأنه تحدَّث مع العُصبة الحاكمة عن خطورة هذا السيناريو لأنه يؤدِّي – بحسب زعمه – إلى تفتيت السُّودان. وقال إنه قصَدَ بمناقشتهم لأن يتخلوا عن غلوائهم واستعلائهم، والجلوس مع المعارضين لتجنيب السُّودان وأهله صوملة جديدة تقف ماثلة للعيان. والحقيقة لا أدري، إن كان لمثل هذا قال الإمام علي بن أبي طالب عندما شغب عليه الخوارج «كلمة حق أريد بها باطل».. مع ذلك، لا أود أن أعيد تفصيلاً ما قُلته له عن هذا السيناريو الذي لم يجد قبولاً، بل لم يجد ارتياحاً في نفسي من أن يصدُر من رجُلٍ في قامته، خشية أن أظهر ببطولة لا أدَّعيها، ويظهر هو بخيانة لستُ متيقناً من إثباتها!

لكن دعونا نتوقف في الانتفاضة الشعبيَّة التي رجَّحها المهدي عمَّا سواها من سيناريوهاتٍ لإسقاط النظام، فالذي حدث وعلم به القاصي والداني، أن

الانتفاضة المأمولة عندما جاءته بالباب، فرَّ منها وقفز بالشبَّاك. كيف حدث هذا يا هداك الله؟! جاءته الانتفاضة تجرجر أذيالها في عقر داره، وجعلت من مسجد السيد عبدالرحمن مركز انطلاقتها، هل ثمَّة شرف أكبر من ذلك؟! لا أريد أن أعيد المواقف المتخاذلة والتي كانت لا تشبه رجلاً جاء من صُلب سلف استرخص الغالي والنفيس. كما أنني لا أريد أن أعيد المواقف الأكثر خذلاناً لمن سار في ركبه، وعلى رأسهم السيد عبدالمحمود أبُو، والذي كان موقفه متماهياً مع مواقف جعلته يضع رجلاً في هيئة شئون الأنصار وأخرى في هيئة عُلماء المؤتمر الوطني.. فالمهم أن حصيلة هذا وذاك كان خُذلاناً مبيناً!

أكثر ما يُحيّرني في شخصيَّة المهدي، امتحانه لنفسه من دون أن يطلب منه أحد ذلك. مثلما حدث أثناء وجوده في القاهرة قبل نحو شهرين أو يزيد، حيث دعا السُّودانيين للاعتصام، واحتلال الساحات والسفارات في الخارج. وبعدها مباشرة تزامنت عودته للسُّودان مع الجريمة النكراء التي اغتال فيها النظام أربعة من طلاَّب جامعة الجزيرة، الأمر الذي استنفر قطاعات كبيرة في معظم مُدُن السُّودان ودفعها للتظاهُر. عندئذٍ نَسِيَ المهدي دعوته، بل حتى عندما اجتمعت قوى الإجماع الوطني لمناقشة الأمر، خرج المهدي بالباب الخلفي – طبقاً لما تواتر من أخبار– ومن قبل أن ينفض سامر الاجتماع.

كما نذكُرُ في ذات السياق أيضاً، أنه سبق وتبرَّع بوعودٍ لم يُنجزها. حيث رَهَنَ عدم حدوث أشياء بتقديم استقالته. قالها يوم احتدم الجمعان أثناء ملابسات مذكرة ضُبَّاط القوَّات المسلَّحة، وكان يترأس حينذاك الوزارة في الديمقراطيَّة الثالثة، وقالها مرَّة ثانية، وحدَّد يوم ٢٠١١/١/٢٦م للإطاحة بالنظام، أو اعتزال السياسة. وهو تاريخٌ عظيم لو تعلمون. عندما حان أوانه، لم يفعل المهدي لا هذا ولا تلك، وإنما ذهب لمقابلة رأس الدولة المطلوب للمحكمة الجنائيَّة في القصر الذي بناه غُردون! أما الثالثة والأخيرة، فقد كانت قبل أيام نطق فيها بالاعتزال مرَّة ثانية، وعندما حُوصِر بالتاريخ، قال إنه لم يحدِّد موعداً بعينه. بل زاد بما هو أنكى، حيث قال إنه لن يُقدِم على ذلك إلا بعد أن يُنجِزَ مهمَّة تدريب من سيخلفه في عرش الحزب. وتلك لعمري مثلت أكبر إهانة لكادر الحزب، فضلاً عن أن السُّؤال الذي توارد للذهن مباشرة: إذاً ما الذي كان يفعله المهدي وهو في سُدَّة الرئاسة لما يربو على نصف قرن؟!

واقع الأمر أن ثمَّة سؤالٍ آخر، ظلَّ يراودني كلما رأيتُ السيد المهدي يتلجلج في أفعاله ويتناقض في أقواله، وسأطرحه على القرَّاء الكرام: هل المهدي يريد إسقاط النظام حقاً؟! بصورة أخرى، ما الذي يفتقر له المهدي في ظِلِّ النظام الديكتاتوري الحالي، حتى يطمح له في كنف نظام ديمقراطي مأمول؟! بصورة أكثر وضوحاً، إن كان السيد المهدي يتأمَّل إسقاط النظام، فلماذا يريد إسقاطه؟! وبصورة أكثر وجعاً، إذا أسلمنا جدلاً بأن المهدي يريد إسقاط النظام عبر الانتفاضة الشعبية، فماذا أعدَّ لها؟! وبصورة أكثر واقعيَّة، هل ندوة أسبوعية دأب

المهدي على مخاطبتها (بين السياسة والصحافة) ومخاطبة المُصلين دورياً وخُطبة العيدين، هل هذه آليات تكفي لإزاحة نظام ديكتاتوري وتعبئة الرأي العام ضده؟! وهَبْ أنها فعلت – ولو بأضعف الإيمان – فكيف سيُعبِّرون عن مكنون صدورهم؟!

إن من يريد إسقاط النظام تكون لديه أهدافٌ مشروعة يتأمَّلها من وراء إسقاطه. هذه الأهداف تتراوح بين غايات وطنيَّة وأخرى ذاتيَّة، وبقدر ما أن الأولى معروفة، فإن الثانية تتمثل فيما يمكن أن تحققه الديمقراطيَّة للفرد في سياق تطوُّره الإنساني والطبيعي، وقُدرته على الخلق والإبداع والإنجاز. بهذا المنظور، أرجو ألا أظلم السيد المهدي إن قلتُ إنه مثل صُنُوِّه، ليس له حاجة في نظام ديمقراطي لأنه ببساطة لا يوجد ما يفتقر له شخصياً في ظِلِّ النظام الديكتاتوري. فهو يمارس حياته بكُلِّ عُنفوانها، بما في ذلك "الكلام"، وهو أبغضُ الحلال الذي وصَمَته به العُصبة نفسها عندما أطاحت بحُكمه. بل يمكن القول – بالنظر لهذا الواقع – بأن الديمقراطيَّة تأتي في مؤخرة أجندته، والتي في تقديري تتصدَّرها الآن الطائفة الأنصاريَّة وهُمومها، أي كيفيَّة المحافظة على الإمامة في عقر داره بعدما كثُر المتربصون حولها. ثم يأتي الحزب وشُجُونه في البند الثاني لأجندته، أي كيف تظل الرئاسة قابعة في دائرة أسرته. ثم بعدئذٍ يمكن للقضايا الأخرى بما فيها قضيَّة الديمقراطيَّة أن تجد لها موقعاً في الأجندة!

حتى لا يُقال عنا أننا نرمي الحديث على عواهِنه، سندعم قولنا هذا بما هو مكتوبٌ ومنشورٌ على المستوى النظري، وآخر من وراء حجاب على المستوى العملي. بالنسبة للأول، فليتأمَّل معي القارئ هذا المقتطف من حوار أجرته معه صحفيَّة نابهة (السُوداني ٢٠١٣/١/٨):

- **السيد الإمام.. هل أنت مع إسقاط النظام؟**

= إسقاط النظام وسيلة من وسائل إقامة نظام جديد. نحن نقول إننا نريد نظاماً جديداً، أحد الطرق إسقاط النظام والآخر هو برنامج الكوديسا، الإسقاط ليس الوسيلة الوحيدة لنظام جديد.. نحن نادينا بالبرنامج القومي والسبيل له برنامج الكوديسا وانتفاضة الجهاد المدني، وهذا الكلام مكتوب من سنة ونصف.

- **وانت تنادي به منذ ذلك الوقت ولم يحدث شيء؟**

= سيحدُث، أي شيء له فترة حضانة، الأفكار الآن أصبحت موجودة لكثير من الناس، نحن نوجد رأياً عاماً وسيُجسِّد نفسه في أحداث.. الحديث عن مشروع سياسي لا يعني أنه سينفذ غداً لكن يعني أن البذرة وضعت وهي تنمو إلى أن تورق وتزدهر وتثمر.

- **نصحِّح السؤال، هل أنت مع وسيلة إسقاط النظام؟**

= أنا مع الوسيلة الأسهل.. نفضِّل نظام الكوديسا وإن عجزنا نختار الثاني.

- **لم تعجز بعد؟**

= نحن ماشين.

- **هل تسقط الحكومات العسكرية بوسائل سلميَّة مثل التي تنادي بها؟**

= مايو سقطت. الترتيب الأفضل "الاعتصامات" وهو ما يُسمَّى بالجهاد المدني، ونحن نقول إن كل الوسائل مشروعة إلا العُنف.

- **أعلنت قبل أن تسافر لإحدى الدول الخارجيَّة إنك ستسعى لحشد السُودانيين في الخارج لاعتصامات أمام السفارات، هل نجحت في ذلك؟**

= يا أستاذة، هذه الأشياء بتوقيتها، لم نقُل الليلة، سنذهب في خطنا وإن تحقق الهدف المتمثل في التحوُل الديمقراطي والسلام الشامل كان وبها، وإن استحال نكون قد فعلنا تعبئة كافية لاتخاذ الجهاد المدني.. نحن مع كل الوسائل إلا العُنف.

انتهى المقتطف النظري ولن تنتهي المِحنة، وهو يشرح نفسه بنفسه ويؤكد ما أشرنا إليه سابقاً من ملاحظات في نهج المهدي. أما على المستوى العملي، سأفصح مباشرة عن ما تناهى لسمعي منذ فترة عن صفقة بين المهدي والعُصبة وقاسمها المشترك ابنه عبدالرحمن. تقول الرواية إن العُصبة استخدمت مكرها ودهائها في إقناع المهدي في أنهم بصدد ترشيح ابنه لرئاسة الجمهوريَّة في العام ٢٠١٥ ولكي يتسنَّى له ذلك فإنهم يطلبون موافقته لأن يشغل منصب مساعد رئيس الجمهوريَّة حتى يتعلم أصول الإدارة والحُكم. وهو المقترح الذي لاقى هوىً في نفس المهدي لأنه يصب في اتجاه البندين الأوَّل والثاني، المذكورين في صدارة أجندته، وهُما: الطائفة والحزب.

كما أنني بتُّ على يقين أن المهدي لا يريد أن يحكُم بعد هذا العمر، ولكنه يريد أن يرى ابنه في ذات الكُرسي. وطبقاً لذلك، كلنا يعلم أن المهدي حاول استخدام كل براعته في الإخراج لتبرير أمر يصعُب تبريره. بدليل أنه لم ينجح في إقناع الأقربين، ناهيك عن الأبعدين. حيث قال السيد نصرالدين الهادي المهدي ('الشرق الأوسط' ٢٠١٢/١/٧) وكان آنذاك في موقعه كنائب لرئيس الحزب: **«بهذا التعيين حَكَمَ على مستقبله السياسي في حزب الأمَّة بالنهاية»**.. حقاً، كيف لرجُلٍ في قامة المهدي السياسيَّة أن يدفع بابنه إلى أحضان الشيطان، إن لم يكن لديه مآرب أُخر؟!

ذلك ما سنمضي في تحليله الحلقة القادمة.. وما خفي أعظم؟!

آخر الكلام: لابُدَّ مِنَ الدِّيمُقراطِيَّة وإن طالَ السَّفر!!
٢٠١٣/١/١٦

هل خُلِق السُّودان في كَبَدٍ؟! (٨)

أشرنا في الحلقة الماضية إلى أن السيِّد الصَّادق المهدي رجُلٌ رَحْبُ الصَّدر، لا يضيق بالنقد ولا يتبرَّم منه، إلا فيما ندر، وتلك لعمري ميزة يفتقر لها كثيرٌ من السياسيين السُّودانيين. دعونا نمضي قليلاً في خصائص ومُميِّزات تُحسَب له، حتى لا يظُن أحد أننا نُميط اللثام عن سلبياته ونغمطه إيجابيَّاته. لقد عُرف المهدي بعِفَّة اللسان، فهو يختار من الألفاظ ما يُؤذي خصمه، ولكن بأدب. وإن شئنا تشبيهاً لتقريب الصورة، نقول: هو نقيضُ نافع علي نافع، الذي دخل التاريخ السُّوداني كأسوأ سياسي تبرَّأ منه لسانه. والمهدي قارئ نهم، أعتقد أن ما قرأه من كُتُبٍ في حياته يعجز رهط من الناس على أن يأتوا بمثله، وأزيد بأن المهدي رجُلٌ حادّ الذكاء، يشهد له أنه لم يستخدمه في صنع الدسائس ولا تدبير المؤامرات. كما أنه لم يعزل نفسه في بُرج عاجي، بل يطيب له مخالطة الناس.

أزيد أيضاً، بأنه يتَّسم ببساطة العيش، ربَّما حدَّ التقشُّف، لا يشغل نفسه بترفٍ من ترف الدنيا. ويعلم الناس أنه لم يُوصَمَ بفساد، لكن كادت قدمه أن تتعثر في مسائل مقاربة، وإن تعثرت بالفعل في أخرى (الأولى عندما طالب وقبل بمبدأ ما سُمِّي بـ"تعويضات ال المهدي" إبان تسنُّمه رئاسة الوزارة في الديمقراطيَّة الثالثة، وتراجع عنها بعد أن أثارت جدلاً أخلاقياً أكثر منه قانونياً.. أما الثانية، إغماض عينيه عن فساد إبن عمِّه والوزير في حكوماته، السيد مبارك الفاضل في نفس الفترة.. بَيْدَ أن الثالثة – ويا للمفارقة – عاد في زماننا الحاضر وقَبِلَ بـ"مغنم" عفَّ عنه من قبل.. فبدلاً عن استرداد العرش السليب، سأل العُصبة المغتصبة بما سمَّاه هو "تعويضات عن ممتلكات للحزب"، في حين سمُّوها هُم في الخفاء بـ"الرّشوة السياسيَّة". وليس سراً أن كثيراً من المراقبين ربطوا تلك بمواقفه الرمادية الأخيرة من مسألة سقوط أو إسقاط النظام، سيمّا، وأن للسودانيين قول دارج في مثل هذا المقام، ما كان ينبغي للمهدي المولع بالثقافة الشعبية أن يتناساه!

على الجانب الآخر، وبالنظر لموضوعنا المحوري في هذه السلسلة، وانطلاقاً من الفرضيَّة الأخيرة، لا شكَّ عندي أن المهدي بمواقفه التي تأرجحت، يعد أحد عوامل كثيرة – ذكرنا بعضها وسنأتي على ذكر البعض الآخر– ساهمت في ألاَّ تمضي انتفاضة يونيو ويوليو لنهايتها المنطقيَّة. وبمثلما ذكرنا في الحلقة الماضية، أن هذه المواقف المتذبذبة أكَّدت لي بما لا يدع مجالاً للشك، أنه وغريمه

الآخر لا يتمنيان سقوط النظام، ناهيك عن العمل على إسقاطه، وفي ذلك ذكرنا شواهد تدحض قول كل نقيض. ولعلَّ أكثر ما شغل بالي بعد أن استعرضتُ الإيجابيات أعلاه في شخصه، تساؤل لم أجد له إجابة شافية: لماذا لم ينجح المهدي في تجيير تلك الإيجابيات في شخصيَّته لكي يكون الرقم الصعب في الساحة السياسية السودانية؟! علماً بأنه يتقمَّص ذلك وهماً، كقوله لصحيفة 'البيان' الإماراتيَّة ١٠/٠٨/٢٠١٢م: «**أنا أنشط سياسي في الشرق الأوسط فكراً وتنظيماً ومبادرات.. "ليه عايزين يعطلوني".. أنا لا أرى غير الحَسَدَ سبباً وراء تعطيلي**». ولا تعليق، حتى لا ندخُل في زُمرة الحاسدين!

ثمَّ وجدتُ نفسي في مواجهة أسئلة كثيرة تفرّعت من السُؤال المحوري أعلاه، ومنها: لماذا ظلَّ المهدي وما انفكَّ يُهدِر الفرص الواحدة تلو الأخرى حتى بدا للمراقبين كمن يلهو بها؟! لقد ظلَّ المهدي في مضمار العمل العام لما يناهز نصف قرن، نتجت خلالها عنه أخطاء فادحة ومكلفة، فلِمَ لَمْ يعترف بخطأ واحد في حياته؟! لماذا يمتحن المهدي نفسه في مواقف يعرف سلفاً أنها ليست في صالحه وعندما يلازمها الفشل تمضي الأمور كما يمضي السابلة في الطرقات؟! كم مبادرة أطلقها المهدي في حياته السياسيَّة على المستوى الداخلي وتبخَّرت كما يتبخر الماء في الهواء؟! لماذا يسير في ذات الطريق ويطرح لأطراف خارجيَّة مبادرة تلو مبادرة دون أن يقول له أحد الفرقاء جزاك الله عنا خير الجزاء؟! لماذا يختار المهدي دائماً المكان الخطأ والزمان الخطأ لمواقف تتطلب الدقة في التصويب؟! هل المهدي سياسي سيء الحظ، أم أنه سياسي سيء التخطيط؟! كيف يقيس المهدي معايير شخصيته في عيون الآخرين، إذا انتقدوه قال إنهم حاسدوه وإذا بصَّروه قال إنهم مغايروه؟! ألا يشعر المهدي أن أحاديثه باتت لا تثير شهيَّة الناس، لدرجة أنه بات يطلق تصريحات يظن سامعها أنها ستدك الأرض دكاً، فلا يسمع لها صدى بعد حين؟! كيف يمكن ألا تعينه الإيجابيات المذكورة في الصمود أمام دعوته التي أطلقها في بواكير عمره بفصل الإمامة عن السياسة وينتهي به الأمر إلى دمجهما، بل "الكنكشة" حولهما؟! أشهدُ أنني لم أر سياسياً كريماً في منح منتقديه أو مناوئيه أو معارضيه فرصاً ذهبيَّة مثلما يفعل المهدي، فهل يفعل ذلك من باب الإثارة أم الهواية أم خطأً في التقديرات؟!

تمعَّنتُ في كل هذه الأسئلة الحيرى، وأخرى ما زالت تترى. غير أني تمعَّنتُ أيضاً في الأسباب التي كادت أن تجعل من المهدي شخصاً مدمناً على الفشل، وألخصها من باب الاجتهاد في التالي:

- **أولاً:** التردُّد.. لا أظن أن المهدي سمع للمرَّة الأولى هذه الصفة المقيتة، والتي أصبحت تحيط بشخصه كما السوار بالمعصم، وأعتقد أن أذنه ألفتها من كثرة ما ردَّدها عليه الخصوم والأصدقاء معاً. وبالطبع فإن لكلا الطرفين من الشواهد والأدلة ما يعجز كتاب عن حمله. ولستُ هنا في مقام من يريد إثباتها

بإيراد أمثلة ونماذج لن نعوزها. ولكن فقط نشير إلى أن ملابسات ما جرى بينه وبين السيد نصرالدين الهادي قبل شهور قليلة خلتُ يوضح ذلك. غير أني بدلاً من إيراد الأمثلة رأيت أنه من المُفيد محاولة استنكاه مسببتها. إذ أعتقد ألا أحداً من المجتهدين يمكن أن يذهب أكثر من أن المهدي يظن أنه من الذكاء بحيث يستطيع إرضاء كل الناس في وقت واحد، وهو غاية لا تدرك كما يقال. على كلٍ المعروف أن التردُّد هو أبغض الحلال الذي يمكن أن يلحق بسياسي، لأنه يجعل بينه وبين الفشل مودة وألفة وتواءم!

- **ثانياً:** النقد الذاتي، هذه الصفة قلنا عنها إن غيابها يعد الأكثر سطوعاً في شخصية المهدي. وتعلمون أن كثيراً من عُلماء النفس "السايكولوجيين" يعزونها لظروف التنشئة والتربية والبيئة المحيطة. وفي كُلٍ، لعلَّ المناخ الطائفي في حالته يُشكِّل القاسم المشترك، وهو محيط يرى في النقد تبخيس للذات وتقليل من شأنها. أياً كانت مسبّباته، فالثابت أن عدم ممارسة فضيلة النقد الذاتي حجبت عن المهدي مرآة كان يمكن أن يرى نفسه فيها بوضوح وأمانة، فمسيرة ما يناهز نصف قرن في الحقل السياسي، كان فيها من الأخطاء ما يجعل الهامات تتطأطأ خجلاً، لكن ذلك لم يحرّك شعرة في رأس المهدي، بل كثيراً ما رمى الآخرين بدائها وانسلَّ. عموماً إن افتقار السياسي للنقد الذاتي وأدواته يجعل من صاحبه شخصاً بلا لون ولا طعم ولا رائحة!

- **ثالثاً:** المهدي ينقصه مستشارون يلجأ لهم إذا ادلهمَّت الأمور أمامه. والواقع أنه عوضاً عن إحاطة نفسه بمستشارين، جعل من قيادات الحزب "كومبارس" يدورون في فلكه. ولهذا يكثر بل يسهُل خروج هؤلاء من ردهات الحزب. وللتدليل ثمَّة قائمة طويلة من الاسماء التي خاضت مع المهدي معارك متواصلة وآثر بعضهم الابتعاد تاركاً له "الجمل بما حَمَل" لابُدَّ للمرء أن يتساءل عن رجالٍ صدقوا بما عاهدوا أنفسهم به.. أين البروفيسور مهدي أمين التوم.. أين السيد صلاح إبراهيم أحمد.. أين البروفيسور فيصل عبدالرحمن علي طه؟! علاوة على آخرين أرهقهم الترحال والعمر وأثقاله، وسنتجاوز عن فئة رمت نفسها في أحضان الشيطان؟! والقائمة تطول. ولعلَّ أسوأ ما قرأته للمهدي في هذا الصدد إبان احتدام الوغى بينه والسيد مبارك الفاضل، قوله للأخير: **«إن هذا حزبه – حزب الأمَّة – فمن شاء فلينضم ومن شاء فليفارق»**، وبالرغم من أن هذا المعيار يوضح لماذا استعصت أزمات الحزب على الطبيب المداوي، لكن مع ذلك إن شئنا تشخيصاً نقول إن المهدي يثق في ذكائه حدَّ الغرور، فدائماً ما يتصوَّر أنه يستطيع أن يحل قضايا العالم كلها ضربة لازب، ناهيك عن قضايا السُودان وقد تسوى جناح بعوض بظنه!

هل نقول من أجل هذا وذاك، عَقدَ المهدي حلفاً مع المشاريع الخاسرة؟! مِن عجبٍ، تبدو لي أحياناً كأنها ملاذ يلجأ له لمُداراة عجز القادرين على التمام.

وفي ذلك سأضرب مثلاً، بعتباره الأخير في أجندته. إذ دأب المهدي على حضور مؤتمر سنوي لمنظمة اسمها "نادي مدريد"، لا أظن أن الكثيرين – حتى الذين تمرَّسوا في متابعة دبيب المنظمات – سَمِعُوا بها. وفي الواقع، قيل إنه منتدى لوُزراء ورُؤساء وزاراتِ سابقين، معظمهم لم يسمع به أحد حتى عندما كانت تحيط بهم السُّلطة وصولجانها، بل فرضاً أنهم سمعوا به يا مولاي، فالمُنتدى ليست له آليَّة لتحقيق أهداف بعينها، يقيمون مؤتمرات سنويَّة ويُصدرون بياناتٍ لا تغادر صُدُور قائليها، ثم يقضي أعضاؤه الفترة بين مؤتمر وآخر في التجوُّل بين عواصم العالم.. لهذا أظن أنه أقرب لنادي "أرباب معاشات"، يجتمعون لاجترار ذكريات السُّلطة. مع كُلِّ ذلك، يُعتبر المهدي حضوره – مهما كانت الأوضاع مكفهرَّة – فرضُ عين، ويعد ذلك ضمن إنجازاته التاريخيّة. وقبل أيام قطع المحيط لحضور مؤتمر هذا المنتدى في ولاية أركنسو، وعاد أدراجه دون أن يتوقف في واشنطن حيث صُنَّاع القرار في كُلِّ صغيرة وكبيرة في شئون العالم. المُتابعون لحركات وسكنات المهدي، يقولون دون تجَنٍ: إن كان لكُلِّ إمرئ آفة، فإن المهدي آفته في ذكائه!

ذلك يقودنا أيضاً للمهدي وكُتُبه، والتي ما كان لي أن أقبل نحوها لولا أنني قرأتُ في اليومين الماضيين أنه دشَّن كتاباً جديداً في احتفاليَّة لا تدُلُّ إلا على ترف فكري، لماذا؟! لأن الكتاب موضوع الاحتفاء يبدو كاليتيم الباحث عن مأوى، بالنظر للقضايا التي نحنُ فيها رازخون. فقد قرأتُ يوماً من باب التضخيم في عيد ميلاده السبعين، أن الأحباب أحصوا له ما يزيد عن مائة مُؤلَّف، ولعلّ مثلي من يُشجِع مثل هذه الأعمال لأنه يعلم مُكابَدَتها، ولكن بمثلما قرَّظنا حُبه للقراءة، يجب أن نقول إن التأليف يأتي خصماً عليها، ذلك أن الأحباب ظلموه بإحصاء بعض منها لا يمُتُّ لمنهج التأليف بصِلة (مثل كُتَيِّباتٍ طُبع عليها خُطب الجُمعة والعيدين) لهذا تأتي مؤلفاته ولا تجد من يذكُرها كمرجع يُعتَد به، هل من الأحباب من يستطيع أن يُحصي مؤلف أثار زوبعة فكرية أو سياسية؟! في حين أنه كان ينبغي بل يُنتظر منه كقامة فكريَّة سامقة أن تضارع مؤلفاته الجبال طولاً!

واقع الأمر، أن الأسباب التي تفسِّر ذلك كثيرة، منها أن المهدي يريد أن يكتب في كل شيء، بل يظن أنه يمكن أن يكتب في أي شيء بغضِّ النظر عن صدى هذا أو ذاك، وليس من أنيس أو جليس يُسدي له النُصح المُبين. أما نحن، فلن نقول شيئاً دون أن نستدل بظلاله، فمن المُفارقات كتب المهدي مطلع هذا الأسبوع (٢٠١٢/١/٢١م) آخر مقال بعنوان: "ماذا بعد ميثاق كمبالا؟"، وأدهشني في آخر سطر بعد أن أحصى مثالب الميثاق وعثراته بقوله، أن هذا الميثاق: «**فرصة لقوى المعارضة أن تعمل على إزالة العيوب وفرصة للنظام الحاكم أن يراجع سياساته بصورة جذريَّة من أجل الوطن الذي سوف يمزقه الاختلاف والاحتراب**».. هذه – يا هداك الله – دعوة

موجَّهة لنظام جثم ما يقارب رُبع قرن على صدورنا، ولم تتمزَّق بعد! فمن ذا الذي سيقول للمهدي ينبغي أن تراجع مسيرك، فإن مسير النظام قد حفظناه عن ظهر قلب!

صفوة القول، إن قبول المهدي لابنيه في أن ينخرطا في نظام يحاربه هو يُعَدُّ استغفالاً واستخفافاً بالعقول. ولكن هَبْ أننا آمنَّا بديمقراطيَّته مع أبنائه في خياراتهم، فذهب أحدهم لجهاز الأمن بكُلِّ ما يمثله الجهاز من قُبح في ذهنيَّة السُّودانيين، وذهب الآخر للقصر، الذي قتل فيه جده غُردون، لينضمَّ لرتلٍ من شُذاذ الآفاق والعاطلين عن العمل، في حين بقي هو في المُلازمين معارضاً. أليس من حقنا أن نتساءل: هل يمكن للمهدي الذي عجز عن إقناع ابنيه بخطل خُطواتهم تلك، أن يقنع شعباً كاملاً بضرورة إسقاط النظام؟!

ليس لديَّ ضبابيَّة في هذا الأمر، فقد كتبتُ هذا بعد طول تأمُّلٍ وألم وحسرة، وأقولها بصدقٍ شديد ومحبَّة أخوية خاصَّة، إنك يا سيدي – بحيثيَّات ما ذكرت – قد ساهمت مساهمة واضحة في ألا تمضي انتفاضات هذا الشعب المكلوم نحو نهاياتها المنطقيَّة، والتعويل عليك في أمر كهذا بعدئذٍ أشبه بمن يتمنى استمطار السماء ذهباً.. فبمثل وضوحي هذا، أطمحُ في وضوحك كذلك.

ورحم الله امرئ أهدي إليَّ عيوبي، أو كما قال!

آخر الكلام: لابُدَّ منَ الدّيمُقرَاطيّة وإن طال السَّفر!!
٢٠١٣/١/٢٥

هلْ خُلِق السُّودان في كَبَدٍ؟! (٩)

إذا أردتَ أن ترى عَبَثَ التحالفات السياسيَّة في الواقع السُّوداني، فانظر – يا هداك الله – إلى الحزبين: الشيوعي والشعبي. وفي واقع الأمر، لستُ متيقناً ما إذا كان توصيف "حزب" ينطبق عليهما بدقة، وفق المنهج والمعايير التي اصطلح عليها في العلوم السياسيَّة. والحقيقة ليسا وحدهما، فما من تنظيم سياسي في الساحة السودانيَّة يمكن أن يُقال عنه أنه جدير بهذا التوصيف بحذفاره. فإن كان ما يُسمَّى بالأحزاب التقليديَّة قمينة بهذه المفارقة، نظراً لطبيعتها الطائفيَّة التي تتضاد مع المصطلح، فما بال الحزبين اللذين يدَّعيان الحداثة، بغضِّ النظر عن الآيدولوجيَّة الماضويَّة للثاني، وجمود الأول الراهن في "الضل الوقف ما زاد" - بحسب تعبير المُبدع الرَّاحل عُمَر الطيِّب الدوش. وعليه، فإن حالهما صار أشبه بحال كسيح وأعمى، كان بينهما ما صنع الحدَّاد ويعيشان في قرية طاف عليها وباء، فهجرها أهلها ركضاً باحثين عن ملاذ آمن. لم يجد العدوان اللدودان ثمَّة مناصٍ من تحالف فرضته الكارثة، فتواصيا على أن يمتطي الكسيح ظهر الأعمى ويفرا مع الهاربين. فعلا ذلك، ولكن عادا سيرتهما الأولى دون أن يفلح العطار إصلاح ما أفسده الدهر، ولكن قُل لي بربِّك – يا عزيزي القارئ – هل عرفت الكسيح من الأعمى؟!

أعلم أنك لن تخطيء الإجابة، فوفقاً لمُعطيات الوضع الرَّاهن، أي منهما يمكن أن يكون هذا أو ذاك. لكن بصورة عامة، فإن المُفارقة التي لن تجد لها تفسيراً في واقعنا المريض، هي أن النشاط الحزبي يتطلب الديمقراطيَّة منهجاً وتطبيقاً، ونحن نروم الديمقراطيَّة نفسها من قوى سياسية تفتقرها. والمُفارقة التي لن تجد لها تفسيراً، هي أن الكيان الحزبي يفرض على عضويته الأطُر التنظيمية المتعارف عليها، ونحن نرزخ تحت نير أحزاب لا تملك في أضابيرها مجرَّد لوح محفوظ يضم أسماء منسوبيها. والمُفارقة التي لن تحد لها تفسيراً، هي أن العمل الحزبي قوامه العطاء، ونحن نعيش في كنف أحزاب أصبحت وسيلة للثراء والرفاهية الشخصيَّة، لدرجة صارت فيها ظاهرة الخروج والعودة دون حسيب أو رقيب أمراً عادياً. أما وإن شئت الحديث عن عدد عضويتها، أو قاعدتها، فسترهق من أمرك عُسراً!

تقصياً للفرضيَّة الأخيرة، كنتُ قد جلستُ إلى الدكتور حسن التُرابي منتصف رمضان قبل الماضي، وثالثنا الأستاذ كمال عُمَر في هذا اللقاء الذي امتدَّ لنحو ثلاث ساعات، كانت شهية الترابي خلالها مفتوحة للكلام بحيويَّة يحسده

عليها من بلغ من العُمر عتياً. لم يترُك التُرابي باباً إلا وطرقه، طاف بي وحلّق في سماواتٍ طباقاً، بعضُها سألته عنها، وأخرى لم أتبرَّع بالسؤال عنها. وهنا فليسمح لي القارئ بانعطافة صغيرة عن موضوعنا (واقع الأمر، وبالرغم من تقادُم السنين، لم أدرك تماماً أن ما سُمِّي بـ"المُفاصلة" بين القصر والمنشيَّة مفاصلة حقيقيَّة، إلا عندما تفرَّستُ وجه الترابي، وهو يتحدَّث عن حُكَّام اليوم حواريو الأمس، وكان وقتها يضغط على أضراسه، وكذا إبهامه وسبابته كمن يهرس في شيءٍ ما هرساً)!

بيد أنني اتَّخذتُ من ذلك منطلقاً لمعرفة حجم الحزب الذي يرأسه، وذلك بسؤاله عن الكيفيَّة التي يريد بها إسقاط بنيه وإزاحتهم عن سُدَّة السُلطة. قلتُ له متعمِّداً استفزازاه. ولكن أين الجماهير التي تستند عليها، وأنت ترأس حزباً بقاعدة متواضعة، إن لم تكن معدومة؟! فقال بثقة مُفرطة تتبعها تلك الابتسامة الساخرة: نعم لدينا، وهُم يعلمون ماذا أعني عندما أتحدَّث عن الانتفاضة، وهُم يعلمون أنني أشاركهم الجلوس في أي مقعد في هذه الدولة، وهم يعلمون إنني القادر على إزالتهم من السُلطة.. واقع الأمر، في تلك اللحظة وَمَضَ في ذهني منظرٌ مفارق عند دخولي داره، إذ رأيتُ شخصين فقط يجلسان في فنائها، وهي ذات الدار التي كانت تعج بالبشر في زمانٍ مضى، حتى يصعُب أن يجد المرء فيها موطئ قدم!

طبقاً لذلك، يصعُبُ تصديق التُرابي في كل ما يقول، لأنه كثيراً ما نقض غزله بيده، وكثيراً ما جبَّ قوله بنفسه. وفي تقديري، أن حديثه عن قاعدة شعبيَّة هو محضُ تنطع سياسي لا غير، وأظنه يضع عينه على قاعدة حوارييه نفسها، وربَّما اعتقد وهماً أنها يمكن أن تعود إلى حياضه مرّة أخرى. وبالرغم من أن هذا الافتراض يعد ممكنا بالمنظور الانتهازي، الذي دَرَجَت عليه هذه 'الفئة من الإسلامويين، وبما أن الصراع هو صراعٌ سُلطوي في المقام الأول، ونظراً لأن من بيدهم السُلطة هُم حواريوه القدامى، هنا يمكنني القول بإطمئنان شديد، إن الترابي هو من سيعود إلى حضنهم، غضَّ البصر عن كُلِّ مظاهر الفجور في الخصومة التي ورد ذكرها.. بل نقول للمستغربين حينها، لن يجد الشيخ حرجاً في استنباط مخرج فقهي مستنداً على قياس القرآن والسُنَّة.. فهذا مِمَّا لا يعوزه!

عليه، يمكن القول أيضاً طبقاً لمُعطيات الواقع، إن التُرابي يريد امتطاء ظهر القوى السياسيَّة التي تحالف معها في إطار "قوى الإجماع الوطني" لتحقيق مآربه الخاصة، متمثلةً في استعادة فردوس السُلطة المفقود. وإذا ما أسلمنا جدلاً بألا غضاضة في تحالفٍ بينه والقوى التقليديَّة، أي الحزبين الطائفيين أو "السياميين"، نظراً لما بينهما من قواسم أيدولوجيَّة مشتركة، وتبعاً لطبيعة القوى اليمينيَّة في ضعفها حيال السُلطة، باعتبارها وسيلة لتحقيق أحلام ذاتيَّة أكثر من كونها وسيلة لتلبية تطلعات جماهيريّة مشروعة. لكن الذي لا يستقيم له عقلاً، أن يكون الحزب الشيوعي مُغيَّباً عن الوعي، وهو أحد رُوَّاده، فبغضِّ النظر عن

الإختلاف الفكري المعروف، فقد كان يفترض أن يكون الأكثر إدراكاً بطبيعة المؤتمر الشعبي بصورة عامة، والترابي بصورة خاصة، لا سيَّما، وقد لُدغ من جُحره مرَّتين!

إن الإجابة الواقعيَّة على هذا السؤال، تقودنا إلى حالة التكلس والجمود التي يعيشها الحزب الشيوعي، والتي يمكن اختصارها في كلمة واحدة، وهي "العجز"، فقد أصبح الحزب الشيوعي عاجزاً عن الفعل للدرجة التي باتت تستدعي الشفقة. و"الشفقة" في العمل السياسي أو حتى في العلاقات الإنسانيَّة تُعَدُّ أعلى مراتب التقريع، ذلك لأنها تسلب المُخاطَب سواءً كان فرداً أو تنظيماً أهم خاصية حيوية يُفترض أن يتمتع بها، وهي الإحساس بالكينونة!

لقد بنى الحزب الشيوعي السُوداني تاريخاً مجيداً في النضال الوطني، للدرجة التي كان فيها ينافس نفسه. بل قدَّم نفسه بنفسه كحزبٍ مجرَّد من الانتهازيَّة السياسيَّة. وتحلَّق حوله قومٌ تجرَّدوا من أي طموحاتٍ شخصيَّة حدَّ الزُّهد، نذروا أنفسهم من أجل الدفاع عن الحريَّات ونشر الوعي ومنافحة الديكتاتوريات، ولم يتوانوا في تقديم ذواتهم قُرباناً لما آمنوا به. الذي حدث يا صاحبي، أن هذا الرَّصيد الضخم أصبح وبالاً على الحزب نفسه، فكلما دارت دوائر المقارنات وفقهها، انسلخ الماضي عن الحاضر نظرياً لأن البون شاسع، أما عملياً فقد حضر الناس مناسبات وأحداث كثيرة- ليروا الحزب الذي كان يتصدَّر محافل النضال الوطني وقد خلا مقعده بين الحاضرين. في تقديري، ذلك مِمَّا لم يدركه البعض حينما قال أمينه العام الأستاذ الرَّاحل محمد إبراهيم نُقُد: "حضرنا ولم نجدكم"!

لن يستطيع الحزب الشيوعي السُوداني إنجاز العمليَّة التاريخيَّة في استرداد الديمقراطيَّة وهو بهذا الضعف البائن، لن يستطيع إسقاط الديكتاتوريَّة التي تهدد وجوده – قبل أن تهدد كافة شرائح المجتمع السوداني – وهو بهذا الحال "المائل" بل أستطيع أن ألحق العار بالحزب العتيد في تنكره لشعارات رفعها في معركة المصير الوطني وقال: «لنا الصدر دون العالمين أو القبر». كان الحزب يقدِّم الشهداء تلو الشهداء دون مَنٍ أو أذى، كان يفتح صدره بلا خوف أو وجل، كان يطرح الوعي لمن يريد، كما قال الأستاذ الرَّاحل عبدالخالق محجوب، كان ينظر لآخرته كأنه يموت غداً ولدُنياه كأنه يعيش أبداً. لكن الحزب بات يُقدِّم خطوة ويؤخر أخرى كلما دعا داعي النضال الوطني، تقوقع وسط الجماهير حتى أعياها البحث عنه، كان الحزب مبادراً فأصبح تابعاً، تضاءل حتى أصبح صحيفة إلكترونيَّة، وبأضعف الإيمان لا يتورَّع في أن يُقدِّم الشكوى تلو الشكوى متأمِّلاً من الجلاد أن يُنصفه في حظرها، ومن عجبٍ، فإن كوادره القياديَّة وجدت في الصُحُف مأوى، فأصبحت ترفد نضالها بمقالات راتبة مثلنا، نحن الذين لا قاعدة لهم سوى قرَّائهم، وهُم قد هجروا الشوارع والمصانع والحقول!

لذلك عندما حدثت انتفاضة يونيو ويوليو وما بعدهما، غاب عنها الحزب الطليعي وكان من الطبيعي أن يغيب. فالضّعف في بنيته لم يكن وليد اليوم أو نتيجة الظروف الراهنة، فهي حالة نفسيّة قبل أن تكون ماديَّة، دخل فيها الحزب بعد تراجيديا ما سمَّاه بـ"أسبوع الآلام" وأصبح بعدئذٍ يعيش فوبيا الفناء. اختفي أمينه العام للمرَّة الأولى لمدَّة أربعة عشر عاماً متواصلة، فاختفى الحزب معه، ولم يظهر إلا بعد أن أصبح الطاغوت قاب قوسين أو أدنى من السقوط.. اختفى الأمين العام للمرَّة الثانية لنحو أحد عشر عاماً، فاختفى الحزب أيضاً. وفي العام الماضي، ترك الأستاذ نُقُد الدُنيا بقضِّها وقضيضها واختفى اختفاءه الابدي، ولم يخرج الحزب للعلن! لقد حدث كل ذلك ولم تجد عُضويته من يقول لها ما إذا كان الاختفاء الأوَّل أو الثاني عملاً صائباً أو طائشاً. بمثلما لم يجد عموم السُّودانيين من يقول لهم: لماذا لم يخرج الحزب التليد للعلن بعد أن طويت سرادق العزاء؟!

ليس التقاعُس وحده، ففي الحديث عن التحالفات السياسيَّة التي هي صُلب هذا المقال. كانت للحزب تجربة كبيرة في إطار التجمُّع الوطني الديمقراطي في الخارج، وظلَّ متمسِّكاً بها تمسُّك "ضهبان وجد طريقه بعد لأيٍ" ولأن الحزب كان في حالة ضعفه التي ذكرنا، فوجد في "عباءة السيِّدين" ما يدرأ عنه شبهة العجز فغضَّ الطرف عن أخطاء استراتيجيَّة بدعوى وحدة العمل المعارض، هي ذات الأخطاء التي أدَّت إلى قبر التجربة وهي حيَّة. يومذاك ركضت الأحزاب التي تجاوز الحزب عن سوءاتها نحو الخرطوم، وتركته قائماً يُصلي صلاة الكسوف، فلم يجد الأعضاء من يقول لهم أصاب الحزب وأخطأ المراقبون أو العكس!

هُنيْهة خطا التابع بخُطى المتبوع، فدخل الحزب برلمان السلطة الديكتاتوريَّة بتوهُّم مناهضتها ديمقراطياً، ولم يجد أنيساً أو جليساً يقول له إنك بفعلتك الحمقاء تكرس لسُلطة غاشمة، فالمجلس الوطني واحد من مؤسسات الخِزي والعار، بل لم يجد من يذكره أنه سيُشارك في صنع مسرحيَّة ظلَّ ينافحها دهراً. وبعد أن قضت عضويته وطراً في المجلس المزعوم، لفظتهم السُّلطة الغاشمة كما يلفظ الجائع النواة. ومع ذلك مضى الحزب في ذات المسرحيَّة بمنطوق لم تحِق به الندامة، فقرَّر أن يخوض ما عُرف بـ"نتخابات الخج"! وما بين هذا وذاك، لم يجد المراقبون من يقول لهم: لماذا فعل ما فعل، ولم يفعل ما كان ينبغي عليه أن يفعل؟! فاستمرَّ الحزب بعدئذ يصنع العجز ويلعقه، بل استمرأ التكلس والجمود والحالة التحنيطيَّة التي أطبقت على خناقه، ثمَّ راهناً جاءت وثيقة "الفجر الجديد"، فإذا بالحزب الذي كانت استقامته في لسانه، يتلجلج في الحديث حتى وضع مصداقيَّة قيادي بحجم الأستاذ صِدِّيق يوسف في محكِّ الاختبار!

إن التحالف السياسي المزعوم بين القوى السياسيَّة، بالرغم من أنه الوسيلة المثلى لمواجهة ديكتاتوريَّة باطشة كالتي ناءت بكلكلها علينا، لكنه في الواقع

أصبح شعار "حق أريد به باطل". الذي نعلمه، أن التحالف يفترض توازن الإرادة الوطنية قبل تساوي أوزان القوى السياسيّة، أي لا فضل لحزبٍ على آخر إلا بالتصميم على تحقيق الأهداف الوطنيّة النبيلة، وفي طليعتها اقتلاع هذا النظام وفكره الظلامي من جذوره. وهو افتراضٌ نجزم دون أدنى شكٍ أنه غير متوفر في أجندة القُوى التي تدَّعي التحالف في إطار "قوى الإجماع الوطني".. من أجل هذا، لا ينبغي السؤال عن غياب هذه القوى عن سُوح الانتفاضات التي اندلعت ولم تصل لنهايتها المنطقيَّة كما ذكرنا، بقدر ما السؤال عن إر'دتها الوطنية في تحقيق الهدف المنشود؟!

عليه، لماذا الإصرار على تحالفٍ يخفي العاجزون فيه عجزهم في طيَّاته؟! فليَنفَضَّ سامره وليُقدِّم كل حزبٍ إسهامه الوطني في كيفيَّة إسقاط هذا النظام عملياً، وعندما تتمايز الصفوف، سيعرف الناس بعدئذٍ العاجز من القادر، وسيأتي التحالف السياسي المرجو مبرَّأ من أي انتهازيَّة سياسيَّة!

بالعودة لنقطة الانطلاق، نقول: طالما أن الحزبين، الشيوعي والشعبي على طرفي نقيض، فإن أي تحالف سياسي بينهما أو حتى هُما في بطنه، هو في واقع الأمر مجرَّد "رفقة معديَّة" في حدِّه الأدنى، حتى وإن تطهَّر الثاني من رجسٍ ملتصقٌ به، وتبرَّأ الأول من ضعفٍ وعجز حاق به. أما في حدِّه الأعلى، فذلك مِمَّا يُقال عنه – يا سيداتي وسادتي – محض استهبال سياسي وإن كره المكابرون!

اخرجوا من جُحوركم يرحمُكم الله، لمواصلة رسالتكُم السامية، أو أعلنوا فينا عجزكم، فالتاريخ لا يرحم!

آخر الكلام: لابُدَّ مِنَ الدِّيمُقرَاطيَّة وإن طَالَ السَّفر!!
٢٠١٣/٢/٧

هل خُلِق السُّودان في كَبَدٍ؟! (١٠)

هذه خاتمة السلسلة أعلاه، ولكنها ليست خاتمة المِحنة التي نعيشها وجعلت وطناً شامخاً يقف على حد السّيف بين أن يكون أو لا يكون. كأنه يحيا في القرن السابع عشر ويسترجع تراجيديا وليم شكسبير بذات العبارة الشهيرة التي جرت على لسان "هاملت": To be, or not to be: that is the question.. نعم، ذلك هو السؤال، ولكن من كان يظُن أنه سيُعيد إنتاج نفسه ويصبح سؤالاً مُؤرّقاً لوطن حائر يقف في ردهات القرن الحادي والعشرين، وهو مهدَّدٌ في كيانه وكينونته؟! يعلم المتابعون إننا في سياق هذه السلسلة، حاولنا بجهد المُقل أن نجيب على سؤال محوري طرحناه بوضوح، حول الأسباب التي أقعدت انتفاضتي يونيو ويوليو من العام الماضي – بل ما قبلهما وبعدهما من مشاريع هبات شعبيّة – في ألا تمضي لنهاياتها المنطقيّة. والتي بحسب تقديراتنا تتمثل في إسقاط نظام العُصبة ذوي البأس، وبحسب أحلام "الحسيب النسيب" في زمان مضى.. اقتلاعه من جذوره! وحَرِيٌ بنا القول أننا في رحلتنا هذه استصحبنا تساؤلات المراقبين السياسيين، وهُم يحصون من المشاكل السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة التي تحاصر النظام، بما يفوق كل الأسباب التي أجمعت عليه ثورات الربيع العربي!

قلنا في الإجابة، إن العبء الأكبر يقع على عاتق القوى السياسيّة التي تقاعست عن أداء واجباتها ومواصلة دورها التاريخي، وما درجت عليه في مناهضة الأنظمة الشموليّة. وفي ذلك أشرنا تحديداً إلى مواقف السيد الميرغني المزدوجة، والتي كبّلت الحزب العريق وأدخلته في "كرنتينة" بائسة. كما أشرنا إلى تناقضات السيّد المهدي والتي بدورها قزّمت الحزب العتيد وسلبته "فحولته" السياسيّة. وذكرنا ثالثة الأثافي في الحالة "التحنيطية" التي دخل فيها الحزب الشيوعي، وسحبت معها تاريخاً تليداً في مناهضة الأنظمة الديكتاتوريّة. وبذات القياس، لم نرَ في معارضة المؤتمر الشعبي سوى محض انتهازيّة سياسيّة تطمح لاسترداد عرش الطاغوت وهو صنيعها.. بَيْدَ أنه قبل هذا وذاك، ينبغي أن نوجّه المسئوليّة للواقفين على السياج، الذين حدَّد مارتن لوثر كينج موقعهم في الخارطة بقوله: **«إن أسوأ مكان في الجحيم مُخصّص لأولئك الذين يقفون على الحياد في المعارك الأخلاقيّة الكبرى»**! فهُم من أصاب حياتنا بالخسار والبَوَار والعَوَار!

على الجانب الآخر، ففي الحديث عن النظام الديكتاتوري المتجبّر وآلياته، ليس خافياً بالطبع الأجندة الظاهريَّة والتي اتخذت من البطش والعُنف والترهيب وسيلةً، والقتل والسَّحل والتنكيل غايةً. وتعلمون أن جلاوزة النظام لم يتورَّعوا في أن يعلنوا على الملأ تخصيص ٧٠% من ميزانيات الدولة – وعلى مدى أكثر من عقدين – للأمن والدفاع. أي تسخيير كل الموارد، بما في ذلك البترول، الذي كان ينبغي يلبّي حاجيات الناس من صحَّة وتعليم وتطوُّر ورفاهيَّة. ودونما كثير تفصيل، يعلم المراقبون مسيرة النظام الدامية والشاملة في انتهاكات حقوق الإنسان السوداني، والتي لم تتوقف عند حدِّ العُنف البدني، وإنما شملت العُنف اللفظي أيضاً، بهدف الأساءة والحط من قدر معارضيه بصورة عرَّضت قيم ومثل وأخلاق مجتمع توارثوها كابراً عن كابر لامتحانٍ عسير. بيد أننا هنا نود أن نحصر فيما يلي حديثنا حول الأجندة الباطنيَّة التي توسَّلها النظام لقمع الانتفاضات ودرء المواجهات الشعبية قبل أن يستغلظ ويقوى عودها!

- **أولاً:** هذه النقطة تعيدنا لجاهلية النظام في بواكير استلامه السُلطة، حينما عمد إلى إجراءات تعسفيّة سُمِّيت افتراءً بـ"الفصل للصالح العام". كانت سياسة قطع الأرزاق تلك عملاً مدروساً وممنهجاً قُصِد به فتح الباب لما سُمِّي بـ"سياسة التمكين" ولا يظنن أحد أن فصل ما يناهز رُبع مليون من قطاعات الخدمة المدنيَّة والنظاميَّة، مضى دون ترك اثار صادمة خلخلت بنية المجتمع وأورثتنا أجيالا مشوّهة. تدهورَ التعليم واعتلّت الصحَّة، وازدادت رقعة الفقر وتطاول البؤس.. تفشّت ظواهر النفاق والحسد والانتهازيَّة، وساد الكذب والخداع والتباغُض، اضمحلَّ الوازع الديني فصار الناس يتبارون في التديُّن المظهري، انتشرت الجريمة كماً ونوعاً وراجت المخدرات وتعاطي الكحول بين الشباب في الجامعات والمدارس، تمدَّدت الرذيلة وانحسرت الفضيلة، وشهد للإنحلال الأخلاقي دور خُصِّصت للطفولة الضائعة فضجَّت بساكنيها من زغب الحواصل بلا أمومة أو أبوة.

رُبَّ قائل هذه هي ذات الأجندة الظاهريَّة التي خبرناها من العُصبة طيلة سنيها في السُّلطة، ولكن أين الأجندة الباطنيَة التي تدَّعي؟! للمتسائلين نقول إن الإجراءات القمعية سالفة الذكر، تؤدي بالضرورة إلى هتك نسيج المجتمع وخلق شخصيَة مسلوبة الإرادة، غاية همُّها ملء وعاء بطنها إن وجدت لذلك سبيلاً، غضّ النظر عن حلاله من حرامه. تقضي سحابة يومها لاهثة وراء جذرة لن تطولها، وتعود في المساء تجرجر أذيال الخيبة بلا حراك أو أي رغبة في فعل شيء، فتغمض عينيها وتنام ملء جفونها عن خيبتها. تلك إجراءات قمعية هدفت إلى تحويل الإنسان السوداني إلى دابة تقاد كيفما اتفق. هي ذات الإجراءات التي اتبعتها النازية والفاشية لترويض شعوبها. ذلك قد يفسر حالة اللامبالاة التي غشيت مضارب البعض، فأصبح سقوط النظام تمنٍ

والنضال ضده ترف ومضيعة للوقت. لهذا يكثر تنظير القائلين.. هل هذا هو الإنسان السوداني الذي عرفناه؟! فتتمدَّد الدهشة وينحسر اللسان!

- **ثانياً:** موازاة مع السيناريو سالف الذكر، فتحت العُصبة منافذ البلاد على مصراعيها لتفريغها من الناشطين السياسيين والنقابيين وسائر المواطنين لتقليص مساحات التذمُّر والتمرُّد والثورة. على مدى عقدين من الزمن، أصابت البلاد حُمَّى الهجرة الجماعيَّة.. خرج الناس بالملايين زُرافاتٍ ووحدانا. ومن نكد الدُنيا على السُودانيين أن لا أحد يعرف عددهم وهُم مغتربون في الخارج، كما لا يعرف أحداً عددهم وهُم مستغربون في الداخل. لكن إن شئت تقريباً لصورة مهشَّمة، فانظر ذماً في مكان مدح لكرَّار التهامي، والمذكور – للذين لا يعرفونه – كائنٌ قال عن نفسه إنه كان «**غوَّاصة الجبهة الإسلامية في الجامعة**»! ذلك حينما سُئِلَ عن كيفيَّة تسنُّمه هذا المنصب وهو من غير أهل الولاء.. ما علينا، أن أساء البعض لأنفسهم بما يستوجب احتقارهم، المهم أنه قال إن جهاز المغتربين الذي يرأسه، يُصدِرُ ثلاثة آلاف تأشيرة خروج يومياً!

حول ذات الكارثة، قال أحمد كرمنو ('الصحافة' ٢٠١٣/٢/١٢) وهو إنقاذي برتبة وزير دولة للعمل: «**هاجر خلال عام ٢٠١٢ نحو ٩٤٢٣٠ شخص منهم ٥٠٢٨ طبيباً**» وللمحنة وجه آخر في سفر النزوح الجماعي. ففي دارفور حيث الإنسان عصي على الإحصاء حياً وميتاً، بلغ عدد النازحين داخل وطنهم وفي دول الجوار ما يناهز الثلاثة ملايين نسمة. أضف إلى ذلك نصف مليون في جنوب كردفان، ونصف مليون في جنوب النيل الأزرق بسبب الحروب الصامتة وويلاتها. ويقال إن المغتربين والمُهجَّرين لأسباب سياسية واقتصادية بصورة شاملة يقدر عددهم (خبط عشواء) بنحو خمسة إلى ستة ملايين نسمة. إذا كنت يا عزيزي القارئ مِمَّن يحسنون حسابات الحقل والبيدر فستعلم – يا هداك الله – أن البلاد رحل ثلثها وهلك ثلثها وبات الثلث الأخير ينتظر قدره! ونقول بمثل هذا النهج تمسُّك النظم التوتاليريَّة على مفاصل الدولة والمجتمع!

- **ثالثاً:** ما يزال الحبل على الجرار، فمن ضمن الثلث الذي تبقى، وضع دهاقنة النظام شريحة الشباب نصب أعينهم بعد أن تكاثر عدد العاطلين في أوساطهم وبلغ ما نسبته ٤٧% وهي نسبة تجعل أي نظام ديكتاتوري يتحسَّس مواقع كراسيه. فحتى يتم تفريغهم من أحلامٍ قد تأتي ولا تأتي، فكَّر العباقرة ثمَّ قدروا فروَّجوا لشيء اسمه "حُمَّى الذهب" وعمدوا إلى سريانه بين الناس بقصص أشبه بالأساطير، فسلبت لب أي شاب حتى أصبح لا حراك له سوى أن يمم وجهه شطر الصحاري على أمل أن يعانق الأحلام العذبة التي راودت مخيلته ردحاً من الزمن. وبمثلما كان يصنع جهاز الدعاية النازي رواياته، أصبح

جهاز الأمن والاستخبارات برعاية محمد عطا المولي يضخ لوسائل الإعلام قصصاً أشبه بالخيال فتسرى بين المحرومين سريان النار في الهشيم!

بالطبع ذلك مما لا يعوزه مكرهم فجاءوا بشخص حذق البصاصة والفجاجة واللجاجة. إذ صار مشاهدو الفضائية السودانية التي تُصدّر الكآبة لهم، يطالعون وجه كمال عبد اللطيف وهو بكامل حلته في الحقول، تتبعه كاميرا تلفزيونية بيمينه، وطبيب لف سماعة طبية حول عنقه على شماله. ولمن فاته مثل هذا المشهد الدراماتيكي، نسأله ألا يدع أحمد البلال الطيب يفوته أثناء انفعاله بالذهب وهو ينز نفاقا وعبطاً ولبطاً. سترى أيضا موظف بربطة عنق في صحراء بيوضة يقول إنه مندوب بنك السودان وأمامه ميزانه و(ويل للمطففين)! وحتى تكتمل الصورة سيملأ الشاشة شخصا سيماه في وجهه من أثر الفساد، يقول إن مهمّته ربّانية تتمثل في جباية الزكاة وأنصبتها. هُم سيقولون لك إن أكثر من نصف مليون شاب تائهون في هذه البوادي والصحارى، ولكنك لن تندهش إذا علمت أن الرقم يساوي ثلاثة أضعاف العدد المذكور. شباب هائمون في ظروف صحية قاسية، يموتون بإحدى الوسيلتين، أما لدغات الأفاعي أو ضمرا في ذات الحفر، هذا بغض النظر عمّا يمكن أن يعتري نفوسهم من تغييرات سايكولوجية تقتلهم وهم أحياء. ذلك عبث وجرم لا يغتفر. هل كان أحد من السودانيين لا يعلم في هذا البلد الظالمة حكومته أن هناك ثروات تغور وتفور وتمور في باطن أرضه بصورة تعجز أي راصد. وهل يظنون أن محمد علي باشا غزا السودان للترفيه والتنزه؟ لم تكن ثروات البلاد يوما محل شك، فالشك ظل دوما يحوم حول مردودها. ولهذا نعلم جميعاً إنه لمثل هذا تثابر الأنظمة الشمولية في تشتيت شمل الشباب حتى تأمن غضبهم!

- **رابعاً:** هذا سيناريو لن نتوه في دهاليزه كثيراً، لأن الناس كشفت سرد وخبرت حيله، فقد عملت السلطة الجائرة على تطبيقه بفنون تدهش أي حاوٍ. فالإسلاميون الحاكمون قوم جُبلوا على بيع دينهم وشراء ذمم الناس، وفي ذلك دأبوا على تصويب أسلحتهم نحو شرذمة من الانتهازيين والوصوليين والذين في قلوبهم غرض ومرض من القوى السياسية الأخرى. فيغدقوا عليهم المال لتسييل لعاب الطامعين، وينشروا عليهم الوظائف بهدف جذب المتخاذلين. وبين هذا وذاك تصبح سياسة فرّق تسُدْ منهجاً لتفريغ وتركيع وإذلال هذه القوى، مستخدمين في ذلك حيلا ودهاء لم يسبق لها مثيلاً في تاريخ الديكتاتوريات!

- **خامساً:** لم يقتصر الأمر على تشتيت الناس وتهجيرهم قسراً حتى لا يكاد المرء يطالع موقعاً جغرافيا لم تطأه قدم سوداني، وطبقاً لبراعتهم في فقه البيوع رأوا في المهاجرين مشروعاً استثمارياً يدر عليهم مالاً وفيراً. فتفننوا في فرض الضرائب والأتاوات والجبايات، وزادوا عليهم بالزكوات والتبرعات وأشياء أخر ما أنزل سلطان بها فرمان. هل تعلم يا قارئي الكريم أن التحويلات

السنوية لهؤلاء تبلغ سنوياً ما بين خمسة إلى ستة مليار دولار بالتقديرات الرسمية، ثلثها من مغتربي المملكة السعودية. فالمغتربون في عُرفهم هم بالفعل بقرة حلوباً، ومقابل ذلك يواجهون عنتاً في الإجراءات وتعسفاً في المعاملات، أما حقوقهم السياسية والثقافية والاجتماعية فذلك ترف لا قِبل لهم به! لقد تحولت السفارات إلى (بقالات) للبيع والشراء، وأصبحت أوكار أمنية ترصد أنفاس المغتربين وتلاحقهم بسوط عذاب!

حتى لا يُقال عنَّا ضَرَبَ لنا مثلاً ونسِيَ "أم السفارات" في الجباية. فقد علمتُ من مصادر موثوقة في البنك السعودي الهولندي أثناء تردُّدي على المملكة العربيَّة السعوديَّة بدءً من منتصف التسعينات الماضية للعلاج، أن سفارة النظام في الرياض تورِّد في حسابها البنكي مليون ريال يومياً، وتُحوَّل في ذات اليوم إلى بنك السُّودان المركزي. لم تطُل دهشتي يومذاك، إذ علمتُ أنه إلى جانب جبايات الضرائب وشقيقاتها، فقد كانت السفارة استثناء بين السفارات، حيث يوجد في بطنها فروع بنوك تقوم بالتحويلات للمُغتربين، مثل بنك أمدرمان الوطني والبركة وشركة الأسواق الحرَّة وشهامة ومضاربات أراضٍ وهلمَّجرًا. واستمرَّ هذا الحال على هذا المنوال، ثم مضى على السفارة حين من الدهر، علمتُ بعده من مصادر بنكيَّة أخرى أن حسابها أُغلق في البنك المذكور عام ٢٠٠٨ بسبب فضيحة مائة ألف دولار مزوَّرة اندسَّت وسط المبلغ المُورَّد. وبعده قامت بفتح حساب آخر في بنك (...) وأصبح رقم التحويل يتزايد تبعاً لزيادة أعداد المغتربين، إلى أن وصل الآن لما يتراوح بين مليون ونصف ريال إلى مليونين، ويصل أحياناً إلى ثلاثة ملايين ونصف عقب العطلة الأسبوعيّة، وإلى هنا ننصح المتسائلين الكف عن أسئلة إن تبدى لهُم حتماً ستسوؤهم!

لكن حتى نريح هواجس هؤلاء، فقد اخترنا وثيقة حديثة صدرت قبل نحو أسبوعين ضمن الطبعة الثالثة من كتابنا الأخير الموسوم "الخندق.. دولة الفساد والاستبداد"، فليتأمَّلها المغتربون بصورة عامة ومغتربو المملكة السعودية بصورة خاصة، وهُم في ذات البلد التي وصفت العُصبة مليكها بأقذع الأوصاف والشتائم، ومع ذلك لا يستحي الرئيس "الضرورة" من التوجُّه نحوه للتطبيب. فانظروا نهاية هذا المقال، كيف تتبعثر ملايينكم ويتفرَّق عرقكم بين المُفسدين!

صفوة القول، هذه هي "بروتوكلات حُكَّام صهيون".. إنها محاولة لفتح كوَّة في الحائط الصلد، لعلنا نقف على مواقع الزلل فنقوِّمها ونترصَّد مراكز الخلل فنجتنبها. إذ أن الديكتاتوريات التي تعاقبت على حكمنا سلبتنا أعزَّ ما نملك، حتى صار البعض منَّا يرى الفساد فيغض عنه البصر، ويرمي له الفتات فيُمعن فيه النظر!

آخر الكلام: لابُدَّ من الدِيمُقرَاطيَّة وإن طَال السَفر!!
٢٠١٣/٢/٢٠

معالي الدكتور / مصطفى عثمان اسماعيل الموقر

السلام علكيم ورحمة الله وبركاتـــــــــه

سبق وان بعثت برسالة سابقة لسعادتكم حول تكوين جالية منطقة مكة المكرمة وقد تحويل الخطاب من مكتبكم الى مكتب معالي البروف غندور .. ومنذ ذلك الزمن ونحن نطرق كل الابواب حيال تحويل مال الجالية التى هي في الاساس تم فرضها من قبل الجالية للتبرع بمبلغ ٢٥٠٠٠٠٠٠ خمسة وعشرون مليون دولار ابان الحرب في الكرمك وقيسان وقد استمرّت حتى بعد تحقيق المبلغ المستهدف و قلنا لابأس طالما في عدم قواتنا المسلحة الا انه وبعد ان ساد السلام في البلاد سعى رئيس واعضاء مجلس تنسيق الجاليات المنطقة الغربية الى وزارة الدفاع لتقاسم المبلغ في عهد الفريق بكري حسن صالح والذي بدوره تكرم ووافق على ذلك مشكورا مأجورا . واستمر التصرف في هذه الاموال لحلحلة بعض مشاكل المغتربين ولكن بمساهمات يسيره لا تعالج مشكلة احد .. و حدثت ايضا متغيرات هنا في المهجر من الزام المقيمين بالتأمين الصحي وقد قلل ذلك من مشاكل العلاج وحوجة الصرف عليه و كذا الزام سائقي المركبات بالتأمين عليها مما ايضا خفف من او انهى مشاكل الديات .. و لما بلغ المبلغ المجمع لدى الجالية مبلغا مقدر اصبح يفكر فيه كل بطريقته و كيف يمكن ان يستفيد من هذه المبالغ وعلى سبيل المثال لا الحصر هنا مقترح تقدم به احد الاخوة بالجالية المنتهية دورتها لاستثمار هذه الاموال في شقق مفروشة في السودان واعترض عليه اعضاء المجلس ومن هنا بدأت هذه الخلافات الكبيرة التي تحول دون تكوين جالية جده.. و في هذه الاثناء يظهر سعادة السفير خالد محمود الترس الذي قام هو بدوره بأيقاف مندوبي الجالية المكلفين بالتصرف في هذه الاموال وحول كامل التصرف فيها الى مكتبه.. واصبح ضلعا ثالثا في خلافات الجالية.. واثناء احتفالنا بأنتصار القوات المسلحة اقترح رئيس المؤتمر الوطني بالطائف مباشرة بالمبادرة بتحويل هذه المبالغ الى اصلها ودعمنا هذا الاقتراح مهللين مكبرين.. الا ان سعادة السفير حين جاء دوره هاجم المقترح في كلمته واشار الى ان معالجة مشاكل المغتربين هنا اولى بهذه المبالغ.. وبعد ذلك واصلنا مشوارنا منافحين ولم نصل الى اي حلول و لما جاء العدواني الاسرائيلي الغاشم.. تقدمت برسالة عبر صحيفة الانتباهة الى رئيس ومجلس اعضاء الجالية شارحا فيه ضرورة تحول هذه الاموال كما هو مرفق.. وأيضاً لم يحرك احدا ساكنا.. الشاهد في الامر ان سعادة السفير خالد الترس لا يسمح لاحد بالتحدث عن هذا الموضوع.. لذا ارفع لكم.. ولاسيما وانني علمت من مصدر موثوق انكم ابان توليكم حقيبة وزارة الخارجية اكدتم ان علاقة القنصلية بأموال الجاليات فقط دور حفظها كأمانة طرفهم وأن كامل التصرف فيها لاصحاب الحق اللانحي.. ولا تفوتني الاشارة الى ان هذه الاموال اصبحت تصرف فقط حسب السلطات التقديرية لسعادته دون الالتفات لما يحكمها من لانحة.. كما تجدر الاشارة الى ان اس مشاكل تكوين الجالية وصراعاتها هذه الاموال.. امل اذا كان هذ الامر من اختصاصكم سرعة البت بتحويل كامل الـ(مانة ريال) والمبالغ المجمعة بالقنصلية بعد مراجعتها الى القوات المسلحة او اعفائنا من دفعها اذا كانت البلاد والقوات المسلحة ليست بجاجتها وأن لم يكن في دائرة اختصاصكم.

حفظكم الله ورعاكم،،،

أخوكم/حافظ فتحي محمد صالح

موبايل: ٠٠٩٦٦٥٠٧٧٤١٨٣٥

صورة طبق الأصل

إنّي كَفرتُ بِصنَمِكُم الذي تَعبُدُون!

يا من تفترون على الخلق كذباً، تدَّعون ظلاً لله في أرضه، وتُفوِّضُون أنفسكم حُكاماً بِاسمِه على عباده..

عندما استلمتُم السُلطة في السُودان بانقلابٍ عسكري صبيحة الثلاثين من يونيو ١٩٨٩م، كنا نعيش في ظِلِّ وطنٍ ممدود، ونظام ديمقراطي برلماني معدود.. أياً كان ضعفه وقواه، ومهما بلغ من فجوره وتقواه، فقد ذهبنا إلى صناديق الاقتراع واخترناه طواعية بملء إرادتنا.. ليس لأننا نؤمن بأنه الحُكم الأمثل لبلادنا فحسْب، ولكن لأن واقع بلادنا نفسه يشهد بذلك. فنحن شعبٌ كثُرت إثنياته حتى كاد أن يعجز الأنثروبولوجيون عن عدِّهم وحصرِّهم. ونحن قومٌ تعدَّدت دياناتهم لدرجة احتار الثيوقراطيون في تعايُشها كما الحَمَلِ الوديع قُرب ذئبٍ لئيم. ونحن أناسٌ تباينت ثقافاتهم، فصار الديمغرافيون يحسدوننا على ثرائها أكثر من شعوب تمنتها ونصبت لها شركاً فعزَّ تصيُّدها. من أجل هذا، كانت الديمقراطيَّة غايتنا والحريَّة وسيلتنا، ذاك هو النظام المثالي الذي آمنا به وقُلنا إنه من سيحفظ لنا حقوق هؤلاء وإن كبُرت، ويُبيِّن واجباتهم وإن صغُرت. وقلنا إنه النظام الذي سينقلنا من ظلام التطرُّف إلى نور الحضارة والانفتاح، وقلنا إنه النظام الذي سينهض بوطننا نحو آفاق التميُّز والتقدُّم والازدهار. وأخيراً قلنا إنه النظام الذي سيكفُل لنا مقعد صدق بين القبائل والشعوب والأمم!

(٢)

يا من تفترون على الخلق كذباً، تدَّعون ظلاً لله في أرضه، وتُفوضُون أنفسكم حُكاماً بِاسمِه على عباده..

لم نكُن يومذاك نشتجرُ في يوم سقيفة بني ساعدة طلباً لخلافةٍ بغير وسائلها وطُرُقها وآلياتها. فليس بيننا مَن هو في مقام علي بن أبي طالب فيزهدها، وليس فينا من هو في قامة أبي بكر الصدِّيق لتأتيه تجرجر أذيالها.. لم نكن عصرئذٍ تخيِّم فوق رؤوسنا موقعة جَمَلٍ ولا حرب نهروان ولا مذبحة كربلاء ولا معركة صفين، حتى ينادي فينا منادٍ يدعوننا لرفع المصاحف على أسنة الرماح. لم يكن عهدئذٍ ثمَّة فتنة كُبرى ولا صُغرى ولا يحزنون، لم يكن وقتئذٍ قد تمايزت صفوفنا بين أمويين وعبَّاسيين، أو انقسمنا إلى سُنَّة وشيعة، أو تقوقعنا بين مهاجرين

وأنصار.. على هَذي المواطنة الحقة تواصينا، وكان المواطنون كأسنان المشط، لا فرق بين أحدهم وآخر إلا بقدر ما اتَّخذ الحريَّة ديناً والديمقراطيَّة دُنيا. كنا نعبُد الله بيقين، ونتدافعُ بالمناكب نحو رحاب وطن عظيم، يرحم فيه كبيرنا صغيرنا، ويوقر فيه صغيرنا كبيرنا.. لم نكن في حاجة لأذقانٍ تشهد سلامة إسلامنا، ولا لغُرَّة فوق جِبَاهِنا تؤكد سُمُو إيماننا.. كنا نُزكِّي في صمتٍ ونصوم بخشوع ونُصلي في قنوتٍ وندعو ربنا بلا قنوط! فيا أيها الناس، إن كان دينهم يدعو للفتنة، ويُفرّق بين المرء وأخيه في دولة المواطنة، ويأمر بالمُنكر وينهي عن المعروف، فاشهدوا أني برئ من دينهم ومِمَّا يعبُدُون!

(٣)

يا من تفترون على الخلق كذباً، تدَّعون ظلاً لله في أرضه، وتُفوِّضون أنفسكم حُكاماً بإسمِه على عباده..

كُنا إذا وقفنا اعتدلت قاماتنا كبرياء، وإذا جلسنا تواضعت أجسادنا بلا خيلاء.. هبطتُم علينا كالجراد، ففغرنا أفواهنا دهشة، وطأطأنا رؤوسنا خجلاً.. كانت الديمقراطيَّة أكبر همُنا ومبلغ علمُنا، تمنيناها مُبرَّأة من العيوب ولم نقُل إنها قرآن مُنزَّل أو إنجيل جديد.. ارتضيناها لأنها غدت سُنة ماضية في حيوات البشر، يعزُّ الشعب بها من يشاء ويذلُّ من يشاء.. هي ذات الديمقراطيَّة التي أخرجت شعوباً من ظلمات العُصور الوُسطى إلى رحاب الحضارة والتقدم والازدهار.. لكننا كنا في غفلة من أمرنا، أو كُنا من البراءة بمكان بحيث ظننا أن مسيلمة قُبر مع الأولين مُتوسِداً كذبه.. بل كنا من السذاجة حين اعتقدنا أن عبدالله بن أبي سلول لن يعود شاهراً نفاقه ودجله فوق محنتنا.. وكنا من اللامبالاة بدرجة لم نتخيَّل فيها أن أكثر من بروتس كان يعيش بين ظهرانينا، وقد خبَأوا خنجرهم خلف ظهورهم ليوم كريهة وطعَان جِلس.. كنا كالحمقى الذين يبحثون عن ظِلٍ في ليلة السكاكين الطويلة، ولم يكُن ثمَّة ظِل يومئذٍ سوى ظِلُّ الحقيقة.. فيا أيها الناس، إن كان دينهم يشيع التخلف ويحض على المُؤامرة، ويُحرّض على الكذب، وينشر النفاق بين بني البشر، اشهدوا أني برئ من دينهم ومِمَّا يعبُدون!

(٤)

يا من تفترون على الخلق كذباً، تدَّعون ظلاً لله في أرضه، وتُفوِّضون أنفسكم حُكاماً بإسمِه على عباده..

بعد أن نجحتُم في الانقلاب المشئوم الذي دبَّرتُمُوه بإسمِ الدين بحيلٍ يعجز الحُواة عن فعلها، شرعتُم بإسم الله في تدنيس أرضٍ كانت عذراء كقلوب ساكنيها، وبإسم الله ولغتم في الفُجُور حتى زلزلت الأرض زلزالها، وبإسم الله سعيتُم في فضاءات الوطن، فملأتموها ظلماً وجوراً وحروب، حتى تصدَّعت أركانه واشتعلت نيرانه.. قتلتم شباباً يُفَّعاً بتُهمةٍ أصبحت بعدئذٍ دينكم ودُنياكم وآخرتكم.. أزهقتم أرواح طلاَّب أبرياء كانوا يرومون علماً يستبينوا به سُبُل الحياة وينشدون

أخلاقاً تُعينهم على نوائب الدهر.. أهدرتُم دماء من خالفكم الرَّأي والرُؤى، وقطعتم أرزاق عباد الله الكاظمين الصبر والغيظ، كان ذاك يوم أن تلثم الصحابي مجذوب الخليفة وجَعَلَ المنبر مقصلة كما الحجَّاج بن يوسف، وقال إني أرى رؤوساً قد أينعت في الخدمة المدنيَّة والنظاميَّة، فهبَّ لمؤازرته في الحملة الانتقاميَّة تابعه الطيب محمد خير "سيخة"، فراحت بعدئذٍ جحافل المفصولين تجوب الأرض بحثاً عمَّا يسُدَّ الرَمق ويحفظ الكرامة. ولأنه لا فضيلة مع الجوع، فقد أكلت القوارير بأثداهن، واستطعم اللاجئون خشاش الأرض في معسكرات الذُلِّ والهَوَان. فيا أيُها الناس، لو كان هذا دينُهُم الذي يقطع الأرزاق، ويقتل النفس التي حرَّم الله، ويعلن الحرب على أناس شهدوا بربوبيَّة الخالق تبارك وتعالى، فاشهدوا أني بريئٌ من دينهم ومِمَّا يعبُدُون!

(٥)

يا من تفترون على الخَلق كذباً، تدَّعون ظِلاً لله في أرضه، وتُفوِّضُون أنفسكم حُكَّاماً بإسمِه على عباده..

يا أيُّها الكهنوتيُّون الجُدُد، بإسمِ الله والجهاد خُضتُم حرباً في جنوب البلاد ظللنا نردِّد منذ اندلاعها وحتى مقدمكم البئيس، أنها حربٌ ذات مظالم سياسيَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة واضحة المعالم، ظلَّ المُخلصون يثابرون في اجترار الحُلول تلو الحُلول، منها ما كان قاب قوسين أو أدنى، كما الحال في الاتفاقيَّة التي درأت الحدود (قوانين سبتمبر) بالشُبُهات، فدبَّرتم من أجلها الانقلاب وأعلنتم الحرب الدينيَّة على مواطنيكم وقسَّمتمُوهُم بين فسطاطين، جنوبٌ كافر وشمال مسلم.. طار التوصيف في الآفاق واستقرّ الوصف في النُفوس، فبُهِتَ من بُهِت، وفزع من فزع، وكفر من كفر.. ثمَّ مضى حينٌ من الدهر تطايرت النُعوش كما يتطاير الفراش حول النار.. ألقمتُم الثكالى حجراً فتجمَّد الدمع في المآقي، وشيَّعتم الوهم بين الناس بأساطير وأباطيل فتخثر الحُزن في القلوب.. ثمَّ انقلبتُم على أعقابكم خاسرين بعد أن هشَّ كُفَارٌ من وراء الحدود عَصَاهُم، فاضطربت أحوالكم وتقطعت أوصالكم وأذعنتُم وقُلتُم سوف نجنحُ للسلم، فكان الثمن وطناً بأكمله قُرباناً في مذابح الفداء.. ليس للدين الذي تتظاهرون بمناسكه، ولكن من أجل السُلطة التي تتشبَّثون بطقوسها.. فيا أيها الناس، لو كان هذا دينُهُم الذي يُقيِّد الحُريَّات ويُكمِّم الأفواه، ويُحرِّف كلمُ الله، ويخدع عباد الله، ويفتري على خلق الله، فاشهدوا أني بريئٌ من دينهم ومِمَّا يعبُدون!

(٦)

يا من تفترون على الخلق كذباً، تدَّعون ظِلاً لله في أرضه، وتُفوِّضُون أنفسكم حُكَّاماً بإسمِه على عباده..

بإسمِ الله ودينه، الذي يَحِضُ على طعام المسكين، كنزتُم الذهب والفضة والبترول، عبدتُم الدولار والدينار والريال والدرهم، بنيتُم للفساد بيوتاً تطاولت

طبقاً فوق طبق.. وركبتُم دواباً تباينت أحداً مع أحد.. بينكم صالَ السارقون فغضتُم الطرف عن اختلاساتهم، وجال المُرتشون فأصابكم وقرٌ من أثر الخنوع.. أقمتُم الحدود على الضُعفاء الذين لا يقوون على العيش بما يكدحون، وتركتُم الأقوياء الذين يأكلون أموال الوطن بالباطل وما يدَّخرون.. باسمِ الله والإسلامِ صرنا بفضلكم إرهابيُّون، ونحن الذين كنا حينما نذبح خراف الأضحية تقطر عيوننا دماً ودمعاً.. أصبحنا بأفعالكم مشرَّدين، ونحن الذين كانت تتقطر قلوبهم لوعة على فراق وطنهم ولو لبضعة أيام مِمّا تعدُّون، أضحينا بجرائركم مجرمين ونصَّابين ومشبوهين، ونحن الذين كنا نعتزُّ بسُمُوِّ أخلاقنا وجمال قِيَمِنا وأصالة معدننا.. فيا أيُّها الناس، لو كان هذا دينُهم الذي يشجِّع على الباطل ويحيد عن الحق، يُزيِّن الفساد ويحُثَّ على أكل أموال السُّحت، لو كان دينُهم هذا الذي يُرهِبُ ولا يُطعِم من جوع، يُرعِبُ ولا يُؤمِّن من خوف، فاشهدوا أني برئ من دينهم ومِمَّا يعبُدون!

(٧)

يا من تفترون على الخلق كذب، تدَّعون ظِلا لله في أرضه، وتُفوِّضُون أنفُسكم حُكَّاماً باسمِه على عباده..

إنها لا تُعمي الأبصار ولكن تُعمي القلوب التي في الصُدور.. هؤلاء يا الله صنعوا أصناماً من المال والسُّلطة والجاه والفساد والاستبداد والذُلِّ والهوان وسوء الأخلاق وعبدوها!

هؤلاء تاجروا بديننا ومأكلنا ومشربنا وصِحَّتنا وتعليمنا وثرواتنا وعاداتنا وتقاليدنا وتُراثنا وماضينا وحاضرنا ومستقبلنا وحياتنا وأحلامنا وآمالنا وطموحاتنا وأمننا وسلامنا وأرزاقنا وثقافتنا واجتماعيَّاتنا، وفوق كُلِّ ذلك، هؤلاء تاجروا بكَ يا ربَّ العالمين.. تبارَكتَ وتعاليتَ وتنزَّهتَ عمَّا يزعمون! يا أيها الناس، اشهدوا أني برئٌ من أصنامِهم التي يعبُدون، ومن دينهم الذي يزعُمون، وآمنتُ بربِّي الذي لا يعرفون!!

آخر الكلام: لابُدَّ من الدِّيمُقراطيَة وإن طالَ السَفر!!
٢٠١٣/٣/٥

في ذلكَ فليَتنافسَ المُفسِدُون!

ما زالت الوثائق تنهال علينا مثلما ينهال على رُؤوسنا صقيع هذه البلاد، الذي تموتُ من جرَّائه الحيتان، كما قال الأديب الرَّاحل الطيّب صالح، طيَّب الله ثراه. وفي هذا يطيبُ لنا أن نستعير مقاربةً أخرى راسخة للزعيم الرَّاحل إسماعيل الأزهري، ونقولُ كُلَّما سألونا: من أين لكُم هذه الوثائق؟! أجبناهُم بوثيقة أخرى.. بين يدينا وثائق جديدة لمشروع قديم لم يَرَ سوى نورُ الورق ونار المُفسدين.. أما نحن، فقد رأينا نشرها لأننا لا نستطيع معها صبراً حتى نُلحقها بالطبعة الرابعة لكتابنا الموسوم بـ"الخندق.. دولة الفساد والاستبداد في السُّودان" والذي ضمَّ بين دفتيه خِزي وعارٍ وشَنار العُصبة ذوي البأس. ولم تستطع مواجهته سِوى بمطاردة الكِتاب حيثُما حلَّ، والتضييق على من يريد اقتنائه ما استطاعوا لذلك سبيلاً.

ومن قبل أن نبسط هذه الوثائق بين يدي قُرَّاءِ الصبر شيمتهم والعدل غُرَّتهم، حريٌ بنا أن نستعرض بعض المُلاحظات حول خطيئة المُنقذين الكُبرى "تُجلي بها النظر يا صاح"، أو كما قال شاعرنا الرَّاحل العظيم سيّد عبدالعزيز، بالرغم من أنه قَصَدَ به وصفاً هو من السُمُو بمكان، حتى وإن تطابق عجز البيت مع فاسدٍ "طرفه نائم وصاحي"، وهُمُ كُثر!

- **أولاً:** على عكس ما زعم البعض، ليس بالضرورة أن تكون الوثائق التي تتسرَّب وتصل لغمَار الناس ونحن منهم، هي جهد مُفسدين والغين في الفساد نفسه. فالوالغ هُو مَن يتستر على صحبه وهو فيهم، ولا يكشف سرَّهم حماية لذاته، وليس حباً في سواد عيونهم. وعِوَضاً عن الزَّعم المذكور، نحن نعتقد تواضُعاً، أن فضح الأسرار غالباً ما يتأتى بإحدى الوسيلتين، إما وخزُ ضمير متأخر أو لتبايُن مصالح المُفسدين أنفسهم. وبينما الأولى لا يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم، فإن الثانية تظهر عندما تخضع للقاعدة الذهبية التي تقول: "إذا اختلف اللصان، ظهر المسروق"، وهي القاعدة التي أثبتت التجارب صحَّتها بل وفاعليتها بمرور الزمن. وتعلمون يا سادتي كذلك أن المُفسدين يتراصون كأسنان المشط في أقبية الفساد، بَيْدَ أن غرائز الحقد والكراهيَّة والشحناء والبغضاء والكيد والحسد تبرُز بينهم عندما يتفاضلون في الثراء، فينكشف حينئذٍ السارق ويظهر المسروق!

- **ثانياً:** المعروف أن العصبة الحاكمة في السودان سرقت السلطة بليل، وطبقاً لهذا المفهوم ليس غريباً على من فعلوا ذلك استحلال كل شيء حتى وإن تضاد مع الدين الذي يتبعون. ومن جهة ثانية فالمعروف أيضاً أن هرم الفساد كلما اتسعت قاعدته كانت وقائعه آيلة للكشف والفضح والتعرية، فما بالك في فساد أصحاب الأيادي المتوضئة والأفواه المتمضمضة، والذي صار له لسان وشفتين وأصبح يُعبر عن نفسه دونما كثير اجتهاد!

- **ثالثاً:** بل يمكن القول إن فسادهم أصبح ديناً له سنن وفرائض، فيه امتزج الحلال بالحرام وتطابقت بينهما الأمور المتشابهات. وصارت له أسماء غير ما تعارف عليها بنو البشر منذ أن هبط أبوهم آدم إلى الأرض، وأضحت لفاسديه هويات لم تسمع بها أذن ولم تخطر على قلب كائن من الناس، وغدا بشيرهم ونذيرهم وهو الفاسد الأكبر، ومن بيده الثواب والعقاب. ثم وجدنا أنفسنا في يوم كيوم الحشر يستحيل العثور فيه على عفيف شريف طاهر اليدين من ملتهم، لدرجة بات فيها الغول والعنقاء والخل الوفي أيسر منالاً!

- **رابعاً:** نعم ان ما يميز فساد المنقذين أنه صار مرتبطاً بهوية دينية تدعيها عصبتهم، الأمر الذي أحدث تشويشا رهيبا في نفوس وعقول الكثيرين، خصوصا البسطاء الذين جُبلوا على دين الإسلام بالفطرة وتقاصرت امكانياتهم عن التفقه فيما يدعم معتقدهم ويوطد أركانه في سلوكياتهم. مثل هؤلاء رأوا العصبة ترتاد المساجد فشهدوا لها بالإيمان امتثالا لقول رسولهم الكريم، وفي مناسبات اخر رأوا ذات العصبة وهي تعيث فسادا في الأرض ضجت منه السماء. فما الذي يمكن أن يتوقعه المرء من أناس بنوا مرئياتهم العقدية على خيال محدود وفساد ممدود؟!

- **خامساً:** في خضم جدل كهذا ليتنا كنا نعيش في دولة عصرية تعتمد على شفافية الاستبيانات والإحصاء وحديث الأرقام الذي لا يكذب، وذلك حتى نستطيع أن نتبين كم عدد الذين دخلوا الإسلام في ظل حكم العصبة ذوي البأس، وكم عدد الذين غادروا ساحته بعد أن رأوا تناقض أقوال الذين يدعون الحاكمية مع أفعالهم. فحينئذ ستسقط المزايدات بأمل أن يعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون!

- سادساً: على صعيد آخر، المفارقة أن ثمة فئة تحسبهم في مصاف المتعلمين ولا نقول المثقفين ولا المتفقهين، بعضهم غادر ساحة الحاكمين لأسباب يقولون عنها إنها أيدولوجية وليست سلطوية كما هو معروف لنا. هؤلاء ما زالوا يكيلون بمكيالين إذ يغضون الطرف عن خطايا الحاكمين، في الوقت الذي يسارعون فيه إلى صقل سيوفهم وتطريق حناجرهم بدعوى أن أحد رعايا فسطاط الكفر أساء لدين الله. ونحن نسأل هؤلاء عمن هو المؤذي الحقيقي

للعقيدة؟ هل هو من أظهر غير ما أبطن وجعل الدين مطية لتحقيق أهداف دنية أم آخر لا يسوى عند الله جناح بعوضة كما يقولون؟

- **سابعاً:** في تواصل شنون وشجون الفساد دعونا نهبط للأرض قليلاً متلمسين آثاره السالبة على الناس. إذ لا تعرف البشرية في مسيرتها الدنيوية خطيئة لها آثارها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المدمرة مثلما فعل ويفعل الفساد. فأسوة بما تساءلنا به دينياً من قبل، ليت أهل السودان يتساءلون دنيوياً عن حالهم ووضعهم بين الشعوب والأمم لو أن ثروات بلادهم بكثرتها - كماً وكيفاً - وُزعت بالعدل والقسطاس على الناس ولم تنهبها العصبة نهب من لا يخشى إفقار بلاده!

- **ثامناً:** في تقديرنا إن الفساد مثل الخمر ما أسكر كثيره فقليله حرام. والسكوت على الفساد يورث الخوف والجبن والخنوع والنفاق والمداهنة. ومن عجبٍ فإن بعض الناس درج على الاستخفاف بحجمه واستصغار شأنه، ولا يدري المرء أهو طعن في مصداقية من انبرى لتعريته صغر أو كبر أم هو تعمُّد مد يد العون للمفسدين ليسدروا في غيهم؟!

- **تاسعاً:** من العصبة أناس يدعون الطهر والعفاف ويحاولون الظهور بمظهر البريء، وهؤلاء تعرفهم من لحن القول وادّعاء الذل والمسكنة، في حين يعلم الناس أن العصبة جميعها على قلب رجل واحد وقد بزوا أبناء سيدنا يعقوب في التآمر. إذ عندما يتعلق الأمر بالفساد يدبرون عن الدين ويقبلون على الدنيا، بعضهم لبعض ظهيراً، لإدراكهم أن أي كبش فداء يمكن التضحية به يعني التضحية ببقية القطيع، لهذا عزّ على الناس رؤية أحد سدنتها وقد حوكم، لأنه سيجر من خلفه جيشاً عرمرماً في سياق كشف المستور، ولذا فالفساد هرمي في سلطة العصبة، أي بدءاً بالرئيس "الضرورة" القائل (إذا ما في مفسدين نجيبهم من وين؟) إلى سادن اللجنة الشعبية في المدن والقرى والضواحي!

- **عاشراً:** صحيح أن العصبة ذوي البأس تيبست جلودهم من أكل مال السحت، وصحيح أنهم ارتدوا أقنعة واقية ضد الحياء والخجل، وصحيح أنه أصابهم وقر فباتوا لا يسمعون، وصحيح أنه حلَّ بهم عمي فصاروا لا يرون فسادهم، وصحيح أيضاً أنهم لا يبالون ولا يرعون وهذا ما دأبوا عليه طيلة سنوات وجودهم في السلطة، ولكن ينبغي ألا يكون ذلك دافعاً للتقاعس أو مثيراً للإحباط، بل من المهم التذكير بأن توثيق الفساد هو واجب وطني ومسؤولية أخلاقية ليوم شره مستطير!

- **أحد عشر:** في سلطة الإنقاذ نجد أن الفساد قد اكتسب أشكالاً وألواناً، فلم يتوقف الأمر على الفساد المالي وإنما تبعه الإداري والأخلاقي والاجتماعي

والثقافي والرياضي وهلمجرا. وفي خضم ذلك تراهم وقد ابتذلوا حتى الألقاب فلمزيد من التورية تطلق الألفاظ على عواهنها مثل الشيخ والأستاذ والمفكر والدكتور والعارف بالله وخادم القرآن... ألخ، فلا غرو عندئذ أن تشمل وثائقنا هذه اثنين ممن مُنحوا الصفة الأخيرة بكرم حاتمي وثالثهم باسط ذراعيه بالوصيد، مما أكتسب فسادهم هوية جديدة!

في المحور الثاني أو الجزء الأخير من هذا المقال دعونا نستجلي غموضاً اكتنف وثائق الفساد التي سنطرحها بين أيديكم بشروح في المتون واستظهار الحواشي، لتزيح ما قد يمكن أن يلتبس أمره على البعض في فساد أغطش ليلنا وكسف ضحانا!

- **أولاً:** لمزيد من الإيضاح نأتي لقراءة خلفية هذه الوثائق، فالمعنيون فيها من العصبة هم قال عنهم المتنبي (ألقاب مملكة في غير موضعها/كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد) أولهم (المفكر) أمين حسن عمر، ذلك الذي عُرف بنخنخة الكلام وعرجفة المقام وخيلاء الحِسان. وثانيهما (المفكر) حسن مكي وقد قال عنه صديق لنا إنه جريء فيما لا يعلم، وآخرهم (المجاهد) حاج ماجد سوار الذي ترقى في مدارج عصبته ببطولة صفعه معلماً كاد أن يكون رسولاً!
- **ثانياً:** في الجانب الآخر من هذه العقود هناك شركة لن تجدها في أرض الواقع (ميدواي سنشري تكنولوجيز المحدودة) مثلما لن تجد مشروعاتها الإنشائية والبالغة وفق نصوص العقد ٩٥ مليون دولار وقد تطاولت أمام عينيك! وصاحب هذه الشركة من الجنوب اللبناني اسمه إسماعيل سراد، وجاء وفي معيته رهط من بني جلدته وآخر أمريكي الجنسية وثالث من رومانيا وبينهم سوداني لأسباب ستضح مراميها.
- **ثالثاً:** هذه الشركة وأصحابها اختفوا من الوجود.. لماذا؟ حدث هذا بعد أن (وقع الفأس في الرأس) إذ حدثني السيد يوسف (أ) وهو رجل أعمال ممن ينفرون من العصبة وأمثالها. قال لي إنه مدفوعاً بحسه الوطني جمع قرائن ووضعها أمام حاج ماجد سوار تؤكد أن مالك الشركة الذي جاء بقضه وقضيضه وكان يصرف صرف من لا يخشى الفقر، هو ببساطة عميل لجهاز الموساد الإسرائيلي، فبهت الوزير الهمام وعندما أدرك المذكور أن سره إنكشف أو في طريقه لذلك، غادر البلاد خلسة بما خف وزنه وغلا ثمنه، ولم يترك أثراً من ورائه سوى هذا الورق الذي نضعه بين أيديكم!
- **رابعاً:** وإن سألتم كيف جاءت هذه الشركة؟ نقول لكم وفقاً لمصادرنا، جاء بها وزير الدفاع الأسبق الفريق إبراهيم سليمان بطموح واحد فقط وهو أن يُدرجوا

ابنه هيثم (بمثلما سبق ودرّج ضباط آخرون العباس شقيق المشير) ولهذا تطالعون إسم ابن الفريق يتلألأ وسط حاملي أسهم الشركة الوهم!

- **خامساً:** وقع مع هذه الشركة (المفكر) أمين حسن عمر عندما كان وزير دولة في وزارة الثقافة والشباب والرياضة، ووفقاً للمصادر التي سربت لنا هذه الوثائق فإنه وصحبه خصص لهم ٢٠% وهي نسبة غير مرئية في العقد وتسميها العصبة بأسماء شتى ليست الرشوة واحدة منها على أية حال!

- **سادساً:** لأسباب نجهلها ظلّ المشروع يُداور مكانه لعامين حسومين، بالرغم من أن العقد ينص على التسليم بعد ستة شهور. خلالها، غادر (الأمين) كرسي الوزارة وخلفه آخر ذو اسم برّاق (حاج ماجد سوار) وفي العام ٢٠١٠ وقّع ملحقاً يقضي بتوجيه بنك السوداني في تسريع فتح خطاب الضمان لتعجيل التنفيذ ويقضي بتسليم المشروعات التي تنوء بحملها الورق في نهاية نفس العام (من الأفضل قراءة التفاصيل في العقد) أما المفكر الآخر فقد وقّع مع ذات الشركة عقد لمشروع وهمي أيضاً عبارة عن سكن لطلاب جامعة أفريقيا وقاعات محاضرات، وهي الجامعة التي ظل يرأس مجلس إدارتها حتى تهتك الكرسي الذي يجلس عليه، وقبل شهور قليلة أقيل بواسطة مجلس الإدارة بأسباب لم يكشف عنها النقاب، ولكن تردد أنه متورط في قضية فساد أخرى مع إيرانيين من (الجمهورية الإسلامية) وتلك قصة أخرى!

- **سابعاً:** السؤال الذي يتوارد للذهن، كيف لعقد بهذه الضخامة في المال والمنشآت لا يمر عبر مجلس الوزراء الذي يفترض فيه أن يجيزه ويخصص له موارده المالية من الوزارة المعنية بذلك؟ وكيف لوزير دولة أن يوقع مثل هذا العقد الذي يفترض أن يكون من مسؤولية الوزير أو الوكيل التنفيذيان؟

- **ثامناً:** العقد الذي يحتوى على سلسلة فنادق ومنشآت كثر خاص بـ (إنشاء وتطوير مدينة الشباب الرياضية/أرض المعسكرات) ولعلم القراء هذه غير المدينة الرياضية المتعارف عليها والتي زكم فسادها الأنوف هي الأخرى!

- **تاسعاً:** هب أن هذا العقد ليس فيه رائحة فساد، فالسؤال الذي يتوارد للذهن، هل يقع ضمن أولويات بلد يقبع ملايين من شعبها في معسكرات الذل والهوان في دارفور والحرب مستعرة، وملايين يعيشون على الكفاف في أطراف أخر وبينهم من يموت بأمراض الفقر، إن لم يقتلهم العطش أو المسغبة!

- **عاشراً:** ترى ما الذي حمله معه العميل الهارب من أسرار ذات صلة بالهجمات الإسرائيلية التي استباحت البلاد مثنى وثلاث ورباع؟ وكم من عميل مثله يعيش في دولة المشروع الحضاري؟

هذا ما عنّ لنا من قراءة عَجْلَى لهذه الوثائق، أما أنتم يا سادتي، فطالعوها بتأن وإمعان ربّما وجدتكم أكثر مِمَّا ذهبنا إليه. فمِن ما يُحمدُ لأصحاب الضمائر اليقظة، أنهم سواءً في أزمنة الديمقراطيَّة أو غياهب الديكتاتوريَّة، يظل القلم الذي يحملونه أشدُّ مضاءً على المُفسدين من وقع الحُسَام المُهنَّد!

آخر الكلام: لابُدّ منَ الدِّيمُقراطِيَّة وإن طال السَّفر!!
٢٠١٣/٣/٢٣

نظراً لكثرة الوثائق، فقد وضعناها في فيديو (يو- تيوب) وهو على الرابط التالي، وإذا لم يعمل يُرجى نسخه على المسطرة، وبالطبع يمكن استخدام التقنية لتكبير وتثبيت الوثيقة لحين قراءتها على مهلٍ..

http://www.youtube.com/watch?v=٩٣PE٤PaMPRE&fea٢ure=youtu.be

ماكفرلين و"شحم الإبل".. وبينهما طازج!

حَفلت بعض وسائل الإعلام الأمريكيَّة، ومنها صحيفة الـ'واشنطن بوست' وقناة الـ'سي إن إن' ووكالة الـ'أسوشيتد برس' الأسبوع الماضي بخبر تُعِدُّه مِنَ العيار الثقيل، بدليل تدويره في بعض وسائل الإعلام العالميَّة. كان ذلك عن مداهمة ضُبَّاطٍ من مكتب التحقيقات الفيدراليَّة الـ"أف بي آي" لمسكن السيد روبرت ماكفرلين، الكائن في بناية "ووترغيت" الشهيرة، في قلب العاصمة الأمريكيَّة واشنطن دي سي. وذلك للبحث عن أدلة ماديَّة تثبت ما توصَّلوا له قبلاً عن احتمال تورُّطه في "عملٍ مشبوه" - بحسب وصفهم، إنه ذي صلةٍ بنظام العُصبة الحاكم في الخرطوم.

وبالفعل، أسفر البحث عن حُصُولهم على ما عضَّد اتهامهم، ومن بين الأدلة، كان هناك عقدٌ مُوقع بين ماكفرلين والسُلطات القطريَّة الرَّاعية للمفاوضات الدارفوريَّة بمبلغ ١,٣ (مليون وثلاثمائة ألف دولار) وقعته الأخيرة نيابة عن الحكومة السودانية - من باب التمويه، في حين قيل إن الصفقة في حدِّ ذاتها تنمُّ عمَّا اشتهرت به العُصبة من "غسل أموال" الباطل، إلى جانب أن ماكفرلين جاء بشيءٍ أداً في القانون الأمريكي، وهو الاتصال بحكومة مُتَّهمَة برعاية الإرهاب، وتلك جريرة – كما تعلمون – ظلت تتمتع بها العُصبة منذ أوائل تسعينيات القرن الماضي، ولم تستطع الفكاك من براثنها رغم أنها قدَّمت "للسادة الأمريكان" من آيات الولاء والطاعة في الخفاء، ما عجز الجنّ عن تقديمه لسيِّدنا سُليْمَان!

تناقلت كثير من وسائل الإعلام العالميَّة الخبر، وعلى إثر سريانه في الأسافير والمواقع الالكترونيَّة، اتصل بي العديد من الأصدقاء والزُملاء والقُرَّاء، بعضهم عبَّر عن سعادته بحَسَب أن مكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكي منح كتابي الأخير "الخندق.. أسرار دولة الفساد والاستبداد في السُودان" مصداقيَّة للوثائق التي ضمَّها بين دفَّتيه، كدليلٍ على الفساد والاستبداد في دولة العُصبة، ومن بينها وثائق القصَّة المُشار إليها بحذفارها.

وبرغم سعادتي بالسَّبق الإعلامي، الذي تقاصرت عنه في حينها أو تباطأت دونه الأجهزة الأمنيَّة الأمريكيَّة بكُلِّ ما أوتيت من إمكاناتٍ ضخمة لا تخفى على الناظرين، إلا أنني لم أذهبُ في ذات الاتجاه الذي ذهبوا إليه في التقريظ، ذلك

لأنني لم أضع مصداقيَّتي أصلاً في كفِّ عفريت حتى تأتي الـ'أف بي آي' لتمنحني صكاً في البراءة.. ذلك ما لم أنتظره منها أو من أية جهةٍ أخرى، غير الذين ظللتُ أوجِّه لهم رسالتي، وتعاقدتُ معهم بشرطٍ واحدٍ غير مكتوب.. أن يتفاعلوا مع ما يقرأون، وأن أنفعل بما يشعرون!

واقع الأمر، لم يكن ما حدث مصدر مفاجأة لي، بدليل ما جاء في خاتمة الفصل الخاص بهذه القضية في الكتاب (ص ٢٦٨)، والذي صَدَرَ في يناير ٢٠١٢م، أي قبل أكثر من عام..

«مضى روبرت كابيللي في طريق العدالة الأمريكيَّة التي لا يُظلم عندها أحد من رعاياها، ولا تنحاز لأحد بسبب وضعه الوظيفي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، فالكُل سواسية أمام القانون وبحسب الدستور الذي وضعه "الآباء المُؤسسون" Founding Fathers كما يُسمَّون في الثقافة الأمريكيَّة. يبقى القول إن كانت قضية ماكفرلين قد خلقت ضجَّة حينما أطلت، ولم تمض لنهايتها المنطقيَّة لأنها غابت فيها الدلائل والبراهين، وهو ما نجحنا في توفيره بتواضُع، وقد أصبح مبذولاً للقرّاء الكرام ومن يرغب من أهل الشأن. تبعاً لهذا، يمكن القول بإمكانيّة وضع الموضوع في دائرة الضوء مجدداً، بإعادة فتح ملفاته المُفخخة في الدوائر العدليَّة الأمريكيَّة. وهو أمرٌ إنٍ حدث أو لم يحدُث فلا نظن أنه سيعنينا كثيراً أو قليلاً. اللهُمَّ إلاَّ إن رَشَحَت تداعياته على القضيَّة السُّودانية. فما بالك يا عزيزي القارئ لو أن هذا التداعي نتجت عنه تسوية شكليَّة لقضيَّة حيويَّة كقضيَّة دارفور؟! حيث تصعُبُ المقارنة من الناحية الأخلاقيَّة. ففي هذه القضيَّة دفع كثيرٍ من الأبرياء ضريبة قاسية، وصلت حدَّ إزهاق الأرواح، علاوةً عن النزوح الذي لم يتوقف يوماً، فضلاً عن حياة الذُلِّ والمهانة في المعسكرات، وما خفي كان أسوأ. من هذا المنطلق، ما الذي يمكن أن يتوقعه المرء لو أنَّ المعنيين عَمَدوا إلى فتح ملفات هذه القضيَّة مجدَّداً، وفي ظهرها كل هذه الحمولة الإنسانيَّة؟!»..

انتهى الاقتباس، ولعلَّ القارئ يلتمس فيه إيماننا بحتميَّة وصول القضيَّة لنهايتها المنطقيَة، طال الزمن أو قصر!

يجدُرُ بنا القول إنه ليس ثابتاً لدينا ما إذا كان مكتب التحقيقات الفيدراليَّة قد اعتمد في مسألة تورُّط ماكفرلين وحيثياتها – ومنها العقد المُبرم بينه والسلطات القطرية – على المنشور في الكتاب، أو أنه – أي مكتب التحقيقات الفيدراليَّة – وصلته ذات المعلومات من المصدر الذي سرَّبها لنا (وهو بالمناسبة من جهابذة العُصبة ذوي البأس نفسها، كما سبق ووضَّحنا في الكتاب)، أو أن المكتب توصل

لها بطريقٍ آخر غير الذي سلكناه. لكن الذي نعلمه، أن الكتاب ومادَّته أصبح أحد أدلة المحكمة الجنائيَّة في لاهاي. وسواءً بهذا أو ذاك فإن القضيَّة اتخذت الآن مجرى آخر، والذين يتابعون مثل هذه القضايا يعلمون أن الحجْر الذي ألقى في بركتها الآسنة، سوف تتسع دوائره وستتداح ولربَّما ابتلعت في جوفها أناس كثيرين، مرئيين وما هُم خلف حجاب!

لابُدَّ أن القرَّاء الذين لم يتابعوا الموضوع من قبل، يتساءلون الآن عمَّن هو ماكفرلين؟! ونُجيبُ بحسب ما جاء في الكتاب (ص٢٥٣)، هو:

«أحد المستشارين البارزين للأمن القومي الأمريكي، حيث شغل هذا المنصب في العام ١٩٨٣ - ١٩٨٥ وله بصمات واضحة في السياسة الخارجية الأمريكيَّة في إدارة الرئيس الأسبق رونالد ريغان، لكن اسمه ارتبط بقضيَّة كبرى ظللتها فضيحة ملأت ريحها الآفاق، تلك هي فضيحة "إيران كونترا"، وقد أدين في عام ١٩٨٨ بتُهم تتعلق بحجب معلومات عن الكونجرس، كذلك أدين بتورط القوات الأمريكية (المارينز) في دخولها لبنان عبر شواطئه، وما ترتب عن ذلك في تفجير السفارة الأمريكية في بيروت، والذي راح ضحيَّته ٦٣ أمريكياً، وتفجير مقر المارينز في بيروت أيضاً وراح ضحيَّته ٢٤١ أمريكياً. لكنه حصل لاحقاً على عفو من الرئيس جورج بوش، ثم عمل مستشاراً في العام ٢٠٠٨ للمرشَّح الرئاسي الجمهوري جون ماكين عن ولاية أريزونا. ولاحقاً أسَّس مجموعة استشارية باسمه»!

بهذه الخلفيَّة والإرث الضخم في الخطايا، يأتي السؤال التالي، حول كيفيَّة وصول ماكفرلين لقلب العُصبة السودانية الحاكمة في الخرطوم؟! جاء ذلك عبر أحد جلاوزة جهاز أمن واستخبارات صلاح قوش، وهو المدعو محمد حسَّان بابكر "شحم البل"، وهو المُشار إليه في عنوان المقال.. فوفقاً للمعلومات المنشورة في الكتاب (ص ١٥١):

«نحن لا نعرفه، كما أنه ليس بذات الشُهرة التي يمكن القول أن الكثيرين يعرفونه. لأنه ببساطة، يعمل في الكواليس كرجُل أمن، وبالتالي لا يُعتقد أن مَن يعرفونه يتعدَّون دائرة أهله وأصدقائه وزُملائه في العمل، أو مَن عرفه هنا وهناك. لكن هذا لا يُنقِصُ من أهميَّته في القضيَّة التي نحن بصددها. فهو على العكس تماماً، يُعتبر شخصاً مهماً بين عُصبته الأمنيَّة كما أشرنا. سردنا سيرته الذاتية من واقع ما خطه شخصياً بيده، وإن كانت لا تخلو من مبالغة، رغم أن تلك شيمة من شيم أهل الأمن عموماً. ربَّما أوردها بتلك الصورة لكي يُقنع رئيسه بحُسن سيرته ونقاء سريرته، والقاعدة تقول إن رجال الأمن الخدَّامون في الأنظمة الشموليَّة، كذبة إلاّ من رحم ربي. ذلك بالطبع وفقاً للمنطق الذي يتسق مع

طبيعة النظام، حيث يُصبحُ الكذب مثل الملح في الطعام، لا تستقيم معه سيرة أو يتوافق معه حدث إلا إذا كان مُبهَّراً ببُهار الكذب، ومطلياً بغلاف الرِّياء، ومتدثراً بلحاف النفاق»!

خلاصة القول، أن "شحم البل" هو عرَّاب القضيَّة التي نحن بصددها، ثم مضى الكتاب في تفصيل سيرته الذاتية ولا نريد أن نشغل بها القارئ، ولكن تكفي الإشارة فقط لما سألني عنه الكثيرون، وهو "شحم البل" ما إذا كان اسما أو لقباً، والواقع أنني لا أعرف ما إذا كانت هذه أو تلك ولكن كلمة "البِلْ" هي دارجة سودانية ومعناه الفصيح "الإبل"، اي أن التعبير يعني "شحم الإبل"، ووفقاً لما علمنا هو لقب الشيخ محمود ود زايد، زعيم قبيلة الضباينة، الذي عُرف بشجاعته وكرمه فيما عُرف بـ"قدح ود زايد"، وكذا مناهضته المهدية، والخليفة عبدالله التعايشي تحديداً. وتعيش القبيلة في أرض البطانة، وغير معروف لدينا إن كان للمُقدَّم حسَّان صلة بكل هذا، أم أنه تشابُه في الألقاب، وهو على كلٍ ليس بذي بالٍ في سياق ما نحن بصدده، فصاحب اللقب الأصلي كريم في ما يفتخر به الناس، أما الموصوف به فكريم فيما ينفر منه الناس!

لرجال الأمن دهاليز مظلمة، لهذا فبين الشاطر ماكفرلين والمشطور "شحم البل" ينطرح السؤال التالي، عمَن هو الطازج الذي بينهما؟! فالطازج قد يكون القضيَة التي ذكرناها، ولكن اسمحوا لي أن أضيف لها نكهةً يستطعمها القرَّاء.. ففي بحثها الدؤوب عن الانفلات من المقصلة الأمريكيَة (على عكس ما دنا عذابها كما يقولون)، وفي سبيل إيمانهم بأن ٩٩% من أوراق الحلول بيد "السادة الأمريكان كما أنشدوا"، توصلت العصبة التي يمثلها "شحم البل" للخيط الذي يدلها على ماكفرلين. كان ذلك وسيطٌ اسمه "البينو أبوج"، وهو أمريكي من أصول سودانيَة يومذاك، وجنوب سودانيَة بعد الانفصال الآن. ولألبينو هذا تفاصيل وردت في الكتاب نعجز عن اختصارها. المُهم في الأمر، أن ماكفرلين نفسه شرع في الاتصال بشخصيَّات أمريكيَّة متنفذة للعمل معه كقوى ضاغطة "لوبي" لتحسين صورة النظام السُوداني القذرة، منهم من كان يتولى مهاماً جساماً كـ"إسكوت غرايشين"، المبعوث الرئاسي السابق، وجيمس جونز، مستشار الأمن القومي السابق، كما حاول استمالة اخرين، منهم جون دانفورث وروبرت أوكيلي المبعوث الرئاسي الأسبق في الصومال وآخرين. وبالطبع، كان المال هو أداة التسهيل التي تذيب صلد الحديد. وفي هذا الشأن، هناك كثير من التفاصيل يمكن استقاؤها من الكتاب حتى لا نكرّر تدوير معلوماته!

ليس من باب الترويج للكتاب الذي تُعِدُّ بالفعل طبعته الرابعة – رغم أنف العُصبة التي حظرت دخوله السُودان. إذ أنه يحتوي على ما هو أنكى مع شخصيَّات أمريكية نافذة، مثل قصّة القس جون دانفورث، وصفقة السُكَّر الذي أصبح علقماً في حلوقنا.. فدانفورث هو الذي عمّد الواقع الذي نحن فيه مُنفصِلون

الآن.. واقع الأمر، سواءً هذه أو تلك، فالقضايا متَّجهة نحو مزيدٍ من التعرية وتسليط الأضواء، ولو بعد حين. ولهذا ليس بعيداً أن تصبح إحدى قضايا الرأي العام بشيءٍ من الإثارة المعروفة في الأوساط السياسيَّة والإعلاميَّة الأمريكيَّة، نظراً للموقع الذي كان يحتله رويرت ماكفرلين، والخطوط الحمراء التي عبرها، والتي تعتبر الدوائر الرسميَّة أن فيها مساساً بالأمن القومي الأمريكي. ومن عجبٍ، كان ماكفرلين أحد حُرَّاسه بالأمس، وأصبح أحد مُهدِّديه اليوم!

لعلَّ الذين قرأوا الكتاب يعلمون أن أكثر من نصف فضائحه ووثائقه الدامغة هي عبارة عن قضايا جنائيَّة متصلة بالمحيط الإقليمي والدولي، والقليل منها – وبخاصة قضايا الفساد – متصلٌ بموضوعاتٍ محليَّة سودانيَّة، وإن كانت الأخيرة قد دأب البعض على تناوُلها بطريقة "عفا الله عمَّا سلف"/ وفق ما هو معروف في المنهج السلبي السُّوداني، فإن الأولى ذات الأبعاد الخارجيَّة ليست فيها دِيَّة أو كفَّارة. وبالأخص تلك القضايا المتصلة بالشئون الأمريكيَّة، وما على القارئ المهتم سِوَى أن يصغي السمع لما هُو قادمٌ، فقد تأتيه الأخبار بمن لم نزوِّد!

آخر الكلام: لابُدَّ من الدِّيمُقراطِيَّة وإن طالَ السَّفر!!
٢٠١٣/٤/٨

هذا هُو "رئيسُكُم" الذي لا تَعرِفُون (١)!

كلّما تأمّلتُ مصيبة هذا البلد، الذي تحكُمه عُصبة حرّمت حلاله وأحَلّت حرامه، أستعجب من هذه المِحنة التي تطاولت لما يُناهز رُبع قرن من الزَّمن، بل ومن شدَّة ما رُزئنا بحرّائها وضرّائها، يظن المرء أننا كل عام نرذلُ فيها أضعافاً مضاعفة. وعلى الرغم من أن عُصبة الجبهة الإسلامويَّة لها من صفات الانحطاط الأخلاقي، ما يتقاصر دونه سوء الظن، وتتقازم معه أفعال قوم عاد وثمُود وأصحاب الرَّس، إلا أن دهشتي – أو بالأحرى محنتي – تزداد غوراً، وجُرحي يزدادُ نُسوراً كلما أدركتُ أن من يقف على رأس هذه العُصبة رئيساً غِطْريساً، ليس فيه من خصال الرئاسة ما يُؤهِّله لحُكم هذا البلد المغلوب على أمره.

مع ذلك، لن يجرمننا شنآن تطابُق خصاله وطبيعة النظام القائم في الحُكم عليه بالقسطاس. فكلنا يعلم أن مثل هؤلاء الذين يجدون أنفسهم بغتةً في سُدَّة الرئاسة تزداد فرصهم في ظِلّ الأنظمة الشموليَّة والديكتاتوريَّة، في حين تتضاءل بل تكاد تنعدم في ظِلِّ الأنظمة الديمقراطيَّة. وذلك نظراً للبيئة الحاضنة التي تولد فيها الأخيرة. فالانتخابات الحرَّة النزيهة، هي التي يتولى فيها الأكفاء المهام الجسام، وهي التي تكفُل للشعب التمتع بالحريَّات الممدودة، وهي التي تستظل بسُلطة تشريعيَّة قويَّة، وتتعرَّش بقضاءٍ عادلٍ، يتساوى فيه الناس كأسنان المِشط. بيد أن السُؤال القديم المتجدِّد، الذي يطرح نفسه في الحالة المُربكة التي نحن إزاءها.. هل كان الرئيس "الضرورة" المشير عُمَر حَسَن أحمَد البشير حاكماً للسُودان بأكمله، أو حتى ما تبقى منه طيلة الفترة المذكورة؟!

واقع الأمر هذا سؤال تقريري، ومع ذلك أودُّ أن أستعير إجابته بوصفٍ سديدٍ، أتحفنا به كاتب آبق من عُصبته.. فقد قال الدكتور عبدالوهاب الأفندي في سياق مقالٍ تحليلي نُشر مطلع هذا الشهر في المواقع الإسفيريَّة السودانيَّة المبثوثة في أرجاء الدنيا: «**في حقيقة الأمر، فإن الرئيس البشير لم يقض ٢٣ سنة حاكماً للسُّودان، لأن الحُكم خلال العشريَّة الأولى كان في أيدٍ أخرى، ولم ينفرد البشير بالسُلطة إلا خلال الأربع أو الخمس سنوات الماضية. فقد كان البشير أمضى سنوات طويلة يمثل دور الرئيس بإتقان شديد، بينما لم يُؤدِ مهمة الرئيس حقيقة بإتقان في أي وقت**»..

بالطبع فإن كُلّ من يقرأ هذا سيقول: صَدَقَ الأفندي، وكذبت العُصبة فيما يفترون. ولكن بالقدر نفسه سيقولون: وما الجديد في أمرٍ يعرفه حتى الذين لم يبلغوا الحُلم في البلد الصابر أهله؟! ذلك بالطبع أيضاً صحيح، ولكن أقول إن تفصيل وتوصيف الأفندي هذا جلبناه "الأمر في نفس يعقوب"، وقد وجد هوىً في نفس كاتبه، بحيث بدا لنا إنه أعمق وقعاً وأصدق واقعيّة!

بيد أنني أود أن أؤكّد قبل الخوض في تفاصيل هذا المقال، أنه غير معني بالجدل الذي ثار فجأة حول "ترشيح" المشير البشير نفسه من عدمها في العام ٢٠١٥م، وذلك لعدّة أسباب، منها أن كلمة "ترشيح"، إلى جانب أنها ليست من مصطلحات النظم الشموليّة والديكتاتوريّة، فهي تُؤكّد ما دأبت عليه العُصبة في الاستخفاف بالعقل الجمعي لأهل السُّودان. فهُم يتحدّثون عن دورتين رئاسيّتين وكأن ما قبلهما من سنين سقطت في جُب النسيان. ويتحدّثون عن دستور، والقائم رغم علاته، لا يتذكرونه إلا في المُلمّات. والواقع أن النظام وفق مرجعيّته الانقلابيّة ظلت مسألة الشرعيّة الدستوريّة تُؤرّقهم، وقد حاولوا مرارا التحايُل عليها بمنهج "الفهلوة السياسية"، فطرحوا في بواكيرهم ما أسموه بـ"نظام المؤتمرات الشعبيّة"، ثم ابتدعوا "الإجماع السكوتي"، وعندما كسد سوقهما، أخرجوا من جرابهم ما عُرف بـ"التوالي السياسي"، وحينما ذهب ريح كل هذه الطلاسم، عمدوا مباشرة إلى التزوير الفاضح في انتخابات "الخج". فضلاً عن أن الجدل المُفتعل نفسه هو عبارة عن مسرحيّة قُصِد بها صرف الأنظار عن القضايا الأساسيّة بشراء الوقت. وبناء على كل هذا، فإن كاتب هذا المقال يؤمن إيمان العجائز بعدم شرعيّة هذا النظام، حتى لو لبثوا فينا ما لبث نوحٌ في قومه!

نعود للرّجُل الكثير الذُنوب وقد ناقض اسمه سيرته ابتداء.. ونودُّ في هذا المقام أن نسلطُ الضوء على صفات تتناقض فيمن طمح لقيادة أمّة، وهم كان أم حقاً.. كنتُ قد ذكرتُ في مقالٍ سابق صفة ذميمة تُعدُّ من أمّهات الكبائر، وقد التصقت بالمذكور التصاق الوشم بالجلد.. جاء ذلك في سؤالٍ وجّهته لضابطٍ سابق في القوّات المسلحة، وكان ممّن أثق في مصداقيتهم وقد علمتُ أنهما ترافقا لعدّة سنوات في ثكنة عسكريّة واحدة.. سألته في بواكير الانقلاب الكارثي عن رأيه في المذكور؟! طفق محدّثي يذكُر صفاتٍ عدّها حميدة، حتى يكون منصفاً كما قال.. غير أنه ختم شهادته بما لم يحلل عُقدة من لساني، وقال إنه عُرف عنه صفة سيئة واحدة، وهي "الكضب"، وللذين لا يُحسنون دارجيّة أهل السُّودان، نقول إنها تعني "الكذب".. واقع الأمر لم يطل انتظارنا حتى نتحقق من هول ما ذكر، فقد علمنا بعد حين أنه ذات اللقب الذي اشتهر به المذكور في أوساط ضُبّاط القوّات المسلحة السودانيّة أو "عرين الأبطال" كما تسمّى..

ولسببٍ لا أدريه، أذكرُ أنه عندما أوردتُ هذا الإقرار في المقال السابق، استنفر رهطٌ من عُصبته أنفسهم، وأمطروني بوابلٍ من التكذيب.. المُفارقة أن

"الدنيا ضيّقة" عند السُّودانيين، كما تقول أمثالهم، وجاءت الأسافير بتقنيتها التي كادت أن تجعلها أشبه بِسَمِّ الخِيَاط.. عندئذٍ انداحت الأقوال والأفعال من لدن "عُمَر الكضّاب" بدرجة أذهلت كل مُرضعة عمّ أرضعت!

في يونيو من العام ٢٠٠٢م، أجرى الصحافي "الجمبازي" أحمد البلاّل الطيّب لقاء تلفزيونياً ببرنامج "في الواجهة" مع المُشير بمناسبة مرور ١٣ سنة على الانقلاب العسكري، حكى فيه تفاصيل الدقائق الأخيرة التي سَبَقَت ساعة الصِفر.. قال إنه أراد التحرُّك من منزله في "حي كوبر" نحو القيادة العامة، وفجأة ظهرت سيارة في الشارع العام، فاعتقد أن أمره قد انكشف، وتكرَّرت الدهشة بمثلما عقدت لساني من قبل، حينما ختم المذكور روايته تلك مُعلِقاً على الخوف أو القلق – سيّان – الذي اعتراه ساعتئذٍ، وقال: **«لأنو طبعا زي ما بقول المثل السوداني، الحرامي في راسه ريشة»**.. ودونما اكتراث لحجارة السِّجيل التي ألقاها على رُؤوس العباد، أعيد بث هذا اللقاء بعد ثلاث سنوات (يونيو ٢٠٠٥) بمناسبة ذات الذكرى التعيسة. ولمزيدٍ من التفاصيل، يمكن للقارئ أن ينظر (ص ٦٢) في كتابنا المُعنون بـ"سقوط الأقنعة.. سنوات الأمل والخيبة"!

تعلمون أن تلك من الكبائر التي لو جَرَت على لسان رئيس في حكومة محترمة، لزلزلت الأرض زلزالها وأخرجت أثقالها. لن نذهب بعيداً، فالدولة التي تقف على رأس فسطاط الكُفر كما يقولون، حاكمت رئيسها على رؤوس الأشهاد وبشفافية لا تعرفها الشريعة "المدغمسة" التي يتباهى بها "السارق الأمين"، فالولايات المتحدة الأمريكيَّة لم تحاكم رئيسها الأسبق بيل كلنتون حينما شاع خبر علاقته مع مونيكا لوينسكي، المتدرِبة اليفعة في البيت الأبيض. لم تحاكمه بتهمة "الشروع في الزِّنا"، وإنما بالكذب تحت القسم، كما تقول الثقافة لعدليّة الأمريكيَّة. وهَبْ يا قارئي الكريم أنهم حاكموه بالأولى، فما الذي ستقوله العُصبة في تُهمة كالوا من حرامها ما أبغض الناس في حلالها. إذ لم يكتفوا بالمُثنى والثلاث والرُباع، بل جاد بعض مِمَّن له فضلُ ظهرٍ على من لا ظهر له، فليس غريباً بعدئذ أن يسمع القوم بِمُسمَّياتٍ للنكاح لم تَجْرِ على لسان سَلَفٍ ولا خطرت على قلب خلفٍ!

اللقاء التلفزيوني المذكور جاء فيه ما هو أنكى وأمَرّ. حكَى فيه المشير كذبة بلقاء أخرى مصحوبة بتلك الضحكة العجفاء التي تعرفون، قال إن ذهنه تفتق عن حيلة، إذ اتفق مع طبيب الوحدة العسكرية (اللواء الثامن – المُجلد – غرب السُّودان) أن يكتب له تقريراً طبياً يزعُم فيه أنه مصابٌ بـ"مغص كلوي" حتى يتسنَّى له الغياب عن العمل.. تأبَّط تقريره هذا ويمّم وجهه شطر العاصمة الخرطوم لمعانقة مجدٍ بائس.. وهناك تمدَّد الكذب بحسب وقائعه، إذ ذَهَبَ للقيادة العامَّة صبيحة خميس الانقلاب، وتعمَّد أن يقول لكُلِّ من يستفسره عن سبب حضوره، إنه جاء لمتابعة إجراءات سفره للمشاركة في كورس بجمهوريّة مصر العربيَّة. قد يقول

أصحاب مذهب "فقه الضرورة" إن ذلك من باب التمويه. ولكن هَبْ أن ذلك كذلك، فكيف لرأس دولة أن يبث كذبه بالصوت والصورة ويتباهى به بعدئذٍ؟! إن مثل هذه الروايات لو جرت على لسان رئيس يحترم نفسه في دُول "البغي والعُدوان" لسَقَطَ مِن شاهق وإلتصَقَ أسمه بخطيئة لا تُبلى!

غلب الطبع التطبُّع، كما يقولون.. فبعد نجاح الانقلاب، لم نكن بعدئذٍ في حاجة لمزيد من القصص.. تصدّر "خُمَر الكضّاب" قائمة الناكرين، فلم يكتفِ بنفي ما ظلت تنفيه عُصبته حول علاقة الانقلاب بالجبهة الإسلامويَّة، ولكنه زايد بمكابرة فجّة حتى صدّق كذبته.. منها ما حدث أثناء ما عُرف بـ"المُفاصلة" مع جناح التّرابي، ففي مزايدة على الأخير، وهو عرَّابُ الانقلاب نفسه، ادَّعى المشير أنه ليس عضوا في التنظيم وحسب، وإنما والده العارف بالله (حَسَن أحمد البشير) تتلمذ على يد حسن البنَّا وبايعه، وَضَعَ اليَدِ باليَد. ثمَّ مضى بعد أن جاءته الرئاسة تجرجر خيبتها يتحرّى الكذب ويتبعه كظله كلما صعد منبراً وهشّ بعصاه على الكاظمين الغيظ والصّبر. بل لم يجد ثمّة مناص من أن يكذب بقسم "غُموس" عندما خطب في جمع يوم ٢٠٠٦/٦/٢٩ بميدان 'الساحة الخضراء، وقال إنه لن يسمح بدخول أيَّة قوّات أجنبيّة طالما هو في سُدّة السُّلطة. وأعطى وعداً لسامعيه بتأكيد أنه «**يُفضّل أن يُقال عنه مجاهد وقائد للمقاومة، وليس رئيس دولة محتلة**»، ومن قبل أن يتبخّر حديثه في الهواء، لم يُفاجأ الذين يتابعون كذبه بوجود أكثر من أربعين ألف جندي أجنبي يسرحون ويمرحون في عرصات السُّودان، لم يكتفوا بوضع أحذيتهم الثقيلة على صدور شعبه، بل مدُّوا لسانهم ساخرين من المُتوعّد الهمام!

واقع الأمر، أنني لم أعجب بمزايداته على عرّاب الانقلاب، بقدر ما زاد عجبي في أن "أسد البرامكة" الذي قبِل لنفسه أن يكون ديكورا لعقدٍ كاملٍ من الزّمن تحت إبطه، لم يجرؤ خلاله على أن يرفع صوته أو عينه على شيخه، كما كان يناديه في الصوالين المُغلقة، بينما ظلّ يرقص طرباً في الهواء الطلق كلما ترنم فنان أسمه "قيقم" بأغنية: "النار ولّعا وأتوطّا فوق جمُرَا"، ولمزيد من الدهشة كنتُ قد ذكرتُ في كتابنا "الخندق.. أسرار دولة الفساد والاستبداد" أن من دأب على الرَّقص كلما ضربت له الدُفوف، ضُربت عليه الذِلّة والمسكنة أيضا، فلم يلتق الترابي وجهاً لوجه أي لوحدهما في العشريَّة الأولى كلها سوى مرَّة واحدة، كان ذلك بعد حدوث محاولة اغتيال الرئيس المصري السابق حُسني مبارك في أديس أبابا في يونيو ١٩٩٥، فقد كانت كل المُقابلات السابقة في معيَّة آخرين، بما فيها الأولى التي كانت قبيل الانقلاب بيوم أو يومين تقريباً. وبعد هذا، لابُدَّ أن البعض مِمَن أقلقهم تنطع الرئيس الضرورة بنقائه العِرقي، تساءلوا بمثلما تساءلنا عن رئيس يرقص على أشلاء خيبته وهو يعلم أنه ليس برئيس!

يعلم البعض أيضا ما ذكرناه في مقالٍ سابق، كيف قتل الرئيس الضرورة فتاة يافعة عام ١٩٨٧م، أي قبل الانقلاب.. حدث ذلك أثناء حفل زواج في بلدة

"بفرة" التي تقع بين المُجلد ولقاوة، والضحيَّة إحدى فتيات قبيلة المسيريَّة. جاءت لتنعم ببعض الفرح والسرور وتُمنِّي نفسها بفتى الأحلام القادم، فإذا بحُلمها يُصبح في لون الدم وطعم الموت، حيث جاءتها رصاصة طائشة من الرئيس الذي كان يرقص ببندقيَّة كلاشنكوف، راح يتباهى بها فانطلقت منها رصاصة استقرَّت في صدر الفتاة. ضحيتئذٍ، وبطريقة أهل السُّودان المعروفة في الحلول "الجُوديَّة" قال لنا قارئ كريم، أن زميل المذكور في القوَّات المسلحة ويمُت بصلة قربى للضحيَّة، وهو المُقدِّم بندر البلولة حيدر تدخَّل للحنول دون أن تتصاعد القضيَّة وتصل للقضاء. وقيل إن "الأجاويد" حلوا الأمر بفرض مبلغ من المال على سبيل "الدِيَّة" وقد قبل بها أهل الفتاة، ربَّما كرماً منهم أو لأن للفقر الذي طال معظم أهل السُّودان أحكامه. واقع الأمر، القصة نفسها ذكرها صديقنا العميد (م) السر أحمد سعيد في كتابه "السيف والطغاة" (ص ٢٥١) بذات التفاصيل والتي ختمها بقوله: **«إن مثل ذلك التصرُّف الأخرق أقلّ ما يمكن أن يعاقب به صاحبه هو الإبعاد من الخدمة. لكن من سخريات الزمن ومن بدع العالم الثالث أن يظلّ ذلك العميد "الأشتر" في الخدمة في صفوف القوّات المسلحة، بل ويصبح قائداً عاماً وقائداً أعلى لها»**، وقد يقول قائل أيضاً إن الرَّجُل لم يقصد. ونحن إن وافقناه، فماذا يقول في جنديٍ لم يُحسن أبسط أنواع صنعته، وهي تصويب السلاح بدقة نحو هدفه؟!

حتى أكون منصفاً كما ذكرت، لا يعني ذلك أن الرئيس الضرورة لم ينطق صدقاً، فقد فعلها مرَّة واحدة بحسب رصدي.. ذلك عندما خاطب ختام مداولات المجلس القومي للتخطيط الاستراتيجي حول الخطة الخمسية يوم ٢٠٠٧/٦/١٢، وقال: **«يا جماعة نحن جينا لهذا الموقع عساكر وتعلمنا بعض الشيء من خلال وجودنا في مجلس الوزراء، وما يدور في لجان التنمية»**.. فحزنت لحال شعب يتيم تعلم الجهلاء الحلاقة في رأسه!

وإلى الحلقة القادمة التي نميط فيها اللثام عن المخبوء تحت اللسان والذي يمور خلف الجدران!

آخر الكلام: لابُدَ من الدِّيمُقرَاطِيَّة وإن طال السَّفر!!
٢٠١٣/٥/٤

هذا هو "رئيسكُم" الذي لا تعرِفُون (٢)!

كُنَا قد أوردنا في الجُزء الأوّل من هذا المقال، شذراتٌ من صفات ذميمة اتَّصف بها الرئيس الهُمام المُشير عُمَر حسَن أحمد البشير، وعلى رأسها جريرة الكذب أو "الكضب" كما نقول في عاميّتنا. بيد أنني لن أستطيع معادرة هذه الصفة دون أن أورد سنام كذبه، لا سيما، وأنه كذبٌ راح ضحيّته فتيً غضُّ الإهاب كان سابحاً في أحلام الشباب اسمه مجدي محجوب محمد أحمد. حدث ذلك في بواكير الانقلاب الكارثة، عندما كانت الغصبة ذوي البأس تبحث عن ضحيّة أو كبش فداء، فوجدت في الشاب ضالتها، وحكمت عليه بالإعدام.. يومذاك، رفع رئيس القضاء جلال الدين علي لطفي الحُكم الجائر للرئيس بُغية التصديق عليه، فمهره المذكور بتوقيعه دون أن يطرف له جفن. وما أن علمت به أمُّ الشاب اليافع، حتى طفقت تبحث عن وسيلة لإنقاذ فلذة كبدها من حبل المقصلة. كان هناك من اقترح عليها الذهاب لمنزل من نُصِبَ رئيساً للبلاد، وهي لا تعلم، بل لا أحد يعلم غير مجايليه لقبه الذي كانوا به يتهامسون.. توسّلت إليه أن ينقذ ابنها من موت بات مُحدقاً، واقسمت له أنه ليس "تاجر عُملة" كما وصموه، وأن الأموال التي وجدوها في خزينة الأسرة تركها زوجها بعد موته، ولم تمتد لها يد أنس ولا جان منذ نحو ثلاث سنوات. عندئذٍ قال لها المذكور ما إجتهدنا في توثيقه نصاً: «أطمئني يا حاجة، ما حيحصل ليهُ شيء، الموضوع ده نحن عايزين نخوّف بيه الناس ساكت، طبعا إنت عارفه الأوضاع كانت كيف، ونحن جينا عشان نصلِّحها. أطمنني، ما في زول بقتلوه في حقه»..

بهذه الكلمات التامّات غادرت الأم المُلتاعة، وقد اطمأنت بالفعل، وقالت إنها نامت ليلتها تلك كما لم تنم من قبل. وبالطبع لم تكُن تعلم أن ابنها كان قد غرق في النوم أيضاً.. ولكنه نومٌ أبدي.. ففي حوالي الساعة الرابعة صباحاً استيقظت على ما ظنته أضغاث أحلام، ولم يكُن ذلك سوى أصوات ثواكل الدار وقد أحطن بجثمان الفتى الغرير مسجيً بالدموع!

لندع الكذب وشنونه ونمسك صفة ذميمة أخرى بشجونها.. تلك هي العنصريّة البغيضة، ورائدها في عُصبته ذات الرئيس الغطريس. وليكن مدخلنا لهذا الصفة الكريهة ما حدث منتصف شهر أبريل الماضي، أثناء زيارته لدولة

جنوب السُّودان.. سُئِل في مؤتمر صحافي عن وصفه السابق للحركة الشعبية بـ"الحشرة الشعبية"، فقال مضطرباً بعد أن فاجأه السؤال فيما يبدو، إنه بالفعل عنى بها الموصوف وليس شعب جنوب السُّودان.. كانت تلك – باستعارة وصفه – إجابة "مدغمسة"، أورثتني رثاءً لحال من تنطّع وأفتخر بما يفتقده، والمفارقة هو نفسه من تلقى ما سُمِّي "بيعة الفداء والموت" من القوات النظاميَّة يوم ٢٠٠٩/٣/١٥ بميدان السَّاحة الخضراء بالخرطوم!

كان واضحاً أنه عندما تعرَّت مصداقيَّته في المؤتمر الصحافي المذكور، نقض غزله بفمه وظنَّ أن إجابته درأت عنه شُبهة الحرج الذي حاصره، لكن السؤال الذي طرق آذان الحاضرين آنذاك.. هل الحركة الموصومة بالتحقير هي حركة تحرير الأوغادين، أم الحركة الشعبية لتحرير إريتريا؟! فضلاً عن أنه لم يكن يعلم أن الموضوع ليس "الحشرة الشعبية"، ولكن في قوله المُصاحب آنذاك، والذي جبَّ به أيَّة عنصريَّة منذ أن نطق بها أبوالطيِّب المُتنبي مجسَّدة في بيت شعره القميء **«لا تشتري العَبْدَ إلاّ والعصا معه *** إن العبيد لأنجاس مناكيد»**.. كان المشير البشير يومئذٍ قد استعاره وقال لسامعيه وهو يحكي انتفاخاً صولة الأسد: **«نعمل ليهم شنو.. إذا ما بجوا إلا بالعصاية؟!»**.. قالها وهو يُلوِّح بذات العصا التي ظلّ يهش بها على شعبه كلما ما اعتلى منبراً وضُربت له الدفوف!

دعونا نبُحرُ قليلاً في باب العنصريّة التي حمل لواءها الرئيس الضرورة. قبل أعوام خلت نطق الدكتور الترابي بواقعة اقشعر لها بدن السامعين. جاء ذلك تورية في ثنايا سرده رواية عن الرئيس ورأيه في جرائم الاغتصاب التي حدثت في دارفور، فربطها المشير بنقاء عرقي متوهم. وهي الرواية التي سنمسك عن ذكرها لأن عباراتها تخدش الحياء ويعف القلم واللسان عن ترديدها. ولكن إن قال البعض إن تلك الرواية مجروحة لأن بينه والترابي ما صنع الحداد بعد المفاصلة. نقول ثمّة رواية مماثلة أكثر اتساقاً وأصلب عوداً. تلك قد حدثني بها صديق مصداقيّته غير قابلة للشك.. حدثت أثناء عمله في شركة خليجيّة بينها معاملات تجاريّة واستثماريّة مع شقيق المشير (اللواء طبيب عبدالله حسن أحمد) والذي دعاهُم لزيارة الخرطوم، فحضروا وفي معيّتهم صديقنا الصدوق.. استقبلهم الشقيق عند باب الطائرة بمراسيم رئاسيّة أطلقت فيه الدرّاجات الناريّة صافراتها وأنوارها التي تزغلل العيون وتسُر الناظرين!

في اليوم التالي، أولمهم الشقيق عشاءً رئاسيا، أي كان في صَدَارَته الرئيس والسيّدة حرَمُه (الثّانية) كمكرمة لا ثناء بعدها.. في أثناء تجاذُبهم أطراف الحديث، بدأ الرئيس يتخفف من أعباء الرئاسة، فسَرَدَ على مسامع الحضور قصّة ربّما توهّم أنها ستورثه تواضُعاً عُرف به أهل السُّودان، فقال: **«كُنا في زيارة للمملكة العربيّة السعوديّة لتادية العُمرة، رافقنا فيها مُطوّف عشان يدلنا على المزارات الإسلاميّة، ولما وصلنا لقبر. قال عنه إنه قبر سيّدنا العبّاس، حينها نظرتُ للأخ**

بكري، وبكري ده بالمناسبة يا جماعة وزير معانا، فرأيته يضحك ضحكة مكتومة، لأنو بصراحة عارف الحكاية.. والحكاية إنه لقى فرصته فيني، فأنا دائماً بقول ليه العبَّاس ده جدَّنا، وكنت عايز أقول للمُطوِّف السُّعودي نفس الكلام، لكن قلت يا ولد أنت رئيس جمهوريَّة يقوم السُّعودي يقول "العبد" ده متصلبط ساكت فينا».. وللذين لا يُحسنون دارجيَّة أهل السُّودان أيضاً، نقول إن "المُتصلبط" هو الذي يدَّعي ما ليس حقه.. عندئذٍ تمنى صديقي أن تنشق الأرض وتبتلعه، وهو نفس شعوري الآن ولربَّما شعور القُرَّاء الكرام أيضاً!

قلنا إن هذا رجُل كثير الذنوب، وكان الأجدر بي ان أقول "كثير الثقوب".. ما أعنيه هو الذي أقرَّ به كل عُلماء النفس من لدُن سيغموند فرويد وحتى صديقنا البروفيسور طه أمير طه، إذ حصروا مهمَّتم في دراسة تحليل النفس البشريَّة على قاعدة "ضرورة كشف الرغبات المكبوتة وإعادتها لدائرة الشعور لكي يواجه المريض الصراع الذي فشل في حله سابقاً".. بهذا المفهوم، كلنا مرضى والحمدُ لله، لكن ما نحنُ بصدده هو ما حدا بي أن أنبش ماضٍ لئيم، لا سيَّما، ونحن في البلد الصابر أهله لا نعبأ بذلك كثيراً، ولا نُخضِعُ الأشياء لتحليلٍ علمي يجنبنا مغبَّة وعثاء السَّفر في خضم قضايا نجني حُصرُمِها بعد أن تنال من أجسادنا وأروحنا وعقولنا، وحينها لات ساعة مندم!

بهذا المنظور، وقفتُ كحمار الشيخ في العقبة لا ألوي علـى فهمٍ، كان ذلك أثناء قراءتي قصة عفويَّة جاءت على لسان الحاجَّة هدية محمد زين، والدة الرئيس ('الأهرام اليوم' ٢٠١٣/٣/٢٧)، قالت إن المذكور مارس في طفولته شقاوة لم تستطع كبح جماحها، لدرجة كاد أن يفتك بها ذات يوم: **«عُمَر كان طبعو كويس، لكن مرَّة دقيتو دقة شديدة عشان نزل البحر وهو طفل والدنيا كانت دميرة، وقلت لي أمي: يُمَّة ولدي بغرق أنا ماشة ألحقو، وطوَّالى جبتو وكان عندو "قنقر" معانا، وقال لي: يُمَّة قنقرى وينو؟ ما اشتغلتا بيهو وشلتا القهوة من أمي.. قام مسك يدي وقال لي تاني: يُمَّة قنقري وينو؟ شلتا القهوة باليد التانية وبرضو ما رديت عليهو.. قام مسك يدي التانية والقهوة اتكشحت.. بعد داك دفرتو جُوَّة الأوضة، أنا اضرب فيهو وأمي تضرب فيهو، أمي كانت ماسكاهو، قلتا ليها: يُمَّة ما تفكيو لو اتفكَّا بيعمل فينا مصيبة.. أمي فكتو، شال الحديدة أم راسين البكسِّرو بيها السُكَّر زمان وضربني في عضم الشيطان، وغاب سبعة يوم في بيت جدُّو، إلا بعد داك خجل واعتذر»**..

لابُدَّ وأن كُلَّ من قرأ هذا الحديث – مثلي – قد زالت دهشته فيما نحن فيه خائضون.. فالقتل الجماعي والفردي يُصبح مبرَّراً، وأحاديث الإغتصاب والعنصريَّة لها ما يسندها، والفساد بشتى ضُرُوبه لديه مرجعيَّة. ولا يملك المرء سوى أن يقول لمثل هذا تضع الدول "الكافرة" القائل في دائرة الضوء، تشريحاً وتحليلاً وتطبيباً!

بعد الانقلاب الكارثة، وفي سياق تسويق الدكتور حسن عبدالله التُرابي نفسه ونظامه بنشوة الطواويس التي يجيدها ويُدمنها، زار الشيخ العاصمة البريطانية لندن في بداية حقبة تسعينات القرن الماضي.. ضمن هذه الزيارة، رتب الحواريون له لقاءً خاصاً مع مجموعة من كوادر حركات الإسلام السياسي (تسرّب اللقاء مُصوّراً وشاهده عددٌ قليل من الناس، إن لم تخُنِي الذاكرة، فقد كان الدكتور عبدالوهاب الأفندي بينهم، أو بالأحرى أحد منظميه).. جرى فيه حواراً صريحاً، وكانوا هُم منتشون أيضاً بولادة دولة الخلافة الإسلاميّة في السُودان.. سأل أحدهم الشيخ سؤالاً معلولاً بشيءٍ من الفذلكة التي تدّعي معرفة الواقع السُوداني: «**يا شيخ حسن أنتم أتيتم بحكومة الإنقاذ الوطني، ألا تخشوا من مصير السيد عبدالله خليل الذي جاء بالفريق إبراهيم عبود فنكص عن وعده له. وكذلك الشيوعي عبدالخالق محجوب الذي جاء بجعفر نميري فغدر به؟!**».. عندئذٍ اعتدل التُرابي في جلسته وأرسل ابتسامته المعهودة، وقال بصلفٍ وغرور لا يُستغرب: «**صحيح يا أخي الكريم، ولكننا أكثر ذكاءً من عبدالله خليل وعبدالخالق محجوب.. أمّا عُمر البشير فهو أقل ذكاءً من إبراهيم عبود وجعفر نميري**»! لا أدري هل بُهتَ الذي سَمِع، أم كفَرَ الذي نطق!

حريٌ بنا القول إن محاولة تتبُع الصورة الذهنيّة والنفسيّة للرئيس المُشير، استلزمت منا تقصياً وعراً بمقاربة قد تعين في سبر غور شخصيّته بالمفهوم الفرويدي.. في هذا الإطار، علمتُ من مقرّبين، بعضهم بالأصالة وآخرين بالتزلف، أنه يُحبُ ثلاث ويكره ثلاث.. فهو يكره القراءة والتقارير المُطوّلة والاجتماعات، ويحب تلبية نداء شهوتي البطن والفرج، وسماع المِلَح والطرائف. فمن أجل هذه وتلك، قد يجتهد كثيرون في فك طلاسم حيرتهم. وبناءً على هذا، لابُدّ أن بعضنا منّا استوقف نفسه في العقد النضيد من المحيطين به، ويُحسبون في عِداد الأصدقاء المُقرّبين.. عبدالرحيم محمّد حسين، بكري حسن صالح، أسامة عبدالله، مصطفى عثمان إسماعيل، ومحجوب فضل بدري. وإن كان الناس يعرفون سيرة هذه الثلة بعللها المعروفة، فلابُدّ أنهم تساءلوا عن الأخير وهويّته!

محجوب فضل بدري كائنٌ متسلق رقى نفسه بنفسه في بلاط العُصبة ودهاليزها. كان جندي في صفوف "سلاح الإشارة" برُتبة جاويش، وعند تنفيذ الإنقلاب تولى تشغيل الإذاعة السودانيّة ضمن آخرين، وبعد أن قضى وطره واستطاب المقام ركل الجنديّة، وتمرحل في الوظائف المدنيّة، إلى أن استقرّ به الحال كسكرتير صحافي للرئيس الضرورة.. كيف حدث هذا؟! المحجوب يتمتع بعيني صقر تمرّس في اختيار فريسته والانقضاض عليها.. دخل أولاً على الرئيس الضرورة بمعدته، حيث تزلف للسيدة حرمه الأولى فاطمة خالد وسمّاها "أم الفقراء"، وحيث لا دهشة في بلاط العُصبة أصبح اللقب الآن "منظمة خيريّة" كاملة الدسم، تقدّم خدماتها للمُؤلفة قلوبهم والغارمين وأبناء السبيل.. ثمّ عكف على تدبيج مقالات تنافق الرئيس بتأكيد أنه سليل الدوحة النبويّة.. أما الوظيفة غير

المرئيَّة للمحجوب من العين، فإن له قدراتٍ في فن الإضحاك وذرِّ الطرائف والمِلَح، وهذا ما يُحِبُّه ويهواه الرئيس "الضرورة" أسوة بخُلفاء الدولة الأمويَّة والعبَّاسيَّة. بهذه الصفة تخصَّص "أبو نواس" السوداني في نشر البهجة والمَسَرَّة على المذكور حتى لا تنكده أخبار الحروب وضنك عيش مواطنيه.. فضلاً عن أن المحجوب عُرف بمهارته في نقل أخبار العُصبة مِمَّن يُحبُّون التثليث والتربيع في النكاح، والمُولعون بممارسة أبغض الحلال، وغير المُلوَّمين مِمَّن ينشررن جناح الذُلِّ من الرَّحمة على ما ملكت أيمانهم، ووطء "السراري" في الدهاليز المظلمة والبيوت الشواهق!

صفوة القول، إن كل العُصبة فيما يفترون سواء.. وسواءٌ مارس المشير دور الكومبارس أو أتقن دور الممثل المفترض، وسواء استبقى نفسه في القصر أو فارقه فراق وامق، وسواءٌ ادَّعى الرَّشاد وزهد أو تمادى في غيِّه وسَدَرَ، وسواء طال الزمن أو قصُر، فسيذهب وعُصبته حتماً إلى مزبلة التاريخ.. ستُشيعه دموع الفقراء وآلام المحرومين وآهات الثواكل المكلومات مِمَّن فقدنَ أزواجهنَّ وأولادهنَّ وبناتهنَّ، وستطارده ويلات الذين قطعت أرزاقهم، وستسُبَّه لعنات الذين تشرَّدوا داخل وطنهم، وتشتتوا في معسكرات الذُلِّ والهَوَان والمنافي والمهاجر وديار الاغتراب!

أما الزَّرع الذي جفَّ، والضَّرع الذي تيبَّس، والوطن الذي تقهقر، فذلك حسابه من جنس ما تعرفون... أليس كذلك أيها الشعب الكريم؟!

آخر الكلام: لابُدَّ مِنَ الدِّيمُقرَاطِيَّة وإن طَالَ السَّفر!!
٢٠١٣/٥/١١

كيف قَتَلَ مُصطفى عُثمَان شهيد "أم دُوم"؟!

على الرغم من أنه ليس في الأمر عجبٌ، أو ثمَّة ما يثير الدهشة، لكن هل لاحظت يا عزيزي القارئ تزأيُد الهجوم على نهب المال العام، خُصوصاً ثروات البلاد – ما ظهر منها وما بطن – وبصورة يكاد يراها حتى من فقدوا نعمة البصر؟! أقول، ليس في الأمر عَجَبٌ، لأن هذا دأبُهُم منذ أن اغتصبوا السُلطة بالانقلاب العسكري/العقائدي في العام ١٩٨٩م، وكانوا أشبه بالتتار الذين أحالوا نعيم بغداد إلى جحيم. ولكن طالما أن تلك هُويَّتهم وهِوَايَتُهُم معاً، تُرى لماذا ازداد وطيس النهب في الآون الأخيرة وطفح كيله؟! في تقديري أن الظاهرة ترجع لعدَّة أسباب، ستُفصِحُ عن ثلاثة منها:

- **أولاً:** المعروف أن الأنظمة الشموليَّة والديكتاتوريَّة مهما طالت سلامتها، فإنها تشيخ وتهرم بنفس درجات صعودها. وعندما يحيط بها العَجْز من كُلِّ حدبٍ وصوب، يُصبح الإمساك بمفاصل الدولة أمراً بالغ الصُعُوبة، إن لم يكن مستحيلاً. ولأنها تعتمد على آليَّات التخويف والترهيب والترغيب، فهذه الوسائل لا تضمن ولاءً ولا تدرأ بلاءً. فضلاً عن أنها ذات سقف محدود، ومهما بولغ في ممارستها فإنها حتماً سترتد إلى نحر صانعيها.. هكذا قالت دروس التاريخ التي لا تُحصى ولا تُعَد، أما قولنا نحن فيؤكد أن العُصبة تعيش أسوأ حالاتها، وأن دُنُوّ أجلها قاب قوسين أو أدنى، وذلك ليس تمنياً ولا تنطعاً ولا رجماً بالغيب. بل هي معلومات توافرت لنا ووثائق ما زالت تترى علينا حتى ظننا أننا نجالسهم في دواوينهم الخاصة أو مكاتبهم العامة. فهؤلاء قوم مكشوفي الحال، حتى وإن تدثروا بالأمن وتزمَّلوا بالقوَّة. وما على الذين تساورهم الشكوك، سوى مضغ الصبر قليلاً، فسيروا بعد حين "نمر الورق" على آلة حدباء محمول!
- **ثانياً:** في ذات السياق، ليس غريباً على من شعر بدنو أجله أن يضاعف من نهب ثروات البلاد. ذلك ما يسميه السودانيون في ثقافتهم العمة بـ (خَمّ الرماد) في إشارة للنهل من المحرمات قبل الدخول في شباك المحظورات. فنظام العصبة يعيش انهياراً داخلياً متفاقماً حتى وإن تجمَّل سدنته!
- **ثالثاً:** كلنا يعلم الظروف الاقتصاديَّة التي نتجت عن انفصال جنوب السُّودان. وهو الانفصال الذي استسهلته العُصبة بخلطها "حسابات الحقل والبيدر"،

الأمر الذي ذهبت جرَّاءه ما نسبته ٨٥% من صادرات البترول، كانت الميزانيّة تعتمد عليها منذ تصديره في العام ١٩٩٩، وتبعاً لذلك أهملوا القطاعات الإنتاجيّة، وعلى رأسها الزراعة، بل أحالوها لصعيدٍ جُرُزاً. ومع ذلك، ما يزال الطيِّبون في بلادي يتساءلون عن ٧٠ مليار دولار (بحساباتهم الرسميّة) عبارة عن عائدات البترول لعقدٍ من الزَّمن، لم يروا منها حتى "الزفت"، وإن ماثل هَويَّة دَمَغَت حياتهم!

الاجابة ببساطة، أن العائدات قد ذهبت لسبيلين: **الأول**، تمَّ تخصيص ٧٠% من الميزانية للأمن والدفاع نتيجة عوامل الخوف والرُّعب والهلع الدائمة التي ظلوا يعيشون لُجَجها وهواجسها. بالرغم من أن الجيش المُفترَى عليه، أو المُفترِى على شعبه، تمَّ تسخيره لحروبٍ داخليّة ولم يحارب عدواً أجنبياً خارج حدود الدولة السُنيَّة منذ تأسيسه. أمّا السبيل الثاني، فلم يكُن في حاجة لإثبات، فقد شاهد الناس الجيوب التي انتفخت، والأوداج التي تورَّمت، والبُطون التي تكوَّرت. وفي دولة المشروع الحضاري، شاع الحرام باعتباره حلالاً، وتفشّى الفساد بحسبه شطارة، وتخلخل النسيج الاجتماعي بعد أن سادت الشحناء والبغضاء والكراهيّة، واستشرى النفاق، وانتشر الحَسَد، وتدهورت الأخلاق، وتضعضت المبادئ وأنزوت قِيَم توارثها الناس كابراً عن كابرٍ!

ما أكثر الخطايا التي روَّجت لها العُصبة بفقه التقيَة. وما أكثر الأخطاء التي ارتكبوها بفقه المصلحة. ولأن المال هاجسهم والجشع غايتهم، فقد شرعوا في بيع كل شيء دون أدني اعتبار لأي شيء. فالعُصبة لا تعرف قيمة الأرض وإن تشدَّقت بالأهازيج الدينيّة والأغاني الوطنيّة، ولننظر لما آل إليه حال مثلث حلايب تحت ستار الصفقات السريّة.. أو الفشقة، حيث تدور حربٌ صامتة بين الأهالي والقوّات الأثيوبيَّة.. أو تشاد التي صارت تسرح وتمرح في الأراضي السودانيَّة كلما أرادت التنزُّه لاصطياد معارضيها..

يشعر المرء أحياناً لكأنما يشاهد السُودانيون فيلماً من أفلام الرُّعب. بين غمضة عين وانتباهتها، علموا أن "مشروع الجزيرة" الذي يُعَدُّ من أخصب المناطق الزراعيّة في العالم، ويمتاز بخصائص وخواص فريدة، أصبح هشيماً تذروه الرياح، وأن البلد الذي كان لديه أُسطول جوي بشعار "سفريات الشمس المشرقة" غَرُب مجدُها، وصارت مثل كرة "بِنج بُونج" تتقاذفها أيدي الفاسدين. ومثلها غرقت هيئة النقل البحري في لُجٍ عميق، وتبعتها هيئة النقل النهري، والسكة حديد، وبالأمس طُرح مصنع سكَّر سنار في المزاد. ولكن هل يندهش المسلمون إذ علموا أن من ادّعوا التفويض الإلهي خصخصوا حتى كتاب الله (القرآن الكريم) والباب مُشرَعٌ والشواهد قائمة لِمَن أراد التحقق!

ولكن كيف قَتل مصطفى عُثمان شهيد "أم دوم"؟! أو بعبارة أخرى، كيف قتل الرجل الأملس الأمرد الكثير التدليس، ذلك الشاب الذي لم يبلغ العشرين ربيعاً

حتى يحقق بعض آماله وأحلامه في الحياة، سيَّما، وهو الابن الوحيد بين حفنة من البنات؟!

تحت مظلة البيع الشامل تلك، بزغ نجم مصطفى عثمان، أو "الطفل المعجزة"، ولا يحسبنَّ أحد من القرّاء أنني أسخرُ منه أو أسبغُ عليه لقباً يستهجنه. الواقع أن ذلك هو عين ما تكرّم به عليه المدعو كمال حسن بخيت، أو الصّحافي المكتنز ورماً وسُحتاً ونفاقاً، ذكر ذلك في الصحيفة التي يترأس هيئة تحريرها غصباً، ومن فرط جهله ظنَّ أنه يمدحه.. ويبدو لي – والله أعلم – أن الموصوف نفسه أسعده الوصف، أو أنه حَسبَ نفسه كذلك.. جاء هذا في أعقاب معركة "الإخوة الأعدقاء"، ولعَلَّ البعض يذكر كيف سخَّر انتهازيّته تلك في السعي بين فسطاطي القصر والمنشيَّة، بحثاً عن سدر مخضود، وطلح منضود، وظِلٌ ممدود للسُّلطة وصولجانها!

يجدُرُ بي أن أمهّد الإجابة على السؤال المطروح، باقتباس من مقال مُحكم الصياغة حول ذات الموضوع، نُشرَ على صفحات هذا الموقع للصديق الزميل صلاح شُعيب: «**أما على صعيد السمسرة الدوليَّة في الأراضي، فسيُسجِّل تاريخ الصراع حول الأرض أن الدكتور مصطفى عثمان إسماعيل مسئولٌ بشكلٍ مباشر عن إهدار أراضي السُّودان عبر عقود طويلة المدى، ومُجحفة في حق المواطنين، وأصحاب الأرض. فهذا الوزير ظلّ يقضي لياليه في أجنحة الفنادق العالميَّة ليُسمسِر باسم حكومته في أراضي المقموعين من الناس، وتلك الأراضي الشاسعة التي صارت مستعمراتٍ للاستثماريين الطفيليين من العرب والأجانب دون ضابط. ولكثرة جولاته العالميَّة المُضِرَّة بالأهل، أصبح الصحافيون لا يدرون أين يقيم هذا "الوزير الجوال"؟! ولأن ذهن مصطفى إسماعيل مجبولٌ على الطمع في الإقطاع، والذي هو جزءٌ من موروث السلفيَّة الأصوليّة، فإنه لم يكن ليراعي شيئا مثل مراعاته لضرورة فك ضائقة الأزمة الماليَّة التي دخل فيها النظام بعد ذهاب نفط الجنوب**».

ثمّ استشهد "شعيب" بما أورده موقع 'حُريّات' الإلكتروني، وقال أن: «**رئيس غرفة تجارة جدَّة، صالح كامل كشف عن موافقة الحكومة السودانيَّة على منح مليوني فدان من الأراضي الزراعيَّة للمستثمرين السعوديين للاستزراع في إطار منطقة حرّة، بحيث أن تكون خارج جميع القوانين السودانيّة. وأوضح كامل بحسب ما أوردت 'العربية.نت' أن الاجتماع الذي جمع الجانبين السعودي والسُّوداني بحضور مصطفى عثمان طرح موضوع استزراع مليوني فدّان من الأراضي السودانيَّة من قِبَل مستثمرين سُعوديين دون إخضاعها لأي شروط، بحيث تكون منطقة حرَّة. وأكد أن المزارع ستكون ملكيّة سعوديّة في منطقة حرَّة ولن تعوّقها أيّة عوائق من القوانين السودانيَّة، وقال إنه لا يترتب على ذلك دفع رسوم أو ضرائب**».

عند هذه النقطة، أرجو من القارئ الكريم أن يدقق النظر في خواتيم التصريح أعلاه على لسان المذكور، ومِن ثمّ فليُعد البَصَر كرّتين وينظر إلى الوثيقة التي حصلنا عليها أسفل هذا المقال، والتي توضِح كيف أن رجُل الأعمال السعودي يُبدي عطفاً وحناناً على بني جلدتنا أكثر من جلاوزة العُصبة التى لا تعرف غير جني المال المخلوط بعرق البُسطاء ودم الأبرياء.. بل من المفارقات أن "السمسار الدولي" الذي فضحته أقواله وافعاله، هو نفسه الذي وصم الشعب السُوداني في حديثٍ مُوثّق بالسفارة السودانيّة في الرياض بـ"التسوُّل" أو "الشحاتة" على حدِّ تعبيره الدَّارج!

أصل الحكاية أن "المُتسوّل الدولي" سَبَق وأن عَرَضَ أراضٍ خصبة، توارثها الأهالي أباً عن جد، كان سلفه السمسار الآخر عبدالرحمن سرالختم والي الجزيرة السابق والسفير الحالي في أثيوبيا، قد وهبها لمستثمرين بعمولاتٍ ستُميط عنها اللثام قريباً، فقام أصحابها من أهالي المنطقة بوقفة صمديّة حماية لإرثهم التاريخي، ولكن ذهبت احتجاجاتهم أدراج الرياح، وبقيت الأراضي المنزوعة تحت قبضة أشباح أجانب (وقف كاتب المقال بنفسه على فصول هذه المأساة في زمنٍ مضى) ثم جاء مصطفى عثمان ليُكمِلَ المسيرة الظافرة، لكن المستثمر السعودي الذي تناهي لسمعه مضاضة ظلم السُلطة لبني وطنها، أبدى زُهداً كما تشير الوثيقة في أي نزاع مع الأهالي. عندئذٍ اتجه من بيده ملكوت الاستثمار نحو أراضي "أم دوم" باعتبارها بديلاً يُغري المستثمرين، الأمر الذي استفز أصحاب الأرض فاستنفروا أنفسهم لمجابهة الظلم والطغيان.. لجأوا أوّل الأمر للشكوى بالطرق القانونية في دولة منحت القانون عطلة أبديّة، وألحقت ذلك باستخدام الغاز المُسيل للدموع والدموع أصلاً لا تحتاج لغاز، وتبعته بالاعتقالات العشوائيّة التي لم تفرّق بين شيخ وصبي، بعد أن استخدمت الرصاص الحي فسقط جرَّاءه "محمَّد عبدالباقي"، الذي روت دماؤه الأرض التي سقط شهيداً دونها!

راحت أبواق إعلام النظام تروّج لأكاذيبها وأباطيلها.. جاء الوالي عبدالرحمن الخِضِر ومعه رهطٌ من صحبه، وهي عادة أدمنوها كلما أزهقوا روحاً، وقاموا خفافاً لتقديم العزاء، استغلالاً لتسامُح أهل السُودان في الضرَّاء واختراقاً لسماحتهم في السرَّاء. بَيْدَ أنه انقلب السِحر على السَّاحر، كانت تلك فرصة حانت لأهالي المغدور ليُلقنوا الوالي وبطانته درساً في الأخلاق، فانسحبوا من سُرادق العزاء وتركوهم نهباً لخيالاتهم المريضة، وهُم يعلمون أن الدين الذي يدّعون اتباعه، قال إن الدم لا يغسله سوى الدم دون إسرافٍ في القتل.

بَيْدَ أنه من سوءات العُصبة التي تعرفون، أنها لم تترك حجراً ولا بشراً إلاَّ وطالته بشرورها.. فمنهم من أصبح القتل منهاجه وشرعته، وهناك من كان ديدنه التستر على الجريمة وهو يدَّعي البراءة، وفيهم من تمثّل الطهر وهو والغ في جرائم الفساد والاستبداد. ولمّا كانوا جميعاً في السوء سواء، هل تفلح عبقريَّة

"الطفل المعجزة" في تنجيته من عذابٍ واقع، لا سيَّما، وأن الجرائم الجنائيَّة لا تسقط بالتقادُم!

آخر الكلام: لابُدَّ مِنَ الدِّيمُقرَاطِيَّة وإن طَالَ السَّفر!!
٢٠١٣/٥/١٩

AMC Legal Affairs

From:	[Fadul M Fadul [waw171@gmail.com
Sent:	Tuesday, December 18, 2012 10:00 AM
To:	AMC Legal Affairs
Subject:	خطاب وزارة الزراعة ولاية الجزيرة
Attachments:	ولاية الجزيرة doc.2

سعادة د.زيادة عبدالله زيادة الموقر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ارجو ان افيد سيادتكم بأنه وبعد زيارة كل المقترحات المعروضة من السادة ولاية الجزيرة فى المناطق المجاورة لولاية الخرطوم حيث تم إستبعاد الخيارات بمنطقة شرق الجزيرة(رفاعة) نظراً لبعدها من ولاية الخرطوم وأن الخيارات المعروضة عبارة عن حيازات لافراد يجب التفاوض معهم قبل إستثمار الارض. اما الاراضى فى شمال ولاية الجزيرة فنجد انها تحقق الطموحات الاستثمارية حيث انها : تقع ملاصقة لولاية الخرطوم تماماً وقربها من والخدمات وسهولة الوصول والخيار المفضل هو لموقع السابق للشركة العربية الكويتية للدواجن المطل على شارع الخرطوم مدنى...... وفى حالة موافقة سعادتكم على الموقع تجدون المرفق طيه صيغة الخطاب الموجه الى السيد وزير الزراعة ولاية الجزيرة لتصديق الارض.

ارجو التكرم بالنظر والافادة

B.R
Fadul Abdelgadir Mohamed Fadul
ALBARAKA BANK (SUDAN)
Tel 002-49912256011
00249912311366

معالي الدكتور مصطفى عثمان إسماعيل
وزير الاستثمار حفظه الله ورعاه
تحية طيبة وسلامًا
حسب توجيهاتكم والاتصالات المتكررة مع ولاية الجزيرة قام
فريق من قبلنا بمراجعة المقترحات التي قدمها مشكورًا
السادة الرفاعي نائب والي الجزيرة ووزير الزراعة حيث
استقر الرأي بعد مشاورة الشيخ صالح كامل على الموقع
حيث استحسن الموقع وأشّر عليه مع استبعاده لفكرة أماكن
أو أراضي يمكن أن تؤدي إلى نزاعات مع الأهالي حيث أنه أوضح
بأنه لا يريد إطلاقًا الدخول في أي أمر يؤدي إلى خلاف مع المواطنين
بالذات، ونرى أن الأمر قد أخذ بعض الوقت مع تقديرنا وامتناننا
لجهدكم في هذا الجانب واهتمام النائب الأول بالأمر.
أرجو شاكرًا تأكيدنا لكم ترحيبه بالموقع في ولاية الجزيرة بالإسراع في الأمر
حيث تحدثنا مع معالي وزير الزراعة وشعرت ببعض التحفظ
للموقع المقترح وأن الإجراءات ليست كما قد يأخذ وقتًا [illegible] (إلخ)
مع تقديري [illegible]
١٨/١٢/٢٠١٢

بُؤس النّوايا وسُوء الطّوايا!

ثمّة أقصُوصة تُروى في سياق الميثولوجيا السودانيَّة المُتداولة، تحكي عن شخصٍ مرض مرضاً نفسانياً عضالاً، توهَّم فيه أنه دجاجة مُتمنّعة يطاردها ديك شهواني لحاجةٍ في نفسه. وبعد رحلة طويلة مع الأطباء امتدَّت نحو أربع وعشرين عاماً حسوماً، أقنعه الطبيب في خواتيمها أنه ليس دجاجة، وأكد لهُ تعافيه تماماً، وقال إن بإمكانه الخروج من المستشفى لداره مباشرة.. عندئذٍ، انتفخت أوداج المريض وتهللت أساريره طرباً، فشكر الطبيب وأثنى عليه ثناءً جميلاً، ولكن قبل أن يغادره، قال إنه يود لو يسأله سؤالاً صريحاً، فردَّ عليه الطبيب بالإيجاب، فقال المريض: لقد اقتنعتُ أنني لستُ دجاجة، ولكن من ذا الذي يُقنع الديك؟!

انتهت الأمثولة، ولكنني وددتُ أن أضيف لها من بنات أفكاري ما يزيدها حيرة على حيرة.. فقد قيل إن الطبيب المداوي خرج بعد أن سمع سؤال المريض ولم يعُد لمشفاه.. إذ توهَّم أنه الديك نفسه!

بيد أنني تأمَّلتُ في المسألة أيضاً، فوجدتُها تماثل إلى حدٍ كبير حال العُصبة ذوي البأس الحاكمة في الخرطوم. فإن قلت إنهم المريض المُشوَّهة نفسِيته فقد صدقت، ذلك لأنهم كلما ألمَّت بهم نازلة ظلّوا يتوهَّمون أشياء بعيدة عن الواقع، ولم تخطر على قلب متابع. وإن قلتُ إنهم الدجاجة المُتوهِّمة، فقد صدقتُ أيضاً، ذلك لأنها وإن بدت مهيضة الجناح لكنها أعيت شعباً حتى عجز عن أدوائه الطبيب المُداويا. وإن قلتُ إنهم الديك المُفترِي، الذي استهان بالمريض وحَسِبَه دجاجة يقضي منها وطراً، فلن يجانبك الصواب، بدليل أنه ومنذ سنوات عدة ظلَّ هذا الشعب الطيّب يلهث خلالها وقد تقطعت أنفاسه بعد أن أدخلوه – بخطِيئة أدمنوها – مدخل الوطر في تلك الدجاجة!

كنتُ أظن أن حقوق الطبع محفوظة لمقولة شهيرة أطلقها جوزيف فردريك جوبلز، وزير الدعاية النازي: **«أكذب وأكذب حتى يصدقك الناس»**.. قالها وهو يتحسَّس مسدسه مثلما كان يتحسَّس خُطى نظام ديكتاتوري ناء بكلكله على صدر الشعب الألماني، وتمدَّد في نسيجه بصلفٍ وغرورٍ وعنجهيَّةٍ. لكن لم أكُ أعتقد أن قوماً تسلطوا على رقابنا بزُّوا الرَّجُل حتى تململ المسكين في قبره. فهُم لم يكتفوا

بتحرّي الكذب، وإنما برعوا في صناعته كذلك، ومن ثمَّ تصديقه، وبعدئذٍ يقومون بترويج ما حاكوه باعتباره حقيقة شاخصة أبصارها لا يعرف الشك لها سبيلاً. المُفارقة أن من دأب على فعل ذلك يحتاج دوماً لعدو داخلي أو خارجي – سيَّان – ليصرُف به الأنظار عن أزماته الحقيقيَّة، وعندما لا يجده يقوم بتخيُّله أو توهُّمه أو حتى خلقه بشراً مشوَّهاً، وهو المضمار الذي جبَّ فيه أهل الإنقاذ قول كل خطيب. وهل نحتاج لدليل أكثر من التطوُّرات الجارية الآن، والتي تنبئ بعُمق وفداحة الكارثة التي نحن عليها مقبلون؟!

منذ أكثر من عقدين، ظلت السُّلطة الفاسدة في حالة هياج مُستمِر، إن حمل عليها الشعب تلهث، وإن تركها تلهث. وما أن يطوف عليها طائف بعذابٍ واقع، إلا وتجدها قد استدعت أزلامها وسخَّرت إعلامها بحديثٍ مكرور عن المؤامرات ودُرُوبها، وبالطبع لا مناص من استدعاء دول الاستكبار العالمي وربيبتها إسرائيل، بدعوى أنهم يستهدفون السُّودان.. مرَّة للنَّيْل من إسلام أهله، وثانية لنهب ثرواته، وثالثة لإضعافه بتقسيمه لدويلات.. ثمَّ يزيدون جُرعة الاستخفاف بالعقول في ادِّعائهم أن هذه الدول تفعل ذلك لأنها لا تريد لهذا البلد الصابر أهله أن ينهض، لماذا؟! لأنه إن فعل، فسيُشكِّل خطراً على البشريَّة، ومن عجب إنه ذات البلد الذي يحكمونه، ولا يجد المواطن البسيط فيه قوت يومه!

بيد أننا في هذا المقام نود تفكيك هذا الخطاب المعلول، ليس لتأكيد خوائه الفكري والسياسي، فذلك ما يدركه راعي الضأن في الفلوات، ولكن من أجل نزع ورقة التوت التي يداري بها عورته. علماً بأن استخدام المنطق مع من يعوزه أشبه بمن يرتجى استمطار السماء من فاسقٍ وإن أكثر صلاة الاستسقاء!

- **أولاً:** في سياق مبرِّرات العجز والفشل، تكثَّف الحديث عن إسرائيل ودورها حتى ظننا أنها تحكُم الكون بأجمعه. ولعلَّ السؤال الذي يطرح نفسه ببساطة: لماذا تَعْمَد إسرائيل إلى استخدام قادة الحركة الثوريَّة كأداة لتنفيذ مُخططاتها الإجراميَّة، علماً بأنها عندما أرادت ذلك قامت بأربع نُزهات في شرق السُّودان، فشل وزير الدفاع الهُمام في رصدها حتى "بالنظر"، وألحقتها بخامستها في قلب العاصمة، وقد نجح المذكور في رصدها "بالنظر"، لكنه قال إنه ادَّخر مُعدَّاته العسكريَّة لـ"اليوم الأسود"!

من جهة ثانية، كلنا يعلم عن الثورات التي اندلعت في ما سُمِّي بـ"دول الربيع العربي"، وبعضها يعيش سجالاً تاريخياً مستمراً معها، والبعض الآخر أقرب إليها جغرافياً من حبل الوريد، ومع كل ذلك، لم يقُل أحد من جلاوزة الأنظمة القديمة أن إسرائيل اقتلعتهم من جذورهم، ورَمَتهُم في مزبلة التاريخ، وبنفس القدر لم يقُل أحد من أباطرة الأنظمة الجديدة أن إسرائيل تواطأت معهم وأجلستهم على سُدَّة السُّلطة! فما بال قومٍ لا هُم من هؤلاء ولا هُم من أولئك قواماً؟!

- **ثانياً:** يقولون إن دولاً بعينها تستهدف إسلام أهل السُّودان. وهو قولٌ قُصِد به الإيحاء أن الله – تبارك وتعالى– ابتعثهم في مهمَّة رساليَّة أبت السماء والأرض والجبال أن يحملنها وحملوها هُم طوعاً واختياراً. ونحن إن أسلمنا جدلاً بهذا التنطع البائن والادِّعاء الأجوف، فإن السؤال المطروح سيدور حول ماهيَّة النموذج الذي قدَّموه حتى يُصدِّق الناس أنهم مبعوثو العناية الإلهيَّة لحماية الدين كما يهزجون؟! بالطبع لن تكون الإجابة عصيَّة على من تابع مسيرتهم الدامية والمؤلمة. فهؤلاء لم يتوانوا برهةً، بل تفانوا في تقديم أسوأ نموذج للدولة الدينيَّة مُنذُ زوالها بزوال الدولة الأمويَّة والعباسيَّة. وهو نموذجٌ قطع قول كل خطيب.. فقد أبان الناس – ونحن فيهم – كلمتهم حوله. قالوا لو أن الدين الإسلامي يبيح الفساد بهذه الصورة السافرة التي تجري أمام أعيُننا، ولو أن الدين الإسلامي يدعو لإزهاق الأرواح بإبادة جماعيَّة كما يفعلون، ولو أن الدين الإسلامي يحض على الكذب والنفاق والتدليس.. فنحن منه براء!
- **ثالثاً:** عندما يذهب خطاب استهداف الإسلام هباءً، يلجأون إلى صِنْوِه، ويقولون إن دول الإمبريالية العالمية تستهدف ثروات السُّودان. ولا يدري أحد من الناس ما الذي حبانا به ربُّ العالمين وحرم منه الآخرين، حتى نُحسَد عليه ونكون مَحَط أنظار الطامعين؟! بل إن بعض دول العالم ترفل في أكثر مما لدينا وبعض هؤلاء أضعف من جناح بعوض، ومع ذلك لم يقُل أحد منهم إن دول الاستكبار العالمي استهدفتهم ونهبت ثرواتهم "خُمرة عين". لكن الحقيقة التي لن تُخفى عن القارئ أن هذا خطابٌ قُصِدَ به ذرَّ الرَّماد على فسادهم، وهُم من استباح البلاد وثرواتها، وكانوا أشبه بجرادٍ هبط على أرض مخضرة فأحالها بلقعاً قفراً!
- **رابعاً:** عندما لا يُجدي خطاب استهداف الثروات فتيلاً، ولا يستدر خطاب استهداف الدين عويلاً، يلجأون إلى فرية تقول إن دول الاستكبار تلك تريد إضعاف السُّودان بتقسيمه إلى دُويلات! من سوء حظهم، أن أفعالهم تُغني عن سؤالهم، وبالذات في هذا الأمر، إذ ما يزال ما تبقى من شعوب أهل السُّودان يعضون أصابع الندم ويمضغون الحسرة والألم على ثلث البلاد الذي انقسم ولم تطفر دمعة من عيونهم. ولأنهم لا يرعون للوطن سيادة ولا للوطنية حرمة، فإن السيناريو الكارثي في طريقه لإعادة إنتاج نفسه أمام أعيُننا، ونحن عليه شهود!
- **خامساً:** عندما يرتد خطاب التآمر الخارجي على عقبيه، يلوذون بخطاب التآمر الداخلي، ويقولون إن الحركة الثوريَّة تريد تغيير هُويَّة السُّودان، أي أن تعيده سيرته الأولى نحو جذوره الأفريقانيَّة. ومرَّة أخرى، لو أسلمنا جدلاً بهذا المنطق البئيس، فهذا لسان حال يقول إن الأفريقانيَّة تلك رجسٌ من عمل الشيطان، ينبغي على السُّودانيين اجتنابه. من جهة ثانية، فإنه قولٌ ينطوي على

استعلاءٍ بغيض ظلَّ السُّودانيون يُعانون من توابعه، ودفعوا ثمنه حروباً لم تترك شبراً إلا وأصابته بشرورها. ولم يكن بمُستغرب أن يجهر به الرئيس "الراقص" بذات السيرة عندما نطق به في القضارف، وقال إن انفصال الجنوب حسم هوية البلاد العربسلامية، ضارباً عرض الحائط بما خلص إليه المجتهدون ردحاً من الزمن، وتواطأوا على تسميته بـ"السودانوية" قطعاً لدابر أي سفسطة لا طائل يجنى من ورائها! وهل ثمَّة ما يُقال عن هذا النظام بعد العنصريَّة التي أجَّجها، والإثنيَّة التي رفع راياتها، والقبليَّة التي أحيا عظامها وهي رميم؟!

- **سادساً:** عندما تنهار دعاوي التآمُر الخارجي والاستهداف الداخلي، يلجأون إلى ذمِّ وسيلة هُم صانعوها.. إذ يستنكرون على معارضيهم استخدام السلاح الذي اتخذوه آليه لإزاحتهم عن السُّلطة، علماً بأنها ذات الوسيلة التي ولغوا منها كما يلغ الكلب العطِش الماء. فالنظام – كما هو معلوم – لم يتربَّع على كرسي السُّلطة بانتخابات ديمقراطية، فقد جاء بانقلاب عسكري وظلت شرعيَّته المفقودة هذه هاجساً مُؤرقاً طيلة وجودهم في السُّلطة، بل حاولوا التحايل عليها والالتفاف حولها بطرق شتى دون جدوى. لهذا لم يكن غريباً أن ينسلُوا ويرموا الآخرين بدائها. ومن عجب أن الذاكرة السودانيَّة تحفظ لكبيرهم الذي علمهم التآمُر قوله الذي اختصر به الصراع حول السلطة: «**نحن جبناها بالبندقيَّة والعايزها، يجي يقلعها بالبندقيَّة**»، وبالفعل فقد طبقوه عملياً مع من سولت له نفسه باقتلاعهم، بل حتى مع من حاول التعبير عن معارضته بتظاهُراتٍ سلميَّة!

- **سابعاً:** عندما يذهب الزبد جفاء في كل الدعاوي السابقة، لا يجد النظام حرجاً من دمغ معارضيه جهراً بما يعاني منه سراً. إذ يُخرج "الحاوي" من جرابه آخر الخدع البصريَّة، فيدمغ معارضيه بالعمالة وينعتهم بالارتزاق ويصمهم بالخيانة الوطنيَّة. بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك بنزع الهُويَّة "السودانويَّة" عنهم ضربة لازب. وفي الجهة المقابلة، لا ينفك أهل النظام من الإيحاء الزائف بأنهم بلغوا حداً خرافياً في التماهي مع الوطن، أو "روح واحدة في جسدين"، على حدِّ تعبير شاعرنا الشفيف حسين بازرعة!

يا سادتي يا كرام، إلى أين نحن ماضون؟! فيم الحروب التي لم تترك شبراً إلا وأصابته بوابل من شرورها؟! إلى متى إزهاق الأرواح؟! وحتام إهدار الموارد؟! هل ندرك تماماً أن البلد العظيم الذي تغنينا به شعراً ونثراً يتسرَّب الآن من بين أيدينا كما يتسرَّب الماء القراح من بين أصابع الظميء الشرود. إن من أبجديات الحُكم والإدارة أن تكون مُدركاً لإمكانات شعبك المادية والروحية، وعارفاً بطموحاته وأحلامه، وعالماً بكل التحديات والظروف المحيطة به. وهي مسلمات لم تعها سُلطة الإنقاذ وظنت أنها تحكم قطيعاً من الأغنام، كلما دخلت

حرباً قبل أن يهدأ مثار نقعها جهزت أخرى، إذا جأر بالشكوى أذلوه، وإذا لاذ بالصمت بدَّدوه، سلبوه المتعة فبات لا يرى من الحياة سوى ضنكها، ولا يسمع من لحنها غير لغة التهديد والوعيد والقتل والدمار والهلاك، شعبٌ اختفت من قاموسه الكلمات التي تصدح بالدُنيا ونعيمها، الحُب وطُهره، الجمال وسره.. أرهقوه لدرجة أصبح يرى في الموت ماضيه وحاضره ومستقبله!

صفوة القول، كنتُ قد ذكرتُ في المقال السابق، عبارة قلتُ فيها عرضاً إن سقوط النظام أصبح وشيكاً، وليسمح لي القارئ الكريم بتكرارها ونشهد عليها من فطرنا من صلصال وإليه نعود، هذا على الرغم من أن السياسة وشئونها لا تعرف القول الفصل ولا الرهان المطلق، لكن فليثق من أولانا ثقته في أنه قول لا ينطق عن الهوى، ولا جاءنا من وحي يُوحى، وإنما بناءً على وقائع ورصد وتحليل نكاد نرى فيه رأي العين ليلة السكاكين الطويلة تصدع ردهات القصر الذي بناه غُردون!

ولمثل يوم كهذا، سعى النظام إلى "حتفه بظلفه" كما تقول العرب العاربة!!

آخر الكلام: لابُدَّ مِنَ الدِّيمُقرَاطِيَّة وإن طَالَ السَّفر!!
٢٠١٣/٦/١

هل آن أوان ليلة السكاكين الطويلة؟!

كنتُ أعتقد يقينا أنني كتبتُ شيئاً عادياً أو هكذا ينبغي أن يكون في مثل هذه الظروف. لكن ذُهلتُ عندما فاض بريدي برسائل قرّاء كرام يسألون بل يتساءلون عن صِحّة ما ورد في خواتيم المقال الأخير. وعندما تمعّنت في الأمر وجدتُ أن سبب هذا الحشد البريدي لا يعدو إلاّ أن يكون نتيجة لثلاثة احتمالات.. إما أن ما كتبت كان مبهماً لدرجة يحتاج فيها لإبانة، أو أن حُب الاستطلاع الغريزي في النفس البشريّة تطلع للمزيد الذي يُشفي الغليل، أو أن هاجس الخوف على وطن يقف على شفا جُرف هارٍ، بات يسيطر على أفئدة السُّودانيين، وفي ذلك يقف البعض عاجزاً عن مد يد العون لإنقاذه من سقوط محتمل!

على الرغم من أن أياً من هذه الأسباب يمكن أن يكون ترياقاً يجيب على التساؤلات آنفة الذكر، إلّا أنني عدلتُ احتمالاتي تلك باستبعاد السبب الأول. ليس لأن ما كتبتُ كان واضحاً وبلغة عربيّة فُصحى، ولكن لأنني تذكرتُ طرفة راجت في زمن الرئيس المقبور جعفر نميري عن شخص مقهور مثلنا، كان قد شرع يوزع أوراقا بيضاء في الطرقات بزعم أنها منشورات ضد ذلك النظام الديكتاتوري، بالرغم من أنه ليس مكتوب عليها أي شيء، وعندما قيل له كيف يدَّعي أنها منشورات، قال على الفور: وهل الحال الذي نعيشه يحتاج لتوضيح؟! وبالطبع شرُّ البليّة ما يُضحك، كما يقولون!

لأن وراء الأكمة ما وراءها، دعونا ابتداءً نستدعي الفقرة موضع التساؤل. وهي الفقرة التي خلصنا إليها بعد تحليل الوضع القائم وحالة الانسداد الراهنة التي وصل إليها النظام، وجاءت كالتالي: «**صفوة القول، كنتُ قد ذكرتُ في المقال السابق عبارة قلتُ فيها عرضاً، إن سقوط النظام أصبح وشيكاً، وليسمح لي القارىء الكريم بتكرارها ونشهد عليها من فطرنا من صلصال وإليه نعود، هذا على الرغم من أن السياسة وشنونها لا تعرف القول الفصل ولا الرهان المطلق، لكن فليثق من أولانا ثقته في أنه قول لا ينطق عن الهوى، ولا جاءنا من وحي يُوحى. وإنما بناءً على وقائع ورصد وتحليل نكاد نرى فيه رأي العين ليلة السكاكين الطويلة تصدع ردهات القصر الذي بناه غُردون! ولمثل يوم كهذا سعى النظام إلى "حتفه بظلفه"، كما تقول العرب العاربة**»!!

انتهت الفقرة، ولكن دعونا من قول العرب العاربة، وهاكُم حديث "العرب الممزوجة بدم الزنوج الحار"، كما قال شاعرنا الرّاحل إسماعيل حسن. في واقع الأمر، إن ما كتبتُ استند على ساقين، الأولى ساق الظاهر الذي لا يُخفى على العين كما افترضت الطُرفة.. والساق الثانية، ساق الباطن – وهي الأهم – وقد إتكأت على معلومات تسرّبت لنا من المصدر الذي ظلّ يمدنا – ومنذ فترة طويلة – بالذي أرهقهم وقضّ مضاجعهم وبدّد النوم من عيونهم. وللذين لا يعلمون ولم يتمكنوا من قراءة كتابنا الأخير "الخندق.. أسرار دولة الفساد والاستبداد"، نقول: إنه ابن سرحتهم، أي من جنس العُصبة، نافذاً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وبمثلما يتظاهرون يمد سبابته ويرفع عقيرته مهللا ومكبرا في مناسبة أو بدونها.. ولأسباب شرحناها من قبل، ذكرنا فيها دوافعه كما أفصح عنها، بالرغم من أنه ما يزال بالنسبة لنا لغزاً مرهقاً.. بيد أن ذلك ليس مُهماً بقدر ما المهم هو ما أتحفنا به واحتفى به القرّاء بعد أن تطابقت مجرياته مع ما يجري على أرض الواقع.. ومع ذلك، لستُ في حاجة لتأكيد صدقيّته أو نقيضها فيما سيرد ذكره، والحمد لله الذي سخّر لنا قرّاء هُم من الحصافة بحيث باتوا يفرزون الغث من السمين من أولْ نظرة!

لنبدأ بالساق الأولى، حتى لا يصيب القراء الكرام ما أصاب قوم تُبع من ذهول.. فالذي يعلمه المتابعون والمراقبون والمحللون السياسيون أن النظام تكاثرت ازمته وتناسلت بدرجة تجعل من احتمال صموده امراً عصياً، إن لم يكن مستحيلاً. فضنك العيش ورهقه الذي يعيشه السواد الأعظم أو غالبية أهل السُودان، مُرشّحٌ لمزيد من التفاقُم في ظلّ اقتصاد ضعضعت العُصبة ما افنى فيه ادم اسميث عمراً، بدليل هذا الخبر الذي ربّما طالعتموه مثلي في صحيفة 'الصحافة' ٢٠١٣/٦/٦: «**طالب نواب البرلمان الحكومة بالإسراع في رفع الدعم تدريجيا عن السُكر والمحروقات للسيطرة على السوق وإلا سيظل غولا فاتحا فاه ليبلع كل ما يتخذ في سبيل تخفيف المعاناة ومحاصرة الترهُل والاستمرار في ترشيد الإنفاق الحكومي**».. وجاراهم في الهُراء نفسه وزير ماليّة النظام الهمام الذي نقلت عنه صحيفة 'الأخبار' ٢٠١٣/٦/٦ قوله: «**إن مكافحة التهريب لن تتم إلا برفع الدعم عن السلع الاستراتيجيّة، السُكر والمحروقات**».. وليس في الأمر عجب، أليس هذا الوزير هو من دعا أعضاء المجلس الوطني الأسبوع الفائت لتبنّي مشروع "صلاة الاستسقاء" رسمياً لإنجاح الموسم الزراعي!

توخياً للدقة نشير إلى أن علامة التعجُب الأخيرة إضافة كريمة مِنّا، كأبسط ما يكون التعبير عن محنة.. بدا لي أن معاناة الشعب الطيّب تبدو كنار جهنم، كلما سأل الناس الحكومة السُنيّة تخفيفها أجابتهم بالمزيد.. يحدُثُ هذا التداعي المُرعِب في ظِلّ خزينة خاوية على عروشها، وعملة محليّة تدهورت إلى أن فقدت قيمتها، وتضخم بلغ نحو٢٥% وديون وصلت إلى ٤٥,٦ بليون – بحسب اخر إحصائية لصندوق النقد الدولي – وبطالة في أوساط الشباب طالت أكثر من ٤٧% فتجه

معظمهم نحو تعاطي المخدِّرات بأرقام فلكيّة، ثمّ انتشرت الرذيلة طردياً مع الفقر الذي داس على أي فضيلة!

ليس ذلك فحسب، فكأنما الخلق ليس فيهم ما يكفيهم، فالمتابعون يعلمون أن أزمة الجازولين ضاعفت من معاناة المواطنين في المواصلات.. أقول ضاعفت لأن الوالي الهمام انصب جُلّ اهتمامه في كيفيَّة "تشتيت مواقف الباصات العامَّة" بحسبه أنها تمثل شروعاً في انتفاضة.. وليت الأمر توقف على المواصلات، فالأنكى انعكاسها على الزراعة التي أجدبت قبلاً.. أما الخدمات الصحيّة فتلك فصولٌ من مأساةٍ لا يعرفها إلا من يُكابدها، مريضاً كان أو معاوداً لمريض.. وإن شئت أن تبلغ قمّة الرثاء لحال وطن انطمس مستقبله، فانظر لقطاع التعليم، حيث رفع الجَهل بيتاً عماده المشعوذون والمُكفِّرون وشُذاذ الآفاق، وانهدّ فيه بيت العِلم والمعرفة. وكلما توسّل المواطن المسكين الأمن من خوف – بحسب الدستور الربّاني – أجابوه بحروبٍ يأخذ بعضها برقاب بعض، واستعر لظاها في عدة جبهات، وإن التمس الناس ترويحاً عن النفس، طالعوا فيلما مُرعباً عن فسادٍ بزّ قارون وسدنته!

لكن دعونا من كُلّ هذه التفصيلات التي حفظها الناس عن ظهر قلب! أودُّ أن أسأل أسئلة ألتمس بها قبساً يُبدِّد ظلمتي.. هل حدث أن هتف أحدكم عزيزاً لديه في الوطن المكلوم وخلت محادثته من شكوى الأوضاع البائسة، يتبعها سُخطٌ عارم؟! هل حدث أن قضى أحدكم أياماً معدودات بين أهله وصحبه وعاد دون أن ينفث زفراتٍ حرَّى على وطن تسرَّب من بين الأصابع؟! منذ ما يناهز الرُّبع قرن، هل طالع أحدكم خبراً يُدخِل السرور والحبور إلى قلبه عن بلد صار عبئاً على أهله والبشريَّة؟! تلك أسئلة – رغم حيرتها – ستجد لها جوابا فيما ذكره أحد جلاوزة العُصبة والمسؤول عن "جهاز تعذيب المغتربين"، الذي قال إن جهازه هذا يُصدِر ثلاث الاف تأشيرة خروج يوميا! إذاً، فهذا هو الوطن الذي قامت قيامته قبل أوانها، وفرَّ فيه المرء من أمه وأبيه وصاحبته وبنيه، والظل الذي يأويه؟!

ما أتعسه من وطنٍ سيطرت فيه شرذمة من الأفَّاكين والمُنافقين على مقاليد الأمور، هُم أنفسهم الذين دأبوا على رؤيته يتقزَّم كلما تضخَّمت كروشهم.. وطنٌ يعيش حالة موت إكلينكي "سريري" على مدى رُبع قرن، ينام مواطنه على لغة القتل والتنكيل والدمار والهلاك، ويصحو على أنغام الفساد والكذب والتدليس، وطن تضاءل بعد اتساع وأُفقر بعد غنىً، الناس يهربون منه وإليه، بل من المفارقات التي تدعو للتأمُّل أن في سنوات الحضيض هذه، انفضَّ عن النظام حتى الذين أيدوه غفلة وناصروه لأسباب آيديولوجية وتوسَّموا فيه خيراً، اكتشفوا أنه كسراب بُقيعة، فإذا بهم يفرون منه ظمأى كما يفر السليم من الأجرب!

نأتي للساق الثانية، وعلى القرَّاء الكِرَام استخدام كافة أدوات السلامة الجويَّة في الهُبوط الاضطراري، الذي نحن بصدده. فمِن باب احترام العلاقة التي تواثقنا

عليها لأكثر من ثلاثة عقود زمنيَّة، سأطلعكم – يا سادتي – على مجتزأ بحذفاره من رسالة لمصدرنا المُحيّر، بأمل أن تفتح أبصاركم وتنوّر بصائركم فيما استغلق عليكم من أمور..

«هذه المرَّة ليست لديَّ وثائق أرسلها لك كالعادة، ولكن لديَّ أسرار يشيب لها الولدان، ربَّما رأسك وليس رأسي ولا رؤوس عُصبتي ذوي البأس كما تسمِّيهم. فأما أنا، ليس لأن رأسي خلا من السواد، ولكن لأنه لم يعُد هناك ما يشيبه من فرط ما سمعتُ وهول ما شاهدت، أما بالنسبة (لعُصبتنا)، فقد تحايلوا على شيبهم بالصبغة والحناء، وهي الظاهرة التي انتشرت كما النار في الهشيم، وقد لا تعلم أن لهُم في ذلك مآرب أخر. المعروف أن الظاهرة تفتح شهية المرء للحياة، وبالتالي تنفتح شهيته للسلطة وتبعاً لذلك يقبل بذات الشهية على الفساد. والله سبحانه وتعالى يقول {قُل من كان في الضلالة فليُمدد له الرَّحمن مدَّاً حتى إذا رأوا ما يوُعدون إمَّا العذاب وإمَّا الساعة فسيعلمُون .من هُو شرٌّ مكاناً وأضعف جُنداً.. الآية} لا يغرنك تبرئة نفسي من سلطة زائلة، فقد بلغنا فيها أرذل العمر، لكن ليس العُمر الذي تعدون. ولكن لأنني أحمد الله الذي أذاقني جحيمها وليس لدي أدنى طموح في جنتها وأشك أنها كذلك. لا عليك بهرطقاتي هذه، وإليك الوقائع التالية.. أزمتنا ضاقت واستحكمت حلقاتها، ومن المفارقات أن جماعتكم ناس الحركة الثوريَّة فعلوا الأعاجيب ولكنهم لم يوفقوا في التوقيت، فقد كان الغزو في زمن استحكمت فيه الأزمة السياسية بين القطبين المتنافرين، وزادت عليها أزمة كبرى في المُؤسسة العسكريَّة. قبيل ذلك بقليل اجتمع المجلس الخماسي الذي سبق وقلت لك إنه المُخوّل بوضع خطوط عريضة لسياسات استراتيجيَّة تتنزل على القواعد لتنفيذها (البعض بدأ يطلق عليه مجلس الصحابة) في ذاك الاجتماع حدث تلاسُن حاد بين شيخ علي ودكتور نافع، ولم تكن تلك هي المرَّة الأولى فقد تكرَّرت من قبل في احتلال هجليج. وتدور بشكل أساسي فيما يزعم دكتور نافع بأن شيخ علي يعتبر مسؤولاً عن كل ما حاق بالنظام من بلايا ورزايا منذ نيفاشا، في حين أن شيخ علي يقول إن لغة دكتور نافع الجافة نفرت عن الحكومة العدو والصديق. ربما تتساءل عن موقف الرئيس بين التيَّارين، بالطبع فإن المجلس الخُماسي ليس على قلب رجل واحد، لا تستغرب إن قلت إنه – أي الرئيس – يسعد كثيرا بهذا التنافر لأنه يود أن

يظهر بمظهر (كبير العيلة) وتزداد الحاجة له كطرف محايد في الصراع. في خضم هذا التشابك حدثت واقعة أم روابة وأبو كرشولا مما حدا بالمجلس المذكور استغلالها للتغطية على سوءاته، وقرر أن تنتظم البلاد تعبئة عارمة تستند داخلياً على عنصر الدين، وخارجياً على عنصر العرق، باعتبار أن الجبهة الثوريّة تريد تغيير هُويّة السودان، وهو الخطاب الذي استجابت له دولتين خليجيتين كبرى وصغرى بدعم غير مرئي، في حين تمنعت واحدة من دول الجوار الشمالي واستجابت الأخرى بدعم غير مرئي أيضاً. أما على الصعيد العسكري، الذي حدث قبل نحو شهر من واقعة أبو كرشولا جاء رهط من العسكريين لشيخ علي يشكون وزير الدفاع عبدالرحيم وطرحوا أمامه تجاوزات مهنية وفساد مالي وأسباب تضعضع الجيش، استمع لهم شيخ علي ولم يعد بشيء وعندما حدثت الواقعة جاءوه مرة ثانية وطالبوا بإقالته حفاظاً على هيبة المؤسسة العسكرية، قال لهم شيخ علي إنه يوافقهم الرأي في أخطائه وخطاياه، ولكن إقالته في مثل هذه الظروف ستعطي مؤشراً سالباً لصراعات داخليّة. والحقيقة تلك كلمة حق أراد شيخ علي بها باطلاً فهو يعرف دائما كيف ينحني أمام العاصفة وقد قصد بكلامه ذاك أن يطمئن على أنهم (لن يفعلوها!) وهو في نفس الوقت لا يستطيع الحديث مع الرئيس عن عبدالرحيم وأعاجيبه، لأن شيخ علي لا يريد توتير علاقته بالرئيس حتى لا يضعف أمام خصمه اللدود الآخر. خطاب التعبئة الداخلي الذي ذكرت رائده شيخ الصافي جعفر، وكان قد جمع عدداً من (عُصبتنا) في داره وعلى رأسهم شيخ علي، وخطب فيهم خطبة مؤثرة، فهو يعرف كيف يستدر الدموع، ولكن القليل ممن هطلت دموعهم كانوا يعلمون أن ما حدث في أبو كرشولا كان طوق نجاة من أزمة استحكمت حلقاتها كما ذكرت. الحقيقة لا يخرج النظام من ظلماته سوى معارضتكم، ومهما فعل جماعتنا فلن يستطيعوا جزاء الإمام الصادق المهدي، فهو يتبرع بما يطلب منه ولا يُطلب. تماماً كما فعل قوش من قبل مع الاستخبارات الأمريكية الـ(سي آي إيه).. بالمناسبة قوش كانت محاولته حقيقية، ولكنه يعلم أنه لا يستطيع أن يكون حاكماً، إذ أن مهمته في الدنيا وإلى أن ينتقل للدار الباقية صناعة من يحكمون، ولهذا قليل منّا يعرف أنه كان يلعب تلك اللعبة الخطرة لصالح شيخ علي، ربما التطويل في اعتقاله محاولة

لإيجاد دليل مادي في هذا الافتراض، بدليل تمديدها المرة تلو الأخرى بدعوى استكمال التحريات! لكنهم يعرفون أنه لا قوش ولا شيخ علي مِمّن يقعون في فخ كهذا. أختم لك بديكتاتورية سافرة مارسها الرئيس في أعقاب ما رشح عن أن أعضاء المجلس الوطني استدعوا وزير الدفاع لمساءلته، فقد حدث العكس، إذ استدعى الرئيس رئيسهم أحمد إبراهيم الطاهر، وقال له بصورة صارمة: (بلّغ نوّابك ديل كل واحد يمشي دائرته ويعملوا مع الناس في تجهيز الحملات وتفويج الشباب وبطلوا الكلام الفارغ البعملوا فيه ده).. الحقيقة أن الرئيس في حيرة من أمره أو هو بين نارين كما نقول، لولا المحكمة الجنائية لسلمها لأقرب شخص من (غُصبتنا) ومضى في سبيله لممارسة هوايات تحدثت عنها أنت في مقالتيك (كنا نظن أن عبدالرحيم وحده يعلم أسراره).. الخلاصة، الآن نافع انتفش ريشه كثيرا بعد الدعوة الأمريكية (أهلك ديل شواطين عديل كده) وهي إن تمّت فيها ضربة قاضية لشيخ علي، الغريب أن نافع بدأ يتعامل بناءً على هذا الوهم!

اخلص ختاما لسناريوهات محتملة قد تنفعك في التحليل، آمل ان تقول قبلها أو بعدها: اللهم لا نسألك ردّ القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه».

إلى هنا فليسمح لي القارئ الكريم أن أتوقف لأن ما ذكره مصدرنا الذي سمّيته "راسبوتين" وهو به سعيد، يمكن أن يلفت نظر العُصبة ذوي البأس فتعمل على إبطاله، أو ربّما تأذى منه اخرون من القابضين على الجمر، وفي كلا الحالين نخشى من عواقب وخيمة على وطن بات يقف على حد السيف، ويشخص بصره نحو أوان عنوان مقالنا هذا!

آخر الكلام: لابُدّ من الدّيمُقراطيّة وإن طال السّفر!!
٢٠١٣/٦/١١

حديث الوداع!!

من المؤكّد أن بعض القرّاء سيُردّد بثقة مُفرطة – بمجرّد انتهائه من قراءة هذا المقال – ما قاله طرفة بن العبد شعراً وأضحى بين الناس مثلاً "كُلُّهُم أرْوَغ من ثعْلب *** ما أشبَه اللّيلة بالبَارِحة"، وهذا عين ما فعلت. عموماً يجب التنويه في بداية هذا المقال – قبل الخوض في تفاصيله – إلى أنني لستُ كاتبه، بل ليس من فضل لي فيه سوى هذه المُقدّمة وأجر المناولة.. ستعلمون أن كاتبيه ديكتاتوريان، أحدهما صبَّ جام جهله علينا ومضى إلى رحاب ربّه مقبوراً. والثاني ما زال يرقص طرباً على آلام محنتنا، وسيمضي أيضاً إلى مزبلة التاريخ مذموماً مدحوراً.. أرجو ألا تشغلوا بالكم بالخوض في طلاسم مقارنات بين السَّلف والخلف.. لكن الذي لفت انتباهي فيما نحن بصدده، هو تشابُك خُطاهما حذوك النعل بالنعل.. وقد عجبتُ من دروس التاريخ التي ظلت تغمُرنا كل يوم ونحن لا نحسن السمع ولا نلوي على الطاعة.. أما إن وجدتم أنفسكم غارقين في مقارنات الواقع البئيس بحديث الديكتاتور الثاني، فاعلموا أن ذلك ترفٌ تضاءل أمامه "ديوجين" وخبأ مصباحه. ولنبدأ بحديث الديكتاتور الأوّل.

كان عصر الاثنين ٢٥ مارس ١٩٨٥ يوماً مألوفاً كسائر الأيام في حياة أهل السُّودان التي عرفوها منذ أن جثم الطاغوت على رؤوسهم. ولهذا، لم يكن هناك ما يسترعي الانتباه في شارع النيل أمام قاعة الصداقة، غير الحركة الدؤوبة لأفراد الشرطة وكوادر الأمن، وأناسٌ غادين ورائحين، أكّدوا لمن سأل أن "الرئيس القائد" سيتحدَّث إلى أعضاء اللجنة المركزيَّة للاتحاد الاشتراكي، وهي إجابة معتادة، لكن ما أكثر الساخطين إن تبعتها لعنات في السر أو ربّما العلن، فذلك بعض طبع السُّودانيين في المُلمات. واقع الأمر، كان الاجتماع التاريخي – على حدِّ تعبير الصحيفتين الرسميّتين – مخصَّصاً لقضايا عامة، درج المشير جعفر نميري على تناولها قبيل رحلته السنويَّة إلى واشنطن، بغرض إجراء فحوصاتٍ طبيَّة روتينيَّة، على حدِّ تعبير ذات الصُحُف. ولكن الزيادة التي فرضها على أسعار السلع الاستهلاكيَّة، رضوخاً لشروط صندوق النقد الدولي، فرضت نفسها على مداولات الاجتماع، وكانت وقائعه مبثوثة في الراديو والتلفزيون. وتلك أيضاً، عادة يُدمنها الديكتاتوريون وليس نميري وحده!

أصلح الرئيس عمامته، عندما تطرَّق الحديث للموضوع المُشار إليه، وتحدّث بنبرة غاضبة لا تخفى عن العيان، وقال: «**لقد استمعتُ إليكم وأنا مندهش، هناك اثنين ممَّن تحدَّثوا يسألان عن سبب زيادة الأسعار. والسبب هو انخفاض سعر الجنيه السوداني أمام الدولار. ولأنني رفعت الدعم عن جميع السلع، فالدولار أصبح الآن يدوِّخ جميع العملات. وقد يأتي وقت تمتلىء فيه جيوبكم بالجنيهات وتكونوا غير قادرين على شراء شيء. الصُحُف تكتب عن صفوف البنزين، وهُم لا يعلمون إنني لا أقدر منذ شهر ونصف على شراء جالون واحد، لسببٍ بسيط، هو إنو لا يوجد المال الذي أشتري به، وقد توقف ٨٠% من طاقة المصانع، لأنها تحتاج إلى الوقود لتشغيلها ولا يوجد الوقود الكافي.. نحن يا جماعة بنتعرَّض لمؤامرة تستهدف شلَّ حركتنا في الإنتاج عشان نكون سوق للتوريد، منذ أيام أهدى لي أحد الأصدقاء عمَّة اشتراها من سويسرا، عمة سودانية تصنع في سويسرا.. إذا ما مصدقين تعالوا عندي في البيت وشوفوها**».

كان الحديث المُرتجل مع سطحيَّته وسخافته مبعث ضحكٍ مكتوم من بعض الأعضاء، الأمر الذي دعاه لمواصلته بشئ من الجدية: «**تضحكوا؟! لماذا تضحكوا؟! أنا بتحدّث عن حقائق، نحن مستهدفين.. ويجب أن تفهموا الناس ذلك، أم أنكم بتخافوا من شوية طلبة**».. ثم صمت، فصدرت همهمات من بعض الأعضاء، وتبعها البعض بهزِّ رُؤوسهم نفاقاً وتزلفاً بإظهار علامات الاستحسان، فواصل شطحاته: «**هناك من قال لي إنو بيحصل على أربعة جالون بنزين في الأسبوع وده ما بيكفي، فقلت ليه: أنت ما بتحصل على أربعة جالونات، أنت بتحصل على عشرين جالون لأن كل بيت فيه خمسة عربات، وكل عربية بتحصل على أربعة جالون، وكل فرد في الأسرة بنطلق بواحدة، وعندما تكون هناك مناسبة اجتماعية زي العرس، كل واحد بيركب عربية.. لماذا لا تركب الأسرة عربية واحدة؟! وحتى المؤسسات الحكومية، كل موظف عايز يركب عربيه بمفرده. وعندما ننتج مشروباً محليا، ينصرف الناس عنه ويشربون الإسبرايت، لأن الإسبرايت أموالها كثيرة وبتنشر إعلانات كثيرة. في مرّة رأيت شاب يرتدي ثياب بالية وحافي القدمين، ومعاه خمسة جنيه، ومُصر يدخل سينما قاعة الصداقة بالخمسة جنيه، لأنه عايز يستمتع بقاعة الصداقة، لماذا نحن فقط؟! كبرياء سوداني**».

واصل "القائد المُلهَم" غرسَ خنجره المسموم في الكبرياء الذي ذكر، بينما الأعضاء المُبجَلون اختلطت همهماتهم بطنطناتهم بقهقهاتهم المكتومة: «**طيّب، هذا الكلام يا جماعة ليس للضحك، إنها حقائق لابد من أن نواجهها.. ان كمية الأربعة جالون بنزين أراها كثيرة، لماذا لا تكون جالونين فقط؟! ولماذا لا نستخدم المواصلات العامة ونركب البسكليت.. علينا أن نقتصد في كل شيء.. مَن ياكل ثلاثة وجبات يأكل وجبتين، ومن يأكل وجبتين يأكل واحدة، ومن ياكل**

وجبة واحده يأكل نص وجبة، ولماذا نشتري المعلبات الغذائية والصلصة؟! يا جماعة نحن شعب لم يتعوَّد على الصلصة، نحن نأكل الويكة والكسرة، ولا نشرب الإسبرايت.. لماذا لا نشرب موية الكسرة؟!.. هناك من تحدَّث عن ما سمَّاه مظاهر الثراء على بثينة.. بثينة دي زوجة رئيس جمهورية وسيدة السُّودان الأولى، مش زوجة نجَّار عشان تلبس ده وتخلي ده».

بالطبع لم يعُد المشاهدون يميزون ما إذا كان "حادي الركب" جادٌ أم هازل، في حين أن الجثث التي تكوَّمت كالعهن المنفوش على الكراسي الوثيرة، لم تُبدِ أي من الملاحظات التي تميّز بين الإنسان والحيوان في مثل تلك المواقف. على العكس، فهي التي مدّت له حبال الجهل مداً، فأفرط في غزلها، وهي التي طأطأت له الرؤوس وأرهفت السمع وأفردت له جناح الطاعة.. فرَغ "قائد المسيرة" من حديثه، ثم غادر القاعة وسط تصفيق حاد قابله بعين الرضا وبهز عصاه منتشياً كفارسٍ عاد للتوِ منتصراً من معركة حامية الوطيس. لكنها احتفائيَّة كانت لمن كرَّ البصر مرَّتين أشبه بلحن جنائزي!

أما الديكتاتور الثاني، المشير عُمَر حسن البشير، قرينه في السوء، فقد تحدَّث أمس الأول الجمعة ٢٠١٣/٦/٢١ في رهطٍ من مُشايعيه في مجلس شورى المؤتمر الوطني لدورة الانعقاد السابعة، بحسب ما ذكر في مستهلِّ حديثه، والذي ننقله بحذفاره دون أدنى تدخل منَّا في الصياغة أو بالتعليق، وتلك مهام نلقي بها على كاهل القرّاء الكِرام! قال:

«الجماعة قالوا عندهم "خطة ١٠٠ يوم" عشان يسقطوا الحكومة ولا المؤتمر الوطني، وبعد داك قالوا إنو نشرك المؤتمر الوطني في الحكومة. بعد ما يسقِطوا المؤتمر الوطني بيكون في كلام ثاني. فهي إذا كان نحن بنتكلم الآن نحن، زي ما قلنا في المرَّة السابقة، نحن يا جماعة مقبلين على انتخابات، والانتخابات دي بعد سنتين، والسنتين ديل ما زمن طويل، لو كل حزب بدأ من الآن يعمل على تجهيز قواعده ونظمه، لكن إذا كان الناس لو مفتكرين بكره حتقوم مظاهرات والقوات المسلحة حتنحاز للمظاهرات ويسقط المؤتمر الوطني.. المؤتمر الوطني ليس الاتحاد الاشتراكي، وليس هو حزب حكومة، وإنما هو حزب حاكم. وأثبتت الأيام أنو القواعد الحيَّة والنشطة في الشعب السوداني هي المنتظمة في المؤتمر الوطني، في قطاعاتها المختلفة، في شبابه، في طلابه، في المرأة، وفي كل قطاعات وأمانات المنتشرة، نحن كل المطلوب مننا يا جماعة، إنو ما ننوم على أنو والله معظم الشعب السوداني معانا، ما عندنا منافسين في الساحة السياسية، نحن يجب إنو ما بنعمل لكسب الانتخابات وإنما نحن بنعمل لبناء دولة، بناء الدولة ليس الهدف للحزب إنو يكسب الانتخابات في كل أربعة سنوات، ولكن الحزب ده عشان يقود النشاط، وكل النشاط

في الدولة يجب أن يقوم به الحزب، نحن إتكلمنا عن حتى النشاط الرياضي والنشاط الثقافي يا أبو علي (هو رئيس مجلس الشورى، تحدّث قبله وقال: كيف تفتح أجهزة الإعلام للفنانين والغناء والرقص ومهرجانات السياحة والبلد في حالة حرب وجهاد – الكاتب) ساعة لربّك وساعة لقلبك، والحكاية ساعة بساعة، لو كلنا طلينا كل واحد ماسك سبحته وماسك مُصحفه وقاعدين في المساجد الحكاية بتمل، بحصل الملل، فلازم يكون في فترات بتاعت ترويح يا أبو علي. ونحن حزب يا جماعة كل الناس، الفنانين مؤتمر وطني واللعيبة بتاعين الكورة مؤتمر وطني، والهيئات والتنظيمات دي كلها يا جماعة مؤتمر وطني، ده نشاط للمجتمع كله، لكن ده كلو نحن في النهاية عايزين نشذب النشاط ده ونضعه في قالب، حقيقة يخدم أهدافنا في بناء مجتمع طاهر ونظيف إن شاء الله البغني والبرقص كلو ليست بمجون ولا لهو وإنما هي حقيقة ترويح للنفس بعد ساعة من العمل والجهد، لأنو كل زول شايل بندقيتو أربعة وعشرين ساعة برضو دايرلو فترة كده يقعدوا، المجاهدين ديل ينشدو ويغنو عشان ما يروحوا على نفسهم..

أما الكلام عن إعادة هيكلة الدولة لتقليل الانفاق، يا جماعة حقو نحن ما نقول كلام وبعدين نحن نصدقو ونفرضو على الناس، والناس يصدقوه. الكلام عن الصرف وترشيد الصرف، أنا عايز أوريكم الصرف الأساسي ماشي وين. أكبر إنفاق للدولة هو الدعم، نحن بندعم المحروقات وبندعم الدقيق والقمح وبندعم الكهرباء، لما حصرنا الدعم المباشر وغير المباشر البقدم من خلال هذه السلع والخدمات، لقيناه ١٤ مليار بالجديد، ١٤ تريليون، الميزانية كلها كم.. ٢٥ مليار، يعني نصف الميزانية ماشي دعم لسلع مباشرة وغير مباشرة، وده الدعم الغير مباشر كله، لأنو ما بنمشي للمواطن كاش في جيبه ولكن بمشي ليه من خلال خدمات، الدعم الغير مباشر ده، أكثر الناس استفادة من الدعم غير المباشر، هُم الناس أصحاب القدرات والإمكانيات، الناس البصرفوا أكثر والبيستهلكوا أكثر هُم البياخدو دعم أكثر، يعني دعم البنزين بياخدو منو؟ أصحاب العربات الخاصة، أي زول راكب عربية خاصة الحكومة دافعه ليه مرتب، البيت الفيه أربعة عربيات خمسة عربيات كل واحد بيبحسب إنو أخذ دعم كم من الحكومة، حنجي نلقى بعض الناس الدعم البياخدوه في البنزين أكثر من مرتب الوكيل، الناس البيستهلكوا كهرباء منو؟ الناس العندهم مكيفات والأسبيليت يونت.. هل كل سوداني عندو مكيف؟ هل كل زول عندو كهرباء؟ كم الناس البياخدو من الشعب السوداني؟ والأموال بتاعت الدعم دي يا جماعة هي مال عام، لا من

جيبي أنا ولا من جيب علي محمود.. ده المال العام المفروض يوجه لتنمية وخدمات لكل الشعب السوداني. فالعدالة، أنا بقول العدالة تقتضي لأنو الدعم ده ما للفقراء، 'الفقراء بياخدوا مبلغ محدود جداً، كلو كم يا.. أميرة.. منتين للفقراء، أنا متأكد أنو أي زول من الناس الساكنين في البيوت الكبيرة بياخذ دعم كهرباء أكثر من دعم بنالو الفقير من الدولة، هل دي العدالة، دي مسؤولية أمام الله سبحانه وتعالى. فدي نحن دايرنها تتراجع. الحاجة الثانية في إنفاق الدولة هو الفصل الأول، ميزانية الحكومة ٥٠% منها فصل أول، هل المرتبات مجزية الآن؟ إذا كان الدراسات بتقول أنو والله مفروض يكون الحد الأدني للأجور ١٤٠٠ بالجديد، الحد الأدني كم يا...؟ ٤٥٠ معناتها أي زول بياخذ مرتب هو دعم حق الفقر، فالفصل الأول بحجمه الكبير ده البمثل ٥٠% من الموازنة هو ليس بكافٍ، عشان كده أسه الناس بتعمل في دراسات عشان كيف إنها ترتفع بهذه المرتبات لكن من وين تجيب الموارد التغطي هذه الزيادة؟

ونحن في إطار المراجعة، يا جماعة في مراجعة مافي، الليلة نعاين للدول الحوالينا والحكومات القبالنا، هل سمعتو بمراجع عام في هذه الدول بيقدم تقريره للهيئة التشريعية مباشرة؟ أنا بتحدي، يا جماعة قبل حكومة الإنقاذ خمسة سنين حسابات حكومة السودان لم تقفل ولم تراجع، والمراجع العام لجمهورية السودان في وقتها الآن موجود وحي بسمع في كلامي ده، خمسة سنين ما اتقفلت الحسابات، ما تراجعت. نحن كونو الآن بنجيب المراجع العام وبيقدم تقريره مباشرة، ما قاعد يجيبه لينا في الدولة عشان نهذبه يا جماعة، ولا نقصقصه ولا نسمكره، أنا شخصياً بعرف مخرجات التقرير ده من الأجهزة الإعلامية، لما يقدموا، الأجهزة الإعلامية تعكسه، حتى بعد داك تعرف قال شنو؟ المراجع العام ما قاعد نجيبه عشان يكون ده تقرير بتاع دولة المراجع العام. وأنا أفتكر قمة الشفافية إنو في مراجع عام لجمهورية السودان بيقدم تقريره مباشرة لممثلي الشعب. استخدام كلمة أو التعبير بالإعتداء على المال العام عند المواطن العادي وكثير من الناس، إنو زي الهجوم على المال العام، ده الإعتداء كده، لكن في معظمه، نحن يا جماعة بعد داك التقرير ما يجي بنجي نشوف كل الملاحظات، وبعد ما يناقش المجلس ويجينا من المجلس الوطني كل التقرير وملاحظات النواب وقرارتهم وتوصياتهم على التقرير، الناس براجعوه، أي تجاوز بيطلّب أنو يقدموه للنيابة، بمشي النيابة وناس كثيرين جداً مشوا النيابة، واتأخد فيه إجراءات، وواحدين وصلوا المحاكم واتحاكموا، وما في قضية وما بنتستر على زول، في أغلبها هي تجاوزات في اللوائح والنظم المالية، وده لضعف

الكادر الحسابي والمالي الموجود في الدولة بعد الهجرة الضخمة الناس الهاجروها للخارج، أيضاً لبعض المسؤولين حقيقة بتكلموا عن إنو والله القروش طالما ما دخلتها في جيبي ما في مشكلة، لكن التقيّد باللوائح والنظم هو حقيقة واجب، لأنو إذا كان إنت ما دخلّت في جيبك ما بتضمن أنو غيرك يسلك نفس السلوك ده ويدخلو في جيبه، عشان كده الالتزام مهما كان حيفقد الدولة بعض القروش وبعض الزمن، أحسن الإلتزام بالنظم واللوائح عشان الواحد أول حاجة يبرىء نفسه أمام الناس، لأنو حتى لو إنت برئ أمام ربك سبحانه وتعالى وما برئ أمام الناس برضها بتبقى منغصة في حقك.

في هذه العجالة حنتعرض للتحديات الكبيرة المواجهانا، وهي ليست تحديات جديدة يا جماعة، وليس بتآمر جديد، والتآمر حيظل مستمر، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ما استطاعوا ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، يا جماعة ده تدافع مستمر، ومعركة مستمرة، بيننا وبين قوى الشر، الآن العالم البيسيطر عليه تحالف صليبي صهيوني، التحالف الصليببي الصهيوني ده عنده القناعة الآن إنو سيطر على العالم وموارد العالم وسياسات العالم وإنو أخضع كل الناس لسياساته، فما بقبل أنو في دولة في العالم الثالث إنها تكون خارجة عن هذا النظام، ونحن خارجين عن هذا النظام وحنظل خارجين عنه، لأننا نحنا إن شاء الله متمسكين بحبل الله المتين، نحن عندنا أصحاب عقيدة، أصحاب رسالة ما بنسلم ليهم ولا بننقاد ليهم، سعوا سعي حثيث جداً واستخدموا كل الأساليب من حصار إقتصادي وحصار سياسي وحصار دبلوماسي وحتى قانوني، لأنو أسه الرئيس ووزير الدفاع وآخرين، كلهم قال مطلوبين للعدالة الدولية، هو في عدالة، وين هي؟

حصار أمني دعم التمرد في دول الجوار، كل من.. حتى بعض الناس الكانوا قريبين مننا كلهم شغلوهم عشان والله الهدف في النهاية قالوا تغيير النظام في السودان، نحن نقول والله هو الأمر بيد الله سبحانه وتعالى، يؤتي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ليس بيد أمريكا، لأنو لو كان بيد أمريكا حسني مبارك ما سقط، لو كان بيد أمريكا شاه إيران ما كان سقط، لو كان بيد أمريكا موبوتو ما كان راح، ديل أهم الأدوات الكان أمريكا وحلفائها بشتغلوبا في المنطقة دي، الآن راحوا ونحن قاعدين والحمد لله رغم أنفهم. لكن يا جماعة التآمر ده بيحتاج لمزيد من الترابط والتماسك وما نعتقد إنو والله نحن امورنا كلها حتمشي كل يوم لحسن وأحسن، يجب يكون في إمتحانات وتكون فيها ابتلاءات، والرسول (ص) بعد الانتصار الداوي في بدر برضو تعرض للهزيمة في أحد، ويوم حنين... فلم تغني عنكم من الله

شيئا، يا جماعة ده ابتلاء عشان الواحد ذاته يتذكر الحكاية... وإنما الأمر بيد الله سبحانه وتعالى، في اللحظة البتحصل لينا مشكلة، ده الوقت النحن محتاجين الناس يقيفوا فيه والناس يترابطوا فيه ويقيفوا، عشان كده الكلام القالوا أبو علي، استمرار الإستنفار يا جماعة، نحن في حالة استنفار، إذا فرغت فأنصب.

بنقول في ظل هذا التآمر ننظر لعلاقاتنا الخارجية، بنلقى نحن علاقاتنا الخارجية مع الدول الحوالينا نقدر نقول هي بدرجة ممتاز، ما عدا أخوانا اللي صدقنا معاهم لما وقعنا الاتفاقية بتنفيذها، وصدقنا معاهم بأنو وجهنالم موقفنا الواضح في إنو أنحنا على أتم استعداد أنو نقيف معاهم ونساعدهم في بناء دولتهم وبناء مؤسساتها، لكن كان ردهم على ده كل شنو؟ مزيد من التآمر وأنا بقولها بكل أسف، إنو ده طبع اللئيم، إن إنت أكرمت الكريم ملكته، وإن إنت أكرمت اللئيم تمردا...

لم يتبقَّ الكثير، ولكننا نكتفي بهذا القدر، فهو كفيلٌ بـ"فقع المرارة" واستجلاب كل أنواع الغثيان. ولكن إن انتهى حديث "الرئيس الضرورة" فأنا أعلم أن أوجاعكم لم تنته، وآلامكم لن تهدأ، وأنتم ترون وطناً رؤوماً يتسرَّب – بفضل هؤلاء – كما يتسرَّب الماء من بين الأصابع!

آخر الكلام: لابُدَّ منَ الدِّيمُقرَاطِيَة وإن طَال السَفر!!
٢٠١٣/٦/٢٣

هل يزحف الحراك السُّوداني نحو خيار الصِّفر؟!

توقفتُ عن الكتابة لفترة تربو على الثلاثة أشهر، وهي فترة تطاولت حتى شعرتُ كأنها دهراً، بالنظر لما نحن فيه غارقون. وفي الواقع، لم يكن التوقف أمراً خُطط له أو قُصد عمداً، فهو قد جاء نتيجة ظروف اتصل بعضها برقاب بعض، فحالت دون التواصُل الراتب المعهود. هذه الظروف قد بدأت أولاً بدواعي أسفار، ثمَّ أعقبتها مظاهر أسقام، وبالطبع لا هذا وذاك يعنيان القارئ في كبير شيء، ولذا سنتجاوزهُما بالحديث فيما ينفع الناس. بيد أنه بعد أن قضيتُ أوطاري من الأولى، وقضت الثانية أوطارها من جسمي، كان التأمُّل ملاذنا فيما تفاقم أثره وعظُم أمره في حال البلاد والعباد. وتعلمون إنه حال كثُر فيه توصيف المُنظرين، فمرَّة يقولون عنه إنه مُشكلة، وتارة أزمة، وثالثة كارثة. ولعلَّ الأخيرة صارت أكثر واقعيَّة بعد أن أنشبت أظفارها على الاثنين معاً، وباتت تهدِّدهما بالزوال جغرافياً وديمغرافياً. ولا يظنن أحد أن في ذلك شطحٌ أو نطحٌ، أو حتى ضربٌ من ضُروب المبالغة، فالأمثلة في عالمنا كثيرة، وجميعها حالها يُغني عن سؤالها. أما في واقعنا، فالشاهد أن انفصال الجنوب بالأمس، وما تمور به دارفور اليوم، هي محض مقدِّمات في إمكانيَّة حدوث ما تأباه نفس كل وطني غيور!

أياً كان الحال أو ما سيؤول إليه، يمكن القول إن الفتق قد اتسع فعلاً على الرَّاتق. فالأمر بمنظورنا لن يتوقف عند سقوط أو اسقاط النظام، بقدر ما سيتوقف على التركة التي سيخلفها من ورائه، وهي الغاية التي لا ينبغي أن تتقاصر دونها الوسائل حتى يتم التعامُل معها بمسئولية تُبعِد عن الوطن شبح إعادة إنتاج الأزمة، فالعاقل من اتّعظ بغيره واستبان النُصح قبل ضُحى الغد. ولا يمكن القول إن هذه المعطيات مؤتمنة في ظِلِّ تكاثر الكتابات حول الشأن السُّوداني. فهذه الظاهرة – أي الكتابة – رغم أنها محمودة، إلا أنه في تقديري غلب غثها على سمينها، واختلط فيها الحابل بالنابل، كما يقولون. وإزاء هذا الوضع، يخشى المرء أن تضيع قضايا الوطن الأساسيَّة كما ضاع "عِقد على جيد خالصة"، لهذا رأينا من المفيد استخلاص بعض النقاط التي ينبغي علينا التركيز حولها وتأمُّلها بغية رسم خارطة طريق تعيننا فيما نحن فيه سادرون. ولأن المهم هو الحوار، حريٌ بنا التأكيد قبل تسطير هذه النقاط، القول إنها تقبل الاختلاف بذات الروح التي تقبل بها الاتفاق. وسواء هذا أو ذاك، نأمل أن تشفع لنا غيابنا لدى القارئ، فهو من حقه أن يتوعَّد كاتبه مثلما توعَّد سيدنا سليمان هدهده إن لم يأته بالخبر اليقين!

- **أولاً:** أصبح السُّودانيون يعيشون حياة غير طبيعيَّة، مستغربون في الداخل ضُربت عليهم الذُّل والمسكنة، ومغتربون في الخارج لا عدَّ ولا حصر لهم، لكن السُّلطة الغاشمة تعرفهم بسمائهم، أي عندما يضخون الخمسة مليار دولار سنوياً في الجسد المتهالك (تمثل ٥% من الناتج المحلي، بعد البترول مباشرة قبل وبعد الانفصال) لكن المؤلم أكثر في حديث الأرقام، أنه عندما تسنمت العُصبة مقاليد السلطة قبل ربع قرن، كانت الطبقة البرجوازية – بحسب التوصيف الماركسي – تعادل نحو ٢% من سكان البلاد، وكانت الطبقة الوسطى التي تعد بمثابة العمود الفقري للمجتمع توازي نحو نحو ٤٨% وقدرت نسبة الفقراء والذين هُم تحت معدَّل الفقر بنحو ٥٠%، بلا أي تمايز طبقي. لكن هذه النسب تخلخلت بعد هجوم التتار، وظهر المجتمع الطبقي بكل سوءاته. إذ أصبحت الرأسمالية الطفيليَّة تقدَّر بنحو ٥% ويمثلون السُّلطة الحاكمة وأزلامها، وهُم من صار يتحكم في مصائر نحو٩٥% من السودانيين بعد تذويب الطبقة الوسطى واندغامها مع قواعد الفقراء. وهي ذات النسبة التي يشار إليها باعتبارها نسبة الفقر في السُّودان بحسب الاحصائيات العالميَّة. وسواء زادت أو نقصت فهذه ليست أرقاماً صماء فقد عملت بالفعل على "إعادة صياغة الإنسان السوداني" سلباً، على عكس ما زعموا. فلا غُرُوَّ بعدئذٍ أن رأينا الكذب وقد حلَّ مكان الصِدق، وطغى الجُبن على الشجاعة، واستشرى النفاق وانحسرت الصراحة، وتسيَّدت الرذيلة على الفضيلة، وشاع الحسد وتضاءل الإيثار، وانتشر الاحتيال وتوارت الأمانة، وفي خضم هذه المحرقة أصبح القابض على موروثه من الخلق السوداني القويم كالقابض على الجمر!

- **ثانياً:** يعد الفساد المالي والأخلاقي من أسوأ ما نتج عن حُكم العُصبة، ذلك لما له من تبعاتٍ كثيرة عملت على تغيير الأنماط السلوكيَّة للشخصيَّة السودانيَّة بحسب ما ذكرنا. وكنا قد كتبنا عن فساد العُصبة بوثائق دامغة، وبالرغم أنها كادت أن تُطيِّر عقول قارئها إلاَّ أنها لم تحرِّك ساكن من كانوا في غيِّهم يعمهون. على كلٍ ينبغي التأكيد من باب التوثيق على أمرين هامين تميَّز بهما فساد العُصبة ذوي البأس. أولهما الحقيقة الراسخة التي تؤكد أن هذا الفساد يعد الأكبر كماً ونوعاً في تاريخ السودان على الاطلاق. وثانيهما، بالنظر لما يدّعونه فقد أصبح فساداً مؤدلجاً. تداوله أصحاب الأيادي المتوضئة ضغثاً على إبّالة، كأحد شعائر الدين التي يؤجر عليها المتسابقون. ودونكم قضيَّتان، نوردهما من باب الذكرى التي تنفع المؤمنين (فساد وزارة الأوقاف، وفساد شركة الأقطان) فأبطالها هُم أنفسهم رعاة الدولة الدينية، وهُم أنفسهم ممن يرتادون المساجد ويعتلون المنابر، وهم أنفسهم من يذرفون الدمع السخين حتى تبتل أذقانهم وهم متبتلون. وأرجو ألا يعتقد أحدكم أن الشفافية هي التي فتحت صحائفهم، فهذا ببساطة حدث في إطار مقاصة في حرب الجماعتين المتناحرتين

في سُدّة السُلطة. لكنني لن أغادر محطة الفساد هذه من دون أن أزودكم بوثيقة جديدة تطالعونها أسفل المقال، وقد وصلتني ضمن وثائق عدة سنعمل على نشرها. والحقيقة ما كنت سأفعل لولا أن صاحبها هو من وصم الشعب السوداني بـ"الشحادة" من قبل، وزاد عليها الآن بقوله لصحيفة الجريدة ٢٠١٣/٩/١٣ بأنهم قوم: «**متعودون على الرخاء ويصعب فطامهم**» فتأمّلوها يا سادتي بلا تعليق، فقد تدركوا أن الموصوف عُرفاً بـ"الطفل المعجزة" تثاءب وتمطى وتساوت عنده الملايين والملاليم وبينهما طازج!

- **ثالثاً:** يقولون إن الاستبداد يُولّد الفساد وما في ذلك شك بالطبع، وإن كان العكس صحيحاً أيضاً. لكن ما بالك لو قلنا إنه – أي الاستبداد – له لسان وشفتين في البلد الصابر أهله. ففي أعقاب كوارث السيول والفيضانات الأخيرة، لم يكن المواطنين المكلومين ينتظرون من السُلطة أن تهديهم خيلاً ولا مالاً، لكن والي الخرطوم عبدالرحمن الخضر – قدّس الله سِرّه – نطق بمشاعر الاستعلاء وطبائع العنجهيّة التي درجت عليها العُصبة، وأدلى بتفسير غريب في فقه الأزمة والكارثة. لحِقَ به أيضاً معتمد الخرطوم، الذي أعاد للأذهان قصّة ماري أنطوانيت. وفي واقع الأمر، هُما امتدادٌ لخطاب برعت فيه عصبتهم، ولو أنهم التفتوا قليلاً للمخطوط في باطن كتب التاريخ لما كلفوا أنفسهم مغبّة الحديث. فهذا هو نفس الخطاب الذي عدّه عبدالرحمن بن خلدون من مظاهر زوال الحُكم، وهو نفس الخطاب الذي حسبه عبدالرحمن الكواكبي من علامات زوال الدولة. ومالنا نذهب بعيداً في التنظير، قُل لي بربّك، أين الطغاة الذين كانوا بين ظهرانينا بالأمس في دول الربيع العربي؟! على كلٍ، نخلص إلى ما نود تثبيته، وهو أن استبداد العُصبة كفسادها تماماً، فهما مؤدلجان ظاهراً وباطناً. فالناطقون به هُم أصحاب الأفواه المُتمَضمِضَة، وهل في ذلك قسم لتبيان بوار وعوار الدولة الدينية؟!

- **رابعاً:** الشباب هُم عماد الأمّة ومستقبلها، وفي السُودان يُمثلون أكثر من نصف عدد السُكّان كما تعلمون. لكن المُؤلم أن ما نسبته ٤٧% منهم تُحاصرهم العطالة والبطالة وتتهدّدهم السلوكيات التي يمكن أن تنتج عنهما. والحقيقة نحن لم نلهم الاهتمام الكافي وفي صدروهم إنطوي السر العظيم، وهو بالضبط ما كان محط أنظار العُصبة على الدوام، فلم يتورّعوا في جعلهم وقوداً للحرب الدينيّة التي ابتدعوها في جنوب البلاد، فألقموها نحو ٢٠ ألف شاب ماتوا "سمبلة" ولم تثكلهم أمهاتهم!

- **خامساً:** إنني على يقين أن الأنظمة الشموليّة والديكتاتوريّة لا يمكن أن تغادر مسرح السُلطة إلا بنفس الوسيلة التي تسلطت بها على رقاب العباد. فالواقع إن الذين يُروّجون لتسوية سياسيّة تساوي بين الجلاد والضحيّة، ويحاولون التحايُل على ذلك تحت دعاوي ما يُسمّى بـ"التسامُح السياسي السُوداني"، هُم

يفعلون ذلك بثمن فاضح. كما أنه انطلاقاً من العجز الذي يحيط بهم، هُم يطمحون أيضا في سُلطة تجرجر نحوهم أذيالها المرهقة، أي دون أن يريقوا لها دمعا أو يهرقوا لها دما. ليس لأن هذا وذاك هُما ثمن الحريّة كما في تاريخ الأمم والشعوب، ولكن لأن سنابك خيول المغول الحاكمين هُم من بادر وداس مبكرا على التسامُح السياسي المزعوم، فأصبح ذلك بعدئذٍ سُننهم وفرائضهم في حُكم البلاد والعباد. وتأسيساً على هذا، فإن أي تسوية سياسيّة تُسقِط مبدأ المحاسبة على الجرائم الجنائيّة التي ارتكبها جلاوزة العُصبة، أو حتى غض الطرف عن الفساد الذي أفقر البلاد، ستكون مجرّد تسوية صلعاء تُعيد إنتاج الأزمة!

- **سادسا:** ما أكثر شرور العُصبة حين تعدّها، فهل بعد تأجيج نيران القبليّة والإثنيّة حديثٌ لمدكر؟! وفي تقديري أن الظاهرة هي نتاج أمرين لا ثالث لهما.. **<u>الأول</u>**، أنهم أقدموا على ذلك من أجل تغذية غريزة البقاء في السُلطة، وهو ثمنٌ بخس لو كانوا يعلمون.. أما **<u>الثاني</u>**، فهو نتاجٌ طبيعي للحروب المتواصلة التي شنتها العُصبة على شعوب السُّودان في الرُبع قرن الماضي. فقد بذل سدنتها ما وسعهم في تكريس منهج "فرّق تسُد"، وهو أيضا منهجٌ بئس، لو كانوا يدرون. فهذه الظاهرة عملت على تفتيت النسيج الاجتماعي وتهتكه، وهذه الظاهرة ضعضعت التعايُش السِلمي بين شعوب ومختلف قبائل السُّودان، بل إن هذه الظاهرة وضعت السُّودان كله ألان في "كف عفريت" لا سيّما، وأن شبح الحروب الأهلية المُوسعة بات يدُق على الأبواب بعُنف. ومن عجب، فإن هذه الفئة الضالة تظن من فرط سُكرها بالسُلطة، أن النار إذا ما انداحت واتسع محيطها فسيكونون من الناجين!

- **سابعا:** كلنا يعلم أنه كلما تشبثت الديكتاتوريات بالسُلطة عملت على تحويل مجتمعاتها الى كائنات مسلوبة الإرادة. ليس هذا فحسب، فالمُتأمّل للواقع السُّوداني يدرك تماما أن الديكتاتوريات التي رُزئنا بشرورها، وبالأخص التي نتلظى بنيرانها الان، عملت بمثابرة متواصلة على تدجين الشخصيّة السُّودانيّة وفق مفاهيمها وتصوُّراتها وتهيؤاتها، ولا يمكن القول إنها لم تجد من استجاب لدعاويها، وهي تعلم أن ذلك لن يعصمها من الهلاك. فهي في نهاية الأمر تريد مواطنا مطيعا يُنجز واجباته ولا يتحدّث عن حقوقه، وتوهمه بأنها تفكر نيابة عنه، وتقنعه بأنها تعرف ما يضره وما ينفعه. والمُفارقة أن الأمر في حالة "دولة الصحابة" الماثلة بين أيدينا يزداد تعقيداً، نسبة لاختلاط المُقدّس بما تعارف عليه العقل البشري. فهؤلاء يزعمون أنهم يحكُمون بتفويض من ربِّ العالمين، وبالتالي فإن ما يُقرّرونه يأتي مبرّاً من الخطأ لأنه من شيم الخَلق. نقول ذلك، بعد أن لاحظنا أن الديكتاتوريات بذلت ما وسعها لتكبيل الإنسان السُّوداني عن إعمال الفكر، بل اجتهدت لاغتياله وليس تكبيله، تماماً مثلما حدث للأستاذ محمود محمَّد طه. وبالنظر لواقعنا، يمكن القول إنها نجحت في

محاربة الفكر، بدليل أنه بعد ما يناهز الثلاثة عقود زمنيَّة على رحيله، لم تستقبل المكتبة السودانيَّة عملاً فكرياً متكاملاً سوى كتاب الدكتور محمد محمود الذي صدر مؤخراً تحت عنوان "نبوءة محمد.. التاريخ والصناعة"، فبغضِّ النظر عن الاتفاق أو الاختلاف مع كاتبه، فالثابت عندي أن الكتاب وفق الجهد المبذول فيه، يعد علامة هامة في إحياء سنن بضاعة كسدت، أو فلنقل كادت أن تكسد في الواقع السُّوداني!

من جهة أخرى، لعلَّ الذين يتابعون الوسائل الإعلاميَّة العربيَّة عموماً والمرئي منها على وجه الخصوص، تأخذهم الغيرة في مشاهدة الحوارات الفكريَّة الثرة بدرجة يكاد المرء يعجز عن متابعتها. هؤلاء يُدلون بآرائهم المثيرة للجدل بعُمق وثبات ووضوح، نشاهد ذلك في مجتمعات المغرب وتونس والجزائر ومصر والعراق ولبنان وسوريا.. إلخ، وبعضها يمُرُّ بفترات مخاضٍ عنيف. في الوقت الذي نتضاءل معه ضعفاً ونتوارى خلفه خجلاً ونعجزُ في التعبير عن خيبتنا حتى في عرض قضايانا السياسيَّة، ناهيك عن الفكريَّة. أنظروا إلى ما أنتجنا خلال حقبة رُبع قرن في ظِلِّ دولة "المشروع الحضاري" ففي بدايتها تشدَّق الدكتور حسن التُّرابي عرَّابها وخريج السُوربون بقوله: **«يكفي أن اسم السُّودان أصبح على كل لسان»**.. وسيَّان الأمر عنده أكان ذلك خيراً أم شراً. ثم أنظر لحوارييه وهُم يعيشون وَهَمَ المشروع بزاد قوامه عبارات "لحس الكوع"، و"بلوها وأشربوا مويتها"، و"سلخ جلد الكديس"، وفي تقديري أن الحركة الفكريَّة الدؤوبة في بعض المجتمعات المذكورة هي التي جعلت بينها وبين تمدُّد الإسلام السياسي سداً، وحالت دون أن يغرس شوكه المسموم في لحمها. كما يمكن القول إن الفقر الفكري الذي نعيشه، هو الذي جعل تجربة الإسلام السياسي البائسة تتمدَّد في ساحاتنا منذ أن وضع "إخوان الشيطان" بذرتها في العام ١٩٧٧، وواصلوا رعايتها في العام ١٩٨٩ بالانقلاب المشئوم وحتى يومنا هذا. بتأكيد أن الفقر الفكري الذي نعيشه، هو الذي جعل منّا دولة هامشيَّة، رغم تنطع التُّرابي، وتعلمون أن أي أمَّة لا تجعل من الفكر غاية همها، هي أمَّة عاطلة وباطلة، وتشكِّل عبئاً على المجتمع الدولي!

- **ثامناً:** إن الفقر الفكري صار متبوعاً بما لا يدع مجالاً للشكِ بفقر ثقافي وإعلامي أيضاً. فالصحافة التي نطالعها اليوم هي وريثة لصحافة عُمرها الآن أكثر من قرن. صحيح أن الديكتاتوريات ناءت بكلكلها على صدرها وأورثتها هذا الحال البيئس، وأزيد أكثر أن الديكتاتوريَّة المحجبة الحالية جعلت من الإعلام هدفاً مركزياً. ففي القطاع المرئي، خصَّصت ميزانيَّة تقدر بنحو خمسة مليار جنية سوداني سنوياً للفضائيَّة التي يُضفي عليها صفة "القوميَّة" عنوةً وابتساراً، لأن هذه المليارات هدفت إلى صُنع الأوهام وضخِّ الأكاذيب وتزييف الوعي. وحتى تكتمل هذه الرسالة القاصدة، فقد تمَّ تأسيس قنوات فضائيَّة أخرى بواجهاتٍ مختلفة، وإلى جانبهم عدد من المحطات الإذاعيَّة. أما في

مجال الإعلام المقروء، فاعلم – يا رعاك الله – أن جميع الصُحُف (عدا الأيام، القرار، الجريدة) مملوكة لجهاز الأمن والاستخبارات بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وغنيٌ عن القول فثمَّة تفاصيل يعرفها من كان في المهد صبياً، لهذا كان من الطبيعي أن تكون مواقفها مرتبطة بثيرمومتر الأخذ والعطاء. ولكن أرى لزاماً علينا، استثناء رهط من الصحافيين والكُتاب الشرفاء، نعرفهم بمواقفهم الراسخة، ونخشى أن نؤذيهم إن أفصحنا عن ذكرهم!

- **تاسعاً:** ما يُؤرِّقني حقيقة، أن النظام سواءً بأفعاله الخرقاء أو بنظريَّة رُدود الفعل، صنع تنظيمات أكثر تطرُّفاً منه، وقد لا يعلم بعض القرّاء الكرام أن ثمَّة ١٤ جماعة تكفيريَّة تمارس دعاويها بلا حسيب أو رقيب فوق رؤوسنا. هذه التنظيمات تكفِّر بعضها بعضاً. إذ تكفِّر السُلطة نفسها أحياناً كنوع من أنواع الابتزاز، وتكفر أصحاب توجُّهاتٍ يفترض أنهم ينهلون من نفس مرجعيَّتهم، مثلما فعلوا مع السيِّد الصَّادق المهدي والدكتور حسن التُرابي، وتكفِّر كذلك المتصوِّفة الذين نهضت العقيدة الإسلاميَّة على أكتافهم في السُودان. ولعلَّ الناس تابعوا بقلوب واجفة حُروبهم المقدَّسة التي شنوها لتكسير قباب بعض الأولياء من الأموات، والناس أيضاً شاهدوا مواجهات مسلحة في المولد النبوي مع اتباعهم من الأحياء في السنوات المنصرمة، وشمل ذلك محاولات اغتيال الشيخ الصابونابي والشيخ أزرق طيبة. أما أصحاب المذهب العلماني – كما في قاموسهم – فهؤلاء رجسٌ من عمل الشيطان ينبغي اجتثاثه. فهل اعتبرنا يا أولي الألباب، وتأمَّلنا حال وطن يقف على شفا حُفرة من الجحيم، علماً بأن مصير الذين وقعوا في ذات الجحيم ماثلٌ أمام ناظرينا!

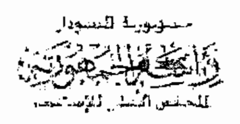
- **عاشراً:** نخلص إلى حقيقة مريرة، وهي أن البلاد تقف الآن في مفترق طرق، تتحكَّم فيه ثلاث مسارات.. ضلع يقف عليه نظام فاشل، وثانٍ تُمسِك به قوى سياسية عاجزة، وثالث تتشبَّث به قاعدة شعبيَّة عريضة تقف لا مبالية نتيجة لكُلِّ ما ورد ذكره أعلاه، وثمَّة شريحة خرجت من بطن الفئة الثالثة هذه وقوامها رهط من المخذلين والتيئيسيين والمتشائمين دوماً، وهُم من يشيعون أفكاراً هدَّامة بغية تفتيت عزم الناس، ووهن عزيمتهم، والقبول بالأمر الواقع. وعلى الرغم من سوداويَّة هذه الصورة، إلا أن الراجح عندي، بل هو الذي لم أفقد الأمل فيه يوماً، وأكد أن الحراك السوداني سيبدأ الزحف نحو خيار الصفر، وأن مسألة سقوط النظام مسألة حتميَّة، طال الزمن أو قصُر. ليس لأن الأزمة الاقتصاديَّة الراهنة هي السبب، وإن كانت واحدة من تجلياتها، ولكن لأنها أزمة أخلاقيَّة أنطقت الحجر العصيَّا، وتراكمت أسبابها السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة لمن ألقى السمع وهو شهيد!

آخر الكلام: لابُدَّ مِنَ الدِّيمُقرَاطِيَّة وإن طَالَ السَّفَر!!
٢٠١٣/٩/١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

Republic of Sudan
The Presidency
The Higher Council of Government





بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الأستاذ حاجي الأمل/ عبدالله تكنوري/ بهزاد

السلام عليكم

١- صرفت الاتفاق المالي الذي وعدتكم به بعد توقيعات وزارة المالية، وزارة النفط، بنك السودان.

٢- الاتفاق الذي أعدته وزارة النفط الإيرانية قائم على اتفاق تجاري، نحن قمنا بتعديلات فيه لكي تكون الدفعيات خصماً على الخمسمائة مليون دولار التي وقعها وزير الدولة للمالية السودانية ومحافظ بنك السودان المركزي مع البنك المركزي الإيراني وبنك تنمية الصادرات الإيراني. أرجو توضيح ذلك للسيد وزير الطاقة [illegible].

٣- آمل أن أكون معكم قريباً.

٤- السفير السوداني لدى جمهورية إيران الإسلامية مفوض بالتوقيع على أي اتفاق أو تعديل.

أخوكم وصديقكم
[illegible]
مستشار رئيس السودان

نِداءٌ خاص للمُغترِبين والمُهاجِرين السُّودانيين

كنا قد ذكرنا في مقال الأسبوع الماضي، أننا نحن معشر السُّودانيين وجدنا أنفسنا في ظِلِّ حُكم العُصبة ذوي البأس نرزحُ بين فسطاطين. مستغربون يقبعون تحت ويلاتهم في داخل الوطن، ومغتربون يكتوون بنيران سياساتهم وقد تبعثروا في مختلف أصقاع العالم. ليس هذا فحسب، بل إن من نكد الدنيا على هؤلاء وأولئك ألا يعرف أحد عددهم أصلاً حتى يستقيم الحديث عنهم بصورة منهجيَّة. لكن للدقة يمكن القول إن العُصبة عملت مرَّتين على إحصاء مستغربي الداخل خلال فترة حكمها التي تمطَّت وتثاءبت وبلغت رُبع قرن إلا بضع أشهر. ومن المُفارقات التي لن تدهش أحداً أن كلا المحاولتين كانتا لأسباب غير ما دَرج الناس على تعريفه بـ"الإحصاء السُكَّاني" والذي يتعيَّن على الحكومات المحترمة إجراءه حتى تستطيع إنفاذ مشاريعها التنمويَّة وبرامجها الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة. لكن العُصبة المتجبِّرة أسقطت كل هذه الغايات النبيلة، واستبقت وسائل القهر التي تضمن بقاء السُلطة في حضنها بثلاثٍ شدادٍ. فتأبَّطت بهنَّ شراً سمَّته "التمكين"، وعاثت به في الأرض فساداً وطغياناً واستبداداً!

تذكرون يا سادتي أنه في بواكير تسعينات القرن الماضي، أعلنت السُّلطة الغاصبة عن عزمها إجراء إحصاء سكاني في ٢٤ ساعة فقط. ومن عجبٍ أنها فعلت ودخلت به موسوعة "جينيس" للأرقام القياسيَّة، وكأن الناس لا يعلمون أنه كان محض إحصاء أمني في إطار خططهم الرامية لإحكام القبضة على خناق الشعب السُّوداني. يومذاك فرضوا على المواطنين عدم مغدرة منازلهم مهما كانت الدواعي، وطافوا عليهم بمعلوماتٍ ظاهرها الإحصاء وباطنها الإخصاء، بغية تحقيق الغرض المذكور. أما المرَّة الثانية فقد كانت قُبَيْل مهزلة الانتخابات الأخيرة التي أُجريت في العام ٢٠١٠، وكان بهدف التمهيد لإجراءٍ تزوير ممنهج لتلك الانتخابات. الأمر الذي تمَّ وفق ما خُطط له أيضاً، وبموجبه أُطلق عليها في الثقافة الشعبيَّة (انتخابات "الخج") فصارت اسماً على مُسمَّى. وسواءٌ هذه أو تلك، فنحن لسنا بصدد تأكيد أن العُصبة تحكُم قوماً لا تعرف عددهم، فهذا أمرٌ لا يمكن أن يفوت حتى على فطنة "ذبيح الله مجاهد" الناطق الرسمي باسم إمارة طالبان الإسلاميَّة. لكن ما نود تثبيته بحُكم الواقع أن الأحياء والأموات في قاموس

الغصبة يتساوون في الرثاء. ألم يقل الرئيس "الضرار" إن عدد ضحايا حرب دارفور لا يتعدون عشرة آلاف قتيلاً!

بيد أن مغتربي الخارج ليسوا بأحسن حالاً من سابقيهم، مع فارق أن العُصبة لم تجهد نفسها بإحصائهم.. لا سهواً ولا عمداً.. ذلك لأنها ببساطة لا تحتاجهم في تزوير انتخابات وضعت سداً بينهم وبينها. كما أنها لا تخشاهم في زعزعة أمنها، لأنهم واقعياً يوجدون خارج نطاق قبضتها الجغرافيّة. وعوضاً عن هذا وذاك، فتحت منافذ البلاد على مصراعيها ليخرجوا زُرافات ووحداناً، في هجرة جماعيّة لم يشهد السُودان لها مثيلاً. الغريب الذي لن يُفجع أحداً أيضاً، أن العُصبة تقر هذا التهجير بلسان ينضح تباهياً. فقد قال كرَّار التهامي ان جهاز شئون المغتربين الذي يدير مملكته، يُصدِر ثلاث آلاف تأشيرة خروج يومياً (المذكور قال في حديث منشور، أنه عُين في هذا المنصب بحُكم أنه كان "غواصة" للجبهة الإسلاميَّة أيام الطُلب، فتأمّل!).. كذلك قال فرح مصطفى، وزير العمل، إن عدد المغادرين في الربع الأوّل من العام الماضي ٢٠١٢ بلغ نحو عشرين ألف مواطن. عليه، يمكن القول إن العُصبة أدخلت الإنسان السُوداني ضمن الصادرات بأمل أن يدرَّ عُملاتٍ صعبة تسد بها جشعها، ولهذا لا غرو أنه كلما تكاثر أعداد الفارين من الجحيم، تنامت شهية العُصبة لمزيد من الجبايات بدءً من دمغة الأحياء، وانتهاء بدمعة الأموات!

بما أن السوء بالسوء يُذكر، كلنا يعلم أن سَدَنة العُصبة يُشنفون آذاننا بحديث يكاد يفقد المرء وقاره من الضحك. فهم مثلاً يُحدِّثونك عن فوائد الظلام عندما يتواتر انقطاع الكهرباء، ويذكرونك بضرورة الاستشهاد إذا وضعوا أعينهم على إرث طمعوا في أيلولته إليهم بعد رحيلك عن الدُنيا، وإذا أفلست الدولة وصارت خزائنها خاوية على عروشها من أثر الفساد – مثلما هو الحال الآن – يقولون لك إن لهذا من صنع المتآمرين والطابور الخامس والإمبريالية العالميَّة. على ذات النسق، قال الرئيس المشير ضمن هرطقاته في المؤتمر الصحافي ٢٣/٩/ ٢٠١٣ إنه اتَّفق مع وزير الماليَّة للسماح للمُغتربين بإيداع أموالهم بالعُملة الصعبة، وسحبها بنفس العملة متى ما شاءوا. هل سمع أحدكم برئيس جمهوريَّة يمارس أفعال الحُواة؟! فبغضِ النظر عن أن حديثاً كهذا يُعبِّر عن طبيعة السُلطة الديكتاتوريَّة لأنه اتفاق بين رئيس ومرؤوس نُثر على الهواء الطلق.. كيف لرئيس ألاَّ يُحسن الظن بذكاء مغتربيه، فيتحايل عليهم بالحديث في أمر يعرفون دوافعه الآن، ويحدِّثهم في زمن أصبحت سلطته كمنسأة سيِّدنا سُليمان، تنتظر الإسقاط؟! أشهدُ أنني رأيتُ الكثير من الفهلويين في حياتي، ولم أكُ في حاجة للمزيد، وواقع الأمر كنتُ قد كتبتُ من قبل، وقلتُ إن الرئيس المشير رجُل كذوب، ولم أفتر عليه كذباً، فقد جاء حديثنا مشفوعاً بالأقوال والأفعال الموثقة، ومع ذلك ما كنتُ أظن أنني أحتاج لنعت شخص يوماً بشيء أبغض من الكذب.. وأتضاءل حياءً من ذكره!

ذكرنا في المقال الماضي أن تحويلات المُغتربين عبر المنافذ الرسميَّة تبلغ نحو ٥ مليار دولار سنوياً. وقد قرأتُ منذ نحو أسبوع أن هذا الرقم انخفض قليلاً لأسبابٍ غير معروفة بالنسبة لنا، إذ بلغت تحويلات العام الماضي ٢٠١٢ نحو ثلاث مليارات دولار ومائة واثنين وسبعين مليوناً. وكنتُ قد ذكرتُ في مقالٍ سابق معلومة موثقة، تقول إن السفارة السودانيَّة في الرياض تقوم بإيداع ٢ مليون ريال يوميا في حسابها البنكي (عبارة عن حصيلة مختلف الأنشطة التي فصلّناها في المقال المشار إليه) ويزيد هذا المبلغ في بعض أيام الأسبوع، نقول ذلك لمن يريد أن يستخدم الالة الحاسبة في عمليات الجمع والطرح، أو الكرّ والفرّ بلغة العُصبة الباطنيَّة!

كذلك يطيبُ لي دائماً التذكير بأرقام يجتهد المنقذون دائماً لمحوها من الذاكرة الجمعيَّة لأهل السُّودان، هذا على الرغم من أنها من بنات أفكارهم وليست من انتاج المعارضين والمغرضين والعملاء. أما تكرارها في مقالاتنا فيجيء أولاً من باب الذكرى التي تنفع الغافلين. وثانياً، حتى يعلم الناس أنهم أُفقروا في بلدٍ غني بكل المقاييس المعروفة. فبالإضافة لتحويلات المغتربين البالغة ٥ مليار دولار سنوياً. نقول إن عائدات البترول في الفترة من العام ١٩٩٩، أي العام الذي شهد تصديره لأول مرَّة وحتى العام ٢٠١١ أي عام انفصال الجنوب، كانت نحو ٧٠ مليار دولار. أضف إلى ذلك الموارد الطبيعية الأخرى والمعادن، وأضف الصادرات الحيوانيَّة والزراعيَّة من قبل أن تعبث العُصبة بمشروع الجزيرة وإخوانه. فكيف يفلس بلد بهذا الثراء العظيم؟! وفي واقع الأمر، نحن لا نخوض في تفاصيل فساد وثقنا له حتى كلَّ متننا ومتن غيرنا من الراصدين. كما أننا لسنا بصدد إعادة سيرة استبداد فاض كيله، فدونكم قولاً لم يجف رذاذه بعد، وهو ما تجسد في حديث (الهوت دوق والبيتزا والمساكن الشينة وركوب البكاسي) فإن لم يكن هذا هو الاستبداد بعينه، فقل لي يا صاح بالذي خلقك من ماء مهين، كيف يكون الاستبداد عندئذٍ؟! فنحن نعلم وأنتم تعلمون أن هذه العُصبة عبثت بالمكونات الروحيَّة والماديَّة لأهل السُّودان لدرجة يمكن أن يقول المرء إنه لولا دفع الله السُّودانيين بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً!

من المؤكد إن الناس في حيرة من أمرهم وقد تخالط صبحهم مع مسائهم، فالرئيس الضرورة مشغول بما يحب من نعم الدنيا الزائلة، أو إن شئت فقل شُغل عمداً بحُسنيبها معاً، ولعلَّ بعضنا لاحظ أنه يكرّر أرقاماً ويلوكها منذ سنين دون تمعُّن في مطابقتها لواقع يعيشه الناس ولا يحتاج لـ"درس عصُر"! مثلاً ما عاد الحديث عن سدٍ مروي يُجدي بعد أن مثل قمَّة الفشل كمشروع كثير الكُلفة قليل المردود. لكن إن أحببت أن تعلم يا عزيزي القارئ شيئاً عن النمل الذي أكل السُكر وأفقر البلاد وأهلها، فتأمَّل فقط في ما تحاشى الرئيس الضرورة ووزير

ماليته الهمام الخوض فيه، وهي مخصَّصات البدعة المُسمَّاة بـ"الدستوريين"، والذين يستحوذون على مخصَّصات تنوء بحملها السطور. العاملون منهم في جهاز الدولة يبلغون الآن نحو ٨٢٨ دستوري كامل الدسم، في حين أن عددهم كاملاً يبلغ نحو ٩٠٢٥، وهُم الذين تقلدوا مختلف المناصب منذ العام ١٩٨٩ وبالرغم من أنهم غادروها فهُم ما يزالون يحظون بمخصَّصات كاملة. في حين أن ساكن القصر وسدنته، من مساعدين يُفع ونواب رُفع وآخرين من وراء حجاب، تبلغ مخصَّصاتهم الشهرية نحو مليون دولار شهرياً. وتعلمون من كثرة ما ذكرنا وكرَّرنا أن العصبة ظلت تخصِّص ٧٠% من الميزانيّة طيلة رُبع قرن للأمن والدفاع، أي لقتل شعوبنا بالحروب المتواصلة، في حين خُصِّصت نسبة ١٠,٤% للصحَة والتعليم. ولعلَّ مُحصِّلة كل ذلك حالة الإفلاس الكامل التي أطبقت على الدولة الآن، فقد وصلت ديون البلاد إلى أكثر من ٤٥ مليار دولار، وتفشت البطالة لتسجل رقماً قياسياً، إذ بلغت نسبتها نحو ٤٧% ونسبة الشباب بينهم أكثر من ٧٠% أما التضخُم فقد وصل إلى ما نسبته ٤٣% فهل بعد هذه الأرقام يمكن لجفن أن يغمض أو قلب أن ينبض أو لسان أن ينطق؟!

صفوة القول، ماذا نحن فاعلون؟! لا شكَّ أنه في مثل هذا المناخ سيسيطر على عقولنا هذا السؤال الحائر، وسنظل نردِّده في صحونا ومنامنا، في سِرّنا وجهرنا، ونحن نرى الحراك الوطني قد بدأت نذره تمطر ثورة من سماء حبلى بأحداث جسام. وفقاً لما فصلناه، دعونا نوجه نداء مخلصاً للمغتربين والمهاجرين بدعوتهم لقصر تحويلاتهم المالية في إطار الحد الأدنى، أي في حدود العيش الكريم للملتزمين نحوهم من أسرهم وأهلهم. وليتهم يغلون أيديهم عن أي تحويلات دون ذلك، سواء كانت مشاريع استثماريّة أو شراء عقارات أو أراضٍ أو منازل أو أي شيء من هذا القبيل، وذلك حتى يوصدوا الباب أمام نظام ظلّ يوجه تحويلاتهم في أطر لا تعود على الوطن وأهله بفائدة مرجوة!

نعم، نحن مجتمع تكافلي، ونحمد للمغتربين والمهاجرين أنهم حافظوا على هذه الشعيرة، فشملت رعايتهم الأسرة الممتدة وهُم يتابعون شهيق وزفير الوطن بقلوب واجفة ولا يدرون ما يفعلون. بل يمكن القول لولا المغتربين المبعثرين في فجاج الأرض، ولولا دول الاغتراب التي عشنا في رحابها سنين عدداً، لاصبحنا أمّة متسولة بامتياز ونحن نئن تحت كلكل ديكتاتوريات تعد أنثى الملاريا "الأنوفيلس" أرحم منها في مص دمائنا! وبالطبع نحن لا نهدف من وراء هذه الدعوة لفصم عُرى هذه العلائق الاجتماعيّة التي نعتزُّ بها، بقدر ما نريد أن تتكامل تضحيات من هُم بالداخل مع مجهودات من هُم بالخارج، للتخلص من نظام يعيش سكرات الموت الذي كانوا منه يحيدون!

آخر الكلام: لابُدَّ مِن الدِّيمقراطيَة وإن طَالَ السَّفر!!
٢٠١٣/٩/٢٦

فاصلٌ آخر من الجَّحيم القَادِم!

يدخل "جوزيف جارسين" بعيون زائغة إلى غرفة فارغة، ليست بها نوافذ ولا مرآة ولا أي أثاث آخر، فقط بها باب واحد، بحسبها جهنم. هُنيْهةً وينضم "أينيس سيرانو" و"أيستل ريجوه" إلى جارسين، فيُغلق باب الغرفة تلقائياً ويجد الثلاث شخصيات أنفسهم وجهاً لوجه ورابعهم ضمير الغائب. وبسبب ما اقترفوه من مختلف الذنوب في الدنيا، كانوا يتوقعون أن يُعذَّبَوا عَذاباً لا يستثنى أحداً. لكن التعذيب بتلك الصورة النمطيَّة لم يحدُث، وعوضاً عن ذلك كان عبر نظرات الآخرين. فشرعوا في التحقق من ذنوبهم وكشف خطاياهم وذلك باجترار ذكريات مؤلمة والتنفيس عن رغبات مكبوتة. في البداية رأى الثلاثة أنفسهم من خلال الأحداث التي تدور على الأرض، ولكن مع مرور الزمن أصبحوا أكثر انعزالاً عن الأرض وما فيها، فصاروا يفكرون في أنفسهم فقط. وعند اقتراب نهاية المسرحية، يصيح جارسين طالباً الخروج فينفتح الباب، لكنه لا يجرؤ على اتخاذ الخطوة الأولى في الخروج خوفاً من المجهول، فيفضل أن يبقى في الجحيم. وكذلك لا يستطيع أي منهم بسبب ما توهموه من حرارة عالية، والتي يتضح أنها مجرَّد ذريعة نفسية بدافع الخوف من شيء ما!

تلك هي خلاصة المسرحيَّة الشهيرة لفيلسوف المذهب الوجودي جون بول سارتر، والتي خلص فيها إلى أن "الآخرين هُم الجحيم" ليُفسِّرها كل منَّا بما استقرَّ في عقله ووقر في وجدانه. أما أنت يا عزيزي القارئ، فسودنها كما تشاء، لن تجد مشقة إذا رأيت نافع علي نافع وقد تقمَّصته روح جارسين، لن يساورك الشك إذا اختبأ الرئيس المشير في ثناياه، ولن تتردَّد إن تجسد فيه عبدالرحيم محمد حسين أو علي عثمان أو عوض الجاز أو أي من القتلة الذين خضَّبوا أيديهم بدماء الشعب الأعزل. وتعلمون أن الآخرين موجودون في كل مكان، أما في حالتنا فهم – بلا ريب – سبب بلايانا ورزايانا وتعاستنا وشقاءنا وآلامنا، إنهم يا صاح الجحيم عينه. إن شئت أن تخوض المغامرة فستجد نفسك أمام شخوص يعجز فلاسفة الإنسانية وعلماء النفس والاجتماع عن سبر أغوارها، لأنها ببساطة تنطوي على الذي لم يُدرَّس في قاعة أو ضمنته مراجع أو خضع لتنظير.. بل لم يخطر على قلب بشر!

الآخرون هُمُو يا رفيق، فالتعاسات لا تأتي فرادى، تأمَّلوا جيداً هذه الوجوه التي علتها غبرة جرَّاء السلطة وادمانها، وأرهقتها قترة من كثرة التقتيل والدم

المسفوك في الأشهر الحُرم والأشهر الحلال. هُم الذين أسكرتهم السُّلطة حتى باتوا لا يُفرّقون بين الوطن والمِحَن. إذا سمعوا شعبه يئن من المعاناة، قالوا من أين ينبعث هذا اللحن العذب الجميل؟! وإذا رأوا دماء شبابه تسيل حمراء قانية، قالوا تالله ما رأينا منظراً أجمل من هذا في الوجود.. وإذا أرادوا التقرُّب إلى الله زُلفى، طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد. كلما ضمرت بطون الناس زادوا شحماً ولحماً وورماً. هُم من سلالة مُستبدة لا تشبع من تحقير البشر، ولا تكف عن الإساءة للناس. ففي ذواتهم انحراف سلوكي "بالميلاد". وصفات متأصلة "بالتجنس"، هي عُصبة هوايتها تفريغ عقدها النفسية لتشبع غرائزها المريضة. نفوسٌ مليئة بالحقد والكراهيَّة، كأنها خلقت من ضلع شيطان رجيم. بينها وبين المحبة خصام وبينها وبين المودَّة عصيان، عُصبة إن حَمَلتَ عليها تلهث، وإن تركتها تلهَث!

على الرغم من أنني على قناعة كاملة بأن العُصبة ذوي البأس هؤلاء، ارتكبوا من الأخطاء والخطايا – على مدى ربع قرن – ما يعجز القلم عن رصده، إلا أنني أضيف بأن سنام هذه الأخطاء والخطايا تمثلت في ردود فعلها الفاشستية التي تعاملت بها لقمع الانتفاضة الحالية (سبتمبر/أكتوبر). ذلك لأن ما حدث بالوقائع التي شاهدها العالم كله موثقة بالصوت والصورة، استمطرت دموع البشر واستنطقت الصخر العصيَّا. لم يحدُث أن شاهد السُودانيون قمعاً لمتظاهرين عُزل بتلك الصورة الوحشية حتى في أزمنة الاستعمار البغيضة، علماً بأن المتظاهرين لا يملكون سوى حناجر راعدة وإرادة وطنية صلبة. وطبقاً لذلك فأنا على يقين بأن ما حدث بالأمس ستترتب عليه غداً مطلوبات سياسيَّة وجنائيَّة واجتماعيَّة ونفسيَّة وأخلاقيَّة كثيرة. وتعلمون أن ذلك ليس ببعيد في يوم ستفتح فيه الصحائف وتنصب موازيين العدل. فالتجارب علمتنا أن التاريخ حتى وإن صنعه الأخيار والأشرار معاً، إلا أنه لا يُكتب بالرصاص ولا بقلم "الرصاص" بمثلما لا يُمسح بـ"أستيكة" ولا تسقط وقائعه بالتزامُن!

على الرغم من قناعتي أيضاً أن العُصبة الحاكمة تجرَّدت من كل ما يمُت إلى البشر بصِلَة، إلا أنه بلغني من مصادرهم العليمة، أن أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، وقد حدث ذلك أثناء اجتماعاتهم التقيمية السريَّة للتظاهُرات. إذ تجرَّأت فئة واستهجنت العُنف المُفرط – كما قالوا – في التعامُل مع المتظاهرين. لم أندهش، وقلتُ لمن سمعت منه إنني أصدِّقه، ولكن ليس لأن مشاعر إنسانيَّة تلبَّست عُصبته على حين غرَّة، أو أن نوازع الخير غلبت مدد الشر في نفوسهم، ولكن ببساطة لأنهم رأوا في الضحايا المصير الذي ينتظرهم في الغد المأمول. فكان من الطبيعي أن يجفل النوم مع عيونهم، وظني أنهم استجلبوا له – أي النوم – من المهدئات والمسكنات والمنومات ما يمكن أن يجُبُّوا به "أهل الكهف" بلا جدوى! لكن قل لي يا من تلُوم ولا تُلام، كيف تنام عين من ثقبت أذنه بكاء الثكالى، وكيف يهدأ بال من رأى في الصحو أطفالاً قُتلت براءتهم وشباباً أُزهقت

أرواحهم ويُفعاً هُتكت أعراضهم.. وبعد كل ذلك، رأى في المنام أنه سيُذبح ولم يجد من يفدِه بذبح عظيم!

لقد زلزلت الانتفاضة الأرض تحت أقدام العُصبة. فتوارى نهج الغرور والعنجهيَّة والاستعلاء، بل عندما تزكَّت نيرانها واشتدَّ أوراها، توارى صنَّاع النهج الزائف عن الأنظار كما تتوارى الجرذان في جُحُورها. ومن سخرية الأقدار أن المشروع الحضاري بكل صيته الذي ملأت به العُصبة الآفاق، لم يجد من يدافع عنه سوى المؤلفة قلوبهم، الذين جُبلوا على الدَّجل والكذب والنفاق أمثال أحمد بلال وخالد المبارك، وثالثهم ربيع عبدالعاطي الذي ظلَّ باسطاً ذراعيه بالوصيد عند كُلِّ قناة فضائيِّة لدرجة أصبح فيها مثار سخرية الإعلاميين العرب! عموما لم يحن جرد الحساب بعد، فالانتفاضة ما زالت مستمرَّة. ونعلم علم اليقين أنها ماضية في طريق الجحيم نفسه وهذا ما استقرأناه من دروس التاريخ. ولأنها انتفاضة كرامة ضدَّ الذُلِّ والمهانة، فهي تعلو ولا يُعلى عليها. كلنا يعلم أن حديث المشير غير المسئول عن المَنِّ بالمأكل والمشرب كان بمثابة عود الثقاب الذي أشعل التظاهُرات. ولأن الديكتاتوريات على أشكالها تقع، لو أنه قرأ تاريخ السُّودان بعناية، لأدرك أن ما تفوَّه به هو نفس الحجارة التي قذفنا بها صُنُوِّه المخلوع جعفر نميري من قبل. ومن عجبٍ، فهو لا يرعوي فقد أعاد طعن الكرامة السودانيَّة بما هو أنكى، إذ وصف المتظاهرين بـ"الخونة والعملاء وقطاع الطرق".. فتأمَّل!

بيد أنه ليس وحده، فثمَّة من استمرأ الذاكرة الغرباليَّة التي وُصِمنا بها ولا ننكرها. فما أن هدأ مثار نقع المظاهرات فوق سمائنا، إلا ورأينا المرجفين في المدينة يستلون أقلامهم ليحدثونا عن انتفاضة موءودة وينتقصون من قدر شهداء رووا بدمائهم الطاهرة ثرى وطن مكلوم. فرأناهم وهُم يجمعون الغنائم ويُقسِّمون الولائم ويطرحون "المناقصات" ويضربون الذُلِّ والمسكنة. رأيناهم وقد حبسوا أنفسهم بجسدٍ لا يكل وقلب لا يمل من سُلطة تأتي منقادة تجرجر أذيالها. آخرون كانوا كما في جحيم سارتر، يصنعون من الشرِّ جيوشاً ويخشون مصيراً كمصير من يفر من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه. هؤلاء يعرفهم الناس بسيمائهم التي انطبعت على كتاباتهم ولحن القول الذي يستتبع مواقفهم. لا يجدون في أنفسهم حرجاً في تغيير السلاح من الكتف اليمين للكتف اليسار دون أن يكروا البصر مرَّتين، أو حتى يطرف له جفن. لقد كشفت الانتفاضة عورة السياسيين الانتهازيين والمثقفين الكذبة، الذين برعوا في التدجيل والتخذيل والتيئيس وتناسوا أن الحقيقة تظل ناصعة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها!

بوسعي أن أحصي لك يا عزيزي القارئ من الأسباب التي تجعل نار الانتفاضة متقدة ما يمكن أن يكل متني عن خطه وترهق عينيك قراءته. ليس لأن الظروف السياسيَّة والاقتصاديَّة التي أوجدتها ما زالت قائمة، وليس لأن السُلطة

الغاشمة لا تملك لها حلاً ولا تستطيع معها صبراً، ولكن الأسباب نفسها وأكثر تمدّدت وانتفخت وتفاقمت بعد الدم المسفوك. هل بلغك بعدئذ نبأ الذين شيّعوا ما سُمِّي بـ"التسامُح السياسي السوداني" إلى مثواه الأخير، هل بلغتك سيرة الطيبين الذين اسقطوا من قاموسهم "عفا الله عمَّا سلف"، فقد يعفو الله فهذه واحدة من صفاته واسمائه الحُسن جَلَّ وعَلا، أما الشعب فلا يظن أحداً أنه فاعل!

إنها انتفاضة الكرامة، لو كانوا يسمعون، وما رفع الدعم عن المحروقات سوى سطرٌ أخير في كتاب لا يمسَهُ إلا الثوريون!

آخر الكلام: لابُدّ منَ الدِّيمُقراطيّة وإن طَال السَّفر!!
٢٠١٣/١٠/١٣

إني أرى تحت الرّماد وميض نارٍ!

من المُؤكَّد أن القارئ الكريم كثيراً ما طالع هذا العنوان المُقلق والمُرعب والمُخيف، في الكتابات التي تناولت الشأن السياسي السُّوداني، وتحديداً في السنوات العُجاف التي استأسدت فيها العُصبة ذوي البأس على أهل السُّودان واستأثرت بالجاه والمال والسُّلطة. وأستطيع أن أقول – على المستوى الشخصي على الأقل – إنني وعلى سعة إطلاعي، لم أقرأ هذا العنوان قبل العام ١٩٨٩ يعلو أي شأن من شئوننا السياسة أو العامَّة. أي منذ أن قاله نصر بن سيَّار الكناني، آخر حُكَّام خراسان – بعد موجة مظاهرات واضطرابات اجتاحت ولايته – في رسالة إلى مروان بن محمَّد، آخر وُلاة بني أميَّة وضمَّنها هذه القصيدة بشطرها المذكور. وفيها حذَّره بخطورة الأوضاع وعواقبها الوخيمة، لكنه لم يستبن النصح فكان لا مناص من الكارثة. وعليه كانت هذه القصيدة بمثابة الإشارة الأولى في انهيار الدولة الأمويّة وقيام الدولة العباسيَّة. أما في زماننا الحالي – أي زمان الأمويين الجُدُد – الذين ساموننا سوء العذاب، فقد عَمَدَ كثير من الكُتَّاب والصحافيين إلى تصدير مقالاتهم بهذا العنوان، منهم من حاول إسداء النصح للفئة المُستبدة والمُتجبِّرة، وتذكيرهم بالمصير الذي حاق بسابقيهم من الطغاة في التاريخ الإنساني. ومنهم من أورده خوفاً ورهبةً وخشيةً على البلاد والعباد من سيناريو مأساوي غرقت في لججه أممٌ وشعوب. ولكن بالرغم من أن كل هذه الشواهد ماثلة أمام أعينهم، إلا أن العُصبة ذوي البأس المعنيَّة بالرسالة حاكوا الأمويين القدامى، إذ جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم واستكبروا استكباراً!

صحيح أن كُتَّاباً كثيرون استخدموا العنوان أعلاه، ولكن حتى لا تصيبكم الكلالة والملالة والأذى، فأنا أصدقكم القول إن الأمر لمختلف جداً هذه المرَّة، أي ليست كسابقاتها التي لم يُوبه لها أو يُعمل بها، فنحن لا نورده هنا من باب التكرار أو الانبهار، ولا من زاوية الترهيب أو الترغيب. ولكنه محصِّلة لقراءة متأنية بشواهد ونتائج تأمَّلناها بعد طول استقراء في واقع أصبح كتاباً مفتوحاً بسيناريوهات يعجز عن حصرها أي راصد. حيث كان من الطبيعي أن نصل لهذا الوضع الكارثي والذي لم تكتف فيه العُصبة الحاكمة بالفشل، بل استعصمت بـ"عنف البادية"، على حدِ تعبير من أهدانا وعياً لم نُحسِن صُنعه. والواقع أنها لم تستخدم ذلك بين غمضة عين وانتباهها، فذلك نهجٌ تمطى على مدى رُبع قرن

وناء بكلكله على صدورنا ونحن له صاغرون. يقيني أن البلد الصابر أهله لم يتأمَّلوا بعد وقائع ما حدث في انتفاضة ٢٣ سبتمبر الأخيرة، ولعلهم فاعلون. والذي نفس الفقير إلى ربه بيده، أن هذه المُقدِّمات التي رشحت بغير أنه سيكون لها مترتبات سياسيَّة واجتماعيَّة ودينيَّة ونفسانيَّة، فقد أضرمت ناراً فيما ظلَّ أهل السُّودان يعتزون به في إباءٍ وشمم وكبرياء!

في يوم ٢٠١٣/٨/٢٧، زار المشير البشير السيِّد الصَّادق المهدي في منزله بالملازمين بمدينة أمدرمان، وعلى إثر انتهاء اللقاء، هوت للأخير القنوات الفضائيَّة بالذي يهواه. وبالرغم من أن الصور نفسها جبَّت قول كُلِّ خطيب، إلا أنه عبَّر عن سعادته البالغة بنشوة لا تباريها سوى نشوة صلاح الدين الأيوبي حين حرَّر مدينة القدس بعد معركة حطين، وقال: **«هذه ظاهرة لا تكون إلا في السُّودان، لما فيه من تسامُح سياسي شائع بين السُّودانيين»**. ولكن من نِعَم الله علينا، أن الأحداث في ظِلِّ دولة العُصبة يأخذ بعضها برقاب بعض، إذ سُرعان ما ينكشف أمرها ويُذاع سرها. فبعد أقل من شهر، كان التسامُح السياسي السُّوداني يقف على أسنَة الرماح، وتحوّل بقُدرة قادر إلى رصاص وهراوات وغاز مسيل للدموع ومخلوط بدماء تقطع نياط القلوب. وفي التقدير، لم يكن ذاك اختباراً لمنهج التسامُح السياسي المزعوم، بقدر ما هو تعرية لأوهام حاول الإمام مداراة سوءته بها، أما العُصبة نفسها فلم تكُن في حاجة لكشف عوراتها، فتلك خُطى سارت على دربها منذ أن اغتصبت السُّلطة بدبَاباتها المُجنزرة بالكتاب والسُّنَّة!

كثيرٌ ما ذكرت في كتاباتي وقلتُ إن التسامُح السياسي السُّوداني المزعوم ما هو إلا محض فرية روَّجت لها النُخبة لتُخفي بها نقصُ القادرين على التمام، هو في حقيقته كعبتُهُم التي يطوفون حولها، ويعلقون على أستارها أخطائهم وخطاياهم، هُو ضربٌ من ضُروب الحُواة ليُخفوا به عجزهم وفشلهم، هُو نوعٌ من أنواع الأبلسة السياسيَّة التي دأبت عليها حتى تستطيع أن تواصل زحفها المقدَّس في التشبُث بالسُّلطة ولكي تصرف الأنظار عن المساءلة والحساب والعقاب، هو نهجٌ مارسته ثعالب العُصبة أيضاً فيما سُمِّي بـ"ديمقراطيَة رأس الذنب الطائر"، بحيث تستحوز على السُّلطة التنفيذيَّة لإفطارها، والسُّلطة التشريعيّة لغدائها، والسُّلطة القضائيَّة لعشائها. ومع ذلك، يطيبُ لها التحدُّث عن التسامُح السياسي السُّوداني بلسانٍ عربي مُبين!

بيد أن خلافنا حول المفهوم ليس لأن نقيضه يجري على الأرض، ولكن لأنه أساساً لا وجود له في عالم السياسة حتى لو كانت تدور وقائعها في مجتمع، تدثر بالطُهر والعفاف وتزمَّل بالشفافية والديمقراطيَّة. ذلك لأن السياسة منهج يستند على حقوق المواطنة وواجباتها في الدولة المدنيَّة الديمقراطيَّة. وتعلمون أن البشريَّة عرفت عوضاً عن ذلك ما سُمِّي بـ"التسامُح الديني"، وهو الذي انبثق من ركام حروب جرى فيها الدم أنهاراً، مثلما حدث في أوروبا على سبيل المثال،

وهو الذي كفل لدولها فيما بعد الاستقرار والتقدم والازدهار الذي تنعم به الآن. ومن المفارقات التي تجسِّد زيف ونفاق العُصبة الحاكمة، أنه في الوقت الذي كان ينبغي عليها الاهتداء بهذا الإرث الإنساني عملت على العكس تماماً، فعلاوة على التسامُح السياسي الذي أصبح تنابذاً سياسياً (وفق منهج نافع وصحبُهُ) أحالت التسامُح الديني إلى تناحُر ديني في حربٍ رفعت فيها شعارات "الجهاد" دجلاً وافتراءً. وجاءت ثالثة الأثافي في عصفها التسامُح الاجتماعي بالتفريق بين شعوب وقبائل وإثنيات أهل السُّودان، فبدلاً عن أن يتعارفوا وفق المنهج القرآني أصبحوا يتقاتلون طبقاً لدين العُصبة!

باسم التسامُح الديني، دشّنت السُّلطة بيوتاً لا يذكر فيها اسم الله وأحالتها لأوكار تمارس فيها البطش والتعذيب والتنكيل.. باسم التسامُح السياسي المزعوم لجأت العُصبة في بواكير عهدها بالسُّلطة إلى بث الرُّعب في قلوب الناس، فأقدموا على قتل ٢٨ ضابطاً وعشرات من صف الضُبَّاط والجنود في شهر لو استحلّ فيه صائم دم باعوض لاستوجب القضاء والكفارة، ثم قبرتهم وبعضهم كان يئن من الألم. باسم التسامُح الاجتماعي حصدت أرواح أكثر من مائة طالب في معسكر الخدمة الإلزاميَّة بمنطقة العيلفون، وآخرين كان سلاحهم القلم والألم في جامعات الخرطوم والجزيرة وكسلا والفاشر.. باسم التسامُح الاجتماعي، مارست هواية القتل والتنكيل في مواطنين أبرياء زادهم الصبر على المكاره في كجبار وبورتسودان ونيالا.. باسم التسامُح السياسي كان القتل غير المسبوق في تاريخ السُّودان لمتظاهرين عُزَّل في ضواحي الخرطوم ونيالا ومدني بتلك الصور التي أدمت قلوب ناظريها.. باسم التسامُح الاجتماعي تمَّ تشريد الملايين في دارفور وإزهاق أرواح مئات الآلاف، تواضع الرئيس "الضرورة" وقال إنهم محض عشرة آلاف لا غير، كأنهم يا مولاي "حزمة جرجير يُعَدُّ كي يُباع"، كما قال الشاعر الرَّاحل صلاح أحمد إبراهيم!

في الضفة الأخرى من النهر، هل يعتقد عاقل أن المغبونين والمظلومين والكاظمين الغيظ، يمكن أن ينتظروا عند المصب إلى أن تحمل المياه لهُم جثة عدوهم؟! إذ أن لكُلِّ فعلٍ رد فعل، كما تقول قوانين الطبيعة. فلنتأمَّل ظواهر باتت تسري بين الناس ويتفاقم أثرها يوماً بعد يوم. على أنني أتساءل هل رأى أحدكم أو سمع أو قرأ أن مواطناً سودانياً قذف حاكماً بكرسي أو "مركوب"، أو سمع كلمة حق في وجه سُلطان جائر، مثلما فعل محمد حسن البوشي مع نافع علي نافع، أو طُرد بطريقة مُهينة كما حدث مع نافع نفسه في مأتم الشهيد السنهوري بضاحية بُرِّي؟! هل استشعرت العُصبة تلك الكراهية التي انداحت بين الناس في مجالسهم وهُم غير ابهين لمآلتها؟! هل قرأوا هذا النقد المكثف في وسائل الإعلام المختلفة لدرجة بات المرء يتساءل عمّن هُم مناصروهم؟! هل أدركت العُصبة الغضب الذي بات يسيطر على كثير من الناس لدرجة كادت أن تفقدهم الكراهية وقارهم فيما يقولون ويسمعون ويكتبون؟! هل عرفت العُصبة أبعاد ومغزى السخرية

التي تزكَّت نارها وزاد أوراها؟! هل طرق دعاء المظلومين وتوسل المغبونين آذانهم؟!

إن العاقل من اتعظ بغيره والحكيم من تدبر أمره، والجاهل من كان عدو شعبه ونفسه. واهمٌ من يظن أن الكُرسي سيظلّ كرسياً ولن يتحوَّل لعربة مفخَّخة، وواهمٌ من يعتقد أن "المركوب" لن يصبح كلاشنكوف، وواهمٌ من يظن أن الكراهية والثأر مشاعر يتناولها الناس عند اللزوم، وواهم من يعتقد أن الغضب يظل قصيدة شعر حالمة، وجاهلٌ من يظن أن النيل لن يجري جنوباً.. لستُ زرقاء اليمامة سادتي، ولا ادّعي رجماً بالغيب، ولكنني بحِسِّ المواطن الذي يخشي على وطنه وقلبه على مواطنه، أقول إني أرى وميض نار أوشك أن يكون له ضرام، فعلى العُصبة أن تتحسَّس موقع أقدامها من قبل أن يأتي الطوفان الذي كانوا عنه يحيدون!

آخر الكلام: لابُدَّ مِن الدِّيمُقراطِيَّة وإن طال السّفر!!
٢٠١٣/١٠/٢٥

الانتِفاضة الشعبيّة الثالِثة.. هَلْ مِنْ سَبِيل؟!

يظن البعض وهُم آثمون، أن الانتفاضة الشعبيَّة الثالثة التي اشتعل فتيلها، وازداد أوارها، وكادت أن تطرح ثمارها في سبتمبر الماضي، قد توقف قطارها ولا سبيل من تواصُل مسيرتها نحو غاياتها النبيلة. ويذهب بعض آخر إلى ما هو أسوأ من التشاؤم، فيُشكِّكون في قدرة الشعب السُّوداني على إزاحة النظام الديكتاتوري البغيض من سُدّة الحُكم ورمي عُصبته في مزبلة التاريخ. ويوغل آخرون في التطيُّر، فتذهب بهم الظنون مذاهب شتى.. أدناها أن السُّودانيين رضخوا للأمر الواقع، وسئموا التشكيك في وطنيّتهم برُمّتها. ثمّ يحقنون هذه وتلك بفيروسات التيئيس والتخذيل والتبغيض، درءً لأي طموحات وزهقاً لأي أحلام. ثمَّ يصفعونك بأحاديث "المُؤامرة" حتى تكاد وطنيتك أن تصاب بالتزعزُع. وإذا عجزوا عن هذا وذاك، قالوا لك إن البلاد لا تحتمل صراعاً يذهب بريحها. أما "المتشائلون" فيدلقون على وجهك ما لن تستطيع معه صبراً، فيقولون لك: "نعم، الانتفاضة قادمة".. ولكن كيف ومتى وأين؟! ويطرحون أسئلة أخرى تتناسل كالأرانب، في حين يفترض أن يكونوا هُم مجاوبوها. بالطبع كل ذلك ليس بجديد عليك أيها القارئ الكريم، وأحسبُك تطالع بين الفيْنة والأخرى أحكاماً قطعيَّة على هذا المنوال، منها ما هُو في حكم سقط المتاع، ومنها ما يتمسّك به قائلوه ويُكابرون حوله كأنه قولاً منزلاً لا يأتيه الباطل من بين شدقي ناثره. ولأن هذا طريق لا يحتمل التأويل، فأظنكم تتساءلون: وأين يقف الكاتب؟! أقول ابتداءً، يكفيني فخراً إنني ما زلت "أؤمن بالشعب حبيبي وأبي"، بل أزيد ولا أزايد على شاعرنا الفطحل محمد المكي إبراهيم، وأقول: إنه أمي أيضاً!

لكن دعوني أوغل في تفاؤلي، واقرأوا معي قولاً وجيزاً ورأياً سديداً يُنزل الطمأنينة في قلوب سامعيه: **«قد علمتني تجربتي أن قوى الصراع الاجتماعي المُتفاعلة تكون دائماً مقبورة تحت السطح وتُظهر نفسها بطرُق مختلفة قبل مدَّة طويلة من انفجارها، وأن هذه القوى تظهر أوّل ما تظهر في قوَة الفكرة قبل أن تتبلور في أشكال تنظيميّة تتحدّى السُّلطة في وضح النهار»**.. هذه المقولة الرائعة خطها م. س. هاندار، وهو صحافي أمريكي جاب عوالم كثيرة وعايش أحداثاً ضخاماً في شرق وغرب أوروبا، شاهد شعوبها تصنع تاريخاً تليداً، وهو ما أصبح موضع حُكمه أعلاه. وقد جاء ذكر تلك العبارة في مقدِمة كتاب "السيرة

الذاتية" لمالكوم إكس، كما رواها كاتب "الجذور" إليكس هيلي، وقام بترجمته صديقنا البروفسير أحمد عبدالرحمن، الأستاذ السابق بجامعة الخرطوم والحالي بجامعة الكويت، وهو سفرٌ لا غنى عنه لمن أراد أن يمتع نفسه بالدهشة، ويُغرقها في بحور من التساؤلات الفلسفيّة العميقة. أما أنا، فقد فعلتُ، وأستمتع بقراءته هذه الأيام. وعندما وقعت عيناي على تلك العبارة البليغة كدتُ أن أصيح: "وجدتها.. وجدتها"، وأركض عارياً كما فعل أرخميدس من قبل. ولكن طالما أن ذلك لم يحدث، فأنا أدعو المتشائمين ليضعوها نُصب أعيُنهم، ويمكن لـ"المتشائلين" أن يتقلدوها تميمة في أعناقهم أيضاً!

إن التعليق على تُرّهات المُتشائمين وتبليس المتشائلين، يدعونا يا سادتي إلى أن نسبح أولاً في المياه الهادئة كما يقول الفرنجة في أمثالهم. نحن نعلم وأنتم تعلمون، أن الشعوب ليست حالة استاتيكيّة ساكنة، كما يقول الفيزيائيون. بل هي باختصار، قوى ديناميكيّة تتفاعل سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً مع واقعها، لتصنع حيواتها بصور مختلفة ووفق نُظم وأُطر داخل منظومة معيَّنة. وبناءً على ذلك لا ينبغي أن يصدر البعض أحكاماً نهائية في أمرٍ يتعلق بالشعوب وحراكها، اللهُمّ إلا إذا كانوا من ذوي الأغرض الدفينة وراء توصيفاتهم. وطبقاً لهذا فإن المتأمل أو المتابع لحركات وسكنات الواقع السُوداني، يمكن أن يقول بمنتهى البساطة إن الحالة الصامتة التي تكتنف الساحة السُودانية الآن، هي ذات الحالة التي كانت تغمرها قبيل اندلاع انتفاضة سبتمبر الماضي، ويومذاك لم تكن الانتفاضة في رحم الغيب فحسب، وإنما كانت نسياً منسياً في خُلد المتشائمين، وإن كانت جمرة تتقد تحت الرماد في أعراف المتفائلين. وبذا لكأنما تاريخ الأمس يعيد نفسه الآن. وذلك ما يعني أن إعادة انتاج التصوُّرات والتهيؤات من قبل المتشائمين أو حتى المتشائلين لن تحول دون أن تواصل الانتفاضة مسيرتها نحو غاياتها المنطقيّة!

من أجل هذا وذاك يمكن القول أن انتفاضة سبتمبر كانت عنصراً مفجئاً في أجندتهما، الأمر الذي حدا بهم أن يلوذوا بتفسيرات الطغمة الحاكمة مع بؤسها. والتي تقول تارة إنها كانت فعلاً عفوياً جاء على حين غرّة، وتارة أخرى تقول إنها عملا احتجاجياً جرّاء رفع الدعم عن المحروقات. بيد أن القراءة الواقعيّة كانت تشير لما حدث باعتباره انتفاضة نتجت عن تراكُمات ظلت تمور تحت السطح، وعندما اكتملت ظروفها الموضوعية، تحوّلت بعدئذٍ إلى فعل ثائر طالب برحيل النظام. لكن يمكن القول إن الهروب للأمام بتفسيرات مضللة من قبل النظام مرده إلى ثقافة الديكتاتوريّة التي تحاول سلب السُودانيين عشقهم للحريّة والديمقراطيّة، وأيضاً لتجنُّب القول بإنها كانت انتفاضة كرامة. ونستدل على الافتراض الأخير هذا بالتأكيد على أنها اندلعت في أعقاب حديث المشير البشير عن "الهوت دوق" و"الهمبرجر" ووزير ماليّته الهُمام عن "البيتزا" والمساكن

الخاوية على عروشها، وكلاهما كما تعلمون نهلا من قاموسٍ غني بالبذاءات والإساءات والانحطاط، التي شنفوا بها آذان السُّودانيين لسنين عدداً!

نخلص إلى أنه حتى لا يكون تفاؤلنا باستمراريَّة انتفاضة سبتمبر الثالثة مثل تشاؤم المُغرضين بانقطاع وصلها، دعونا نُورد من الأدلة والبراهين ما يُعضّد قولنا، ونطرح من العِبَر والدروس ما يقوِّي عزمنا بجعل استمراريتها أمراً ممكناً.

- **أولاً:** على الرغم من نفينا أنها انتفاضة جوع، وهو توصيف هدفت به العُصبة تقزيم طموحات الشعب السُّوداني في ملء وعاء بطنه كما ذكرنا، لكن دعونا نفترض أنها كانت كذلك، لكي نوضح المأزق الذي تعيشه العُصبة الآن. فالمعروف أن وقائع انتفاضة سبتمبر حينما بدأت، كان قرار رفع الدعم عن المحروقات وزيادة أسعار السلع الضروريَّة حبراً على ورق. أما وقد أصبح الان واقعاً عايش الناس بموجبه ضنكاً في العيش أحال حياتهم إلى جحيم، فإن ذلك من شأنه تعزيز فرص استمراريَّة الانتفاضة، بمنطق العُصبة السالف الذكر. وكأني أسمع شكوى الناس مرجلاً يئز الآذان أزاً!
- **ثانياً:** إن الأيادي المُضرَّجة بالدماء لم تدق على باب الحريَّة الحمراء بعد أو كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي. ذلك لأننا قلنا وسنكرِّر القول – إلى أن يسمع من به صمم – إن الدماء التي أريقت من أجساد المتظاهرين الشباب، فضلاً عن دماء سبقتها طوال رُبع قرن ستترتب عليها مساءلات جنائيَّة وسياسيَّة واجتماعيَّة وأخلاقيَّة ونفسانيَّة لم تفتح صحائفها بعد. ورغم وضوح الرسالة فما زالت العُصبة سادرة في جهلها، ولم تع التغيير الذي طرأ على الذهنيَّة السودانيَّة بفعل مسلكها الذي جعل "التسامُح السياسي السوداني" مجرّد ريشة في مهب الريح!
- **ثالثاً:** إن الانتفاضة كانت نتاج تراكُمات لقضايا كثيرة على رأسها الاقتصاد، وذلك بعد أن عاثت فيه العُصبة فساداً، وأهدرت موارد البلاد ووضعتها على شفا حُفرة من الإفلاس. ولعلَّ الناظر للساحة الآن يُدرك أن هذه القضايا ازدادت تعقيداً، ولا سبيل لحلها أو حتى بناء آمال في حلها. الأمر الذي حدا بهم إلى الركض يميناً ويساراً بلا جدوى. ومِن ضمن سعيهم، لجأوا إلى دول عربية شقيقة كانت مغيثاً للسُّودانيين في كربهم وأزماتهم، ولكنها على العكس تماماً تمنَّعت بإذلال أراق ماء وجوهنا تحن شعب الله المحتار، الذين لا نملك رصيداً في هذه الدنيا سوى كرامتنا وعزتنا وكبرياءنا وهُم يعلمون!
- **رابعاً:** مِمَّا لا جدال فيه إن الانتفاضة خلقت واقعاً آخراً في صُعد العُصبة الحاكمة، منها بروز تكتلات أسفرت عن نفسها حتى الآن في مجموعتين، أعلنتا انسلاخهما في انقسام جديد. وبالرغم من أن أسبابهما لا تعني المعارضين الحقيقيين للنظام في كبير شيء، إلا أنه لا يمكن التقليل من

تأثيرهما على صعيد العُصبة نفسها. واستطيع أن أؤكد أن ثمَّة انقسامات أخرى قادمة، وهي التي ستأتي حاملة في أحشائها ما تنبأنا به فيما أسميناه في مقال سابق بـ"ليلة السكاكين الطويلة" وهو اليوم الذي ستزوغ فيها الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر!

- **خامساً:** ومِمّا لا جدال فيه أيضاً أن الانتفاضة كسرت عنجهيّة وصلف واستعلاء النظام، وتذكرون حينما اتسع محيطها وأصبحت تنذر بأفول شمسه، توارت العُصبة كما تتوارى الجرذان في جُحُورها. ومن المفارقات، أن الوجوه التي طالما انتفخت أوداجها بالتهليل والتكبير تركت المشروع الحضاري في العراء، ولم يجد من يستر عورته سوى المُؤلفة قلوبهم! بل حتى الرئيس الراقص اختفى من الصورة، ولم يستطع ممارسة هواية الرقص على أشلاء ضحاياه، إلا بعد ما ناهز الثلاثة أسابيع!

- **سادساً:** اضطرب خطاب العُصبة – وما زال – في الاعتراف بالقمع المُفرط الذي مارسوه حيال المتظاهرين.. على سبيل المثال في المقابلة التي أجرتها قناة 'الجزيرة' مع علي عثمان محمَّد طه نائب الرئيس يوم ٢٠١٣/١١/٦، وفيها أدلى باعترافاتٍ في ذلك الشأن من المُمكن جداً أن تقوده إلى محكمة الجنايات الدوليّة في لاهاي. وفي واقع الأمر، أن العُنف المُفرطُ والتخبُّطُ في عدد الضحايا وطرق قتلهم هُو خطابٌ تلجلجت فيه العُصبة كلها. ففي الوقت الذي أكدت فيها العديد من منظمات المجتمع المدني السودانيّة والمنظمات الناشطة في مجال حقوق الإنسان الدوليّة وعلى رأسها منظمة العفو الدوليّة أن عدد الضحايا تجاوز الـ ٢٠٠ شهيداً، يقول طه وصحبُهُ أنهم ٨٤، وقد سبق ذلك طوافهم على أرقام عدة منها ٧٠ قتيلاً وفي بداية الانتفاضة قالوا بنهم ٣٤ قتيلا، ومارس عبدالرحمن الخضر والي الخرطوم الاستهانة بالأرواح في اسطع معانيه، وذلك في قوله إنهم يتراوحون ما بين ٦٠ إلى ٧٠ قتيلاً. لكأنهم "حزمة جرجير يُعدُّ كي يُباع"، كما قال الشاعر الرَّاحل صلاح أحمد إبراهيم. وفي واقع الأمر، فإن العُصبة تعتبر معارضيها إن كانوا أحياء أنهم مجرّد عملاء ومخرّبين ومندسّين، وإن كانوا أمواتاً فلا ثواكل لهُم حتى يستحقوا الإحصاء!

- **سابعاً:** لم تكن الانتفاضة درساً للعُصبة وحدها، فقد كانت كذلك لمعارضيها أيضاً. نسبة لأنها كانت انتفاضة شبابيّة خلقاً وابداعاً وتنفيذاً، فقد اسقطت وهم البديل الذي سيخرُج من رحمها. في تقديري، أن الذين ينظرون لتقاعُس "السيّدين بعين الريبة والشك يهدرون وقتاً ثميناً ويضيعون جهداً مقدراً، فمنذ متى كان السيّدان في طليعة انتفاضة شعبيّة؟! فما اعتبره البعض تخاذلا ينسجم تماماً مع طبيعتهما الطائفيّة ومع طبيعة شخصيّتهما. ومع ذلك فالذين

يُعوّلون على مواقف متقدِمة منهما كأنهم يدعون هذا الشعب الصابر إلى إعادة انتاج أزمته. يا سادتي، دعوا السادة في نومهم يغطون!

صفوة القول، جفّت الأقلام وارتفعت الحناجر، لقد خلخلت الانتفاضة أوصال الدولة الظالمة، واصبحت فرضُ عَيْن على كُلِّ من امتلك حساً إنسانياً ضد نظامٍ داسَ على الكرامة السودانيَّة وسلب السُّودانيين حريَّتهم وديمقراطيَّتهم وسامهم سوء العذاب. وستظل هكذا فعلاً مستمراً طالما أن الظروف التي أوجدتها ما تزال قائمة، ولو كره تُجَّار الدُّنيا والدِّين ومَن لفَّ لفهُم من المُنافقين!

آخر الكلام: لابُدَّ مِن الدّيمُقرَاطِيَة وإن طَالَ السَّفر!!
٢٠١٣/١١/٩

ودَنَت ساعة التِفاف السَّاق بالسَّاق

في البداية، أرجو ألاّ تسأموا أو تضجروا، أو حتى تيأسوا من تعابير ظللنا نكرّرها في الآونة الأخيرة، ومن ضمنها العُنوان أعلاه، أو عن إيمان العجائز حول حتميَّة سقوط نظام العُصبة ذوي البأس، أو ما سَبَقَ وتنبأنا باحتمال حدوثه عن "ليلة السكاكين الطويلة"، تلك التي أوردنا فيها حيثيات نكاد نراها رأي العَيْن، برغم المسافات الطوال التي تفصلنا عن وطن بات يقف حائراً بين الألم والأمل. أما وإن كنتُ اليوم سأكتب استناداً على معلوماتٍ جديدة توفرت لنا فيما سبق ذكره، أرجو ألا يسألني سائل عن عذابٍ واقع على عُصبة فتحت الباب على مصراعيه لكُلِّ وسائل التغيير، والبادئ أظلم، كما تعلمون. فهذه العُصبة التي تحكَّمت في حاضرنا ومصائرنا، قبرت ما سُمِّي بـ"التسامُح السياسي السُّوداني" في أسفل سافلين، شيَّعت المُثل والقيم والأخلاق السودانيَّة إلى مثواها الأخير، حرمت حلالاً ساقه الله رزقاً على عباده، وحللت سفك الدم الحرام والتنكيل بالمعارضين، عبثت بعقيدة من جُبل على دين الإسلام بالفطرة فوضعتهم بين خيارين، إما أن يفروا بدينهم أو يفروا من دينهم. وفي كُلٍ، لو أن أبا الطيِّب المُتنبي عاش بين ظهرانينا، لكان المواطن السُّوداني المغلوب على أمره، هو من عناه بقوله: «**كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً**»!

دعونا من المعلومات وأسرارها وليُحكِّم كلٌ منا عقله، ويفتح عينيه على هذا الواقع البئيس. انظروا وقولوا لنا: ماذا ترون في بلد وصلت حد الإفلاس؟! ما الذي ستقولونه عن فسادٍ صَمَّم صانعوه على استنزاف موارد هذا البلد حتى آخر قطرة؟! ما الذي ستقولونه عن عُصبة استبدّت لدرجة بات فيها الرئيس الضرورة يمن على الناس بتوافه الطعام عند أصحابه "الهوت دوق" ووقواقة كمهدي إبراهيم يدمغنا بما لا عين رأت ولا أذُن سمعت عن رفاهيَّة حلت بنا في الأيام الغابرة، و"طفل معجزة" كمصطفى عثمان يمارس فينا هُوايته في الجهل، فينعتنا بالشحادة، كأنه ليس في وجوهنا مُزْعة كرامة، وهي آخر ما تبقى لنا من موروث نفتخر به في هذه الدُّنيا الفانية، وإمَّعَة كعلي محمود عبدالرسول وزير المالية الذي اختلطت عليه حسابات الحقل والبيدر، إذ رأى فيما يرى الواهم أن الذين امتطوا الدواب الفارهات، وسكنوا القصور العاليات، ولم يروا في القرآن سوى اية النكاح، هُم السُّودانيون الذين يحكمون. في حين غضَّ البصر عن الذين يتضورون

جوعا، ويشهقون معاناةً، ويزفرون أسىً، في بلادٍ أصابت فيها عُصبته البشر فأفقروها ومسوا فيها الحجر فقسّموها!

دعوكم من قولهم ومن قولنا أيضاً، وأجيلوا النظرين، فماذا ترون في الأفق؟! بعد رُبع قرن، يقف الناس صفاً بحثاً عن الخُبز والصبر.. بعد رُبع قرن، يصل ثمن كيلو الطماطم نحو ٢٥ جنيهاً وهي طعام الفقراء والمساكين والمُؤلفة قلوبهم.. بعد رُبع قرن، ليس سعرها فحسب، بل ذات الطماطم تُستورد من أثيوبيا، ويتبعها الثوم من إيران، ويزيد عليهما السكر من الجزائر، وما زال هناك من يردّد بأن البلد الذي يتسوّل طعامه سيكون سلة غذاء العالم؟! هل يُصدّق عاقل أن الحصول على اللحم صار حُلماً متمنعاً في بلد الثروة الحيوانيّة فيه تُقارب عدد النجم والحصى والتُراب؟! انظروا في الأفق، هل ترون ديوناً وصلت لأكثر من ٤٣ مليار دولار وكانت نحو رُبع ذلك يوم أن سطوا على السُلطة؟! هل ترون أكثر من ٧٠ مليار دولار من مُدخلات البترول وقد ذابت كما يذوب الآيسكريم في أفواه ابناء العُصبة؟! انظروا فهل ترون شباباً عاطلاً، بلغ بحديث النسَب نحو ٤٧%، ومنهم من بات يلوذ بالمُخدرات والخُمور للهروب من هذا الواقع الأليم؟! أمعنوا النظر، فهل ترون بنوكا على شفا حُفرة من الانهيار؟! لعلكم أدركتم لماذا صار الإنسان السُوداني رخيصاً إلى درجة يُعاذ فيها تصديره إلى بلاده بعد هروبه من جحيمها؟! انظروا مُثنى وثلاث ورُباع، فلن ترون سوى بلد وصل حدّ الإفلاس، اقتصادياً وسياسياً وفكرياً وثقافياً، وسدنتها ما زالوا يُكابرون بدرجةٍ تضاءل فيها الأبالسة وتقزّم الشياطين!

دعكُم من قولهم وقولنا، فسوف أذر على سمعكم قولاً ثقيلا نطق به الاخرون. فكلنا سمع بقائد عبقري اسمه مهاتير محمّد رئيس وزراء ماليزيا السابق وصانع نهضتها الحديثة. ففي نوفمبر من العام الماضي، عنّ للعُصبة الحاكمة أن تدعوه لمؤتمرٍ من مؤتمراتهم التي لا تُحصى ولا تُعد.. احتفوا به وفي نفوسهم شيءٌ من حتى، وتحدّثوا إليه كمبعوث رسالي وفي أصواتهم غُنّة، فقالوا: كيف يمكن أن ننهض ونصبح مثل ماليزيا؟! لم يقُل الرَّجُل لهُم حياءً إنهم في ماليزيا تعايشوا بمللهم ونِحلِهِم في بلد متعدّد القوميات والديانات واللغات.. لم يقل لهُم إنهم لم يدَّعوا زوراً أن الله تبارك وتعالى ابتعثهم لإخراج الماليزيين من الظلمات إلى النور.. لم يقُل لهُم إنهم جعلوا بينهم وبين الفساد سدا، وحالت الديمقراطيّة بينهم والاستبداد.. صمت الرّجُل، وقال بإيجاز مقصود: «**إذا أردتُم أن تُصبحوا مثل ماليزيا فعليكم بإرجاع مبلغ الـ ١٣ مليار دولار المُودعة في بنوكنا، فماليزيا ليست في حاجة لها وبلادكم أحوج**».. ثم استقلّ طائرته وعاد أدراجه!

تلك ساق – يا رعاك الله – ولكن أين الساق الأخرى التي سيُساقون فيها إلى حتفهم. لا شكّ أنكم كُنتُم تعلمون مثلي أن العُصبَة يتنازعها فريقان طيلة

سنوات ما بعد انقسامها أو مفاصلتها في العام ١٩٩٩ الأولى عُصبة علي عثمان محمَّد طه، والثانية عُصبة نافع علي نافع. وهذان الفريقان ظلا يتصارعان في الكواليس مداً وجزراً، بمعنى أن فريقاً يستقوي على الآخر في مرحلة ما وفقا للظروف المحيطة حتى يظن أن الدولة "السايبة" قد دانت له. لكن فجأة تتغيَّر المُعادلات، فيظفُر الطرف المستضعف برداء الطرف القوي فيُوحي لناظره أن الدولة المهترئة جاءته تجرجر خيبتها، وهكذا دواليك، كما يقول اللغويون. أما الواقعيون، فيقولون إن الفريقين انشطرا الآن لنحو عشر فِرَق، ليس من بينهم فِرقة ناجية. فدولة العُصبة الآن هي محض جُزُر لا رابط بينها غير الشحناء والبغضاء والمكائد التي يحيكونها لبعضهم البعض، بدرجة فاقت ما كان دائراً في أروقة قصور خُلفاء الدولة الأمويَّة والعبَّاسيَّة معاً!

في خِضَمِ تلك المعمعة التي تسمع لها تغيظاً وزفيراً هذه الأيام، انتقل الرئيس الكذوب من حالة الديكتاتوريَّة الجماعيَّة إلى ديكتاتوريَة الفرد، وبات يتحكَّم في مسار الدولة وفق أهوائِه، ويطارده هاجس التآمُر الذي شارك في نظم خيوطه من قبل، ويُقلقه نبأ المحكمة الجنائيَّة وإن تطاول الزمن. ولعمري فقد صَدَقَ "خاله الرئاسي" المدعو الطيِّب مصطفى في حديثه لوكالة الأنباء الفرنسيَّة قبل بضعة أيام (٢٠١٣/١١/٢١) وأفصح فيه عن خائنة الأعيُن وما تُخفي الصدور، فقال: «**...يريد الاستمرار في السُلطة ليحمي نفسه من المحكمة الجنائيَّة الدوليَّة التي أصدرت مذكرات اعتقال بحقه بتهمة ارتكاب جرائم حرب وجرائم ضدّ الإنسانية في إقليم دارفور**».. وزاد أيضاً بما كان يستحي من ذكره من قبل: «**لا أحد من الحزب الحاكم يجرؤ على الوقوف في وجه البشير، وأن قيادات المؤتمر الوطني يتبعونه مثل قطيع من البهائم التي تتبع الراعي**».. ولعلم الذين لم تحفظ ذاكرتهم ما كتبنا من قبل، وهم غير ملومين، نقول إن المنعوت بديكتاتوريَة الفرد هذا كان قد طرح نفسه فيما سبق طرفا مُحايداً بين عُصبة علي عثمان وعُصبة نافع علي نافع بدعوى أنه مُتَّفَقٌ عليه.. ولنتأمَّل الآتي الذي يزيح بعض الغيوم!

كخلفيَة ضروريَّة لما نود أن نقول، رَحَلَ قبل أيام قليلة خلت عبدالوهاب محمَّد عثمان، غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وهو بين يديه الآن.. المذكور عُرِفَ بين عُصبته بالدقة الشديدة والنزاهة، ولكنه لم يشذ في ما ظلوا فيه متفقين من صفات أخر.. كانت وزارة الصناعة هي آخر منصب شغله عبدالوهاب قبل رحيله، وهو ختام رحلة طويلة، بدأت منذ أن تسلمت عُصبته السُلطة في يونيو ١٩٨٩، وللذين لم يقرأوا كتابنا الأخير "الخندق.. دولة الفساد والاستبداد"، الذي صدر العام الماضي، نقول: كان عبدالوهاب ضمن منظومة "السواقين"، وهي خليَّة من الأجهزة الخاصَّة، تضم مدنيين موصولين بالعسكريين ليكونوا وُسطاء بينهم والقيادة التنظيميَّة للانقلاب. وإلى جانبه، كنا قد ذكرنا أيضاً علي كرتي وأحمد علي الفشاشوية والزبير محمد الحسن ومحمد حسن المقلي (شقيق عبدالله

حسن أحمد) وعلي الروّي - والأخيران انتقلا للدار الآخرة - وآخرون (أنظر الخندق.. الفصل الثاني بعنوان: النوم مع الشيطان، ص ١١٤)، ومُذَّاك الزمن تمرحل عبدالوهاب في علاقته حتى أصبح مقرَّباً من المشير البشير أو الحاكم بأمره الآن. ويستدل العالمون ببواطن الأمور على الإيثار في مسألة استقالته من منصبه بعد فضيحة مصنع سكر النيل الأبيض، والذي كان مخططاً أن يشهده وزراء مجموعة بنك التنمية الأفريقي. فقد كان حامل الاستقالة والمحمولة إليه يعلمان أنها محضُ مسرحيَة نُزع عنها الستار!

بَيْدَ أنه بين المنصبين كان الراحل عبدالوهاب قد تقلد منصب مدير عام شركة "دان فوديو" وهي بُؤرة ضمن بُؤر الشركات الأمنيَّة العديدة، بجانب أنها عُرفت بكونها معقلاً من المعاقل العتيدة في الفساد، ونستدل بقصة واحدة لأولي الألباب، وذلك لارتباطها بمسألة تقلد الرَّاحل منصب مديرها العام. الرواية تقول إن شخصاً اسمه إبراهيم موسى، ليس كسمِيّه - عليه السلام - وإنما على العكس تماماً، فهو يُعَدُّ من جلاوزة العُصبة الفاسدين والمُفسدين، وهو أيضاً ابن عم علي كرتي، الذي يشغل منصب وزير الخارجيَّة الآن في دولة الكُهْنَة. واجمالاً، فهو أخطر ما أنتجته الحركة الإسلامويَّة في الإجرام، وأفسدها في المال، وأولغها في الدم.. سرح وصحبُهُ في شركة "دان فوديو" بلا رقيب أو عتيد.. أثناء ذلك، كانت فضيحة رجُل الأعمال السعودي عادل بترجي سنام فساده هو ورهطه. فقد استولوا من المذكور على أكثر من عشرة ملايين دولار بقانون "وضع اليد"، الذي برعت فيه العُصبة تشريعاً وتنصيصاً وفهلوةً. وكان بترجي قد هوى لدولة الصحابة يرجو لملايينه استثماراً يُضاعفها. والذي حدث بعدئذٍ، أن عَهَد كِبار العُصبة إلى أحدهم من الاقتصاديين بالتحقيق في ذلك الملف. لكنه إثر تلقيه تهديداً ووعيدا طلب الحاكم بأمره من عبدالوهاب عثمان أن يتولى الملف بالعناية المركَّزة، ومن ثَمّ إدارة الشركة كلها.. وقد امتثل!

طبقاً لهذه الخلفيَة التاريخيَّة، كان الحاكم بأمره قد عهد أيضاً إلى عبدالوهاب بملفٍ آخر قبل نحو ثلاثة أشهر من رحيله. والملف المُحال يدخل ضمن المقاصات التي تشهدها جُزُر العُصبة هذه الأيام، فثمَّة جزيرة ضجرت من فساد أسامة عبدالله المحظِي بحصانة لا تخفى على الناظرين، (كنا أيضاً قد نشرنا في الخندق ص ٣٥٠ قرار تعيينه رقم ٢١٧ لسنة ٢٠٠٥ وفيه استثناء من المحاسبة من قبل أي جهة حكوميَّة، لدرجة كاد القرار أن يلحقها بعدم محاسبته من خالقه جلَّ وعلا)، على كلٍ بمنطق "إيَّاك أعني فاسمعي يا جارة" تمَّ الطعن في ذمَّة عبدالعاطي هاشم الطيّب المسئول المالي والإداري في وحدة السُدود، والأهم أنه الساعد الأيمن لأسامة بن عبدالله (كان صديقنا الزميل عبدالرحمن الأمين قد نشر نذراً من فساده – 'الراكوبة' ٢٠١٣/٤/٣) بعد فترة وجيزة أعاد عبدالوهاب عثمان ذات الملف للرئيس الحاكم بأمره، وقال له إنه لا يحتاج لتدقيق وإنما يحتاج للنيابة العامة مباشرة.. تبعاً لذلك، أودِعَ عبدالعاطي السجن، فارتبكت حسابات

أسامه بن عبدالله ورهطه في المنظومة، واللبيب بالاشارة يفهم. وواقع الأمر، ظلَّ أسامة بن عبدالله طليقاً ولم يحُل بينه والسجن سوى تلك العلاقة الغامضة مع الرئيس الحاكم بأمره، والتي لم يفُكَّ البعض طلاسمها، سوى أن أسامة هو عرَّاب زيجة البشير الثانية (وداد بابكر) وبها صار من المقرَّبين!

لكن الذي صار كانت للأقدار فيه يدٌ لا تُرى بالطبع إلا عند حدوثه. فبعد فترة قصيرة من تسلمه ملف أسامة بن عبدالله وفي معيَّته عبدالعاطي هاشم الطيِّب، والذي رمى الأخير هذا في غياهب الجُب لفترة قصيرة، ظهرت على عبدالوهاب أعراض ألم في الحبال الصوتية وتغيَّر فيها صوته. سافر على إثرها إلى ألمانيا وعاد منها مستشفياً، ثم فجأة ظهرت عليه أعراض مرض في القلب وشُخِّصَت حالته بماء في الرئتين، فغادر على إثرها أيضاً إلى الأردن إذ صعدت روحه إلى بارئها بعد أربعة أيام.. المفارقة التي تشبه العُصبة وأفعالها، وقد تُدهش الذين لا يعلمون، أن الذي غادر مع الرَّاحل عبدالوهاب عثمان وعاد مع جثته من الأردن كان هو أسامة بن عبدالله! لهذا فاعلم - يا هداك الله - إن رأيت دموع العُصبة تنهمر على فقيدٍ بمثلما شاهد البعض الحاكم بأمره، فأيقِن أن وراء الدموع مكائد ودسائس ومؤامرات!

كفى بالعُصبة الموت واعظاً، وقد دنت ساعة التفاف الساق بالساق!

آخر الكلام: لابُدَّ مِنَ الدّيمُقرَاطِيَّة وإن طَالَ السَّفر!!
٢٠١٣/١١/٢٨

صلاة الغَضَب على جنازة الحَرَكَة الإسلاَمَوِيَّة

تعلمون - يا سادتي - أنه لم يخلُ مقال لنا من مرارة منذ أن تسنمت العُصبة ذوو البأس السُلطة في هذا السُودان الصابر أهله، وبالتالي لن يكون غريباً إن جاء حديثنا في هذا المقال حامضاً ولاذعاً ومُفرطاً في نقده، وإلا فقُل لنا يا صاحِ، ما عسانا أن نفعل غير الاستمرار في مقاومة الظُلم ومحاربة الاستبداد وتعرية الفساد، ليس كفرض عين فحسب، وإنما كمبدأ ورسالة مقدسة لا تحيد؟! ولا يغُرَنكم الأبالسة إن تمطت سنواتُهُم وتثاءبت سُوءاتهم وناءوا بفسادهم على صدورنا.. فنحن ما زلنا نرى في الغد المأمول فرحاً يشع نوراً ليبدد ظلامَنا ويُفرّج كُربنا ويُعوّضنا خيراً يلحقنا بالإنسانيّة ومسيرة التقدُم والازدهار. ومع ذلك نرى أن من حق القارئ الكريم - حامل صخرة "سيزيف" بصنوف عذاباتها - أن نخفف معاناته بالتبسُم في وجهه، لعلّ في ذلك صدقة نُؤجَر عليها معاً. من هذا المنطلق، لا بأس إذاً أن نبتدر مقالنا هذا بنكتة أرسلها لنا صديق عزيز فأضحكني كما لم أضحك من قبل، إذ صادفت هوىً في نفسي ووجدت ملاذاً رحباً بتزامنها مع الواقع المؤلم. فنحن - يا سادتي - قومٌ من فرط ما تلقينا من رزايا الأنظمة الديكتاتوريَّة وحكومات "الحجِي والدجل والكُجور" صرنا حيارى، إذا حزن المرء جرَّاء بلايا داهمته استغفر الله، وإذا ضحك لأمر باغته استغفر الله ايضا! على كلٍ، كانت النكتة بمناسبة كرنفال ما سُمّي بـ"التعديل الوزاري" أو الحدث الذي شغلت به العُصبة خلق الله ونامت ملء جفونها عن شواردها. تقول: كان هناك أحد المنتمين لفئة "أصحاب المزاج العالي"، وحدث أن كان يمارس هوايته تلك في غرفة مغلقة بها شُبَّاكان مفتوحان ذات اليمين وذات اليسار، وفجأة دخل عليه عصفور من الشباك اليمين وخرج من الشباك الآخر. وهنا انتفض صاحبنا مذعوراً بقلبٍ كاد أن ينخلع من قفصه. فنظر باتجاه العصفور وقال له بصوت كسير: يعني عملت شنو بالله؟!

(٢)

لم أشغل نفسي كثيراً بهذا التعديل الوزاري، والذي لم يعنِ عندي شيئا أكثر من انطباع صاحبنا هذا عن العصفور وما فعل. فهو - في تقديري - مجرَّد مسرحية من مسرحيات كهنة العصر الجديد. مع ذلك ربّما كان الأمر مفهوماً في تكالب العُصبة نفسها - ممن عزّ فطامها - نحو سلطة أدمنوها أو تهافت المتطلعين

للتزوُّد من فسادها أو تطلع الانتهازيين الذين يريدون الاستمرار في أداء فروض الولاء والطاعة. ولكن ما لم يكن مفهوماً، كيف انطلت هذه اللعبة الابتزازيَّة على القوى السياسيّة المعارضة وبعض الأفراد - ونحن فيهم - فانشغلوا بها؟! فهي على الأقل "شهر ليس لدينا فيه نفقة"، كما يقول المثل السُّوداني الدارج، كما أنها ليست عصا سحريَّة لتحيل هشيم السُّودان إلى جنة تجري من تحتها الأنهار. ففيم التكعكع والتلكع والتسكع إذن؟! في واقع الأمر إن مثل هذا الاهتمام العشوائي يجب أن يحفِّزنا لضبط كثير من المصطلحات الخاطئة. كأن يكتب البعض عن الدستور الذي تمَ خرقه، أي دستور يا سادة ونظام العُصبة نفسه هو من سطا على سلطة ديمقراطيّة اغتصب شرعيّتها ومزق دستورها إرباً إربا؟! وفي تقديري أنه نظراً لفعله الحرام هذا، ظلَّت مسألة الشرعيّة الدستوريَّة هاجساً مؤرقاً للنظام وسدنته، بدليل أنهم حاولوا التحايل عليها كثيراً. مرَّة تحت مُسمَّى "الإجماع السكوتي"، وثانيةً تحت مظلة "التوالي السياسي"، وثالثةً بانتخابات زُوِّرت جهاراً نهارا وأطلق عليها تندراً انتخابات "الخج"، ولم يبالوا. لهذا يظل هذا النظام نظاماً انقلابياً غير شرعي رغم أنف يوسف القرضاوي شيخ مشايخ قبيلة الإسلام السياسي، الذي حاول الأسبوع الماضي نزع هذه الصفة منهم، بدعوى تقادُم سنينها، والحقيقة لم يكن ذلك سوى تزلف قصد به درء ازدواجيَّة المعايير في حكمه على ما حدث في بلاده الأم "مصر"، بل إن المُضحك المُبكي إمعان العُصبة نفسها في مزيدٍ من التحايل، فها هُم يفعلون ما فعله فرعون بقِلَّة عقله، حيث ما زالوا يتشبثون بدستور "نيفاشا" مع أن شريكهم فيه نال غنيمته ومضى إلى بناء دولته. فيا من تودون الخوض في مسألة التعديل الوزاري، يُرجى وضع ذلك في سياق ما تحكمون!

(٣)

أما إن شئنا الابتعاد عن التجزئة وتجارة "القطاعي" التي لا تحرِّك حجراً ولا تخدم غرضاً، فلننظر للمسألة بصورة أكثر شمولاً، ونكرِّر ما سبق وقلناها عن مآلات تتزايد احتمالاتها يوماً إثر يوم. فما حدث بالمنظور الواقعي يُمكن حصره في خمس نقاط لعلها تفسِّر وتحدِّد مسار النقع فوق رؤوسنا وكفى.. **<u>الأولى:</u>** أن ما حدث هو تعبيرٌ عن فشل مشروع بائر أصلاً، وبالتالي ما حدث هو هروب للأمام كسباً للوقت. إذ يبدو أن العُصبة - كمن عِرف الديار بعد توهُّم - أدركوا أن الأنشوطة اشتدّ وثاقها سياسياً واقتصاديا وثقافياً واجتماعياً وآيديولوجياً حول رقبتهم.. **<u>ثانياً:</u>** ظلَّ وما فتئ هذا النظام يحمل بذرة فنائه في جوفه، ولم يكن بقاؤه كل هذه الفترة جرَّاء قوة ذاتيَّة بقدر ما هو نتيجة ضعف القادرين على التمام كما تعلمون. وأيا كانت الأسباب، فالعبر بالخواتيم، والتي تقول الان - بلا شك أو تردُّد - إن الرحيل أصبح وشيكا، ليس هذا فحسب، بل ومكلف أيضا، في إطار العُصبة من جهة وبينها وبين مُعذِّبيها من جهة أخرى.. **<u>ثالثاً:</u>** كتبنا عن الفساد حتى كلت ايدينا ولن نعيد ما ذكرنا ولكن لابُدّ أن يستصحب المراقب مزيداً من

الإرهاق للميزانية العامة إذ سيستمر السّلف في نعيمهم ويفتح الخلف نفاجاً لفسادٍ جديدٍ. ويطيب لي للتذكير أن أطرح عليكم هذه المعادلة الصفريَّة ودعكُم من كل قول ثاقب عن الفساد وقصصه، ونعيدها بناءً على ما أكده الدكتور الطيّب زين العابدين في أن راتب أحمد إبراهيم الطاهر رئيس المجلس الوطني يبلغ ٣١ مليون جنيه سوداني شهرياً ولم يستطع صاحبه له دحضاً، وهو من بقي في هذا المنصب نحو ١٣ عاماً (٣١٠٠٠٠٠٠×١٢×١٣= ٤٨٣٦٠٠٠٠٠٠) أي أربعة مليارات وثمانمائة وستة وثلاثين مليون جنيه، هي عبارة عن راتبه في تلك السنوات التي ظلّ فيها لابثاً في كهف المجلس الوطني، حدث هذا في بلد راتب طبيب الامتياز فيه يبلغ ٦٠٠٠٠٠ جنيه فقط لا غير، فراتب الطاهر هذا يساوي ما يناهز الخمسين ألف مرَّة راتب هذا الطبيب لنفس الفترة! أي عدلٍ يرومه المستغفلون في قادمين جدد هؤلاء قدوتهم؟! **رابعاً:** الأمر ببساطة، ستختفي الشخوص، ولكن ستبقى الظلال شاخصة أبصارها على كل صغيرة وكبيرة، وها هو من تبرَّأ منه لسانه يقول بكل بجاحة أنهم سيسلمونها لعزرائيل.. **خامساً:** إن من يود الغوص في الأعماق لرؤية ذلك الثمن الباهظ، عليه إعادة قراءة تاريخ الدولة الأمويّة والعباسيَّة وما كان يُحاك في القصور وخائنة الأنفس، وهل يعتقد برئ أن للعُصبة تاريخاً أقل سواداً. غافلٌ من يظن أن الدماء التي أُهرقت، والأرزاق التي قُطعت، والنفوس التي عُذبت، والكرامات التي امتهنت، سيصفح ضحاياها صفحاً جميلاً ويقولون عفا الله عمَّا سلف!

(٤)

وطالما خُضنا في هذا الأمر مع الخائضين، هاكم المنظور الشكلاني في مسرحيَّة تُجَّار الدين والدُّنيا. تأكيداً لما ذكرنا أعلاه لن يقول الأبالسة إن ما حدث هو نتيجة "انتفاضة سبتمبر" حتى وإن حاول أن يقلل من شأنها التبخيسيون والمُخذلون، ولكن انصت لتُرَّهاتِهم، ستسمع بعد حين من يقول إن الذي ابتعثهم ليملأوا الأرض عدلاً قد أوحى إليهم بإخراج تلك المسرحيَّة. أليست هذه لغة ناهزت رُبع قرن حتى مللنا سماعها؟! إذن ما الجديد الذي يمكن أن يأتي به القادمون ولم يستطع أن يحققه الأولون؟! هل يعقل لمن تمرَّس على القتل وحياكة المؤامرات أن يبقِي ظهره مكشوفاً في انتظار قدره؟! هل يظن عاقل أن رؤوس الفتنة في العُصبة بدءً بعلي عثمان طه مروراً بنافع علي نافع وانتهاءً بعوض الجاز ومن لف لفهم، سيكتفون من الغنيمة بالجلوس في منازلهم واجترار الذكريات؟! بيد أنني أرى أن المسألة أكبر مما يظنون، فهي - يا سادتي - تحرير شهادة وفاة دولة المشروع الوهمي، وهاكم البراهين التي تلقف ما يأفكون.

(٥)

في يوم ١٩٦٥/١١/٩ وقف شاب اسمه شوقي محمَّد علي وتحدَّث معقباً في ندوة عامة بمعهد المعلمين العالي بمدينة أمدرمان، وكانت بعنوان "الإسلام والأخلاق"، أو "المجتمع والبغاء" وتناول في مداخلته موضوع حديث الإفك.

وقيل أنه تعرّض فيه لإحدى زوجات الرسول الكريم. كان عمره آنذاك ١٩ عاماً ولم يقُل انه يتحدّث بهُويّة حزبٍ مُعيّن، وبالتالي كان يمكن الرد عليه أو حتى مقاضاته في ذاك الإطار بنصّ القانون. لكن من بين الحاضرين من كان يتربّص بالحزب الشيوعي، ورأى في ما حدث فرصة للنيل منه، باعتبار أن عضويته كفاراً فُجّاراً وليسوا خصوماً سياسيين. كان علي عبدالله يعقوب في طليعة المتربّصين، وساندته في "موقعة المعهد" تلك السيدة سعاد الفاتح. ولو أنك - يا عزيزي القارئ - كنت أحد الذين شاهدوا يعقوب هذا يتحدّث في برنامج تلفزيوني "أسماء في حياتنا" عن هذه القضيّة، لما تزعزعت قناعتك في أنه أحد الذين احسنوا التجارة بالدين مثلما احسنها برعاية "البنوك الإسلاربويّة".. في ذاك البرنامج، قال يعقوب إن همّه الأساسي انصبّ في تجييش المشاعر الدينية ونسج الأحابيل التي تدين الحزب الشيوعي وتجرّمه على فعلٍ حتى وإن لم يرتكبه. وبالفعل تحقق لهما ما عزما عليه، دون اعتبار لمآلات عمل طائش كان بمثابة حجر الأساس في انقلابات عسكريّة اكتوينا بنيرانها منذ الاستقلال، وأورثتنا تلك الدورة الشريرة اللعينة. فضلاً عن أنها فتحت باب العُنف في الجامعات الذي دشنه الدكتور عبدالرحيم علي بموقعة "مسرحية العجكو"، ثمّ أصبح العُنف بعدئذ سنة يتعاطاها الإسلامويون كما يتعاطون الماء والهواء. ولكن السؤال: لماذا نُقلّب هذه المواجع ونسترجع هذا الشريط المخزي الآن؟!

(٦)

المذكوران - سعاد الفاتح وعلي عبدالله يعقوب - يعيشان بين ظهرانينا أحياء يُرزقان. وطالما هُما أحياء يقران، فلا شك عندي أنهما أطلعا على مراوحة الدكتور غازي العتباني حول نفي وإثبات ما قيل عن تبرُّئهِ من الدولة الدينيّة وتأكيده استحالة حُكم السُودان بها، ولعلهما قرءا أيضاً ما عضّده أحد المنشقين عنه، والذي قال إن أحد القيادات - الذي لم يُسمّه - عارض الهويّة الإسلاميّة كتوجُّه للحزب بزعم أن "الدين أفيون الشعوب".. المذكوران طالما هُما حيّان يتنفسان، فلا شك عندي أنهما رأيا ما قاله الدكتور الطيّب زين العابدين عن لفظهم الشريعة الإسلاميّة في تنظيمهم الجديد "الحركة الوطنية للتغيير" كما يلفظ المرء النواة. المذكوران طالما هُما حيّان يجادلان، فلا شكّ عندي أنهما شاهدا مبارك الكودة وهو يوقع على وثيقة "الفجر الجديد" التي تنادي بحريّة المعتقد وتجهر بفصل الدين عن السياسة. فلماذا لم يمتشق يعقوب سيفه وتطلق سعاد الفاتح صيحات الاستغاثة لنجدة الإسلام وتكفير "بني علمان" الجُدُد؟! بل قبل هذا، وبصورة أكثر شمولاً، يعلم المذكوران وبقية عُصبتهما أن أحد الذين نهضت التجربة الإسلاميّة على كتفه، بل كان أحد السبعة العظام الذين رعوا الانقلاب تدبيراً وتنفيذاً، كان قد شيّع التجربة بحديثٍ موجع إلى مثواها الأخير. حينذاك لم ينطق أحد من العُصبة معقباً على ما قاله يس عُمَر الإمام.. «**أنا أخجل أن أحدث الناس عن الإسلام في المسجد الذي يجاورني، ولا أستطيع أن أقول لأحفادي**

انضموا للإخوان المسلمين».. وعِوَضاً عن أن يُشيعوها كما شيَّعها يس عُمَر الإمام، شيّعوه هو إلى الدار الآخرة قبل شهور خلت، وأقبل بعضهم على بعض يتباكون!

(٧)

صَدَقَ ذو الجلال والإكرام في قوله **{لا يحيق المكر السيء إلا بأهله... الآية}** وطبقاً لهذا، فإذا نظرت بعيني زرقاء اليمامة - يا قارئي العزيز - ستجد أن المُكر السّيء حاق بأهله فعلاً. فالتنظيم الذي تأسَّس منذ نحو أكثر من ستة عقود زمنيّة في طريقه للتلاشي، وهو الآن في حالة تدعو للرثاء، ويكفي أن بكري حسن صالح يشغل منصب نائب الأمين العام فيه. لا شكّ أنكم تعرفون المذكور، فهو لم يقض عمره مصاحباً كتب سيّد قطب وحسن البنَّا وابن تيميَّة - مع بُؤسها - بل يساورني ظن غير آثم أنه لم يقرأ في حياته سوى كُتُب أرسين لوبين، ولم يشاهد سوى أفلام جيمس بوند. ونظراً لإيماننا بالحريّات العامَّة، فلن نطعن في سلوكه الذي يضعه ضمن سرب صاحب النكتة أعلاه، ولن نستكثر عليه تلك "المُضغة" التي لم تبارح فمه منذ رُبع قرن، ولكن كيف يمكن للمرء أن يعيش ازدواجيَة كهذه "يُسبّح بالنهار ويُضبّح بالليل" كما يقول عامَّة أهل السُّودان؟! وهل تعلمون محصوله في هذه الحركة؟! سأعيدكم للوراء قليلا، فأنتم تذكرون ما سُمِّي بـ"مذكرة العشرة" التي قسمت التنظيم إلى "قصر" و"منشية"، تلك المذكرة في الأصل كانوا تسعة رهط يتآمرون، وعندما اكتمل كيدهم وأرادوا عرضها على الرئيس الضرورة، كان بكري هذا حاجبه الأمين، فسدّ عليهم المنافذ بمنكبيه، وقال لهم لن يحدُث ذلك إلا إذا أضافوا اسمه، وهكذا صاروا عشرة، فتأمَّل! وما زال هناك من يرفع عقيرته ويقول: "لا للسُلطة ولا للجاه"!

(٨)

أبعد هذا هل هناك من يجرؤ على أن يدسّ لنا هذا السُمُّ الزُعاف في قارورة عسل، ويقول إنه يرغب في أن يحكُم باسم الإسلام السياسي؟! الحمد لله الذي أحيانا حتى نكون شهوداً على ما فعله طواغيت عصرنا هذا.. كشفنا عن فسادهم وما فرَّطنا في الكتاب من شيء.. بدَّدوا ثروات السُودان، ما ظهر منها وما بطن. جغرافيا، أصبحنا نعيش في بلدٍ قضى ثلثه نحبه، وأطرافه الأخرى تنتظر.. ديمغرافيا، تشهد بلادنا هجرة جماعيّة لم تعرف لها مثيلاً حتى بات المرء يتوقع ألا يجدوا أحداً يحكمونه. اقتصادياً، رُزئنا بخزينة خاوية على عروشها، وديون بلغت نحو ٤٦ مليار دولار، وبطالة تجاوزت ٤٧% يداويها الشباب بتعاطي الحرام والمكروه عمداً.. اجتماعياً، تفشت القبليَّة والإثنيَّة والجهويّة بحروب متواصلة يأخذ بعضها برقاب بعض، واجتماعياً تقف "دار المايقوما لفاقدي السند" شاهداً على ما اقترفت أيديهم.. واجتماعياً، انتهكت كرامة أكثر من ٥٠ ألف امرأة تحت مظلة قانون النظام العام سيِّئ الصيت.. سياسيا، أصبحنا محسوبين على

رئيس دولة مطلوب للمحكمة الجنائيَّة.. عقدياً، صحونا على دين يجلس على صفيح ساخن، وصار الخيار إما أن نهرُب به أو يهرُب منَّا!

(٩)

هل كانت تلك سذاجة منا، أم كرم معهود فينا، أي أن نسلِّم رقابنا لإخوان الشيطان (كما وصفهم الرئيس المخلوع الذي بايعوه على المكره والمنشط) وهُم يتأبَّطون "القانون البطال"، كما قال ذات المخلوع عنه، ويقصد قوانين الشريعة الشوهاء، فهل كان لزاماً علينا أن ندفع هذه الضريبة القاسية حتى نستبين الحق من الباطل؟! هل كان حتماً علينا أن نصبر على خُزُعبُلات إسحق أحمد فضل الله، وجهالات محمَّد وقيع الله، وتُرَّهات الطيِّب مصطفى، وعجرفة أمين حسن عُمر وصفاقة نافع علي نافع؟! هل كان علينا أن نُمتحن في وطنيَّتنا وشرذمة من شُذاذ الآفاق تلقي علينا دروساً في كيفيَّة الولاء للوطن وحبه؟! هل ثمَّة عقوبة أكثر في عهد الانحطاط الصحفي من أن يتصدَّره محي الدين تيتاوي ومصطفى أبوالعزائم وأحمد البلاَّل الطيِّب وكمال حسن بخيت والنجيب قمرالدين وعبدالمحمود الكُرُنكي وثامنهم الهندي عزالدين؟! هل حقاً كنا نحتاج لهذه الجرعة من الأسى حتى نستيقظ من سباتنا العميق؟! باسم الدين قُتلنا، وباسم الدين عُذبنا، وباسم الدين انتُهكت أعراضنا، وقطعت أرزاقنا، واحتقرت كرامتنا!

(١٠)

نعم، سوف نشيِّع الأنبياء الكذبة غداً، وسنقبُر دولة الإسلام السياسي بعد غدٍ، ولكن قُل لي بربك الذي خلقك فسوَّاك فعدَّلك، من ذا الذي يعيد إلينا أحلامنا التي وُئِدت، وطموحاتنا التي سُرقت، وآمالنا التي أُجهضت؟! من ذا الذي يُرجِّع إلينا ماضينا الذي دُمِّر وحاضرنا الذي تشوه؟! من ذا الذي يعيد لنا رُبع قرن اقتطعناه من جلودنا هماً وغماً وأسى؟! من ذا الذي يعيد إلينا ذكرياتنا الجميلة؟! من ذا الذي يعيد لنا خارطة وطن كان واعداً، فوطئته سنابك خيول المغول وأحالته صعيداً جرزاً؟!

يا سادتي.. قوموا إلى صلاة الغضب يرحمُكُم الله!

آخر الكلام: لابُدَّ من الدِّيمُقرَاطيّة وإن طالَ السَفر!!
٢٠١٣/١٢/١٦

الوصيَّة التي أرهقتني مِن أمري عُسراً!

بسم الله الرحمن الرحيم

١- هذه وصيتى ووكيلي على تنفيذها زوجتى بعد الله.
٢- تُسدَّد الديون أعلاه وإذا لم يعرف يوسف الحلواني وبائع الفحم والحلاق يصدق بما لهم على الفقراء باسمهم والتسديد من نصيبى من مال السلوم.
٣- ينظر في ما علي من حساب من شركائي بمقتضى فواتير من عبدالكريم عبدالرحمن (حساب خصوصى باسمي) فيسدد وهو حوالي //٣٦ج//
٤- ينظر في استجرار المكتب من شراكة السلوم وما يخصني منه يدفع وابراهيم الاسد مسئول عن الارشاد الى ذلك.
٥- يعطى شيخ لطفى مبلغ //٣٠٠ج// تعويضاً له عما صرف علي وعلى اولادي.
٦- تعطى الربجود مبلغ //٥٠ج//
٧- ما يبقى يكون لزوجتي وأولادي وزوجتي هي خليفتي عليهم بعد الله.
٨- لا يفرش علي ولا يتصدق ولا اكفن في جديد ولا يناح علي ولا تجعل علي قبري أي علامة ويباشر غسلي زوجتي.

محمود محمد طه
السبت ١٣ شعبان ١٣٧٠
موافق ١٩ مايو ١٩٥١
(تظهير طبق الأصل)

(٢)

هذه هي الوصية التي أرهقتني من أمري عسراً. اطَّلعتُ عليها مؤخراً في ثنايا كتاب جمع فأوعى، شدَّ وثاقه وجمع وثائقه، الأستاذ عبدالله الفكي البشير وصدر أواخر شهور العام المنصرم في نحو ما ناهز الألف وثلاثمائة صفحة، مسجلاً بذلك رقماً قياسياً في مضمار التأليف. وبما أننا نتنسَّم نفحات الذكرى التاسعة والعشرين لاغتيال شهيد الفكر الإنساني، الأستاذ محمود محمَّد طه، أستطيع أن أقول إن هذا الإصدار الضخم – حساً ومعنىً – قد زاد المناسبة سمواً وزانها وفاءً وأكسبها جلالاً. هو كتاب إذا رأيته أعجبك عنوانه، وإذا قرأته وقعت أسير بيانه. سطَّر كل شاردة وواردة متصلة بحياة الأستاذ الوافرة بالعطاء والزاخرة بالمعرفة والمليئة بالمواقف المتفرِّدة، بل وامتدَّ التوثيق لكُلِّ ما يتصل بفكره، عرضاً وتحليلاً وتسجيلاً لما كَتب وكُتِبَ عنه، الأمر الذي يمكن أن يوفِّر

جهداً كبيراً ووقتاً ثميناً، يدّخرهُما دائماً أي باحث ومطلع ومهتم بمثل هذه الأعمال العظيمة. أصدُقُكُم القول، إن هذا الكتاب يفرض عليك هيبة غير مصطنعة وأنت تنظر إليه من قبل أن تمتد له يداك وتجوس في سطوره عيناك. ولا أقول ذلك نظراً لكبر حجمه، وإنما لكبر حجم من تناول سيرته. ونحن نعلم وأنتم تعلمون أن الأولى نسبية والثاني حتمية لمن شاء لعقله شقاء ولقلبه طمأنينة، أو كما قال أبو الطيب المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله * وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم**

ولعمري أن تلك غاية أصبحت أندر من لبن العصفور، فقد بِتنا نعيش في زمن تسيّد فيه المُتنطعون وكاد الجهل أن يتوّج ملكاً على العباد!

(٣)

سنترك الأستاذ عبدالله الفكي البشير وكتابه في حصنٍ مكين، ولكن قبل أن اغادره أقول بلا مراء إنني تمنيتُ لو كنتُ كاتبه، لا سيّما، وقد زاد من رغائبي ان الكاتب وأنا لم تكتحل عيوننا برؤية الأستاذ يمشي بين الناس بشراً سويا. بيد ان أستاذ الفكي تدارك تلك النقيصة بشرف الانتماء للفكرة الجمهوريَة، أما أنا فقد بقيتُ في سرب الذين هُم في جهلهم يعمهون.. كذلك لن أغادر كتابه هذا دون الإشارة إلى أن الوثيقة المنشورة أعلاه اصطدتها وعيني تزاور صفحته ذات اليمين وذات الشمال. حينها شعرت - برغم تقادُم سنينها - أن الأرض مدت من تحت قدميَ. وقد هاج كياني وماج واضطرب، لدرجة كدتُ أن أقول لأبنائي زملوني ودثروني. لكن أبنائي أنفسهم لاحظوا حيرتي وشرود ذهني وإطالة نظري في اللا شيء. هُم بداهةً لم يُدركوا سرّ انجذابي وأنا – بالطبع – لم تُحلَّ عُقدة في لساني لأقول لهُم قولاً يُنزل الطمأنينة في قلوبهم. فما الذي يمكن أن يقوله شخصٌ مثلي وهو لا يقوى على اختصار السنين في ثوانٍ؟! كيف يتسنى لمثلنا أن يحتفظ برباطة جأشه وهو يقرأ وثيقة كهذه ولا يسأم من تكاليف الحياة وطولها كما سئم منها لبيد بن ربيعة العامري؟! عندئذٍ لم يكن ثمّة مناص أمامي، غير تلفحي بالصمت ريثما يهدأ روعي. ومع ذلك، بين الوالد وما ولد حاصرتني أسئلة كيوم الحشر. فأدبرتُ عنهم والإشفاق يكاد ينبجس دمعاً من عيونهم، وتركوني تائها أتأمّل وثيقة أورثتني من أمري عسرا، وعجبتُ من أن العظماء مهما تطاولت سنين غيابهم، إلا أنهم يشعرونك بأنهم ما غابوا عن دنياك إلا لأخذ سُنَة من النوم، وأن جلاديهم ومعذبيهم وقاتليهم يمضون لكهوف النسين كما تمضي السابلة في الطرقات، لكن التاريخ يصنعه الأخيار كما يصنعه الأشرار أيضا، وفي ذلك حكمة لكُلِّ ذي لُبٍ ألقى السمع وهو شهيد!

(٤)

نعودُ للذكرى وشئونها والوصيّة وشُجُونها، لنستخلص منهما عبراً ومعانيَ سامقة، لتعيننا في هجير الحياة الحارق ونحن نبحث عن خلاص من الطواغيت وشياطين الإنس. ولا شكّ عندي أن القرّاء سيمضون في طريق التأمُل في

نصوصها والتفكر في حياة كاتبها، بأكثر مِمَّا فعلتُ واستنتجتُ النقاطَ المختصرة التالية:

- أولاً: بنظرة عجلى لا تخطئها العين، تنضح الوثيقة بشجاعة صارت فيما بعد جزء أصيلاً وخصلة متفرّدة من خصائل الأستاذ محمود محمّد طه، لازمته منذ بواكير حياته، وهو يخوض غمار الفكرة الجمهوريّة وحتى اخر لحظة من رحيله عن الدُنيا. والشجاعة كما يُعرّفها اللغويون، هي الجرأة والإقدام، وبهذا المعنى تؤكد أن الأستاذ محمود استبطن مصيره وهو يشق طريقاً وعرا وشائكا، بل معروفة مآلاته في التاريخ الإنساني. فهُو الطريق الذي سلكه من قبل رُسُلٌ وأنبياء وعُلماء ومُفكّرون وسياسيُّون من أصحاب المبادئ السامية والنبيلة، وقد تعرَّضوا في مسيرتهم تلك لصنوف من التعذيب والتنكيل والتقتيل، وأدناه السخرية والازدراء والتخذيل. في عام ٣٠٩ هجرية، أُخرج الحسين بن منصور الحلاَّج من سجنه، فجُلد وقطعت يداه ورجلاه، وشُوِّه، وصُلب، وجُزّ رأسه، ثم أُحرقت جثته. وفي سنة ١٢٤ هجرية، خطب خالد القسري والي الكوفة خُطبة العيد، وكان الجعد بن درهم يرسف في الأغلال أسفل المنبر، فقال: «أيها الناس ضحُّوا يقبل الله ضحاياكم فإني مضحٍ بالجعد بن درهم»، وبالفعل نزل من المنبر وذبحه ذبح الشاة.. ومثلهما عانى الإمام أحمد بن حنبل وهو يُعذَّب من خليفة إلى آخر بدءً بالمأمون، مروراً بالمعتصم والواثق، وانتهاءً بالمتوكل، فقد أذاقوه الويل والثبور وعظائم الأمور، أما سعيد بن جبير، فقد قتله الحجَّاج بن يوسف الثقفي بتشفٍ يحسده عليه غُلاة الساديين. وقبلهم عزف سُقراط عن الهروب والنفاذ بجلده وهو يعلم أن الموت بالسُمّ الزُعاف جاءه يجرجر ويلاته. وأمام جبروت كهنة الكنيسة الكاثوليكيَة، أُخرص جاليلو عن الكلام المباح فمات كمداً. وعلى الرغم من أنه بقي في غياهب السجن لنحو ما يربو على الثلاثة عقود زمنيّة، يأتي نيلسون مانديلا الذي رَحلَ عن دنيانا بالأمس نموذجاً لمن هزم جلاّديه وهُم صاغرون!

(٥)

- ثانياً: إن استدلالنا بالوصيَّة على شجاعة الأستاذ محمود يأتي أولاً من زاوية أنها كُتِبت - وفق المنظور الزمني - في أعقاب تأسيس الحزب الجمهوري (١٩٤٥)، الذي توسَّل به مناهضة الاستعمار بالمواجهة والصِدام المباشر، مِمَّا حدا بالمستعمر إيداعه السجن مرَّتين قبل نهاية الأربعينيات، ليُصبح بذلك أوّل سجين سياسي سوداني. ثانياً، ظلَّ غير عابئ بما حاق به في السجن ومعاناته، بدليل أن الوصيَّة جاءت وفق منظورها الزمني أيضاً في بواكير نشر فكرته الجمهورية (أواخر العام ١٩٥١)، واستمرَّ بعدئذ في طرح رؤاه العقدية والفكريَة والثقافيَة والسياسيَّة بصبر ومجالدة لأكثر من ثلاثة عقود زمنيَّة، كانت الشجاعة المذكورة زادها الذي لا ينضب. ثمَّ توجَّها بوسام لا يعرف الصدأ، وهو يتمسَّك بمبادئه ولا يحيد عنها قيد أنملة، ففي ظِلِّ ظروفٍ بات

فيها الموت ينشر أشرعته السوداء في كُلِّ مكان، صعد لمنصّة الإعدام كصديق يريد أن يلتقي صديقه بعد طول غياب. وعندما تفاقمت تلك المشاعر التي استنطقت الصخر العصيا، بلغت سنامها بتلك الابتسامة الغامضة في لحظة تاريخيَّة تتقاطع تماماً مع معانيها، ولذا برغم اجتهاد المجتهدين لن يستطيع أي كائن أن يسبر غورها ولو تنزلت عليه غيثاً من السماء. ويقيني أن صاحبها هو الوحيد الذي سينزع عنها اللغز في يوم يفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه!

(٦)

- **ثالثا:** لعلّ الزُّهد والبساطة والتعفُّف هو الفسيلة الأخرى التي تطالعها في شجرة الوصيَّة بما لا تستطيع أي عين نكرانه إلا من رمدٍ. فالزُّهد أصلاً هو ما ميّز حياة الأستاذ فيما بعد. لقد كان زاهداً حد الاخشوشان في ملبسه ومأكله ومشربه ومسكنه. وهو الذي كان بمقدوره إن لم يعش ترفاً فعلى الأقل أخذ نصيبه من الدُنيا بكدِّه وعرقه وفق وظيفته الأصليّة النادرة كمهندس في ذاك الزمان، أو فيما بعد، وقد تحلق حوله تلاميذ يسدُّون عين الشمس. يقيني لم يكُن الزُّهد الذي اتبعه الأستاذ محمود محض تظاهُر بقدر ما هو دروس ألقاها علينا ونحن عنها غافلون. ولا أدري كيف استطاع العيش للعقد السابع من عمره بذاك الطعام الذي لم تتوفر فيه العناصر الغذائيَّة الكاملة المعروفة؟! ولا أدري كيف غالب شهوات النفس وهو يحصرها في ملبسٍ واحد لا شريك له؟! المفارقة التي لن يستطيع المرء سبر غورها، أن تلك كانت حياة الضحيَّة الذي وصم بالردَة وسلوكياته تنم عن هذا الخُلق العظيم، ما بال الجلاد الذي ادَّعى المنافحة عن الإسلام يلبس الحرير والسُندُس والإستبرق وقومه عُراة؟! كيف له أن يأكل من الطعام أطايبه وشعبه جائع؟! حتّام يسكن قصوراً بُنيت من دم فقراء يكدحون كدحاً في الدنيا إلى أن يلاقوا ربّهم. لقد مضى الأستاذ محمود إلى رحاب ربّه وترك لنا من خلفه ثروة تضم «**ثوب وعرّاقي وسروال وطاقيَّة ومركوب وأبريق وسجادة**»، هي كل ما شاهدتُ في غرفة الجالوص القابعة في الثورة الحارة الأولى. ولا نملك إلا أن نقول «**من أراد أن يرى رجُلاً كان أكله القديد فليتأمّل في حياة محمود محمَّد طه، ومن سرَّه أن ينظر إلى زُهْدِ عيسى بن مريم فلينظر إلى محمود محمَّد طه**».. والأخيرة هذه قالها الرسول الكريم في أبي ذرٍّ.. فتأمَّل!

(٧)

قال سقراط فيما قال: «**ينبغي على الإنسان أن يفهم نفسه قبل أن يفهم العالم حوله**».. أما أبو ذر المذكور أعلاه، فهو أبو ذرٍ الغفاري، ولا شكَّ - يا قارئي الكريم - أنك قرأت عنه أنه نُفي أو هُجّر إلى الرّبدة مغاضباً سيّدنا عثمان بن عفّان بسبب ما آل إليه حال الخلافة، فيما اعتبره تبذراً وإسرافاً. ولما أدركته الوفاة، بكت زوجته أمُّ ذر، فقال لها: ما يُبكيك؟! فقالت: ما لي لا أبكي وأنت

تموت بفلاةٍ من الأرض، وليس عندي ثوب يسعك كفناً لي ولا لك.. أما أنا يا عزيزي القارئ، فعلاوة على ما قرأتُ عن أبي ذر وزُهده، فقد حدثني عمَّنا الرَّاحل يونس الدسوقي، وكان مثقفاً موسوعياً، ذرب اللسان عذب الكلام، عندما يتحدَّث يملك شغاف قلوب سامعيه بصوته الذي يعلو حيناً وينخفض أحياناً وفق مقتضيات السرد. وكان عم يونس - كما يحلو لنا أن نناديه - صديقاً للأستاذ محمود، وبالرغم من اختلاف مشاربهما الفكريَّة، إلا أنهما تحابَّا في الله، على حدِّ تعبيره. ذلك كان إبان عمل الأستاذ كمهندس ري في المشاريع بمدينة كوستي في منتصف الخمسينات. حدَّثنا عم يونس ذات يوم وكنا رهط من أصدقائه حديثاً شفيفاً عن الأستاذ في تلك الفترة، وما يهمنا منه فيما نحن بصدده، قال إنه كان يحضر إلى كوستي من عمله بالمشاريع عند نهاية كل شهر، حاملاً معه مُرتَّبه الشهري، فيضعه في سلة صغيرة تحت منضدة تتوسَّط غرفته، وما أن يسمع الناس بمجيئه فيتدافع نحوه أصحاب الحاجات، ويشرحون أحوالهم الدنيويَّة طلباً للمساعدة، فكان يُوجِّههم نحو تلك السلة ويطلب من السائل أن يأخذ ما يكفيه، ويستمر على هذا المنوال إلى أن تفرغ السلة من المبالغ التي ضمَّتها، فيستدبر الأستاذ كوستي عائداً لمكان عمله، ويتكرَّر الموقف في الشهر الذي يليه.. وهكذا دواليك!

(٨)

عندما نتأمَّل هذه القيم، ندرك تماماً لماذا تآمرت خفافيش الظلام على قتله. والناظر لحال الذين طغوا في البلاد اليوم، وأكثروا فيها الفساد، يدرك تماماً ما كان أمامهم إلا أن يفعلوا فعلتهم الشنعاء تلك. ذلك لأن حياة الأستاذ محمود بذلك النمط الذي ذكرنا تتضادَّ تماماً مع الصورة التي نراها أمامنا الآن. فقد قتلوه كي يخلو لهم الجو ليبيضوا ويفرخوا فيه بضاعتهم الكاسدة تلك، قتلوه لكي يتمكنوا من نشر أكاذيبهم وأباطيلهم وضلالتهم، فهُم يعلمون أنهم ما كانوا سيفعلون لو أن الأستاذ محمود بقامته الفكريَّة الفارعة، وقدرته الفذة على المجادلة بالتي هي أحسن، وفق المنهج الربَّاني، وحكمته التي تميّز الخبيث من الطيّب، وقدرته في الثبات على المبدأ، أنه بتلك الصفات الوحيد القادر على دحض أكاذيبهم وهزيمة تُرَّهاتهم. لو كان بيننا لما تمدَّدت سنواتهم لنحو رُبع قرن. إنني أنعي إليك يا سيدي تقاعُسنا عن بلوغ الغايات النبيلة، أرثي إليك حالنا ونحن صُمٌّ بُكمٌ عُميٌّ عن إرث تركته لنا في فضائل الأخلاق، من شجاعة وزُهدٍ وبساطة وحُلم وحكمة.. أشكو إليك جُبننا وقد عجزنا أن نقول مثلك كلمة حق في وجه سُلطان جائر!

يريدون أن يُطفئوا سيرتك يا سيدي وكأنهم لا يعلمون أن فرعها ثابت وأصلها في السماء، يريدون أن يطمسوا ذكراك يا شهيد الأمَّة، وفي ذكراك انطوى السر العظيم لو تأمَّلوا وكانوا يفقهون!

آخر الكلام: لابُدّ من الدِّيمُقرَاطِيَّة وإن طَالَ السَّفر!!
٢٠١٤/١/٢٠

[illegible]

أسرارٌ يصعُبُ ترويجِها.. أو وَقائِعَ الكَارِثة المُقبِلَة! (١)

إن كان ثمَّة جملة واحدة مفيدة وصادقة في الخطاب الكارثة الذي ألقاه "الرئيس الضرورة"، المشير عُمَر حسن البشير منتصف الأسبوع الماضي، فهي قوله: «**ونتوجَّه لأنفسنا، وللذين يستخفون بمنافسيهم وخُصُومهم، أن بعض هذا الاستخفاف، مُوجَّه إلى الشخصيَّة السودانيَّة في الحقيقة، تقليلاً من شأنها، ودافعاً بها إلى شيء من التردُّد بدأت مظاهرهُ تغزو عقول أجيالنا**»، ولا أدري ما إذا كان ذلك محض صُدفة أم أن قائلها نُزعت عنه الحُجُب وتنبأ بحدوثها أو أن "راسبوتين" قصر غُردون الذي كتب هذا الخطاب شاء بنظريَّة "المؤامرة" توريط رئيسه بحديث بذَّ به عُتاة الديكتاتوريين مِمَّن لهُم باعٌ طويل في الهرطقة والإسفاف وسواقط الكلام.. من لدُنْ مُعمر القذافي وعلي عبدالله صالح وحُسني مبارك.. وهلمّجرًا.. ففي واقع الأمر لا أعرف حديثا سخر منه الناس واستهزأوا بصاحبه مثل هذا. وقلتُ لنفسي: إذا، فلماذا لا يكون قارئه هو كاتبه، لا سيّما، وقد تماهى مع لغة الانحطاط التي ظلَّ يؤذي بها مسامعنا كلما ضُربت له الدفوف؟! قُل لي بحدسك: ما الذي يتوقعه المرء من نافخ الكير إذا اقترب منه؟! وسيَّان الأمر عندي، فذلك أشبه بمن يطلب من الفريق أول بكري حسن صالح مثلاً، أن يتحدَّث عن محاربة المُخدرات في احتفائيَّة لهذا الغرض، أو أن يدعو عوض الجاز لمخاطبة مؤتمر خُصِّصت فعالياته لاجتثاث ظاهرة الفساد، أو أن يُسأل الفريق عبدالرحيم محمَّد حسين أن يحاضر ضُباطاً عن الاستراتيجيات العسكريَّة! فنحن - يا سادتي - نعيشُ في عالم غرائبي، لو أن صمويل بيكيت، رائد مسرح العبث أحيي من قبره، لوضع يده على خدِّه وطفق يبكي على حالنا!

(٢)

نعم، أعترف بأنني كُنتُ كمثل سائر عباد الله المُغفلين الذين حرصوا على مشاهدة الخطاب الكارثة، لكن الذي خفف عني وطأة تغفيلي هذا، هو أنني لم أكن أرجو من وراء ذلك إصلاحاً أو فعلاً يحيل هشيم البلاد إلى جنة تجري من تحتها الأنهار. ليس ذلك تأففاً أو تعففاً أو استعلاءً، وإنما فقط لأن عقيدتي السياسية الصمديَّة تجاه هذا النظام وزُمرته، تُذكرني دوماً بأنه نظام انقلابي فاقد الشرعيَّة وإن تطاولت سنينه، وقد ظلَّ طيلة تلك الفترة التي قضاها في السُلطة يحاول بشتى السبل والحِيل والأحابيل الالتفاف على هذا الواقع بلا جدوى، فهو نظام

مراوغ أدمن سدنته الكذب والمُكر والخداع. لهذا ليس في الأمر عجب إن ظهر رئيسه يومذاك بعقل خاوٍ وفؤاد أفرغ من جوف أم موسى، وبدا كأحد جنرالات ماركيز يبتغي سبيلاً للخروج من متاهته ليجمل به سوءات السنين. علماً بأنه لو كان الشجر أقلاماً والنيل مداداً لما استطعنا لهذه السوءات عداً ولا حصراً. لهذا لم يكن غريباً أن يتتأتأ صاحبها ويتعثر وهو يكاد لا يقوى على القراءة، تماماً كمثل الحمار يحمِل أسفارا وفق التشبيه الربَّاني البليغ!

(٣)

بَيْدَ أنني اكتشفتُ أن الموضوع أكبر مِمَّا حصرنا أنفسنا فيه، أي الخطاب الكارثة. فقد بصَّرت وقدَّرت ونبشت في وقائع وأسرار وضَّحت لي بما لا يدع مجالاً للشك، أن الأزمة التي استحكمت والمحنة التي تعيشها الطغمة الآن كانت مدعاة لهذه التحوُّلات التي طرأت على بنية النظام، وتقف من وراء التغييرات التي تمَت وأحالت بموجبها بعض سدنتها إلى "الصالح العام" وبخاصة جماعة "المحفل الماسوني" التي كانت تدير أمور البلاد وتتحكَّم في مصائر العباد. وعليه سوف أطرح عليكم - سادتي القرَّاء - حصيلة ما جمعتُ من أسرار، بعضها اختزنته في صدري زمناً، ليس لعدم أهميَّته ولكن لأنني لم أعتد على الانشغال ببعض أفعال الحُواة التي تصدُر من العُصبة، فهُم غاية ما يتمنونه أحياناً أن ننشغل عنهم بالهوامش ونترك المُتون. وبعضها أسرار مستجدَّة هطلت علينا من ذات مصادرهم، وهي نفسها التي تُصلي معهم بالنهار وتُسبح معنا بالليل عبر وسائط التواصُل الاجتماعي. وعموماً ما بين أيديكم نأمل أن يُفسِّر لكم متى وكيف ولماذا يود الثعبان أن يُغيِّر جلده؟! فتابعوا معنا فضح كواليس النظام الذي أكل "أباه" وأقبل الآن على أكل "بنيه"، أو إن شئت فقُل وقائع الكارثة المُقبلة.. إن لم نتداركها!

(٤)

خلَّف موت مجذوب الخليفة صباح يوم ٢٠٠٧/٦/٢٧ في حادث سيارة، ظهور كتلتين ظلتا تنافسان في الخفاء للتحكُّم في مفاصل السُلطة. الأولى كان يترأسها علي عثمان محمَّد طه، والثانية تزعَّمها نافع علي نافع. لكن في واقع الأمر، ظلَّ الأوَّل مثابراً نحو إبقاء عرش الخلافة برُمَّته طوع بنانه، لا سيَّما، وقد تضخَّم هذا الشعور ابتداءً في نجاح الانقلاب عام ١٩٨٩، والذي لعب فيه دوراً بارزاً، مروراً بنجاحه أيضاً في إزاحة عرَّابه الدكتور حسن التُرابي عام ١٩٩٩ من واجهة السُلطة، وقد كان – بحسب ظنه – أنه يقف حجر عثرة أمام تمدُّد طموحاته.. ثمَّ انتهاءً بالتوقيع على اتفاقيَّة السلام الشامل عام ٢٠٠٥ مع الحركة الشعبيَّة لتحرير السُودان بقيادة الدكتور الرَّاحل جون قرنق. تلك كانت هي الأسباب الثلاثة التي جعلت من طموح علي عثمان طه يستعر خلف الجدران، لكن سُفُنه لم تسِر حسب ما اشتهى وتمنى. فظهور مجذوب الخليفة كان قد كشف له شرهٍ بيِّنٍ نحو السُلطة ودهاليزها، وقد عمل ما وسعه لاحقاً لأيلولتها لقبضته،

الأمر الذي لم تستطع عينا طه أن تُغفله، خاصة وأن الخليفة نفسه لم يكُن يداري ذلك الطموح، بل في كثير من الأحايين كان يتعمَّد إظهاره لمن حوله تباهياً، فلم يكن عصياً على من كان أحد أعمدة "فقه التمكين" أن يبدأ التمكين بنفسه!

(٥)

سارت سفينة العُصبة بكل أثقالها، ترهقها في الخفاء صراعات المكاتب والصوالين المغلقة. ولمزيدٍ من إسقاط الأقنعة، حَرِيّ بنا أن نستوقف أنفسنا قليلاً في مجذوب الخليفة وسيرته المثيرة للجدل. فهو أوَّل من "خصخص" السُّلطة ربَّما في العالم وليس في السُّودان وحده. فقد كان للرَّجُل جهاز أمن خاص به، تتبعه ملحقاته من جلاوزة وسجن ومعتقلات خاصة وآلياتها، علماً بأننا لا نعرف حتى الآن أحداً ظهر للوجود بعدئذٍ ليحدثنا عن ما كان يجري في "دور العفاريت" تلك، لكن الذي نعرفه أن ثمَّة وجوهاً كثيرة اختفت من مسرح الحياة، وللمُفارقة بعضها من سدنة النظام نفسه. وقد حكى لي زميل انتقده بشدَّة في مقال نشره بداية الألفيَّة الثالثة، فاستدعاه علي عثمان طه وقال له إنه قرأ مقاله ولكن عليه أن يحترس «**فلمجذوب أجهزة خاصة**» بحسب تعبيره، وإن كانت تلك رسالة تستبطن ما أضمره طه ابتهاجاً بمقال محدِّثه. ومجذوب هُو من جزَّ رؤوس أكثر من مائة ألف من جهاز الخدمة المدنيَّة، وقطع أرزاقهم فيما سُمِّي استخفافاً بـ"الفصل للصالح العام"، وهذا رقمٌ بالرغم من أنه يزيغ الأبصار، إلا أننا ظللنا نكتبه على مدى رُبع قرن بنفس السهولة التي ندلق بها كوب ماء بارد في جوفنا العَطِش. لكن لا أحد يستطيع أن يدرك مكابدته سوى الذين اكتووا بناره وكانوا ضمن ضحايا المقصلة. فهو رقمٌ يحكي قصصاً قوامها دموعٌ وآلام، وتمرُّغ الكرامة في أوحال الفقر، وهجرة واسعة ضرب لها السُّودانيون أكباد الأبل والطائرات والسُفن، وحَفِيَت أقدامهم.. هو رقمٌ يقف شاهداً على خلخلة قيم ومثل وأخلاق مجتمع كان بينه وبين الفضيلة بضعة أمتار، فصارت بينه وبينها فراسخ وأميال.

ليس هذا فحسب، فللمجذوب أيضاً سُنة أخرى، فهو أوَّل من ابتدع ما يُسمَّى بـ"مال التجنيب" لإيمانه بأنه يمكن أن يلين له صُلب الحديد. ولهذا حرص على أن يتبعه بنكٌ متحرّك أينما حلَّ. من أجل هذا وذاك، لا أحد يستطيع أن يقطع برأي في حادث السيَّارة التي أودت بحياته وقبرت معه طموحه. ربَّما كان ذلك قضاءً وقدراً، أو ربَّما كانت بفعل فاعل، وسواءً هذا أو ذاك، فما أكثر الحوادث الغامضة التي لن تُحل طلاسمها إلا بعد انفضاض سامر نظام العُصبة. وإلى حين ذلك، نقول: نحن الذين نوثق للتاريخ بخيره وشرّه، ليتنا كنا نعرف بعض حسنات مجذوب الخليفة حتى نذكرها تأسياً بالحديث الشريف!

(٦)

أصبح مجذوب بين يدي مليكٍ مقتدر لا يُظلم عنده أحد، لكن قطعاً كان علي عثمان طه أحد الذين تنفسوا الصعداء، وحَمَد الله الذي لا يُحمَدُ على مكروهٍ سواه.

فقد أصبح بمقدوره أن يقود سفينة السُّلطة دون هاجس يُؤرِّقه، أو هكذا ظنّ. لكن لحظه العاثر لم يستطع مواصلة مشروع طموحاته بذات السيناريو الذي ذكرنا، فقد ظهر له في الواجهة لاعبٌ آخر جديد. إذ لم يكن نافع علي نافع منافساً فحسب، وإنما جاء بآليات نصَّبته ملكاً في بلاط "صعاليك" النظام، و"الصعلوك" لغةً هو الفقير، وصعاليك العرب فُتاكِها، وكانت تطلق على أيٍ من يقوم من القبيلة بأفعال مُنكرة لا يقرها السلوك العام، ولهذا سعى نحو غاياته بوسائل قد يتضاءل معها ميكافيللي خجلاً في قبره. وقد بدأها بجهاز الأمن في أوج سطوته وبطشه وجبروته، ولم يُضِره بعدئذ أن يحمل لقب حامل أوزار الإنقاذ من المهد إلى اللحد.

بالعودة قليلاً للوراء، لم يكن نافع من المعروفين في أروقة التنظيم من قبَل الانقلاب، ولكنه سعى سعياً حثيثاً إلى ردم هذه الهُوّة، بممارسات فيها كثير من العنجهيّة والاستعلاء والغرور، تبدو لمُتأمِّلها كأنها نتيجة عُقد طفولية لازمت صاحبها ولم يستطع منها فكاكاً. إزاء هذا التراث الوافر، لم يكن أمام علي عثمان سوى الانحناء لعاصفة هوجاء، ظلّ خلالها متخندقا بما اعتبره إنجازاته الثلاثة والتي ذكرناها في صدر هذا المقال، ومتظاهرا بعفة لسانٍ تحاول أن تترك انطباعا إيجابيا في نفس محدثه، لكن تلك ما لم يكن يأبه لها نافع، الذي استخدم وسائله الخاصة لتفتيت عضد خصمه اللّدُود!

(٧)

بأسلوبه الحربائي المعروف، واصل علي عثمان محمّد طه مثابرته نحو التحكُّم المطلق في السّلطة، فخطا خُطوتين دراماتيكيّتين للوصول لهدفه في المرحلة الثالثة لما عدّه إنجازا كما ذكرنا. وتلك كانت قضية الحرب في جنوب البلاد. وهي القضيّة التي ظلت تتحكّم في مصائر السُّودان وأهله قبل الاستقلال وبعده، ومن المفارقات أن خُطاه التي سنذكرها رغم تضادها مع ما يُسمّى بـ"المشروع الحضاري" إلا أنها مرّت مرور الكرام وسط عُصبته. ليس ذلك فحسب، بل سيذكر المراقبون أن إحداهما كانت سبباً في اعتقال شيخه السابق الدكتور حسن التُّرابي بعد أن وقَّع تنظيمه "المؤتمر الشعبي" مذكِّرة تفاهُم مع «الحركة الشعبية لتحرير السُّودان» في جنيف بتاريخ ٢٠٠١/٢/١٩. وعلى لرغم من أن طه اعتبرها خطيئة تستوجب "حدَّ الرِّدّة" لنحر رقبة التُّرابي، تناسى في خِضَمِّ غمار مُزايداته، إنه سبق المذكور ولم يتورَّع في أن يأتي بمثل قوله، بل ربّما أنكى.

كان طه قد تحدّث في ندوة في جامعة الخرطوم بتاريخ ٢٠٠٠/٢/١٧ حديثاً عصف بـ"المشروع الحضاري" إلى أسفل سافلين، قال فيه: «**أدركنا أن مسألة فصل الدين عن الدولة لن تكون سبباً في التفريق بيننا، هذه القضية يمكننا أن نتحاور فيها مع المتمرِّدين الجنوبيين لنصل لبرّ الأمان**»، ليأتيه ردّ الرئيس

"الضرورة" من الدَّوحة التي تزامنت زيارته مع الحديث دون أن يعقبه بالرقص المعتاد، فقال: «**لا تراجُع عن النهج الإسلامي**»، ومع ذلك مضى طه نحو طموحه لا يلوي على شيء، فعمدَ النقلة الثانية التي أزاح فيها غازي العتباني وتولى ملف المفاوضات بنفسه. ويبدو أن الخطوة استوجبت أن ينتقل بأسرته ليتخذ من فنادق نيروبي سكناً له، غير عابئ بالدولة التي تجمدت أوصالها في الخرطوم منذ التوقيع على بروتوكول مشاكوس في يوليو ٢٠٠٢ وحتى التوقيع على اتفاقية السلام الشامل في يناير ٢٠٠٥ لكن الذين يُدركون بواطن الأمور، يعلمون انه في سبيل تعزيز قبضته على مفاصل السُّلطة، كان قد أقدم على تلك الخطوة حاملاً بين إبطيه مشروع وحدة السُّودان بحسب ما ذرَّه على سمعه دكتور جون قرنق في حال حدوث استفتاء (إذ إن الأخير هذا كان واثقاً ويردِّد ذلك باستمرار).. أما الهدف الثاني، فقد كان وعد الوسطاء الأمريكيين بإسقاط العقوبات الاقتصاديّة المفروضة على النظام منذ العام ١٩٩٧ بمجرّد التوقيع على اتفاق سلام.. لكنه لم يكُن يعلم أنه تأبّط شراً وقدراً معاً!

(٨)

تعثَّر طموحه مرّة أخرى، إذ غيّب الموت دكتور جون قرنق في حادث طائرة إثر ارتطامها بسلسلة جبال الأماتونج يوم ٣٠ يوليو ٢٠٠٥، وفي واقع الأمر، قبل طه كان غياب قرنق على الحركة الشعبيَّة أعظم وبالاً وأعمق أثراً. إذ فقدت ربّانها فتخبّطت سفينتها في بحر لجي بات يغشاه موج من فوقه موج، أما فيما يخُصُّ رفع العقوبات الاقتصاديَّة فلم يكن ذلك سوى "وعد عرقوب"، الذي لعقته العُصبة دون أن تنبسَّ ببنت شفة. لكن طه الذي كان يرى عُصبته تتداعى عليه كتداعي الأكلة على قصعتها، قام بخطوة حَسِبَها ستعيد الأمور إلى حياضه من خارج الحدود الجغرافيَّة، ولم يكن يدري أن عُصبته ستجرِّعه علقمها من قبل أن يتبخَّر حديثه في الهواء. كان قد اجتمع في بروكسل يوم ٢٠٠٦/٣/١٠ مع خافير سولانا منسق الشئون الخارجية في الاتحاد الأوروبي، وروبرت زوليك مساعد وزيرة الخارجية للشئون الأفريقية، وقال لهما: «**سندرس نشر قوّاتٍ دوليّة بعد التوقيع على اتفاق السلام في دارفور**»، وبعد عودته، أرغم على عقد مؤتمر صحافي (الصحافة ٢٠٠٦/٣/١٥) نسخ فيه كلامه دون أن يطرف له جفن، فأعلن على الملأ: «**رفضه نشر قوات دولية في دارفور سواء قبل أو بعد الوصول لاتفاق سلام في الإقليم**»..

عموماً، تلك فترة من عُمر المرحلة الانتقاليَّة كانت بالنسبة "للإخوة الأعدقاء" أشبه بهدنة لالتقاط الأنفاس استعداداً لمعركة فاصلة. مجذوب يمّم وجهه شطر أبوجا وهو يُمنِّي النفس بنصرٍ تتساوى فيه الكتوف مع "نيفاشا" طه، وطه نفسه صار في خِضَمِّ تلك المقاصة أشبه بطفلٍ ضاع من أبويه في غمرة زحام، في حين ظلَّ نافع متوثباً، إن حملت عليه يلهث، وإن تركته يلهث. فعمل على انتهاز الفراغ بممارسات جمعت كل أنواع التنفير والتدمير والتضليل حيال

الحركة الشعبيّة لتحرير السُّودان. لا، ليس هذا وحده - يا هداك الله - فقد أقدم نافع علي نافع بخبرته الأمنيَّة وذخيرته في المَنّ والأذى، على تأسيس وحدة في جهاز الأمن تُعني بشئون الجنوب اليتيم، لكن قلّة تعرف أن اسمها الرمزي "الكودي" الذي أطلق عليها سراً هو "إدارة ملذات الحركة الشعبية"، وهي الوحدة التي حرَّم بطانتها الحلال وحلّلوا الحرام، وجعلت من المشروع الحضاري برُمَّته مجرّد فأر في مختبر تجارب. وفي هذا يا صاحِ قصصٌ يعف اللسان عن ذكرها، بل قُلْ يحرن القلم عمداً عن خطِّها!

(٩)

تعلمون رغم التنطع سالف الذكر أن القوّات الأمميَّة هبطت أرضنا بأعداد تسد عين الشمس.. لا عليكم، هل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟! المهم أن نافع دأب على فعل ما فعله الثور في مستودع الخزف، كان - بحسب ظنه وزُمرته - أن تحجيم وتهميش الحركة الشعبيَّة في الفترة الانتقاليَّة سيُفسد مجداً انتظره علي عثمان، وكأنه لا يعلم أنه بفعلته الحمقاء كان يقرِّب الحركة الشعبيَّة من دوائر الانفصال، وهل يصلح العطار ما أفسده الدهر؟! على كلٍ، ظهر الصراع سافراً للمرّة الأولى بين الغريمين المذكورين في أواخر عام ٢٠٠٦ وأوائل العام ٢٠٠٧، ولكن رُبَّ سائلٍ: وأين الرئيس الراقص من كل هذا؟! الصِّدق أقول، إنه أصبح على علمٍ بتحرُّكات الطرفين ومكائدهما الخبيثة لبعضهما، ولكنه نام قرير العين بعد أن أكدا له – كلٌ على حده – بالطبع، أن رئاسته في لوح محفوظ، بدعوى أنها ليست أكبر همّهما ولا مبلغ علمهما، وبناءً عليه، منح كل فريق منهم أذناً للتنصُّت الذي يحلو له، بينما واصل الرقص المنفرد على أهزوجة: "النار ولعها وأتوطأ فوق جمرها"!

(١٠)

عند اقتراب موعد الانتخابات الرئاسيَّة والبرلمانيَّة - كما زعموا - حدث لذي كان يمكن أن يُغيّر تاريخ السُّودان من شبح الانفصال الذي أصبح قاب قوسين أو أدني، إلى رحاب الوحدة التي تُبقي الوضع كما هو عليه، إلى أن يأذن الله والناس بأمرٍ كان مفعولاً.. إذ حدث جدلٌ في أوساط الحركة الشعبيّة أثناء عقدها مؤتمر "مجلس التحرير" وهو أعلى سُلطة في أجهزتها. وفيه تطايرت حِمَمُ النقاشات الحادّة بين تيَّاري الوحدة والانفصال، انتصر فيها التيَّار الأوَّل بطرح ذكي، دخلت فيه أطراف إقليميَّة (المملكة العربيَّة السعوديَّة) وأخرى دوليَّة تتحكَّم في شهيق وزفير أنفاس العالم (الولايات المتحدة الأمريكية) ومن وراء الكواليس سنواصل القصّة التي ستُسفر عن غُصَّة.. إن كان في الكأس باقٍ!

آخر الكلام: لابُدّ منَ الدِّيمُقرَاطيّة وإن طَالَ السَّفر!!
٢٠١٤/٢/٧

أسرارٌ يصعُبُ ترويجها.. أو وقائعَ الكارثة المُقبلة! (٢)

اتصالاً مع ما مضى، ذكرنا أن الحِوار احتدم حول قضيَّة الوحدة والانفصال في أروقة الحركة الشعبيَّة لتحرير السُّودان، وهي كما نعلم القضيَّة المركزيَّة التي لا تحدِّد وجودها فحسب، وإنما مستقبل السُّودان ككُل. وكلنا يعلم أنها ليست قضية مُستجدَّة، ولا حتى مرتبطة ببدايات تأسيس الحركة الشعبيَّة في مايو من العام ١٩٨٣، وإنما سبقت الاستقلال وتلازمت مع وقائعه، واستمرَّت فيما بعد حرباً وسِلماً في ظِلِّ الأنظمة المختلفة التي مرَّت على حُكم البلاد، سواء الديمقراطيَّة البرلمانيَّة، أو الديكتاتوريَّة الشموليَّة، أو حتى الانتقاليَّة التي كانت بين ذلك قواماً. ولكن عند ظهور الحركة الشعبيَّة لتحرير السُّودان في التاريخ المذكور، أصبح لمصطلحي الوحدة والانفصال مسوغاً خاصاً في ظِلِّ رُؤى زعيمها الرَّاحل، الدكتور جون قرنق دي مابيور، وهي الرؤى التي ضمَّنها مانفستو التنظيم فيما عُرف بأطروحة "السُّودان الجديد".. مع ذلك، يمكن القول إنها لم تعمل على إنحسار تيَّار الانفصاليين في صفوف الحركة (وتاريخياً هُم الذين يمثلون ما عُرف بـ"القوميين الجنوبيين"، أي الذين حملوا قضيَّة الجنوب وهناً على وهن قُبَيْلَ ظهور الحركة نفسها)، ذلك لأن وحدويَّة دكتور جون نجحت في اصطحابهم بكُلِّ هواجسهم وشُكُوكهم ومكنوناتهم الانفصاليَّة الصريحة، دون أن ينجحوا في التعبير عنها على أرض الواقع، أو حتى دمغ هُويَّة الحركة بتلك التوجُّهات. ولم يكن خافياً على المُراقبين أن نائبه سلفا كير ميارديت - وهو الوحيد الذي بقي من المُؤسِّسين - أصبح يتزعَّم ذلك التيَّار. بَيْدَ أن هذه المعادلات وتلك وضعت الحركة فجأة على صفيح ساخن، حدث ذلك على إثر رحيل دكتور جون في الحادث المشئوم في يوليو ٢٠٠٥، بتداعياتٍ كادت أن تذهب بريحها، لكن ما بقي من إرثه عمل على تأجيل هذا الافتراض، وإن لم يمنع تمظهُرَهُ. بدليل حدوثه بعد عدَّة سنوات، صراعاً دموياً ما تزال تداعياته المأساوية تصُبُّ الملح على الجروح المفتوحة أصلاً!

(١٢)

تبعاً لهذه الحمولة الثقيلة، أقبلت الحركة الشعبيَّة على عقد مؤتمر "مجلس التحرير الوطني" منتصف سبتمبر من العام ٢٠١٠، تزامنت وتزايدت فيه وتائر الانفصال، وعلا صوت الانفصاليين، وأصبح هاجسهم انقضاء الفترة الانتقاليَّة بخيرها وشرِّها، ومِن ثمَّ الاتجاه نحو خيار الانفصال في الاستفتاء المُزمَع عقده

بعد أشهرٍ قلائل من المؤتمر. وفي واقع الأمر، لم يخلُ لهُم الجو بغياب دكتور جون وحده، وإنما ساهمت أيضاً أساليب التنفير والتطفيش والتيئيس التي كانت تمارسها عُصبة المؤتمر الوطني الحاكمة. على الضفَّة الأخرى، كان الوحدويون يتمسَّكون بأهداب مشروعهم كتمسُّك الغريق بقشَّة، خاصَّةً بعد أن تضعضعت الفكرة التي تفتق عنها ذهنهم باشراك روافع إقليميَّة ودوليَّة لإنقاذ وحدة السُّودان، كما أشرنا في الحلقة الأولى.. لكن كيف حدث هذا؟! كان ذلك قُبَيْلَ الانتخابات التي أُقيمت في أبريل ٢٠١٠، أي سبقت المؤتمر المذكور. انذاك، كان لا بُدّ أن تقدِّم الحركة الشعبية مُرشّحاً لرئاسة الجمهوريّة.. التقط وارثو وحدويّة دكتور جون القفّاز باقتراح تقديم سلفا كير مُرشّحاً لرئاسة الجمهوريَّة، والعمل على فوزه، كآخر فرصة لضمان الوحدة.. المُفارقة أن سلفا كير نفسه رفض الفكرة ابتداءً، وقد استَعرت هواجسه القديمة في أنَّهم يريدون التخلص منه، وهو في الأصل سواء في وجود دكتور جون أو بعد رحيله لم يكُن يطمح مثله بحُكم السُّودان البتة، وبالتالي وضع عينيه صوب حُكم الجنوب وحده، ولا شيء غيره. مع ذلك، رضخ بعد لأيٍ، بشرط أن يضمن له "الشركاء" فوزه، إن كانوا يريدون وحدة السُّودان، وهو شرطٌ يعلمُ بدهائه المعهود استحالته. لكن المُفارقة، أن علي عثمان محمّد طه لم يُبد اعتراضاً، ربّما لأنه كان ما يزال يعتبر نفسه الرّاعي الرسمي لاتفاقيّة السلام الشامل، بالرغم من أنه بعد رحيل قرنق، أصبح مهيض الجناح وسط عُصبته، وانضمَّ لطائفة الأيتام الكُثُر الذين خلفهم قرنق من وراءه. أما المُشير البشير، فقد قال بوضوح، إن ذلك أمرٌ دونه خرط القتاد!

(١٣)

على الرّغم من وعثاء السفر، لم تيأس المجموعة التي تمسّكت بأحلام قرنق، وإن تضاءل عددها، فقرّرت أن تنقل الكرة إلى خارج الملعب السُّوداني، وذلك بالاستعانة بروافع لا يقوى أحد أن يرفض لها طلباً. غادر وفدٌ من الحركة الشعبيَّة إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة، وإلتقى مسئولين في الإدارات المختلفة صانعة القرار، وطرحوا عليهم فكرة ترشيح سلفا كير للرئاسة، كآخر أملٍ لوحدة السُّودان. وهُنا لا بُدَّ من التذكير بأن وحدة السُّودان تلك ظلت أمراً متفقٌ عليه بين الحزبين الجُمهوري الحاكم انذاك والدِيمُقراطي المُعارض، وتُعَدُّ تلك من القضايا القليلة التي اتفق عليها الطرفان في السياسة الخارجيَّة. ورُبَّ سائلٍ: لماذا؟! نقولُ اختصاراً، لم يكُن ذلك حُباً في سواد عيون السُّودان وأهله، وإنما لأن الانفصال سيفتح عليهم أبواب جُهنَّم من معظم دول القارَّة الأفريقيَّة، نسبة لهشاشة مُكوّناتها. لهذا راقت الفكرة لمَن طُرحَت عليه، وتبنتها الإدارة الأمريكيَّة بخُطواتٍ عمليَّة. إذ قامت بتمريرها إلى المملكة العربيَّة السعوديَّة، الحليف الإستراتيجي في المنطقة، ووضعت لها سيناريو مُحكم الصياغة والتدبير، إذ استند في جوهرة على شراكة المملكة السعوديّة في أمن البحر الأحمر، وبدعوى أن الانفصال - إن حدث - فإن ذلك من شأنه أن يُربك المنطقة، وهي بالطبع الحُجَّة التي تتضاءل معها دعاوى المُكابرين. على كلٍ، بعد أن تبلورت الفكرة، استبقى بعض أعضاء وفد الحركة

أنفسهم في العاصمة الأمريكيَّة لعدة أيام ليروا ثمار ما غرسوه في ردهات البيت الأبيض!

(١٤)

شَرَعَت المملكة العربيَّة السعوديَّة في تنفيذ ما اتُفِقَ عليه، وقامت بتقديم دعوة للمُشير البشير بزيارتها لأمرٍ عاجلٍ. ومن المُفارقات التي لم تُلق العُصبة في الخرطوم لها بالاً، أن الدعوة تزامنت مع مرور الذكرى السنويَّة لاستقلال السُودان. غادر الرئيس المشير البلاد يوم ٢٠٠٩/١/١ متوجّهاً نحو المملكة السعودية دون إعلان مُسبَق، وهو اليوم الذي دَرَجَ العُرف على الاحتفال فيه بذكرى الاستقلال، وفي رواية أخرى، هو اليوم الذي اعتاد فيه المُشير وغيره مِمَّن سكنوا قصر غُردون مخاطبة الأمَّة التي لم تعرف للاستقلال طعماً، رغم تراكُم السنين. وهناك شَرَحَ السُعوديون قلقهم من التطوُّرات الجارية في السُودان نحو الانفصال، وبدعاوى شراكتهم في أمن البحر الأحمر - كما ذكرنا - عرضوا على المُشير مباشرة فكرة أن يُفسح المجال لترشيح سلفا كير للرئاسة، ضماناً لوحدة السُودان. ولمزيدٍ من التعضيد، أكَّدوا أيضاً أن الانفصال سيُهدّد أمن مصر الإستراتيجي، وستُصبح إسرائيل عدواً متربّصاً في الخاصرة . ثمَّ أكدوا له أنهم سيعملون على ترتيب أوضاعه الشخصيَّة المُرتبطة بالمحكمة الجنائيَّة، وعرضوا عليه الإقامة في المملكة إن رغب (كانت مذكرة التوقيف قد صدرت للمرَّة الأولى من المُدَّعي العام للمحكمة الجنائيَّة لويس أوكامبو في ٢٠٠٨/٧/١٤)..

بُهتَ "الرئيس الضرورة"، الذي ظنَّ في الدَّعوة خيراً غير ذلك، ولم يكُن يعلم أنها تتضمَّن ذاك العرض المُفخَّخ، الذي من أجله غادر البلاد وأهلها لا يعلمون.. أما أنا فسأقسم بالذي يُؤتِي المُلك من يشاء وينزعه مِمَّن يشاء، أن كُلَّ من قرأ هذا الطلب تساءل - سراً أو جهراً – عن: السيادة المُهدرة؟! لكن بالطبع سيعلم الذين يجهلون أن السيادة لا تعني شيئاً في قاموس من داس السُلطة بدبّاباتٍ مجنزرة، وملأ الساحات رقصاً، والمنابر تنبراً، وظلَّ يهش بعصاه على معارضيه! على كُلٍ، لم يكُن بوسعه سِوَى أن يشكُرهُم على العرض، وقال لهُم تبريراً أن ثمّة مشاكل داخليَّة تشكو منها سُلطته كشأن كُل دُول العالم، بتأكيد أنه يُمثل صمام الأمان، لأن الأجنحة المُتصارعة متفقة على رئاسته، وقال إن مغادرته السُلطة لأي سببٍ تُعد المُهدِّد الحقيقي لوحدة السُودان. ولم ينس أيضاً أن يُؤكِّد قدرته على حسم تلك الصراعات في الانتخابات التي ستهيئ له ولاية جديدة تُعينه على ترتيب أوضاع البلاد بصورة جذريَّة.. ثمَّ غادر غير آسف، يُشيِّعه طلب تزامَنَ - صُدفة أم عمداً - مع ذكرى الاستقلال!

(١٥)

ربّما قلّة رأت في أخبار الفضائيَّة الحكوميَّة الرئيس - الذي عاد بخُفي حنين - وكان في استقباله شرذمة لم تتعدَّ أصابع اليد الواحدة، أو أكثر من ذلك قليلاً، بَدَت وكأنها جُمعت على عجل، عِلماً بأن الحكومة التي كان يقف على رأسها يومذاك ضربت رقماً قياسياً في تاريخ التوزير في العالم بعدد ٩٩ وزيراً.

وتعلمون أنَّ الخرطوم مدينة لا تعرف الأسرار، بل إن كتمان الأسرار في عُرفنا نحن السُّودانيين كرابع المستحيلات، بعد الغول والعنقاء والخِلِّ الوفي. لم يكُن غريباً أن تسري بين بعض الناس زيارة الرئيس الذي قطع البحر الأحمر في توقيتٍ غريب ولم يعتمِر حتى، يُقالُ عنها إنها لله! ولما كثُر اللغط واللت والعجن، صرَّح اثنان من العُصبة بعد أيام قلائل بحديثٍ كادا أن يقولا فيه "البغلة في الأبريق"، على حَدِّ الأمثولة السودانيَّة الدَّارجة.

قال علي عثمان طه، النائب الأول لصحيفة 'الشرق الأوسط' بتاريخ ٢٠٠٩/١/١٠: «**هناك أحاديث رائجة حول تنحِّي البشير عبر انقلابٍ وإقامته بقصر في المدينة المُنوَّرة، وتلك شائعات يتمناها بغاث الطير**».. وتلك مناسبة لا يمكن لنافع علي نافع أن يقول فيها خيراً أو يصمُت، فصرَّح لذات الصحيفة، وقال: «**إن حكومته تلقت عرضاً من جهات لم يُسمِّها بعدم ترشُّح الرئيس البشير للانتخابات المُقبلة، مقابل وقف إجراءات المحكمة الجنائيَّة ضِدَّه بشأن دارفور**»، ورُبَّ سائلٍ عن بقيَّة العُصبة آنذاك، ليس في الأمر جديد، فهُم كما تعلمون تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، بعضُهُم أسكرته السُّلطة بعد ازدياد تدفق أموال البترول التي كانت تجري مدراراً بين أيديهم، فصاروا يفسدون كما يتنفسون، وبعضهم كانوا منهمكين في حياكة مؤامرات ودسائس القصر والصوالين المُغلقة، وبعضُهُم كالعهد بهم ساهون ولاهون لا يدرون صُبحَهُم من ضُحَاهُم، وفوق هذا وذاك، كان هناك شعبٌ.. آخر من يعلم!

(١٦)

بعدئذٍ أصبحت الصورة واضحة لكُلِّ ذي لُبٍ حكيم.. انكفأ ما تبقى من التيَّار الوحدوي في الحركة الشعبيَّة على ذاته، وأصبح الطريق مُمهَّداً للانفصاليين، مسنودين بقائد الحركة سلفا كير ميارديت من جهةٍ، ومُؤازرين من السُّلطة المُخادِعة وجهاز أمنها المُنهمِك في أنشطة "وحدة ملذات الحركة الشعبيَّة" التي حللت كُلَّ شيءٍ كما ذكرنا. لا عليك يا عزيزي القارئ، حتى لا يكون في الأمر ثمَّة طلاسم، سأجعلك تقترب قليلاً من عش الدبابير..

حدَّثني أحد وزراء الحركة الشعبيَّة، وقد جاء للكُرسي الوزاري بآمالٍ عِرَاض.. قال لي أنه ذهب ذات يوم وقابل كمال عبداللطيف المسئول عن شئون الوزراء في القصر الجمهوري، وسأله قرضاً حسناً، أي "سلفيَّة" كما نقول عنها، فسأله عبداللطيف: فيم يريدها؟! فقال له أنه يريدها لاكمال بناء منزله.. عندئذٍ انفجر عبداللطيف ضاحكاً بصورة مجلجلة حتى كاد أن يسقط من كرسيه.. استغرب صديقنا وظنَّ أنه جاء شيئاً إدا. لكن بعد أن هدأت أنفاس عبداللطيف، قال له بصوتٍ متهدِّج من الضحك: «**نِحنا ما عندنا سلفيَّات لبيوت، إنت مش وزير؟! خلاص شوف ليك "هَبْرَة نضيفة" كِدَه وكمِّل بيها بيتك**».. ولمصلحة القارئ في تخيُّل الميلودراما، تذكر أن المذكور عندما قال "هبرة نضيفة" كان قد لوَّح بيده

في الهواء بطي الأصابع على راحة الكف كما نفعل في مثل هذه المشاهد.. الواقع، لم يكن صديقنا يعلم حتى وقتذاك أن كمال عبداللطيف عضوٌ أصيل في منظومة وحدة الملذات. فخرج من المكتب وهو مندهشٌ من هذه الشفافيَّة في الفساد!

(١٧)

أخيراً وليس آخر.. مع كل ذلك الإحباط الذي رشح من عدم ترشُّح سلفا كير ضماناً لوحدة السُّودان، كان هناك ثمَّة ضوء صغير في آخر النفق المظلم، أو إن شئت، فقُل عنه إنه محض "فرفرة مذبوح"، كان يمكن أن تغيّر معادلات السُّودان السياسيَّة بطموح أكبر من مسألة ترشيح سلفا كير لرئاسة الجمهوريَّة.. كان ذلك سيناريو مُحكَم الصياغة أيضاً، رَسَمَ معالمه بعض السياسيين الحادبين، والذين ينتمون لتيَّاراتٍ سياسيَّة مختلفة. وتمثل اختصاراً في تكتل انتخابي قوامه الحركة الشعبيَّة وكل القوى السياسيَّة الشماليَّة التي كانت منضوية معها تحت لواء التجمُّع الوطني الديمقراطي. وهو السيناريو الذي افترض أن التكتل المذكور يمثل غالبيَّة أهل السُّودان، وبشرط أن تكون الانتخابات حرَّة ونزيهة، ولكن من ذا الذي يضمن أمر كهذا في أجندة أبالسة التزوير؟! جاءت الاجابة البديهيَّة.. الاستعانة بالمجتمع الإقليمي والدولي، لضمان العمليَّة الانتخابيَّة وحمايتها من الغش. المُفارقة التي لن تدهش أحد، ما أن أسفر هذا السيناريو عن نفسه حتى تحرَّكت قرون استشعار العُصبة لتصنع السيناريوهات المُضادَّة التي تحول بين أي تقارُبٍ بين الحركة الشعبيَّة لتحرير السُّودان وتلك القوى الشماليَّة.. وبالطبع هناك من استجاب ووقع في حبائلهم، وهناك من تمنَّع وهو راغب، وهناك من استبقى نفسه في السياج وهو يعض أصابع الندم ويلعن سنسنفيل الفرص المُهدرة لهذا البلد تعيس الحظ!

وهذا يا عزيزي القارئ حديث آخر "مغتغت" سنزيح عنه الغطاء في الحلقة القادمة!

آخر الكلام: لابُدَّ مِنَ الدِّيمُقرَاطِيَّة وإن طَالَ السَّفر!!
٢٠١٤/٢/١٧

أسرارٌ يصعُبُ ترويجها.. أو وقائعَ الكارثة المقبلة! (٣)

للتذكير بما مضى من حلقاتٍ، نقول إن الهدف الرئيسي لهذه السلسلة هو تعرية صراعات الخفاء في أروقة العُصبة ذوي البأس الحاكمة بشكلٍ عام، وتوضيح جذور الصِّراع التي أدَّت للتطوُّرات الأخيرة بشكلٍ خاص. ونقدِّم في هذا الصدد تحليلاً بمعلوماتٍ نطمح أن تُعين القرَّاء على وضع الأمور في مسارها الصحيح. لا سيّما، وأن العُصبة نفسها بصدد إعادة إنتاج الأزمة التي استحكمت حلقاتها، وباتت تهدِّد وجودها برحيلٍ محتمل. وعلى الرغم من الإقرار بتطاول أمده - أي الرّحيل- إلا أنه لن يأتي بغتةً.. فهو حقيقة جَهَرَ بها ذوي الألباب حتى بحّت أصواتهم وجفَّت أقلامهم، بل جَهَرَ بها حتى الذين كانوا يشاركون النظام توجُّهاته الآيديولوجيَّة، وتقاسموا معه سرَّاءه وضرَّاءه. ولكن نظراً لطبيعتهم الشموليَّة "التوتاليتارية" لم يكُن من المأمول فيهم أن يستبينوا النُصح قبل وقوع الكارثة، بدليل أنهم يظنون الآن أنه يمكن استغفال هذا الشعب الطيِّب بمثلما استغفلوه لرُبع قرن. وإلا فليقُل لنا عاقلٌ: ما الذي يجعل الديمقراطيَّة التي كانت كُفراً بالأمس، إيماناً اليوم وتكاد تُدرج كرُكن سادس لأركان الإسلام؟! أليست الحريَّة التي استكثروها على الناس بالأمس، هي ذات الحريَّة التي يَمِنون بها عليهم اليوم؟! حرَّموا الغناء بالأمس وحللوه اليوم، لدرجة تكريم الفنانين محمَّد وردي ومحمَّد الأمين ومحمود عبدالعزيز.. والذين يتحدثون عن وطنٍ يسَعُ الجميع، أليسوا هُم أنفسهم الذين شرَّدوا أبناءه في الدَّاخل والخارج، واحتكروا الوطن والوطنيَّة؟! أنظروا لفِعلِ الحُواة، قالوا بالأمس إن الله تعالى أرسلهم لإخراج أهل السُّودان من الظُلُمات إلى النور، واليوم يقولون إن الله نفسه أوحى إليهم جمع شمل أمَّة تفرَّقت بها سُبُل السياسة. والمُفارقة مع بؤس ما ينطقون إلا أن ثمَّة قُوى سياسيَّة حزبيَّة جاورتهم في سوء الظن، وأخرى مصابة بشبق فطري للسُّلطة، يريدون أن يشاطروهم إعادة إنتاج الأزمة ليُصبح هذا الشعب الكريم.. في كُلِّ عامٍ "يُرذلون"!

(١٩)

على مدى رُبع قرن تحكَّمت العُصبة الماسونيَّة في مصير أكثر من أربعين مليون سوداني، قدَّموا ثلثهم إلا قليلاً قرباناً لرُؤيا رأوها في ظلام حربٍ أشعلوها فتنةً.. رُبع قرن يعجز فيه القلم عن حصر البلايا والرزايا التي أصابت السُّودان

والسُّودانيين في مقتل.. كنا قد قلنا إن الفريقين المُتنازعين أو المتنافسين، أو إن شِئتَ فقُل "الإخوة الأعدقاء" علي عثمان محمَّد طه الحاكم بأمره في الخفاء، ونافع علي نافع الحاكم بأمره في العلن، تواصَلَ بينهما الصِّراع منذ رحيل ثالثهما مجذوب الخليفة، وشهدت الكواليس كرّاً وفرّاً، عُلواً وهُبوطاً، إلى أن جاء السيناريو الذي مضى بالوارثين إلى غياهب الجُبّ. بَيْدَ أن الأمر لم يكُن بذات السهولة التي كتبنا بها هذه الأسطر، إذ ينبغي علينا الوقوف عند حيثيات بعينها، وهي تتطلب منّا قليلاً من الصَّبر حتى يتسنّى لنا متابعة وقائع تكشف أسرار مرحليّة، لها انعكاساتها على الواقع السُّوداني المُثخن بالجراح من جهة والمُهيِّأ لوقائع كارثة مقبلة من جهة أخرى. فهل يجوز لمن تلطخت أياديه بدماء الأبرياء وولغ في الفساد حتى لم يبق من جسده شبراً طاهراً، أن يطوي تلك الصفحة كما يطْوي كتاب فرغ من قراءته؟! ذلك سؤال أجاب عليه تاريخ البشريَّة بصورة عامة وتاريخ العقديين بصفة خاصة، إذ لم تختلف جماعة منهم دون أن تنقسِم، ولم تنقسِم إلا بعد أن رفعت المصاحف على أسِنَّة السيوف، ولم تُطوَ المصاحف وتُرجَع السيوف لأغمادها إلاّ بعد أن أراقت على جانبيها الدماء. وتعلمون أن هذا ما قاله بوضوح التاريخ الإسلامي - الذي تحاول العُصبة تملق سُننه وفرائضه والإيحاء بأنهم حملة رايته - منذ أن صارت دولة الخلافة مُلكاً عضوداً، قتلاً وسحلاً وتنكيلاً، وممارساتٍ أخرى تصدَّعت لها ردهات قصور بني أمَيَة، وضجَّت بها أركان دولة العبَّاسيين، وتسوَّدت جرَّاءها قلوب آيات الله الجُدُد..

وللذين يهرُبون مِمّا ندعو في الفصل بين الدين والسياسة، ويستعصمون بالثيوقراطيَّة البغيضة ملاذاً، نقول إن تاريخنا الماثل خير مثال، إذ أُريقت فيه الدماء قولاً وفعلاً، وتبعتها اراقة قيم ومثل وأخلاق.. فيا دُعاة الدولة الدينيَّة، ما أكثر الشواهد حين تعدها، ولكن الذاكرين قليل!

(٢٠)

نعود للسيناريو الذي تفتق عنه ذهن نشطاء سياسيين كما ذكرنا، وهو سيناريو اعتمد بشكل أساسي على المثل الإنجليزي الشائع: "الذين يُصوِّتون بأقدامهم" التقليد الرَّاسخ في تاريخ الانتخابات البرلمانيَّة الديمقراطيَة السودانيَّة، أو ديمقراطيَة "وست منستر" كما تُعرَّف. فقد نهض الاقتراح دفعة واحدة بعد الاستقبال الذي حَظِيَ به الرَّاحل دكتور جون قرنق دي مابيور في ميدان السَّاحة الخضراء بالخرطوم، حيث تدفَّقت ملايين لم يشهد التاريخ السُّوداني لها مثيلاً، الأمر الذي أربك دوائر العُصبة الحاكمة، فبدأت في حياكة المؤامرات البارعة في صنعتها، لدرجة ما زال البعض مُؤمناً إيماناً كاملاً بدورٍ لهُم في سقوط المروحيَّة التي كانت تقله وأودت بحياته فوق سفوح جبال الأماتونج. وبالطبع، هو حديثٌ ذو شجون بالفعل، ويحتاج لمبحثٍ خاص، سنخوض فيه متى ما اكتملت أركانه. على كلٍ فإن الاستقبال المذكور أوضح بشكلٍ جلي أن ما ظلّ يدعو له الرّاحل قرنق ليل نهار بما أسماه بأطروحة "السُّودان الجديد" صار قاب قوسين أو أدنى من

التحقق. وهو بحسب قوله، يمكن أن يُؤدِّي إلى تفكيك النظام سلمياً، لا سيّما، وأن المجتمع الدولي ممثلاً في الولايات المتحدة الأمريكيَّة ودول الترويكا الأوروبيّة كانت الضامن الفعلي لإتفاقيَّة السلام. كان السيناريو قد تمثّل في ضرورة خوض الحركة الشعبيّة الانتخابات ضد المؤتمر الوطني الحاكم، ذلك بالتضامُن مع كل القوى السياسيّة الشماليّة التي كانت تنضوي معها في إطار التجمُّع الوطني الديمقراطي، إلى جانب الحركات الدارفوريَّة قبل أن تتشرذم. (تكوّن الحلف في جوبا في مايو ٢٠٠٥، وسُمِّي باسمها حيناً، و"قُوى الاجماع الوطني" حيناً آخر)!

(٢١)

بالصورة الواقعيَّة، كان ذلك سيناريو يمثل غالبيَّة أهل السُّودان. بل يمكن القول بحديث النسب إنه يمثل أكثر من ٩٠% من القوى الاجتماعيّة السودانيَّة، فالمعروف أن العُصبة الحاكمة تمثل أقل من ٥% من النسبة المذكورة حتى بعد أن بدّلت جلودها. على كلٍ، كان رحيل قرنق فجأة (بعد ٢١ يوماً من وصوله الخرطوم) قد أربك دوائر الحركة الشعبيَّة وتكتيكاتها أيضاً، وبالرغم من تجاوُزها المحنة تنظيمياً باختيار سلفا كير، إلا أن الخلف مضى في طريق سلفه - وما زال - بـ"استيكة"! وعندئذٍ كان من الطبيعي ألا يتحمَّس للخيار المذكور وحلفه الذي تبنّاه.. بل على العكس تماماً، اجتهد في طيّ الفترة الانتقاليَّة بقضّها وقضيضها للتعجيل بخُطى الانفصال. وفي واقع الأمر، وبغضّ النظر عن توجُّهات سلفا كير تلك، فإن الخيار الذي تحدثنا عنه خالطته سلبيَّات، وحالت دون أن يجد حظه من التجريب. كانت أولى تلك السلبيات هي توجُّسات الحُلفاء وفي طليعتهم حزب الأمّة، إذ ظلت علاقته متوترة مع الحركة الشعبيَّة على الدوام، وتحديداً منذ هروب السيّد الصّادق المهدي من السُّودان أواخر ديسمبر من العام ١٩٩٦، وزادت توتراً بعد الرسائل التي تبودلت بينه وقرنق، وكانت قمَّة في الخُصومة السياسيَّة (لمن يريد الاستزادة، فليعُد إلى تلك الرسائل وملابسات العلاقة في كتابنا الموسوم بـ"السُّودان.. سقوط الأقنعة" أما ثاني السلبيات فقد تمثلت في كيفيَّة ضمان نزاهة الانتخابات مع خصم له باع طويل في التزوير بكافَّة أشكاله، وإن خفَّف البعض من غلوائه بضرورة الاستعانة بالمجتمع الدولي لتكثيف الرقابة!

(٢٢)

قد يقول قائل إن ذلك كان محض أضغاث أحلام، وبالطبع فإن للقارئ الحق في تفسير الأمور كيفما شاء، وكاتب هذه السطور نفسه برغم ثقته الكبيرة في الرَّاحل قرنق إلا أنه لم يكن متيقناً من أنه إذا ما امتدّ به العُمر سيعمل على إنجاح تلك الفكرة، خاصّة وأن السلبيات التي ذكرنا بعضها كانت تمثل تحدياً كبيراً. لكن استطيع أن أقول إن الذي ساءني وآخرين بالطبع، هو أن ذلك السيناريو كان أشبه بوعد بلفور (أعطى من لا يملك إلى من لا يستحق).. فالفكرة رغم نُبلها، إلاَّ أنها أسقطت مسألة الشرعيَّة عن نظام ظلّ هاجسه المقيم هو شرعنة نفسه، وقد ظنّ - وما يزال - أن تقادُم السنين كفيلٌ بطمس تلك الشرعيَّة المفقودة. على كل، رَحلَ

قرنق ورَحَلت رُؤاه معه وترك من خلفه قوماً تعاركوا على خلافته من قبل أن يجفّ ماء قبره، وفي خِضَمّ ذلك كان من البديهي أن تتجه الحركة نحو الانفصال. ومن باب سدِّ الذرائع، قدّمت ياسر عرمان مرشحاً لرئاسة الجمهوريّة، وأعلنت انسحابه بعد حين وما كان ينبغي لها أن تفعل غير ذلك، لكن واقع الأمر كان ذلك مجرّد ذر رماد في العيون، لأن الكواليس شهدت أسوأ مقايضات. في التاريخ السياسي السُّوداني، حيث تمّت صفقات في الظلام بين النظام الديكتاتوري والحركة الشعبيّة شريكه في السُّلطة. على سبيل المثال قايضت الطغمة تمرير قانون الاستفتاء وعقده في موعده بجملة قوانين، على رأسها تمرير قانون الأمن سيّئ الصيت. وكان على شعب السُّودان الصابر تجرُّع المأساة التي صنعتها فترة انتقاليّة زادته رهقاً على رهق!

(٢٣)

أقيمت الانتخابات في أبريل ٢٠١٠، وقد شهدت أكبر عمليّات تزوير في التاريخ السياسي السُّوداني، ولم يكن ذلك غريباً بالطبع. وقبل ذلك تحرّكت قرون استشعار العُصبة مُمثلة في علي عثمان ونافع، اللذين جمعت بينهما المصائب، فعَمِلا على إجهاض ذلك السيناريو بالضرب على سلبياته المذكورة. وفي سياق ذلك، توجّهت الأنظار نحو الحزبين الطائفيين، فدخل "المال السايب" معركة في غير معترك. وحينما انكشف سرّه، وذاع أمره، تمثل تبرير الممنوحين في القول إنه عبارة عن تعويض عن ممتلكات صُودرت، ونسوا أن الطغمة صادرت ما هو أعظم من ممتلكاتهم (يذكر الذين كانوا يتابعون أنشطة التجمُّع الوطني الديمقراطي المقبور، أن السيّد الميرغني كان يُصِرّ أن يتضمّن أي بيان ختامي لاجتماعات هيئة القيادة "ضرورة إعادة الممتلكات المُصادرة"، وكان المجتمعون يعلمون إنه بندٌ لا ناقة لهم فيه ولا جمل، فهو يخُصّه وقرينه الآخر).. المهم، أن ذلك فتح الباب للعُصبة أن تُغدِق عليهم من خزائن الشعب الصابر بمقابل معلوم.. هذا المُقابل تمثل بالنسبة للسيّد الميرغني في الاستمرار في مهزلة العمليّة الانتخابيّة بضمان عددٍ محدود من الدوائر الانتخابيّة، والابتعاد بالحزب عن أيِ أنشطة أخرى تعمل لإسقاط النظام، إلى جانب تعيين أحد الأنجال الكرام في منصب مساعد رئيس الجمهوريّة.. (كان حلف جوبا أو ما سُمِي بـ"قُوى الإجماع الوطني" قد انفرط عقده وتباينت مواقفه قبيل الانتخابات، فقاطعها جميعاً أوائل أبريل ٢٠١٠، في حين مضى الحزب الاتحادي والمؤتمر الشعبي في خوضها على مستوياتها كافة) وكفى الله المتحالفين شرّ الانتخابات!

(٢٤)

كانت المبالغ التي مُنحت للسيدين في الانتخابات مجرّد غيْضٌ من فيْض، لم يتوقف منذ أن وطأت أقدامهما الطاهرة أرض السُّودان وحتى اليوم. على سبيل المثال، كان علي أحمد السيّد، المحامي والقيادي في الحزب الاتحادي الديمقراطي قد كشف في حوار منشور ('الراكوبة' ٢٠١٢/٦/٢١، نقلاً عن صحيفة 'الجريدة')

سُئِلَ فيه عن الأموال التي تسلمها الميرغني، فقال: «**هي عبارة عن تعويضات و"لسع عندنا" ٨ مليار مع المؤتمر الوطني، والذي وصلنا حوالي ١٣ مليار بالقديم**».. وبالرغم من أن ذلك لا يحتاج لتأكيد، إلا أن هناك ثمَّة مفارقة جديرة بالتأمُّل. يعلم الكثيرون أن المال يُعَدُّ أحد نقاط ضعف شخصيَّة السيِّد الميرغني، ويمثل جمعه إحدى الهوايات الأثيرة إلى نفسه، هذا بغضِّ النظر عن مصدره، أي سواءً جاء من حكومة ديكتاتوريَّة أو ديمقراطيَّة أو من دول شقيقة أو صديقة، أو حتى جبايات من ممتلكات قد تسوء السائلين إن تبدَّت لهُم.. نقول لمن حاصره العَجَب، إن انهماك السيِّد الميرغني في جمع المال، إضافة إلى دفع ابنه لمنصب سيادي، كما يقولون (باشتراط رعاية مباشرة من أحمد سعد عُمَر وزير رئاسة الجمهوريَّة) يُشكِّلان عاملين يعتمد عليهما في استمراريَّة الطائفة، فهو يعلم تماماً انحسار أرضيَّتها بفعل التطوُّر الطبيعي وازدياد الوعي الذي يتضاد مع ممارساتها، فضلاً عن أنه شخصياً يقف على أعتاب العقد الثمن.. من أجل كل هذا، تجد الميرغني أكثر تمسُّكاً بالدولة الدينيَّة كطوق نجاة من طوفانٍ قادم لا مُحال. لذا فهو غير معني بهُويَّة النظام الحاكم وإن ادَّعى، ويُكيِّفه من السواد الأعظم لهذا الشعب المحتار، بضع حواريين من نُخَبِهِ، يُخففون عنه وطأة محنته بتقبيل اليد الطاهرة، بحثاً عن "عطيَّة مِزَيِّن"!

في الحلقة القادمة نواصل اجترار الآلام، ونستعرض فيها دوافع السيِّد المهدي الذي أبرم مع النظام صفقة بثلاثة مُوبقات أيضاً، كصِنْوِه المذكور!

آخر الكلام: لابُدَّ مِنَ الدِيمُقرَاطِيَّة وإن طَالَ السَّفر!
٢٠١٤/٣/١

أسرارٌ يصعُبُ ترويجها.. أو وَقائِعَ الكَارِثة المُقبِلة! (٤)

امتداداً لما ذكرنا من وقائع في الحلقة الماضية، والتي سلَّطنا فيها الضوء على تعامُل السيّد محمَّد عثمان الميرغني مع القضيَّة السودانيَّة بصورة عامَّة، ومواقفه المتقلبة من النظام بصورة خاصَّة، وقُلنا بشواهدٍ إنها تحكُمُها بدرجة أساسيَّة حُبُّه للمال حُباً جمَّاً، الأمر الذي عَمِلت العُصبة على استغلاله حتى دجَّنته. نزيدُ أيضاً بقصَّتين تعضيداً لما سردنا.. ففي كتابه "السودان، أهوال الحرب وطموحات السلام" ص ٨١٦، كتب الدكتور منصور خالد الآتي نصه: «**وجَّهت السيّدة سوزان رايس، مدير إدارة أفريقيا بمجلس الأمن القومي (قبل أن تُصبح مساعداً لوزير الخارجيَّة لشئون أفريقيا في إدارة الرئيس بيل كلنتون)** سؤالاً **للسيِّد الميرغني يُعبِّر عن تلك المخاوف، في لقاءٍ شارك فيه الكاتب، سألت رايس الميرغني: ما الضمان لأنكم لن تعودوا مستقبلاً إلى مواقفكم السابقة حول هذه القضايا؟! فأجاب: الضمان هو ثباتي على موقفي الذي تعاهدتُ عليه مع قرنق منذ العام ١٩٨٨**»..

تلك القصَّة دارت وقائعها منتصف تسعينات القرن الماضي، أي في أوَّل زيارة للميرغني لواشنطن بعد ترؤسه هيئة قيادة التجمُّع الوطني الديمقراطي. والواقع أن الرَّاوي سرد الرواية مبتورة، ولم يذكرها كاملة لاعتباراتٍ نعلمها، وهي خاصَّة به. أما نحنُ، فقد تواترت إلينا طازجة حينها، والمنصور خالد بها زعيم.. فما ذكره في النص من "مخاوف" و"مواقف سابقة" ولم يُفصح عنهُما عمداً، كانتا قد تمثلتا في سؤال رايس للميرغني في بداية اللقاء، بقولها: «**تُرى ما هو الفرق بينكم وحكومة الجبهة الإسلاميَّة الحاكمة في الخرطوم، وكلاكما تدعوان لدولة إسلامية؟!**».. فقال لها: «**نحن أسرة الميرغني أغنى أسرة في السُّودان، ولو أننا مثلهم، لاستبقيتُ نفسي في السُّودان لاستثمر أموالنا**».. ثمَّ أكمل إجابته بالنصِّ المذكور أعلاه والمُقتبس من الكتاب.. فبُهِتَ الذي سأل.. ونحن أيضاً!

(٢٦)

أما الرواية الثانية، والتي ذكرناها في كتابنا المشار إليه من قبل "سقوط الأقنعة.. سنوات الأمل والخيبة" ص ٤٧٥، فهي تصُبُّ في اتجاهٍ موازٍ يُوضِّح كيفيَّة تعامُل الميرغني مع القضيَّة العامَّة بمنظور هوايته تلك بعد أن هيأت له

الظروف ترؤس التجمُّع الوطني الديمقراطي، أو الكيان الذي حَظِيَ بمؤازرة غالبيَّة أهل السُّودان، وبدعم إقليمي لا حدود له، ومساندة دوليَّة كبيرة. حدثت القصَّة التي نرويها في أوَّل اجتماع بين السيناتور القس جون دانفورث وبعض أعضاء هيئة القيادة، وعلى رأسهم الميرغني في منزله الكائن في القاهرة والمُسمَّى بـ"فيلا الخرطوم" منتصف العام ٢٠٠٣، وآنذاك كان الكيان المعارض يبحث عن خُرم إبرة يدخل بها مفاوضات الإيغاد "نيفاشا" بعد أن كان شريكاً للحركة الشعبيّة في السرّاء والضرَّاء. وبجانب أعضاء هيئة القيادة (عبدالرحمن سعيد، فاروق أبوعيسى، التيجاني الطيِّب، محمَّد أحمد حسن عبدالمنعم، أحمد سعد عُمر)، حضره أيضاً القائم بأعمال السفارة الأمريكيَّة في القاهرة مستر ميلتون، ونسبة لضيق الوقت الذي تحدَد للاجتماع بنحو ٤٥ دقيقة، قام الأعضاء المذكورون بصياغة مذكِّرة بحيث يقوم الميرغني بتسليمها لدانفورث. لكنه ترك كل ذلك جانباً وطفق يحدث الحاضرين حديثاً أدخل الملل في نفوسهم عن أسرة الميرغني واستثماراتها وثرائها. وقال مُوجِّهاً حديثه لدانفورث، إنهم أسَّسوا مصرفاً وعيَّنوا في مجلس إدارته ثلاثة مسيحيين. وبالطبع لن يخفى على فطنة القارئ ما رمَى إليه. صحيح أن دانفورث قسيس قبل أن يكون سيناتوراً، لكنه لم يقُل إنه جاء مبعوثاً من قبل العناية الأمريكيَّة للتبشير بالمسيحيَّة.

أما ثالثة الأثافي، لو تعلمون، فقد انفضَّ الاجتماع وغادر دانفورث ولم يقُم الميرغني بتسليمه المذكرة المذكورة، الأمر الذي دعا الأستاذ فاروق أبوعيسى وصحبُهُ الميامين بتكبُّد المشاق والذهاب لمقرّ إقامة دانفورث وتسليمه المذكرة. هل تُرى بعدئذٍ يا عزيزي القارئ ثمَّة حاجة لأن تعرف لماذا أصبح الكيان الذي ملأ الدُّنيا وشغل الناس يتسوَّل الحُلول؟!

(٢٧)

من أجل كل ذلك، إن كنا نتحدَّث عن المسكوت عنه في الواقع السُّوداني، ينبغي على شعبه الصابر ألاَّ يكلف الميرغني إلا وسعه. فالحقيقة التي يتعامى عنها مُعظمنا، رغم أنها تشكِّل واقعاً مؤلماً، هي أن الميرغني يرأس حزباً هو صاحبه، على عكس أبجديات العلوم السياسيَّة التي تُعرِّف الحزب بأنه كيانٌ لجماعة. وبالتالي، فإن الميرغني لا يرى غضاضة، بل ليس في الأمر غرابة إن ترأس هذا الحزب لما يقارب النصف قرن، فضلاً عن أنه لا يرى أيضاً في الأمر مُنكراً إن جمع مع رئاسته تزعم طائفة بغضِّ النظر عن تضاد رسالتيهما وتوجُّهاتهما ومراميهما. بَيْدَ أن التناقُض الأكبر يكمُنُ في أن هناك من صدَّق أن فاقد الشيء يمكن أن يعطيه، وظنَّ أن الميرغني يعمل على استرداد الديمقراطيَّة. علماً بأن الحقيقة التي ينبغي علينا مواجهتها حتى نستبصر أمورنا بصورة تتواءم ومتطلبات العصر، هي أن رجُلاً بتلك الصفات لا تهمه هُويَّة النظام الحاكم، سواء كان ديمقراطياً ليبرالياً أو ديكتاتورياً متسلطاً، ولا أعتقد أننا جئنا بأمر جديد في هذا الشأن، فنحن على الأقل نردِّد ما يقوله البعض همساً ولا يجرأون على قوله جهراً. المُفارقة أن دهاقنة الطغمة الحاكمة وقفوا على مكوِّنات ذلك الواقع البئيس

وعملوا بوسائلهم الخبيثة على استغلاله وتجييره لصالح نظامهم. إذ أبرم الميرغني عقداً شفهياً مع النظام – مثلما ذكرنا في انحلقة الماضية – قضى بألا يعمل على إسقاطه أو حتى مساندة الذين يريدون إسقاطه قولاً أو فعلاً، لاسيّما، وقد جبر النظام ضرره الذين كان يدَّعيه بعطايا لم تتوقف مطلقاً. إذاً، فما الذي يمكن أن يُرجي مِمَّن كرَّس نفسه سيّداً لطائفة، ويرى الطائفة تعلو على الحزب، ويُؤمن بأن الحزب فوق الوطن؟!

(٢٨)

ليس من باب فقه المقارنات، ولا شخصنة القضايا، فالبون شاسع كما تعلمون، إذ أن لكُلٍ من السيّدين شأنٌ يُغنيه في الوطن وقضاياه. طبقاً لهذا، فثمّة مسألتين قد تفسِّران المواقف الرماديَّة للسيِّد الصَّادق المهدي حيال النظام. الأولى، عُرف بأنه أكثر انشغالاً بالقضايا السياسيَّة والفكريَّة سواءً اختلف الناس معه أو اتفقوا، ولهذا بدأ يظهر للمراقبين بمظهر الزَّاهد عن المال وجمعه، بعكس الميرغني الذي ذكرنا. لكن ذلك زُهدٌ قد يصمد أمام الدهر وتقلباته، ولكنه قطعاً لن يقوى على الصُمود في تسيير شئون طائفة وحزب معاً (المعروف أن حزب الأمَّة شأنه كشأن سائر الأحزاب السودانيَّة – عدا الحزب الشيوعي نسبياً – ليس في أجندته الماليَّة أي بند لاشتراكات الأعضاء، الذين رسخ في عُرفهم أن الحزب يُعطِي ولا يُعطى)، لهذا كانت الحاجة هي نقطة الضَّعف التي عملت العُصبة الحاكمة على استغلالها، الأمر الذي انعكس على مواقف المهدي، فأصبح يبدو وكأنه غير جادٍ في مسألة إسقاط النظام، وقد انعكس ذلك ضعفاً على حزبه، إذ صار يتآكل من أطرافه كما السُّودان نفسه. نتج عن ذلك أن دفعته الحاجة المستمرَّة لتسيير شئون الحزب والطائفة لأن يطرق الباب الحرام، فلجأ للسُّلطة الغاصبة تحت دعاوى استرداد ثمن سيارات صُودرت بعد الانقلاب (علماً بأن للمهدي تجربة مريرة في مسألة تعويضات آل بيته إبان رئاسته الوزارة في الحقبة الديمقراطية الثالثة)..

من جهة ثانية، فثمَّة قلَّة من الناشطين - ونحن ضمنهم - كانوا على علمٍ بالسبب الرئيس الذي حدا بالمهدي لإسقاط "لاءاته" الشهيرة وطي ملف العمل المعارض في الخارج، ومن ثمَّ العودة للسُّودان في نوفمبر من العام ٢٠٠٠، بل قبل ذلك تسريع خُطى تلك العودة باتفاقٍ منفرد مع النظام في العام ١٩٩٩ بجيبوتي. فهذا وذاك كانا سبباً في عدم قُدرته الصَّرف الذي يتطلبه نشاط الحزب في المهاجر، لا سيَّما، وأن السيّد مبارك الفاضل – لشيءٍ في نفسه - كان وقتئذٍ قد جفَّف كل المصادر التي كانت تُموّل الحزب، وهو أمرٌ كشفت مراميه الأيام بعد انتبذ مبارك مكاناً قصياً من الحزب!

(٢٩)

مع ذلك، سنستشهدُ مُرغمين في هذه النقطة بالسيِّد مبارك الفاضل نفسه. أقولُ ذلك، ليس لأن شهادته مجروحة في المهدي بعد أن فجرا في خصومة شقت عنان السماء. وليس لأن له يداً سلفت في الاعتراف من ذات المصادر القمعيَّة

التي وصم بها المهدي. وليس لأنه ذو قدح معلى في فشل النُخب التي اصطلينا بنيرانها، ولكن لأنه ببساطة أكَّد ما قلنا إننا كُنا نعرفه ورهطٌ من الناشطين في تفسير عودة المهدي للسُّودان وبمعيَّته مبارك الفاضل نفسه. بمعنى ان العلاقة بينهما كانت عهدئذٍ "سمناً على عسل"، كما يقولون. ولكن بعد أن ذهب الأحباب كلٌ في طريق، نشر مبارك مقالاً بصحيفة 'الصحافة' ٢٠٠٤/٥/٤، قال فيه مخاطباً المهدي: «**قبل عودتك من منفاك الاختياري الأخير بالقاهرة في ٢٠٠٣م، ارسلت إبنك عبدالرحمن إلى رئيس المؤتمر الوطنى، ليقول له إن أبى يقول لك بأن بقائه في القاهرة ليس عودة إلى المنفى ولا هو مرتبط بموقف سياسى، ولكنه بسبب العجز عن مواجهة الالتزامات الماليّة في السُّودان، وأنه يسألك العون حتى يعود الى السُّودان. وقد استجاب رئيس المؤتمر الوطنى وسدّد فاتورة العودة**»..

ثم اكَد في نفس المقال، أن المهدي استلم من النظام مبلغ مليون دولار كتعويض عن السيارات التي صادروها. وعلاوة على ذلك، عندما كثُر اللغط حول الأمر من بعض جلاوزة النظام بتصريحات مُتعمَّدة قُبَيْلَ الانتخابات التي دبّجوها في أبريل ٢٠١٠، قام حزب الأمَة بإصدار بيان مُطوّل في ٢٠١٠/٤/١٦ يصعُبُ اختصاره، لكن ما يهم أنه تحدَّث عن الأموال التي ذكر أنهم تلقوها تفصيلاً مقابل ما أسموه بـ"المُمتلكات المصادرة"، (عبارة عن ١٦٩ سيارة وأجهزة اتصالات ومطبعة وأثاث)، وهي بحسب البيان قُدِّرت قيمتها بستة عشر مليارا وتسعمائه وثلاث وعشرون مليون جنيه، دُفع منها ملياران وسبعمائة مليون جنيه حتى ذاك التاريخ.. ومع ذلك، نذكُرُها لأنها قضيَّة جدليّة حيال نظام صادر الديمقراطيّة قبل أن يصادر ما هو أدنى منها!

(٣٠)

أما المسألة الثانية التي عملت العُصبة الماسونيّة على استغلالها، وانعكست رخاوةً في مواقف المهدي إزاء النظام، فقد تمثلت فيما يخُص طائفة الأنصار أو الكيان الذي يستمد منه الحزب والمهدي معاً إكسير الحياة السياسيّة والاجتماعيّة. ونحن إن كنا قد وصفنا الحزب الاتحادي بأنه حزب خاص، فإن حزب الأمَّة يختلف عنه نسبياً في إنه حزب لجماعة، ولكن ليد آل المهدي نفوذ في الجماعة لا تخطئه العين، وضمن أولئك يبقى للسيد الصّادق المهدي شخصياً اليد الطولى. وسنضطر مرّة أخرى أن نستشهد بما ذكره مبارك الفاضل في المقال الذي ورد ذكره من قبل، برغم إنه ورد في لحظة احتدام الوغى بين أبناء العُمُومة، ولكنه كان بحضور اخرين ذكرهم بأسمائهم، مِمَّا يُمكن أن يخفّف من وطأة الافتراء، قال مخاطبا المهدي: «**بدأت الاجتماع بفاتحة حديثك أن "هذا حزبي أنا، فمن يريد العمل فيه عليه أن يفهم ذلك، ومن لا يريد فأمامه الشارع والمؤتمر الوطني**».. وفي الواقع، يقول النفسانيون ان حُب التملك يُعَدُّ أقسى أنواع الحُب الذي انحرف عن مساره الطبيعي.. أما أنا، فأعتقد أنه شعورٌ ينتاب الأشخاص

الموفورين نشاطاً مختلف المشارب، وأزعُمُ أن المهدي واحدٌ منهم بلا شك. لكن من الحُبِّ ما قتل، كما تعلمون. بيد أنني لا أدري ما إذا كان للأمر علاقة بذاك الشعار القمئ الذي روَّج له بعض الرِجرِجَة والدَّهماء في فترة تاريخيّة مضت من بواكير تأسيس الحزب. على كلٍ، يمكن القول أن هواجس المهدي بالطائفة والمآلات التي تنتظرها، يُعَدُّ أمراً متوقعاً، أي يَعلو ولا يُعلى عليه، ولكن كيف؟!

(٣١)

في النزاع المزدوج المذكور، كان الجميع يعلمون أن إمامة طائفة الأنصار ظلت مصدر نزاع بين السيد الصَّادق وعمّه السيد أحمد المهدي. وفي الوقت نفسه، كان الحزب هدفاً لتربُّص آخرين من ال البيت المهدوي. وعلى رأس هؤلاء يقف مبارك الفاضل متوثباً وبعض أبناء الإمام الهادي المهدي ينتظرون. كذلك فثمَّة آخرون كانت صراعاتهم أدنى من الإمامة، مثلما هو الحال عند بعض أحفاد الخليفة عبدالله التعايشي ومن جاورهم. ومن جهة أخرى، كان المهدي الذي يعلم تماماً بسُنن الحياة في الفناء والبقاء، يُدرك إن الوضع الماثل لن يدوم طويلاً. إذ أن بقاء الكيانين مستقرّين يعتمد بالدرجة الأساسيَّة على من يخلف السَّلف، أي القادر مثله بالأمر نفسه في خضم صراعات مرئيّة ومخفيَّة. لهذا ففي تقديري أنك لو نظرت لرجال حول الإمام الحالي، بل وكررت البصر مرَّتين سيعود لك بصرك خاسئ وهو أسير!

(٣٢)

من هنا توجَّهت الأنظار نحو ابنه عبدالرحمن الصَّادق، بل هو خياره المُتاح للاستخلاف، بالرغم من أنه يتمتع بقُدراتٍ سياسيَّة وفكريّة متواضعة لا تُؤهِّله في صدِّ سهام المُتربّصين برئاسة الحزب والمتطلعين لإمامة كيان الأنصار. من هنا انطلق دهاقنة العُصبة الماسونيَّة في كيفيَّة التعامُل مع المهدي باستغلال نقاط ضعفه تلك. فقدَّمت له عرضاً كان فحواه أن حزبهم (المؤتمر الوطني) الحاكم يمكن أن يرشح إبنه عبدالرحمن لانتخابات رئاسة الجمهوريَّة العام القادم، أو يدعم ترشيحه إن كان ذلك خيار حزب الأمَّة. وقالوا له إن كلا الخيارين يتطلبان انضمام الإبن لعُصبة المؤتمر الوطني مساعداً لرئيس الجمهورية لكي يتعلم أصول الإدارة والحُكم. كان ذلك عرضاً - وفق ما استقيناه من مصادر عليمة - لم يستطع المهدي معه رفضاً أو تمنعاً، وبالطبع لا يمكن أن يُسِرَّ به حتى لأقرب الأقربين، ليس لأنه يحل إشكاليَّة كبرى يعيشها، ولكن لأن ردود فعله السلبيَّة المتوقعة لا تشكِّل قلقاً له، فقد سبق أن فعل مثلها في ديكتاتورية نميري، ويومئذٍ وبعدئذٍ كانت السدانة محض تنظير يكتبه الكُتَّاب مثلنا، وليس لها ثمَّة تأثير على المعنى بها ولا الطائفة ولا الحزب. إذاً فما الذي سيقع على الإبن مستقبلاً لو أعاد التاريخ نفسه؟! لذا قام المهدي بإخراج سيناريو فطير، كان مصدر تندُّر الناس، بقولهم: «**إذهب يا بني للقصر حاكماً وسأبقى في ود نوباوي معارضاً**»، فلم يقنع حتى راعي الضأن في الخلاء. والمُفارقة أن الإبهام ازداد غموضاً بتعيين الإبن الثاني "بُشرى" في جهاز الأمن، وإمعاناً في تغوير الجروح لم يستح المذكور في

الظهور خلف والده في يوم احتدم فيه الوغى، وقد امتشق ذات السلاح الذي تقتل به العُصبة شباب أهل السُّودان!

(٣٣)

ثمّة مفارقة تاريخيّة جديرة بالتأمُّل، لأنها وضعت المهدي في امتحان عسير وهُو صانعها. كان كما تعلمون قد بدأ حياته السياسيَّة بالدعوة لفصل إمامة الطائفة عن رئاسة الحزب. وفي ذلك، خاض حرباً ضروساً بينه وبين عمَّه الإمام الهادي المهدي، وهي الحرب التي أعادت للأذهان صورا ضجّت بها قُصُور الأمويين والعبّاسيين، ولم تنته برحيل الإمام الهادي، فقد ظهر السيد أحمد المهدي مطالباً بإمامة يظن أنه وارثها. وبدأت سلسلة معارك لم ينجلِ غبارها إلا عندما أعادها السيد الصَّادق إلى حياضه. وفي تقديري، أن الزمن لو رجع به القهقرى للوراء لنكص عن دعوته تلك في إطار محاولاته الراهنة في استبقاء الحزب والإمامة في عقر داره ولا يغادرانها. فلا شكَّ أنه قد ظهرت له الآن سوءات الجَمع بين الضُرَّتين. فابنته الدكتورة مريم تُعَدُّ أكثر أنجاله التصاقاً بالعمل الحركي السياسي، ولها مواقف مشهودة في مناهضة النظام الحاكم، بما يمكن أن يُؤهِلها تنافساً أو تزكية برئاسة الحزب. لكن تبدو المعضلة أمامها في أن إمامة الطائفة أمرٌ دونه خرط القتاد، وذلك لاعتبارات لا تخفى على الناظرين!

(٣٣)

من أجل هذا وذاك، قلنا في الحلقة الماضية إن عُصبة المؤتمر الوطني التي تدرك هذه التقاطعات في أجندة المهدي، قامت بعقد ثلاث موبقات شفاهة مع المهدي، وسيّان إن عقدها مع نفسه لضمان تنفيذ بنود ما ذكرنا.. **<u>الأولى</u>**، عدم معارضته للنظام بصورة جادّة توحي باقتلاعه من جذوره.. **<u>ثانيها</u>**، الابتعاد عن مشاركة القوى المعارضة حراكها المناهض للسُّلطة، سياسيا كان أو عسكرياً.. **<u>وثالثها</u>**، العمل على تقزيم ذات المعارضة والسخرية منها بأكثر ممّا يفعل النظام. ولنا في كل افتراض شواهد لا يستطيع المهدي لها دحضا. وعموماً تلك مسلمات نسوقها لمن أعجزه تفسير مواقفه الملتبسة وأصبح مثلنا من الحائرين!

وخلاصة الأمر، فالمهدي يشارك صُنُوّه المُحصّلة نفسها، بحيث يضع نفسه ربا على الطائفة، والطائفة عنده تعلو على الحزب، والحزب فوق الوطن، وللوطن شعب يحميه، وهو من الحاكمين!

بيد أننا سنتطرّق لسؤالٍ جوهري في الحلقة المُقبلة حول انعكاس سيرة السيّدين هذه على أجندة سيّدَيْ الطائفة الثالثة (علي عثمان طه ونافع علي نافع) وصراع كواليسهما موضع هذه السلسلة!

آخر الكلام: لابُدّ من الدّيمُقراطيّة وإن طَال السّفر!!
٢٠١٤/٣/١١

أسرارٌ يصعُبُ ترويجها.. أو وقائعَ الكارثة المُقبلة! (٥)

في خواتيم هذه السلسلة، سأضع بين يديك يا عزيزي القارئ الأسرار التي ضجّت بها قصور الأمويين الجُدُد على مدى سنوات، ونجحوا نسبيا في إخفائها بعيداً عن العيون. وهي ذات الأسرار التي أفضت إلى التغييرات التي أجروها على بنْيَة السُلطة في الثامن من ديسمبر الماضي ٢٠١٣، وأُبعِد بموجبها الحرس القديم، وجيء بحرسٍ جديد للإيحاء بأنه سيُخرج البلاد من الجحيم الذي أوقعوها فيه. بيْد أن جديد مقالنا هذا، هو أن السيناريو لم يكُن نتيجة الأزمة الشاملة التي تعيشها البلاد الآن، ولكنه جاء نتيجة تفاقُم صراع الكواليس بين القطبين المتنافرين، واللذين سبق ذكرهما (علي عُثمان طه ونافع علي نافع)، ومن ثمَّ أدَّى ذلك الصراع الخفي إلى الأزمات التي حاصرتهم وبات الفكاك منها أمراً صعباً، إن لم يكُن مستحيلاً. وكنا قد أوردنا عند بداية هذه السلسلة جذور التصدُّع بينهما، ثمَّ استعرضنا الفروع ذات الصلة بالجذور، بما في ذلك مواقف بعض قادة الأحزاب السياسيَّة. وسنكمل بتأثير كل ذلك على مُجريات الواقع بصورة عامة ومآلات العُصبة أو ما سمَّيناه وقائع الكارثة المُقبلة بصورة خاصَّة. ولكن قبل الخوض في ذلك إن جحظت عيناك يا عزيزي القارئ، أو "وقف شعر رأسك"، كما نقول في لغتنا الدارجة، فثق - يا هداك الله - أننا لم نقتلع هذه المعلومات اقتلاعا من فم التمساح، ولكنها جاءتنا تسعى من ذات الأفواه المُتمَضمِضة نهارا، وماضغة أسرار بعضها البعض ليلاً. وتعلمون أن لها يداً سلفت، بوثائق زلزلنا بها الأرض تحت أقدامهم.. ما زالوا يبحثون عن مجراها ومرساها!

(٣٦)

أولاً، وقبل الخوض في التفاصيل، أقول: عندما نذكر القُطبين المتنافرين تصريحا، فذلك لا يعني أن الأمر محصور فيهما تلميحاً. فقد اجتهد كل منهما ما وسعه على تأسيس جماعة أو منظمة داخل التنظيم تأتمر بأمره، وتعمل على تدمير الآخر بكُلِّ ما أُوتيت من قوَّة وجبروت، كما تقوم في الوقت نفسه بتسخير إمكانات الدولة بالصورة التي تضمن لها الإمساك بتلابيب السُلطة. من أجل كل هذه الطلاسم، لم يكن كثير من الناس يعرفون، كيف تُحكَمُ هذه البلاد، أو من ذا الذي يحكمها؟! فقد شغلوا الرئيس المشير الجالس على سُدّتها بالدُنيا وملذاتها، وهو بمُكره أيضاً كان يعلم بصراعات الجماعتين وطموحاتهما، ولكنهما أعلماه - كلٌّ بطريقته - باتفاقهما على رئاسته. عندئذٍ استفاد من تناقضاتهما من جهة،

واستند على رفيقيه الفريقين العسكريين (بكري وعبدالرحيم) من جهة أخرى. وفي الواقع، ما زالت علاقته بهما تشكِّل استفهاماً سنعمل على إزالة غموضه أيضاً. ضمن هذا الإطار، قاد نافع علي نافع حملته الخفيّة على غريمه علي عُثمان طه، أسفرت عن وجهها بوضوح، بدءً من مطلع سنوات الفترة الانتقاليّة مع الحركة الشعبيّة لتحرير السُّودان. وكلما اشتدَّ وطيس التشاكس معها في القضايا المختلفة، كان نافع يرمي بكل أثقاله على طه للإيحاء لعُصبته بتحميله المسئولية بالدرجة الأساسيَّة. الواقع أن الاتفاقيّة برغم أن المنظومة داخل التنظيم والمُتحكِّمة في تسيير مجريات الأمور، اتفقوا عليها بكل بنودها، إلا أن طه بالفعل كان "مايسترو" الفرقة الذي عمل على إقناعهم بكثير من القضايا التي وصلت فيها المفاوضات إلى طريقٍ مسدود، مِمّا أوحى بأنه صانعها فعلاً. لكن المهم في الأمر أن نافع بادر بحملته تلك لأنه خطط ورسم وطمح لأيلولة الرئاسة لحياضه، وهو أمرٌ لن يتاتى في ظلِّ وجود طه الطامح لها أيضاً، ولسوف تُقرّبه الاتفاقيّة من هدفه المنشود!

(٣٧)

قد لا يعرف الكثيرون أن ثمّة بنود أقرب للسريّة لم يتم التعبير عنها بصورة واضحة وجليّة في اتفاقيّة السلام، فكانت أقرب للالتزام الشخصي بين علي عُثمان طه وجون قرنق دي مابيور، وذلك لأسباب كثيرة يعجز المجال عن حصرها ولكنني سأذكر لاحقاً أهمها. ففي حال اختار الجنوبيون الانفصال فإن القضايا المُشار إليها أعلاه منها، المساهمة في دفع ديون السُّودان، وتعويض حكومة الشمال تعويضات مُجزية عن الفاقد من البترول الذي سيذهب لحكومة الجنوب، بالإضافة إلى الاتفاق على سعر أعلى من الأسعار المتفق عليها عالمياً في ترحيل بترول الجنوب عبر خطوط أنابيب حكومة الشمال، وذلك لتعويض جُزء من فقدان عائدات البترول. واقع الأمر، كان قرنق ضامناً لهذه البنود، ويقيني أنه كان مرناً في كثير من القضايا المختلف عليها لأنه كان قد وضع نُصبَ عينيه فرصة لاحت له في حُكم السُّودان كله، وفق ما طمح وخطط وضحى. لهذا السبب كانت ثمّة قضايا كثيرة عولجت بذات الصورة التي ذكرتها أعلاه. لكن رحل دكتور جون قرنق ورحلت معه كثير من الأسرار وبقيت ظلالها شاخصة أبصارها على الواقع الكئيب في السُّودانيين معاً. وللتذكير نقول إن القضايا الثلاث التي ذكرناها لم يتم الاتفاق عليها، إلا في أديس أبابا بعد أن تطوَّرت الخلافات بين دولتي الجنوب والشمال بصورة كادت أن تندلع حرباً من جديد، ومع ذلك ما زالت متعثرة!

(٣٨)

ربّما شعر بعض القُرّاء بدهشة إن قلت لهُم أن علي عثمان طه كان أكثر الذين شعروا بـ"اليُتم السياسي" – إن جاز التعبير – بعد رحيل قرنق، والواقع أن طه كان يرغب فعلاً، بل أبدى حماساً في أن يُصبح قرنق رئيساً للسُّودان، وتلك حقيقة يلمسها خلف السُطور كل من طالع كتاب هيلدا جونسون WAGING

PEACE IN SUDAN المُعرَّب بعنوان "اندلاع السلام.. قصَّتي مع مفاوضات أطول حربٍ في أفريقيا" لأن ذلك من شأنه أن يحقق له ثلاثة أشياء وفق استراتيجيته، وهي: **أولاً**، بالوصول لاتفاقٍ تاريخي مع قرنق، فإن رئاسته سوف تعزِّز مكانة طه الشخصيَّة بين رهطه (والتي كانت في كفِّ عفريت آنذاك، وبالطبع بعد رحيل قرنق أصبحت هشيماً في مهبِّ الرياح).. **ثانياً**، إن رئاسة قرنق سوف تهيئ لمشروع حُكم ائتلافي بين الجبهة الإسلامويَّة والحركة الشعبيَّة (للتذكير، فإن الحزبين التقليديين ظلاً يُشكِّلان هما مقيماً للعُصبة الحاكمة، وظلت تحلم على الدوام بمحوهما من الخارطة حتى يتسنى لها وراثة حُطامهما).. **ثالثاً**، إن رئاسة قرنق سوف تُجسِّر العلاقة بين حكومة السُّودان والغرب وبالذات الولايات المتحدة الأمريكيَّة، والتي لن تكتفي بإلغاء العقوبات المفروضة، بل ستضاعف من دعمها (على هامش ذلك، سيجني طه مزيداً من تقوية نفوذه بين قومه، وعلاقة جديدة مع المانحين تجُب تاريخاً مخزياً).. **رابعاً**، إن رئاسة قرنق ستحول دون انفصال الجنوب، وبالتالي لن تتحمَّل الجبهة الإسلامويَّة وزر الانفصال. (لم يكُن طه في حاجة لمُفاضلة بين رئاسة البشير وقرنق، واللبيب بالقرائن يفهمُ) لكن جاء هادم اللذات ليعصف بكُلِّ التوقعات أو الاحتمالات أو الطموحات التي ذهبت أدراج الرياح!

(٣٩)

برحيل قرنق وطموحات طه معه، بدأ الأخير بين عُصبته يعيش بظهر مكشوف، لكن الذين يعرفون طرائقه في الدسائس وصناعة المؤامرات، يعلمون أنه لا يُفرغ سُمُومه دفعة واحدة في أجساد ضحاياه. طبقاً لهذا، فقد أخرج من مخزونه جُرعة أخرى لاستخدامها كترياق أمام شراك نافع ورهطه المُتربِّصين به من وراء حجاب. فقام طه باستخدام أسوأ سلاح صنعته العُصبة، وهو الاحتماء بالقبيلة، حيث دبّر وخطط مع صلاح قوش على "أثننة" جهاز الأمن والمُخابرات، والذي كان يديره الأخير هذا بصورة إقطاعيّة أشبه بمملكة خاصتة. لكن نافع، الذي يتمتع بالخاصيّة التي قيل إنها أعجزت من يداويها، ما أن نما لعلمه ذلك، حتى قام بالشيء نفسه في أروقة الأجهزة التي تقع تحت سيطرته، ومُذاك الوقت، صارت القبلية في جهاز الدولة دينا تتبتل العُصبة في محرابه، وملاذهم كلما شعروا بالأرض تميد تحت أقدامهم. من جهة ثالثة، أصبح محمَّد عطا فضل المولى عين نافع التي ترى، وبالتالي كان يقوم بنقل طموحات قوش له طمعاً في رئاسته الجهاز. فقام نافع بدوره بزرع الريبة والشكوك في صدر الرئيس المُشير بالتأكيد على أن قوش تضخَّمت مملكته عُدَّة وعتاداً، وذلك خطرٌ على النظام، لأنه يفتح الباب لانقلابٍ قادم. والمعروف أن مثل هذه الأقاويل دائماً ما يفتح الرئيس المشير لها قلبه وأذنيه معاً، فذلك مِمَا يُحبُّه ويهواه في إدارة شئون الدولة، فما بالك وقد جاءته ممَّن علَّم قوش المُكر والدهاء والتآمر. وتجنباً لشروره وامتثالاً للنصيحة، أقاله من رئاسة الجهاز في منتصف أغسطس من العام ٢٠٠٩، ومنحه وظيفة مستشار أمني ليكون بجانبه في القصر، أو بالأحرى تحت مرمى بصره!

(٤٠)

من جانبه، رأى قوش أن تلك وظيفة لا تستوعب طموحاته، وهُو الذي كان يجلس على رأس جهاز تضخّمت سُلطاته وتمدَّد سُلطانه حتى صار دولة داخل دولة. فشرع فوراً في تغيير وتحوير ملامح الوظيفة الجديدة قولاً وفعلا، دونما اشارة خضراء من الحاكم الذي عيَّنه، إذ روّج لأجهزة إعلام السُلطة باستخدام مصطلح "مستشارية شئون الامن"، بدلاً عن "مستشار أمن" إيحاء بتضخُم الذات، وضمّ لمملكته الجديدة عدداً من أساطين الأمن القدامى، ثمَّ شرع في بناء مبنى آخر ليكون مقرا لتلك المستشاريَة.

على الضفة الأخرى، شعر علي عُثمان طه أن خُطته الرامية لاستخدام سلاح القبليَة ستتباطأ خُطاها في جهاز الأمن والمُخابرات، فأعمل نظره ذات اليمين وذات الشمال بحثاً عن سلاح آخر. هُنيْهةً وصوَّب عينيه نحو القوى السياسيَة التقليديَة، عملاً بقول المتنبي:

مِن نَكَد الدُّنيا عَلى المَرءِ أن يَرى * عدُوًّ لهُ مَا مِن صَدَاقَتِهِ بُدّ**

وذلك بُغية أن ينجح في استمالتها ليستقوي بها، بعد أن تضعضعت خُططه التمكينيَة في السُلطة. نتج عن ذلك، أن أوحى لحليفه "قوش" في دوائر صراع الكواليس، أن يبدأ حوارا مع القوى الحزبيَة التي تقف في المعارضة، وسمَى منها تحديدا "حزب الأمَة" لأن صِنْوُه الأخر (حزب الميرغني) كان يرزح أصلاً تحت إبط السُلطة راضياً من "الغنيمة" بثلاث وزاراتٍ وحيازة معظم المقاعد الستة عشر التي منحتها السُلطة للتجمُع الوطني الديمقراطي في المجلس الوطني، وفق اتفاق القاهرة ٢٠٠٥. ومُذاك الوقت، بدأت المُفاوضات الماراثونيَة مع السيد الصَادق المهدي والتي أفضت لما ذكرنا في الحلقة الماضيَّة بالمُوبقات الثلاث. لكن نافع، الذي لا ينام ليلة دون تآمُر، تحرّكت قنوات استشعاره، فتوثب للانقضاض على فريسته!

(٤١)

كانت عيون العُصبة تنظر لما يقوم به صلاح قوش بكثير من الهواجس وهُم لا يعلمون بتحالفه الخفي مع طه. لمزيدٍ من التفاصيل، انظر كتابنا الأخير الموسوم بـ"الخندق.. دولة الفساد والاستبداد في السُودان"، الفصل الثالث ص ١٢٦، بعنوان "قوش.. راسبوتين القصر".. الواقع أن قوش عمل بالفعل على تشكيل كتلة ثالثة في صراعات كواليس السُلطة، بعيداً عن طه نفسه بعد أن صار يُمنّي نفسه بأن تؤول له الرئاسة بكاملها، لا سيّما، وقد نقل الوُشاة للرئيس "الضرورة" عبارة تفوَّه بها في لحظة جمعت بين المزح والجديَّة، وقال لسامعيه: «**أنا ممكن أقلع السُلطة دي في ثلاثة ساعات**».. انظر "الخندق"، ص ٢٧، ولأن البصّاصين لا يأتمنون بعضهم بعضاً، قام صفيّه محمد عطا فضل المولى، بتسفير الكثير مِمّا سمعه شخصياً من رئيسه إلى نافع علي نافع، الذي كان ينتظر باسطاً أذنيه الكبيرتين لالتقاط كل ما يمكن أن يطيح بغريمه، ومن ضمن ما قيلَ له، كان تنصُت قوش على هواتف مكتب الرئيس المشير، بدلاً عن أن يتنصَّت

عليه المذكور. فوجد نافع بُغيته فيما أسرَّ به عطا المولى، ولاحت له فرصة ضرب خصمين بحجر واحد.. قوش قبل أن يشتد ساعده في المستشاريَّة، وعلي عثمان طه قبل أن يبسط جناح الذُلِ من الرحمة لساكن القصر.. تبعاً لذلك، قام نافع بنصب فخ لقوش وأوقعه فيه متلبساً بالجُرم المشهود، فاستُدعِي للقصر مساء يوم ٢٠١١/٤/٢٦ وتمَّ إبلاغه في اجتماع مُصغر حضره من العُصبة: عُمَر البشير، بكري حسن صالح، عبدالرحيم محمد حسين، إبراهيم أحمد عُمَر وقُطبي المهدي (مع ملاحظة غياب علي عُثمان طه، ونافع علي نافع، لأسبابٍ يعرفها مُطالع هذا المقال)، فتَّم إبلاغه بصورة مقتضبة بقرار إقالته، دون توضيح الأسباب. ولكن نافع لم يتنفَّس الصعداء إلا عندما أُودِع قوش السجن حبيساً بعد بضعة أشهر بتهمة الشروع في انقلاب؛ وأصبح طه مكسور الجناح مهيضاً، وقد تناقصت المُعينات التي تساعده في استمرار معارك الكواليس التي تحلو له مع خصومه المفترضين!

(٤٢)

أخيراً، لم يكن أمامه سوى استخدام "ما ليس منه بُد"، وهو السيناريو "الشمشوني" المعروف، "عليَّ وعلى أعدائي"، لكنه واقع الأمر خطط لأن يكون على أعدائه، وبرداً وسلاماً عليه. فجلس إلى الرئيس المشير ووضع بين يديه تقريرا خطيراً يوضح حاضر ومستقبل السُلطة الحاكمة، وأقنعه بـ"سيناريو الخُواة" للانفلات من المالآت التي سنذكُرها، ثمَّ جلسا معاً مع منظومة العُصبة، وطرحا السيناريو، ممثلاً في القيام بخطوة دراماتيكيَة تقتضي ضرورة ذهاب الجميع إلى منازلهم، وهي خطوة أشبه بما يُسمَّى "انقلاب قصر".. في واقع الأمر، كان طه قد أعاد عقارب الساعة للوراء باستخدام سيناريو مشابه نسبياً، كان هو أيضاً صانعه، ذلك هو سيناريو "المُفاصلة" في العام ١٩٩٩، وكما في الأوَل، فقد تأمَّل في الثاني - بحسب تخطيطه - أن يصرف الرئيس المشير الجميع إلى منازلهم، ومِن ثمَ يُعيدَهُ لمواقعه سالماً غانماً، ويكون بذلك قد تحقق له ما أراد في التخلص من عدُوِه اللدود ورهطه. لكن الجماعة التي رضعت السياسة من أثداء قصور بني أميَة، بدا فيها الرئيس المشير وقد استفاد من وقائع مفاصلة ١٩٩٩ التي كان فيها "كومبارس"، فوجد في اقتراح التخلص منهم جميعاً فرصة لا تُفوت، وبدوره حاك السيناريو بموازرة الجنرالين المُقرّبين، وذلك لتأمين القوَات المسلحة وجهاز الأمن والمُخابرات، وهُما الساقان اللذان تعتمد عليهما العُصبة في الحُكم كما تعلمون!

وفي الحلقة القادمة، سوف نقرأ معاً أهم ما جاء في التقرير السرّي الذي جعل العُصبة تقدِم على تلك الوثبة!

آخر الكلام: لابُدَّ منَ المُحاسَبَة والدّيمُقرَاطِيَّة وإن طَالَ السَّفر!!
٢٠١٤/٣/٢١

أسرارٌ يصعُبُ ترويجها.. أو وقائعَ الكارثة المُقبلة! (٦)

بحسب ما ذكرنا في الحلقة الماضية، نخلص في الحلقة الأخيرة هذه، إلى استعراض ما تيسَّر من مقتطفاتِ ورَدَت في المذكرة التي بسَطها علي عُثمان محمَد طه بين يدي خواص عُصبته، واقترحت تلك التغييرات الشكلانيَّة، والتي بموجبها تمَّت إقالة الحرس القديم – بما فيهم مصمّم الفكرة نفسه – وتعيين حرس جديد حلّ محلهم. وفي واقع الأمر، ذلك ليس بسرٍ نذيعه لأوّل مرَّة، فهذا مِمَّا ضاق به صدر الرئيس المشير بعد أن سرَت في المدينة التي لا تعرف الأسرار أخبار صراع الكواليس، فأفصَحَ عنه على الهواء كعادته دائماً، وذلك بعد أيام قلائل في بلدة "قرّي" شمال البلاد: **«والله.. والله يا جماعة، الترتيب الجديد للناس الحيغادروا والناس الحيجوا، وكل الترتيبات في المفوضيَّات وغيرها، رأس الرُمح فيها هو علي عُثمان»**.. وبغضِ النظر عن طبيعة النظام، وبغضِ النظر عمّا يعرفه الناس أصلاً، فالقائل لم يُدرك مغبَّة نسب الأمر كله لشخص واحد من عُصبته، للدرجة التي حدت به إلى أن يعمل تعديلاً شاملاً في بنية السُلطة الحاكمة، رفع مَن شاء بموجبه وأذلّ من شاء. وهذا بالطبع ما حاولنا تأكيده منذ بداية هذه السلسلة، وذكرنا ضمن أسبابه شذرات دفعت بـ"رأس الرُمح" - كما وصفه - إلى إحداث تلك التغييرات الدراماتيكيَّة، وقُلنا إن منها احتدام الصراع بينه ونافع علي نافع ورهطه. بَيْدَ أننا نخلص إلى إضافة سبب يصُعب الإفصاح عنه في ثقافة الإسلامويين، وهو المرض الذي يقولون عنه ابتلاء بالرغم من أنه لا يُفرّق بين مُسلِم وكافر. فقد يعلم البعض أن الرَّجُل يعاني منذ فترة من مرضٍ عضالٍ. وتعلمون أن بعض غُلاة أهل تلك الثقافة يفنون عمراً في التعبئة من السيئات عبأ في دُنياهم، وما أن يمِدَ الله في آجالهم: إلا وتراهم يُفكِّرون في الحَجِ، ليس باعتباره ركناً إسلامياً كانوا من مستطيعيه من قبل، ولكن لانتهازه كمناسبة يزعُمون أنها ستجُب ما اقترفوه من خطايا في حياتهم، وبالمعيار نفسه يُذكِّرهم المرض جُرم ما فعلوا، وبالموت الذي كانوا عنه يحيدون!

(٤٤)

أفرد التقرير الجُزء الأكبر، ربَّما أكثر من النصف في لحديث عن ما أسماه بـ"التحديات والتطلعات"، وذكر منها ما عدّه إنجازاً، وهي من شاكلة ما ظلت العُصبة ترِدِده ليل نهار دون أن يقنع بشراً أو يحرّك حجراً. ونود أن نشير لها هنا

إشاراتٍ عابرة، فقد تركَّزت بشكل أساسي في الجانب العقدي تحت عنوان رئيس: "ترتيب الأولويات وتحديد الرؤية استشرافاً لمرحلة جديدة مقبلة"، وذكر منها العناوين الفرعيَّة التالية:

- الحركة النهضوية للمشروع الإسلامي في المجتمع السوداني،
- تأصيل المشروع الإسلامي والغرس في التربة السودانيَّة،
- المجتمع السُّوداني وزيادة معدَّلات التديُّن،
- استقطاب قطاع المرأة في الحضر والأرياف،
- استنهاض الشباب والدور التربوي والجهادي،
- التحدي وإجهاض مخططات التيَّارات اليساريَّة والعلمانيَّة في الفصل بين الدين والدولة،
- ترويض الطائفية السياسية،
- دول المحور الإسلامي والربيع العربي..

وختم بالقول: «**إن الحركة الإسلاميَّة عقدت العزم على المُضِيِّ في نشر الدعوة تزكية وتربية وهداية للمجتمع وخلوصه لخير الأمة**».. وهكذا دواليك!

(٤٥)

كرَّست المذكرة الجُزء الثاني للأسباب التي استوجبت حتميَّة التغيير في بنية السُّلطة، وهي أيضاً أسباب يعلمها القاصي والداني، لكن عنصر المفارقة فيها أنها تمثل اعترافاً نادراً مِمَّن ظلّوا يكابرون لنحو رُبع قرن، دون أن يطرف لهم جفن. أرجعت المذكرة أولى الأسباب إلى انتخابات ٢٠١٠ التي أجراها النظام، وشهدت تزويرا غير مسبوق إلا في ظلِّ الأنظمة التي تماثله في التوجُّهات الشموليَّة. أكد التقرير أن: «**الانتخابات أثبتت صعوبة الانفراد بالسُّلطة في قُطر ثري بتنوُّعه الثقافي وتعدُّده السياسي**»، وأقرَّ أن: «**نتائجها الحقيقيَّة كانت مخيِّبة للآمال، على الرغم من التوقعات المُسبقة التي بالغت في تقدير العضويَّة والاستقطاب، واتَّضح أنها لم تكن واقعيَّة**».. هُنا لا بُدَّ أنه قد تراءى لكُم خلف السُّطور ظلال صراع الكواليس بين علي عُثمان مُعِدِّ المذكرة، ونافع علي نافع المسئول التنظيمي في المؤتمر الوطني، والذي صنع كذبة الستة ملايين عضو وصدَّقها. وإلحاقاً بهذه الملاحظة، أورد التقرير فشل التحالف مع الأحزاب المشاركة في السُّلطة، وقال إنها: «**لا تتمتع بثقل جماهيري، وليست لها وزن أو تأثير يذكر، وقياداتها في حالة خلاف دائم**»، مشيراً إلى أن الأحزاب ذات القواعد – لم يُسمِّها – تقف على قارعة الطريق «**يمكن استقطابها في ظِلّ مشروع قومي بقليل من التنازُلات في الحُكم**»، وهكذا!

(٤٦)

أشارت المُذكَّرة للسبب الثاني في سياق سرد الأسباب التي جعلت من التغيير ضرورة قُصوى، إذ أسهبت في تحليل انتفاضة سبتمبر ٢٠١٣ والظروف السياسيَّة والاقتصاديَّة التي أحاطت بها، واعترفت بأن: «**أسلوب المعالجات لم**

يكن حكيماً، إذ وضع الزيت بالقرب من النار»، واقترحت: «**ضرورة فصل القضايا الدارفوريَّة بكُلِّ تعقيداتها عن القضايا التي أدَّت إلى اندلاع أحداث سبتمبر، باعتبار أن الأخيرة مطلبيّة، أما الأولى فخطورتها تكمُنُ في تمهيد الطريق لما يُسمَّى بالجبهة الثوريَّة في محاولاتها الوصول للخرطوم، نظرياً إن لم يكن عمليا**»، وأشارت إلى: «**حتمية محاصرة أنشطة الطُلاَّب الدارفوريين في العاصمة الخرطوم والمُدُن الكُبرى، بحيث لا تقترن بالقضايا المطلبيَّة التي أدَّت إلى أحداث سبتمبر الماضي**»، وأطنبت في توضيح الظروف الاقتصاديَّة بعد انفصال الجنوب والتي بموجبها ذهبت ثلاثة أرباع عائدات البترول لحكومته، وأكدت: «**إمكانيَّة تفاقم الظروف الاقتصاديَّة بصورة قد لا تبدو محتملة للمواطنين الذين يمثلون القاعدة الأكبر في المجتمع، ما لم يتم تجسير الفجوات بين الطبقات**»، كذلك أفردت فقرات مطوّلة عن الأوضاع في القطاعات الصناعيَّة والزراعيَّة والإنتاجيَّة الأخرى ووصفتها بالحرجة. وختمت بالآثار السالبة التي وضعت بصماتها على الاقتصاد السُوداني جرَّاء الحظر المفروض من الولايات المتحدة الأمريكيَّة منذ العام ١٩٩٣ وتكهَّنت باحتمال تزايده تبعاً للضغوط الأمريكيَّة في حروب جنوب كُردُفان وجنوب النيل الأزرق ودارفور.

(٤٧)

في الباب الثالث اقترحت المُذكِرة عدَّة خطوات إجرائيَّة بما أسمته: «**معالجة إسعافيَّة قصيرة المدى وبعيدة المدى**» في الأولى أكدت ضرورة إجراء تقشف شامل في مخصَّصات ما سُمِّي بـ"الدستوريين" وتحدَّثت تفصيلاً عن عدَّة بنودٍ منها، الحصانات، أموال التجنيب، تفعيل قانون الثراء الحرام، محاصرة الفساد بمحاكمات رادعة، ترهُّل الحكومات الولائية.. إلخ.

من جهة ثانية، أشارت المُذكِرة إلى ضرورة تقديم تنازُلات ملموسة للمشاركة في السُلطة، وتبعاً لذلك يتواصُل الحوار مع القوى المعارضة بحيث لا يستثني أحداً، وخصَّت بالذكر حزب الأمَة، في حين أشارت إلى أنه في حال إحجام «**الأحزاب الصغيرة الأخرى**» عن المشاركة «**يمكن أن تبقى في المعارضة، إذ لا تأثير لديها على استقرار الأوضاع بصورة عامة**» ومن جهة ثانية أشارت إلى «**ما أسمته بالمعادلة المتوقعة، وهي ضرورة الحفاظ على مشاركة الحزب الاتحادي الديمقراطي الأصل في حال قبول الأحزاب المشار إليها بالمشاركة في السلطة**» ثمَّ اقترحت تعديلاً شاملاً «**لامتصاص الاحتقان في جهاز الدولة**»، وأكدت بموجبه «**ضرورة تنحِّي كل قيادات الحكومة، وبالأخص التي تحمَّلت عبء الرسالة الجهاديّة منذ أن تفجَّرت ثورة الإنقاذ، مع ضرورة تولي البعض مهام خاصة للاستفادة من خبراتهم في مواقع غير تنفيذية وتنسجم في نفس الوقت مع التغيير**».. ثمَّ اقترحت: «**تكوين حكومة رشيقة قوامها الشباب بحيث لا يزيد عدد مجلسها عن خمسة وثلاثين وزيراً**»، وكذلك تقليص الأجهزة المساعدة للحدِّ من الصرف.

(٤٨)

افردت المذكرة حيّزاً كبيراً ضمن القضايا السابقة للعلاقات لخارجيّة **«ضرورة الابتعاد عن المحاور التي خلفتها ثورات ما سُمي بالربيع العربي»**، وفي ذلك مضت في توضيح الظروف التي نتجت عنها تلك الثورات، وما أسمته "الردّة الثوريّة" في بعض الدول وذكرت منها مصر وتونس تحديداً، وأكدت أن الأوضاع في ليبيا **«تبدو غير واضحة ولا يمكن بناء تحالفات في ظِلّ ما يجري من عدم استقرار»**، وخلصت إلى أن **«المشروع الإسلامي في السّودان يواجه تحدياً قد يُجبره على تغيير خارطة التحالفات حتى لا تحيق به العزلة الإقليمية وتصيبه شظايا الحرب الدولية»**، واقترحت **«تمتين العلاقات مع الصين وروسيا دولياً، ومع تركيا قطر إقليمياً»**، وخصّت الأخير بذكر مطوّل بالتعويل عليها في لعب دور أكبر ممّا فعلت بالنسبة للقضيّة الدارفوريّة في الخطوات المقترحة.

كذلك مضت المذكِرة في تشريح العلاقة مع الولايات المتحدة الأمريكيّة، وأشارت إلى إمكانيَّة توسيط دول بعينها لتحسين العلاقة معها بتقديم تنازُلاتٍ ملموسة. كما أكدت صعوبة التعامُل مع الوضع القائم الان مع جنوب السُّودان في الحرب الدائرة واقترحت **«الحياد نهجاً حتى يستبين الوضع»**، ومع ذلك أشارت إلى: **«صعوبة هذا الخيار في ظِلّ الأوضاع المتفجّرة في أبيي، وعائدات ترحيل البترول»**.

(٤٩)

تلك خطوط عريضة للمذكِرة التي أصبحت تُعرف في أروقة العُصبة بـ"فرمَان علي عُثمان"، وقد وقعت في ثلاث وأربعين صفحة، ووضعت في كل صفحة عبارة "سري للغاية" باللغتين العربيّة والانجليزيّة، وقلنا إنها طرحت للخواص بتأكيد انها لم تتيسّر لذوي القربى في دوائر التنظيم (المؤتمر الوطني) ولا البنامى من الأحزاب الديكوريّة المشاركة في السُّلطة. وبحسب ما علمنا فقد تنزّلت عليهم جميعاً اما للعلم أو الإقرار حيث لا مجال لإبداء الرأي أو المشورة. أيا كان الوضع فقد يرى البعض أن المذكرة لم تأت بجديد، وهُم مُحقون، ولكن يكفينا أجر الاختراق لسُلطة أهدرت أموال الدولة في الأمن والتأمين، ونزعنا عنها الغطاء في التحدُث بلسنين، لسان يعترف بعُمق الأزمة في الكواليس وآخر يتحدّث عن الفردوس الموعود. وأرجو من القارئ الذي نحترمه أن يعذرني فيما يمكن ان يظنه غموضا وقد عهدنا على عكس ذلك فيما نكتب، والحقيقة أن ذلك مردّه لظروف مصادرنا بما فيها النشر الكامل، وتعلمون أننا اختبرناهم كثيراً في قضايا أكبر من هذه، وقفت العُصبة أمامها كحمار الشيخ في العقبة، وما زالوا حائرون. وتبعاً لذلك لا أريد أن أحنث بوعد قطعته يكون سبباً في قطع "رزق" ساقوه لنا ومنه نقتات، مع الإقرار بأنهم لا يفعلون ذلك من أجل سواد عيوننا ولكن

لأجندة خاصة بهم، ونحن غير معنيين بها إلا بالقدر الذي يعيننا في فك طلاسم هم عنها غافلون!

(٥٠)

لقد تردَّت الأمور إلى درجة الانحطاط، وصار السُودان وطناً ملازماً للحُروب والنزوح والإبادة الجماعيَّة والتطرُف الديني والصراع القبلي والبؤس بكافة أشكاله، وصار السُودان يحتل مكاناً علياً في الاستبيانات العالمية المرتبطة بالدول الفاشلة، في الأمن والحريَّات والرفاهيَّة والشفافيَّة ومحاربة الفساد والحوكمة، وتدنّى الانتماء لدرجة أصبح الوطن مصدر سُخط مواطنيه بدلاً عن فخرهم. بناءً عليه، باتت التوقعات بتغيير وشيك تعلو على اي أجندة، ولكن أي تغيير؟! نضع بين يديك - عزيزي القارئ - خمسُ مُسلمات استخلصناها من وقائع ما ورد ذكره في المذكرة، وخمسة سيناريوهات استنبطناها في قراءة واقع لا محال واقع:

- **أولاً:** لقد وضح جلياً - بما لا يدع مجالاً لأي مجتهدٍ - أن الأزمة القائمة أزمة شاملة، وأنها تتفاقم يوماً بعد يوم، وأن السُلطة الحاكمة باتت تواجُه ما يعرف بـ"خيار الصفر" وهو خيارٌ يفتح الباب على مصراعيه لأي سيناريوهات محتملة، سلماً كانت أم عُنفاً!

- **ثانيا:** في خِضَمِ البحث عن حلٍ للمأزق الشامِل، علَت الأجندة الشخصيَّة أي تخليص الذات، وكذا الأجندة العقديَّة المتمثلة في إنقاذ المشروع على الأجندة الوطنيَّة، وبالرغم من أنه أمر ليس بمستغرب، إلا أنه يزيد من وتائر المهدِّدات الأمنيَّة والانهيار الشامل.

- **ثالثاً:** إن التغييرات التي حدثت شكلية وستظل تراوح مكانها لأنها لا تمسَّ عصب الأزمة، وهي مجرَّد إيحاء من السُلطة الغاشمة بأنها غيَّرت جلدها، وفي الواقع لم تكُن سوى وثبة في ظلام دامس وإعادة إنتاج للأزمة، قُصِدَ بها التحلحُل من تبعاتها وعدم تحمُل فشل ما سُمِّي بالمشروع الحضاري.

- **رابعاً:** بناءً على ذلك، فإن تغيير الوجوه، يُعد بمثابة الفاصل الثالث من مسرحيَّة كان فصلها الأوّل عشيَّة الانقلاب عام ١٩٨٩، بمقولة: «اذهب إلى القصر حاكماً، وساذهب للسجن حبيساً»، وكان فصلها الثاني فيما سُمِّي بـ"مُفاصلة القصر والمنشيَّة" عام ١٩٩٩، وكلها فواصل خليقة بالإسلامويين وسلوكهم!

- **خامساً:** الإيحاء بتغيير الوجوه أيضاً، بما في ذلك علي عُثمان ونافع علي نافع وعوض الجاز ومن لفَّ لفهم، ما هو إلا لمزيدٍ من التعمية وذرّ الرَّماد في العيون، فهؤلاء قومٌ دأبوا على الرضاع من ثدي السُلطة ومن الصعوبة بمكان فطمهم منها!

أما السيناريوهات الخمسة المتوقعة كنتاج لهذه الأزمة، فهي وفق ما اجتهدنا جاءت كالتالي:

- **أولا:** إن الانتفاضة الشعبيَّة، مهما تقطعت وتاثرها أو تباطأت خطواتها، فهي قادمة لا محال، فالظروف التي تجعل منها خياراً محتملاً تظل قائمة، خاصة في مجال الحريّات المُهدرة والأوضاع الاقتصاديّة المنهكة.

- **ثانيا:** تكامُل الهبات الشعبيّة في مُدُن السُّودان المختلفة مثلما حدث في سبتمبر الماضي مع تزايد العمليَّات العسكريّة قد يعجّل بسقوط النظام. وهذا سيناريو يعتمد على النقلة النوعيّة التي تقوم بها الجبهة الثوريَّة، سواء في توسيع عملياتها العسكريّة نحو المركز، أو تمتين علاقاتها بالقوى الحزبية المعارضة بميثاق سياسي واضح المعالم. وهو تحد يواجه ضخ الماكينة الدعائيّة للنظام، والتي تصوِّرها كحركة عنصريَّة ذات هويّة أفريقانيَّة تستهدف مجموعات الوسط النيلي.

- **ثالثا:** تعقيد الأزمة بانقلابٍ عسكري قد يصطنعه النظام بتوليفته الجديدة التي أبقت على الجنرالين (بكري حسن صالح وعبدالرحيم محمّد حسين) وذلك لضمان خروج سلس من الأزمة ولو مؤقتاً، بما في ذلك إسقاط مبدأ المحاسبة، وهو ما قد يجد القبول من جيش أرهقته الحروب المتواصلة، وكذلك موافقة قوى متوثبة في المعارضة بدعوى فترة انتقاليّة لصياغة دستور جديد وإقامة انتخابات عامّة!

- **رابعا:** في حال تفاقُم الأحداث وتردِّي الأحوال الأمنيّة، قد تتزايد الضغوط الدوليّة وتنذر بتدخُّل تحت الفصل السابع للهيئة الأمميّة، وقد تتداخل سيناريوهات إحكام الحصار الاقتصادي والمحكمة الجنائيّة الدوليَّة، وهو السيناريو الذي سيجد مؤازرة من دول في الإقليم صار النظام مصدر صداع دائم لها!

- **خامسا:** وهو السيناريو الذي كتبنا عنه كثيراً وتتزايد احتمالاته لحظة بلحظة أمام ناظري، وقد سبق وسمَّيناه "ليلة السكاكين الطويلة"، وهي اللحظة التي ستجعل كيدهم في نحرهم!

آخر الكلام: لا بُدّ من الدّيمُقراطيّة والمُحاسَبَة وإن طالَ السّفر!!
٢٠١٤/٤/٨

الحِوَار أم الخُوَار؟!

أكادُ لا أعرف شعباً في التاريخ الإنساني استُغفِل في حقوقه مثلما فعلت العُصبة ذوو البأس بالسُودان وأهله. نعم، هناك شعوب كثيرة في هذا العالم الكبير حَكَمهم ديكتاتوريون بالحديد والنار، لكن دِلُوني على رئيسٍ واحد من نفس الفصيلة يقول على الملأ: **«نِحنا السُلطة دي جبناها بالبندقيَّة، والعايزها يجي يشيلها بالبندقيَّة»**، ثم بنفس الفم الذي نطق كُفراً، يقول بعد أن هلك الزرع والضرع: **«هلمُّوا لنتحاور من أجل السُّودان الواعد»**! دِلوني على رئيس من نفس الشاكلة اعترف "بعضمة لسانه" وعلى رؤوس الأشهاد بقتل عشرة آلاف شخص من مواطنيه، ثم تُضرَبُ له الدُفوف ويعتلي منبراً ليرقص طرباً على أشلائهم؟! حدِثوني عن رئيسٍ من ذات القبيلة، جلس القرفصاء على سُدَّة السُلطة لنحو رُبع قرن، ثم دعا ضحاياه لمذبحة جديدة، وهشَّ بعصاه على وجوههم، وقال لهُم: **«تعالوا يا جماعة نحن أولاد اليوم»**؟! فصدَّقه البعض وهُم يعلمُون أنه إذا حدَّث كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخلف، وإذا اؤتُمِنَ خان!

ما أكثر الأنظمة السيئة في العالم حين تعدُّها، ولكن حدِثوني عن نظام أعلن الجهاد على شعبه وأجبر شباباً غضاً على الانخراط في مُحرقته، ثم فتح سدنته المُصحف ولم يروا من آياته سوى **«وأعِدُّوا لهُم ما استطعتُم من قوةٍ ومن رِباط الخيل تُرهبون به عدو الله وعدوكم»**، وبعد أن تطايرت النُعُوش، جاءوا يُحدِثونهم عن الوحدة الجاذبة، ثم فتحوا نفس المُصحف ولم يروا من آياته سوى: **«واعْتصمُوا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقُوا»**.. ذكِروني برئيس فَصَلَ عشرات الآلاف من الخدمة المدنيَّة والنظاميَّة، بدعوى "الصالح العام" وبعد أن قضى ثلثهم نحبه وتشرَّد ثلثهم الثاني ومضى الثلث الأخير يلعق الفقر والفاقة ومرارات الذُلِّ والهوان في وطنه وديار الاغتراب، قال لهم: **«تاني مافي صالح عام، وما في تمكين، وما في بيوت أشباح وأولاد مصارين بِيُض»**.. خبِّروني عن نظام كادت التُخمة أن تقتل جهابذته وهُم يتحدثون عن التقشف؟! دلوني على نظام كرَّس القبليَّة والجهويَّة والإثنيَّة وطفق يدعو لنبذها؟!

ما أكثر المُفسدين في الأرض حين تُحصيهم، ولكن حدِثوني عن طُغمة أنكرت الفساد من رمدٍ، وهو دينهم الذي يتبتَّلون في محرابه صباح مساء، وبعد

أن كلّت يد ديوان المراجع العام عن حصره، دعا فرعونها: **«لمراجعة قانون الثراء الحرام والمشبوه، بحيث تتيح نصوصه التصدي لكل أشكال الفساد»**.. دلوني على عُصبة انتهكت الشرعيَّة واحتكرت السُلطة وقتلت وعذّبت وشرّدت وأفسدت، وبعد أن استنفدوا أغراضهم، سرقوا لسان الله – تنزّه وعلا – وقوّلوه ما لم يقُله: **«عفا الله عمّا سلف!»**.. حدّثوني عن شعب ظلّ يحكُمه حزبٌ واحد بكل وسائل الحُواة، ثم نادى نحو مائة حاوٍ خرجوا من جُحُورهم وألقوا ما هُم ملقون، فتلقف ما يأفكون مثله؟! حدثوني عن بلدٍ ظلَّ بعض صحافييه يكتبون ببطونهم وسملت عيونهم عن رؤية الواقع بكُلِّ مراراته وآلامه التي لا تخفى على الناظرين، وفجأة خرجوا للناس شاهرين أقلاماً تتحدَّث عن الحريَّة وسُبُلها، والشفافيَّة ولزومها، والديمقراطيَّة وضرورتها؟!

ما أكثر الفاشلين حين تذكُرهم، ولكني أسالكُم إن كان لنافع علي نافع قرين في هذا الكون تبرّأ منه لسانه، وكال من الإساءات لشعبه بقدر عدد مسامات جلده؟! هل ثمّة توأم له نكص على سوءاته وجاء يُبشِّر الناس بالعُنف الذي لا يمكن أن يكون بديلاً للحوار، وأن الانفراد بالسُلطة لا يُغني عن الانتخابات وشجونها؟! دلوني على وزير دفاع هَطْل استحوذ على أكثر من ٧٠% من الميزانيَّة، ومع ذلك يتحدث عن "نظرية الدفاع بالنظر" دون أن تطرُف له عين؟! أعلِمُوني عن رجُلٍ تقمَّص روح راسبوتين ومارس الانتهازيَّة بعدد شعيرات ذقنه أكثر ممّا فعل الدكتور حسن التُرابي.. اغتصب سُلطةً وأصبح عرّابها، ثم فاصلها وبات عدوّها، ثم عاد إليها وصار حليفها؟! من يُكلمني عن شخصٍ واحد في هذا العالم يمتلك حزباً خاصاً كالسيِّد محمَّد عُثمان الميرغني، ويديره مزاوجة بين السياسة والقداسة بما لم يستطع خلفاء الدولة الأمويَّة ولا العبَّاسيَّة فعله؟! دلوني على سياسي قضى أكثر من نصف عمره في السياسة وشئونها، ومع ذلك يدفع بفلذات كبده نحو مقصلة نظام، يقول إنه يعارضه ويريد إسقاطه، ونحن له مُصدِّقون؟!

لقد نجحت العُصبة الحاكمة في خداعنا للمرّة الألف، نجحت في جعلنا نردِّد دون وعي كلمة "الحوار" كأنه مُكتشَفٌ سُوداني جديد.. نجحت في إدخالنا في غيبوبة حتى لا يتذكّر أحد منا خطاياها.. نجحت في جعلنا ننطق بكُلِّ شيء إلا الفريضة الغائبة التي اسمها المحاسبة.. يريدون أن يعيدوا إنتاج أنفسهم بإعادة إنتاج الأزمة، كأنهم لم يَقتلوا ولم يُعذبوا ولم يُفسدوا ولم يَفصلوا بلداً كان مُوحَّداً.. وأشهد لو أنَّ صمويل بيكيت، رائد مسرح العبث كان بين ظهرانينا، لما توانى لحظة في الاعتراف بتقاصُر عبقريّته وتقازُم مواهبه.. يُخيّل إليّ دوماً في خضم اللا معقول الذي نعيشه أن الشعب السُوداني "الفَضَل" أشبه بشخصٍ حُكِمَ عليه بالإعدام في جريمة لم يرتكبها، وعندما استؤنف الحُكم قبِلَ القُضاة مبرّراته، وقاموا بتخفيض عقوبة الإعدام إلى حُكم المؤبد، وفجأة هتف قادته "المعارضون" نشوةً بقولهم: يحيا العَدْل!

يا سادتي، ما أوسع المِحنة وما أضيق العبارة، فنحن شعبٌ ظلت السُّلطة الباغية تروّضه كما يروّض مدرّشب سيركٍ أسوداً ليسُوسها ويستأنسها.. جعلتنا نُدمِنُ الدهشة حتى أصبحنا ننام ونصحو على دبيبها في وجوهنا، إذا جُعنا صبرنا، وإذا عطِشنا تذمَّرنا.. عُصبة دَبَغت جلودنا بكل أنواع المُوبقات وسمَّتها "ابتلاءات" لكي نهرع لسجَّادة الصلاة ونبُث الله شكوانا، لا أن نواجهها.. سُلطة انتهكت حرياتنا فأصخْنا السمع لأناشيدنا "الوطنية" ننفُس بها كُربتنا.. عُصبة قتلتنا فقام نفرٌ بمواراة جُثثنا وعادوا يثرثرون فيما هُم فيه منهمكون.. سُلطة نحرت رقابنا من الوريد إلى الوريد، فضحكنا كالطير مذبوحاً من الألم. إن الذي يجري يا سادتي لا يخضع لمنطق، ومن أراد أن يُمنطِقه بحماقة، عليه أن يحجز أولاً في مستشفى المجاذيب. إذ يمكن للحيّة أن تغيّر جلدها، ولكن هل رأى أحدكم حيَّة غيرت جلدها فأصبحت حمامة سلام!

هذا نظامٌ كالسامري، الذي صنع عِجلاً له "خُوار"، وسمَّاه زُوراً وبُهتاناً "حِوار"!

آخر الكلام: لابُدَّ مِنَ الدّيمُقرَاطِيَّة والمُحَاسَبَة وإنْ طَالَ السَّفر!!
٢٠١٤/٤/١٨

أنظُر خَلفَك بغَضَب.. أو دَعْ دُمُوعك تَنهَمِر!

أنظُر خلفك بغضب.. كانت تلك صرخة تمرُّد اطلقها الكاتب المسرحي والممثل البريطاني جون أوزبورن، في مسرحيَّة بذات العُنوان عُرضَت في لندن منتصف خمسينيات القرن الماضي، أي عقب الدمار الشامل الذي حاق ببريطانيا وغيرها جرَّاء الحرب العالميَّة الثانية. وأوزبورن إلى جانب البير كامو وصمويل بيكيت، يمثلون جيلاً من الرّوائيين والمُفكِّرين والفلاسفة الذين آلوا على أنفسهم رفع راية النهوض بالمُجتمعات الأوربيَّة التي دمَّرتها الحرب، وقد عبَّر أوزبورن في تلك المسرحيَّة عن نقد الجيل الذي اشعل فتيلها بأنانيَّة وشهوانيَّة مطلقة، وأعزى تواطئهم في المشاركة لسياساتهم الخرقاء وفقدانهم الثقة في أنفسهم والاخرين. ثمَّ جسَّد ذلك الواقع المزري الذي شكَّلته إفرازات ما بعد الحرب، فزادت من التعاسة المُخيِّمة أصلاً. كذلك ولَّد الإحساس بالهزيمة والانكسار غضب عارم كان بمثابة بدايات الخروج من القوقعة، وعليه جاءت المسرحيَّة مليئة بروح العزيمة والإصرار والتمرُّد. وطبقاً لذلك لابد للمرء أن يتساءل.. من ذا الذي أحق بالغضب اليوم أكثر من الشعب السُّوداني؟!

أرسل لي صديق عزيز فيلم (فيديو) ربَّما كان مبذولاً الآن للناس في الأسافير العامَّة (تجدون الرابط في آخر المقال) وطيلة الدقائق التي استغرقتها في مشاهدته، شعرتُ بأن الأرض تميد تحت قدميَّ، وداهمني حُزنٌ عميق وسيطرت على نفسي أحاسيس الكآبة والضآلة والنكد، فزهدتُ في الدُنيا بمن فيها وما فيها، ثمَّ انتابتني موجة حارقة من البُكاء المُر، ولم تتوقف دموعي عن الانهمار وأنا الذي كنتُ أظن أنها عصيَّة على ذلك جرَّاء الديكتاتوريات التي ناءت بكلكلها على صدورنا. ولكن ماذا يفعل المرء عندما يشعر أن إنسانيته خضعت لامتحان عسير وأن وطنيَّته أصبحت في مهبِّ الرِّيح؟! هل أبكي حال هؤلاء، أم أبكي نفسي، أم أبكي وطناً نهشت لحمهُ خفافيش الظلام فصيَّرته عظاماً نخرة؟! إنني على يقين كامل بأن كل من سيشاهد هذا الفيديو ستشرق عينيه بدمع سخين، ولكن أليس حري بنا بعدئذٍ أن نستدعي الغضب النبيل الذي دعانا له أوزربون؟!

الفقر ليس عيباً، ولكن العيب يكمُنُ في لا مبالاتنا وفقدان الإحساس بالآخر، سترون مثل ما رأيتُ في وجه تلك المرأة الصابرة.. وجه أمي، وفي وجوه ابنائها

وبناتها وجوه إخوتنا وإخواننا.. قومٌ يعيشون على الكفاف، على بضع أميال من بيت الحاكم بأمره، ولا عزاء لهُم غير تمتماتٍ من الحَمْدِ والثناء لربّ العالمين. هؤلاء الذين تشاهدونهم مواطنون في هذا البلد التعيس، لهُم من حقوق المواطنة بمثلما للآخرين الذين يكنزون الذهب والفضة وينامون على أنغام فسادٍ أدمنوه. هؤلاء كان من المفترض أن يكون لهم نصيب في الثروات التي خُبيت بها بلادهم، كثُرت أم قلّت. لهذا بكيتُهُم وبكيتُ وطني وبكيتُ نفسي وأنا أشعر بأن يديّ مغلولة إلى عُنُقي. رأيتُ في وجوههم ضعفنا وخِزينا وعارنا. رأيتُ في وجوههم وجوهاً جلست القُرفصاء على صُدُورنا، وصارت تمدّ لنا ألسنتها ساخرة، ألسنة أحالت شجاعتنا إلى جُبن، ومروءتنا إلى أنانيّة، وشهامتنا إلى خُنوع. لستُ مُكرهاً على استدرار دموعكم يا سادتي، ولكن مُجبرٌ على استثارة غضبكم، لأننا صِرنا نحتجُّ في صمتٍ، ونشكو في صمتٍ، ونبكي في صمت، وقد تبلّدت مشاعرنا وتجمَّدت أحاسيسنا ونكيل السب ليل نهار، وكأننا نُعيبُ زمننا ولا ندري أن العيب فينا!

أي مهانة لحِقَت بهذا الشعب الطيّب، فنحن قومٌ نعيش في بلدٍ حباه الله بثرواتٍ يندُر أن تجد لها مثيلاً في هذا العالم الكبير، ولا أقول ذلك من أحاديث المبالغة، بل هُو الواقع الذي نعيشه ونحن عنه غافلون. إذ يُندُر أن تجد بلداً جمعت بين عدّة مصادر للثروة، الزراعيّة والحيوانيّة والمائيّة والنفطيّة والمعدنيّة، وأصدُقُكُم القول لو أنها وُزّعت بالقسطاس على كل أفراد شعبه لما وجد الأثرياء فقيراً يمنحونه زَكَوَاتهم، ولما وجد ضعاف النفوس ثغرة في الفساد والإفساد، بل لما اهتبل الديكتاتوريون الفرص للانقضاض على السُلطة. فالسُودان الذي نعيش في كنفه ليس بلداً فقيراً، ولكن هناك حملة إفقار ضخمة قامت بها عُصبة كادت أن تموت من التُخمة والناس جائعون. أنظروا إلى حرب المليارات التي تكاد أن تذهب بالعقول. أنظروا كيف يحتفل "الفريق" عبدالرحيم محمد حسين بزواج كريمته في بلدٍ تتضوّر فيه تلك الوجوه جوعاً؟! أنظروا لوالي الجزيرة وهو يلهو بالملايين، كما يلهو طفل بدُميته. دولة يحكُمُها أبالسة فاقوا الحُواة في خِدَعِهم، فجعلوا غِش البشر وغِش رَبِّ البشر صِنْوَّان!

دعكُم من مداخيل النفط اليوم، وتساءلوا عن عائداته التي بلغت حتى وقت الانفصال أكثر من ٧٠ مليار دولار، وأين ذهبت صادرات الذهب والثروة الحيوانيّة والصمغ العربي، ولا تسألوا عن مساعدات وقروض دول صديقة وشقيقة إن تُبدِي لكم تسُوءكم. فهذا البلد الذي نتغنى بأمجاده ونفتخر بكرمِ مواطنيه، يعيش على ريع أهل الخير والمنظمات الطوعيّة، وفي ذلك نستدِلُّ بإحصائيّة مفوضيّة العون الإنساني. ففي سنة ٢٠٠٨، كانت هناك ٢٨٠ منظمة طوعيّة عاملة في البلاد، انخفض عددها في العام الحالي ٢٠١٤ إلى ٩١، ليس لأنها أطعمت الجياع وروت العطشى، ولكن لأن الأبالسة "اكتشفوا" تآمُرهم وطردوهم. مع ذلك، فالمنظمات الحاليّة يستفيد من مشاريعها ٢ مليون مواطن،

واجمالي ميزانياتها يصل إلى نحو ٤١٦,٤٣٩ مليون دولار سنوياً، ويعمل بها ٣٩٢٠ سودانياً. وفي دارفور، هناك ٣ ملايين نازح في حاجة للدعم العاجل، وهناك مليون و٨٠٠ ألف مواطن يتم دعمهم من قبل المجتمع الدولي (أي خمسة ملايين فيديو مثل ما تشاهدون)، والمفارقة إنك إذا تأمَّلتَ - يا هداك الله - تلك الأرقام فستجد أن فساد "سيِّدنا الخضر" والثمانية العظام، إلى جانب بطلا فساد شركة الأقطان، يفوق ما تكرَّمت به تلك المنظمات على الشعب اليتيم. ومع ذلك، فالتتار لا يستحون في سبِّها آناء الليل، وأكل خيراتها أطراف النهار.. ونحن صاغرون!

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت يا سادتي، فالأزمة ليست أزمة سياسيَّة وإنما أزمة ضمائر ماتت وأخلاق تكلست. ما جدوى الحياة إن كنا مسلوبي الإرادة، وقد أصبحنا شعباً متسوِلاً. شعب مشرَّد داخل وطنه ومشتت خارجه، شعبٌ ينام على صوت الرصاص ويصحو على هدير المدافع، ومع ذلك نصُمُّ آذاننا حتى لا نسمع أنين الضحايا ولا آهات المغلوبين. نحن يا سادتي نقف الآن في مفترق طرق، وحتى نحافظ على ما تبقى من وطننا، فخياراتنا أصبحت ضيِّقة.. بين أن ننتصر لكرامتنا أو نموت موت الشرفاء، بين أن ننحاز لإنسانيَّتنا أو ندفن أنفسنا أحياء، بين أن ننتصر لقيمنا أو ننكسر لتُجَّار الدين. فالحريَّة لا تُمنح ولكنها تُنتزع، والمحاسبة لا تأتي طواعية، بل تجيب من يناديها، والفساد لا يُحارب بأضعف الإيمان وإنما بقول الصِدق في وجه سُلطان جائر!

العدالة مقدَّمة على الديمقراطيَّة، والمحاسبة تعلو العفو، والحرية صِنُو المُساواة!

أنظروا خلفكم وحولكم بغضبٍ، ومَن لم يستطع، فليُفسح المجال لدمع يطفر من عينيه، لعله يغسل خطايانا في حق وطن يتسرَّب كما الماء من بين الأصابع!

آخر الكلام: لابُدّ مِنَ الدِّيمُقرَاطِيَّة والمُحاسبة وإن طالَ السفر!!
٢٠١٤/٤/٢٧

الرَّابط:

https://www.youtube.com/watch?v=٥٧٢E٠٩J٤hpA

إذا لم يظهر يمكن نسخه والصاقه بمسطرة الأصل.

قِفْ تأمَّل.. كيف يُفكِّر "الأبَالِسَة"؟!

هل انكسرت الجَرَّة وخرج المارد من القُمقُم؟! سؤالٌ ظلَّ يراود أذهان البعض مِمَّن يرون قصص الفساد والاستبداد تسري بين الناس هذه الأيام، كما الهواء الذي يستنشقونه. ولكن حتى لا نغرق كثيراً في طلاسم ما يحيكون، فثمَّة تساؤلٍ آخرٍ سيضع السُؤال أعلاه في محكٍ صعب: هل يا ترى اكتشف الناس هذا الفساد بغتةً، وكأنهم لم يعلموا أنه ديدن عُصبة حكمتهم طيلة رُبع قرن؟! في واقع الأمر، لا انكسرت الجرَّة ولا خرج منها مارد الفساد. فالقليل الذي ظهر منه على السطح، وجعل قلوب الناس تكاد تخرُج من أكنتها، هو رأسُ جبلِ الجليد العائم في محيطٍ من فساد متعدِّد الهَويَّات. فالفساد الحقيقي لم تُزَح عن حجمه الأغطية بعد، ولا رُفعت عن صانعيه طاقيَّة الإخفاء. ولعلَّ أكثر ما يُقلق المرء هو أن العُصبة قامت بهذا الإخراج "الفهلوي" ليس بغضاً للفساد، ولا حباً للنزاهة كما يُصوِّرون، ولكن لذرِّ الرَّماد في العيون، أي لينصرف الناس عن رؤية بقيَّة الجبل العائم. وبالتالي ينعم المجرمون الحقيقيون بما لهفت أيديهم من مال عام، وبما اغترفوا من خطايا سياسيَّة، وبما ارتكبوا من جرائم جنائيَّة!

تعلمون - يا سادتي - أن ألسنتنا ظلت تلهج بروايات الفساد منذ أن تسنَّمت العُصبة ذوي البأس السُّلطة قبل نحو رُبع قرن. فهُم في الأصل توسَّلوها بفسادٍ سياسي تمثل في الانقلاب العسكري، الذي أضفى عدم الشرعيَّة على وجودهم، وما يزال برغم تقادُم السنين. ثمَّ قاد الفساد السياسي بدوره إلى ارتكابهم جرائم جنائيَّة دشَّنوا بها وجودهم في السُّلطة، اغتيالاً وتنكيلاً وتشريداً وموبقاتٍ أخر، حطَّت من كرامة الإنسان السُوداني وما يزالون. وبالتالي لم يكُن عصياً على مَن توضَّأت يداه بدماء البشر أن يغمسها في فساد مالي وأخلاقي لم يعرف السُودان له مثيلاً منذ وطيء رهط من البشر ثراه واتخذوه موطناً. إذاً، ففيم الدهشة والقول المأثور يقول: إن ما بُنِيَ على باطلٍ لا يُنتِج سِوَى باطلاً!

لكن دعنا نتأمَّل - يا عزيزي القارئ - كيف فكَّر الأبالسة وقدَّروا هذا السيناريو، والذي هدفوا من ورائه إلى تعمية الرأي العام عن رؤية الفساد الحقيقي. بدأ السيناريو بشغل الناس بقصَّة فساد السادة العِظام في مكتب عبدالرحمن الخضر والي الخرطوم، وذلك لكي ننسى أن هؤلاء مجرَّد فئران

صغيرة في جُحر جرذٍ كبير. وتبعاً لذلك، ظهر الوالي المذكور وكأنه "نبي الله الخضر" في نزاهته وشفافيَّته وطهارة يده. فالوالي - بحسب السيناريو المُعد - "يكتشف" الفساد فجأة في إمبراطوريَّته، فيهرع للرئيس "الضرورة" ويُحدِّثه بشفافيَّة، ومن ثمّ يتفقا معاً على إحالة الأمر للقضاء العادل في دولة الصحابة، وبعدئذ يُخضِع نفسه للاستجواب من قبَل لجنة التحقيق. والحقيقة أن هذه البراءة ليست خيالاً من بنات أفكارنا، وإنما سيناريو واقعي يعجز عن كتابته مُخرجُ الروائع الرّاحل "حسن الإمام".. المفارقة، من قبل أن ينتهي العرض، شمّر المُفسدون و"حَمَلة المباخر" عن مقالاتهم وإعلاناتهم التي تشيد بالخضر، مالئ الولاية عدلاً بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً. بَيْد أن سؤالاً تائهاً في الآفاق يقول: إذا كان السادة العِظام قد نهشوا تلك المليارات، فكم يا تُرى حاز كبيرهم الذي رضعوا الفساد من حيله ومكره؟!

السيناريو نفسه أعاد تمثيله جهبذان من شركة الأقطان، واللذان لهطا أكثر من ثلاثمائة مليون دولار، والناس يتساءلون عن الجزيرة ومشروعها بأي ذنب قُتلوا؟! بالطبع الغرض واضح، هو أن يتعامى الناس عن رؤية القِطط السُمان التي وقفت من خلفهم وحمتهم؟! كذلك أعاد تمثيل ذات السيناريو الزبير بشير طه، الوالي الذي استغرب الناس مبلغ ٣٢ مليون جنيه عبارة عن تكلفة غسلْ ملابسه في فندق مريديان، و١٥ مليون جنيه قيمة إفطاره في أسبوع. وما دري المُستغربون أن تلك "الملاليم" لا تسوى جناح بعوض، مقارنة بما جناه وهو يتقلب في المناصب كتقلب المُؤتفكة في المضاجع. في تقديري، سيكون الزبير قرين "ابن العوام" سعيداً وهو يقدّم استقالته لكي يوصف بالطهارة ويدمغ بالنزاهة. ذلك لأن قصّته رغم مرارتها ستغادر ذاكرتنا المثقوبة بعد حين مثلما غادرتها قصص أكثر إيلاماً، وسيمضي المذكور مواصلاً عيشه الرّغد، متدثراً بصيام يومي الاثنين والخميس، ومتزمّلاً بالحديث عن الجهاد وكاسحات الألغام من القرود، ولا تعجبن إن حدّثه أحدٌ عن السائل والمحروم، فأسقط دمعاً سخيناً تكاد تشفق عليه من الهلاك!

أما "الحبكة" الدراميّة في السيناريو - كما يقول أهل الفن - فقد قام بتمثيلها المُشير الرئيس نفسه، فقد هشّ بعصاه على رعيّته، وتحدَّث عن دولة أفلاطونيَّة لا وجود لها إلا في مخيّلته، وقال في حديث لصحيفة 'السوداني' في أغسطس من العام ٢٠١١، ردا على نفيه روايات الفساد: «**يعني لو مافي مُفسدين نجيبهم من وين؟!**».. ولكن ما إن استلذ الناس بترديد روايات الفساد، إذا به ينبري ويحدِّثهم بذات الفم الوالغ في الكذب منذ سني "الفطام" وحتى "ضُرس العقل" عن كيفيّة اجتثاثه، ونصحَهم بفذلكات قانون الثراء الحرام وإبراء الذمَّة، وهذا لعمري أشبه بالثعلب الذي ارتدى ثياب "الواعظين"، فالمُشير المذكور يريد أن يقول للبريّة إنه حتى لو كان هناك ثمة قوم فاسدين في دولته الفتيّة، فإنه شخصياً برئ مما يأفكون.. الرئيس الذي شغلته عُصبته بملء شهوتي البطن والفرج، كان قد وثّق

لفساده بالصوت والصورة من غير ما احتسب، جاء ذلك في حديث تلفزيوني حصر فيه أملاكه (منزلان بكافوري والرياض، شقة في مجمع النصر ومزرعة في السليت) بَيْدَ أنه تجاهَلَ ذكر الفساد الذي يرقُد بجانبه، ونسي إخوة يوسف وما يضمُرُون، بل نسي القصر الذي استولى عليه عُنوة واقتداراً من أحد أبناء الرَّجُل العصامي، الشيخ مصطفى الأمين ويقضي فيه يوماً واحداً في الأسبوع "ليتحلل" من رَهَق العمل وثقل المسئوليَّة!

يا سادتي، لا يغُرَّنكم ما ينشُرون، فالفساد الذي نعنيه يبدأ من رأس الهرم أعلاه، الذي يتحدَّث عن الزُّهد مستشهداً بآياتٍ من كتاب الله، في الوقت الذي يشاركه الفساد فراش الزوجيَّة، وعلى مرأى منه إخوته وعُصبته التي تُؤويه. ومن ثَمَّ، تقف فيه ذات العُصبة صفاً كيوم الحشر، بدءً من علي عُثمان طه وعوض الجاز ونافع علي نافع وأسامة عبدالله وإبراهيم أحمد عُمَر وعلي كرتي وعبدالرحيم محمد حسين وبكري حسن صالح وكمال عبداللطيف ومحمد عطا وصلاح قوش وغازي صلاح الدين وأحمد إبراهيم الطاهر ومصطفى عُثمان والشريف ود بدُر وعبدالحليم المُتعافي ومهدي إبراهيم وجلال الدقير والسمَّاني الوسيلة وعبدالباسط سبدرات ومبروك مبارك سليم ومأمون حميدة وجمال الوالي والوُلاة العشرة المُكرَّمون بالسُّلطة، ولولا عِلمنا بأن القائمة ستنوء بحامليها، لطالبنا بمُثول الأموات في قُبُورهِم!

نسبة لأن الأمر كله ذو صلة بالتمثيل، فلا تستغربَن إذاً من روافع مساعدة للسيناريو. تأمَّل يا أيها المقتول كمداً مَن ذا الذي يكتب عن الفساد الآن.. المدعو صلاح قوش يتحدَّث في "البرلمان" المنتخب عن كيف بدَّدت عُصبته مليارين ونصف في إنشاء مبانٍ غير واردة في الميزانيَّة، واسمح بكرمك الفياض - يا عزيزي القارئ - أن ألوِث مقالي هذا ببعض الروافع التي دأبت على تقبيح الجميل وتجميل القبيح، فطفقوا يتحدَّثون عن الفساد دون أن يرمش لهم طرف: راشد عبدالرحيم، محمد عبدالقادر، كمال حسن بخيت، اسحق أحمد فضل الله، الطيّب مصطفى، عبدالمحمود الكُرُنكي، النجيب قمرالدين، مصطفى أبوالعزائم، محمد وقيع الله، أحمد البلاَّل، ومع ذلك فثمَّة قوم آخرين من الكتبة يستحي المرء من ذكرهم، ذلك أن في ذكرهم هُنا شرفٌ لهُم، حتى وهُم غاطسون في بُؤر الفساد. بَيْدَ أن فساد الصحافة في هذا العهد الأغبر في حاجة لمبحث اخر من قبل أن يغيّر "سُوَّاس الأحصنة" مضمار السباق!

يا أيها المُفسدون.. لكُم دينكُم ولنا دين!

آخر الكلام: لابُدّ من الدّيمُقرَاطيّة والمُحاسبة وإن طَالَ السَّفر!!
٢٠١٤/٥/٩

مِن وَحي عُرس العَالَم.. لَيتَهُم كانوا يَفقَهُون!

لم يكُن ذلك المشهد الآسِر يلفت انتباهي كثيراً فيما سَبَق، وذلك ربّما بحُكم اللامبالاة أو العادة المتأصِلة أو الغفلة المتدارجة – سمِّها ما شئت – فما أكثر العِبَر وأقل الاعتبار. بيد أن هذه المرَّة كان لحضوره فعل السِّحر في نفسي. فبأسبابٍ أدريها وقد يدريها مثلي مِمَّن أرهقتهم قرائن الأحوال، أي بين ما هو كائن في واقع نرزح في جحيمه وما هو مُفترض في حياة نحلم بها. كان هذا مدعاة لتأمُّل وقائع حدث ظلَّ يستقطب أنظار العالم بصورة عامَّة، وفي جوفه المشهد الذي نحن بصدد الحديث عنه بصورة خاصة. وأقول ليس على المحروم مثلي حرج إن تأمله هذه المرة بشغف زائد ومتعة شائقة لا يضاهيها شيء. فقد أدركت - يا سادتي - ما انطوت عليه تلك الظاهرة من معانٍ حضارية جميلة؛ يعجز الراصد عن التعبير عنها حتى ولو تفانى في الوصف!

جرى العُرف، في مباريات كأس العالم التي تجري منافساتها هذه الأيام في البرازيل على عزف ما يُسمى بـ (النشيد الوطني) لكلا الفريقين المتنافسين قبيل كل مباراة. أثناء ذلك ظللنا نتابع الكاميرا وهي تتهادى على وجوه اللاعبين المتحفزين للنصر وجمهورهم أيضاً، وهم يرددون معاً أناشيدهم الوطنية، بحناجر راعدة وقسمات صارمة، وغالباً ما تكون كفوف أيديهم مقبوضة إلى صدورهم في دلالة على مكانة الأوطان في قلوبهم، في حين تسري ألحانها المموسقة في آذان السامعين، كما يسري الماء الزُلال في جوف الظامئين. فهل تأمَّلنا ذلك – يا سادتي – بنظرة غَيْرى تعيد إلينا الوطن الذي تسرَّب من بين أيدينا ونحن غافلون! كأس العالم أو "المونديال" هو عُرسٌ كَرَوي لأكثر الأنشطة الرياضيّة شعبيةً في العالم. لذلك يعيش الملايين - بل البلايين - عبر قارات العالم السَّبع شهر عسل حقيقي، وهم يتابعون وقائع تلك المباريات بمتعة وولع وإثارة. وكنتُ قد دأبتُ على متابعته أيضاً منذ عقودٍ مضت. بَيْدَ أنني لم أكتف بالمشاهدة المُجرَّدة هذه المرَّة، وإنما حاولتُ أن أسبح بعقلي وخيالي معاً إلى مرئيات هذا العُرس، وما تضمَّنته من معانٍ خفيَّة، جعلت من العالم بكل تنوُّعه الثقافي والإثني والعقدي يكاد يتوحَّد على قلب إنسان واحد!

الجمال عنوان كل شيء، فالاستادات أو بوَّابة الدخول للمنافسات، عبارة عن تحفة معماريَّة تكاد تسلب عقول الناظرين. تتوسَّطها تلك الميادين الخضراء

بخطوطها الهندسيَّة الجذابة، وتحيط بها المدرَّجات المختلفة بتناسُق بارع. في حين تظل جماهير الفرق المختلفة هي اللوحة الأكثر بهاء ورونقاً، لا سيَّما، وأن بعضهم تبارى في لفت الانتباه بشتى السُبُل من أجل إدخال البهجة في النفوس، وإكساب المنافسات جمالاً وإشراقا. كما أن البلد المضيف نفسه – البرازيل – شأنها شأن كل بلدٍ اقيمت فيه المُنافسات، فقد بذلت جهداً خرافياً في التنظيم والرفاهية لمئات الآلاف من الذين هوت قلوبهم وأفئدتهم لديارها من عُشاق كرة القدم!

إن المتأمّل لهذه الرياضة، يرى فيها تجلي كثير من المُثل والقيم النبيلة، فهي تعبّر عن معاني الحريَة والمسئوليّة والديمقراطيّة والتسامُح واحترام الاخر. يبذل اللاعبون قصارى جهدهم في المحافظة على شباك مرماهم خالية من الأهداف، وفي نفس الوقت يبذلون جهوداً مضاعفة من أجل إحراز الأهداف في مرمى الخصم، وذلك لا يتأتى عشوائياً وإنما بخُطط مدروسة، تدرَّبوا وتمرّسوا عليها لسنواتٍ عدة، وخلالها رعوا المواهب وصقلوا الخبرات، وأعدوا لليوم الموعود ما استطاعوا من عُدَّة وعتاد، ولهذا فإن المنافسات لا تفاجئهم بمثلما يفاجئنا العيد، والسيول، والفيضانات، والانقلابات العسكريَّة!

ورد في حديثٍ صحيح أن الله جميلٌ يُحِبُ الجمال، وأقول: نحن كذلك. ومن منا يكره الجمال غير العُصبة ذوي البأس، التي تفانت في تكدير حياتنا. وفي واقع الأمر، لم أعرف في سيَر الأولين والاخرين - وفق قرءاتي المتواضعة - إنساناً صارع الجمال وهام به حتى صرعه، مثل شاعرنا العبقري الراحل إدريس جمّاع. أتذكره وأترحّم عليه كلما رأيت الكاميرا تنتخب وجوها مليحة لحسناوات تفانيْن في صبغ وتزيين وجوههن بأعلام بلدانهن الزاهية الألوان، أو أي شيء من هذا القبيل، وذلك بهدف لفت الانتباه بنظرة تُنسي الوقار وتسعد روح المُعنى. فإن أصبنه بسهام لحظهن وأحللن عقدة من لسانه، فلسوف يهتف من أعماق قلبه ممجّداً رب الجمال، الذي خلقهنّ وسواهنّ وعدّلهنّ، وسيقول سراً أو جهراً: يُنصُر دينك يا رَبّ!

يعجبني كثيراً قولٌ جميل تردّده إذاعة الـ'بي بي سي' العربية بين فواصلها، وهو منسوبٌ للإمام الغزالي، وفيه يقول: «**من لم يهزه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره، فاسد المزاج ليس له علاج**».. كلما سمعتُ هذا القول ظننتُ أن الإمام الغزالي يعني به "البروفيسور" محمد عثمان صالح، الذي يرأس هيئة عُلماء السُلطان، فهو من تلك الفصيلة التي ليس لها علاج.. آخر فتواه كانت عن تحريم الغناء في رمضان، وبمثلما يحدُث في "أوكازيونات" الأسواق طلب التقليل منه بقيّة شهور العام. والإمام الغزالي قال قوله ذاك وهو لا يعلم أن بيننا ثلة من أئمَة الحيض والنفاس، أفتوا أيضاً بتحريم مشاهدة هذا العُرس العالمي الذي يأتي مرَّة كل أربعة أعوام. ولا شكَ أن البعض قرأ بعين الدَهشة قول أحدهم عشيَة المنافسات: «**الفيفا مؤسسة طاغوتية تديرها الشياطين**»، فتأمّل!

عُلماء الحيض والنفاس هؤلاء ظلوا يُعكِّرون صفو حياتنا بفتاويهم المُمعِنة في التخلف والانحطاط. ومن المُفارقات التي تجعل الدواب تفغر أفواهها دهشة، أنهم لا يرون ما يرى الناس، ولا يعايشون ما يعيشونه. لم يسمعوا بأنين عشرات الالاف من الضحايا في دارفور وجنوب كُردُفان وجنوب النيل الأزرق، بل في الخرطوم العاصمة وولاياتها، حيث أزهقت أرواح أبرياء. ولم يروا التعذيب على أجساد شباب زجُّوا بهم في السُّجُون والمُعتقلات، ولجموا ألسنتهم عن قصص الفساد الذي تمدَّد واستشرى حتى أصبح ديناً يُعبَد لدى عُصبتهم. لرُبع قرن ظلَّ عبدالجليل الكاروري ومحمد عبدالكريم وعبدالحي يوسف وعصام أحمد البشير والصافي جعفر ومن لفَّ لفهم، يحتكرون المنابر، ليُحللوا الحرام ويُحرِّموا الحلال، وفق ما تشتهي عُصبتهم الحاكمة!

بالطبع، لن أقول جديداً إن قلت إنني تيقنت بما لا يدع مجالاً للشك أن أيديولوجيّة العُصبة تستند على الاستغلال البشع لكُلِّ شيءٍ في الدين أو الدنيا بهدف التشبث بالسُلطة. فهُم حينما يتحرّون رؤية هلال رمضان ويُكثرون من التظاهُر بمقدِمِه، فلا يظنن أحد أن ذلك حرصاً منهم على إحياء ركنٍ من أركان الإسلام الخمسة، بقدر ما يرون في الصوم فرصة لشغل الناس عن التمرُّد على سُلطتهم الغاشمة. وبنفس القدر، هُم يستثمرون مناسباتٍ مثل منافسات كأس العالم الحاليَّة للغرض نفسه، وليس كرياضة يستمتع بها الناس في حيواتهم، ناهيك عن أن الرياضة نفسها دجَّنوها وجعلوا منها وسيلة سلطويَّة للوصول لغايات يرومونها، فلا غُرُوَّ أنْ حاق بها ما حاق بالبلاد من دمار شامل. كما إن الاستغلال البشع قد طال حتى المناخ، وكأني بهم يتمنون أن تمدَّ الطبيعة صيف السُودان ليُصبح كل العام، وتزيد فيه درجات الحرارة، وتُرسِل الشمس شواظها اللاهبة، ويثور الغبار والأتربة ليكونا سداً لا يبصر الناس من خلاله مساوئهم!

صفوة القول يا كرام، ليس بالتمني تبقى أنظمة السُوء على سُدَّة السُلطة وإن طالت سلامتها، وليس بالفهلوة يستمر الأبالسة في تقبيح الجميل وتجميل القبيح. فلا تبتئسوا يا من تمطى وتثاءب نهاركم وطال ليلكم، غداً ستشرق شمس الحقيقة، وسيرى التواقون للحريَّة والديمقراطيَّة والمُساواة والعدالة الاجتماعيَّة كيف سيكون العالم، ليس في مضمار الرياضة وحدها، وإنما في كل أوجه الحياة. وحينئذٍ سينزوي شُذَّاذ الآفاق والمُتطرِّفون والمهوسون والمتاجرون بالدين وكهنة الإسلام السياسي.. وتجد تلك القيم الجميلة مناخها الملائم لتعمَّ وتسود وتزدهر!

آخر الكلام: لابُدّ مِنَ الدِّيمُقرَاطيَة وإن طَالَ السَّفر!!
٢٠١٤/٦/٢٧

أيُ عارٍ جَلَبتَهُ لأسرَتِكَ يا عبدُالرَّحمن؟!

في أثناء تأجُّج نيران الحرب الأهليَّة في أيرلندا الشماليَّة في حقبة السبعينيات من القرن الماضي، قام الجنود البريطانيون بحصد أرواح ثلاثة عشر شاباً متظاهراً في شوارع بلفاست، فيما سُمِّي بـ"أحد الدم"، فاستدعى البرلمان وزير الداخليَّة لاستجوابه حول ملابسات ما حدث. فقدَّم الوزير إجابات بدا أنها لم تقنع سيِّدة عضو في البرلمان، فغلى الدم في رأسها وفار كالتنور. ثمَّ غادرت مقعدها وتحرَّكت بعصبيَّة ظاهرة يدفعها غضبٌ جامحٌ صوب الوزير، الذي كان يقدِّم إجاباته باطمئنان شديد، وبالطبع لم يدر بخُلده مُطلقاً أن السيِّدة سوف تصفعه وتعود إلى مقعدها، كأنها كُلفت بأداء مهمة مُقدَّسة على الوجه الأكمل. وفي اليوم التالي، خرجت بعض الصُحُف بعناوين صارخة صبَّت الزيت على النار، بما فيها صحيفة 'التايمز' الرصينة، والتي اختارت عنواناً أكثر إثارة "الآن اشتعلت الحِمية الأيرلنديَّة"!

(٢)

قامت سُلطة العُصبة الغاشمة باعتقال الدكتورة مريم الصَّادق المهدي بمجرَّد مغادرتها الطائرة القطريَّة التي وصلت مطار الخرطوم مساء يوم الثلاثاء الماضي، وكالعادة لم تقدِّم سبباً للاعتقال، مثلما أنه لم يَدرِ أي أحد بالمكان الذي اقتيدت إليه، إلا بعد أن سُمِحَ لها بإجراء مكالمة سريعة مع زوجها في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، فأخبرته بوجودها في مقرٍ لجهاز الأمن، أو بالأحرى أحد "بيوت الأشباح" بمدينة الخرطوم بحري. وفي ظِلِّ الغموض الذي طابق عمليات "المافيا" تلك، لم يكُن بوسع المراقبين سوى اللجوء للتنجيم لمعرفة الأسباب التي لا تحتاج لكثير اجتهاد. فقد قدِمَت مريم من باريس التي وقَّع فيها والدها السيد الصَّادق المهدي رئيس حزب الأمَّة ومالك عقار رئيس الجبهة الثورية "ميثاق باريس"، وبغضِّ النظر عن دورها أو عدمه، فالميثاق المذكور لم يتبيَّن الناس ليله من ضحاه، وبالتالي لم يكن رجساً من عمل الشيطان حتى يتم اجتنابه. لكن النظام الذي دأب على ضخِ السُوء، ظلَّ يفترض الشيء نفسه في كُلِّ من لا يدور في فلكه. على كلٍ، بعد أن قضت مريم ليلتها تلك في بيت الأشباح، تمَّ تحويلها إلى سجن النساء بأمدرمان، وما تزال تقبُع بين جُدرانه. فما الذي يمكن أن يشعل حمية الشقيق الحسيب عبدالرحمن الصَّادق المهدي يا ترى؟!

(٣)

لم نورد هذه الخاطرة اعتسافاً، بل لم يكُن ديدنُنا أصلاً إقلاق مضاجع الشقيق المذكور، ولكنها الصُدفة. أو قُل "الحبكة الدراميَّة" كما يقول أهل الفن السابع. فأثناء مطالعتي وسائط إعلاميَّة متعدِّدة، طغى عليها تغطية خبر الاعتقال وما صاحبه من توضيحاتٍ وتحليلاتٍ وتداعيات، لاحظتُ صورة لا يصحبُها أي تعليق أو خبر، تسللت لكُلّ المواقع، وجَمَعَت بين الشقيق ونافع علي نافع، أو الحاكم بأمره في العلن سابقاً ومن وراء الكواليس حاضراً، بديا فيها وهُما يتجاذبان أطراف حديثٍ لا ندري كنهه، ولكن الصورة جسَّدت حميميته ودفئه، أو هكذا يخالُ لناظرها. وسواء كان حميماً أو منفرا، فسيَّان الأمر لدى عبدالرحمن الصَّادق المهدي، الذي دأب على الإصغاء منذ أن وطأت قدماه ردهات القصر، الذي قتل فيه أجداده الجنرال غُردون، وما تزال بقع دمائه المُتناثرة على الدَّرج تستثير حميته ليستنهض تاريخاً تليداً وهو من الغافلين!

(٤)

صورتان نقيضتان عصفتا بذهني، فداهمتني مرارة بطعم العلقم وانتابني أسىً عميق، وأنا أتأمَّلُ المشهدين. وبرغم أننا وطَّنا أنفسنا على تقبُّل كل قبيح نضح وينضح من إناء العُصبة ذوي البأس، إلا أنني لم أكُن أتوقع أن يلهو الفاعل بالمفعول به في مواقف نعلم أن دولاً تحرّك من أجلها الأساطيل، وأن شعوباً تستنفر من أجلها الجيوش، وأن أفراداً تشتعل حميتهم فيسترخصوا الغالي والنفيس حماية للعِرض وإعلاء لراية الكرامة. طبقاً لهذا، لم يكُن مطلوب من العقيد عبدالرحمن الصَّادق أن تُستثار حميته زوداً عن كرامة الشعب السُوداني التي داستها حوافر خيول المغول. ولم يكن مطلوب منه أن يشاركهم الضرَاء التي ألحقها التتار بالبلاد والعباد. ولم يكن مطلوب منه أن يبكي شباباً غضاً حصدتهم بنادق جلاوزة الأمن. ولم يكن مطلوب منه أن يصغي السمع لحسرات الذين يقبعون خلف الجُدران في السُجون وبيوتٍ سيئة السمعة. ولم يكن مطلوب منه أن يحس بآلام الذين حاصرهم الظمأ ونهشتهم المسغبة. ولم يكن مطلوب منه أن يحصي آهات الذين تكالبت عليهم الأمراض فعزَّ الدواء والطبيب المداوي معا. لقد كان المطلوب منه أن يجتاز امتحان جاءه يسعى في عقر داره، فرَسَبَ فيه بعد أن دفع ثمن تهوُره مرَّتين في أعزِ ما يمُت للمرء بصلة.. الوالد وما ولدا!

(٥)

إزاء عجز الولد، لاذ الوالد بمنفى جديد، ليس جرَّاء ما اقترفت يداه بحسب ما يتراءى للناظرين، ولكن خشية أن يعيد التاريخ القريب نفسه مجدَدا. أما الشقيقة، فقد عزّ عليها جرّاء خُذلان الشقيق أن تطلق من محبسها "زغرودة" داوية كسائر نساء أهل السُودان في مثل هذه المواقف، زغرودة تهتز لها جدران السّجن، وترتج أذنا السجّان. لكن الذي حدث - يا سادتي - يعجز غبريال جارسيا ماركيز عن تجسيده.. فبفضل ديكتاتوريَّة الجغرافيا التي يُذعن لها الناس وهُم

صاغرون، كانت الشقيقة تفترش متاع السّجن البائس والشقيق على مرمى حجر ينام في مضجعه قرير العين هانئها.. تكاد تسمع شخيره رغم الحوائط التي استطالت، وهي ليست كحوائط الرّاحل مصطفى سند في "الحزن القديم" ولكنها حوائط "الحُزن الجديد" المبنيّة بعظام ولحم ودم هذا الشعب الصابر، والمُسوَّرة بأنين المقهورين والغلابة والمظلومين، والمحروسة بالقوّة والجبروت والاستبداد. وليته أصاخ السمع قليلاً، وهو يتقلب في فراش السُّلطة الوثير، فلربَّما سمع شكواها وتظلمها وقلة حيلتها!

(٦)

إن المُقدّمات الصحيحة تقود بالضرورة إلى النتائج الصحيحة، كما يقول عُلماء المنطق، والعكس صحيح بالطبع. ومع ذلك، احتار 'المراقبون وجرت الروايات مدراراً في تفسير انضمام عبدالرحمن لعُصبة المؤتمر الوطني. وفي واقع الأمر، ليس عصياً لمَن عزَّ عليه أن يتبوَّأ مثل هذا المنصب في نظام ديمقراطي مكتمل الأركان، جرّاء افتقاره للخبرة السياسيّة الكافية، أو الكاريزما القيادية، أن يأتيه ذات المنصب يجرجر أذياله في كنف نظام ديكتاتوري. وقد رأينا في مسرح العبث هذا كيف ابتذل الأبالسة المناصب حتى نالها الذين كلّت بطونهم من أكل السُّحت. أما إن شئت ابحاراً عميقاً في لُجَج ما حدث، فستعلم – يا هداك الله – دون أي جهد يُذكر أن الخطوة التي كانت عبارة عن صفقة قوامها أطراف ثلاثة.. فأهل النظام بعد أن استعصى عليهم الدخول بباب حزب الأمّة، قدَّر دهاقنته الدخول بالشباك. والسيد الصَّادق الذي ضيَّع في الصيف اللبن، أصبح جُلّ هَمّه في وريثٍ يُكمِلَ مسيرة الصراع الأزلي مع المُتربّصين بالحزب وكيان الأنصار من آل البيت المهدوي. أما عبدالرحمن نفسه، فيقيني أنه ليس من فئة الذين يشغلون أنفسهم بهذا أو ذاك، أو حتى بالذي نحنُ فيه خائضون. وتلك حقيقة كانت مبلغ علم الأبالسة، فسخّروها من أجل السيطرة عليه بوسائل يعرفونها وبرعوا في تطبيقها على آخرين، حتى لم تبق في وجوههم مُزعة لحم!

(٧)

في أجندة الأطراف الثلاثة تلك، لسنا معنيين بالنظام وأحابيله فتلك سِمَة خبرها الناس عنه حتى لم يبق من درنه شيء يُذكر. أما المهدي، فكالعهد به، استسهل معركة بمثلما استسهل معارك كثيرة يظلّ يخوضها في مضمار السياسة لنحو نصف قرن من الزمان. وطبقاً لهذا، يبقى الحديث عن خطئه أو صوابه في هذا المقام مجرَّد ترفٍ يلجأ إليه العاطلون عن الهُموم. فالمهم أنه دافع دفاعاً مستميتاً عمّا اسماه بـ"خيار الابن"، وذاك منعرجٌ تغلبت عليه صلات الدم أكثر من روابط السياسة. لكن مهما يكُن من أمر، فالمفارقة أن المهدي نفسه كان أوَّل مَن تجرَّع معادلات الأبالسة التي ذكرناها آنفاً ضمن أجندتهم الخفيَّة في الصفقة، فزجوا به في سجن كوبر لأكثر من شهر، ولم تعوزهم الإهانات، فهُم عُصبة لا يعرفون غير الإذلال لغةً في التواصُل. لكن "عِش رجباً ترى عجباً"، كما يقول

الإعراب، فالمهدي الذي أقدموا على سجنه كان وقتئذٍ أقرب إليهم من حبل الوريد، ناهيك عن أن الاتهام نفسه الذي نهى عنه النظام أتى به بعض سدنته. من جهة أخرى، بدا لنا أن الابن اللاهي في ملكوته لم يدرك أن السُّجون بُنيت للحرمان من الحريَّة، والتي هي أثمن ما يملك الإنسان في هذه الدنيا، بدليل إنه لم يجد في نفسه حرجاً أن يزور والده رهين المحبسين "السجن ومحنته" على رأس رهطٍ من "المهاجرين والأنصار" وكأنه يُشهِدهُم على سوء ما حصدت قدماه!

(٨)

الآن بعد أن انكسرت الجرَّة وإندلق اللبن، وبعد أن تحوَّلت المحنة من قضيَّة سياسيَّة إلى قضيَّة أخلاقيَّة، لابُدّ للحائرين مثلنا أن يسألوا عبدالرحمن عن النبأ العظيم.. ما الذي كسبه وفق ما خطط أو طمح له الوالد في تعلم أصول الإدارة والقيادة والحُكم؟! هل يا ترى تعلم الصِّدق من رئيس نظام استمرأ الكذب؟! هل تعلم الأدب من نافع علي نافع الذي تبرَّأ منه لسانه؟! هل أخذ الحكمة من علي عثمان طه الذي حصّن نفسه بآيات المنافق الثلاث؟! هل استلهم الأمانة من عوض الجاز، أو اقتفى مدارج الزُّهد من علي كرتي؟! هل التمس النزاهة من أسامة عبدالله، أم استوحى الشفافية من عبدالحليم المتعافي؟! هل نال العلوم العسكريَّة من عبدالرحيم محمد حسين، أم الحكمة من لدُن بكري حسن صالح؟! هل أصغى السمع لمحمَّد عطا المولي وهو يحدِّثه عن حُرمة قتل النفس وكيفيَّة التحلل من الذنب؟! كيف يمكن للمرء أن يتعلم أصول القيادة من الذين جعلوا ميكافيلي مجرّد تلميذ صغير في بلاطهم؟! كيف يمكن للمرء أن يتعلم أصول الإدارة من الذين حكموا بالخداع وتوسَّلوا النفاق، وصار الكذب دينهم؟! كيف يمكن للمرء أن يتعلم أصول الحُكم من سدنة نظام ديكتاتوري ولغت أياديهم في الدم الحرام، إذ فاق عدد الذين فتكوا بهم في دارفور عدد من قتل في شيكان وقدير وأم دبيكرات والجزيرة أبا وود نوباوي.. وقد تجاوز عدد الذين قتلوهم في الجنوب أضعاف عدد الذين قدّموا أرواحهم رخيصة في كرري؟!

(٩)

يا عبدالرحمن، خُذ بيد شقيقك وأرحلا، فالحياة بلا كرامة كالأرض اليباب، ولا يمكن للمرء أن يبني مجداً على جماجم الشُهداء، وأرتال المفصولين من الخدمة المدنيَّة والنظاميَّة، وجحافل العاطلين عن العمل، والقابعين في أقبية السُجون والمعتقلات، والمشرّدين في معسكرات الذُلّ والهوان، والمبعثرين في فجاج الأرض، والمنتظرين للذي يأتي ولا يأتي!

يا عبدالرحمن، من دخلَ عشّ الدبابير لابُدّ وأن يُلدَغ.. خُذ بيد شقيقك وأرحلا، فالذي تبحثون عنه قد تركتموه ببسطام!

آخر الكلام: لا بُدّ من الدِّيمقراطيّة وإن طال السَفر!!
٢٠١٤/٦/١٨

لماذا سَكت الترابي عن الكَلامِ المُبَاح؟!

ألا رحمَ الله صديقي محجوب عثمان، الذي رَحَلَ عن دُنيانا في العام ٢٠١٠ كما ترحل النوارس إلى ما وراء البحار.. كان شفيفاً وعفيفا وصريحاً.. ما انتظم عِقد لمجالسيه حتى صار ريحانتهم.. حذق الجمع بين "الضُرّتين"، السياسة والصحافة. ومن خلالهما كَدَحَ إلى وطنه كدحا، إلى أن لاقى ربَّه راضيا مرضياً. كان قد شرّفني بكتابة مُقدّمة كتابي الأول الموسوم بعنوان "مِحنة النُخبة السُودانيّة" والذي صدر في القاهرة العام ١٩٩٣، واقتبس من تلك المُقدِمة العبارة التالية: «يُشبه المُؤلف قناعات قادة الجبهة الإسلامية بنظرية الفرد روزنبرج فيلسوف النازيّة الشهير، والتي تقول: «**إذا كانت القسوة لازمة فلماذا لا نستخدمها لإرادتنا الوطنية**»، ويضيف محجوب: «**وهُنا تستشعر ذاكرتي رأياً للدكتور التُرابي، أطلقه ونحن في سجن كوبر خلال الأسابيع الأولى بعد انقلاب ١٩٨٩/٦/٣٠ التي مكثها مُعتقلا مع المعارضين كواحدة من وسائل التمويه يومذاك. قال الترابي ما معناه إن الشعب السُوداني لا ولن يسلك الطريق القويم الا بالقهر. وعندما اعترض أحدهم بأن القهر يُولِد الانفجار، كان رد السيّد المُرشد: دعك من هذا، فإن القهر يبدو شاذا وغريبا في أيامه الأولى، ولكن سُرعان ما يعتاد عليه الناس**».. وختَم محجوب تلك الفقرة بتساؤل مُزلزل: «**ألا يكمل هذا نظرية فيلسوف النازية ويدعمها ويطورها؟!**».. ولعمري، ذلك سؤال أجابته السنين وفجورها!

(٢)

في صيف عام ٢٠١١، جلستُ إلى الدكتور حسن التُرابي في منزله بالمنشيّة، كان ذلك أثناء زيارة للبلد الصابر أهله، وقد خطّطت لها الأقدار ونفذتُها طائعا مختاراً. وبحُكم البُعد الجغرافي، أو إن شئت فقُل القسري، لم يتسنَ لي رؤية تلك الدار من قبل، غير أني سمعت عنها قصصاً أشبه بالأساطير. يقولون كادت أن تكون محجّاً للحواريين، وإنها كانت تعِجُّ بالغاديين والرائحين عندما كان شيخهم يأمُر فيُطاع. بل قيل إن البعض كان يستبقي نفسه فيها حتى مطلع الفجر ولا يغادروها إلا وهُم مُكرهون. ولهذا استغربتُ يومذاك عندما رأيتُها تكاد تكون خاوية على عُروشها، ولفت نظري كذلك أن الساحة التي أمامها تخلو من أيِ دابّة، وكانت – بحسب ما قيل لي – يعزُّ أن تجد فيها موطئ قدم، ناهيك أن تجد

مكاناً لدواب كثُرت أنواعها. دلفتُ للدار وقلتُ في سِرّي "أدخلوها بسلامٍ آمنين".. وجدتُ التُرابي يجلس في الصالون وحده، بل للدقة كان يجلس على مقرُبة منه شابٌ تبدو على سيمائه الطيبة والوقار، عرفتُ فيما بعد أن اسمه "تاج الدين بانقا" وهو يشغل وظيفة سكرتيره الخاص، وهي ذات الوظيفة التي كان يشغلها صديقنا المحبُوب عبدالسلام في العشريَّة الأولى، كما وصفها في كتابه ذائع الصيت. أخذتُ موقعي بالقُرب من التُرابي، وجلس إلى جانبي السيّد كمال عُمَر، وهو الذي رتب اللقاء أصلاً. و"عُمَر" هذا للذين لا يعلمون، لم يكُن من الذين بزغ نجمهم في فجر السنين العشْر وما تلاها، ولكنه في العشريّة الثانية وما جلاّها، اقترب من التُرابي حتى أصبح عينه التي ترى، وأذنه التي تسمع، ولسانه الذي ينطق، ومِن المُفارقات أنّ التداعيات التي حدثت في مواقف المؤتمر الشعبي مؤخراً، وبدا فيها "عُمَر" يتقلب كتقلب المُحب على نار الجوى، كشفت للمراقبين أن فيه شيئاً من خُلق التُرابي، ومن شابه شيخه ما ظلم!

(٣)

امتدّ ذلك اللقاء لنحو ثلاث ساعات، وعلى الرغم من أنه جرى في رمضان، حيث الطقس حارّ وجافٌ، ونهاره قائظ كالعادة، إلا أن شهيّة المُرشد للكلام – بحسب تعبير محجوب – كانت ساعتئذ أشبه بجُهنم، كلما قُلت كفى قال هل من مزيد. ولا أظن أن مثل تلك الرغبة كانت متاحة لمثلنا في العشريَّة الأولى، أي في عزّ سطوته وجبروته. فيومذاك حتى حوارييه، لو أن أحدهم ظفر بردٍ التحيّة فقط لطار قلبه من الفرح وانقلب إلى أهله مسروراً. لهذا لم يكُن عصياً عليّ أن اهتبل سانحة غضبه وضيقه وحِنقه منهم لاستخرج بُغيتي من أسرار وأوطار، وبالطبع ما كان لها ان ترى النور، لولا جور الزمان ومكائد الحِبّان. وفي سياق مقالنا هذا، قد لا يهم كثيراً كل ما قال، غير أنني كنت ألحظ مدى تغيُّر تقاسيم وجهه واصطكاك أسنانه عندما يتحدّث عن عُقوق الحواريين، ويترفّع عن ذكر اسمائهم، بل لحظتُ أيضاً أنه كلما ازدادت دواخله غضباً، كان يضغط على طاولة صغيرة امامه بإبهامه حتى يخال للمرء إنه سيثقبها أو سيُدمي أصبعه. ثم من باب التنفيس أو الترويح عن الضيق، كان فمه يفتر عن تلك الابتسامة الغامضة التي تتضاءل قُدرات أبرع الممثلين المسرحيين في أن يأتوا بمثلها. يومذاك فقط، أيقنتُ تماماً بعد أكثر من عقدٍ من الزمن، أن ما سُمِي بـ"المُفاصلة" بين القصر والمنشيَّة ليست مسرحيَّة كما أشيع عنها، ولكنها حقدٌ وكراهيَّة وثأراتٍ مؤجَّلة!

(٤)

قبل أن يُبادر أحد ويتهمني بالسذاجة، أقولُ: لستُ وحدي، إذ أن قرائن الأحوال ووقائع الأحداث في الفترة التي أعقبت "المُفاصلة" شهدت فجوراً في الخصومة من الجانبين لم يسمع الناس بمثلها، إلاّ في قصور خُلفاء الدولة الأمويَّة. رئيسٌ ابتذل الحُكم، فضرب مثلاً ونسِيَ نفسه.. وقف ذات يوم أمام حشد من الناس، ومدّ يده إلى عنقه، وقال على رؤوس الأشهاد: «**الشيخ يستاهل الضبح**»،

أي الذبح بمثل ما يفعل تنظيم "داعش" بضحاياه هذه الأيام! والشيخ الذي أخذ من الجِمال (بكسر الجيم) أهمَّ صِفاتها، راح يقتص من حوارييه ويجلدهم بألسنة حداد ويتحرّق شوقاً لليوم الموعود. راهُ الناس يوماً في ندوة مبثوثة في وسائل التواصُل الاجتماعي، ينقُل عن الرئيس الذي توعَّده بـ"الضبح" حديثاً لا يملك المرء حين سماعه إلا أن يستغشى ثيابه ويُولي الأدبار هرباً. ثم تدور دائرة الأيام، وبينما الناس في انتظار المعركة الفاصلة أو المُؤجَلة، يُعادُ ترتيب المسرح بطريقة جديدة قبل إنزال الستارة. ثمَّ تستوجب المسرحيَّة تغيُّراً مفاجئاً في المشاهد. يبتدع الرئيس "الضرورة" ما سُمِّي بـ"خطاب الوثبة" ويطرح خواراً سُمِّي بـ"الحِوَار"، ثم يتقابلا، الرئيس والمرؤوس، أو الشيخ وحواره السابق، أقبلا على بعضهما ويكادان يطيران من الفرح. ثم تعانقا عناق من تحرَّى لقاءً بعد طول فراق، محا النهار فيه كلام الليل.. تلك بدت للبعض كطلاسم، ولكن وراء الأكمَّة ما وراءها يا سادتي! فمهلاً إذ أنّ ما حدث وراء كواليس المسرح أمره عجباً!

(٥)

ذلك هو السؤال الذي سبرنا أغواره من مصادرنا العليمة، وخرجنا بمعلوماتٍ ثرة نضعُ خُطوطها العريضة بين يدي القارئ ربَّما أزالت بعضاً مِمَّا التبس في ذهنه من طلاسم. قالت المصادر: كانت قطر قد راهنت كثيراً على صعود موجة الإسلام السياسي في دول ثورات الربيع العربي، وعلى وجه الخصوص مصر وليبيا وتونس، وفجأة على غير ما تمنّت واشتهت، بل وعملت لذلك طويلاً بدوافع يعلمها المُراقبون، وبالذات الصِراعات الخفيَّة مع المملكة العربيّة السعوديّة، بدأت الأرض تميد تحت ثِقلِ طموحاتها وانتاشتها سهام الكراهيَة والشحناء والبغضاء. فقرّر صُنَّاع القرار في الدولة الصغيرة عَمَلَ إسناد Backup لطموحاتهم أو تمنياتهم – سيَّان – فكان نظام الخرطوم محطُ أنظارهم، سيّما، وأنه النظام الوحيد في الإقليم، أو قل في العالمين العربي والأفريقي، الذي كان يشاركهم السرَّاء في تمدُّد مشروع الإسلام السياسي في الدُول المذكورة، مثلما أصبح الوحيد الذي يشاركهم الضرّاء بعد أن لاحت علامات تعثره.. زاد من الاختيار، أن للدوحة يداً سلفت على الخرطوم في المبتدأ، علاوة على أن أزمات النظام، وبالذات الأزمة الاقتصاديَّة كانت قد استحكمت حلقاتها. ومن جانبها أيضاً، اشترطت قطر على العُصبة الحاكمة أن تبسِط يدها للتُرابي، ليعود إلى سالف عهده بوجهٍ جديد New Look كما يقولون، وهو ما صادَفَ هوىً في نفس الرئيس المُشير للتخلص من المُتربّصين به في عُصبته!

(٦)

طلبت الدوحة من التُرابي زيارتها – وهو الذي لم تنقطع صلته بها منذ المُفاصلة – حيث عرضوا عليه ابتداءً مشروع مصالحة مع تلاميذه أو حوارييه السابقين. من ناحيته، زاد التُرابي – الذي جاءه الثأر يُجرجِر أذياله – من جرعة طموحاته، واقترح عليهم أن يطلبوا من الرئيس البشير الإقامة بين ظهرانيهم في

الدّوحة. فقالوا له سبقَ وأن عرضوا عليه ذلك بإيعاز من الإدارة الأمريكيّة، وبضمان إيجاد مخرج له من المحكمة الجنائيّة، بل كشف القطريون على أن ما درجَ على تسميته بـ"الوديعة القطرية" هي في الأساس اقتراحٌ أمريكي لمزيدٍ من الترغيب، ولكنه رفض بدواعي احتمالات صراع المُتربّصين بالسُلطة من عُصبته. عندئذٍ طرح التُرابي اقتراحاً آخر تلقفه القطريون، وقضى بالضغط على النظام لإزاحة كل الوُجوه القديمة من واجهته، وبالأخصّ التسعة الذين يتحكّمون في صناعة القرار (ملحوظة: لم يُفصح المصدر عن أسمائهم)، غير ان التُرابي قرا على محدّثيه الاية: «**وكان في المدينة تسعة رهط يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون**». وقال ان ذلك سيكون ضمانٌ للمُصالحة التي يقترحونها، وإنقاذاً للمشروع أيضاً. بالطبع حدث ما اقترح، ولكن بآلياتٍ معلومة لم يأْلُ القطريون جهداً في بسطها. وبالتالي، مضى التُرابي في المشروع توخيا للخطوة التالية!

(٧)

انتهت إفادات المصدر، أما إفادتي الخاصّة التي قد تصيب وقد تخطيء، تقول ان التُرابي سيمضي في المشروع غير عابئ بالوطن ومآلاته، وقد تأبّط ثأره الشخصي الذي سبق وأن حددنا شواهده في بداية المقال.. التُرابي الذي علّم حوارييه الميكافيليّة، لن يهدأ له بال إلاّ بعد أن يُغمد خنجره في جسد الذين أذلوه، ولن تغمُض له عينٌ إلا بإعادة تحقيق حُلمه القديم بحُكم كل السُودان، ولو بالوسيلة التي نقلها عنه الرّاحل محجوب عثمان. يظن البعض وهماً أن التُرابي مسؤولٌ عن العشرية الأولى وحدها، وأنه تطهّر بعد أن لفظه حواريوه كما تُلفظُ النواة، لكن التُرابي في تقديري يظل المسئول الأول عن أخطاء وخطايا رُبع قرن من الحُكم الفاسد. وهو بهذا المعيار يُعدُّ الأسوأ في التاريخ السياسي السُوداني الحديث. كنتُ قد خصّصتُ له في كتابي المذكور أعلاه فصلا يحاول فض مغاليق شخصيّته، وكان بعنوان "طُموحُ مهرهُ الدّم"، الأمر الذي نرى انه تحقق بمقدار. بَيْد أنني أرى في الأفق وميض السكاكين الطويلة تلمع في الظلام، في انتظار ليلة ليلاء اتسعت دوائر حاضريها، وزاد احتمال تكاثُر ضحاياها. يومذاك، لن يعرف الناس من القاتل ومن المقتول، من الضحية ومن الجلاد.. فقط سيُدرك البعض - بعد فوات الأوان - أن وطناً كاملا زحف نحو الهاوية.. فمن ذا الذي يُخبِر الثعلب؟!

<u>حاشية</u>: سُئِل أحد الظرفاء: هل يلد الثعلب أم يبيض؟! أجاب: والله ده مكّار ممكن يعملهم الاثنين!

(٨)

في أعقاب هروبه من السُودان إلى إريتريا بما أسماه عملية "تهتدون" في ديسمبر من العام ١٩٩٦، جلستُ إلى السيد الصّادق المهدي في حوارٍ مُطوّل. سألته في إحدى المحاور عن الدكتور حَسَن التُرابي، الذي كان يومذاك الحاكم بأمره، بل ان المهدي كان قد أعزى كل ما حدث له من سجنٍ وتهديدٍ بالقتل

وإهاناتٍ شخصيَّة كانت بأوامر من المُرشد. وفي الواقع لم يكن ذلك بالأمر الغريب، فقد ظلت العلاقة بينهما ظاهِرها الرَّحمة وباطنها العذاب منذ أن باعدت بينهما دُروب السياسة بعد طول صداقة. وقد لخَّص المهدي مُؤخَّراً وصف ما بينهما بقوله، في حوار صحافي مع جريدة 'السوداني': «**أنا افتكر في مشكلة كيمياء بيننا**».. بالتأكيد على هذه الكيمياء، نعود لسؤالنا الذي طرحتُهُ على المهدي في الحوار المذكور حول شخصيَّة الترابي، فقال لي: «**أنا اسميه كانديد**» وقلت له: من هو كانديد هذا؟! فقال لي: «**كانديد بطل في رواية للكاتب الفرنسي الشهير فولتير، كان يُقبِّح الجميل ويُجمِّل القبيح**»، وقبل أن ترتدَّ إليَّ اجابته، أضاف: «**لو أن هناك أحداً من الناس قَطِعت رجله، لقال الترابي خيرٌ وبركة، فقد وفَّر ثمن فردة الجزمة**»!!

آخر الكلام: لابُدَّ منَ الدِّيمُقرَاطِيَّة وإن طالَ السَّفر!

٢٠١٤/٨/٣٠

بلاغٌ عَاجِل إلى السِّفارة الأمريكيَّة بالخُرطوم

كأنَّ أهل السُّودان ليس فيهم ما يكفِهم من النوازل التي تُسقِطها العُصبة الحاكمة على رُؤوسهم صباح مساء، بحيث لم تبق محنة على وجه الأرض لم يتجرَّعوا من كأسها المرير. بَيْدَ أن هناك أيضاً مِمَّن يدَّعون الوقوف إلى جانِبِهم بدعوى مؤازرتهم في بلواهم، وهناك من يُصنِّف هؤُلاء ويضعهم في مقام الأصدقاء وهُم لا يعلمون أنها صداقة أقرب للعداوة، أي ظاهرها الرَّحمة وباطنها العذاب. في مقدِمة هؤلاء "الأعدقاء" تقف السفارة الأمريكيَّة في الخرطوم على رأس من يسومون هذا الشعب الطيِّب سُوء العذاب. ولعلَّ الفرق بينها وبين العُصبة الحاكمة في الممارسات، هو أن العُصبة تمارس هوايتها تلك في الهواء الطلق، وعلى رؤوس جميع شعب السُّودان، بل لا تتورَّع في أن تفعل ذلك داخل بيوتهم وفي غُرف نومِهم، وبالطبع لا تستثني من عذابها سوى فئة من الانتهازيين والمنافقين والسَّاقطين والذين في قلوبهم مُتَّسعٌ للانحراف. أما الأولى، وهي السفارة الأمريكيَّة، فهي تمارس نمط آخر من عذابات "طائر الفينيق"، ولكن بفارق أنها تخص به البعض مِمَّن يقتربون من ديارها ويلوذون بِحصنِها الحصين الكائن في ضاحية سوبا، طلباً لخدمة تُعدُّ من صميم واجباتها!

على الرغم من الرسائل التي تَصِل لبريدي من قرَّاءٍ توسَّموا خيراً في مساعينا، إلا أنني وللحق أقول، لم أكن أهتم كثيراً بما كان يُقال ويتردَّد عن السفارة الأمريكيَّة في الخرطوم، بدعوى إننا ننافح نظاماً ديكتاتورياً متسلطاً، وانطلاقاً من مسئوليتنا الوطنيَّة نعمل جاهدين لمؤازرة الشعب السُّوداني العظيم في محنته، وذلك بتتبُّع سوءات النظام الحاكم وكشف عوارته، برغم ديكتاتوريَّة الجغرافيا التي تفصل بيننا. وعلى هذا المنوال مضت بنا سُنن الحياة، لولا حدوث ما غيَّر من لا مبالاتنا نحو السفارة وتجاوُزاتها. فقد تجمَّعت لديَّ معلومات وملاحظات رأيتُ ضرورة كشفها وطرحها على القرَّاء، ليس من باب الانفعال بها، بل للتفاعُل معها بالطرُق الحضاريَّة المألوفة، حتى يعلم القائمون على أمر السفارة جريرة ما يرتكبون من خطايا، سواءً بوعيٍ أو بغفلة، فالأمر في كلا الحالين يستوجب تقويماً يحفظ للمواطن السُّوداني الذي يقصدها عزَّته وشُمُوخه وكبريائه، وهي القِيَم التي تعلمون أن سهام الهُولاكيين الجُدُد انتاشتها قبلاً.

وتعلمون أيضاً – يا سادتي – أن السفارة الأمريكية انتقلت قبل عام أو يزيد إلى مقرّها الجديد في منطقة سوبا بضواحي الخرطوم، وقد شُيِّد المبنى الجديد على مساحة تبلغ أربعين ألف متر مربّع، ووفقاً لهذه المساحة الجغرافيّة، وعلاوة على التجهيزات اليدويَّة والتكنولوجيّة الضخمة، تُعَدُّ الأكبر في القارة الأفريقيّة ومثيلاتها في الدول العربيّة قاطبة، وكذلك تُعَدُّ ثاني أكبر سفارة أمريكيّة في العالم بعد سفارتها في هافانا، كوبا. والحقيقة تلك مزية جميلة يستحسنها كل حادبٍ على الوطن ومصالحه العُليا. وذلك من باب أن الاختيار وضع اعتباراً مفقوداً للموقع الجغرافي الإستراتيجي الذي ينعم به السُّودان، رغم انحسار خاصرته بانفصال دولة الجنوب. ولكن السؤال الذي ينبغي علينا طرحه: هل انعكس ذلك الاهتمام بالموقع على التعامُل مع المواطن السوداني، ولا نقول حكومته، فهي ليست المعنيّة بهذا المقال؟! رغم ما لدينا من ملاحظات أخرى على السفارة في صمتها الخجول عن انتهاكات حقوق الإنسان السُّوداني التي تتم على مرأى ومسمع من مسئوليها، وهُم ساكتون!

عليه نقول إن ثمّة ثلاثة ملاحظات أساسيَّة نسوقها هنا للتدليل على سوء العذاب الذي يعانيه المُواطن السُّود ني من السفارة الأمريكيّة وبأدلّة وبراهين من قرّاء ملكُونا ما بحوزتهم!

- أولاً: على الرغم من كبر مساحة السِّفارة التي ذكرناها، إلا أنها خصَّصت صالة صغيرة حشرت فيها الذين يودُّون تقديم طلبات تأشيرة الزيارة، بحيث أصبحت لا توجد مساحة كافية بينهم وبين الموظف الجالس خلف النافذة. فما أن يقوم هذا الموظف بتوجيه الأسئلة لمُقدِّم الطلب، حتى تصل لجميع اذان الجالسين دون أن يسترقوا السمع أو يتكبّدوا عناء التنصُّت. ومِمّا لا شكَّ فيه أن تلك الأسئلة تندرج تحت بند نهج الخصوصية Privacy Policy التي تهدرها السفارة كما تهدر الزلازل ما ظهر على وجه الأرض. والجدير بالذكر، أن مسألة الحفاظ على الخُصوصيات لم تعُد ثقافة سائدة في المجتمع الأمريكي فحسْب، بل هي منحوتة في القوانين والتي استمدّت منها كينونتها وهيبتها واحترامها. حدّثتني سيّدة تقدَّمت بطلبٍ لزيارة شقيقتها الحاصلة على الجنسية الأمريكيّة وتعمل في وظيفة مرموقة، وقالت إنها لم تستاء من رفض طلبها، ولكنها حزنت على خصوصيَّاتها التي أهدِرَت على مسامع الجالسين، فخرجت مهيضة الجناح من سفارة بلادٍ ترفع عقيرتها ليل نهار بالحديث عن حقوق الإنسان، على حدّ تعبيرها. ذلك جعل البعض يقتصر في إجاباته أو يبتسرها، أو يتلعثم في الإدلاء بها، الأمر الذي قد يُفسّره الموظف تفسيراً سالباً يصُبُّ في اتجاه الرفض. وفي تقديري، أن عدم اهتمام السفارة بتخصيص أماكن مغلقة للمُراجعين يدُلُّ على استخفاف واستهانة وعدم احترام لخصوصيّة الأفراد. ولو أن أحداً من السفارة قال لنا: أليس ذلك من جنس ما تتفضَّل به حكومتكم عليكم؟! لما وجدنا لقوله هذا بلسماً يُضمِّد جراحنا!

- **ثانياً:** ثمَّة طلسماً آخراً يتقاطع مع حجم السفارة وكِبَر مساحتها التي ذكرناها. فلأسبابٍ غير معلومة، حصرت السفارة خدماتها لطالبي تأشيرات الزيارة فقط، في حين تقوم – ومنذ سنواتٍ طويلة – بتوجيه طالبي تأشيرات الهجرة أو ما يُسمَّى بتأشيرات القُرعة العشوائية "اللوتري" إلى السفارات الأمريكيَّة في دُول الجوار (القاهرة، أديس أبابا، نيروبي) لتكمِلة إجراءاتهم. بما يعني تكبُّدهُم المزيد من العناء، علماً بأن بعضهم يرجع من حيث أتى بدعوى أسبابٍ كثيرة لا يفيد ذكرها شيئاً. وهذا إجراءٌ تعسُّفي آخر ليس له ما يبرِّره سوى تلذُّذ السفارة بعذاب المواطن السُّوداني كأن بينه وبينها ثأر، في حين كان المأمول أن تقوم السفارة بشرح أبعاد هذا العناء لحكومة بلادها ممثلة في وزارة الخارجيَّة إن ادّعت إنها تقوم بتنفيذ تعليماتها حيال أولئك المعذبين!
- **ثالثاً:** يقوم المواطن السُّوداني الذي يطلب تأشيرة زيارة بدفع مبلغ وقدره مليون ومائة ألف جنيه (بالقديم) كما يقولون، وتسمِّي هذه رسوم إجراءات تأشيرة Visa Processing Fees غير قابلة للاسترداد، حتى ولو رُفِضَ الطلب، علماً بأن الرّفض هذا يستغرق أحياناً أقل من دقيقة. ومن المُفارقات التي يعجز العقل عن استيعابها، أن الشخص الذي تبعثرت رسومه في الهواء لو شاء له التقديم مرّة أخرى فيستوجب عليه أن يدفع نفس المبلغ، بل حتى لو تكرَّر طلبه ذاك – لأسباب تخُصَّه – ثلاث أو رُباع أو خُماس، فعليه الدفع كلما تيمَّم شطر نوافذ السفارة حتى يكِلّ جيبه. (ملحوظة: هذا لا يشمل رسوم التأشيرة نفسها إذا تمَّت الموافقة على طلبه).. واقع هذه المفارقة الغريبة حدت بي للتحرِّي عن عدد التأشيرات التي ترفضها السفارة يومياً، وقد علمت – دون أدنى مبالغة – أنها تتراوح أحياناً بين ثلاثين إلى أربعين طلباً. بما يعني عائداً لخزينة السفارة يبلغ نحو ثلاثين أو أربعين مليون جنيه في اليوم الواحد، أي ما مجموعه أكثر من مليار جنيه في الشهر. وهذا يعني أيضاً أن السفارة تقوم بتغطية تكاليف رواتب موظفيها المحليين وكل بنود صَرْفِها من ماء وكهرباء وغاز وبترول.. إلخ، من ظهر المواطن المغلوب على أمره. وطالما الأمر كذلك، فمن مصلحة السفارة بداهةً رفض أكبر عدد من طلبات التأشيرة حتى تضمن دخلاً مُعتبراً، ولا يغرنكم حال دولة تُعَدُّ الأغنى والأكبر والعُظمى بين دول العالم!

بَيْدَ أن هذا وذاك قادني إلى التقصِّي حول أسباب الرفض المكثف للسفارة والذي يُعزى كله تقريباً إلى المادة (٢١٤B) من قانون الهجرة الأمريكيَّة، وهي مادة يلوذ بها الموظف الجالس خلف النافذة لأنها تمنحه حقاً مطلقاً في الرفض تحت ذريعة تلك المادة دون أن يُسأل عن حيثياته التي استند عليها، وبالرجوع إلى تلك المادة في قوانين الهجرة الأمريكيَّة، نقرأ معاً إنها تطلب من مقدِّم الطلب تقديم أدلة قويَّة ومنطقيَّة وواقعيَّة تُقنع ذلك الموظف بأنه سيعود أدراجه بعد انتهاء مدة

زيارته. لكن ذات المادة تقيِّد الموظف بأشياءٍ معيَّنة، منها على سبيل المثال، معرفة ثقافة المجتمع ومحاولة الإلمام ببعض عاداته وتقاليده وهلمَّجرًا. لكن ما يجري في السفارة الأمريكيَّة في الخرطوم – وفق أمثلة بحوزتنا تصلح كدلائل وشواهد – تؤكِّد أن التأشيرات تُمنح وفق أمزجة الجالس خلف النافذة. مثلاً، هل يستقيم عقلاً أن تترك سيّدة في عقدها الخامس أو السادس الزوج ومعه بنين وبنات في طور الزواج لتعيش في أمريكا مهما كانت مغرياتها؟! وطبقاً لهذا المثال، قد يقول قائل من السفارة ان الإجراءات التي غلب عليها طابع الرفض تجييء بسبب الذين يذهبون ولا يعودون.. لكن بإجابة بسيطة، ليس كل الذين يذهبون لا يعودون، فالذين يطلبون تأشيرات الزيارة غالباً ما تكون لديهم أسباباً مقنعة، إمّا أنهم عجزوا في توصيلها للموظف المسئول، أو أن الموظف نفسه قصُر عن فهم ما يقولون. بل حتى لو افترضنا جدلاً أن البعض ذهب ولم يعُد، فالقوانين الأمريكيَة الداخليَّة كفيلة بمعالجة تلك الظواهر، علماً بأن الظاهرة نفسها كادت ان تُصبح سنة ماضية بين كثير من شعوب دول العالم، ولم يقُل أحداً بالطبع أن كل السُّودانيين من جنس الملائكة. وعليه تبقى المسألة برُمّتها خاضعة للتمييز العادل، حتى لا يقول أحد إن تلك سفارة اقتبست من أهل النظام "فنونهم" في تعذيب مواطنيهم!

صفوة القول، يُؤلمنا دوماً السهام التي تكاثرت على المواطن السُّوداني حتى لم يعُد هناك شبراً سليماً في جسده. ففي ظِلِّ العُصبة الحاكمة تحوّلت وداعته إلى مشروع إرهابي في المطارات، ومطلوبٌ منه أن يُثبت العكس أينما حلّ. وفي ظلّ الطغمة الفاسدة تحوّلت امانته الى شكوكٍ في ذِمّته، وفي ظِلِّ العُصبة المتجبّرة تعرّضت شجاعته إلى امتحان عسير، وفي ظِلِّ العُصبة الفاجرة، كاد أن تضعضع احترامه بين الشعوب. دعونا نسترد معاً بعض ما سرق من قيمه الجميلة. أوصلوا صوتكم للسفارة الأمريكية وفق الثقافة الأمريكيّة نفسها، القائمة على الاحتجاج الحضاري، وذلك باستخدام سلاح الكتابة لها على عنوان بريديها الإلكتروني التالي، لعلنا نحفظ بعض ما بات يتسرَّب من بين أيدينا كما الماء!

facebook: U.S. Embassy Khartoum
http://www.state.gov/contact/

آخر الكلام: لابُدّ مِنَ الدّيمُقراطيَّة وإن طال السّفر!!
٢٠١٤/٩/١٣

تجرِيب المُجرَّب يُعجِّل بحُلول النَّدامة!

يقولون إن التاريخ لا يُعيد نفسه، ولكن الإنسان يُكرّر غباءه. وزاد كارل ماركس منظِّرَ الفلسفة الماركسيَّة التي نُسِبَت لاسمه بقولٍ سديد: «**إن أعاد التاريخ نفسه فسيكون في المرة الأولى مأساة وفي الثانية ملهاة**»، ولكن ما بالنا نحن السُّودانيين يُعيد التاريخ وقائعه أمام ناظرينا مثنى وثُلاث ورُباع، ونحن نكرّر غفلتنا التي تصل أحياناً حدَّ السذاجة، ذلك بالرغم من الدروس الباهظة الثمن التي وقعت على رؤوسنا كحجارة من سجيل. والأنكى وأمرّ، أننا نغرق كل مرَّة في ذات التفاصيل ونتعامل معها كمكتَشَفٍ جديد، ثم لا نجد بأساً في التعامُل معها بذات الدهشة البلهاء. تُدلق علينا وهي تتراقص أمامنا في خيلاءٍ كأنها تُمعِنُ في إذلالنا، أو تضحك على سذاجتنا، أو ترثي لحالنا لدرجة الشفقة. والتاريخ الذي يعيد نفسه أمامنا – يا سادتي – سيَّان إن كانت أحداثه قبل عام أو سنين عدة، فالقاسم المشترك في كل تلك الذاكرة كثيرة الثقوب. بل تلك اللامبالاة التي أصابت إحساسنا الوطني بالتبلد وأورثتنا أنظمة ديكتاتوريَّة ناءت بكلكلها على صدورنا لما يُقارب نصف قرن منذ الاستقلال، فأصبحنا لا ندري هل نبكي أنفسنا، أم نرثي وطناً ضاع كما يضيع القمر من وراء غيوم ملبدة في السماء؟! بتنا لا نعرف لماذا نعيش وحتَّام نعيش؟! تلاشت الأسئلة الواقعية من عقولنا وصِرنا لا نعلم ما إذا كنا سنموت قضاءً وقدراً، أم قدراً وقضاءً؟! تشابهت المعاني في نفوسنا، فلم نجد بُداً من أن نعيب زماننا والعيب فينا، كما قال الإمام الشافعي.. أقول قولي هذا وثمَّة سيناريو يجري إعداده في الكواليس ليُفرَضَ على المُتصارعين وبينهم وطن ضائع، تماماً كما فُرِضَ ذات السيناريو بالأمس وتقبَّلوه صاغرين!

(٢)

دعونا نطرق ذاكرتكم وندخُل من أبوابها، لنعيد على مسامعكم ما حدث بالأمس القريب. تقول الوقائع، من قبل أن يفيق الناس من دهشة الانقلاب الذي تسربل بالأيديولوجيا في وطنٍ متعدّد الإثنيات والثقافات والديانات، تحوَّلت الحرب ذات المظالم السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة إلى حرب دينيَّة جهاديَّة. فبين غمضة عين وانتباهتها، قام نظام العُصبة الحاكمة، أو تنظيم "داعش" في نسخته السودانيَّة، بتصعيد وتسعير الحرب الأهليَّة في الجنوب بصورةٍ لفتت أنظار العالم كله، فبدأ التعامُل معها في الدوائر العالميَّة باعتبارها مشكلة عقديَّة بين نظام

"إسلامي" في شمال البلاد، وحركة "مسيحيَّة" في الجنوب، وإزاء قوَّة الماكينة الإعلاميَّة والدبلوماسيَّة والسياسيَّة التي كانت تقف من وراء ستار، لم تجدِ أطروحات الزعيم الرَّاحل جون قرنق دي مابيور نفعاً في التنظير لسُودانٍ جديد يكون فيه "الدين لله والوطن للجميع"، ولا "أكليشهات" الحركة الشعبيَّة نفسها بالانضمام للتجمُّع الوطني الديمقراطي، الذي يرأسه السيد محمَد عُثمان الميرغني، وهو في الأصل مُرشد طائفة دينيَّة. ومن عجب أن الحركة الشعبيَّة نفسها عندما دان قطف ثمار (نيفاشا)، نكصت على تاريخها الذي مهرت له عُمراً، وقالت على لسان رئيسها – غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه – من يريد تغيير قوانين الشريعة الإسلاميَّة فليقاتل من أجل ذلك. وكانت تلك أشبه بدعوة من يُلقيك في النهر ويقولُ لك إيّاك أن تبتلّ بالماء، فالذين ناضلوا من أجل ذلك الهدف انحسرت عنهم مظلته وأصبحوا أضعف من جناح بعوضة، فلا غُرُو بعدئذ من أن يبقى الجنوب جنوباً والشمال شمالاً، وافترق الأحباب كل في طريق!

(٣)

بالعودة للتاريخ القريب في الوقائع والحيثيات التي أفضت إلى نيفاشا الأولى، تقولُ ثقوب الذاكرة إزاء الطرح الأيديولوجي السافر من عصبة الخرطوم، تحسَّست كل من أديس ابابا وأسمرا (يوم أن كانا نظامين بطاقيَة واحدة) خارطة وديمغرافيَة بلديهما التي لا تخفى على المُراقبين. ولأنهما أول من سيكتوي بالنار التي أشعلتها العُصبة، توسّلا طريق "منظمة الإيغاد" وطرحا عليها مشروعاً سُمّي بـ"إعلان المبادئ" Declaration Of Principles في العام ١٩٩٤ لمحاصرة ايديولوجيَّة النظام وشروره.. كان الإعلان قد أقرَّ بلسان أعجمي مُبين أهمّ بندين ضمن بنوده السبع، وهُما تقرير المصير وعلمانيَّة الدولة. ذلك الإعلان – كما تعلمون – استلهم تعقيدات الواقع السُوداني الأزليَّة وقد جاء في عزّ أوار الحرب ولظاها، فرفضته العُصبة بدعوى أن ذلك يتناقض ومشروعها الحضاري! ومنذاك التاريخ بدأت "ساقية جُحا" في الدوران، تعقد الإيغاد جلساتها وتنفض من دقائقها الأولى بسبب تعنُّت النظام وشهوانيَّته لمزيدٍ من الدماء والآلام. ثم دارت الدوائر على الباغي المتجبِّر في العام ١٩٩٧، وتبعاً لذلك تغيَّر المشهد جذرياً. حدث ذلك عندما قامت القوى المسلحة في "التجمُّع الوطني الديمقراطي" بعمل عسكري ضخم، تسنَّى لها من خلاله تحرير مناطق واسعة، امتدّت من قرورة أقصى الشمال الشرقي، إلى همشكوريب في الوسط والكُرمُك وقيسان في الجنوب الغربي، وكان ذلك بمساندة إقليميَّة واضحة من الدُول التي تحسَّبت لواقعها، وبرافعة سياسيَّة ودبلوماسيَّة مقدَّرة من المجتمع الدولي المتضرِّر من إرهاب النظام. عندئذ تحسَّست العُصبة كُرسيّها، فذهب عرّابها الخفي "علي عُثمان طه" أولاً إلى "مقابر فاروق" حيث قام بدفن "المشروع الحضاري"، ثمَّ توجَّه ثانياً إلى نيفاشا ليقبل بمبادرة الإيغاد صاغراً ويمضي في طريق الآلام، رغم نَصِّ المبادرة على العلمانيَّة التي تتناقض مع ما ادَّعوا. لكن هكذا العُصبة لا تحتاج لمن يكشف عن بلاياها ورزاياها، فقد نست ما قالت إنه تفويضٌ من رَبِّ العالمين فرجَحت

الكرسي على الأيديولوجيا. وتلك تداعيات قسَّمتها – كما تذكرون – أولاً إلى "قصر ومنشيَّة" صراعاً على السُلطة، ثمَّ شيعت المشروع برُمَّته وقبرته تماماً. عندئذٍ اقتنصت دول أصدقاء الأيغاد "الترويكا" الفرصة لتفرض حلولها على النظام بالوقائع التي أفضت إليها نيفاشا الأولى، ولن أرهقك – عزيزي القارئ – بتفاصيل أحداث لم تُمحَ من الذاكرة بعد، حتى نعيد سيرتها الكارثيّة، فالوطن الذي انخلع ثلثه يقف شاهداً على جُرم ما ينكرون!

(٤)

النظام الذي يستند أصلاً على منسأة سُليْمَان، أصبح جزراً متقطعة سياسياً وأيديولوجياً وتنظيمياً، لدرجة أنك لو سُئلت اليوم عمّن يحكم السُودان، لارتدَّ إليك سؤلك وهو حسير. دعك الآن من قول معارضيه، فعبدالرحيم حمدي وزير ماليته الأسبق، المشارك في الكارثة الاقتصاديّة القوميَّة يعلن افلاس النظام على الهواء. وعلي محمود وزير ماليته السابق يدمغ فساد النظام بالذي كتب فيه معارضوه حتى كلّ متنِهِم. وعلي كرتي سادرٌ في غيّه ولا يلوي على شيء كأن الوطن عزبة ورثها من أبيه، والعرابون الذين توارروا عن الأنظار من شاكلة على عثمان طه وعوض الجاز ونافع علي نافع ومن لف لفهم ما زالوا يواصلون مسيرتهم "القاصدة" من وراء حجابٍ. بل هان الفساد حتى صار يتحدَّث عنه حسين خوجلي كُفراً. نحن الآن - يا كرام - نشهد حفل التعري Striptease التي يخلع فيها النظام ما تبقى من "ثوابته" ثوباً تلو الآخر. تلك هي الفرصة التي سيقتنصها المُتربّصون بضعفه من صناع نيفاشا الأولى ليضعوا بين يديه نيفاشا الثانية. وفي واقع الأمر، لم ينتظر النظام الإملاءات حتى تهبط عليهم من علٍ، فقد بدأ سدنته يشيعون ما اسموه بالمشروع الأمريكي، ووزير الإعلام الوقواقة أحمد بلال يتوهَّم بأن الإدارة الأمريكيّة ستقدِّم لهم إغراءاتٍ برفع المقاطعة الاقتصاديَّة، والمساعد الألمعي إبراهيم غندور يمضي في تكملة السيناريو، ويقول إنهم سيُرفعُون من قائمة الدول الراعية للإرهاب أيضاً. وتتوالى الرسائل المتناقضة بغية "التخدير السياسي" الذي يجعل ظمأى السُلطة يركضون وراء سراب بُقيْعة يحسبونه ماء!

(٥)

قليل جداً من المراقبين يعرف ما يدور في خبايا محور الرئيس السابق لجنوب أفريقيا ورئيس الآليَّة رفيعة المستوى التابعة لمنظمة الاتحاد الأفريقي "تابو امبيكي"، لكن حتى القليل هذا لا يعرف غير أخبار متناثرة عن المبعوث ورهطه، الذين وُضعت تحت أيديهم امكاناتٍ ضخمة، بطائرة تقلهم حيثما شاءوا ووقتما أرادوا، وطاقم من المساعدين في تخصُّصاتٍ لا حصر ولا عدَّ لها، وفريق سكرتاريا يستجيبون لمن يأمر من قبْل أن يرتدَّ طرفه، ثمَّ حُرَّاس أشدَّاء غِلاظ لحماية المبعوث من شرِّ حاسدٍ إذا حَسَد. وفي الكواليس، كان هناك وطنٌ عظيم تضاءل شموخه، تنعي فيه طائرة امبيكي عجز القادرين على التمام في غدوها ورواحها. أما النظام – كما تعلمون – فقد بَرَعَ طيلة رُبع قرن في شراء الذمَم،

وله في ذلك مذاهب شتى، فهم يَعرِفُون كيف يتحايلون على المصطلحات، فالرّشوة صارت مكافأة، والرِّبا أصبح جبر الضَّرَر، والفساد بات رزقاً ساقه الله عليهم، والكذب والخداع والنفاق آليات فقه الضرورة. بَيْدَ أن الغرض من تلك الرحلات المتكرِّرة إشاعة الملل بين الأطراف المتصارعة بغية خضوعها وتهيئتها لتقبل أي مشاريع تسوية **لا تتضمَّن المحاسبة**، وهي الكلمة التي يخشاها النظام ويخاف عقباها، وتتحرَّى المعارضة فُجُورها وتقواها!

(٦)

بدأت حلول "القطاعي" - كما يقول التُجَّار - بتوقيع اتفاقٍ في باريس، وهو اتفاقٌ لو تعلمون عظيم، لأنه جعل السيد الصَّادق المهدي يُقدِم على خطوة دراماتيكيَّة تتناقض تماماً وخُطواته المترَدِّدة حيال النظام الحاكم منذ أن اقتلع منه السُّلطة في الليل البهيم. أما الجبهة الثوريَّة، فهو يتسق تماماً مع أطروحاتها، لكن هناك من نظر للاتفاق بعيني صقر. إذ التقط امبيكي لغة الإعلان وعمل على إعادة صياغتها وقولبتها وطرحها في ثوب خلب به ألباب الناظرين. ثمَّ قام بتوجيه دعوة لأحد طرفي "اتفاق باريس" وهي الجبهة الثوريَّة، وأخرى ممثلة في النظام الحاكم الذي تحايل عليها درءً للشُبُهات حتى لا يُقال إنه جلس مع الجبهة الثوريَّة. فابتعث مُوفدين يُقال عنهما سياسياً – بلغة أهل السُودان الدارجة – ذات ما يقال بايولوجياً عن المولود الذي يجمع بين نوعين (خُنث مُشكل) إذ أنهم جمعوا بين النقيضين أيضاً حتى يلتبس الأمر على المُراقبين ويصعُب إدراجهما في أي موقع. فالدكتور غازي صلاح الدين، عطَّارٌ خرج من حظيرة النظام نظرياً بدعوى إصلاح ما أفسدته عُصبته، وعملياً ما زال يدور في فلكهم. أما أحمد سعد عُمَر فهو يمثل نظام الأبالسة ويعتلي منصباً وزارياً مهماً في سنامه، وفي نفس الوقت فهو يتحدَّث بلسان "الحسيب النسيب" الذي يظهر في الثواني الأخيرة كما اللاعب رقم ١٢، الذي يعرفه مشجِّعو كرة القدم. واقع الأمر أن "مولانا" الميرغني هذا يعيش في كنف نظام ويريد إسقاطه في نفس الوقت، يشارك فيه ولكنه يمد حبال الوَصْل مع الجبهة الثوريَّة المعارضة بالتوم هجو الذي هجَرَهُ، وبالطبع تلك طلاسم أعيت من يداويها!

(٧)

نعود لامبيكي ورهطه، بعد أن دعا النظام بممثليه الأملحين من جهة، والجبهة الثوريَّة بتركيبتها الفسيفسائيَّة من جهةٍ أخرى.. ظن أمبيكي أن "كل الصيد في جوف الفرا"، كما تقول العرب العاربة. فامبيكي الذي تعلم أساليب الحُواة من النظام من كثرة ما جلس مع سدنته، أعدَّ ورقة ونسخها حذوك السطر بالسطر، ليمهُر كل طرف واحدة بتوقيعه، ثم جعل توقيعه القاسم المشترك بين الورقتين. ويبدو لي أنه في غمرة السُرور الذي اجتاح الموقعين في يوم ٢٠١٤/٩/٤، لم ينتبه أحد إلى أن أمبيكي فرَّغ "إعلان باريس" من مُحتواه الحقيقي، ففي النقاط الثمانية التي أعدَّها وتمَّ التوقيع عليها، لم يذكر – لا في السر

ولا الجهر– ما ذكره "إعلان باريس" في نقطته الخامسة تحديداً، والتي تقول: «**اتَّفق الطرفان على مبدأ عدم الإفلات من العقاب وتحقيق العدالة والمحاسبة ورفع الظلم ورد الحقوق**»، بل لم يجتهد في أي مقاربة أخرى لهذا النص تجعل القلوب تطمئن في أكنتها، وتؤكد في الوقت نفسه عدم مكافأة المُجرم على الجرائم التي ارتكبها على مدى رُبع قرن وسال فيها الدم أنهاراً والدمع مدراراً. لذلك نعيد ما ذكرناه سابقاً في أن أي تسوية تتجاوز "**المحاسبة**" هي في مبتداها ومنتهاها محض إعادة لإنتاج الأزمة. فـ"المُحاسبة" وحدها هي العَصَا السحريَّة التي ستكشف ألاعيب الحواة وستلقف ما يأفكون!

(٨)

للمجتمع الدولي أيضاً أجندته الخاصة طبقاً لمصالحه. ويجب أن نعلم نحن السُّودانيين أن أجندة المجتمع الدولي لا تضمن المحاسبة، بل تسعى بقدر الإمكان للحؤول دونها، وبنفس القدر لا تتضمَّن الديمقراطيَّة بالصورة التي تمنيناها وناضلنا من أجلها دون كللٍ أو ملل. وأود أن أشير هنا إلى أن ثمَّة قضيتين تعلوان أجندة المجتمع الدولي دائماً، الأولى وقف الحرب، والثانية ضمان تدفق المساعدات الإنسانيَّة. من أجل هذا وذاك، لم يكن غريباً أن تتدافع الأيادي لمساندة خطوة امبيكي. ففي اليوم التالي مباشرة ٢٠١٤/٩/٥، أصدر الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون بياناً رحَّب فيه بالاتفاق من قبل أن يجفَّ حبره، وكذلك فعلت الخارجيَّة الأمريكيَّة، وزادت سفارتها في الخرطوم ودول الترويكا بتعميم بيان استلهم ذات المعاني، ولم يدع الاتحاد الأفريقي الفرصة تفوته دون ترحيبٍ بالخطوة، وكذلك فعلت الجامعة العربيَّة الصامت الأكبر، وهل سأفسد عليك "صيامك" يا عزيزي القارئ لو قلت لك أن نظام الأبالسة نفسه أبدى ترحيبه وسعادته بالخطوة! إذاً فقد أصبح المسرح مهيَّأ لإعداد مذبح نيفاشا الثانية. فالنظام تخلخلت منظومته وتكاثرت مشاكله الداخليَّة واشتدَّ عليه الحصار الاقتصادي الخارجي، والمعارضة سواءً المسلحة أو الحزبيَّة، حالها يُغني عن سُؤالها، فما الذي تبقى؟!

(٩)

بالطبع تبقَّت إرادة الشَّعب السُّوداني الصابر. فإذا مضت الأمور وفق ما خطط لها في الكواليس، أقول لك إننا سنجد أنفسنا أمام سيناريوهين لا ثالث لهُما: **الأوَّل**، إعادة نسخ نيفاشا الأولى بذات الوقائع التي جرت من قبل، ولو شئت تبسيطاً يشرح ما التبس عليك، سأقول لك ضع تابو امبيكي مكان هيلدا جونسون التي رفعت اتفاق نيفاشا الأولى بلا عُمُد.. ثم ضع الآليَّة رفيعة المستوى مكان منظمة الإيغاد، ثم ضع أديس أبابا مكان نيفاشا.. ثم لن يُرهقك الممثلون من الجانبين ولا المُساندون من وراء حجاب.. أما السيناريو **الثاني**، فيمضي في اتجاهٍ تفاؤلي بأن توحُد القوى المعارضة نفسها وتدرك خطورة المنزلق، ثم تعمل جاهدة وبإرادة وطنيَّة غالبة في الوقوف ضدَّ مشاريع التسوية التي تهدف لقسمة ضيزى،

وتعيد انتاج الأزمة وتكافئ المُجرم على جرائمه.. إنه السيناريو الذي ينحاز لطموحات وأحلام هذا الشعب الصابر، ويُبدي الوفاء لدماء الشهداء التي أهدرت في دارفور وجنوب كُردُفان وجنوب النيل الأزرق وشرق البلاد وشمالها ووسطها وكل المُدُن التي لم تسلم من الأذى!

أما أنا - يا سادتي الكرام - فما زلتُ "أؤمنُ بالشعب حبيبي وأبي" الذي سيفرض حلوله المُجرَّبة، حتى لا تحيق به الندامة!

آخر الكلام: لابُدّ مِنَ الدِّيمُقرَاطيّة وإن طالَ السّفر!!
٢٠١٤/٩/٢٦

أسرارٌ في الهَوَاء الطَّلق!
(النص الكامل للوثيقة الخطيرة)

لا أدري ما الشعور الذي يمكن أن ينتاب مُطالع هذه الوثيقة بعد الفراغ من قراءة محتوياتها. أما أنا، فلو سُئلتُ سأقول إن ثمَّةَ مشاعر شتى تملكتني، بل حاصرتني ولم استطيع منها فكاكاً.. أدناها الغضب والإحساس بالذُلِّ والمهانة، ويمكن للمرء أن يستبطن ما الذي يمكن أن تُسفِرَ عنه عاليها إن شاء تخيُّلاً. تعلمون أن العالم هذا يعج بالأنظمة الشموليَّة والديكتاتوريَّة، ولكنني على يقين أنك بمجرّد أن تنتهي من تصفح هذا المُحضر حتى تدرك بيقين كامل - قياساً بالقيم التي داسوا عليها والأخلاق التي وأدوها والمُثل التي هشَّموها - أننا ابتلينا بأحط أنواع الديكتاتوريات وأسوأ الأنظمة الشموليَّة. وأنا أعلم أن المخلصين مثلك – يا عزيزي القارئ – جافى الفرح قلوبهم، وصارت الأعياد في عُرفهم محض وقوف على الأطلال كما شعراء الجاهليَّة. بعضنا ظلَّ يُردِّد بيت المتنبي الشهير حتى كاد أن يصبح كتاباً مُقدَّساً. ومِنَّا من يتساءلون: كيف نحتفل بالأعياد في بلدٍ تُنحَرُ فيه الرِّقاب كما تُنحَرُ الأضاحي نفسها؟! ويستعجبون من فقرٍ حاصَرَهُم وطال السواد الأعظم رغم الموارد التي أعجزت الرَّاصدين؟! فلا غُرُوَ بعدئذ أن صارت المناسبة الجميلة مجرَّد ذكريات تقبع في الخاطر، تحاصرها الأماني الشريدة وتطاردها الرغائب طمعاً في تصيُّدها. مع كل ذلك، أرجو ألا تبتئس – يا قارئي الكريم – فأنا أضع بين يديك ما يبدد حزنك، وما لن تستطيع معه صبراً!

(٢)

شرعت 'الراكوبة' في الأيام الفائتة في نشر محضر اجتماع اللجنة السياسيَّة والعسكريَّة، والتي تُعَدُّ أعلى سُلطة أمنيَّة في هرم دولة العُصبة الحاكمة في الخرطوم. بما يعني أن الذين امّوا الاجتماع يظنون أن تسريب أسراره أمرٌ دونه خرط القتاد، فلا غرابة إن تحدَّثوا ساعتئذٍ بألسنة مطمئنة تشي إلى أن أسرارهم في بئر كما يتوقعون. بَيْدَ أن القُرَّاء الكرام يعلمون أن كشف أسرار العُصبة ليس أمراً جديداً، بالنسبة لنا على الأقل. فقد سبق وأن جرَّبتُ تلك "السياحة" الممتعة بعد أن اخترقت مصادري الخاصة جهاز الأمن والاستخبارات، والذي يتراءى للناظرين أن أسراره في حصن حصين. فإذا بها فرضيَّة كشفنا خطلها يوم أن اجتازت مصادري "الليل والأسوار"، كما قال سميح القاسم، ولم تخترق أسوار

الجهاز فحسب، وإنما دخلت حتى مكتب مديره "صلاح قوش" يومذاك، ومدَّتني بصيدٍ ثمين ضمَّناه كتاباً صار مبذولاً للقرَّاء تحت مُسمَّى "الخندق.. أسرار دولة الفساد والاستبداد"، ولمثل هذا يفخر المرء ويقول: ليس بعد الكُفر ذنب.. لماذا؟! لأنني بعدئذٍ بتُّ على قناعة كاملة أن هذا النظام ليس سوى هِرّ يحكي صولة الأسد، وما استطالت سنواته إلا لظروفٍ كثيرة أسهبنا في رصدها وأصبحت معروفة لكُلِّ المراقبين!

(٣)

دعونا في البداية نعطي البروفيسور إريك ريفز حقه الذي لم ينتظره. فهو كما يعلم البعض أحد قلة من الإنتلجنسيا الأمريكيين المهتمين بالقضيَّة السودانيَّة وتشعُّباتها. وقد نذر نفسه لنحو ثلاث عقود زمنيَّة وهُو يرفد المكتبة بمؤلفات تناولت الشُئون السودانيَّة المُختلفة. وبفضِل ذلك صار مرجعاً أساسياً لمن يطلب مشورته ويستأنس بآرائه من كل الإدارات الأمريكيَّة المُكوِّنة لجهاز الدولة. وقد شهده الناس كثيراً وهو يدلو بشهادته أمام لجان الكونجرس في شأن التبس عليهم أمره. كما أنه ظلّ يساهم بفكره النير في حقل التدريس، حيث يعمل استاذا للغة الإنجليزيَّة وآدابها في كليَّة سميث في نورثامبتون بولاية ماساتشوستس الأمريكيَّة. كما أنه يشارك من حينٍ لآخر في ندواتٍ وسمنارات وورش عمل مع منظمات المجتمع المدني المعنيَّة بحقوق الإنسان وانتهاكاتها. وله العديد من المقالات والدراسات في الصُحُف والمجلات والدوريات الأكاديميَّة. وعليه فإن الذين تابعوا مسيرته الغنية هذه، يعلمون تماماً أن مثله لا يمكن أن يغامر بسمعته وتاريخه الوضيء ليقع في شراك وثيقة لا يعتد بها، ناهيك أن تكون مزوَّرة. ولكن دع عنك هذا وأسمع مني ما يُدمي فؤادك إن كنت مِمَّن أدمت العُصبة أفئدتهم في الأصل، ففي محاضرة له بواشنطن مؤخراً، كشف إريك ريفز عن معاناته من مرض السَّرطان، وقال إنه يتمنى ألا يرحل من الدنيا: «**قبل أن يرى شعب السُّودان وقد نال حُقوقه وحريَّاته**».. فهل بعد ذلك قسَمٌ لذِي حَجَر؟!

(٤)

الذي حدث، أن مصدراً وصفه إريك في صدر وثيقته بأنه محلّ ثقته واحترامه، أمدّه بهذه الوثيقة التي وضع لها عنواناً من لدنه: "**النظر مباشرة في قلب الظلام.. فيما يفكر نظام الخرطوم؟!**" وقال إريك إنه تصرَّف في ترجمة تلك الوثيقة من اللغة العربيَّة إلى اللغة الإنجليزيَّة، وصدَّرها بمقدِّمة وتعليقات على بعض الوقائع. وأخيراً وصلت وثيقته تلك، والمكتوبة باللغة الإنجليزية إلى موقع 'الراكوبة' وهو الموقع الأشهر والأكبر في تناوُل الشئون السودانيَّة، ويتمتع بمقروئيَّة قياسيَّة ومتميّزة. وبدورهم، اجتهد الزُملاء المشرفين على الموقع في فترة زمنيَّة قصيرة بترجمة الوثيقة من اللغة الإنجليزيَّة إلى اللغة العربيَّة، انطلاقاً من وطنيَّتهم واستناداً على مهنيَّتهم. أي أعادوها لسيرتها الأولى. وبالرغم من أن ذلك جهدٌ لا يمكن لأي إنسان الانتقاص من قدره، إلا أن الأمانة في الترجمة هذَّبت وشذَّبت لُغتها مهنياً لدرجة بتت لا تشبه لغة "البلطجيَّة" التي تحدَّثت بها

العُصبة في الاجتماع المذكور. كذلك فإن الترجمة – وفق ما أشار الموقع – اكتفت بنماذج نظراً لطول الوثيقة، الأمر الذي جعل بعض الأجزاء المُهمَّة تضيع في خضَمِّ الاختصار، ونسوق لذلك مثلاً بقول غندور إنهم تفقوا: «**مع حزب التُرابي على منحهم ثلاثة مليار مقابل ضمان مشاركتهم في الانتخابات**»، وهو وإن كان قولٌ يندى له الجبين، لكنه لا يحرّك ساكناً، لا في الطالب ولا المطلوب. كذلك فإن النماذج المُنتقاة أوحت لكأنما المَحضَر غير مترابط، وهو وإن كان أمرٌ طبيعي، إلا أنه حدا بالبعض أن يرمي بشِباك التشكيك. وطبقاً لذلك – يا عزيزي القارئ – وقطعاً لدابر هذا وذاك، فنحن نطرح أمامك الوثيقة الأصليَّة بنُصُوصها الكاملة، وأرجو أن تكون صبوراً وتمنحها قدراً من وقتك، ومن ثمَّ أسألك أن تتأمّل في الحال والمآل الذي ينتظرك وينتظر وطناً «باسمِهِ كتَبْنَا ورَطَنَّا» كما قال الرَّاحل العظيم!

(٥)

في ظني – وليس كل الظن إثم – أن ذات المصادر التي أمدَّتني بهذه الوثيقة، قد تكون هي التي أمدّت بها إريك، وهذا مجرَّد اجتهاد لن يزيد أو ينقص مِمَّا نحن بصدده حبَّة خردل. وعِوضاً عن ذلك، سندلف للسؤال الأهم، والذي أحاول أن أعين القارئ على فك طلاسمه، والذي يقول: كيف تسرّبت هذه الوثيقة في أقلِ من أيام معدودات من انعقاد الاجتماع لنظام ديكتاتوري قمعي؟! وبالطبع ليس هنالك مجال للمقارنة مع "الدول المحترمة" التي جرى عُرفها ألاَّ يتم الكشف عن مثل هذه الوثائق إلا بعد عقود زمنيَّة. أقول قولي هذا، وفي ذهني الافتراض الذي تحدَّثتُ عنه كثيراً في مقالاتي، وهو أن النظام الحاكم بات مجرَّد جُزُر متقطعة، لا يوجد بينها رابطٌ سياسي أو تنظيمي، أو حتى أيديولوجي، عدا فقه المصلحة التي تؤلف بين قلوب سَدَنَتِهِ. وتبعاً لذلك، فنحن نفترض في مُسرِّبها أنه يحملُ الصفة القياديَّة بين عُصبته، وقد يكون من حاضري ذاك الاجتماع أو خارجه. بمعنى أنه يصعُبُ على موظفي السكرتاريا الصِغار فعل ذلك، للخطورة التي يتسم بها عملٌ كهذا، تصل عقوبته لقطع الرقاب. وفي تقديري أيضا، أن هذه الوثيقة لم يُرد مُسرِّبها أن تشق طريقها وتجتاز الحدود، ولكن يبدو أن يداً من الأيادي التي رفعتها – ربَّما بينها مصدري نفسه – هُم من قذفوا بها عبر الحدود، ليتلقفها إريك ابتداءً وشخصنا الضعيف انتهاءً. أقول ذلك، وفي الخاطر عبارة ما زالت ترن في أذني، قالها لي الدكتور حسن التُرابي عندما جالستُه قبل ثلاث سنوات في منزله بالمنشيَّة. وجاءت العبارة في خِضَمِّ غضبه على حوارييه، الذين رموه في الجُبِّ، حيث قال: «**يا اخي أنا أجلس معهم في كل ركن في هذه الدولة**».. وبالطبع اللبيبُ بالإشارة يفهَمُ.. كما يقولون!

(٦)

سيطالع القارئ وثيقة أصليَّة مُصوَّرة من الأصل بحذافيرها، ولو أنك دققت في هذه النسخة، ستعرف بعين بوليسيَّة فاحصة أن الذي صوَّرها فعل ذلك على عجلٍ، وهو ما يمكن تبيُّنه في عدم مراعاته الدقة في النسخ، بحيث ظهرت

الصفحات مائلة في بعض الحالات، وهو احتمالٌ يُعضِّده افتراض أن الوثيقة سُلِّمت من يدٍ إلى أخرى، ولم يكُن للتقنية الحديثة (كأجهزة التنصُّت مثلاً) فيها أي نصيب. ثمّة ملاحظة أخرى، تقول إن الوثيقة هذه كُتب عليها تاريخ ٢٠١٤/٩/١، أي اليوم التالي للاجتماع، بما يعني أيضاً أنها في الغالب فُرِّغت من جهاز تسجيل. وهذا يتضح كذلك في اللغة الدارجة السودانيَّة التي كُتبت بها، حيث يصعُب احتمال أن يكون من بين أزلام العُصبة من هُو ماهرٌ في الطباعة أو الكتابة الفورية. وهذا بدوره يُعزِّز تصوير عدة نسخ لتُسلَّم لأرشيف أكثر من جهة مثل، جهاز الأمن وجهاز الاستخبارات العسكريّة، بل إن من العُصبة من يحلو له التباهي بامتلاك مثل تلك الوثائق في منزله لأسبابٍ لا تخفى على المُتابع. ودعني أزيد بملاحظة ثالثة صغيرة.. فمن باب الاستخفاف والإزدراء، أرجو من القارئ الصبور أن يُمعن النظر في تلك الأخطاء الشنيعة، حتى في كتابة اللغة الدّارجة، ناهيك عن الفُصحى التي فُطِّست تفطيساً، وبعد هذا يسألونك عن التعليم وتدهوره في عهد الأبالسة؟!

(٧)

ثمَّة ملاحظة أخيرة، وددتُ أن أفرد لها محوراً آخر، لأنها أحزنتني وأوجعتني بالرغم من كثرة السهام التي انتاشتنا بها العُصبة ولم تترك في البدن مساحة لمُستزيد.. هذه الملاحظة جاءت تأكيداً لأسوأ ظاهرة رسَّختها العُصبة في الجسد السُّوداني المعلول، على مدى وجودها في السُّلطة. فكلنا يعلم أنهم جعلوا من القبليّة ديناً ومن العصبيّة محجّاً، وأنهم استخدموهما نهاراً جهاراً بغية الحفاظ على السُلطة وتثبيت أركانها بخضوع تامٍ لهُم، الأمر الذي نتج عنه تفسُّخ النسيج الاجتماعي وتحلل الروابط الأسريَّة وتهتك القيم والمثل والأخلاق. من هذه الزاوية.. هل تمعّنت يا عزيزي القارئ في الأربعة عشر كوكباً الذين ينتمون لـ"مثلث حمدي" تحديدا دون سواهم؟! وحريٌ بذلك أن يُسمّى "اجتماع المُجرمين والبلطجيّة"، فقد كانت لغة القتل هي القاسم المشترك بين كل المتحدثين.. يكاد المرء يتحسّس الدم الحرام وهو يسيل من بين السطور، وهو ما سيُزهِدُك حتماً في دماء الأضاحي الحلال.. إن استطعت إليها سبيلاً!

فإلى نصوص المحضر..

آخر الكلام: لابُدّ مِن الدِّيمُقرَاطيّة وإن طال السَفر!!
٢٠١٤/١٠/٣

بسم الله الرحمن الرحيم

وقائع اجتماع اللجنة الامنية والعسكرية المنعقد بكلية الدفاع الوطني يوم الاحد الموافق ٥ذو القعدة ١٤٣٥هجريه بتاريخ٣١ اغسطس٢٠١٤

- رحب الفريق اول بكري بالحضور
- عرض تفصيلي وتحليلي عن بيان الجبهة الثورية ٢٠الي ٢٥
- التقارير عرض اعلان باريس بين المهدي والجبهة الثورية ٨اغسطس
- والانشطة تقارير عن تحركات الصادق المهدي ولقاءاته بالقاهرة والامارات واديس ابابا
- تقارير الرصد والمتابعة عن نشاط قيادة التمرد واتصالاتهم ومقابلاتهم
- ✓ الاجندة

i. بيان الجبهة الثورية واعلان باريس واثره
ii. محاور الممانعة والاعتدال والنشاط الشيعي في السودان
iii. امبيكي ودوره في القضايا السودانية
iv. الانتخابات والحوار والتفاوض الاولوية
v. مشروع السودان الجديد واثره علي الامن القومي و النشاط الاقتصادي

١) الفريق اول بكري حسن صالح النائب الاول
٢) الفريق اول عبدالرحيم محمد حسين وزير الدفاع
٣) الفريق اول محمد عطا مدير جهاز الامن والمخابرات
٤) الفريق اول هاشم عثمان الحسين مديرعام قوات الشرطة
٥) فريق اول هاشم عبد الله محمد رئيس هيئة الاركان المشتركة
٦) فريق مهندس عماد الدين عدوي رئيس اركان العمليات المشتركة
٧) بروفيسر ابراهيم غندور نائب المؤتمر الوطني
٨) فريق يحي محمد خير وزير الدولة بالدفاع
٩) فريق صديق مدير الاستخبارات والامن
١٠) فريق امن الرشيد فقيري مدير الامن الشعبي
١١) عبدالله الجيلي منسق عام الدفاع الشعبي
١٢) عبدالقادر محمد زين منسق الخدمة الوطنية

سري للغاية

١٣)	فريق امن صلاح الطيب مفوض الدمج والتسريح
١٤)	د٠مصطفي عثمان ٠٠الامين السياسي

د٠مصطفي

لدينا ازمة اقتصادية تحتاج لمعالجات جذرية تخفض معاناة المواطنين وخلق بدائل للسيطرة علي السوق ٠وخاصة اننا مقبلون علي انتخابات وحوار وطني ما دايرين يتم استغلالها من ضعاف النفوس في اثارة مظاهرات كما حدث في سبتمبر الماضي ٠وتتشكل الازمة السياسية من افرازات مشروع السودان الجديد والذي صمم علي العنصرية والقبلية واستمرار الحروب وخلق جنرالات حرب ٠فصل الجنوب ثم اعاد دورة الحرب في الدولتين علي عنصري وهذا يجب التصدي له ومنعه من الانتشار وشكل ازمة تهديد مباشر واوقف الاستثمار٠تبعا لمؤشرات الاقتصاد ويغذيها الحرب الدائرة في دار فور والمنطقتين وعوامل داخلية جراء الاقتتال القبلي بدارفور وكردفان٠مضاف اليه تحركات الجبهة الثوريه باوربا واديس ابابا ٠وتاثير ذلك علي المعارضة الداخلية ٠والحوار وعلاقاتنا الاقليمية والدولية ٠وهل نحن نخلي العبث يبرطع ويتلاعبوا بامننا القومي ومستقبلنا السياسي مع الاخذ في الاعتباركل هذا الجولات هدفها واحد تدمير مؤسسات الدولة التي بنتها الانقاذ وتصفية حكم الاسلاميين واعادة هيلكة الواقع السياسي وتقديم كل قادة الحركة الاسلامية الي محاكمات ٠وافشال الانتخابات لحسابات تخصهم ٠٠ولابد من دعم امبيكي في كل المجالات ٠لكن غير متفائل يتفقوا مع طرح امبيكي لقناعة بان كل الحركات تبنت مشروع السودان الجديد ٠٠

بطبيعة الحال كان لا بد من اجراء تحليل للازمة التي سقفها تفكيك الانقاذ من خلال الحكومة الانتقالية والتي تشرف علي مؤتمر دستوري وفق «اعلان باريس»، كخطوات سياسية عديدة لاكمال خطة حصار المؤتمر الوطني . وتتوزع هذه الخطوات ما بين الحصار الاقليمي والدولي والداخلي ، باستخدام الصادق المهدي دون ان يستصحب مصالح حزبه وقياداته في الحراك المعارض الهدام والمشبوه.

«اعلان باريس» الذي تم توقيعه مؤخرا،يعتبرونه واقعا سياسيا جديدا في الازمة السياسية ، يشكل لهم لاسقاط نظام الحكم، بل المدخل للحوار الوطني والتأسيس عليه لاعادة هيكلة الدولة . هذا الامنية التي تزداد لتلحق الوقت نحو توحيد المعارضة، ومن ثم اتخاذ القرار . لاسقاط الحركة الاسلامية ، انهم محكومين بسقف زمني محدود ، لافشال الحوار الداخلي والانتخابات ، خوفا من اخذنا الشرعية لخمس سنوات ، وتحويل عملية الانتخابات الى فتنة ، وتبدل اوراق اللعبة

السياسية وانفلات امني لا تستطيع الحكومة السيطرة عليه ، وتكون الجبهة الثورية قد حققت اهدافها من خلال استخدام الاحزاب في تدمير السودان دون وعي ومعرفة ودراية بمخططات الجبهة الثورية وداعميها ..وبدانا خطوات لافشال كل خطوة تقوم بها حركات التمرد،سياسيا واعلاميا ودبلماسيا لاربالك حساباتهم ..عمل علي الالتقاء بكل الاحزاب الموالية لنا واتفقنا معهم علي واحد هداف مشترك تقام الانتخابات في مواعيدها واشتراكهم فيها وزيادة الدعم المالي لهم لمقابلة صرف مؤتمرات الحوار والانتخابات ،مع التاكيد علي العمل المشترك، من التفاوض حول المنطقتين فقط ومنبر الدوحة لدارفور ورفض نقل الحوار للخارج ويكون داخليا تحت رئاسة الرئيس ،وعدم الاعتراف بالجبهة الثورية ومواصلة تحرير المناطق المحتلة وتاكيد قومية القوات النظامية وتغيير الصورة النمطية لقوات الدعم السريع وتشجيع الشباب للانضمام للقوات المسلحة، ،والاحزاب المعانا كافية لاعطاء الشرعية ،والمعارضة قوي الاجماع دايرين نتحفظ بهم كده لتجميل وجهنا امام الراي العام الدولي والاقليمي ،ونقول في معارضة في الداخل ومافي زول سالهم ونستفيد من التناقضات الموجودة بين الصادق المهدي وقوي الاجماع والقوي الغير منضمة لتحالف كاودا بالذات هيمنة الحركة الشعبية علي التنظيمات المسلحة ،واما اجتماعات اديس ابابا مع الحركات المسلحة هي علاقات عامة ونحن مافي جهة بتلزمنا للتفاوض معاه موحدين ،ومن اراد التفاوض عليه الذهاب للدوحة او اديس ابابا للمنطقتين ،والحوار بالداخل وفق شروطنا وضع السلاح ،رغم قلنا ممكن الاحزاب المشتركة في الحوار ممكن يقابلوا حملة السلاح لاقنعهم الحضور للداخل دون شروط مسبقة ،واقتصادنا يحتاج لوقفة وهنالك عقبات واثناء وجودي بالقاهرة قابلت العديد من المسئولين وتحدثنا في موضع العلاقات والعوائق والمصريين خايفين من الاخوان الموجودين بالسودان وانا قلت لهم اوقفوا نشاط الحركات المسلحة والمعارضين ممكن نعمل تجاهكم وممكن نحجم نشاط الاخوان ،والاخوة الخليجيين اشتكوا من انتشار المذهب الشيعي وتمدد ايران بالسودان ودولنا ترفض الاستثمار في السودان ،وقالوا نحن دايرين توازن معهم ،طبعا ان في رايي الشخصي علاقتنا مع ايران استراتيجية في مجالات الامن والدفاع ..،اما فتح مراكز ثقافية في اكثر من ٢٠٠مركزلنشر الدعوة الشيعية هذا ولد العديد من المشاكل وسط المجموعات الاسلامية المتطرفة وخاصة نحن عندنا تيارات سلفية تنتمي لجماعات في كل العالم ،دايرين موازنة بين العلاقة مع دول الخليج وايران وممكن ظاهريا نتعامل مع الخليج والعمل الاستراتيجي مع ايران وتدار بسرية كاملة في نطاق محدود عبر الامن والاستخبارات وتسير الدبلماسية كما هي ،وانا جيت جلست مع الرئيس واديته تقرير في كيف نطور علاقاتنا مع دول الخليج دون

٣

سري للغاية

المساس بجوهر تحالفنا مع ايران ٠وقلنا نتشاور مع القيادة الايرانية ٠والرئيس قام بدوره وكلف كل بدوره وتوصلنا الي ايفاق التبشير للحسينات دون المساس بالمستشارية الثقافية بالسفارة والبعثات ٠ ٠وممكن نكسب دول الخليج ونكون قريب منهم ونعرف هم بفكروا كيف ٠وهل جادين في دعمنا ولا دي مؤامرة دايرين يخسروا علاقتنا مع ايران ويكشفوا ضهرنا للعدو٠وفي كلي الحالتين ايران تستفيد ونحن نعرف ٠محور الاعتدال ونبني سياسة حقيقية في التعامل مع هذا المحور ٠وايران لدينا معها اتفاقيات امنية وسياسية ممكن ترفض تجربة التلويح لدول الخليج بعلاقات جديدة وخاصة السعودية خايفة من الوجود العسكري الايراني بالسودان واذا شعروا باي خطوة ربما دفعوا الاستثمار وفتحوا البنوك السعودية لاعتماد البنوك السودانية والاقتصاد تضرر بعدم وجود ضمانة لتحويلات المغتربين والمصدرين والموردين٠

ترتيب الاولويات سريعا، والمضي نحو امتلاك زمام المبادرة لقطع الطريق امام كل المؤامرات التي تحاك ضدنا٠ حتي نجعل مجرد التفكير لخيارات الاطاحة بنا صعبة، وان تكاليف التداعيات المصاحبة لا ي محاولة لاسقاطنا مكلفة وباهظة الثمن وان يقدم عليها او يخرج يظاهر بها يدفع حياته ثمنا لها، لذا الفرصة الموجودة عندنا هي الحوار المفضي لاتفاق لقيام الانتخابات في موعدها ولاتاجيل مهما كانت الاسباب».والاتحاد الاوربي مؤيد لحوار والتقيت كل سفرائه وايدوا جميعهم الاصلاحات السياسية٠وتبرعوا ب١٨مليون دولار لدعم التعليم ٠بدارفور وطلبوا زيارة الي دارفور قلت ليهم مافي مانع

❖فريق صلاح الطيب

اؤمن علي ما ذكره الاخ مصطفي يجب ان نفصل بين علاقتنا الامنية والعسكرية مع ايران وان لاتتاثر علاقتنا مع السعودية والامارات دبلماسيا واخويا٠وخاصة بعدما ظهرت علي السطح سياسة المحاور ٠وان ثلاثة مليون سوداني يعملون بدول الخليج٠اما تحركات الحركات المسلحة والامام قالو المودر بفتح خشم البقرة ٠الناس ديل راحت عليهم ما عرفوا يمشوا وين باريس ما نجحت جاموا اديس ولسع ماشين افريقيا ٠المهم في الكلام القوة علي الارض الناس ديل فقدوا كوادروقيادات ميدانية ٠ونستمر في تفكيكهم ٠ونحن استطعنا ان نضم ١٣٥٠من جنود وضباط من قوات العدل والمساواة للقوات المسلحة وسرحنا الباقي وادينا أي واحد ٥٠مليون ووعدناهم نعمل ليهم مشاريع دايمة وكل ابناء ج كردفان والنيل الازرق في كل الولايات

٤
سري للغاية

انضموا للدعم السريع لطرد التمرد والعمل علي عودة اهلهم من معسكرات اللاجئين·ونطور علاقتنا السياسية مع قيادتهم بخيت دبجو وهم اضافة حقيقية للقوات المسلحة بدارفور ·واستلمناه ورحلناه لمعسكرات وخصصنا مجموعة من خيرة الضباط ليدربوه ويغيروا عقيدتهم القتالية ·وبخيت دبجو قال عنده اتصالات حركة مناوي وجبريل وحنستفيد من هذه الاتصالات ··واما دانيال كودي استطاع يجيب ضباط وجنود وعنده ناس لسع جوه الجبال وقلنا اي زول جاي تعمل ddrونضمن مستقبله وعبد الباقي قرفة عنده ضباط وعساكر وقال عنده ناس جايين بعد يجو نعمل لهم دمج وتسريح وناس النيل الازرق كمندان وعباس شغالين ·والشي العارفينه عنهم ·الحركات كلها ايلة للسقوط ·ويقول الانتخابات قيامها في مواعيدها · عامل نفسي لكل الحركات المسلحة ·ويؤدي الي نهاية حتمية لمشروع السودان الجديد·ديل ملواتقين في امبيكي وكلمني عبدول ممثل الاتحاد الافريقي مالك وياسر اشتكوه للرئيس الاثيوبي واشتكو امبيكي للمبعوث الامريكي ·

❖ عبدالقادر محمد زين

الموازنة في علاقتنا بين ايران ودول مجلس التعاون مهم لكن سؤالي ممكن السعودية تتراجع بعدما صنفت الاخوان كمجموعات ارهابية ·وعلاقتنا بايران لديها ارتباط بالتنظيم الدولي للاخوان لابد نشاور ايران وكل جماعتنا الاسلامية ·وخاصة بان العلاقة مع المملكة غير مضمونة ·رغم معرفتهم باننا نملك عنصر التهديد لحكمهم·وانا مع تفتيت وتقسيم هذه الحركات واستمرار العمليات العسكرية ·والمصريين مضطرين لعلاقة خاصة بعد انتصار الاسلاميين في معركة طرابلس ووجود مشكلة مع ليبيا وحاولوا يدعموا حفتر وضربوا بالطيران وفشلوا نحن نستخدم هذه الكروت ·وانا قنعان من الحركات المسلحة ·لابد ان نحافظ علي المعارضة الداخلية وردع كل من تخول له نفسه زعزعة الاستقرار·وهذا العام دربنا دبابين وكتايب استراتيجية بالولايات تساهم في حماية الانتخابات وتساعد الشرطة التصدي لاي عمل تخريبي من التمرد ·تقوم به مجموعات مؤيدة لمشروع السودان الجديد ·لان ياسر لديه اتصالات مع نساء وشباب لتكوين اجسام للمشاركة في المظاهرات

❖ عبدالله الجبلي

كل الاستهداف الذي نتعرض له طيلة ٢٥سنة بسبب علاقتنا مع ايران والثورتين يتمسكون بالاسلام ·ومافي دولة عندها الشجاعة تقول لكل الغرب لا الا ايران

.وهي شريك اساسي في ثورة الانقاذ. وهي من قدم لنا كل الدعم دون مقابل في حين السعودية تدعم قرنق والتجمع الديقراطي .نحن نختبر مصداقية هذه الدول مع علمي بان قرارهم مع امريكا.اعلان باريس جزء من مؤامرة كبيرة تحاك لتركينا وان فقراته لن فيها فقرة تدل علي حسن نية ومطابق مع التنوع المتحد الذي اعلنه المهدي .نحن لن نعترف به ونواجهه عبر عمل اعلامي وسياسي وسط كوادرنا واحزابنا .وغير معنيين باي مخرجات لاجتماع الحركات .هم نواياهم دايرين حوار سياسي ثم تفاوض مع الحكومة .ومامكن نديهم شرعية .ونرفض أي حل يخلط دارفور مع المنطقتين.والحركات ماشة تتفرق نصبر سنة وسنتين كلما الزمان طال تكون هنالك متغيرات .هم في اخري اجتماع للجبهه يوم ٢٠في البيان قالوا اسقاط النظام والمحكمة الجنائية وجرموا النظام ويجوا يتراجعوا عشان الصادق المهدي .هم شعروا بالضعف وعندنا كلام الابعد وضع السلام وتسريح المليشيات .وهم عولوا علي الخواجات ينتظروا كتيرا .الان في صحوة حركات دارفورالموقعة معنا .اصبحوا يضموا نفسهم للترتيبات الامنية واصبحوا اضافة حقيقية للقضاء علي التمرد .وفي المنطقتين هنالك رغبة للانضمام للدفاع الشعبي والدعم السريع كل يريد محاربة التمرد الذي عطل التنمية وهذا العام افضل الاعوام عندما خرجنا ٨٠دفعة من مختلف الاعمار في الولايات وجاهزية ثلاثة الوية للقتال ومواجهة تداعيات الانتخابات والتمرد لازم يواجه بحزم .واي يتلاعب اودائر يظاهر يضرب بالنار امن البلد خط احمر الداير مشروع السودان الجديد يمشي الجنوب عشان مستوي مشروعهم

❖فريق الرشيد فقيري

نحن اعدينا العدة للانتخابات منذ ستة اشهر بزيادة تواجد داخل الاحزاب بالداخل .وعندنا في كل حزب تلتين اعضاء المكتب السياسي حتي نستطيع التاثير في قرارات قيادة الحزب ويكون لمصلحتنا .احزاب المعارضة كانوا ٣٤ عندنا ١٧ الهيئة القيادية لقوي الاجماع عندنا ٢٠واحزاب الحكومة ٨٠حزب اغلب القيادات معنا .كل عندنا وجود باغلبية من القاعدة الي القمة في كل الاحزاب.وحزب الامة مخترق بصورة كبيرة .ومهيمن علي كل قرارات الحزب .لكن حصلت مستجدات الصادق شال ملف التواصل مع الحركات من من صديق اسماعيل وادوه لمحمد عبدالله الدومة لازم نعمل كلنا لاعادة صديق اسماعيل للملف ونضغط علي اسرة الصادق بواسطة ابنائه لابد من عودة والدهم ونديه ضمان بالعفو مقابل التخلي عن اجندة باريس ويتنكر لهم .والصادق بطبعة لمس الزمن يطول ويعرف بان كل الذي قام به

خير مجدي انما وظفه المتمردين في خدمة اجندتهم واعاد لهم ماخسروه في القتال ٠وبعدا اعلامي وسياسي ودبلماسي لوقت محدود سوف نتجاوزها بعدها اين يكون الصادق وعندما يعرف فشل كل مؤامرات المتمردين بالداخل وممرح العمليات ٠نحن متابعين كل تحركاتهم ونساتهم وعلاقتهم مع النساء واي زول بشرب شنو من الخمر ولمن يكونوا سكرانين بقولوا خيال كبيروعندنا بنات علي اتصال دائم معاهم٠واستطاعن يرسلوا لن كل الاميلات والتلفونات والاسكاي والواتساب وكل وسائطهم واستطعنا اختراقهم الكترونيا ٠ومتابعة انشطتهم واتصالاتهم بالداخل اكتر زول بتصل ياسر عرمان ومشترك مجموعة واتساب اخترقناه ٠ عبرالتلفون والواتساب والاسكاي وعندهم اتصالات مع مجموعة من النساء والشباب لدعم مظاهرات سبتمر والمعلومات تاكدت من رصدنا لاتصال من مكاتب القاهرة وبشجعوا للتظاهر٠في تغطيتنا في الخارج ركزنا بشكل اساسي علي الحركة الشعبية اذا دمرنا قطاع الحركة بكون خلاص مافي أي تهديد امني للحكم ٠يتم القضاء بثلاثة سيناريوهات مرتبطة مع بعض تمشي بالمراحل واحدة واحدة ٠السيناريو الاول اختراق مكاتب الحركة بكل فروعهم بكوادر وقيادات وحدد منطقة الخطر معسكرات اللجوء والمناطق المحررة وجنوب السودان ويوغندا وثيوبيا وهي تمثل اكبر تهديد٠لذا ركزنا الي كوادرنا للاقامة هنالك عبر واجهات مختلفة وشركات ورجال اعمال لتزيد العنا صر الموجودة بالمال واستقطاب المزيد ٠٠وفي قيادتنا عززنا ثقة كوادر الحركة فيهم من خلال اعتقاله ووضعه في محل امن بعد الاتفاق معه لاعطاه دورهم مصداقية ٠وهناك منظمات وشخصيات نجعلها تناشد السلطات باطلاق سراحهم ٠والغرض لمن المتعاون بتاعنا يطلع بره بدوه حق اللجوءوحماية من الامم المتحدة ودعم من منظمات باعتباره لاجئ وبالتالي توفرت له وسيلة الراحة والاستقرار وبعدها بوسائل نتصل به وانجزنا العديد في الخارج في كل الدول اغلب تحركاتهم مرصودة ٠مقر الاتحاد الافريقي لمعرفة قابلوا مين وجاءوا مع مين وما هي انطباعاتهم ٠ومدي فهمهم للوضع الداخلي ٠ورصد لتحركات حامد الاغبش عندنا ناس تعرفوا عليه في اثيوبيا ٠ويتواصله معه عبر كل الوسائط ٠٠ودائما المتمردين مابثقوا في الناس الموجود مهما كان ٠نحن بنمشي حسب فهم خلينا تركيز عناصرنا داخلهم يستخدموا العلاقات الودية والصداقة والتوثيق بالصور ولابد يكونوا نشطين ويتواصلوا مع كل الناس وجمع المعلومات الاستراتيجية ٠عناصر الضعف والقوة ٠ونحن شغالين في كيفية ادخال بنك الجبال في مشاكل

٧

سري للغاية

وخلافات مالية وشكوك فيما بينهم ،وعندنا خطط شغالين فيها في كيف نلغي هذا البنك الذي يمول الحرب في كل السودان لان كل اموال الجبهة الثورية فيه ويقدم غروض للتجارة للداعمين للتمرد ويخدم عضوية الحركة هذا يمثل تهديد اكبر من الحركة،وفي الراهن نعمل انشقاق وكراهيه وسط قيادات الجبهة الثورية مثلا بين ويسر في عوامل ممكن ندخل بها ،بين مناوي والتوم هجو ونصرالدين عوامل ،وبعدها مناوي والجبهة ،ثم نمشي للحركة الشعبية بلسر وكوادر الحركة بالمنطقتين ثم خلاف بين الحلو وقيادات ميدانية من الجبال ثم مالك بينه وقيادات ميدانية ثم خلاف بين الكوادر والقيادة الثلاثية مع انحياز بعض الكوادر للقيادات حتي يتم الانشقاق بصورة غاية في الروعة ،وسحب المهدي الي الداخل واعطاء وظائف لناس الشرق خاصة ان سيد ابو امنة ضعيف ويريد وظيفة دستورية لنقص فيه منذ مشاكله مع ايلا ،واللواء الهادي مصطفي قال حيحاول فتح قناة حوار معه والاتحاد الديمقراطي كله حقنا الناس الاقوياء ناسنا احمد سعد وعمر الشريف وهلال وجلسنا معاهم وقالو نحن معاك وضمن لهم المشاركة في الحكومة بعد الانتخابات ونعمل لاضعاف المجموعات التي ضدهم داخل الاتحادي ،عناصرنا داخل قوي الاجماع ما يخلوهم يتوحدوا مع اعلان باريس ويشككوا باستمرار اذا انهار اعلان باريس ملاذ نحن فاعلون التريث مع تاييد الاعلان ،ناسنا اجتمعوا مع بشري وعبدالرحمن الصادق ،وقالوا لهم انتم ورثة الحزب ولابد تحاولو تجيبوا ابوكم وخاصة انه اصبح كبير في العمر وممكن تخلوه يلعب به شيوعي الحركات وبعدين ابوك لا يعرف اجندة الحركات وطرحوا له ان يجتمع باللواء عبدالباقي قرفة والعميد بخيت دبجوا عشان يعرفوا المعلومات الحقيقية لدوافع الحرب ،ومن اين تمول الحرب ولماذا وهل يقبل الانصار تقسيم السودان ،وقبلوا الدعوي للجلوس مع اللواء عبدالباقي قرفة واستمعوا له وقدم لهم معلومات نحن ما عندنا ولماذا اختلفوا مع الجبهه الثورية ،وبعد هذا اللقاء نحن واثقين اسرة المهدي بتجيبه طال الزمن او قصر ،لازم يتفرتقوا كما تفرتقت الحركة بالجنوب ، عملنا دراسات عن الميول النفسية لكل كوادر وقيادات الحركة الشعبية والحركات في مناطق تواجدهم وتصنيف الكوادر النشطة والمتعلمة وذات بعد قبلي وتوصلنا الي قوائم ،والعلاقات الافقية والراسية بين كوادر هذا الحركات ،وجمعنا أي كلام يقولوا كداتا بتورينا المؤشر في كيف نعمل الاوليات في الاشاعة والحرب النفسية ،وكل مكاتب البعثات بالخرطوم مخترقة ونعرف

٨
سري للغاية

مين ماشي وجايي.ولافشال مخططات السودان الجديد لتوحيد المعارضة وضعنا متابعة لصيقة .اي سياسي ماشي للتمرد يتم منعه .

❖فريق صديق عامر

بامن علي الكلام من سبقني بعلق علي علاقتنا مع السعودية والامارات من جهه وايران من جهة ونحن باستطاعتنا نعرف كيف نضلل دول الخليج باجراءت علنية وخاصة ديل وراهم امريكا واسرائيل وخايفين من علاقتنا مع ايران.نحن مستفيدين من ايران اكبر تحالف في المنطقة في العمل الاستخباراتي والانتاج الحربي لان علاقاتنا متشابكة مع كل الحركات الاسلامية .ونحن مدخل ايران لهذه الجماعات .والان اصبحت المنطقة العربية محورين الممانعة والاعتدال ونحن لابد نقعد في الاتنين .والكلام ديه ظهر لمن اخترنا محجوب شرفي سفير لدي القاهرة عشان يشرف علي منطقة المغربي العربي وتواجد الحركات الاسلامية ومراقبة تواجد المعارضة السودانية بالقاهرة .هم رفضوه .عرفنا الرسالة وبعداك ان المصريين دايريننا نقيف مع السعودية والامارات .وقبلي كده مسكوا قروش البعثة بالمطار وقلنا لهم مافي طريقة نحولها .واحد فيهم قال السعودية ما ممكن تحل .فهمنا الرسالة .وانا في تقديري ماتترك السعودية والامارات لتحركات المعارضة واستقبال المهدي .ونحن لابد نواجهم بان الامارات والسعودية هم من دعموا ومولوا مظاهرات سبتمبرلاسقاط النظام ونديهم الادلة والتسجيل الصوتي لضباط استخباراتهم واسماء الضباط والاشخاص الذين اتصلوا معهم .وهم يحاولوا دوما استقطاب قيادات اسلامية وسبق ان اتصلوا من اثنين من ضباطنا برتبة عميد وجلسوا معهم هنا في الخرطوم .وقبل الاجتماع جلسنا معهم انا ومحمد عطا وقلنا لهم امشوا وورريناهم يعرفوا ماذا يريدون .وعملنا لهم تامين كامل ومافي زول يسالهم وتكررت اللقاء ت حتي وصلت ٥مرات ومن كلامهم عرفنا انهم دايرين انقلاب بقيادات اسلامية لصالح دول السعودية والكلام دي كان يعلم الرئيس ورئيس الاركان ووزير الدفاع ورؤساء الامن والامن الشعبي عشان نقدر نعرف ربما يكون هنالك اتصالات مع اخرين دون علمنا لان اجهزة المخابرات دائما تعمل بدايل لاستمرار عملها .واتفقنا كلنا اصلا ما نعمل أي شي تجاه المملكة ونعكر العلاقة طالما نحن مسيطرين علي الوضع ..وهم في النهاية قالوا لهم انقلاب صعب لان كل الموجود في الجيش والحركة الاسلامية غالبيتهم هم في الامن الشعبي .وتمكن من خلالهم مراقبة تهديدات المملكة

٩
سري للغاية

·انا بقول نستفيد من المملكة وما ننق فيها وعلاقة مع ايران استراتيجية ··العمل يستمر في تفكيك الحركات والاليات مكونة وشغالة ·وهذا العام ناس الجيش الشعبي زرعوا اراضي كبيرة بجنوب كردفان ·يجب ان نسمح لهم بحصاد هذه الزراعة لابد من منعهم ·لان الحصاد يعني تموين للحرب ·وكلما جوعناهم ·استسلم منهم قيادات وهروب مواطنين ·ممكن نستفيد منهم في ملاحقة المتمردين ·نحن الدولة الوحيدة في العالم ما بنضرر من صراعات الجماعات الاسلامية ولا الشيعية ·وكل الحركات الاسلامية بندير علاقتنا مها عبر الدولة انما عبر واجهات اجتماعية·وسر قوة الانقاذ في تحالف ايران والحركات الاسلامية واي تفريط في هذه العلاقة سوف نخسر كتير ·الجنوب مازال يدعم التمرد للاطاحة بالحكومة وتحويل السودان زي الجنوب ·ولمواجهة هذا الخطر عملنا اليات استباقية تبدا بتفريق المعسكرات واستقطاب قيادات ميدانية وتدريب ابناء المناطق لمحاربة التمرد·وسبق وان زارني الملحق العسكري السعودي وطرح علينا التعاون مع بعض في المجالات العسكرية ومستعدين يقدموا كل مايحتاجه الجيش السوداني من لوجستيك وممكن يطور الي تعاون بين الحكومتين وقال نحن اقرب الناس اليكم ·وقلت له انتم بتتعاونوا مع امريكا بصورة مطلقة ·دون تراعوا حقوق الاخرين·وبرضو الملحق الاماراتي بجي طوالي وبنسمع لكلامه ·كلامي النشاط الديني الشيعي ممكن يعمل فتنة خاصة مع وجود حركات سنية سلفية واخوان مسلمين وانصارسنه وانصار شريعة واهل الكتاب والهجرة والتبليغ وجماعة حزب التحرير ودولة الخلافة وانصار الدعوة ·ونحن مادايرين تصادم ممكن نخسر الاثنين ·نحن نفهم الاستخبارات الايرانية بخطورة الوضع وهم يتفهموا ·ونستفيد وللسعودية نحن معاكم·كثفنا العمل لتخريج كوادر استخباراتية من اخواننا الليبيين ·وهم الان في دورة متقدمة في عمليات الانترنت وفك الشفرات والتصنت علي الهواتف والاجهزة الاسلكية ·وقيادتهم طلبوا نبي لهم جهاز قوي ·

❖فريق يحي محمد خير

القوة الرئيسية في تحالف المتمردين والصادق المهدي هي الحركة الشعبية واكثر المستفيدين من الناحية السياسية والاعلامية والدبماسية لوجود ثلاثة من اهم قياداتها السياسية والعسكرية والحركة الان بتكرر نفس سينارو قرنق في مؤتمر القضايا المصيرية باسمرا ·ولازم نكون واعين لمخطط الحركة الشعبية قرنق اذا انهزم في الميدان هاجم منطقة اخري وتحرك سياسيا·وهم مهزومين في الميدان دايرين

يرفعوا الروح المعنوية لكوادرهم ،وتاجيل مشاكلهم الداخلية ، لابد من طرد الحركة من المنطقتين ولن نعترف باي ميثاق اسمه باريس بل هو اتفاق عدواني وينم عن خديعة صممت من جهات معادية للسودان ، التحاور حول المنطقتين فقط وحركات دارفور فقدت قوتها، وارادوا يمشوا الدوحة ، والعام هذا سوف ينتهي التمرد حنودي قوة كبيرة تهاجم من كل الاتجاهات ،ونفاجاءهم بقوات كبيرة وهجوم جوي وبري بقوات من ابناء مناطقهم جبال النوبة والنيل الازرق ودارفور بقوات الحركات التي انضمت للترتيبات الامنية ،وسوف يكونوا معارضة سياسية يسهل تفكيكهم ، علاقتنا مع ايران استراتيجية ،ونوريهم نيتنا اغلاق مراكزهم الثقافية لدواعي امنية وان هنالك تهديد من جماعات متطرفة ربما تسعي للفتنة ويجب اخذ عمل مماثل تجاه الجماعات الوهابية حتي لايفسر أي اجراء استهداف ،مما يجعل الشيعة السودانيين يعملون سرا ويكون تهديدهم اكبر، اي خطوة تخدم مصالح لوقت محدود مع السعودية ودول الخليج كويس ،لكن مانستعجل ،،وهم حاولوا قلب نظام الحكم ودعموا مظاهرات سبتمبر ، في خطوة عدائية لايمكن السكوت عنها وهم خافوا من ردة فعلنا لاننا لم نتهم أي جهة وهم فسروا هذا السكوت ربما ندعم جماعات متشددة ،ومرة في دبي التقيت سعوديين واماراتيين ابان معرض الطيران وتكلموا كتير عن مظاهرات وحاولوا يتظاهروا بانهم مشفقين علي حالنا وكانوا دايرين يعرفوا نحن عرفنا وما عرفنا ،وكل دول الخليج معلومات عن الجماعات الارهابية ضعيفة خاصة الموجودين بليبيا والصومال ونيجيريا ومالي ودول المغرب العربي وافغانستان لان علاقتهم متوترة مع الجماعات المتطرفة ، هم دايرين نتعاون معهم في مكافحة الارهاب لانه تهديد مباشر لهم وحتي داعش وجبهة النصرة والاخوان المسلمين والحركات الاسلامية بفلسطين علاقتهم ضعيفة ،نحن ما بنضحي بعلاقاتنا مع الاسلاميين وايران ،وممكن علاقة معهم في كافة المجالات عبر المصالح المتبادلة في الاقتصاد والعمل ،والمصريين يجب ان يتعاملوا معنا ويملكون كل معلومات الوجود المعارض بمصر وتحركاتهم واجتماعهم وعلاقتهم مع السفارات الموجودة بمصر مقابل منع الاخوان المسلمين والمتطرفين بليبيا من مهاجمة المصالح المصرية ،وهذا يعمم للمملكة والامارات وحتي امريكا تعاونا معهم في مكافحة الارهاب مقابل ايقاف دعمهم للحركات المسلحة وعدم الوقوف في المحافل الدولية، والملفات الاستخباراتية ممكن تصلح الاقتصاد والعلاقات الدبلماسية ونجهض مخططات التمرد، انتصار نامنا في ليبيا مؤشر لانتصار علي مشروع السودان الجديد ،

❖ <u>فريق ركن عماد عدوي</u>

١١

<u>سري للغاية</u>

اؤمن علي كل ماذكره القادة وان يحول فورا الي قرارات ،دابر اتكلم عن الانجازات العسكرية لهيئة العمليات ،تامين الحدود مع اثيوبيا ووقعنا علي اتفاق لانشاء قوات مشتركة علي طول الحدود مع الدولتين وتبادل المعلومات علي جانبي الحدود ومنع أي نشاط مسلح من ينطلق من كلي الدولتين والمساهمة في حماية سد النهضة ،هذا الاتفاق مفيد جدا لنا لانه يتيح لنا التحرك في المناطق الحدودية في الجانب الاثيوبية ممكن عن طريقة مراقبة اللاجئين المقيمين باثيوبيا وممكن نحدد عساكر اثيوبيين يمدونا بمعلومات عن معسكرات الحركة الشعبية بمناطق تواجد الجيش الشعبي بيابوس ومناطق اخري وممكن يتم استهدافهم بالطيران ،والاتفاق برضو ازعج المصريين بانه تحالف عسكري ضد مصالحهم المائية مما جعلهم يتراجعوا ويقدموا تنازلات ومنعوا علي محمود حسنين من اقامة مؤتمره كبادرة حسن نية واسرعوا في فتح معبر اشكيت البري وقدموا للرئيس لزيارة مصر ،معناه كسر للحظر علي الاخوان ،ونحن لابد نستفيد،منها في تحجيم دور الصادق المهدي ومقابلاته للسفراء وتعاون امني عن تواجد المعارضة وان يلعب السيسي دور في تحسين علاقات السودان بدول الخليج مقابل الامن لمصر من جماعة الاخوان واجراء مصالحة مع الاخوان والنظام بايجاد تهدئة للمواجهات في الوقت الراهن ،قواتنا المشتركة مع تشاد في افضل الاحوال وليبيا حدودهم امنة خاصة بعد انتصار حلفائنا بطرابلس قوات فجر ليبيا ،واوصلنا لهم السلاح والمعدات المتبرعة بها قطر وتركيا وكونا غرفة مشتركة برئاسة عقيد لادارة التنسيق معهم في كيفية ادارة العمليات وتركيا وقطر مدونا بمعلومات لمصلحة الثوار بالاضافة لاجهزتنا،حتي يسيطروا علي كامل ليبيا ،اكثر تهديد بحدودنا من جنوب السودان حتي الان هم رافضين الخط الصفري وقلنا نعمل قوات مشتركة علي طول الحدود هم برضو رافضين ،وهم زالوا داعمين للفرقتين ،نحن لابد نوفر دعم ضخم لقوات رياك ليخوضوا حربا ،ينظفوا بها كل منطقة اعالي النيل الكبري،ورياك وتعبان في زيارتهم للخرطوم وورونا طرق الدعم ومين بجيبوا وكل الاجتماعات التي تمت بخصوص فك الارتباط ودعم سلفاكير للفرقتين ونوايا سلفاكير تجاهنا والوجود الامريكي والاسرائيلي بجوبا والدعم الذي يقدم ،ودعم موسيفني للجبهة الثورية واستضافة كمبالا لاغلب قادة التمرد والترتيب الذي تم بين جوبا وكمبالا بخصوص ترحيل قادة الحركة الي يوغندا بعد توقيع التعاون المشترك ،بقينا عندنا معلومات ممكن تمكنا من اتخاذ القرار الصحيح تجاه الجنوب ويوغندا ،وكيفية التعامل مع حركات عميلة ،انا رايي الشخصي التفاوض مع العملاء مضيعة للوقت ،وما حيلقوا الدايرينه ونحن مابنقبل اجون ويقعدوا وسطنا بعدما ساعدوا العدو علي فصل الجنوب ودايرين يفصلوا الباقي وطوالي يشتغلوا تقسيم افضل هزيمتهم عسكريا

والبفضل نجيبه عبر دانيال كودي وسراج والسيسي كلها حركات موقعة ٠ونحن وما نخلي أي مخازن لمواد غذائية ونضربهم قبل الحصاد المرة ده لابد نحاصرهم ٠

❖فريق اول هاشم عثمان الحسين

كل الحديث يحول لخطط عمل نبدا في تنفيذها لان مهددات الامن القومي كبيرة بعد بيان التمرد لاجتماعهم ٢٠الي٢٥واعلان باريس مع المهدي والجولات التي قاموا بها في اوربا ومقابلات مناوي وعبدالواحد والتوم هجو الي منظمات حقوقية واضف مقابلة ياسر عرمان للخارجية البريطانية والندوة التي تحدث فيها مع روزالين ولقائه مع قوي سياسية حليفة للمؤتمر الوطني مولانا محمد عثمان الميرغني ولقائه فاروق ابوعيسي وتحركات الحلو ومالك عقار كلها عمل عدائي غايته النهائيه تصفية حكم الانقاذ وتقديم قادة للمشانق مواجهة الحقيقة مهمة حتي اجتماع اديس ماشي في نفس الاتجاه التشهير بالحركة الاسلامية،ومحاولة فرض شروط ما لقوها بالحرب دايرينها بالصادق المهدي ٠المهدي حزبه ما وحد خليه يوحد ناس ذومصالح واجندة مختلفة ٠في ناس الحركات مابجو اصلا جبريل منطلق من مقتل اخيه وياسر عرمان ماعنده معانا حاجة والحلو عنده مشاكل مع النوبة ومالك عقار قتل ناس النيل الازرق وقتل اسري من قيسان ٣٠ شخص رفضوا التصويت له في الانتخابات فيهم العمدة قراش عمدة قيسان حبسوه ٢١يوم ودفنوهم في مقبرة جماعية جمعوهم في كونتنروقتلوهم بمنع الهواء لانهم مؤتمر وطني ومني قتل ناس كتيرين من البرتي وعبد الواحد ماعنده تنظيم ٠٠نمشي في اعداد القوة تامين الانتخابات ولوفي تفاوض خلوه بعد الانتخابات وممكن الحوار الداخلي يستمربعد الانتخابات ٠تستمر سلخ القيادات الميدانية طالما المعلومات متوفرة ونعدد الاتفاقيات وعدم الجلوس مع التمرد ككتلة واحدة ٠اي زول جاي يسلم السلاح ٠ضبط الحريات الصحفية والتصريحات السياسية للاحزاب وان يكون الامن القومي خط احمر واي عمل سياسي واعلامي وفق القانون حتي لانصبح مثل جنوب السودان وافريقيا الوسطي وهذا ما يريده التمرد قالوا في البيان مع الصادق علاقة مع جنوب السودان حاضرا ومستقبلا شوف عمالتهم نحن مالنا والجنوب خليهم يحلو مشاكلهم مع بعض ٠ومشكلة الجنوب تاني مابتنحل ٠وتجريم كل من يدعم التمردين وكل من ينتقد القوات النظامية بحزم ٠والان وضعنا خطة لنشر ٢٠٠٠جندي من الاحتياطي المركزي في دارفور والمناطق المحررة من التمرد

بجنوب طردفان لاعادة الحياة فيها ،ومطلب ابناء النوبة لتامين عودة اهلهم من مناطق التمرد،هناك خلل امني بابيي وراجع النقص لضعف الخير الفهيم يجب تغييره بشخص ذو خلفية امنية من ابناء المسيرية ،دايرين زول يخترق ويخليهم يعملوا ضد انفسهم

❖فريق اول هاشم عبدالله

قمنا بتوجيه كل قادة الفرق بالولايات لمراقبة الحوار الوطني ،ومتابعة انشطته لنستفيد من مخرجاته في توحيد رؤية الناس حول الدور القومي للقوات المسلحة ويجب علي كل السودانيين الانتساب اليها وانها ليس حكر علي حزب اوجماعة وترفض القوات المسلحة أي حوار تحت رعاية اجنبية وان الاحزاب التي تدعو لرعاية اجنبية للحوار انما تستهدف امن واستقرار وتريد تفكيك قواته الامنية ليصبح السودان نهبا للميليشيات ،والضباط الاسلاميين برفضوا أي حواربمس او يتدخل في عمل القوات المسلحة ،المفاوضات مع المتمردين كل في منبره ومافي دمج لمنابر ونحن بنسمع في ازمة سياسية وين الازمة السياسية ،ديل عندهم مشلكة كل المتمردين كانوا في السلطة وتمردوا ووجهوا السلاح الي القوات المسلحة وقتلوامنها الكتير وطعنوا في قومية القوات المسلحة وقالوا معاهم مليشيات اجنبية وصعدوا عليها الحملات ،لايقاف زحف القوات الي معاقل التمرد وتنظيفه والان القوات المسلحة في احسن حالاتها مدعومة بقوات الدعم السريع من ابناء المناطق التي يسيطر عليها التمرد ،وجاهزين لانطلاق العمليات العسكرية،والمعسكرات تخرج والحرب مستمرة،وهنالك استجابة من ابناء النوبة والنيل الأزرق،ودارفور بكل ولايات السودان الانضمام لقوات الدعم السريع،بعدما عرفوا الزيادة الكبيرة في مرتبات كل القوات المسلحة وعملنا الجندي ٢مليون والضابط ملازم وملازم اول ٤مليون ونقيب الي مقدم ٦مليون وعقيد ومافوق يزيد عن العشرة،وقوات الدعم السريع مرتباتهم اكترهم ولديهم حافز عمليات ٣مليون،،وهذه الزيادةو الامكانيات المادية العالية لابد تستخدم لضرب التمرد ،وبمجرد عملنا الزيادة حركات دارفور سلمونا حتي الان اكثر من ٢٠٠٠مدربين ،حركة دبجو فقط ١٣٥٠من ضابط وجندي ،وزعناهم علي المعسكرات لنغير عقيدتهم ،وقلنا ضابط اوجندي يجئ من التمرد من المنطقتين عبر اللجان نديه نفس رتبته ومرتبه ويساهم معنا في القتال ،الانتخابات استحقاق لايربط بالحوار ،اما المد الشيعي واثره علينا كل اتفاقياتنا مع ايران مافيها ربط بين هذا وذاك ولكن برضوا نشاورهم وقبل هذا تطرقنا للموضوع

في ايران مع قائد الحرس الجمهوري وعارقين كل السودان سنة والتشيع ممنوع ونحن حاكمين بالقوة الشعب ما كله تبعنا وممكن يخشوا متطرفين ويعملوا مشاكل زي ما قتلوا شيعي في غرب السودان في خلاف افصلوا هذا الموضوضوع ٠٠ونحن عندنا مشاكل مع السعودية وهم اكتشفوا السلاح الذي ارسلناه عبر الاحمر الي اليمن الي شيعة عبد الملك الحوثي ٠ونحن لابد نعمل ميزان قوة في الجنوب ٠ورياك وتعبان وضيو مطوك جاءوا وقالوا دايرين دعم في الاستخبارات والتدريب خاصة الدبابات والمدفعية وتسلحونا ومدنا باسلحة متقدمة ٠نحن قلنا ما عندنا مانع لكن يكون في هدف مشترك ٠طبعا نحن نستفيد من طرحهم تعبان قدم اعتذار لعدمه حركات دارفور ومعركة هجليج وان الدينكا استخدموهم ليخسروا علاقتهم مع الشمال والان اكتشفوا الخطاء ٠وساعيين لحكم فيدرالي اوحكم ذاتي لكل اقليم ٠اي حكم ذاتي في اعالي النيل مفيد لينا من تامين حدودنا والنفط ٠والتجارة ٠والان الناس تدرس في كيف يكون عندهم قوة مؤهلة ومدربة ولديها استخبارات واجهزة متقدمة للامداد اللوجستي ٠ومهما حصل علاقتنا مع ايران خط احمر لولا هم لهزمت الانقاذ ٠ولترتيب حيش حركة العدل والمساواة قمنا بتعيين ضابط برتبة عميد٠الفاضل بشيرمحمد وهذه قوة كبيرة٠ونحن ماعندنا تبادل اسري مع التمرد ديل محكومين وفق قانون هم تمردوا ضد الدولة وليس في دولة اخري٠ونهاية الحرب ضد التمرد برجوعهم للتفاوض وتسريح الميليشيات واخلاء كل الاراضي السودانية ٠ومن حقنا ناجر كل من له رغبة في القتال مقابل المال ٠المتمردين اخرين من يتكلم عن الاجانب من يمولهم وقاعدين مش في دول اجنبية ٠ونحن ممكن نجيب كل الحركات الاسلامية تقاتلهم بس نقولهم ديل عملاء امريكا ٠ممكن نفتهم مع التطرف عشان يعرفوا مستواهم هذا كرت لم نستخدمه الان٠والان قواتنا تسيطر علي كل مسارح العمليات وزمام المبادرة عندنا٠ويثني علي تغيير الخير الفهيم بلجنة ابيي ٠وضرورة فرض هيبة الدولة في مناطق الاقتتال القبلي وسيادة حكم القانون ٠

❖فريق اول محمد عطا

هناك جهات تطالب بنشر تقرير عن احداث سبتمبر ٠او ارجاع السودان للبند الرابع ٠ هناك جهات استخبارتية تدفع في اتجاه ماذا نفكر احداث سبتمبر كانت

مؤامرة لعمل ربيع عربي في السودان بتخطيط وتمويل من المخابرات المصرية والسعودية والامارات لتغيير النظام لذلك واجهناه بقوة حتي لاتكرر ،ورصدنا كل المكالمات الداخلة للسودان من المخابرات السعودية والاماراتيه والمصرية ، وبعض الناس من الاحزاب، بقولوا عملوا التظاهرة ،لكن تم احضار ناس خصيصا لادارة التظاهرات ،وكنا متابعين المحادثات التلفونية وكل الوسائط وتوصلنا الي اللاعبين الحقيقيين وتم القبض عليهم واعترفوا بكل تفاصيل المؤامرات واسماء الضباط المكلفين بالاشراف علي التظاهرة والقيادة تتلقي تقرير يوميا في كل بلد ،لذلك السعوديين والاماراتيين والمصريين خايفين بعدما كشفوا كل عناصرهم في قبضة الامن ،ونحن لم نكشف حتي الان ودايرين نبتزهم بهذا الملف ،عملوا اجراءات كثيرة خوفا من دخول مجموعات ارهابية ربما ينتقم بها السودان ،وادين سوف يكشف ملفاتنا ،كله تسرع وخوف نحن لازم نستفيد اقصي فايدة من هذا الملف لن نكشف عنه وهم تكلموا مع علي كرتي نحن ممكن ندعمكم وقفوا التعامل مع ايران وجاء علي وكلمني وعلي ماعارف أي حاجة واصبحوا يرسلوا وساطة لتحسين العلاقات ،وانتوا ماتدوا الحوثيين سلاح وشيلوا منظومة الدفاع الجوي بنجيب ليكم واحدة مهما كلف ،اما موضوع التشيع الامن الديني لديه كل شخص متشيع ومرصودة كلها لكن لم تصل مرحلة الخطر وكلما حصل شئ بنادي تتصل السفارة ومرات نتصل مع مدير الامن القومي الايراني عن مخاطر الدعوة علنا ونحن عندنا حركات متطرفة ومتشددين ممكن يعملو مشكلة ،والشعب السوداني سني ويرفض التشيع وما كل السودانيين حركة اسلامية واجتماعاتنا مستمرة معاهم ،الجاب الاشكالية لاول مرة يقتل شيعي سوداني جاهربها ودخل في مشادة كلامي مع سني في ولاية غرب دارفور،وبمجرد حصل الحادث اتصل علي مستشار الامن ومسئول الحرس الثوري واتفقنا ابعاد الدعوة من علاقتنا الامنية والعسكرية وهم وافقوا،ورفعوا الكلام الي قيادتهم،كل المواطنين البهرب من مناطق التمرد يتم ايوانهم ويعملوا لهم محاضرات عبر ابناء النوبة الموالين للحكومة ويرويهم ضرر التمرد،ولابد من حماية نفسهم بتجنيد اولادهم بالدعم السريع نحن دايرين نثبت هزيمة التمرد بجنوب كردفان والنيل الازرق تم باهل المنطقة ،ولن نسمح بمرور مساعدات انسانية الا مقابل وقف شامل لاطلاق النار والدخول في ترتيبات امنية كاملة ،لن نسمح لهم بتوحيد المعارضة وكل من يجتمع مع التمرد يتم اعتقاله وفتح بلاغ له ويقدم لمحاكمه ،والصادق المهدي ولوماقدم اعتذار يكون قاعد حتي الان وابراهيم الشيخ اذا لم يقدم اعتذار مكتوب لقوات الدعم السريع لايطلق سراحه او يقول يشتغل معانا ،اما اعلان باريس وكل اجتماعات التمرد عبارة عن عمالة مدفوعة الثمن ،من منظمات ودول معادية وضغوطها مابتهمنا كتير ،وهم جاريين

اوربا الاتحاد الاوربي مؤيد الحوار الداخلي ٠ونحن ما مستعجلين لحاجة هم خايفين من تجي احداث والعالم ينساه ٠واصلا حينساهم ٠مع ظهور داعش ٠كل اوربا وامريكا لابد يتعاونوا معانا مقابل مكافحة الارهاب ٠وهنا ممكن نساوم بهم٠حاولوا توظيف قضية المسيحيين فشلت ٠ونحن توجهنا اسلامي ممكن الناس يغير عشان ٥افراد٠وتحرك داخلي مرصود والتحرك الخارجي مرصود ونحن لا نعمل تحت الضغوط ٠والعالم قاطعنا في بداية الانقاذ بما فيها كل الدول العربية ما قدروا يسقطونا ٠ونحن اخذ كلامهم ماخد جد وعملنا تحوطات امنية عالية ووضعناهم تحت الرصد والمتابعة تشمل كل الوسائط التي يستخدموها وعندنا ناس حيقابلوهم في اديس ويصوروا كل جلساتهم ٠حتي يتمكن خبراء لغة الجسد من تحليل شخصياتهم ٠اثناء الاجتماعات وبعدها لتحديد انطباعاتهم وهم مابعرفوا اي حاجة ٠وقلنا اي اغاثةلابد تكون تحت اشرافنا ٠و باتفاق سياسي ٠متكامل ٠هم مستهدفين اجهزة الامن ما عارفينها بتعمل كيف وحتي ناس الجاءوا ايام نيفاشا مشوا دون ان يعرفوا كيف نفكر ٠والمتمردين بطرح حل شامل وكله دايرين نفاوضهم كحركات حملة سلاح والحكومة لشراكة سياسية ووجودقواتهم في قوات مشتركة وندي المنطقتين ودارفور حكم ذاتي ٠وباقي الفئات للاحزاب هم ماعندهم وجود الا في النت٠في دارفور ومحصور في المنطقتين٠وقايلين نحن ضعاف ٠والشيوعيين بوديهم معلومات مغلوطة ٠مره النظام بنهار ومرة الناس ديل طرحوا الحوار لان بينهم خلافات٠لو المؤتمر الوطني مافي عندنا قوات نظامية تستطيع سد الفراغ ٠وعند حضوري للسيد رئيس الجمهورية لمن اجتمع مع كل قيادة الجهاز يوم الإثنين ٤اغسطس ونورناه كيف بعمل الجهاز وادبناه رؤيتنا ٠قلنا الحوار داخلي والانتخابات تقام وعمليات الصيف تمشي ونزيد التجنيد للدعم السريع وارسال قوة من الدعم السريع لحراسة عمليات التعدين ومنع تسرب بيع الذهب خارج بنك السودان وضبط الحدود من ابوحمد الي ولاية البحر الاحمر وحتي وادي حلفا واقامة اربعة معسكرات للتدريب بعيدا عن المدن ٠تحت اشراف العميد امن ٠عبد السيدعمر٠٠واي صحفي او سياسي يتكلم في الدعم السريع اويتعرض لها يتم فتح بلاغ له باعتباره متخابر واثني الرئيس علي حركة بخيت دبجو وقال يدربوا ناسه ٠كما شكر قيادات ابناء جبال النوبة لوطنيتهم واخلاصهم ورغبتهم الاكيدة في محاربة التمرد وتشجيعهم الشباب للانضمام لقوات الدعم السريع لتخليص الجبال من الجبهة الثورية ٠وقدمنا له مقترح بتقسيم ولاية جنوب كردفان الي ولايتين ٠شريطة تحرير كامل ويتم من خلال مساهمة ابناء شرق كردفان في التحرير ٠وتجنيد كل الشباب القادرين في الدعم السريع خاصة بان المرتبات اصبحت عالية وفعلا لمن طرحنا الامر علي قيادات من شرق كردفان رحبوا بالفكرة ٠وبهذا التصرف ممكن

١٧
سري للغاية

نقضي علي الفتنة ·التي يريدون تدويل قضية المنطقة ·ونحن شغالين في متابعة قيادات التمرد ومحلوا يمشوا نحن وريناه وعندنا مجموعات ضخمة نتلاقي معاهم قاعدين عبر واجهات واخرين عندهم لجوء سياسي ومعتمدين لدي الدول ·ودائما الميليشيات اختراقها ساهل ·ونقول ان علاقتنا مع ايران استراتيجية وفوق كل المصالح واي من يحاول تخريبها لايفهم لعبة التوازنات وتنقصه المعلومات ·كل الخطط موجود لشق الجبهة والحركة والتخلص من مشروع السودان الجديد ·اتفقنا مع تعبان نبي لهم جهاز استخبارات في كل مكاتبهم والميدان تحت اشراف ونحلل ونعالج لهم المعلومات ومكتبهم علي مع الجهاز ووفرنا لهم الحماية كاملة منذ تعليمات الرئيس من يوم زيارة د رياك للخرطوم

❖فريق اول عبد الرحيم محمد حسين

ابداء من علاقاتنا مع ايران علاقة استراتيجية وابدية لا يمكن التفريط ·كل التطور في الصناعة العسكرية من ايران وفتحوا لنا ابواب مخازن السلاح·لمن العرب وقفوا ضدنا وكنا بنقاتل تمرد منتشر في الاتجاهات بما فيهم التجمع الديمقراطي قدموا الخبراء ودربوا كوادر في العمل الامني والاستخبارات وتصنيع السلاح والتكنولوجيا الحديثة·ومازالو موجردين كتيبة من الحرس الثوري وخبراء وبنوا في قواعد تنصت وتجسس لحمايتنا ومنظومة دفاع جوي ·وبنوا قاعدة كنانة وجبل اولياء الجوية قبلي شهر جابوا صوايخ وراجمات كاتيوشا عبرطيران مدني وانزلناه بكنانة وبعنا منها لقطر لمساعدة ثوار ليبيا بعدما تعرضوا لهجمات من الطيران المصري والامارات مما جعلهم ينتصروا·وان بقول العلاقة العسكرية تفصل من الجانب الديني ·واما تحركات التمرد مع الصادق المهدي ·ماعندنا مانخافه بعدما اتهموني بالجنائية تاني مافي حاجة اظن ·هدفهم تقسيم السودان ·وبيديروا في مؤامرة خليهم يمشوا اشوفوا محل غيرنا السودان ينفذوها فيه·عاين بيان التمردين هو المراد تنفيذه بدعم من فرنسا ·والمبعوث الامريكي وهذاتدخل في شئوننا الدخلية واصلا المبعوث الامريكي ما يدخل السودان ·والصادق المهدي تابعوا رحلاته سوف يحاسب عليها والصادق مابصبر لمن يشوف الزمن فات ومافي حاجة ودفق مويته علي الرهاب

•ويسمع بنهاية التمرد•لن نسمح بنقل الحوار ••وجاءني امبيكي وتكلمنا عن رفض قطاع الشمال التفاوض حول المنطقتين •وامبيكي قال لايمكن خلط مشلكة المنطقتين بباقي السودان هم لو دايرين يناقشوا قضية السودان مكانه الحوار الذي دعا له الرئيس •ولايمكن نقل الملف الي مجلس الامن ويظل في الاتحاد الافريقي وان للسودان جيش السودان •ومشكلة المنطقتين مرتبطة بتنفيذ اتفاق التعاون المشترك مع جوبا لتحديد الخط الصفري واليات رقابة للدعم والايواء •وفتح نقاط العبور للتجارة والمنطقة العازلة •اذا الجنوب يسوف يقبلوالتفاوض حول المنطقتين •واتفقت معه يمشي الجنوب ويقابل سلفاكير ويحدد اجتماع للجنة الامنية والسياسية تحت رعاية الالية وتشاورنا بضرورة ضم كل الحركات للحوار وفق رؤية الحكومة وداخل السودان وقلنا له ننق مع محمد بن شماس يجمع عليك حركات دارفور في اديس ابابا وتكون دعوة للتشاور وليس للتفاوض •ومن اراد التفاوض يمشي الدوحة •وهو بجمعهم ويشوف رايهم واذا رفضوا الحوار موقف السودان بكون سليم •وبنستطيع ندافع عنه امام المجتمع الدولي •والسودان ما قصر وهو سوف يشارك في الحوار الداخلي كمراقب •ولاقيت علي الزعتري موقفه معنا ولاقيت صلاح حليمة موقفه مساند لنا •وهايلي منكريوس موقفه معنا •ونحن انجزنا عمل كبير ومحمد بن سماش لاقيته وقال ناس البعثة دايرين يعملوا تحقيق في تقارير البعثة وانتوا اعملوا معالجات في الواقع علي الارض •ومطابقة تقاريرنا مع اداءكم •وقال دارفور ماعندها مشلكة والحركات الباقية تنضم لوثيقة الدوحة وارادوا الانضمام للحوار الداخلي يجي •ونخلي الدعوة عبر الاتحاد الافريقي •وبشهادتنا السودان ماقصر الحركات مصرة علي الحرب ومافي حاجة بتلم دارفور مع المنطقتين •مشكلتين مختلفتين •وكل له منبر وعلي كل الحركات تعمل ترتيبات امنية وهو بشهادة بان العدل والمساواة جناح دبجو رتبوا ١٣٥٠ مقاتل للجيش السودان والتحريروالعدالة التجاني سيسي عندهم ٢٥٠٠مقاتل سوف يتم دمجهم وبعدها ممكن نجمع السلاح من المواطنين ومنع تواجد سلاح داخل معسكرات النازحين •وشغالين في عودة المواطنين الي قراهم وعودة اللاجئين من تشاد وان مؤتمر ام جرس داعم للسلام •

لابد ان نواصل العمليات ونضرب تجمعات التمرد بالطيران •باستمرار •وصيفنا القادم محتاجين لكل مقاتل من أي دولة يقاتل تحت قيادتنا •وابناء المناطق كدليل للحرب •بيان الجبهة يوم ٢٠ واعلان باريس هذه نواياهم من ١٩٨٩ما فيها جديد وفشلت •ولو نيفاشا كان كل التمرد

انتهي ·الداير حوار يضع السلاح لكن ديل امانيهم كبيرة وبعملوا علي تفكيك القوات المسلحة وجهاز الامن لوقفهم سندا منيع ضد مطامع الخونة واسيادهم ·وكل اجتماعاتهم بياناتها طلابية ونفس الكلام بتوله المنظمات المعادية هم بكرروا فقط بقينا فاهمين بقول شنو والصادق المهدي حنضيق عليه حتي ينسحب منهم ·وكل الهيلمانه من افكار الحركة الشعبية وحركات دار ماعندها فهم تقول ممكن يقودوا الناس الواحد بفرتق نفسه ·المهم نحن هدفنا نفرتق الناس ديل ونحجم دورهم اما تحركات مابتهمنا كتير لو كل العالم وقف معاهم ·خليهم يجو الميدان ·والسودان يحلموا به ·زوبعة وتنتهي ·ومهما كان الخواجات ما بدعموك لحد الكفاية اويقاتلوا معاهم اكبر كذابين الخواجات وتهمهم مصالحهم ·وعملنا شغل كبير مع الاثيوبيين في تامين الحدود ·والمصريين تنازلوا كتير ومنعوا نشاط المعارضة وهذا ليس كفاية لابد يطردوا كل الحركات ويقفلوا مكاتبهم ·حتي الان لم نتعامل معهم بالمثل ووريت وزيرنفاعهم وهم عارفين ممكن نعمل شنو مع قطر وليبيا ·لان الحركات الاسلامية استلمت زمام المبادرة ·الجنوب لابد ان يجتمعوا معنا ويرونا رايهم في تنفيذ الخط الصفري والمنطقة العازلة ولذا رفضوا ممكن نتعامل معهم·بطريقة تتناسب وتهديدهم ·والتقينا رياك وضيووتعبان وهم متاسفين لفصل الجنوب ورجعنا له منزله ·وطلب منا مساعدته وعنده نقص في الاستخبارات وادارة المعارك ونقص في قيادة الدبابات ·ولابد لنا الاستفادة من الكروت الكثيرة ضد الجنوب ونديهم درس لن ينسوه ·والقوات المسلحة والامن في استعداد من الان لحماية الانتخابات وتعليماتنا اي مظاهرة اوتجمع او تخريب الضرب بالنار لان تحريب الانتخابات واستهداف مؤسسات الدولة وردفي تصريحاتهم وبياناتهم الداعية لاسقاط بالحرب او التظاهر كل جريمة وتمرد ضد الدولة ومحاولة لتقويض النظام واثارة الفوضي وعندنا تجربة سبتمبر لمن ضربوا بالنار وقفوا أي تصريح او تحرك او كلام عن العمليات العسكرية الجارية والجاية جريمة ويجب التعامل معها بالحزم الفوري ·والحوار يجب ان يؤدي لقيام الانتخابات وعدم مناقشة قانون الامن والقوات المسلحة ··والان الشباب اصبحوا يسجلوا في القوات المسلحة وقوات الدعم السريع بعد زيادة المرتبات بنسبة فاقت تصور الجنود والضباط ·جندي مرتبه ٢مليون وضابط ملازم ٤مليون غير البدلات والخدمات الاجتماعية ·مرتب مقدم اكبر من مرتب وزير ·وتعليمات كل المواطنين الفارين في العمليات يتعاملو معهم كويس ويرغب اولادهم في·الانضمام للدعم السريع ·الوضع الاقتصادي بتعالج لان لنا مقومات

٢٠

سري للغاية

الصناعة والزراعة والبنة التحتية للبترول ومافي زول جيعان ايام وتعدي ٠والصناعات العسكرية بتمول كل عملنا القوات المسلحة ٠والشركات والاستثمارات بالخارج للاغراض الامنية حوالي ٤٠شركة وشركات الحركة الاسلامية والامن الشعبي والامن العام راسمالها يفوق ٢مليار وتظل تدار مدنيا وفكرنا فيها منذ الايام الاولي للثورة لان الاستهداف كتير لازم يكون عندنا واجهات ٠لان المحافظة علي قطاع الامن اولية ويحمي مؤسساتنا ٠ومايتاثرعملنا بالوضع الاقتصادي ٠٠وفي نهاية كلامي الاجهزة الامنية والاستخبارات لازم تشق الجبهة والحركة الشعبية في ان واحد وازرعوا اكبر عدد من العملاء واشتروا القيادات والكوادر وسلطوا الاعلام عليهم وارصدهم تحركاتهم وشوهوا صورتهم بالداخل وخوف المجتمع منهم واعزلوهم من قواعدهم وحرضوا عليهم اهلهم ٠ومرروا معلومات استخباراتية وامنية للدول التي يتعاملوا معها عبر اجهزة امنية صديقة تحاصرهم امنيا واستخباراتيا دولي واقليمي لافشال خططهم ٠وامريكا الان في ورطة مع داعش والحركات الجهادية التي تكونت جديد وتتحرك بسهولة خارج دائرة الرصد ٠هنالك ٢٠الف جهاد و١٥ تنظيم جديد منتشرين من المغرب العربي مرورا بمصر وسيناء وفلسطين ولنبان وسوريا والعراق وكل الخليج وانتشار واسع في افريقيا واوربا ومافي زول عنده قاعدة بيانات زي ماعندنا ٠ندي الامريكان حسب الطلب مقابل ملف الحركات الايام حبلي بالمفاجات٠

❖بروفيسر ابراهيم غندور

اؤمن علي كل كلامكم اولا استعدادنا للانتخابات ماشة والمؤتمرات شغالة ومؤتمرنا في مواعيد لكن اختيار اعلان مرشح المؤتمر الوطني لرئاسة الجمهورية بنأخره قريب مواعيد الانتخابات لنفاجئ به الاواسط السياسية ٍدايرين اجهزتنا الامنية تعمل داخل الاحزاب كلها معارضة وموالية لتحديد راي القيادات حول

الانتخابات ، اتفقنا مع المؤتمر الشعبي وادينا تعويضات عن الخسائر الفردية والحزبية ومال تحبب للرافضين للتقارب ، اتفقنا علي ثلاثة مليار تسدد علي ثلاثة مراحل ، مع دخول الحوار والثاني عند بداية التقديم للانتخابات والثالث مع الدعاية الانتخابية ، عملنا كده عشان ضمن دخول الشعبي كله للانتخابات ، لان تاييد الترابي فيه بعد لتاييد كل الحركات الاسلامية في التنظيم العالمي ولو أي مهدد امني ممكن يجاهد معنا ، وبرضو نكون جمعنا الاسلاميين في برنامج مشترك فيه منفعة متبادلة وما بالضرورة الوحدة في تنظيم واحد المهم وحدة الهدف ضد التيارات العلمانية واستهداف الاخوان في كل الوطن العربي والمؤمرات التي تحاك ضدهم ، وجماعة الميرغني نص الحزب معانا لكن تركيزنا علي حسن هلال واحمد سعد وعمر الشريف ديل نقوي صفهم ونملكهم معلومات عن استهدافهم داخل الحزب ، وحزب غازي نصه حقنا ، ودايرين اجهزتنا تحتفظ بالمعارضة عشان يكون في صوت ناقد ، ونلوح به للمجتمع الدولي ، وعلاقتنا مع اوربا كويسة وفشلت كل محاولات التمرد عشان يعترفوا بالجبهة الثورية فشلت ، بقابلوا برلمانات وليس حكومات والقرار في الحكومات ، الحوار دايرينه يمشي ببطء للمناورة اذا لقينا فيه فايدة ممكن نسرع وتيرته واذا فيه ضرر يمشي والانتخابات تمشي ، بس هدفنا ندخل الانتخابات بشرعية الحوار ، واما الحركات مابتجي سقفها للحوار عالي وفهمهم باننا ضعفاء لذلك طرحناه ، وهم فكروا هذه فرصة لتفكيك الانقاذ ، ومحاكمة قادتها ، واخطاءوا من اراد الحوار يجي بدون شروط ، والصادق مشي يتقوي بهم وهم برضو يتقوي به بعدما فشلوا في كل مخططاتهم ، وبيان التمرد واعلان باريس كلهم واحد ، فيه عبارات مجاملة للصادق ومادايرينه يتحرق مع حزبه وشرك للمؤتمر ويقبل بالاتفاق والصادق اتصل بمصطفي وكلمه بالاتفاق ومصطفي قال له لم اقرأ الاعلان وبعد نشوف راي الحزب وبعد داك مصطفي جاني ومشينا للرئيس في البيت ولقينا معاه عبد الرحيم وتكلمنا كلنا في الاعلان والرئيس قال ارفضوه ، وامشوا للحركة الاسلامية تاخدوا رايها ومن ثم اعرضوا للمكتب القيادي عشان الراي الرسمي طالع من الحزب ، ونفس الليل مشينا مع مصطفي للزبير احمد امين الحركة الاسلامية ولقينا معه د كمال عبيد ودالفاتح عزالدين ، وسالنا طوالي جايين بخصوص الاعلان بتاع الصادق مع التمرد قلنا ابوة د ، كمال شاور الناس وقررنا رفضه جملة وتفصيلا واعتبرناه مؤمرة تحاك ضدنا ، يجب تجريم كل من حضره اوشارك فيه وتسليط الاعلام في حملة لابطال مفعوله وتخويف الناس من الانضمام لهذا الاعلان ، وان الاعلان رعته جهات اجنبية تسعي لتدمير الاسلام والمسلمين ، ، وانه يحمل افكار الحركة الشعبية ، وقلنا امبيكي ومحمد ممكن تجمعوا المتمرد للتشاور للحوار الدخلي وهم متفقين معنا ، اما موضوع اغاثة اومواطنين ، اغاثة ووفق نا شامل للابد وفق

حزمة اتفاق يؤدي لتسريح كل المليشيات،واللجنة السياسية لجبال النوبة والنيل الازرق برئاسة محمد مركزوا شغالين مع الولاية لتوطين المواطنين وايجاد فرص عمل لابنائهم والمتاح قوات الدعم السريع لان المرتبات عالية بعد الزيادات ورغبة القيادات في طرد التمرد من مناطقهم .والشيئ المهم نحن قررنا لازم نشق الجبهة الثورية ونشق الحركة الشعبية عشان نرتاح من هذه المتاعب ولابد نعمل في هذا الاتجاه. وبالنسبة اداء الخير الفهيم ضعيف .ويهمنا علاقة دون خيانة مع الجنوب .لكن سلفاكير كل مرة بغشنا ونحن صابر رغم معرفتنا بكل كبيرة وصغيرة بالجنوب .وكنا دايرينه يوفق دعمه ويسلمنا الحدود بقوا يتعللو .بقي ماعندنا حل غير .نحرر ارضنا من التمرد.

علاقة من ايران هي من انجح العلاقات في تاريخ السودان .وادارتها تحتاج لحكمة والمام بتفاصيلها ولو جينا نعدد مساعداتها لاتقدر بثمن .والمشتركات كثيرة بينا .الناس ماينظروا للتشيع فقط .وهنالك مدسوسين كتار ديرن العلاقة تبوظ ونخسر ايران .وهي صديقة لكل الحركات الاسلامية في العالم .ونتحتاج لتشاورنا بينا ومن ثم شركائنا الايران اخطار بكل التفاصيل .والاقتصاد سوف يتحسن بعدما وضعت برامج لتطويره وهذه مسالة عارضة ..وتزول في الفترة القادمة بزياد ة الانتاج الزراعي والحيواني .وبرضو نفهم ماذا يريد العرب والمصريين مع الاخذ. في الاعتبارات نواياهم تجاهنا وكرههم لحكم الاخوان .بنحتاج في هذه الفترة .بمجرد انت الحرب صرفها يحول لدعم الاقتصاد.ايقاف الحرب الاهلية بولايات دارفور وكردفان برضو مؤثرة في الاقتصاد خاصة المواشي .

❖ فريق اول ركن بكري حسن صالح

كل القوي السياسية والمجتمع الاقليمي والدولي يتابعو باهتمام خطي الرئيس البشيرفي تغيير السياسة ، فقد لا ينفصل عن ذلك، تغيير آخر في نظام العمل في الحكومة، وقد يبدو هذا مسألة مهنية، إلا أنه يعد أيضا جزءا من مفهوم التغيير الجاري في السودان.

الرئيس البشيرأصدر توجيهاته باجراء تغيير شامل، في تركيبة الحزب والدولة، وزيادة صلاحياتها في رسم استراتيجية البلاد، ليستوعب مجالا واسعا من القضايا الدولية والاقليمية والداخلية.

ان هذه التغييرات قال: ان العالم الذي نعيش فيه قد تغير خلال العقد الحالي، بصورة مثيرة للغاية. وهو ما استلزم إعادة تشكيل الحرب والدولة، بحيث يختلف عما كان عليه في التسعينات، ، وهو أول تغيير من نوعه منذ إنشقاق الحزب ٠القصر والمنشية لأول مرة بعد انفصال الجنوب، وبعد أن أصبحت بعض المعاييروالسياسات التي كانت تتخذ للتصدي لأوضاع معينة٠مثل التمرد والاقتصاد وتطور الاحزاب وعلاقتنا الاستراتيجية وعلاقة الجوار وعلاقات المصالح التجارية والعلاقات الايدلوجية ، غير مفيدة. وسوف نتعامل حسب المستجدات الجديدة، مع واقعنا، بعد اتساع نطاق عمل مؤسساتنا السياسية والامنية والعسكرية، التي تجاوزت حدود السياسة الداخلية وصعدت الي السياسية الخارجية ٠لمتابعة تهديدات التمرد والدول المعادية وتحركات الاجندة .

.

: نحن في اجتماعاتنا ما بالضرورة نتفق علي كل شيء، لكننا نتناقش ونبدي وجهات النظر ونوصي، وأقوم بإخطار الرئيس بما تم في المناقشات والتوصيات، مع ضمان أن يعرف الرأي الأقل والراي الغالب في الاجتماع. وضمن عملية التحديث والتطوير ورفع المرتبات٠ لتغييروتجديد كل الخطط والبرامج الكان معمول بها في الماضية وما ادت الي انتاج في مجال ، نمط الاقتصاد ، والقوات المسلحة واجهزة الاستخبارات الأمن والشرطة والاجهزة السرية العاملة ، وهزيمة وطرد التمرد من الاراضي السودنية ومكافحة التمرد علي الدولة والاقتتال القبلي والجنوح نحو القبيلة والمنطقة ٠والجريمة المنظمة والجرائم الالكترونية

اكبرتهديدامني واجتماعي٠ جايين من الجنوب لسببين اولا الوجود الاجنبي الذي يمثل تهديد مباشر لينا }يوغندا وامريكا وفرنسا واسرائيل }[الحركات المسلحة ٠وثانيا [النازحين والاجئين جراء الحرب ٠امراض وجرايم اجتماعية][الاجئو السودان بمعسكرات المنطقتين تاخر في التعليم ونقل امراض وتنصير]

اصلا الجنوب لو الجوار ما دايرين علاقتو ٠الواقع بفرض نتكيف مع المستجدات ٠د٠رياك اجتماع معي يوم ١١اغسطس وكان مما مصدق الحصل في الجنوب وان الدينكا ابادوا اهله ٠وهذا كله كوم طيب المساعدة بكل اشكالها كمان نحن عندنا حسابات ٠اذا رئينا ممكن تحقق نكون اليات مهمتها تنجح زول توصله الي دائرة الفعل ٠وعندنا مرحلي بجي لحظة ردة الفعل وكروت ضغط للخصوم ٠الرئيس وافق بستضيف مكتب اتصال له ٠وسلفاكير مستضيف توربورا والفرقتين ٠

المفاوضات والحوار واعلان باريس وبيانهم كلهم يجب ان يودونا الانتخابات ٠يعني الداير ينضم لمسيرة الانقاذ ويتعايش معنا مرحب ٠لكن لن نعمل تحت الضغوط مافي زول مدينا حاجة ٠امريكا كذبت علينا في فصل الجنوب ٠ورفعوا ولاعقوبات ٠ومبعوث ماجي ٠واما الصادق المهدي اولاده معنا وكلما الزمن طال الصادق بتملل ٠وخليه يزور وتكمل الزيارات وماذا بعد ٠امبيكي جلسنا معاي ولاقي الرئيس واتفقنا معاه يجب الحركات للحوار بالداخل وبرضو بن سماش ٠يقنع ناسه ٠لكن الشي الجاري حسب اعلاناتهم مابجو ٠ونحن دايرين سلام من الداخل ٠ونحن علي مع ادريس دبي وقطر ولجنة ودعة ٠لكن عليكم ترجعوا صديق اسماعيل لملف الحركات بحزب دايرة شغل ٠ومانهمل ملف الجنوب واتفاق التعاون ولابد من عمل اللجنة الامنة ٠نشتغل لدعم ابناء جنوب كردفان التي اصبح قطاع الشمال للتوثيق السياسي ومخزن للحركات المسلحة ٠علاقتنا استراتيجية مما تتغير والداير يساعدنا يجيب دون شروط ونحن احوج للعلاقة ومرة جاء قابلني عبد الحافظ ابراهيم في المملكة وقال وزير الخارجية السعودي قال له ممكن ندعم السودان لكن علاقتكم مع ايران قيادتك ما حيقبلوا وكلام كتير عرفت ربما اخترقوه وريت محمدعطا يتابعوه الان ما عندنا كلام خلوه الانتخابات تعدي وبعداك ناس كتار دايرين تغيير ٠اهم اجمعوا المعلومات وراغبوا ناس دايرين يسقطوا النظام كيف نثق فيهم ٠ونشاط الشيعة نحن عارفينه وبنوقفه دون العلاقة تتاثر وبنفهم الناس ديل ممكن تحصل فتنة ونفقد كل العلاقة والسودان استرايجي لايران ٠رابطنه بالشيعة بلبنان واليمن بس ديروا هذا الازمة لحين انجلاء الحوار والانتخابات وانتهاء الحرب والقضاء علي التمرد ٠لاننا مادايرين حلول خارجية كل اتفاق داخل السودان٠والاخوان المسلمين وزعوه مايقعدوا مع بعض ومناطق اخرطوم وبعيد من المنشات الحيوية وراقبوه لانهم فيهم اختراق من دول كثيرة وعندك داتا كاملة ياعطا عنهم وجمعناها منذ ايام اداراتي للجهاز ٠لكن فيهم الكويسين ٠اهم تراقبوهم للحماية والمعرفة وادوهم شرائح مبرمجة مع جهرالتنصت عشان تعرفوهم اكتر هم ضيوف وتركيا بدفع ليهم

التوصيات

- إنشاء ثلاثة لجان امنية سياسية، مهمتها التحليل، والتنسيق، واستعراض القضايا المطروحة من قبل الحركات المسلحة، والنظر فيها، وبحيث يتم من خلالها، تجهيز خيارات تفكيك المجموعات المتمردة لتكون في متناول صانع القرار.

حزمة اتفاق يؤدي لتسريح كل المليشيات،واللجنة السياسية لجبال النوبة والنيل الازرق برئاسة محمد مركزوا شغالين مع الولاية لتوطين المواطنين وايجاد فرص عمل لابنائهم والمتاح قوات الدعم السريع لان المرتبات عالية بعد الزيادات ورغبة القيادات في طرد التمرد من مناطقهم ،والشئ المهم نحن قررنا لازم نشق الجبهة الثورية ونشق الحركة الشعبية عشان نرتاح من هذه المتاعب ولابد نعمل في هذا الاتجاه، وبالنسبة اداء الخير الفهيم ضعيف ،وبهمنا علاقة دون خيانة مع الجنوب ،لكن سلفاكير كل مرة بغشنا ونحن صابر رغم معرفتنا بكل كبيرة وصغيرة بالجنوب ،وكنا دايرينه يوقف دعمه ويسلمنا الحدود بقوا يتعللوا ،بقي ماعندنا حل غير ،نحرر ارضنا من التمرد،

علاقة من ايران هي من انجح العلاقات في تاريخ السودان ،وادارتها تحتاج لحكمة والمام بتفاصيلها ولو جينا نعدد مساعداتها لاتقدر بثمن ،والمشتركات كتيرة بينا ،الناس ماينظروا للتشيع فقط ،وهنالك مدسوسين كتار ديرن العلاقة تبوظ ونخسر ايران ،وهي صديقة لكل الحركات الاسلامية في العالم ،ونتحتاج لتشاورنا بينا ومن ثم شركائنا الايران اخطار بكل التفاصيل ،والاقتصاد سوف يتحسن بعدما وضعت برامج لتطويره وهذه مسالة عارضة ،،وتزول في الفترة القادمة بزيادة الانتاج الزراعي والحيواني ،وبرضو نفهم ماذا يريد العرب والمصريين مع الاخذ، في الاعتبارات نواياهم تجاهنا وكرههم لحكم الاخوان ،بنحتاج في هذه الفترة ،بمجرد انت الحرب صرفها يحول لدعم الاقتصاد،ايقاف الحرب الاهلية بولايات دارفور وكردفان برضو مؤثرة في الاقتصاد خاصة المواشي ،

❖ فريق اول ركن بكري حسن صالح

كل القوي السياسية والمجتمع الاقليمي والدولي يتابعو باهتمام خطي الرئيس البشيرفي تغيير السياسة ، فقد لا ينفصل عن ذلك، تغيير آخر في نظام العمل في الحكومة، وقد يبدو هذا مسألة مهنية، إلا أنه يعد أيضا جزءا من مفهوم التغيير الجاري في السودان.

الرئيس البشيرأصدر توجيهاته باجراء تغيير شامل، في تركيبة الحزب والدولة، وزيادة صلاحياتها في رسم استراتيجية البلاد، ليستوعب مجالا واسعا من القضايا الدولية والاقليمية والداخلية.

- اعتبار مشروع السودان الجديد يمثل تهديد لوحدة واستقرار السودان
- ممارسة ضغوط وتقديم اغراءت لابناء الصادق الضغط علي والدهم بضرورة الحضور الي السودان
- زيادة القوات النظامية كافة وترغيب الشباب للانضمام الدعم السريع
- تعامل قوات الشرطة من الاحتياطي المركزي بمناطق العمليات بنفس امتيازات قوات الدعم السريع والقوات المسلحة،
- اعفاء الخير الفهيم فورا وتعيين نوخلفية [illegible] لابيبي
- رفض أي حلول خارجية

لم يُبقِ العارَ مُزعَةَ لَحمٍ فِي وُجُوهِنَا!

ما الذي جرى لنا.. ما الذي أصابنا.. بل ماذا دهانا.. هل وصلت بنا اللامُبالاة إلى هذه الدرجة التي تدعو للرثاء؟! هل هو انكسارٌ ينعى إنسانيَّتنا، أم خنوع دخل في قاموس الأمَّة التي طالما افتخرت بقِيَم الشجاعة والبسالة والشهامة؟! هل فعلاً أعاد الأبالسة صياغتنا بمثلما نطقوا وخططوا ونفذوا كالنازيين؟! لماذا صارت الدهشة ردَّ فعلِنا الوحيد أمام مصائبنا التي تكاثرت وصارت كالموج يدفع بعضه بعضاً.. ما أن تتلاشى واحدة حتى نعود لممارسة ذات الدهشة البلهاء مع موجة أخرى؟! ما الذي جعل العُصبة الحاكمة تستمرئ فينا أفعال السُّوء بكُلِّ أشكالها وموبقاتها، حتى لم تُبقِ لنا مُزعة لحم في وجوهنا نقابل بها وجه هذا الوطن الرؤوم؟! كيف لا ندرك بعد أن تكسَّرت النِصال على النصال، أن ما تقوم به العُصبة من جرائم وخطايا هو عملٌ مُمنهج القصد منه تدمير السُّودان بما فيه ومن فيه؟! وإذا سأل سائل عن الغرض، ستجيبه عِبَر التاريخ التي لا يتعظ بها الغافلون، وستقول إن الأنبياء الكذبة استنسخوا تجارب الأمويين والعبَّاسيين والتتار، وأن الذين اندهشوا لممارسات وأفعال داعش في بلاد الشام والرّافدين، تناسوا سابقتها في بلاد السُّودان. لم يجتهد نافع علي نافع كثيراً، ولم يتطلب الأمر منه شيئاً سوى تحضير روح أبي العباس عبدالله بن محمّد، أوَّل الخلفاء العباسيين، الذي اعتلى المنبر يوم توليه وخطب في الناس خُطبته الدمويَّة، وختمها بقوله: «**وأعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلّمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام**»، وعندما يقول علي عُثمان طه يوم الخميس الماضي في نادي الشرطة، بعد حصاد رُبع قرن في دولة المشروع الحضاري: «**إن إقامة الدولة الإسلامية لا يعني نهاية الجوع والوصول للرفاة**» هل يظنن أحد أنه نقص حرفا مِمَّا نطق به يزيد بن معاوية، يوم جاءته الخلافة تجرجر أذيالها؟! إننا يا سادتي أشبه بمن دخل دهليزاً وأغلق الباب على نفسه ووضع المفتاح في جيبه في انتظار أن يُفتح له الباب من الخارج!

(٢)

نعيد قراءة الحدث للذين قرأوا ولم يبالوا، أو الذين قرأوا وهُم لاهون، أو حتى الذين قرأوا وتوسَّدوا أحزانهم وهُم غير ملومين. خبرٌ طاف الدُّنيا في لمح البصر لأنه يُعدُّ بكل المقاييس من الأخبار التي تزلزل الضمير الإنساني، لأنه

عرف ويلاتها وذاق مرارتها وأدرك مالآتها، حدث ذلك بعد أن تواترت أنباء باغتصاب نحو ٢٠٠ إمرأة، بينهن متزوّجات وبنات يُفّع وأطفالٌ قُصَّر في قرية "تابت". وكالعهد بنا، أخرج كل حزبٍ وتنظيم ما في كنانته من بيانات الشجْب والاستنكار، كأننا في مباراة لتأكيد الذات الوطنية. حدثٌ بالقطع لم تشهد الدولة السودانيّة له مثيلاً إلا في ظلِّ العُصبة نفسها التي كرَّرت ما فعلته في مدرسة "طويلة" الثانوية بنات العام ٢٠٠٤، وما ظلَّ مستمراً بين الفينة والأخرى. وقد أعاد للأذهان أيضاً ما فعله التتار ببغداد بعد استباحتها، وما أقدَم عليه الصِرب في البُوسنة بعد تواطؤ القوّات الأمميّة، وما فعله الهوتو بالتوتسي في رُواندا على غفلة من المجتمع الدَّولي. فنحن في دولة الأبالسة بتنا لا نبحث على الأمثال من كثرة ما تناوبت علينا البلايا ونحن صامتون. وطالما الشيء بالشيء يُذكر، خرج بالأمس مئات الآلاف من الهنود للاقتصاص لبنت لقت حتفها بعد أن اغتصبها ستة من البلطجيّة، ولم يعُد المتظاهرون لمنازلهم إلاّ بعد أن أخذت العدالة مجراها ومرساها. وتلك قصّة أعادت لنا حمية المعتصم بالله "أبو اسحق محمد بن هارون الرشيد" التي اشتعلت، فجيّش جيوشه واتجه صوب عموريّة بعد أن استغاثت به إمرأة من بني هاشم لطمها رجُلٌ من الروم، أي أنه لم يغتصبها كما هو حال نسائنا وفتياتنا، اللائي بحّت أصواتهن وهُن يستغثن بمعتصمٍ خَرُسَ لسانه، واستغشى ثيابه حتى لا يسمع أنينهن ولا يرى خيبته في وجوههن!

(٣)

ما الذي حدث؟! تقول الروايات التي ثبتت من كثرة تداولها، بن قوّة عسكريّة أعادت لنا سيرة "حملة الدفتردار" الانتقاميّة، دخلت قرية "تابت" مساء يوم ٢٠١٤/١٠/٣١ بذريعة البحث عن جُندي مفقود، وعلى مدى تسع ساعات قضتها، عاثت في القرية فساداً، ثمّ انسحبت فجر اليوم التالي، مُخلِّفة وراءها الضحايا المُغتصبات وأحزانهن والعار الذي سارت به الرّكبان. وبعد يومين، يعود قائد القوّة العسكريّة، الرّائد سعد عبدالكريم ليُقدِّم اعتذاراً، كأنما الذي حدث كان نُزهة للترويح عن النفس. هُنيْهة، وطرق الموضوع أبواب قوّات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة والاتحاد الأفريقي الـ"يوناميد" فتحرّكت قوّة منها حاولت الوصول للقرية، إلاّ أن السُلطات العسكريّة منعتها من مباشرة مهمّتها، فعادت لموقعها. وكالعهد بها، لجأت لوسيلة العاجز، وأصدرت بياناً وضّحت فيه المنع وملابساته. لكن خبراً كهذا لا يمكن أن يظلّ رهين المحبسين، الجُدران والصدور. فعلى عكس ما عملت سُلطة الدفتردار بُغية محو آثار العُدوان، انتشر الخبر وسرى في أركان الدُنيا الأربعة، فالتقطته بعض الدوائر الرسميّة ومنظّمات المجتمع المدني ووسائل الإعلام التي تقف بالمرصاد لنظام جُبل على ممرسات السُوء. وفي نفس الوقت كان الأنبياء الكذبة قد شرعوا في تفعيل آلياتهم المعروفة في الفهلوة والتجديل. وفي يوم ٢٠١٤/١١/٩، أي بعد نحو تسعة أيام من الواقعة، اتفقوا مع مجموعة أخرى من قوّات الـ"يوناميد" تحت غطاء السماح لها بتقصي الحقائق، اي حتى يُقال إنهم من الذين يسمعون القول ويتّبعون احسنه!

(٤)

دخلت بعثة الـ"يوناميد" القرية وانتشر أفرادها، ولكن في معيَّة كلٍ منهم خمسة أفراد من العسكريين، بينهم واحدٌ من جهاز الأمن وآخر من الاستخبارات، وإمعاناً في الشفافيّة كان الأخير يحمل كاميرا لتصوير المُستطنعين، ربّما للذكرى والتّاريخ! عندئذٍ كان من البديهي أن يلتزم الضحايا الصّمت خشية مزيدٍ من الكوارث التي لا يُخاف عُقباها. على إثر ذلك، خرجت البعثة 'الأمميّة ببيان هزيل لم يقنع حتى رئاستها في نيويورك، حيث قال جاري كوينلان رئيس مجلس الأمن لهذا الشهر: «**إن زينب بانجورا، ممثلة الأمين العام المُختصّة بالعُنف الجنسي في مناطق الصراعات، وعدداً من أعضاء مجلس الأمن، أبدوا قلقهم إزاء تواجد جنود سودانيين أثناء استجواب ضحايا الاغتصاب**». وتعلمون أن محصِلةٍ كهذه تُعدُّ من المسلمات التي لا تحتاج لـ"درس عصُر"، كما نقول في عاميّتنا الدّارجة. ولكن دعني أقول لك ما هو أكثر إيلاما – أيها القارئ الصبور– إن هذا التضارُب والتذبذُب والتناقُض ليس بجديدٍ في سيرة بعثة حفظ السلام الهجين، فذلك مجرّد غيضٌ من فيض، فقد غمرتنا البعثة بفسادها المُتجذِّر في أركانها حتى لم يبق من درنها شيء، وهو الفساد الذي كشفت نذراً منه السيدة عائشة البصري، والمُحزن أن موقفها هذا لم يجد مِنَّا التقدير اللائق، ولكن تلك قصّة نُرجئها لمقالٍ آخر، حتى لا نكثر على القرّاء تقليب المواجع. على كلٍ، بعد تسعة أيام جفّ فيها الضَّرع والدَّمع والماء المُهين، ختم "الناكر الرسمي" الصوارمي خالد سَعْد بضخِّ أكاذيبه التي ألفتها الأذن حتى حفظناها عن ظهر قلب، فلم يكن منظوراً منه غير النفي المُعتاد.. وكالعادة دون أن يطرف له جفن!

(٥)

هذه جريمة شنعاء تُعدُّ من أبشع الجرائم اللاإنسانية. فهي لا تكتفي بخَيْونة المرأة، وإنما إذلالها ببذر كائن غريب في رحمها لتحمِله وهنا على وهَن، وهي كارهة له. هل ثمّة شعور أقسى من ذلك؟! هل تخيّل أحدنا نفسه مكان ذاك الأب الذي أُقتيد عُنوة ومن ثمّ اغتُصِبَت بناته أمام ناظريه؟! هل استشعر أحدنا توسُّلات تلك الطفلة للوحوش بأن يتركوها لأنها يتيمة؟! هل أدركنا كيف يكون الانكسار الذي سيتبع الضحايا كظلهم حتى يوم يُقبرون؟! إذن ما جدوى الحياة؟! ولكن لأن الحائط المائل لا يسقط فجأة، هل أقول جزى الله الشدائد عنّا كل خير، فلربّما ذكّرنا ما حدث بضرورة تسمية الأمور بمسيتها الصحيحة، التي تُوجّهُ فيها أصابع الاتهام لموضع الداء دون تلجلج أو تلكّع أو مُداراة. أليس رئيس الدولة السُنيّة وحامل أوزار النظام هو من أعطى الاغتصاب معنىً مغايراً، وقال إنه شرفٌ ينبغي أن تتباهى به نساء الإقليم المنكوب؟! لم ينفطر قلبه عليهن من حرب ثكلن فيها الزوج والإبن والأخ والعم والخال، ولم تدمع عينيه وهُن يرزحن في معسكرات الذلّ والهوان عاما بعد عام. ومن عجبٍ، هُو ذات الرئيس الذي وقف متنبراً، وقال بالنص: «**أحسن يسمعوها مني مباشرة.. انا قاعد رئيس،**

مافي قوّات أمميّة بتدخُل دارفور.. لأنه أنا أسهل لي مليون مرَّة أبقى قائد للمقاومة في دارفور ضد القوَّات الأجنبيَّة ولا رئيس جمهورية».. فتأمَّل سيرة من أصبح "مسيْلمة" مجرَّد تلميذ صغير في مدرسته!

(٦)

صفوة القول دعونا نخلص إلى مبادئ نسوقها بأضعف الإيمان لعلها تكون ترياقاً للجرح النازف:

- **أولا:** نقول للذين برعوا في إصدار بيانات الشجْب والاستنكار ذلك يكفي.. فالمسألة أكبر من أن تُصبحَ مزاداً في مضمار الوطن والوطنيَّة. وإذا كان المقصود بها مخاطبة الرأي العام السُوداني، فالرسالة قد وصلت، وجزاكُم الله عن المكلومات خير الجزاء، وليت الأمر بعدئذٍ ينتقل من دوائر التنظير إلى دوائر التفعيل!
- **ثانيا:** عِوَضاً عن ذلك لعلَّ الحادبين يعمدون إلى مخاطبة المنظمات الدوليَّة بمذكرات ضافية، وعلى رأسها الهيئة الأمميَّة، ومنظمات المجتمع المدني المعنيّة بحقوق الإنسان، والمنظمات الإقليميّة كالاتحاد الأفريقي ومنظمة دول الإيغاد والجامعة العربيّة ومنظمة المؤتمر الإسلامي، وكذا الاتحاد الاوروبي وتحديداً دول الترويكا، وحكومات الولايات المتحدة الأمريكيَّة وكندا واستراليا، للنهوض بموقف دولي حازم، لا يتمثل في القيام بتحقيق تتوفر فيه عوامل النزاهة والاستقلاليَّة والشفافيَة فحسْب، وإنما ينحو إلى معاقبة فجور النظام وتماديه في إنتاج الخطايا حيال الشعب السُوداني!
- **ثالثا:** ليس صُدفة أن السيِّدة عائشة البصري التي صوّبت سهامها مباشرة نحو فساد قوّات حفظ السلام العاملة في السُودان، وفرت لنا فرصة تاريخيَّة بحيثيات تستطيع القوى السياسة المعارضة النهوض بها إن شاءت تسجيل مواقف تزيح عنها عبء الركود والعجز واللا مبالاة!
- **رابعاً:** لا يخفي على أي مراقب أن الحادثة مهّدت الطريق نحو المحكمة الجنائيّة لمزيد من شدِ الأنشوطة حول رقاب أركان النظام وعلى رأسهم رئيس النظام!
- **خامساً:** علاوة على ذلك، أمام الحركة الشعبيّة قطاع الشمال، وكذا الجبهة الثوريّة فرصة أخرى، يمكن استغلالها لوضع حدِ لعبث واستهتار النظام بمصائر الشعب السُوداني، ذلك ما يمكن أن يتأتى عبر تعليق المفاوضات التي من المنظور أن تبدأ اليوم مع الأولى في أديس أبابا برعاية تابو امبيكي رئيس لجنة الوساطة المُكلفة من الاتحاد الأفريقي، أو تلك غير المباشرة مع الثانية، وإلا فإن مُضيّهما في هذا الطريق سيُعَدُّ مُخاتلة وخنوعا إن لم يكن مُباركة لجرائم الاغتصاب!

- **سادساً:** في تقديري يجب الانتباه للتوابع التي تلت الزلزال. فنحن نخطيء كثيراً عندما نقول المغتصابات الدارفوريات، إذ أنهُنَّ سُودانيَّات في المقام الأوَّل بحُكم الهُويَّة القوميَّة، التي لا تمنحها دارفور بالهُويَّة الجغرافيَّة. فتلك من تُرَّهات النظام الذي يجد في القبليَّة والجهويَّة والمناطقيَّة ملاذاً لهدفٍ يضمُرَهُ في أجندته الخفيَّة، كما تعلمون!
- **سابعاً:** بنفس القدر نقول ليت المنظرين يكفون عن ترديد ما نضح به قاموس النظام في تقسيم جغرافيا السُّودان بين مركزٍ وهامش، ففي ظِلِّ الدمار الشامل الذي لم يستثن شبراً، تصبح هذه المصطلحات غير واقعيَّة، بل ليست بذي جدوى، هذا إن لم نقُل إنها ترمي في اتجاه تغذية مسارات التفكيك المُحدِّقة بالوطن، سيَّما، وأن البعض بدأ يجنح عنوة إلى تحميل الشعب كله أوزار العُصبة وهُم براء. لكن تبعاً لذلك، لو شئنا تصحيفاً لتلك المصطلحات، فلا بأس من تلبيس السُّلطة صفة المركز طالما أن أبناء وبنات الشعب "الفَضَلْ" ظلوا في هامشها يدورون!
- **ثامناً:** لقد قتلت الديكتاتوريات الحس الوطني فينا أو تكاد، ومع ذلك لن نكون مِمَّن يأمرون الناس بالبِرِّ وينسون أنفسهم. فما جدوى القلم إن لم ينزف دماً كذاك الدم المهراق، وما جدوى الكتابة إن لم تكن ممزوجة بعرق الكادحين والبُؤساء والمساكين، وما جدوى الحديث إن لم يكن معطوناً بمحنة وطن ومعجوناً بمأساته؟! فيا ويح قلبي وقلمي معاً، إن كانت تلك صرخة في وادٍ بذي قفر!!

آخر الكلام: لابُدَّ من الدّيمُقرَاطِيّة وإن طَالَ السّفر!
٢٠١٤/١١/١٣

حِكَايَة سَيِّدَة اسمُها: "عائشة"!

في تلك الأمسية الرائعة والمُميّزة بقاعة فندق وستن Westin أواخر أبريل الماضي، قدَّمت نفسها بكلماتٍ بسيطة وعميقة في آنٍ معاً، فلا غُرُوَّ بعدئذٍ من أن نفذَت مباشرة إلى عُقول سامعيها، وقد احتلت من قَبل موقعاً فسيحاً في أفئدتهم، قالت: «**غادرتُ السُّودان، ولكن السُّودان لم يغادرني، بل لن يُغادرني». أقول بكل صراحة ثمة إحساس غريب يُداهمك وأنت تسمَع الناس يمدحونك ويصفونك بصفات ربَّما أستغرب لها.. لأنه ليس لديَّ إحساسٌ بأنني بطلة أو ادَّعي البطولة، فما قمتُ به هو أبسط مِمَّا يمكن أن يقوم به أي أحد لديه "شويَّة" ضمير، وشاهد ما شاهدت. أي أن لم يتحدث من رأي وسمع وقرأ واضطلع ووثق مثلي، تكون هذه مشكلة إنسانيَّة فِي المقام الأول.. وبالعكس، فأنا ألوم نفسي لأن صوتي لم يكُن مسموعاً طيلة تلك الفترة»**.. وفي واقع الأمر كانت العبارة الأخيرة هذه محض تواضُع منها كما ستبيّن لنا وقائع الأحداث لاحقاً، ما هو عكس ذلك!

(٢)

وفي مقام آخر، قالت عن نفسها إنها: «**عربيَّة الهوى وأفريقية الهويَّة**» وكان ذلك أيضاً اختزالٌ لشخصيتها، فهي على الأقل لم تتوار خلف هذين الصنمين كما يتوارى الذين يبحثون عن منابتهم وجذورهم بغية تأكيد الذات. ولكنها جسَّدت ذلك في مواقفها الحياتيَّة، وزيَّنت هُويَّتها بلسان وشفتين، بحيث أصبح إنحيازها للإنسانية جمعاء، شاملاً وغالباً وواضحاً. وإن شئت التحجيم كما يفعل الذين لا يقوون على الصبر، فهي مغربيَّة الهَويَّة وسُودانيَّة الهوى، والأخيرة هذه ليست هِبَة أو منحة أو هديَّة، فعندما أقامت بين ظهرانينا في ذاك البلد، الذي أرهقته الحروب وظُلم الإنسان لأخيه الإنسان، لم تأوِ إلى مكتب فخيم يُبعِد عنها شرَّ رمضانه وكروبه وحروبه، ولكنها جابته طولاً وعرضاً لمدة أربع سنوات، ثمَّ غادرته إلى بلاد الرافدين، كأنها أبا يزيد، الذي غادر قريته بسطام بحثاً عن الحقيقة والمشاهدة، وكأنها في بغداد لاقت الشيخ الجنيد، فقال لها إن ما تبحثين عنه تركتينه ببسطام.. فعادت أدراجها، وما زالت تبحث عن الحقيقة بالرغم من أنها شاهدتها!

(٣)

إن شئت تسطيراً بصورة أعمق، فقد زاد انحيازها للمذهب الإنساني عندما تيمَّمت شطر أوروبا للنهل من معارفها وثقافاتها. وفي باريس اختارت قامة أدبيَّة

سامقة ومثيرة للجدل، هو الأديب الفرنسي الشامل – إن جاز التعبير – جان جينيه، ليكون موضع أطروحتها للدكتوراه. كان "جينيه" متمرّداً قال عنه قُرناؤه إنه «**الخارج دوماً عن القانون السائد**» لكن صديقه وصفيّه جون بول سارتر - رائد الفلسفة الوجوديّة - كان يراه قديساً، وأكد نظرته هذه في كتاب ألفه عنه وعنونه بذات الصفة (القديس جينيه ممثلاً وشهيداً) وقال سارتر عنه أيضاً: «**كان قد حدد فضاءين مختلفين ومتعارضين، هما الخير والشر، وكلاهما دفعاه للوراء، وذلك ما ضاعف لديه الإحساس بالإثم، كما ولّدت طرائقه البرجوازية لديه إحساس الإذلال، فاختار أن يكون عارياً ويرتدي فقط مقدرات عقلية لا توصف**»، فإلى أي مدى – يا عزيزي القارئ – تدرك أن الدكتورة عائشة البصري قد تماهت مع كل مما ذكرنا؟!

(٤)

عائشة البصري سيّدة تدثرت بالقيم الإنسانيّة النبيلة، والتي حصدتها من هُويّاتها المختلفة كما ذكرنا، وصقلتها بالتحصيل الأكاديمي المتميّز. أقامت عائشة في السُودان لفترتين مدّة خمسة سنوات إلا قليلاً. عندما جاءته في المرّة الأولى كان ذلك في العام ٢٠٠٥، وبقيت فيه حتى العام ٢٠٠٩، تسنمت خلالها وظيفة مسئولة الإعلام والتواصُل في برنامج الأمم المتحدة الإنمائي. وتقول إنها فترة خصبة في حياتها، جعلتها تقف على مكوّنات الشعب السُوداني الثقافية والاجتماعية، وبالطبع السياسيّة التي لا تنفصم عراها عن المجالين المذكورين. ثم غادرت إلى العراق، وما لبثت أن عادت مجدداً للسودان في أغسطس من العام ٢٠١٢ وتولت وظيفة الناطقة الرسمية باسم قوات بعثة حفظ السلام، أو القوات الهجين المكوَّنة من "الأمم المتحدة" و"الاتحاد الأفريقي" والمُسمَّاة اختصاراً بـ"يوناميد" وذلك حتى أبريل ٢٠١٣، أي لمدة عام واحد إلا قليلاً، قدَّمت في خواتيمه استقالة داوية، ما زالت توابعها تحاكي فعل الزلازل والبراكين في ثوراتها ضدّ الطبيعة!

(٥)

تقول عائشة، إنها تلقت اتصالاً تلفونياً من زميلنا المثابر صلاح شُعيب من إذاعة "عافية دارفور" التي تبُث برامجها من واشنطن، وكان ذلك قبل نحو تسعة أيام من توليها المنصب الجديد، وسألها عن اشتباكاتٍ في منطقة "طويلة" شمال دارفور، فأحالت السؤال لزملائها الذين أجابوها بالنفي وأكدوا لها هدوء الأوضاع. ثمَّ عادت إلى زميلنا وحمل الأثير صوتها معلنةً هدوء الأحوال. لكن بعدها ببضعة أيام، اكتشفت أن الوضع لم يكُن هادئاً كما زعموا، وإن ما خُفي كان أعظم.. أدركت حينها أن القائمين على أمر البعثة صمتوا حيال الانتهاكات الفظيعة التي قامت بها قوّات الحكومة، وأدّت إلى حرق الزّرع والضّرع في أربعة قرى، قتل فيها من قتل، وجرح من جرح، واغتُصِبَت من اغتُصِبَت، وذلك بحسب إفادتها لقناة العربيَّة فيما بعد. وقتذاك، بدأت الأرض تميد تحت قدميها، فاشتبكت القيم التي جُبلت عليها بالواقع الذي ظهر عارياً أمامها!

(٦)

في محاولة منها لتقصِّي الحقائق، سألت الجنرال واي جونز قائد قوَّات البعثة آنذاك عن سبب عدم رفعه تقرير بتلك الحادثة، فقال لها: **«يا سيدتي كما تعلمين يجب علينا أحياناً أن نتصرَّف مثل الدبلوماسيين، فليس كل ما يُعرف يُقال»**، بيد أن حادثة "طويلة" وتلك العبارة فتحت عينا عائشة على أسرار بدأت تتكشَّف لها رويداً رويدا. ولاحقاً أسرَّت لها السيدة عايشتو منداوُدو بن دودو وكانت القائم بأعمال البعثة، بقولٍ آخر أشدَّ وطأة وأقوم قيلاً: **«كل التقارير الصادرة عن البعثة تتعرَّض لتحوير وتلاعُب، وهناك شخصان أو ثلاثة اختطفوا البعثة ولهُم أجندة لا تتماشى معها ولا مع مصلحة أهالي دارفور»**.. ومنذاك الوقت أصبحت عائشة تشاهد تواطؤ البعثة مع النظام بجنده وجنجويده، وترى بأم عينيها قرى تُحرق بكاملها، وتوثق لنساء اغتصبن زُرافاتٍ ووحدانا، وتحزن لرجال طأطأوا رؤوسهم لأنهم فقدوا أعزَّ ما يملكون، ثمَّ تقف حائرة أمام أطفال يُلقَمُ بهم الجحيم.. كلما قال هل من مزيد!

(٧)

كابوسٌ فظيع جثم على صدرها، كانت عائشة تشاهد نظاماً تبارى في قتل شعبه لدرجة بات لا يعرف فيها عدد ضحاياه، وينكر عدد النازحين داخل وطنهم، ويجهل عدد اللاجئين الذين اتجهوا صوب الحدود في رحلة المتاهة الكبرى. وفي كلٍ، لعلَّ الأنكى وأمر تواطؤ البعثة نفسها مع أفعاله وممارساته تلك. كانت الصورة موغلة في التراجيديا، وبالطبع لم يكن مرجواً من النظام الذي برع في القتل والتشريد أن يرق قلبه على ضحاياه، ولكن ما بال الذين غرَّهم بالسلطة الغَرور ولاذوا بجنته في الخرطوم وقد تركوا ذوي القُربى يهيمون على وجوههم في معسكرات الذل والهوان؟! هؤلاء فيهم الأم والأب، والأخت والأخ، والخالة والخال، والعمَّة والعم، الذين كادت محنتهم أن تخرس لسان عائشة الناطق، في وقت ينام فيه التيجاني السيسي قرير العين هانيها. وكلما سمع حسبو عبدالرحمن صراخ المُغتصبات تمزِّق ستار الصمت، ضحك ملء شدقيه، وقال لمُجالسيه إن ذلك محض هُراء. وأغمض الحاج آدم عينيه وأصمَّ أذنيه حتى لا يرى الأطفال الذين أرهقهم الجوع وباتوا يشاركون النمل طعامه. وبينما الذين أنهكهم المرض يبحثون عن جُرعة دواء، كان بحر إدريس أبو قردة يبحث عن دواء للتخمة بعد أن تورَّم شحماً ولحماً ونفاقاً. أما في مسرح المأساة، لم يألُ عثمان كبر في تجهيز الحملة تلو الأخرى، فقد صار الموت هوايته ومهنته.. كلما رأى الأيتام يزدادون عدداً!

(٨)

بعد أن أصبح الذي بين يديها من أدلة وبراهين ينوء بحملها الرجال، طفقت عائشة تتحدَّث بصوت عالٍ وتطالب بالتحقيق والعدالة والشفافيَّة، وأضحت تدعو بضرورة كشف ما خُفي من أجندة سريَّة في أضابير البعثة. وعوضاً عن ذلك، جاءت ثالثة الأثافي، فقد ظهر تقرير الأمين العام السيد بان كي مون عن دارفور

خالياً من الانتهاكات التي كانت شاهدة عليها ورأتها بقلبٍ مفطور. وعندما عيل صبرها، وأدركت ألاّ حياة لمن تُنادي، حملت متاعها القليل ومصيبتها الكبيرة، واتجهت صوب نيويورك لعلها تُسمِع من به صمم. وهناك قدّمت حصاد ضميرها وحاصرتهم بالأدلة والبراهين والوثائق التي لا تكذب، وطالبت بتحقيق مستقل يكون عادلاً ونزيهاً يزيح الستار عن الممارسات التي تدين المنظمة ممثلة في أمينها العام ورهطه مِمّن تكتموا مثله على المأساة. وبالطبع أدركت عائشة، ونُدرك نحن أيضاً أنها تصارع منظمة نخر فيها الفساد حتى أزكم أنوف العالم أجمع. فتحرّكت خفافيش الظلام الذين دأبوا على الرضاعة من أثداء المساكين، وبذلوا ما في وسعهم لتسويف القضيّة. ولكن حتى لا نتوه بعيداً سواء كانت المنظمة فاسدة أو في طهارة يد سيّدنا يوسف، من ذا الذي أقسم بألا تطأ أقدامها أرض بلادنا المنكوبة؟! من ذا الذي فرط في سيادتها بثلاثين ألف من جندها بعدتهم وعتادهم وفسادهم؟! يا ويلنا إن أدركنا ما رمت إليه عائشة في ثورتها عند ضحى الغد!

(٩)

ما تزال مطالب عائشة تؤرّق مضاجع القائمين على إدارة المنظمة الدوليّة، ولعلّ ما يُؤرّقهم أكثر إصرارها على بلوغ مراميها، فهي لم تطالب بما طالبت به وقدّمت استقالتها من الوظيفة المرموقة، ومضت إلى حال سبيلها، ولكنها ظلت مُمسكة بالجمر حتى بعد أن عزَّ المناصرين الذين صدَّعوا رؤوسنا بالحديث عن الوطن والوطنيّة. وفي خِضَمِ إصرارها العنيد جاءت مأساة الاغتصاب المعروفة في قرية "تابت". استنفرت عائشة نفسها لتلفت الأنظار لكُلِّ ممارسات البعثة "يوناميد" والتي طرحتها بوثائق دامغة وجعلت من قضيّة "تابت" منطلقاً في الوصول لهذه الأهداف. ومن المفارقات التي تعيي الضمير الوطني بل الإنساني إنه بينما كانت عائشة تملأ المنابر المقروءة والمسموعة والمرئية وتطالب بتكوين لجان تحقيق مستقلة للتثبت من جريمة "تابت"، انبرى أحد اصحاب "الياقات البيضاء" من الأكاديميين الذين جُبلوا على الشكِّ حتى في أنفسهم، ليُسوِّد علينا حياتنا قبل الورق، وقال إن ما حدث في "تابت" صناعة أمنيّة. الغريب في الأمر أن المُشار إليه بعد أن كلّت يداه من جمع المال، تذكَّر بعد رُبع قرن أن هناك نظاماً لبث فينا يوماً أو بعض يوم، فصار يمطرنا بمقال في الصباح وآخر في المساء ظاناً أن ذلك يمكن أن يحيي ضميراً مات وهو رميم!

(١٠)

ما ضرَّ عائشة لو فعلت مثله وانهمكت في جمع الدولارات، كان بإمكانها أن تنعم بمُخصَّصات يسيل لها لعاب الطامحين، لم يكن مطلوب منها سوى البصم على تقارير الزور وغض البصر عن الخطايا. لكنها انحازت لمبادئها التي آمنت بها ومهرت لها عمراً، وأدركت أن الطعام الذي تأكله مغموس في دماء وآلام المعذبين، وأن السكوت على الجريمة فعل لا يقدم عليه إلا الشياطين.

وعوداً على بدء في مقدِّمة المقال - يا سادتي - أقول عندما بلغنا خبر عائشة وفعلها الداوي الشجاع، دعوناها في اتحاد الصحافيين في الولايات المتحدة بامكاناتنا المتواضعة، لتقدم لنا محاضرة تشرح فيها ما التبس وصُعب علينا فهمه. وكانت سعادتنا لا توصف حينما استجابت لدعوتنا بكل أريحيَّة وجاءت وخاطبت جمع من المقيمين في منطقة واشنطن الكبرى. رأينا في وجهها مأساة أطفال الكهوف الهاربين من قصف الأنتينوف، شاهدنا في عيونها النيران تحرق القرى البسيطة، لمسنا في حديثها محنة النازحين واللاجئين وأنين الثكالى!

صفوة القول – يا أيها المكلومين مثلنا – عندما أقولُ: "**استضفناها بامكاناتنا المتواضعة**"، ذلك لا مَنَّاً مِنَّا ولا أذئ، ولكن لعِلمِنا بأن لمثل "عائشة" ينبغي أن يُفرَش البِساط الأحمر، وترفع الصَّواري أعلامها، وتعزف الموسيقى أناشيدها، وترصَّع كتفاها بالأوسمة والنياشين.. وأيِّم والله إنَّا لفاعلون في يومٍ يرونه بعيداً ونراه قريباً!

ليت أصحاب "الياقات البيضاء" يأخذون نصف وطنيَّتهم من هذه الحُمَيْرَاء!

آخر الكلام: لابُدَّ مِنَ الدِّيمُقرَاطِيَّة وإن طَالَ السَّفر!!
٢٠١٤/١١/٢٤

فِي وَدَاعِ آخِرِ الأنبِيَاءِ السِّيَاسِيِّين!

غيَّب الموت الأسبوع الماضي الأستاذ التيجاني الطيِّب بابكر، وذلك عن عُمرٍ ناهز الخامسة والثمانين عاماً، سخَّر منها أكثر من ستين عاماً لحياةٍ حافلة بالعطاء والتجرُّد ونُكران الذات. وهي القِيَم النبيلة التي لازمته حتى آخر لحظة قُبَيْلَ أن تصعد روحه لبارئها.

كان التيجاني قد نال نصيبه من الاعتقالات في سُجُون الأنظمة الديكتاتوريَّة الثلاث التي تسلطت على رقاب الشعب السُّوداني. وما قد لا يُدهش الذين يعرفونه عن كثب، أن السنوات التي قضاها في المعتقلات والاختفاء القسري، إلى جانب المنفى الاختياري في القاهرة التي جاءها هارباً في العام ١٩٩١م على ظهر جَمَلٍ، قبل أن يعود للسُّودان مجدداً في العام ٢٠٠٥م قد غطت أكثر من نصف عمره السياسي. والمُفارقة أن القاهرة تلك قد شهدت أوَّل اعتقالٍ له في سجن "الهايكتسيب" في مايو من العام ١٩٤٨م، وكان حينذاك يشغل موقع سكرتير اتحاد الطلبة السُّودانيين. ورافقه في 'السِّجن كلاً من عبده دهب، عبدالرحمن الوسيلة، محمد أحمد الرشيد، تيدي جيمس لاركن، والأخير هذا من جنوب السُّودان، وكان يعمل موظفاً مع الإدارة البريطانيَّة في قنال السويس، إلى جانب آخرين بدأوا الارتقاء في مدارج الشيوعيَّة تحت مُسمَّاها المعروف بـ"الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني" (حدتو) قبل أن تصبح "الحركة السودانية للتحرُّر الوطني" (حستو)، ومن ثمَّ الحزب الشيوعي السُّوداني.

المُفارقة أيضاً، أنهم سُجنوا بسبب انحيازهم للقضيَّة الفلسطينيَّة، إذ تزامن ذلك مع الحرب العربيَّة الإسرائيليَّة الأولى. والمُثير في الأمر، أن اعتقالهم تخلله إضرابٌ عن الطعام، استمرَّ لأكثر من عشرين يوماً. والتيجاني نفسه كان عُمرُه آنذاك بضعاً وعشرين عاماً!

بمجرَّد مواراته الثرى، هرع الكُتَّاب والصَّحافيون والسِّياسيون للتعبير عن مشاعرهم في فقدٍ عظيمٍ.. طفقوا يُعدِّدون مآثره، ويُسطرون تاريخاً حافل بالدُّروس والعِبَر والمواقف المتميِّزة. ومن ضمن ما قرأتُ هزَّني موقف صدَّر به صديقنا الأستاذ أمير بابكر مقاله التأبيني ('الأحداث' ٢٠١١/١١/٢٤م) عن التيجاني. بَيْدَ أن ذاك الموقف، والذي حدث في وقتٍ مُبكِّرٍ من عُمره، بل في مقتبل حياته،

يمكن القول إنه يتَّسق تماماً وشخصيَّة الرَّاحل العظيم، بل جسَّد رُؤاه وأفكاره ومواقفه السياسيَّة، إلى جانب التزامه الصارم بقضيَّته وإيمانه الصمدي بوطنه وشعبه، والإنسان بصورة عامة حيثُما كان. فحياة التيجاني كانت أشبه بملحمة أسطوريَّة، يحق للجيل الحالي والأجيال القادمة أن تلم بها وتتناقلها كأنقى ما تكون السِير وقصص الرواد المخلصين. ولعلَّ مرافعته التي قدَّمها في محاكمته الشهيرة في نظام نميري، أو ما اصطلحنا على تسميته بالديكتاتوريَّة الثانية، بعد إلقاء القبض عليه في العام ١٩٨١م بعد عشر سنوات من الاختفاء الذي حدث عقب ما أسماه الحزب الشيوعي في أدبياته بـ"أسبوع الآلام"، في إشارة لموجة الإعدامات التي طالت قادته وعلى رأسهم الشهداء: عبدالخالق محجوب والشفيع أحمد الشيخ وجوزيف قرنق وهاشم العطا وبابكر النور وآخرون. تلك المرافعة تُعَدُّ من أروع ما قيل في وجه جلاَّد أينما كان، ولذا لو أننا كنا نرفُل في ظِلِّ نظام ديمقراطي، لطالبنا بأن تتضمَّن مناهج التعليم حتى يعلم الخلف كيف يمكن للمرء أن ينذر حياته لوطنه، ويكون على استعداد للتضحية من أجله، وبينه وبين الموت بضع خطوات!

كتب أمير في مقاله المشار إليه:

«كان والدي مكلفاً بالحفاظ على، وترحيل الرَّاحل عبدالخالق محجوب إلى أن يجتاز الحدود إلى مصر، للحاق بمؤتمر للأحزاب الشيوعيّة في موسكو في النصف الأول من الستينيات، في وقت كانت تبحث عنه القوَّات الأمنيَّة لمنعه من ذلك. تمَّ الاتفاق على اجتيازه الحدود عن طريق البر وبواسطة عربة "لوري" والتنسيق هناك داخل الأراضي المصريّة لاستقباله بواسطة آخرين. ظهر الأستاذ التيجاني فجأة في وادي حلفا، وهو الرَّجُل الثاني في الحزب الشيوعي السُّوداني، وكان في طريقه إلى مصر أيضا في مهمَّة حزبيَّة، ليجتمع مع عبدالخالق وصاحب العربة "اللوري" وهو عضوٌ في الحزب الشيوعي ووالدي، الذي يعمل في وادي حلفا حينها، في المنزل حيث يختفي عبدالخالق. وكان الاجتماع، حيث جلس الأربعة حول طاولة، لمتابعة الترتيبات النهائيَّة لخُطة السَفر. شرح صاحب "اللوري" الموقف، وقال إنَّ العربة لن تكون جاهزة في الموعد المحدّد. كان ذلك يعني عدة أشياء، فالذين سيستقبلون عبدالخالق في الجانب المصري لا يعرفون إلا هذا "اللوري"، الذي يجب أن يصل في تاريخ ووقت محدّدين، والوصول إلى نقطة محدَّدة سلفا. أي تغيير سيضطر الجميع إلى وضع ترتيبات جديدة في ظِلّ تلك الظروف المُعقدة.

ما أن سمع الرّاحل عبدالخالق هذا الأمر، حتى نهض واقفا، وهو في حالة انفعال وهياج، بسبب الإخفاق في الترتيبات،

وأمسك بأوراق في الطاولة التي اجتمعوا حولها وقذف بها بشكل عبَّر عن فُقدانه لأعصابه. حدث كل ذلك لمدَّة ثوانٍ، ليتحدَّث الأستاذ التيجاني في صرامة إلى عبدالخالق بقوله: "إنك لا تصلح أن تكون سكرتيراً للحزب الشيوعي".. وأضاف: "إنني سأقدِّم تنويراً للجنة المركزيّة بما بَدَرَ منك، وأطالبك باعتذار رسمي". فما كان من الزعيم عبدالخالق إلا أن وقف مرَّة أخرى قائلاً للتيجاني والآخرين: "إذا لم تفعل ذلك، لن تكون شيوعياً، وأنا بدوري سأقدِّم اعتذاري الآن هُنا وأمام اجتماع اللجنة المركزيَّة وحتى في الجريدة الرسميّة"». انتهى الاقتباس في الرواية التي صاغها أمير في سياق مقاله المُؤثر.

عرفتُ التيجاني في منتصف ثمانيات القرن الماضي، عندما زُرتُ السُّودان للمرَّة الأولى بعد انتفاضة أبريل ١٩٨٥م، حينها قدِمتُ من الكويت لإجراء حواراتٍ صحافيّة مع عدد من قادة النشاط السياسي، وبالطبع كان من بينهم الأستاذ محمد إبراهيم نُقُد، ذلك للألق الذي صاحب اختفائه، ونظراً لتاريخ الحزب التليد في مقاومة ذلك النظام الديكتاتوري يومذاك. قصدتُ صحيفة 'الميدان' الناطقة باسم الحزب الشيوعي، مصحوباً برسالة شفهيَّة من صديقي العزيز الدكتور مصطفى خوجلي. وكانت الصحيفة تقبُع في دارٍ متواضعة في شارع صغير متفرّع من شارع الحريَّة.. دخلتُها حيث بدأت قصَّتي مع التيجاني، أو ذاك الشخص الصَّارم القسمات، والذي هالني بأنه يتحدَّث لزملائه بصوتٍ جهور كأنه في خِضَمِ تظاهُرة. سألته عن الأستاذ نُقُد بعد أن قدَّمتُ له نفسي، فلم يزحزح ذلك من الأمر شيئاً. جاوبني باختصار يبعث الضِيق في النفس: **«انتظره هنا، يمكن يجي»**!

كنتُ آنذاك طرأ غريراً، توهَّمتُ أن الحزب الشيوعي سيحتفي بي وسيفرش لي بساطاً أحمراً أتبختر فيه كيما اتفق، لكن تضاءلت أوهامي هذه عندما وجدتُ الحزب نفسه يبحث عن مُغيث.. صحيفة تقبُع في دارٍ متواضعة تتكوَّن من غرفتين، ربَّما ثلاثة، بالكاد تسع شاغليها. وزاد من إحباطي أنَّ الرَّجُل الذي قالوا لي إنني سأجد عنه مقصدي، كان صارماً حدَّ العجرفة، كأنه يتأهَّب لمعركة محتملة. غادرتُ المكان، وتوالى حضوري لأصطدم بذات الإجابة المختصرة، مرَّة ومرَّتين وثلاث.. خرجتُ في الأخيرة وأنا عازمٌ بعدم العودة مرَّة أخرى. كانت المفاجأة، أن التقي مصطفى خوجلي في بوابة الدار، وكان قد قَدِمَ للتوّ من الكويت أيضاً. أبديتُ له ضيقي وتبرُّمي، فضحك ضحكته الودودة التي تمتص منك الغضب وإن تراكم جبالاً، ثمَّ أمسك بيدي ودلفنا للدار مرَّة أخرى وقدَّمني للتيجاني، فلم أشعُر بأن الأمر تغيَّر في كبير شيء.. اختصاراً لتفاصيلٍ كثيرة، ليست بذات أهميَّة، نلتُ مراميّ.. أمَّا علاقتي بالتيجاني، فقد بدأت تأخذ منحىً آخر

عند كل زيارة للوطن في ظلِّ ديمقراطيَّة وارفة، أو هكذا نظن! لمستُ فيها ما خفي عني في شخصه، أو بالأحرى ما لا يمكن معرفته إلا بالاقتراب منه!

بَيْد أن علاقتي هذه اتَّخذت مساراً آخر أكثر حميمية بعد وصوله القاهرة التي سبقتُه إليها بالدوافع نفسها. وفي مشهدٍ لاحق، سألته تفصيلاً عن رحلة هُروبه تلك والتي وثقت لها وأشياء أخر في كتابي الأخير "سقوط الأقنعة" فلفت نظري بإجاباته المُختصرة حول خواطره حولها، فقال لي إنه: **«لا يعرف عنها شيئاً غير جمال الصحراء، حيث الهدوء يغمُّ المكان، والأرض منبسطة بلا نهاية، لا تسمع فيها سوى أزيز الرياح وهسيس الأبل»**. ثمَّ بعد وصوله القاهرة، قيَّضت لي الظروف أن نلتقي كثيراً، حيث سكنا متجاورين وبيننا صديقنا الودود محمد عبدالماجد، وهو بحُكم عُضويته في الحزب كان المسئول عن ترتيب أموره. بدأتْ يومها تتشكَّل لي سيرته على نحو آخر بحُكم المعايشة، كانت فيها العلاقة بعدئذ أشبه بنبتة صغيرة حرص كلانا على رعايتها بحنو بالغ.. كمن يخشوا أن تذروها ريح صرصر عاتية!

تلك كانت الفترة التي بدأ فيها النشاط السياسي والإعلامي المُعارض في التشكُّل. واتساقاً مع همومه الإعلاميَّة المعروفة، كان التيجاني حريصاً على أن تصدُر صحيفة ناطقة بلسان الحال، الذي كنا فيه غارقون. ذلك ما تحقق بعدئذٍ بصحيفة أسبوعيَّة متواضعة يعجز "سيزيف" وصخرته عن حملها، وسمّيناها السُّودان وكانت بحجم 'التابلويد'، وأصبح التيجاني مشرفاً عليها. كنتُ محظوظاً، بل غمرتني السعادة حينما شعرتُ بأنه كان يرمي إليَّ بأعبائه عمداً في متابعتها مع زملاءٍ كرام، وذلك نظراً للمهام السياسيَّة التي تثاقلت عليه، وهو القادم لعاصمةٍ ضخمة بكل ضيائها وضوضائها. فيها التقى التيجاني بعد طُول غياب، رفاقاً باعدت بينه ديمقراطيَّة التاريخ وديكتاتوريَّة الجُغرافيا، منهم السادة: خالد محي الدين، رفعت السعيد، حسين عبدالرزاق، فريدة وأمينة النقاش، عبدالعظيم أنيس وآخرون.. كان يُحدّثني عنهم بوُدٍ وألفة تذيب الصَّخر العصيّا.. يومها أدركتُ وأنا زعيمٌ بحركاته وسكناته، أنه أصبَحَ أكثر ألفة ومودّة، وفوق كل ذلك، أكثر همَّاً وغمَّاً من مُستقبلٍ لا ندري كنهه!

اتساقاً مع نهجه وتصالحه مع نفسه، عاش التيجاني زاهداً في شقة متواضعة في القاهرة بمدينة نصر، ولكنها كانت كخليَّة نحلٍ، لا تخلو أبداً من الزائرين. وبحُكم الجوار الجغرافي، كنتُ أغشاهُ كثيراً ويغشاني لماماً بتواضُعه الجَمْ. وبين هذا وذاك بيننا الهاتف الذي لا ينقطع. في هذا الصدد، لا بُدَّ من ذكر ما لمسه غيري عنه، لا سيِّما، في حياة الزُهد والتجرُّد تلك. كان التيجاني يستقلّ المواصلات العامَّة، وكنتُ كثيراً ما أشعُرُ بالشفقة عليه، وهو في عُمره السبعيني. والمُفارقة، أن لا يكتفي بذلك، بل يُصِر على تصدير زُهده هذا للآخرين، وبينهم من ليس في حاجة لذلك. مثل نصائحه لزُوّاره حينما يغادرونه إلى وجهةٍ أخرى،

فيتبرَّع لهُم بأرقام حافلات مدينة القاهرة، التي يمكن أن تقلهم إلى حيث يريدون.. «**طالما أنت ماشي نُصّ البلد، يمكنك أن تستغل ٥٠٠ أو ٥٠٠ بشرَطة من محطة رابعة العدوية القِدّامنا دي، وإذا إنت ماشي العبّاسيّة أحسن حاجة تأخذ ٤٩ أو ١٨**».. وهذه هي أرقام مواصلات القاهرة التي كان يحفظها عن ظهر قلب، كمَن يحفظ المرء أوراده عقب كل صلاة.. لقد عاش التيجاني في تلك المدينة الباهرة كما عاش أبا ذر في زهده!

في ذات مرّة جئته زائرا، ووجدتُ في باب العمارة التي يقطنها نفراً من الحرس الشرطي المصري، الذين أكثروا السؤال عن شخصي وأسباب زيارتي وأشياء من هذا القبيل. وعندما صَعَدتُ إليه في الطابق الرّابع، قلتُ له مداعبا: «**يا أستاذ مُنتهى الأهميّات، يعني بعد كده لازم نجيك بموعد وتفاصيله؟**».. شعرتُ أنه لم يُبد ارتياحاً لملاحظتي الودودة، فقلتُ له: «**الحكاية شنو؟**».. فقال لي: «**الأخوة المصريين - كتّر الله خيرهم - قالوا إننا مستهدفون، ولذلك وضعوا هذه الحراسة لقيادات التجمُّع الوطني بعد تواتُر أخبار عن اغتيالاتٍ محتملة**». فقلتُ له، غير آبهٍ بما قال، ومواصلاً دعابتي: «**طيّب كويس**».. فبادرني بالقول: «**الكويس شنو؟**».. واستطرد: «**ده قانض عمالة ساكت.. أسّه الجماعة ديل مفروض نوفر ليهم إعاشة، ونحن ذاتنا في حاجة لمن يعيشنا**». عجبتُ لمن كان ذلك همّه الذي علا على هم اغتياله، وعلمتُ فيما بعد أن بعض إخوتنا في الكيان نفسه - غفر الله لهُم - ممّن حباهُم الأخوة المصريين بذات المزية، صاروا يدعون معارفهم بإصرار، ليس حُباً في طلعتهم البهيّة، ولكن من أجل أن يروا النعيم الذي فيه يرفُلون!

بما أن الشيء بالشيء يُذكر، فثمّة قصة لابُدّ وأن تُروى في السياق نفسه، إذ حكى لي قصّة مثيرة، لا أعتقد أنه حكاها بذات الأريحيّة لاخرين لا يعلمونها. قال لي: «**لو صحّ موضوع الاغتيالات هذه، سترتكب هذه الجماعة خطأ لن ينمحي أبد الدهر**».. ثمّ مضى في القصّة الشيّقة أو الشائقة – سيّان – فقال: «**ذات يوم في الحقبة الديمقراطيّة الأخيرة، ألقى شباب الحزب القبض على شخص كان يتربّص بي، ووجدوا بحوزته سكينا "مدية" بُغية اغتيالي. وعندما تمّ استجوابه، أخبرهم بأنه مكلف من الحزب الغريم أي الجبهة الإسلاميّة، وسمّى لمعتقليه الذين كلفوه بتلك المهمة المُقدّسة**».. لكن تيجاني رفض رفضاً بتاتا أن يذكُر لي أسماءهم، وقال لي: «**من خلال التحقيق اتّضح أن الرَّجُل مأجورٌ مقابل حفنة من المال وُعدَ بها، فأطلقنا سراحه ولم تصل القضيَّة للأجهزة الشرطيّة خشية زعزعة النظام الديمقراطي**». عند هذا الحد، كنتُ أظن أن القضية انتهت. فباغتني التيجاني بقوله: «**الأسبوع الماضي قابلتُ نفس الرَّجُل بعد سنوات، وأنا أتأهّب لدخول محطة الميترو في ميدان التحرير!**».. فبُهتُ، وعاجلتُهُ بسؤال سريع: «**طيّب، وحصل شنو؟**»، فقال لي بطريقته المعهودة في تبسيط الأشياء: «**حصل شنو.. سلمنا على بعض، وكل زول مشى في حاله**»!

من المواقف الطريفة التي استذكرتُها، حدث ذات مرَّة أن زُرته في منزله وكان يجلس وحيداً حيث أن زوجته، الأخت الفاضلة "فتحيَّة" كانت في زيارة للسُّودان.. فتح لي باب الشقة بعد فترة طويلة، واعتذر ضاحكاً بأنه كان في الحمام، ثمَّ تبع ذلك بتساؤل فلسفي: «**يا أخي، هل من الضروري إنو الزول يحلق دقنه كل يوم؟**».. وواصل: «**تصوَّر أنا وقفت قدَّام المرآة وخطر ببالي أنني أمارس هذه العادة لأكثر من خمسين سنة دون أن أتركها يوماً واحداً، اللهُمَ إلاّ في ظروف قاهرة**».. فقلتُ له مداعباً: «**غايتو لو ما حلقتها الناس ما حتفرِّق بينك وبين الجماعة**».. وقبل أن يجيبني بشيء سردتُ له حواراً دار بين الصديقين الرَّاحلين: علي عبدالقيوم ويونس الدسوقي، وهُما مَن جَمَعَت بينهما علاقة حميمة. إذ قال الثاني للأول، بعد أن شكا من تلك العادة اليوميَّة: «**إيه رأيك يا علي الواحد لو أطلق لحيته بعد هذا العمر؟**».. فقال له الثاني بدعابته اللطيفة: «**يعني حيحصل شنو، غير ما إنك حتَرَيِّل فيها**».. فضحك الرَّجُل الموسوعة، أو "عم يونس" كما كنا نحب أن نناديه، وقال له: «**يعني كارل ماركس كان برَيِّل فيها؟!**».. فضحك التيجاني كما لم يضحك من قبل، وسَرَت بيننا روح الفُكاهة!

عندما انتقلتُ للعاصمة الإريترِيَّة أسمرا، قيَّضت الظروف أيضاً لأعضاء التجمُّع الوطني الديمقراطي مقراً، فصاروا يتوافدون عليها.. كان التيجاني حريصاً كلما زارها بتواتر لحضور اجتماعات هيئة القيادة على الاتصال بي بمجرَّد وصوله، وتوطَّدت العلاقة بينه وبين زوجتي الفقيدة الراحلة وداد صدِّيق.. فكان يُلزِمُها بما يُسمِّيه ""تعليمات" محدَّدة في مأكله ومشربه، ونقضي بعدئذٍ وقتاً طيِّباً..

والحديث يطول، ولكن ما استذكره دوماً في تلك اللقاءات، ان التيجاني كان يعاملني فيه بأريحيَّة كأنني عضوٌ في حزبٍ لم أنتم له أصلاً، وليس بيننا سوى تلك الوشائج الأزليّة التي تربط بين الديمقراطيين بصورة عامَّة. مُؤخراً التقيتُه في السُّودان ولم أشعُر بتغيير في شخصه، سوى إحساسُ مقاتلٍ غيَّر البُندقيَّة من الكتف اليمين للكتف اليسار، أو العكس. لكن صفوة قولي، أنني تعلمتُ من التيجاني فوق ما ذكرت.. كيف يمكنك أن تخالف الناس في الرأي، بشرط ألا تُبغضَهُم. فهلْ علِمَت العُصبة ذوي البأس الدَّرس كما علِمْنا؟!

آخر الكلام: لابُدّ منَ الدِّيمُقرَاطيّة وإن طَالَ السَّفر!
٢٠١١/١١/٣٠

في عِيدِ مِيلَادِهِ الأوَّل!*

الحضور الكريم،

مساء الخير عليكُم جميعاً، وأنتُم تجتمعون لتأبين وتخليد ذكرى رجُلٍ عظيم.. قمرٌ أضاء حياتنا ورَحَلَ عنّا في ظِلِّ عُتمة غطت كل أرجاء الوطن، رَحَلَ عنا دون أن ينتظر ثمرات نضاله الوطني الهادف إلى إقامة وتأسيس وترسيخ الدولة المدنيَّة الديمقراطيَّة. ولكن عزاؤنا أن الرَّاحل المقيم، "**الأستاذ التيجاني الطيِّب بابكر**" ترك لنا إرثاً عظيماً من القِيَم والمبادئ والأخلاق النادرة في الحقل السياسي، وفي مضمار العمل العام. ولا شكَّ إنها تُعَدُّ خير زادٍ لنا ونحن نواصل مسيرتنا في النضال المشروع ضدَّ الديكتاتوريَّة والشموليَّة، وحُكمُ القهر والتسلط، ودولة الاستبداد التي تجلس على ركامها طُغمة الجبهة الإسلامويَّة، ونحن على يقينٍ بأن بشائر رحيلها تلوح في الأفق في يومٍ يرونه بعيداً، ونراهُ قريبا بحَوْلِ الله وبقُدرَة الشعب السُّوداني الصابر على مُكرِهِم.

ذات يوم، وفي لحظة صفاء ذهني وروحي، كنتُ قد جلستُ إلى أستاذي التيجاني الطيّب في شقته المتواضعة بمدينة نصر (القاهرة)، وكنتُ قد سألتُه عن اللحظات والمُلابسات التي صاحبت معرفته خبَرَ الانقلاب المشئوم، أي الساعات الأولى بعد منتصف ليل يوم الخميس وصبيحة يوم الجمعة ٣٠ يونيو ١٩٨٩، فسَرَدَ لي بطريقة المُمعِنة في الدِقة تفاصيل اعتقاله، وهي القصَّة التي وثقتُ لها في كتابي الموسوم بـ "سقوط الأقنعة.. سنوات الأمل والخيبة"، وفي مناسبة الوفاء هذه، رأيتُ من الضروري اقتباس نذرٍ منها، وعلى الرغم من صِغَرِها إلا أنها تنطوي على عِبَر ودُرُوس غاية في الأهميّة، ولهذا تستحق وقوفاً متأمِّلاً في حضرة رجُلٍ شامخ يندُر أن تجد له مثيلاً بين السياسيين!

قال لي الأستاذ التيجاني: «**سمعتُ طرقاً شديداً على الباب الخارجي، فنهضتُ منزعجاً وكل الذي دار في خاطري أن صهري الذي كان مريضاً قد حدث له مكروه، وجاء من يُبلغني ذلك الخبر، ولكن عندما فتحتُ الباب فُوجئتُ بضابطٍ من الجيش برتبة نقيب ومعه اثنان من الجنود، فبادرني بلهجةٍ هادئة لم تتخللها أي حدَّة محتملة في مثل هذه المواقف، وقال لي: "إن القيادة العامة للقوَّات المسلحة استولت على السُّلطة، وأن هناك قيادات سياسية تقرَّر التحفظ عليها لمدّة يوم يومين أو ثلاثة، وبعد أن تعود الأوضاع لطبيعتها سيُطلق**

سراحهم''، فاستأذنته في تغيير ملابسي، وحملتُ معي ما أعتبره ضروريا، مثل فرشاة الاسنان والمعجون وماكينة الحلاقة، وخرجتُ معهم، فوجدتُ في الخارج سيارة صغيرة طراز تايوتا بيك أب، فأجلسوني بين جندي وآخر مدني كانا ينتظران في السيارة، وصعد النقيب إلى جانب السائق، حينها لاحظت أن العلامة العسكريَّة تشير إلى أنه ينتمي للسلاح الطبي، وحتى ذلك الوقت لم يدُر بخلدي أن هذا الضابط أو الانقلاب كله من تنفيذ الجبهة الإسلاميَّة، بالرغم من أننا كنا على مدى أسبوع تقريبا نكتب في 'الميدان' مقالات وتحليلات تشير إلى أن الجبهة الإسلاميَة عمدت إلى تكتيكات إنقلابيّة، وأنها تضمُر شيئا من ذلك القبيل، وبالطبع كان ذلك صحيحا، ولكننا لم نتخذ أي إجراء كان يُفترض عمله. وصحيح أيضا إننا أوصلنا الرسالة للسيد رئيس الوزراء، إضافة إلى أننا حاولنا تنبيه الناس وإشعارهم بالخطر القادم، ولكننا لم نطرح شعاراً محددا تجاه ما كان متوقعا – أي الانقلاب – وهذا خطأ أو تقصير من جانبنا نتحمّل مسئوليته.

بالعودة للسيارة التي أقلتنا، كان الجميع صامتون، وفي الخارج ليس هناك ما يلفت الانتباه غير حفلات الزواج الكثيرة على جانبي الطريق المُؤدّي إلى ''وادي سيدنا'' وهو منظرٌ تقليدي، فمثل تلك المناسبات الاجتماعيّة دائماً ما تقام في نهاية الاسبوع، وكنتُ قد استسلمتُ لمقولة النقيب في أن الانقلاب من صنع القيادة العامة، ولم أستغربها، خاصّة أن المناخ السياسي كان مضطربا بعد المذكرة الشهيرة.

عند وصولنا الى مدخل مدينة أمدرمان من جهة الخرطوم العاصمة، حيث يوجد ''قصر الشباب والأطفال''، اتجهت السيارة يمينا، فخامرني شكٌ في تلك اللحظة بان الانقلاب ليس من صنع القيادة العامة، كما قال النقيب، وغلب على تفكيري أن الجبهة الإسلاميَة تقف من وراء التدبير، وفي ضوء ما كنتُ أكتبه من افتتاحيات الصحيفة، سيطرت عليّ هواجس تحدّثني بدُنوِ نهايتي، وتلقائيا انصرف ذهني في استعراض مسيرة حياتي بمحطاتها المختلفة، فغمرني شعورٌ بارتياح الضمير»...

مضى الاستاذ التيجاني في سرد بقية التفاصيل بذات الدقة.. أما نحن، فلسوف نستوقف أنفسنا قليلاً فيما اقتبسناه من روايته تلك، لنتأمّل ثلاثة مواقف تشكّل نهجا متميّزاً وطابعا استثنائياً في شخصيّة الرَّاحل العظيم:

- **الموقف الأوّل**: تمثّل في تعليق الأستاذ التيجاني حول الملابسات التي سبقت الانقلاب.. «**هذا خطأ أو تقصير من جانبنا، نتحمَّل مسئوليته**»، الأمر الذي يؤكد نهجاً دأب عليه وعُرف به، وهو شجاعتُه التي لا تعرف الترَدُّد وهو يجنح للنقد الذاتي متى ما أدرك أن ثمَّة خطأ يستوجب النقد، وللأمانة نقول، أن تلك الخاصيَّة هي الفضيلة الغائبة عن سلوك كثير من القيادات والناشطين السياسيين، على الرغم من أننا نعرف أن بعضُهم إرتكب من الأخطاء الفادحة

ما قد يرقى إلى درجة الخيانة الوطنيَّة، ولكنهم عِوَضاً عن ممارسة النقد الذاتي، أو الإعتذار للشعب المغلوب على أمره، استغلوا المناخ الذي يُسمِّيه البعض بـ"التسامُح السياسي السُّوداني"، وأفرغوه من معانيه الحقيقيَّة، حتى أصبح أقرب إلى التفريط في الحقوق الوطنية، ووسيلة للهروب المتعمَّد من المسئوليَّة التاريخيَّة..

بالطبع لم تكن تلك هي الواقعة الأولى التي يشهد المرء فيها للأستاذ الرَّاحل التيجاني بفضيلة النقد الذاتي، إذ أنني علاوة عليها أذكر له أيضاً أنه فعل الأمر نفسه في ندوة سياسيَّة جامعة، أقامهُ مركز الدراسات السودانيَّة صيف العام ١٩٩٣ تقريباً، في مركز الأهرام للدرسات الاستراتيجية بالقاهرة، يومذاك قدَّم الأستاذ التيجاني شهادة للتاريخ، تحدَّث فيها منتقداً ثلاثة مواقف في مسيرة حزبه (الشيوعي السُّوداني) وكانت حول الموقف من قضية تقرير المصير قُبَيْل استقلال السُّودان، والمشاركة في المجلس المركزي الذي أسَّسه نظام الفريق إبراهيم عبود، أو ما دُرج على تسميته بالديكتاتوريَّة الأولى، إلى جانب الموقف من انقلاب العقيد جعفر نميري، أو ما دُرج على تسميته بالديكتاتوريَة الثانية.

ليس هذا فحسب، إذ أنني أذكر له كيف احتدَّ ذات يوم في اجتماع دوري لهيئة قيادة التجمُّع الوطني الديمقراطي، منتقداً السيِّد الصَّادق المهدي في أمرٍ ما، وكان نقدا لاذعاً، بصورة جعلته يطلب في اليوم التالي الإذن من المُجتمعين في مستهل اجتماعهم، وتحدَّث منتقداً طريقته ومعتذراً للسيِّد الصَّادق المهدي بشجاعة لا يستطيع تحمُّل تبعاتها إلا من عَرِفَ قدر نفسه، وحقا "إذا كانت النفوس كباراً، تعِبَت من مُرادها الأجسام". هذا وذاك يجعلاني أقول بثقة مُفرِطة، إن الأستاذ التيجاني كما عرفتُهُ، هو مِن شاكلة قِلَّة مِن البشَر نقول عنهم في ثقافتنا الشعبيَّة "الفِي قلبه، في لسانه"، أي أنه كتابٌ مفتوح لا يُرهق قارئه بطلاسم تُجهد العقل والعين معاً، بالرغم من أن حقل السياسة يعد - كما هو معروف - الحقل الأكثر عُرضة في ممارسة سلوكيات مغايرة تماماً لنهج الوضوح والعلانية.

- **الموقف الثاني**: الذي استوقفني في نذر التوثيق التي اقتبسناها من حديث الأستاذ التيجاني حول ملابسات الانقلاب، هو إعمال فراسته السياسيَّة – إن جاز التعبير– في التنبوء بهُويَّة الانقلاب في لحظاتٍ مبكِّرة، في الوقت الذي ظلَّ بعض الناس يتجادلون حول هُويَّته ردحاً من الزمن، مستسلمين لنهج التعمية الذي جنح له أهل النظام في الاستعانة بمنهج وزير الدعاية النازي "جوبلز"، صاحب المقولة المعروفة والشهيرة: «**إكذب وإكذب وإكذب حتى يصدِّقك الناس**»! بل الغريب في الأمر أن العُصبة التي نفذت الانقلاب، استمرأت الكذب وظلت تتحرَّاه على مدى أكثر من عقدين من الزمن، واتخذ أشكالاً

وألوانا كثيرة، وتفرَّخ ليمتد لكُلِ مناحي الحياة، لدرجة باتوا يُصدِّقون كذبهم قبل أن ينطلي على الآخرين، وهو كذبٌ لم يترك حجراً ولا بشراً إلا وأصابه بشروره الوبيلة!

- **الموقف الثالث**: والأخير فيما استوقفني في حديث الأستاذ التيجاني بصورة أكثر تأمُّلاً واستقراءً، تمثل في ردود فعله الفوريَّة عندما خامره شعور بدُنُوِ أجله، وذلك في قوله: **«تلقائياً انصرف ذهني في استعراض مسيرة حياتي بمحطاتها المختلفة، فغمرني شعورٌ بارتياح الضمير»**.. وهذا لعمري شعورٌ لا يمكن ان يُداهم إلا الذين نذروا حياتهم لترسيخ القيم العُليا، وعاش من أجل الآخرين، متصالحاً مع نفسه ومتوائماً مع ذاته، ومؤمنا بمعتقداته السياسيَّة والفكريَّة. والنفس المُطمئنة - كما نعلم - هي التي ترجع إلى ربّها راضية مرضيّة، بحسب ما أكد لنا الخالق تبارك وتعالى في قرآنه الكريم.

في التقدير يمكن للمرء أن يسرد كُتُباً ومُجلَّدات عن المواقف التي ميَّزت حياة الرَّاحل العظيم، الأستاذ التيجاني عمَّن سواه من السياسيين الذين احترفوا السياسة، أو إن شئت فقُل امتهنوا السياسة، وبعضهم ابتذلها تنظيراً وتفعيلاً، ولسنا في حال بسط الموازيين وتقييم الناس وأفعالهم فـ"كُلُّ نفسٍ بما كَسَبَت رهينة"، ولكننا نستذكر ذلك لنؤكد فيما نحن لسنا في حاجة لتأكيده، في أن الفقيد الرَاحل الأستاذ التيجاني أختط لنفسه منهجاً أقرب إلى المثاليَّة، كان سياسياً متصوّفاً، وزاهداً متبتلا، وبسيطاً متفرّداً، الأمر الذي أضفى على شخصيّته سحراً وجاذبية ومنحه تلك الكاريزما الاثرة، حتى ليكاد المرء أن يقول أنه أسّس لنفسه مدرسة فريدة، حتماً ستكون نموذجاً لكُلِ من أراد مجدا لنفسه ورُقِيّاً وتقدُّماً وإزدهاراً لوطنه!

كان الأستاذ التيجاني قد أكمل لي سرد تلك الملابسات إلى أن استقرَّ به الوضع مع أخرين في سجن كوبر العتيق، ولسنا في حاجة للتذكير بأن سنوات المُعتقلات والإختفاء القسري إلى جانب المنفى الاختياري كانت قد غطت أكثر من نصف عُمره. وطالما أن التحالفات السياسية هي محور هذه الندوة، حريٌ بنا القول إن سجن كوبر نفسه شهد أول خطوات التحالف الذي أنتج فيما بعد الكيان الذي سُمي بـ"التجمُّع الوطني الديمقراطي" وذلك بتوقيع ميثاقه داخل السجن في أكتوبر من العام ١٩٨٩، أي بعد شهور قليلة من الانقلاب الكارثة. وطالما أن الحديث عن التحالفات السياسية يجدُرُ بنا القول أن الأستاذ التيجاني وفقَ توثيقنا المذكور، كانت له اسهاماتٌ واضحة في الجهود التي سبقت توقيع الميثاق المذكور، ومن ثمَّ امتدّت تلك الجهود إلى خارج السُّودان، كان ذلك بعد أن نجح في الهُروب على ظهر جَمَلٍ إلى القاهرة (نوفمبر ١٩٩٠) من براثن النظام الثيوقراطي، الذي بدا يُكشّر عن أنيابه آنذاك، مختطاً اجراءاتٍ قمعيَّة قاسية، مثل الإعدامات وإزهاق الأرواح بطريقة بشعة ولا إنسانيَّة، وكذلك تدشين ظاهرة

"بيوت الأشباح" والفصل التعسُّفي، فيما أسموه بلا حياء أو أخلاق بـ "التمكين السياسي" وإن كان هذا نهجاً يتسق ومنهجهم وسلوكياتهم المريضة.

في سبيل ترسيخ التحالف المذكور، تواصلت الرحلة، والتي نتج عنها رغم وعثاء السفر وصعوبة الأثر "التجمُّع الوطني الديمقراطي".. حدث ذلك بعد أن استقرَ الرَّاحل المُقيم التيجاني في القاهرة، فتعاضدت جهوده مع آخرين بدءً بما سُمي آنذاك بـ"لجنة التنسيق العُليا" وطالما أن الفضل بالفضل يُذكر، نعيد هنا ما ذكرناه ووثقنا له في مقام آخر، وهو أن تلك جهود أسهم فيها الأستاذ فاروق أبوعيسى بجهدٍ وافر بما اكتسب من ملكاتٍ سياسيَّة وقُدُراتٍ تنظيميَّة، فكان بمثابة حجر الرَّحى، حيث سخَّر فيها إمكانات "اتحاد المحامين العرب" كذلك، مستغلاً تطابُق أهدافه مع القضيَّة السودانيَّة، وكانت بالفعل تجربة ثريَّة، رغم المِحن والإحن التي تكالبت عليها.

يمكن القول إن الخاصيَّة التي ميَّزت تلك التجربة، تمثلت في انضمام الحركة الشعبيَّة لتحرير السُّودان لها، وهي في طور التخليق (١٩٩٠)، بعد أن قامت بالتوقيع على الميثاق، الأمر الذي تطلب إدخال تعديلاتٍ جوهريَّة عليه، أصبح تبعاً لها "الكفاح المُسلَّح" آليَّة اضافيَّة في أساليب المقاومة، جنباً إلى جنب مع "الانتفاضة الشعبيَّة" و"العمل الإعلامي والدبلوماسي"، والجدير بالذكر أن الاجتماعات التي عُقِدَت بعدئذٍ في القاهرة، أديس أبابا، لندن، ونيروبي، عملت إلى حدٍ كبير إلى إزاحة االنقاب قليلاً عن أهم قضيَّة استهلكت قدراً وجهداً كبيراً في الواقع السُّوداني بُعيد الاستقلال، وهي "قضيَّة الدين والدولة"، حيث مهَّدت تلك المؤتمرات إلى الوصول لصيغة تُعَدُّ من أرفع ما توصَّل إليه العقل السياسي السُّوداني، وهي البند الذي عُولجت به تلك القضيَّة في اجتماعات أسمرا، أو ما سُمِّي بـ"مؤتمر القضايا المصيريَّة".

لسنا بصدد تفصيل رحلة مُضنية بالفعل، سارت قافلتها صعوداً وهبوطاً إلى أن انتجت اتفاقية "نيفاشا"، أو ما سُمِّي بـ"اتفاقيَّة السلام الشامل"، وتناسلت بعدها اتفاقيَّات أخرى في جدَّة والقاهرة وأبوجا وغيرهم، وجميعها رَمَت بالتجمُّع الوطني الديمقراطي إلى أسفل سافلين، عوضاً أن تُؤدِّي به إلى عليين ومقام مكين.. لكن ما يجدُر بنا قوله إن تلك التجربة برغم هنَّاتها والأخطاء التي قَبَرَتها، إلا أنها تُعَدُّ من أرفع صِيَغ التحالفات السياسيَّة، ويُمكن القول إن أدبياتها ما زالت تُشكِّل زاداً لن ينضب معينه، ويمكن أن تكون هادياً لكُلِّ من أراد أن يهتدي بها في تجربة مماثلة.

في التقدير أن الظروف الحاليَّة التي يمُرُّ بها الوطن تُحتِّم على كل الوطنيين المُخلصين والحادبين على مصالحه، الشُروع العاجل فوراً في بناء تحالفٍ سياسي عريض، ويمكن التمهيد له بحوار موضوعي جاد، يهدف إلى تقريب المواقف المُتباعدة وتذليل الصِعاب الماثلة، ولسنا في حاجة للقول إنه سيكون بمثابة صمام

الأمان الذي يمكن أن يُقلل من الأخطار المُحدِقة، وهو الذي سيكون مُؤهَّلاً لقيادة المسيرة نحو الإطاحة بالعُصبة الحاكمة وتقصير معاناة الشعب السُّوداني، ومن ثَمَّ تأسيس الدولة المدنيَّة الديمقراطيَّة!

بَيْدَ أننا لابُدَّ من الوضوح والصراحة بالتأكيد على أن الوصول إلى مثل هذا المشروع لن يتأتي ما لم نضع في الاعتبار القضايا التالية:

- **أولاً:** كلنا يعلم أن تجربة التجمُّع الوطني الديمقراطي قُبِرَت دون تشييع من قِبَل الذين كانوا لُحمَتِهَا وسُدَاتِها، وهُو أمرٌ لا يجافي الأعراف والمناهج والسلوكيات الديمقراطيَّة فحسب، وإنما يندرج تحت باب الإهمال، الذي يستوجبُ حساباً عسيراً. لم تكُن تلك التجربة نُزهة حتى تنتهي بانتهاء المشوار، ولكنها كانت تجربة عظيمة، استهلكت وقتاً ليس باليسير، وجهداً ليس بالقليل، وفيها أرواحٌ بُذِلت وأموال قُبِضَت ومواقف سُجِّلت، ينبغي أن تُعرَضَ على بساط الشفافيَّة والصّدق طالما أنها تحدَّثت باسم الشعب السُّوداني.

  من جهة أخرى، كلنا يعلم أنها تعدَّت الإطار الجغرافي السوداني، وانداحت لتشمل بعض دول الجوار الإقليمي، وبعض دول العالم كذلك. إذاً فالواجب الوطني يحتم على الذين تسنموا فيها المناصب عقد مؤتمر ختامي يُشرح التجربة بشكل لائق، تُنصب فيه موازيين الحساب والمحاسبة على بساط العدل والصدق والشفافية، وهو ما نعده أمراً حتمياً لن يسقط بتقادم السنين، ولن ينطوي بتراكم القضايا، وعليه يمكن القول إن أي حديث عن تجربة جديدة لا يخضع القديمة للأسس التي ذكرناها، سيكون محكوم عليه بالفشل حتما!

- **ثانياً:** من الناحية النظريَّة يمكن القول إن بعض أدبيات مؤتمر القضايا المصيريّة ما زالت صالحة زماناً ومكاناً، ولكن بقليلٍ من التشذيب والترغيب، وكلنا يعلم أن أهمَّ القضايا التي عُولجت في ذلك المؤتمر كانت قضايا تقرير المصير والدين والدولة وآليات النضال ضدّ النظام الديكتاتوري، بما يعني أن هذه القضايا ما زالت تشكِّل نصف المسافة نحو تأسيس مشروع تحالف سياسي عريض، بغضِّ النظر عن أن النظام القائم - برعونته المعروفة - عبث بقضيَّة تقرير المصير كما يعبث "الديك بالعِدَّة"، لكن لا ينبغي أن يُقعِدَ ذلك المُخنصين عن بلوغ الغايات العظيمة، فما يزال في نهاية النفق ثمَّة ضوء يمكن أن ينير العتمة، ويُصلح واقع الحال، بعيداً عن سُحُب التشاؤم التي تراكمت وجبال الاحباطات التي تطاولت من ممارسات الطغمة الحاكمة!

- **ثالثاً:** يمكن القول أيضاً إن "قضيَّة الدين والدولة" التي وضعت الوطن كله في كفّ عفريت أصبحت في حاجة مُلحَّة لوضوح كامل، وفي هذا الصَدَد نعتقد أن ممارسات النظام الشائهة ستساعد فعلاً على استنهاض صيغة مؤتمر القضايا المصيريّة، والتي أكّدت على ضرورة الفصل التام بين الدين والدولة، أو الدين والسياسة، وفق ما ورد في مواثيق التجمُّع. نقولُ ذلك من أجل الحفاظ على ما

تبقى من الدولة، بل الحفاظ على الدين نفسه، بالابتعاد به من المتاجرة والتلاعُب والاستغلال البشع.

- **رابعاً:** إن كانت تجربة التجمُّع الوطني الديمقراطي قد فرضت عليها الظروف التمدُّد والتضخُّم خارجياً، فإن أي تجربة مماثلة يجب أن تضع في الحُسبان ضرورة ولادتها داخلياً، حيث أن التداخُل والتقاطعات والمصالح الإقليميَّة والدوليَّة تفرض أحياناً واقعاً قسريا، وليس سراً إنها ساهمت في تعقيد كثير من القضايا، وعلى رأسها المصير نفسه الذي حاق بتجربة التجمُّع برُمَّتها.

- **خامسا:** في التقدير أن أكثر ما ساهم في تحنيط التجربة الماضية وعدم الوصول بها إلى نهايتها المنطقيَّة، تمثل في إزدواج المواقف وتغليب المصالح الذاتيَّة على الحزبيَّة، وتغليب المصالح الحزبيَّة على الوطنيَّة، وتعلمون أن هذه الأنانيَّة وذاك التردُّد هو الذي أطال عُمْر النظام، وزاد من مُعاناة الشعب السُّوداني، وباعد بين الناس والوصول لمشروع تحالفٍ سياسي عريض، لهذا فإن هذه الملاحظة تحديداً تتطلب وضوحاً وصراحة، وعدم الرُكون إلى اللامبالاة والإهمال والتسيُّب، حتى لو تطلب الأمر بتر الأعضاء الفاسدة!

يمكن القول إن هذه خطوط عريضة، قد تصلح لتكون معينات للانطلاق إلى آفاق أرحب، وصولاً إلى الهدف المنشود في تأسيس كيان وطني جامع يُؤطر لجبهة أو تحالف سياسي عريض، ويكون ترياقاً لوطن يعصمه من احتمالات إنهيار درامي في ظِلّ العُصبة ذوي البأس الحاكمة، والتي اتَّضح بما لا يدع مجالاً للشك إنها غير عابئة حتى لو تفتت هذا الوطن إرباً إربا، ولن تكترث وهي تتمادى في تسلطها، ولو كان ذلك على جثة آخر مواطن!

إن الإحتفاء الحقيقي بذكرى الأستاذ الرَّاحل التيجاني الطيِّب يكون بالوفاء للقيم والمبادئ والمُثُل التي نَذَرَ لها حياته لأكثر من ستة عقود زمنيَّة، وبما أن مشروع التحالف السياسي كان همَّاً مُقيماً للفقيد، وسعى له في حياته بإخلاص كما بيَّنا، علاوة على أنه أصبح ضرورة وطنيَّة يكون لازماً علينا حمل هذه الأمانة حتى نستطيع أن تصل بهذا الوطن إلى برِّ الأمان، واجهاض المُؤامرات الشيطانيَّة للسُّلطة القمعيَّة الديكتاتوريَّة الغاصبة.

الأمر الثاني الذي يتأمَّله المرء ويرجوه من القائمين على أمر هذا التأبين، وهو أهميَّة تخليد ذكرى الرَّاحل العظيم بعملٍ يُجسِّد محبَّتنا له. نذكُرُ على سبيل المثال.. مكتبة عامَّة على نمطٍ عصري أو مسابقة سنويَّة باسمه للصحافيين العاملين في المجالات المختلفة، أو ابتداع جائزة باسمه يتم بها تكريم السياسيين، الذين تصالحوا مع أنفسهم، وتجرَّدوا لخدمة وطنهم، وشهدَ الناس لهُم بالنزاهة والشجاعة والاحترام، ولعلَّ الأفكار كثيرة ويمكن التداوُل حولها لاحقاً حتى لا يأخذ احتفائنا بالفقيد طابعاً مظهرياً سالباً. وأصالة عن نفسي، لي عظيم الشرف

في الاشتراك وتفعيل أي فكرة والمساهمة مع اللجنة القوميَّة، أو أي آخرين يُناط بهم تنفيذ هذا الغاية النبيلة، كأقلّ ما يكون الوفاء وأوجب ما يكون الاخلاص لرجُلٍ ظلّ في حالة عطاء مستمر، إلى حين صعود روحه إلى بارئها!

وأختم بأنه يكفيني فخراً أنني اصطحبه معي في كُلّ ما أكتب، متمثلاً قِيَمِهِ وأخلاقِهِ ومبادئه، حيث يظل شاخصاً بصره نحوي، كأنه رقيبٌ عتيد.. فالتحيّة لك يا استاذي العظيم في عيد ميلادك الأوَّل، فالبعض يموت ليحيا!

٢٠١٢/٥/١٥

*** هذه الورقة قُدّمت في ندوة تأبين الأستاذ التيجاني الطيّب بابكر والتي أقيمت بدار حزب الأمّة القومي بمدينة أمدرمان، وقد خاطبها الكاتب من مقرّ إقامته بالولايات المتحدة الأمريكية عبر الـ"اسكايب" في حدود المسموح به من الوقت.**

مَن يَمنَحُني شَرَفَ بُشرَاهَا مِن تَحتِ الثَرَى؟!*

* بعد أن واريناه الثرى في مدينة شيكاغو بولاية إلينوى في يوم ٢٠١١/٥/١١، سافرتُ وأسرتي الصغيرة إلي السُّودان لتقبُّل عزاء الأهل والأصدقاء والزُملاء. وفوجئتُ بتأبينٍ أعِدَ له إعداداً متميِّزاً، بإشراف زميلات الفقيدة إبّان تسنُّمها دفة العمل الوطني في إطار التجمُّع النسوي الديمقراطي.. وهُن السيِّدات: إحسان عبدالعزيز ونادية مصطفى وسعاد الطيِّب، وقد أقيم التأبين بـ"مركز الخاتم عدلان" للاستنارة في منتصف يوليو من العام ٢٠١١، وفيه ألقيتُ الكلمة التالية على مسامع الحضور، الذي احتشد في الدار بصورة أنستني مصيبتي.. وجوة أعرفها وأكثرها لا أعرفه، وكان لمُشاركتهم جميعاً الأثر البالغ في نفوسنا..

والله إن هذا ليومٌ مشهود.. كنتُ أتمنى أن التقي هذه الوجوه النيّرة في ظروفٍ غير هذه الظروف.. كنتُ أتمنى أن التقي هذه الوجوه النضِرة في يوم انتظرناه طويلاً، وقد شاءت إرادة الله غير ذلك، ولكنه حتماً سيأتي ذلك اليوم حاملاً عبق الانتصار.. في البداية، أود أن أحييكم جميعاً، والشُكر كل الشُكر للاخوات الفُضليات من صديقات وزميلات الفقيدة الراحلة مِمَّن قُمن بأعباء هذا التأبين، وكذلك الشُكر لأسرة مركز الخاتم عدلان للاستنارة على استضافتها فعاليات هذا اليوم، والشُكر موصولٌ للحضور الكريم على تكبُّدهم المشاق، وأيضاً الذين خاطبوا الحضور من على هذه المِنصَّة، والذين تحدَّثوا في صمتٍ، ويشمل الشكر الذين خارج هذا المركز داخل السُّودان وخارجه، في قَارات العالم أجمع. فقد أثبتم بما لا يدع مجالاً للشك، أن وداد ليست فقيدتنا وحدنا.. نسأل الله العلي القدير أن يتقبَّلها قبولاً حسناً بقدر هذه المحبَّة، ويُلزمنا جميعاً الصبر الجميل.

أقول لكم أيها السيّدات والسادة الكرام، إنه على الرغم من ايماني المُطلق بجدليَّة الحياة والموت، ورغم ايماني بأن كُلَّ نفسٍ ذائقة الموت، إلا أنني والحق أقول، أشعر بأن "وداد" لم تمُت، ذلك لأن الحُب كما تعلمون لا يموت، وأن المبادئ لا تموت، وأن القيم الجميلة لا تموت، ولذا فـ"وداد" وإن رحلت بجسدها عنّا ستظل رُوحها هائمة بيننا ما حيينا على وجه هذه البسيطة. فرحلة "وداد" القصيرة في هذه الحياة كانت عبارة عن ملاحمٍ متصلة، بعضها يأخذ برقاب بعض. وكسائر البشر، بدأنا حياتنا بملحمة عاطفيَّة نعتزّ بها لأنها كسرت السائد في العلاقات التقليديَّة، وتوّجناها بالزواج، الذي وجدنا فيه السكينة والطمأنينة بمثلما بشّرنا المولى عزَّ وجلَّ، وعندما توحَّدت في ناظري.. "وداد" والوطن، بدأتُ اقرض الشعر لها وحدها، ولم أجرؤ على نشره، ثمَّ هجرتُ الشعر وليس لي أدنى تفسير

غير أن الديكتاتوريات التي رُزئنا بها لا تسمح بالأحلام. وعندما رُزقنا بالبنين والبنات تعلمتُ من "وداد" الدرس الأول في مدرسة الحياة، وهو أن الطريق إلى الوطن يبدأ بالبيت والأسرة. فقد كانت "وداد" تؤمن إيمان العجائز بأنك إذا أعددتَ أسرة إعدادا جيداً فقد أعددتَ شعباً طيّب الأعراق.

ثمّ اتصلت ملحمة العاطفة، بملحمة الأسرة، بملحمة حياة اجتماعيّة غنيّة وزاخرة. وفي هذا الشأن، لعلّ الذين عايشوا الفقيدة كانوا يعلمون أن أجمل لحظات صفائها الوجداني كانت تتجلى حينما تحظى بضيوف يتوافدون على بيتها من كُلّ حدب وصوب. فنحن كما تعلمون بفضل تلك الديكتاتوريات تنقلنا من بلد إلى بلد، عايشنا وتعايشنا مع ملل ونحل شتى، وتفاعلنا وسط ثقافات متعدّدة ومتباينة، لكنها لم تكُن في يوم من الأيام خصما على رصيدنا الوطني، أو نالت من هَويّتنا الوطنيّة التي نعتز بها. بل على العكس تماماً، فقد كانت سندا لنا ومعيناً صبّ في تنوّعنا الثقافي وتعدّدنا الديني والإثني، ومن المُفارقات أن تمر علينا ظروف كالحات، نشهد فيها قوم يتبرأون من هذه الخاصيّة التي حبا الله بها بلادنا.

في إطار الملحمة الاجتماعيّة كانت لـ"وداد" قُدرة فائقة في خلق علاقات اجتماعيّة واسعة ومستمرّة وبنّاءة مع تلك الشعوب والقبائل، كأنها كانت تمتثل للمبدأ القرآني الذي حفّزنا على ذلك. كانت – أحبّتي الكرام – كالغيث، حيثما انهمر فاض خيراً ونماءا وبركة.

أما وإن كان الحديث عن الملحمة السياسيّة، فلا بُدّ لي أن أذكُر حدثين هامّين، الأول في العام ١٩٩٤ بعد أن طاب لنا المقام في العاصمة الارتيريّة أسمرا، حدثت القصّة التي حكى شذرات منها أخي وصديقي عبدالعزيز خالد، أو "أبو خالد" كما يحلو للكثيرين أن يُسمونه، عندما تحدّث إليكم قبل قليل. يومذاك كانت صلاته قد بدأت مع السُلطات الاريتريّة لتفعيل العمل المعارض في ظِلّ علاقاتٍ بدأت تتضعضع بينها وبين حكومة الخرطوم، ولهذا كان يأتي سرا إلى أسمرا وتعمل السُلطات الإريتريّة على تأمين أقصى أنواع السريّة على تحرُكاته نسبة لوجود سفارة نظام الخرطوم في أسمرا. الذي حدث، أن الأخ عبدالعزيز طلب منهم أن يسمحوا له برؤيتي، نسبة لعلاقة الصداقة القويّة التي تربطنا معاً، وقال لهم إنه يأتمنني، فقالوا له: وزوجته؟! قال لهم إنه يأتمنها أكثر مني.. وتبعاً لذلك، كان الأخوة الإريتريون يأتون به لمنزلنا في جُنح الليل، ونقضي بضع ساعات وأوقات طيبة نتفاكر فيما آل إليه حال الوطن، وكانت "وداد" ثالثنا، وظلت هي الوحيدة التي تعلم بشيءٍ لو أفصحتُ عنه لذهبت الأمور في اتجاه آخر.. وأعتقد أن أخي عبدالعزيز أعجبته طرائق السريّة والكتمان التي رشحت من "وداد" لا سيّما بعد أن أصبحت تلك الخاصيّة واحدة من سِمات وركائز التنظيم نفسه. وأعتقد أيضاً إنه منذاك الوقت، وضع عينه عليها في ضمّها لصُفوف التنظيم، بالفعل كُنتُ آخر من يعلم، ولم أعلم حقيقة بأنها أصبحت واحدة من كوادر التنظيم إلا بعد وقت طويل وبعد أن أصبح عمل التنظيم علنياً، وتقلدت فيه

المناصب المذكورة في "التحالف النسوي" وكذلك "التجمع النسوي" فيما بعد. ولكن أصبح الأمر مصدر فُكاهة بيننا، فقد كُنتُ أداعبُها بقولي: **«في بيتنا كادر سرّي»**.. وأذكر للأمانة والتاريخ، أن "وداد" من فرط حفاظها على السريَّة لم يحدُث أن أشركتني في أمر يخص نشاطها السياسي أو الإعلامي، وأعتقد أنه بالاضافة للسريَّة التي هي من صميم عمل التنظيم كما ذكرت، فقد كانت لا تطيق أن يُقال عنها إنها تعيش في جلباب زوجها.. لقد كانت "وداد" شديدة الاعتداد بشخصيَّتها، وكثيرة الاعتماد على نفسها، وتحب أن تشُق طريقها وسط الصعاب، وتجد متعة فائقة في التغلب عليها.

أما القصَّة الثانية، فقد حدثت في نهاية العام ١٩٩٤ ومطلع العام ١٩٩٥.. غادرت "وداد" والأسرة إلى السُودان لقضاء عطلة الصيف المدرسيَّة، وأثناء وجودها في الخرطوم، انقطعت العلاقات الدبلوماسيَّة بين البلدين، وتوقفت تبعاً لذلك الخطوط الجويَّة السودانيَّة بين العاصمتين، فقرَّرت "وداد" العودة لأسمرا بالطريق البرّي.. غادرت إلى كسلا - بعد أن أخبرتني بضرورة انتظارهم في يوم محدَّد على الحدود الإريتريَّة في المنفذ المعروف بـ"١٣"، يقابله منفذ "اللفة" على الحدود السودانيَّة، ولكن رجال الأمن الذين علموا بوجودي هناك، أنزلوها عُنوةً من العربة الناقلة هي وأطفالنا، وأخبروها أنهُم ممنوعين من السَّفر، ليس لجُرم ارتكبوه، ولكن - بحسب فهمهم - لجُرم ارتكبه زوجها، الذي ينتظر على الضفة الأخرى، وقالوا لها: أرسلي له كي يحضر لاصطحابكم، إن شئتِ السفر..

كُتِبَ عليها أن تبقى رهينة تحت رحمتهم لعشرة أيام حسوما، كُنا خلالها نتبادل قصاصات الورق مع سائقي العربات، تماماً كما في فيلم الحدود للممثل السوري الشهير دريد لحام. تلك أيام لن أنسى قساوتها ما حييت، كانت لحظات مُؤلمة بالنسبة لكلينا، بل هي أشد وأمر بالنسبة لسيدةٍ وأطفالها، أن تكون في قبضة من لا يرحم ولا يعرف الرَّحمة، وأخيراً تركت لهُم جواز سفرها الذي يرقد حتى الآن في أدراج جهاز الأمن، ليقف شاهدا على خِزيِهم وعارِهِم وسوء أعمالهم. ولأن لـ"وداد" قلبا لا يعرف الثأر، فقد صمَّمتُ أن اقتصَّ لها كل دقيقة مُعاناة قضتها على الحُدود.

اسمحوا لي سيّداتي وسادتي، أن أختم ملاحم الرَّاحلة العظيمة بملحمتها مع الداء الخبيث، لعلها تكون زادا في المُلمَّات والمصائب التي يمتحن الله بها عباده. ذلك أن هذا المرض وإن نال من جسدها، لكن روحها المعنويَّة ظلت حتى لحظات حياتها الأخيرة مرتفعة، وفي قمَّة عُنفوانها، كانت تتمتع بإرادة قويَّة، وتؤمن ايماناً قاطعاً بأنها يمكن أن تتغلب على ذاك المرض، ويعلم الله بالرغم من أنني صادفتُ في حياتي المهنيَّة في منطقة القرن الأفريقي تحديداً من المواقف الصعبة التي حدت بي أن استرخص الحياة، ومنحتني قدرة على التعامُل مع المواقف التي تتطلب صبراً وجلداً وشجاعة، إلا أن الشجاعة التي واجهت بها "وداد" ذلك المرض أذهلتني وتضاءلت معها شجاعتي. فقد كانت صبورة لا تحب الشكوى،

أما وأن اضطرَّت لها، فهي تمارسها مع ربِّها الذي خلقها وابتلاها، إذ كانت تناجيه سراً ونحن عنها غافلون.

كانت تلك طريقتها حتى بعد أن لزمَت سرير المستشفى. وفي الخمس أيام الأواخر من حياتها، شاء الله - أو إن شئتَ فقُل أكرمني الله - بأن يحضُر لحظات احتضارها الاخيرة أخي وصديقي فيصل محمَّد صالح الذي أحِبُّه كثيرا وتُحبُّه "وداد" أيضا، والذي صادف وجوده تلك الأيام زيارته لأمريكا، فجاء إلى شيكاغو حيث نقيم، وعندما دخل عليها، أشهد أنه تهللت أساريرها لرُؤيته رغم الإنهاك البائن عليها، ولعلَّ أخي وصديقي "فيصل" شهد منظرا غير مألوف في المستشفى، حيث تواجد أصدقاؤنا وأحباؤنا وآخرين لا نعرفهم من السُودانيين، جزاهُم الله عنا خير الجزاء، توافدوا وتقاطروا نحو المستشفى وظلوا مرابطين معنا لساعاتٍ طوال ولأوقاتٍ تمتد حتى أواخر الليل..

هذه الظاهرة - أي الكثرة والتواجُد - كانت ظاهرة غير مألوفة للأمريكيين أنفسهم، ولذلك احترموها، فانعكس ذلك في تعامُلهم مع الحضور، وعملوا على راحتهم.. جلبوا لهُم الشاي والقهوة والماء والبسكويت على غير معهودٍ، وكانوا يسألونهم فرداً فرداً ما إذا كانوا في حاجة لشيء، ومن المُفارقات أن واحدة من العاملات في المستشفى سألتني إن كانت زوجتي شخصيَّة اعتباريَّة في بلدها، أي من ذوي المناصب الفاخرة، فقلتُ لها هي إنسانة عاديَّة ونحنُ كذلك، ولكن هذه هي ثقافتنا التي جُبلنا عليها. وبالطبع، هي لا تعلم أن قوماً كالمغول غزوا بلادنا ودمَّروا ثقافتنا هذه التي نعتز بها.

واستشهدُ فيما ذكرتُ باحترام الأمريكيين لتعدُّد الثقافات هذا، فقد كان لنا صديقٌ أمريكي اسمه جيف وزوجتة لورا. جاءوا للمستشفى ومعهم طفلتهم الرضيعة وعمرها بضع أشهر، وقد شاهدوا المنظر الذي ذكرت، ولعله أعجبهم، وقالوا لي إنهم لم يألفوه من قبل، وكنتُ أطلب منهم المغادرة رحمة بطفلتهم الرضيعة، لكنهم تجاهلوا طلبي مراراً وتكراراً، إلى أن قال لي جيف: من فضلك اتركني فأنا اليوم سوداني Please leave me, today I am a Sudanese رغم الحُزن الذي كان يعتريني، إلا أن التفاف الأحباب حولنا خفَّف عنا هول المصيبة، وقد تواصلت تلك الظاهرة من المستشفى، مروراً بالمسجد الذي صلينا فيه على الراحلة وانتهاءً بالمقبرة التي دفناها فيها في مدينة شيكاغو. هؤلاء مثلكم يا إخوتي وأخواتي، كنتُم وكانوا تاج عِزِّي الذي أتباهي به بين الأمم والشعوب.

في الختام، لابُدَّ أن استخلص ما أقول في نقطتين هامَّتين:

- **<u>الأولى:</u>** كانت "وداد" في ملحَمَتِها مع المرض تعاني أقسى أنواع المعاناة، ولكني أشهد أن وتائر ألمها تزداد وجعاً عندما تتابع الأخبار التي تتحدَّث عن تردِّي الأحوال الصحيَّة في هذا البلد الأمين. وكانت تُبدي تعاطفاً طبيعياً مع الذين ابتلاهُم الله بذات الداء، وتجدنا دائماً في حالة مُقارنات، وكانت كثيراً ما

تتداول معي كيفيَّة تقديم العون والمساعدة في شيءٍ يخفِّف عنهم آلامهم. والآن أقول لكم، لستُ من الذين أنعم الله عليهم بالمال والجاه، ولكني غنيٌّ بأبنائي وبناتي الذين أعتبرهم ثروتي في هذه الدُنيا، وقد بذلنا ما وسعنا في تعليمهم وتأهيلهم، ولا أذيعكم سراً إن قلت لكم إننا قطعنا عهداً على أنفسنا طال الزمن أو قصُر، أن نعمل لها ما تمنَّته ذات يوم في حياتها من أجل المرضى والبُؤساء، ونسأل الله أن يعيننا في ذلك، وليكن ما سنفعله شاهداً على حُبنا ووفائنا لها، ودَيْناً مستحقاً نرُدَّه عرفاناً لهذا الشعب الأبي، وإنا لقادرون بحول الله.

- **الثانية:** وهو شيءٌ عَمِلت من أجله الفقيدة الرَّاحلة ووَهَبَتهُ عُمرها وتمنَّت أن تراهُ يتحقق في حياتها، ولكن لم تُمهلها الأقدار لذلك. أقولها أمامكم يا إخوتي وأخواتي، من قلب هذه العاصمة الصابرة، بعد أن قُلتُها من البُعد مراراً وتكراراً.. يجب إسقاط هذا النظام، يجب إسقاط هذا النظام.. فإسقاط هذا النظام ضرورة وطنيَّة، بل واجباً دينياً كذلك، حتى نستطيع أن نحافظ على ما تبقى لنا من وطن، ونحمي ديننا من المتاجرين به.

أيها الحضور الكريم،

هذا الوطن الجميل يتسرَّب من بين أيدينا كما يتسرَّب الماء من بين الأصابع، نحن محتاجون لوقفة أمام الذات.. نحن محتاجون لمواجهة مع أنفسنا.. نحن محتاجون لأن نسأل ذواتنا وبعضنا البعض: ماذا قدَّمنا، و ماذا سنُقدِّم لهذا الوطن حتى نستطيع أن نوقف التدهوُر المريع الذي حدث في كافة الأصعدة؟! لستُ في حاجة لأن أذكِّركم أو أسرد على مسامعكم تفصيلات شيء تعيشون مرارته كل يوم، فـ"الجمرة بتحرق الواطيها" كما نقول، وأنتم تكتوون بهذه الجمرة صباح مساء.

إن الفقيدة التي نُؤبِّنُها اليوم سيكتمل تأبينها يوم سقوط هذا النظام.. أرجوكُم امنحوني شرف أن أتحدَّث لها من تحت الثرى، فأقولُ لها إن اليوم الذي انتظرتيه طويلاً قد جاء.. وإن الحُلم الذي تمنيتِهِ كثيراً قد تحقق، وأن الديمقراطيَّة التي تاقت لها نفسك وعملتِ من أجلها صادقة قد أزف موعدها.. إذ لا بُدَّ من الدِّيمُقراطيَّة وإن طالَ السَّفر!

٢٠١١/٧/٢٥

مَا بَينَ قَبري وقَبرُكِ.. يَنتَصِبُ الحُلم!

ثلاثة أعوام مضت على رحيلكِ، مُنذُ أن تركتيني وحيداً، أصَارِعُ الَّليل والأنواء والقَدَر..

أشعُرُ أحياناً بتثاقُلها، كأنها ألفُ عام مِمَّا نعد ونرصد، وعلى النقيض تماماً يباغتني إحساس آخر بتسارُعها وهي تتخطف كشهاب ثاقب خرَّ من السماء!

أكتُبُ إليك في الساعة الثامنة وثماني دقائق.. وأنا أتدثر بأحزاني وآلامي وذاتي المحطمة. إنها ذات اللحظة التي شهدت رحيلك عن الدنيا.. عند ذاك، غطست شمس ذلك اليوم في عين حَمِئَة، لتُؤذِن بمغيبها وغيابك في آن معاً. عجبتُ حينها للونها الفاقع الإحمرار على غير ما يعرفه الناس منذ الأزل، فأدركتُ حينها أن الكون كله توقف عن الشهيق والزفير، وأدركتُ أنه لم يعُد هناك ثمَّة شيء يدعوني للتأمُّل والتفكُّر في حركاته وسكناته، بمثلما دأبنا على ذلك من قبل!

كان رحيلاً أسطورياً، كأنك خُططتي له بملء إرادتك، فلم يكُن ذاك الموت الذي نعرف.. الموت الذي تخرُج فيه رُوحُ المرء إلى بارئها، ويقف قلبُهُ عن الخفقان.. الموت الذي يُودع فيه الإنسان في ظلمات القبر، كتلك الظلمات الثلاث التي يتخلَّق فيها الجنين في بطن أمه. لكنه كان رحيلاً مُفعماً بمعانٍ جعلت الموت والحياة يتساويان، وما تلازمهما في المسير الذي نرى إلا محض تسابق غير مرئي لمن يجهلون!

نعم، كان رحيلاً أسطورياً، كما حياتنا نفسها، وإن قصُرت سِنيِنِها!

ثلاثة أعوام وأنا انتظر قُدُومك كأنك ذهبتِ لقضاء أمرٍ ما.. ما زال القلق يجتاحني على تأخُّرك على غير ما اعتدت.. سأواصل انتظارك لتأتين وأنت تهللين بشراً، بوجهٍ لا يعرف العُبُوس.. فهذا المنزل الصغير في حاجة لأن تُشعِلِي فيه فرحاً، بعد أن امتلأ حُزناً وتكاثرت عليه الهُمُوم.. ستجدين كُلَّ شيءٍ كما تركته.. حقيبة يدك الصغيرة ما زالت تستلقي مُطمئنة في مكانها المُعتَاد، كأنها وُضِعَت للتوِ..

أبحثُ في ثناياها من حين لآخر كمن يبحث عن شيء ضائع ولا يدري ما هو؟! لكنني أفعلُ ذلك كلما أعياني الصبر وأن أعد الدقائق والثواني لعلك تهلين وفي يدك بشارة الخروج. أنظر في محتويات حقيبتك.. عطرك الذي تحبين يحتل رُكناً قصياً، نظارة طبية للقراءة، أقلام مختلف أنواعها، ثيرموميتر لقياس حرارة الجسم، قصاصات وأوراق مبعثرة تعبر عن همومك وأنت في خضم محنتك.. مذكرة صغيرة تحتوي أرقام هواتف تنوَّعت مقاصدها، أقرأها بتمهُّلٍ لابُدَّ أن لكُلِّ رقم غاية.. أدركُ أن بعضها رَحَلَ أصحابها وكأنهم لا يرغبون أن تعيشي وحشة الطريق الطويل وحدك.. بعض الصفحات ضجَّت بمواعيد الأطباء الذي كثروا على تطبيبك ولم تعُد الذاكرة تتسع لملاحظاتك.. صفحات أخرى فيها مقتطفات من أغاني الحقيبة التي تهوين سماعها عندما لا يقوى خافقيك على فيض الشوق والحنين للوطن الذي تحبينه وأهله.. أتأمّل أبياتها المُنتقاة لعلني أجد قاسماً مشتركاً غير ذاك الألم الدفين والحُزن النبيل، أدقق أكثر كأثري ينقب عن تاريخ مستتر، فأجد فيها معانٍ على غير ما قصد ناظموها، فابتسم كما يبتسم المُؤرق عديم الحيلة والصبر.. أقرأ في صفحات أخرى همومك المنزليَّة.. كيف نصنع كيكة الشوكولاتا.. مقادير طاجن سمك بالخضار.. أي عيد ميلاد كُنتِ تُخططين للاحتفال به في زمن الموت؟!

بَيْدَ أنني ما توقفتُ أمام أيٍ من هذه المحتويات، بقدر ما توقفتُ أمام تلك العُلبة المستديرة باسماء أيام الأسبوع، وفي كل يوم عدد الحبَّات التي كان ينبغي عليك تناولها، ذلك من فرط كثرتها درءً للنسيان، وحرصاً على الالتزام بأوامر الأطباء.. يا إلهي، كل هذه العدد كان يغزو جسدك الغض الذي أنهكه المرض؟!

انتظركِ كل يوم في ذات المواعيد التي دأبتِ فيها على الحضور من عملك، فقد أصرَّيتِ إصراراً عنيداً على ألا تنقطعي عنه، ولو إلى حين. عندما أجادلك رأفة بحالك، تقولين إنه يجعل يومك مترعاً بالحيوية وأنت تعيشين وسط الناس، وهذا تفسيرٌ لا استطيع معه تأويلاً.. لكنني أعلم أنك تفعلين ذلك حتى لا يسري القلق لأسرتك الصغيرة، فكم كُنتِ تكرهين الكسل والتمارض واللا مبالاة!

لهذا فما زلتُ أقف مُحدِقاً في الأفق، انتظر قُدُومك، أشعُرُ بالقلق يجتاح كياني من تأخُّرك، فتأتين بتلك الابتسامة الوضينة التي سكنت بين شفتيك، أقول لك: هل نسيت موعدنا مع الطبيب؟! تقولين: لا.. وأقول لك: لقد تأخرنا.. فتقولين: لا تقلق، فأنا أعلم بأنهم ليسوا قلقين مثلك، ففيمَ العَجَلة؟! ثمَّ نمضي معاً كما تمضي سائر الأشياء في هذا الكون الذي لم ندرك أسراره..

أنظرُ لذاك الكرسي الذي يقبُع وحيداً في حديقة دارنا الأماميَّة وما يزال، لا أريد أن أزيحه من مكانه ذاك، لأنني أشعر بتأنيب ضمير مستتر.. ذلك أن طلبت مني مرة أن أستجلب كرسياً آخر، ولكنني مع هُمومي التي تكاثرت، نسيتُ أن

أفعل ذلك، ولم تُلحِفِي في السؤال مرَّة أخرى.. الآن فقط، أشعرُ كأنما كان هناك كلام كنتِ تودين قوله عندما نتجاذب أطراف الحديث كالعادة.. هل بالفعل كان هناك ثمَّة شيء تودين قوله ولم أدرك كنهه؟! على كلٍ.. ما زلتُ أحدِّق في ذاك الكرسي الصامت كل يوم أثناء دُخولي وخُروجي المُعتاد من منزلنا لعله ينطق.. وفي كل مرَّة أشعر كأنني أراه للمرَّة الأولى!

لم يكن ذاك الكرسي وحده، فالأمكنة أيضاً تُرهِقُني، كلما مررتُ بها أشعرُ أحياناً كأنني لم أغادرها، وفي أحيان أخر كمن عرفها بعد توهُّم.. لنا في كل مكان بهذه المدينة الصغيرة بعض ذكريات تتداعى إليَّ دوماً، كما يتداعى الرضيع لثدي أمه. فهي تمنحني القوَّة والضعف معاً.. ذكرياتٌ لم نُخطط لها وخططت لنا حياة اخترناها عُنوة في رحلة المنافي التي تعدَّدت، لهذا لم أدر يوماً أنني سأجترُّها كما تتجتر الإبل مخزون طعامها وشرابها وصبرها!

أرهقتني هذه الذكريات التي ألقت برحالها على عقلي وقلبي وفي صدري، ولكُلٍ منها لسانٌ وشفتان وطريق واحد مستقيم لا تعاريج فيه. هذه المطعم كنت تحبينه فنغشاه من حين لآخر.. ما زلتُ أذكر ذاك اليوم الذي غادرناه، فطلبت منا أن نقف برهة في الساحة التي أمامه ونحن متماسكو الأيدي، ولحظتك تتمتمين سراً بما لم أدر مغزاه، أظنك كنت تردِّدين ذات الأماني التي طالما تشاطرناها معاً لهذه الأسرة الصغيرة. لكن أصدُقُكِ القول كانت تلك لحظة شعرتُ فيها للمرَّة الأولي بشعور مخيف سرى في جسدى كدبيب النمل وبالطبع لم أشاء أن أفصح عنه!

ما أكثر المستشفيات التي زُرناها طيلة الأعوام السبعة التي كنتِ تكافحين فيها ذاك المرض الخبيث، كلما مررتِ بواحدة منها تقف جيوشاً من الذكريات مصطفة أمام ناظري كجندي يُؤدِّي فروض الولاء والطاعة.. أدهشُ كيف كان الأطباء يتعجَّبون من مرحك وروحك المعنوية العالية التي لا تعرف الانهزام!

بتُّ أقف على قبرك كما الطفل اليتيم في متاهته.. أحادثك وأؤانسك وأذرُّ على سمعك حديثاً كنت تحبين سماعه، أسمعُك تضحكين مرَّة يكاد القبر فيها أن يتهلل طرباً، وأحِسُّكِ مرَّة تصمُتين حتى يكاد القبر أن يتصدَّع.. أسرد لك أخبار الأسرة الصغيرة والأمانة التي ألقيتِها على كاهلي، وتنوء بحملها الجبال.. فقد أدركتُ أن هذه الحياة لا يمكن أن تسير على ساق واحدة..

كم كُنتِ عظيمة وأنتِ تُؤدِّين واجباتك كرسولٍ كُلف بتبليغ رسالة.. أبناؤنا الثلاثة كبروا وصغُرت هُمومي، أنهم في ذات الدرب الذي رسمناه لهُم سائرون.. أما صغيرنا "أواب" الذي سيبلغ بعد أقلَّ من أسبوعين عامه الحادي عشر، فقد كتب لك رسالة في هذا اليوم، وقال إنه يود أن يبثك شوقه في "عيد الأم" الذي صادف – يا للمفارقة – ذكراك الثالثة، بالرغم من أن عيدك ظلَّ بدراً لم يغب عن ناظرينا!

مضيتِ لا غاضبة ولا مغضوبٌ عليكِ إلى قبرك، وتركتيني في قبري الذي دُفِنتُ فيه حياً.. قبرُك منيرٌ، وقبري مظلمٌ بأفعال عُصبةٍ ما تزال تسوم وطننا وأهله سُوء العذاب.. ما فتئوا يكذبون ويُفسدون ويُنافقون.. أما أنا، فما زلتُ أمنِّي النفس بأن أقف على شاهد قبرك وأبشِّرك بذات الحُلم، الذي عملنا من أجله منذ شهقة الميلاد الأولى، وحتى زلزال رحيلك المهيب..

أرقُدِي في سلام.. السلامُ نفسه الذي تمنيته في الدُّنيا وعزَّ فيه الوصال! يا من يَتَّمتِنِي ولم تفارقِنِي إلا كفِراق الجفن للعين!

٢٠١٤/٥/١١

حِوارٌ في السّاعة الخَامِسَة والعِشرين مَع بَاقان أمُوم (١)

بغضِّ النظر عن ماهيَّة الأسباب والمُبرّرات، يجب أن نعترف بأننا لم نبلُغ سن الرُّشد بعد، في ممارسة الحوار الديمقراطي الحُر، الذي يُفضي إلى نتائج طبيعيَّة، وعوضاً عن ذلك، فقد تمظهر القصور في ميلنا الغريزي نحو إقصاء الآخر بشتى السُبُل المشروعة وغير المشروعة أحياناً، الأمر الذي يُعد دليلاً ساطعاً على فقرنا الشديد لمنهج الحوار بأسُسِه وآليَّاته المعروفة، وكتعبير عن هذا الخِواء، غالباً ما تحتل القوَّة الماديَّة مساحة المنطق، وتنداح العواطف لتحلَّ محلَّ العقل، مِمَّا يُربك النهايات المنطقيَّة لفكرة ما، أو مشروع، أو غاية، سواءً كانت سياسيَّة أو ثقافيَّة أو فكريَّة! والحوار أياً كان، مسموعاً أو مرئياً أو مقروءً أو مكتوباً ليس بمستغربٍ وفق ذلك السلوك إن تطرَّف البعض فيه، وتبعاً لذلك، قد تبدو العبارات السالبة التي تتطاير في مثل تلك الحالات دون كابح أو وازع يردعُها أمرٌ طبيعي، وكذا قد تسود أحياناً عبارات المجاملة التي تحمل مضموناً عاطفياً لا علاقة له بالأمر، فيكثر ضرف أو الطرفان معاً من كلمات "الأخ" و"الصديق" و"الخليل" و"الرفيق".. إلخ، وهي إمَّا جاءت بغرض تخفيف وطأة النقد على متلقيه، أو من باب درء الحرج الذي يشعر به الناقد، أو قد تحمل الكلمات في طياتها صبغة إعتذارية سلفاً للمُوجَّه له النقد، وهكذا يتم التحايل على أمر ثقافته لم تتجذر بعد في سلوكنا العم.

أياً كان التفسير لما نحن بصدده الآن، فالسيِّد باقان أموم، أحد أصدقائي العديدين في أروقة الحركة الشعبيَّة لتحرير السُّودان، وقد عرفت دروبها – أي الحركة – قبل أن أتشرَّف بمعرفته، وتوطدت العلاقة بيننا خلال رحلة نضاليَّة كان الهم الوطني حجر رحاها وقاسمها المشترك، ووفق هذه العلاقة الانسانيَّة والسياسيَّة قيَّضت لنا الظروف حوارات مُتصلة وعميقة داخل الغُرف والصوالين المغلقة، بيد أنني اليوم شئت أن أحاوره في الهواء الطلق وبصفته الإعتباريه كأمين عام للحركة الشعبيَّة، ومبعث الرغبة الحوار الذي أجراه معه الصحفي ضياء الدين بلال وزميله مالك طه، ونشر في 'الرأي العام' الاسبوع الماضي ١٣، ١٤ و١٧ نوفمبر ٢٠٠٧ على ثلاث حلقات، وتركز بشكلٍ أساسي حول جدليَّة الوحدة والانفصال، وقد اكتسب هذا الحوار أهميَّةً وبُعداً عميقاً نسبة لتوقيته الزمني، حيث أن القضيَّة المشار إليها تُعَدُّ الآن قضيَّة الساعة التي لا ينبغي أن

يعلو صوت على صوتها، ومثلما أشارت مقدِّمة الحوار فقد أنجز أموم ما وعد، وذلك برسم "الدهشة" على وجوه القرَّاء ومحاوريه بصورة لولبيَّة. وإيثاراً للسلامة فليسمح لنا سيادته أن نسبح معاً في المياه الهادئة من قبل التوغُّل في العمق، لعلَّ حوار الساعة الخامسة والعشرين يفلح في إجلاء بعض الغموض الذي لازم جدلية الوحدة والإنفصال!

- **<u>أولاً</u>:** في إطار أقدارنا السياسيَّة يمكن القول، أن علاقتنا بالحركة الشعبيَّة لتحرير السُّودان استندت منذ نشأتها على فهم مشترك في القضايا الأساسيَّة لهذا الوطن، وخلال مسيرتها التي زادت على العقدين من الزمن، تطابقت رُؤانا وتباعدت.. اتفقنا واختلفنا حول كثير من القضايا، وبهذا المنظور قد يَعِنَ للبعض أن يحسبُنا في دائرة المهاجرين الذين ناصروها ظالمة ومظلومة، فإن كان الأمر كما تراءى لهُم، فلن نتبرَّأ من شرفٍ لم ندَّعيه وتُهمة لم نُنكرها، ولهذا فليسمح لنا أمينها العام باقان أموم مرّة أخرى قبل محاورته أن نترجَّل من مقعد "الشريك الخفي"، إلى مقعد "المراقب الحقيقي" حتى يستقيم الحوار!

- **<u>ثانياً</u>:** كنتُ قد توقفتُ عمداً عن نقد أوضاع الحركة الشعبيّة لتحرير السُّودان بعد رحيل قائدها الفذ الدكتور جون قرنق دي مابيور (طيَّب الله ثراه بنفحات فكره الثاقب)، وهو إجراءٌ اتخذتُهُ بناءً على تقديرات شخصيَّة، لسببين: **<u>الأول</u>،** إداركنا أن الحركة الشعبيّة تمُرُ بمرحلة تاريخيَّة دقيقة لربما زاد النقد من أوجاعها التنظيميّة، وهو ما لا يُسعدنا بالطبع، فتركناها حتى تبرأ جُروحها! أما السبب **<u>الثاني</u>،** فقد تمثل في إداركنا أيضاً أن النقد المفترض قد يصُب في مصلحة الشريك الآخر (المؤتمر الوطني)، وهو أمرٌ إن حدث فإننا نعِدّه خيانة لقناعاتنا السياسيّة، نسبة لأننا قد حدّدنا موقفنا منذ وقتٍ مُبكّر من هذه الطغمة، وقلنا مرارا: لو كان الخيار لنا في المُفاضلة بينهم ونفرٌ من الجنِّ، لما تردّدنا لحظة في اختيار الأخيرين – أيا كانت هويّتهم العقائديَّة – إذ أن جنّاً معروفين أفضل لدينا من أبالسه مجهولي الهويَّة، وإن ارتدوا أقنعة الإنس!

- **<u>ثالثاً</u>:** يجب الإعتراف بأن تقبُّل الأمر الواقع على عِلاَّتِه استلزم مران النفس على أقصى درجات الصبر والتحمُّل والنسيان، فهو يعني إقناعها باستمرار أن الحركة الشعبيَّة لم تَحِد عن مبادئها، رغم التصريحات المرتبكة لقادتها، وإختلال سلم الأولويات بالنسبة لبعضهم، والتناقُضات المُؤلمة التي تأتي بين الفينة والأخرى. ومن جهة ثانية، يعني الأمر أيضاً إقناع نفسك بأن عُصبة الإنقاذ غيَّرت جلدها وجنحت بالفعل للسلم، رغم الواقع الذي تراه بأم عينيك، ويُؤكد لك بلا لبسٍ أو غموض أن العُصبة ازدادت صلفاً وغروراً وعنجهيّة. ولهذا ضربت الحيرة أطنابها حول عجزنا، وخيّمت الدهشة في مضاربنا، وكلاهُما أبي أن يتزحزح قيد أنمُلة، حتى كدنا أن نحسب الصبر خنوعاً والصمت خيانةً والنسيان نفاقاً!

- **رابعاً:** انتقدنا بشدَّة اتفاقيَّة السلام أثناء التفاوُض وقُبَيْلَ التوقيع النهائي عليها، وذلك من حيث اقتصارها على طرفين، دون الآخرين الذين تعِجُّ بهم الساحة السياسيَّة، وهُم شركاءٌ في ضرَّاء الوطن بشرعيَّة أكثر من الذين سطوا على السُلطة بليلٍ، لكننا ما لبثنا أن استسلمنا وتوقفنا عن النقد امتثالاً لأهم مُعطى نتج عن الاتفاقيَّة، وهو نجاحها في توقف الحرب وحقن دماء أبناء الوطن الواحد، وكُنا في هذا الأمر أشبه بمن يتجرّع السُمَّ بيده، ذلك لأن ثمن الرُكون للأمر الواقع كان يعني منح نظام عُصبة الإنقاذ شرعيَّة ظلوا يلهثون مِن ورائها منذ إطاحتهم الشرعيَّة المنتخبة في العام ١٩٨٩.

- **خامساً:** وفق مبادئنا، لا شكَّ أننا مع فتح النوافذ على مصراعيها حتي يدخُل الهواء النقي من جميع الجهات، وبهذا المنظور لستُ من الذين يتخوَّفون من ظاهرة المناقشة العامَّة التي بدأت تفرض نفسها حول جدليَّة الوحدة والانفصال، ومن الطبيعي أن تجد من يرى فى الأخير أمراً واقعاً لا مُحالَ، وبنفس المستوى هُناك من يُؤمن بالوحدة إيمان العجائز، وكلا يحاول أن يجمع حيثياته ليقنع بها أكبر قدر من الناس، وذلك في تقديري يعد ظاهرة صحيَّة مبعثها إعمال العقل في قضيَّة أرهقتها العواطف المُكثفة حتي كادت أن تؤدِّي بها إلى موارد التهلكة، فمِن هذا المنطلق لا أرى فيما تكتبه جماعة 'الإنتباهة' على سبيل المثال، أمراً مزعجاً.. صحيح أنه مستفِز، لأنهم ينظرون للقضيَّة بمنظور ضيِّق، وفي كثير من الأحايين يبنون آرائهم بناءً على معلوماتٍ خاطئة أو تحليل عشوائي، ويجنحون للتضخيم في محاولة لإكساب وجهة نظرهم مصداقيَّة، ورغم كل ذلك، ففي تقديري أن للقارئ أو المراقب عينٌ فاحصة تستطيع أن تفرز الغث من السمين، فينبغي مضاعفة الثقة فيهما، وإلا فإن الحُكم القاطع على أولئك الجماعة، يعني نوعٌ من أنواع الوصاية المرفوضة على القارئ أو المراقب!

- **سادساً:** تأسيساً على ما ذكرنا أعلاه، أجد في نفسي نفوراً تلقائياً مِمَا درجت الاتفاقيَّة والرأي العام على تسميته بـ"الوحدة الجاذبة"، ولعلَّ سبب نفوري يعود إلى طبيعة المُصطلح الذي لا يتواءم مع نُبل المقصد لسببين في تقديري: **أولهما**، إن عجزت حقائق الواقع وتقاصَر المنطق في أن يكون هذا الوطن كياناً واحداً، لا أعتقد أن سنوات معدودات هي عُمْر الفترة الانتقاليَّة بقادرة على تطويع المستحيل، ولربّما في هذا يكمُن السبب في التشاكُس الذي ميَّز علاقة الشريكين، وثانيهما إذا لم يكُن للشخص المعني المبرّرات الواقعيَّة التي جعلت من الوحدة فيما مضى أمراً منفراً، وعلي رأس تلك المبرّرات الديكتاتوريات التي تعاقبت على حُكم السُودان، واستهلكت من جملة خمس عقود في سنوات ما بعد الاستقلال، نحو أربعة عقود زمنيَّة منها، أي مانسبته أربعة أخماس الحقبة التاريخيّة، والمعروف أن هذه الديكتاتوريات تأذى منها

الشمال والجنوب معاً.. بناءً عليه، لم تكن الوحدة فيما مضى منفِّرة (لله في لله)، وبنفس القدر لا يُعتقد بأنها ستكون جاذبة لمجرَّد أن أقبَلَ عليها البعض ليلثمها قُبُلاً، ونستطيع القول إجمالاً لو أن السُّودان حُكم حُكماً ديمقراطياً صحيحاً منذ استقلاله، لما جاء الحديث عن قضيَّة مصيريَّة الآن بصيغتي التفاؤل والتشاؤم، أو بإختزال في نعم ولا!

- **سابعاً:** المُلاحظ أن كثير من السياسيين الشماليين والجنوبيين معاً وطّنوا أنفسهم في التعامُل مع قضيَّة الوحدة والانفصال من خلال تجاربهم الشخصيَّة، ورغم إحترامنا لتجربة أي فرد، إلا أنه لا يمكن أن تكون معياراً قيمياً تزن به قضيَة مصيريَة كهذه. هَبْ أن جنوبياً وشمالياً كانا متجاورين لمدَة عشرين عاماً، وعاشا طيلة هذه الفترة في مُقتٍ متبادل وكراهيَّة حادة، للدرجة التي إشتعلت فيها حروباً خفيَّة وعلنيَة بينهما طيلة تلك الفترة، وحدث أن استبدلا معاً ديارا بديار وجيراناً بجيران، فهل بالضرورة أن ينقل أي منهما مشاعر الشحناء والبغضاء للجار الجديد، أي يعاملانه بإرث الجيرة القديم أم وفق معطيات الجيرة الجديدة، ولنضرب مثلاً آخر بالمعاملة التي لقيها معظم الأنبياء والرُسُل من قومهم، وكانت في مُجملها صدوداً ومكايدة ومؤامرت وتعذيب وإهانات ومحاولات بالتصفيَّة الجسديَة، فلو أن هؤلاء الذين بُعثوا بالحق عاملوا قومهم بذات المنهج الإقصائي، هل كان يمكن أن نشهد بشيراً أو نذيرا من الأنبياء والرُسُل، بلغوا بدعوتهم منتهاها!

السيد باقان أموم ليس استثناءً من الذين ظلوا ينظرون لجدليَة الوحدة والإنفصال من خلال تجاربهم الشخصيَّة، وطبقاً لذلك، يمكن القول أن نظرته تلك تأرجحت عُلواً وهُبوطاً، وذلك ليس بذي بال، لولا أن الرجُل يتسنم الآن منصباً رفيعاً في الحركة، لا يحتمل الخضوع للأهواء والرغائب الذاتيَة. فكما هو معروف، قضى باقان شطراً من طفولته وصباه في الشمال، وذلك بالطبع لابُدَّ وأن يكون له أثراً غير مباشر في تكوينه النفسي، ولا يُعتقد بأن موضوع الانفصال شغل حيزاً في تفكيره آنذاك، ولا يذكُر هو أنه تعرّض لتفرقة عنصريَّة داخل اسوار مدرسته، لربَّما جاءت نُذُر منها خارجها، وغالباً ما تُعزى لشقاوة الطفولة، أي ليست منهجاً منظماً، لا سيَّما بالنسبة للكبار أنفسهم، أصبحت التفرقة العنصريَة نفسيَّة أكثر منها لفظيَة أو ممارسة عمليَّة، وبعكس مناطق كثيرة في العالم، تماثل الحالة السودانيَّة من ناحية التعدُّد العرقي والإثني، فإن الظاهرة في السُّودان تنازُليَّة وليست تصاعُديَّة بمعنى إن كانت سياسة الفصل الجغرافي الذي انتهجه الانجليز فيما سُمِّي بـ"قانون المناطق المقفولة" العام ١٩٢٢ هو قمَّة التفرقة العنصريَّة، يمكن القول أن خط الظاهرة البياني بعدئذٍ إنحدر للأسفل، ولم يصعد للأعلى، إلا من خلال التصعيد العسكري الميداني للحرب، ولم يحدُث مثله في قرى ومُدُن الشمال مثلاً، بل يمكن القول أن النُذُر القليلة الباقية الآن هي مجرَّد موروث لا يد للأجيال اللاحقة فيما سلفت فيه يد الأجيال السابقة.. زد على ذلك،

أن أزدياد فرص التعليم بالنسبة للشماليين والجنوبيين معاً، إلي جانب الرُقِي والتقدُّم الإنساني هذه أيضاً عوامل جعلت من الظاهرة مجرَّد استثناء عالق في الأذهان والنفوس أكثر من كونه قاعدة على أرض الواقع، وثمَّة الواقعيَّة أن يستطع البعض الانفكاك من إسار الماضي، ولا يؤخذ المواطن بجريرة الأنظمة العسكريَّة الديكتاتوريَّة!

المرحلة التالية في حياة باقان كانت انضمامه للحركة الشعبيَّة وهو يافع، فوجد نفسه مع آخرين في كوبا، ومن البديهي أن يجد فيها رعاية مميَّزة، دفعته فيما بعد لإجراء مقارنه غير واقعيَّة، فقد سبق لي أن سمعت منه أخطر رأي يمكن أن يُدلي به سياسي في حضرة آخرين، ورغم مرور أكثر من عشر سنوات على ذلك، إلا أنني كلما استرجعت هذا الرأي احترت في تصنيفه، هل أضعه في خانة الرأي الشُجاع أم المنفعل أم الساذج أم الصادق أم المتهور!

في يوم ١٩٩٦/١/٩ هيَّأت لي الظروف إقامة ندوة في العاصمة الإريتريَّة أسمرا على هامش إجتماعات هيئة القيادة، واقتصنت الفرصة قطعاً لدابر الانتظار المُمِل الذي ضرب بسياجه حول أعضاء هيئة القيادة بعد ما اتضح تأخر د. جون من الحضور في الوقت المُحدَّد، وحضرها وشارك فيها بالحديث كل ألوان الطيف السياسي، منهم السادة: عمر نورالدائم، مبارك الفاضل (حزب الأمة) فاروق أحمد آدم، فتحي شيلا، التوم هجو (الحزب الاتحادي الديمقراطي) باقان أموم، منصور خالد، محمد سعيد بازرعة (الحركة الشعبيّة لتحرير السُودان) التيجاني الطيب (الحزب الشيوعي)، عبدالرحمن سعيد (القيادة الشرعيَّة) حسين ولي أركاب (مؤتمر البجا) هاشم محمد أحمد (النقابات) فاروق أبوعيسي، بونا ملوال (شخصيات وطنيَّة) وقد تمَّت الإشارة لهذه الندوة لأوَّل مرّة في كتابي الأخير الذي صدر قبل عدة أشهر "سقوط الأقنعة.. سنوات الأمل والخيبة"، فما الذي قاله باقان وارتجَّت له قلوبٌ وهَوَت أفئدة آنذاك؟!

نظراً للمساحة المُحدَّدة، ذلك ما سنواصله في المقال القادم بإذن الله، ونتابع مع باقان هرولته بين صفا الوحدة ومروة الانفصال!!

آخر الكلام: لابُدّ مِن الدِيمُقرَاطيّة وإن طَالَ السَفر!
٢٠٠٧/١١/٢٦

حِوارٌ فِي السَّاعة الخَامِسَة والعِشرين مَع بَاقان أمُوم (٢)

نواصِلُ ما أنقطع من تسلسُل، وكُنا قد توقفنا الأسبوع الماضي في الندوة التي إلتأمت بالعاصمة الإريترية أسمرا على هامش اجتماع هيئة قيادة التجمُّع الوطني الديمُقراطي، وقلنا عنها أنها انتظمت بإرادة "رُبَّ ضارَّة نافعة"، فقد استثمرنا الظروف التي أدَّت إلى تأخير د. جون قرنق من الالتحاق بالاجتماع بدعوى انشغاله بشئون السِّجال العسكري في جنوب البلاد، تلك الندوة كما أشرنا حضرها كل أعضاء هيئة القيادة – عدا الرئيس – وبذات التمثيل الحزبي الذي جرى ذكره في الحلقة الماضية، وتوقفنا في الحديث الذي أدلي به السيد باقان أموم، وزاغت جرَّاءه عيون البعض حتى كادت أن تخرُج من محاجرها..

ابتدره بتمهيدٍ ساقه وأبدى فيه سعادته - لا أسفه - بتحطيم الجبهة الاسلاميَّة لما أسماه بـ"جهاز الدولة القديم" أو "دولة الجلاَّبة"، مشيراً إلي أن ذلك يشمل الجيش "كجهاز قهر" وكانت تلك في تقديري "شوفينيَّة سياسيَّة" إن جاز التعبير، ينأى عن حياضها المثاليون، فالجبهة لم تحطم ذلك الجهاز بدعوى أنه غير صالح، ولكن لأنه لا يتوافق مع رُؤاها، وقد فات على أموم أنها حطمته لتقيم مكانه دولة القهر الحقيقيَّة، ولعله التمس ويلاتها الآن إذ أنه "ليس من رأي كَمَن سمع"! ومع ذلك فقد كان واضحاً أن العبارة محض إسقاط طبيعي للمشاعر التي أدَّت إلى اندلاع واستمراريَّة تلك الحرب اللعينة، دون التفكر في تمحيصها!

لكن الذي لم يكُن طبيعياً ما اتصل بعدئذٍ في حديثه وفجَّر خلاله قنبلة موقوتة في وجوه الحاضرين، وضرب فيها مثلاً بتجربته الشخصيَّة، فقال: **«أنا كشخص، ليس لديَّ ولاء للسُّودان، وبالتالي فهو غريب عليَّ.. في مدينة هافانا في كوبا، كنتُ أشعُرُ بانتماءٍ، وأنني جزءٌ من المُجتمع، وسألتُ نفسي: هل هذه خيانة، أم ماذا؟! لكن الحقيقة كنتُ أشعر بأنني مندمج في المجتمع، ولا أشعر بالعُزلة، أو أنني مواطن من الدرجة الثانية.. في الخرطوم مثلاً، أشعر بأنني في الغُربة.. كنتُ أقول لنفسي: هل هذه قلّة في الوطنيَّة، أم أن هناك سبباً آخر؟! الحقيقة، السبب أنني تربَّيتُ على ذلك.. أنا أقول، كاقتراح أن عاصمة "السُّودان الجديد" يجب أن تتحوَّل من الخرطوم، لأن الخرطوم تُذكِّرنا بأشياء مؤلمة كثيرة.. لابُدَّ أن نبحث عن مدينة أخرى، في أي مكان».**. وتوقف عند تلك النقطة، وبدأ لي كأنه أفرغ من جوفه همَّاً ثقيلاً خيَّم على صدره زمناً طويلاً!

بعد ذلك مباشرة، ساد صمتُ القبور على قاعة الاجتماعات الرحيبة في الطابق السابع في فندق نيالا.. وَجَم الحضور كأنما حطَّ على رُؤوسهم الطيْر، وتفرَّستُ وجوه الحاضرين علَّ أحدهم يود التعقيب.. انبرى منهم السيِّد التيجاني الطيِّب، ربَما لإحساسه بأن القائل تدثر ببقايا الفكر الذي ينهل منه حزبه، فقال اختصاراً: «**على الرغم من تفهُّمنا للأسباب الموضوعيَّة التي تقف خلف هذا الكلام، إلا أن مثل هذه الآراء تُفزعنا**»، وكان ذلك قولا سديداً كفى الحاضرين مغبَّة الخوض في جدلٍ لا أحد يعلم مبتداه أو منتهاه، وقد استأذنني التيجاني في نشر مقتطفات من حديث أموم ذاك في الدوريَة التي يُصدرها الحزب "قضايا سودانية" العدد العاشر، وكأني به يريد زيادة مساحة الفزع الذي لم يستطع مداراته في تعقيبه القصير البليغ!

بَيْدَ أن الذي دعاني لتذكُّر حديث أموم اليوم رغم مُضي أكثر من عشر سنوات عليه، حديث مماثل أثناء زيارته الأخيرة للولايات المتحدة الأمريكية أواخر سبتمبر الماضي، حيث نظم له نشطاء الحركة الشعبيَّة في منطقة واشنطن الكبرى ندوة وقد ورد في سياق حديثه وفق التقرير الذي نشرته ('الأحداث' ٢٠٠٧/٩/٣٠) عبارة اخرى لا تُعدُّ إلاَّ أن تكون عزفٌ جديد للحن قديم، رغم اختلاف المفردات وتغيُّر الأمثلة.. في تلك الندوة، استهلّ باقان حديثه بمباغتة الحضور في قوله: «**لابُدّ أن أوكد على أنني حركة شعبيَّة أكثر من أنني سُوداني**»، بل ذهب إلى التأكيد على أن السُودان إذا ما قُدِّر له المُضي بعيدا عن رؤية الحركة الشعبيَّة فإنه لن يمضي معه، وزاد ضاحكاً: «**ربَما تجدوني حينها مواطناً أمريكياً مثلكم**»، معتبراً الحدّ الفاصل بين سودانيَّته وعدمها، هو التزام الحكومة بإنفاذ "اتفاقيَة السلام الشامل"..

الرأي عندي هذا قولٌ ثقيل الوطء على النفس أيضا "كمشي المرجرج خائض الوحل"، فكيف للمرء أن يرهن بمغامرة لعبة "الروليت الروسيَة" هُويَّته الوطنيَّة بنظام هو كالدهر لا أمان له؟! وبمنطِقِه، من ذا الذي يسحب الآخر نحو حظيرته، هل السُودان هو الذي يجُر الحركة الشعبية أم العكس؟!

نظير هذا، أذكر أنه كثيراً ما ساءني الإسلامويين حينما يُمايزون بين دولة المُواطنة والعقيدة، علماً بأنه خشية مغبَّة مثل هذا الخلط الشائهة، ظلّ عقلاء البشريَّة ينادون منذ الأزل بفصل الدين عن السياسة، تأسيساً على أن المواطنة أمرٌ دنيوي يحتمل الاجتهاد، والعقيدة شأنٌ ديني مُسلَّم به، وها هُو باقان بحديثه المذكور يكرِّر خطأ الاسلامويون ولكن برواية علمانيَّة، فهُو يفاضل بين المواطنة والهُويَّة السياسيَّة، علماً أنها مفاضلة ضيزي، لأن الهويَّة السياسيَّة تلك، سواءً دان فيها المرء للحركة الشعبيَّة أو الأمَّة أو الشيوعي، فهي ترياق المواطنة، وإن حدث أن اختفت أو انعدمت فإن ذلك ببساطة يعني إنعدام مرجعية التنظيم!

عوداً على بدء، كنا قد أشرنا إلى أن كثير من القيادات السياسيَّة الشماليَّة والجنوبية باتت تنظر لجدليَّة الوحدة والإنفصال من خلال تجاربها الشخصيَّة، وقلنا إنه مع كامل الاحترام والتقدير لتجارب أي إنسان، لكنها لا ينبغي أن تكون معياراً قيمياً وفيصلاً في قضيَة كهذه يُفترض أنها تخضع لعومل أخرى ليس من بينها التجارب الذاتيَة، فهي على الأقل إضافة لضيق ردائها، إما أنها كانت غير سارّة أو غير مستقرَّة (تلك القاعدة، الاستثناء فيها قلّة)، وفي هذا السياق بدأنا في متابعة مسيرة العُلو والهُبوط بمحاولة استنباط الظروف التي نعتقد أنها أثرت في عدم استقرار جدليَّة الوحدة والانفصال في نفس أو فكر السيِّد باقان أموم، وبالطبع ما كان لنا أن نقبل على ذلك لولا أن الرَّجُل يباشر مسئولياته في أهم منصب تنظيمي كأمين عام للحركة الشعبيّة، أو بعبارة أخرى، المايسترو الذي يقف على رأس الفرقة الموسيقيّة!

كانت المحطة الثالثة لباقان بعد كوبا مسرح العمليّات في جنوب البلاد، ومن البديهي أن تؤجّج أجواء الحرب ورائحة الموت الكريهة مشاعر الشحناء والبغضاء وإزدياد حدَّة سلبيتها، لا سيَّما تلك التي ولدتها مفارقة المُقارنات بين زمنين في كوبا والسُّودان، لكنها ما لبثت أن خفت أوارها بعض الشيء وذلك في المحطة الرابعة وفق ما سنرى، حيث أتاح انقلاب الجبهة الإسلامويَّة في العام ١٩٨٩، أن ينتظم لواء المصابين في كيان التجمُّع الوطني الديمقراطي، وإلتحقت به الحركة الشعبية العام ١٩٩١ ليصبح وعاء جمع الإرادتين الشماليَّة والجنوبيَّة للمرَة الأولى معا، واختصاراً لتطوُّرات تاريخيَّة كثيرة إنتقل هذا الكيان جغرافياً بعد مؤتمر أسمرا للقضايا المصيريّة إلى ما درج بتسميته "الجبهة الشرقيّة" لمباشرة نشاطه العسكري، وهو ميدانٌ يختلف تماماً عن "الجبهة الجنوبيّة" التي كانت تتحرَّك فيها الحركة الشعبيَّة منذ نشأتها. ومن دون الدخول في تفاصيل كثيره ربَما تكون مرهقة للقارئ، يهمنا أن نقول أن تلك النقلة في حياة أموم كانت نفسيّة أكثر من كونها جغرافيّة، وقد وفر الإحتكاك المباشر في ذلك الفضاء مناخاً صحياً لغلبة التفكير العقلاني، وانعكس إيجاباً وبشكلٍ تلقائي على مشاعر الوحدة، وتنامى حتى بلغ قمَّته عندما تسنى له قيادة الجبهة على رأس الفصائل العسكريَّة السبع، وإن كانت عملياً أقل من ذلك، وفعلياً صاحب أنشطتها النجاح والفشل بقدر سواء!

المرحلة التالية تدرَّج فيها من العمل الميداني الذي كان يقوده في الجبهة الشرقيّة إلى منصب الأمين العام للتجمُّع الوطني، وهي الخلافة التي جاءته تجرجر أذيالها بعد خروج حزب الأمَّة، ولم يكُن ثمَّة مناص من أن يؤول المنصب له بعد أن كان يتولاه بالعناية والرعاية السيد مبارك الفاضل، وقد لا نظلم أموم إن قلنا أن المنصب بصبغته القوميَّة كان يحتم على من يتسنمه في قضيّة الوحدة أن يكون كاثوليكياً أكثر من البابا، وليس ثمَّة مفر أمام شاغره سوى أن يرمي بأي نعرات انفصاليَّة في قعر جُبٍّ عميق!

أثناء تقلده ذاك المنصب كان أموم وفق ما كشفنا عنه لأوّل مرّة في الكتاب هو عرّاب لقاء جنيف مع مجموعة المؤتمر الشعبي (فبراير ٢٠٠١) ولعله يذكر أنه ذات أمسية قاهريَّة عقب عودته مباشرة من جنيف، جمع أحد الأصدقاء رهط من المعارضين على شرفه، أذكر منهم السيد فاروق أبوعيسي، الفريق عبدالرحمن سعيد، العميد عبدالعزيز خالد، الاستاذ محجوب عثمان، العقيد كمال إسماعيل، السفير السابق عباس أبا سعيد، مولانا سيف سليمان، السيد جابي فايز غبريال وشخصي، يومذاك تركز الحديث حول وقائع المناسبة التى لم يجف حبر توقيعها بعد، وتركز بعدئذٍ حول جدليَّة الوحدة والانفصال، وجرى الحديث عن التيَّارات التي تتشكَّل منها الحركة الشعبيَّة في الضفتين وبأمثلة حيَّة!

لربَّما من باب التبسيط لقضيّة أصلاً شائكة ومعقده جداً، وضع أموم المسألة في شكل نسب، كقوله أن فلان وحدوي بنسبة كذا وانفصالي بنسبة كذا، ومضى في حديث الشفافيَّة ولم ينس نفسه، وقد تحدَّث عنها بشكلٍ يحسده عليها البارعون في قضاء حوائجهم بالكتمان، وخلاصته قال إنه قبل تجربة التجمُّع كان انفصالياً متطرِّفاً بنسبة مائة في المائة، لكن ثمَّة عوامل غيَّرت من تلك الحتميَّة لصالح الإيمان بالوحدة، وتمتنت أكثر في إطار النشاط العام في التجمُّع الوطني الديمقراطي، وتقديري أنه لم يكن مغالياً في ذلك، بل هذا بالضبط ما نحاول أن نترصَّده في هذه المسيرة. وأذكر يومذاك سأله أحد الحاضرين عن ميول د. جون وموقعه من إعراب الوحدة والانفصال، فقال باقان: «**ففتي ففتي**».. وكان ذلك إيماءً منه في القول بطريقة غير مباشرة، ليس أمام قرنق خيار سوى أن يتناصفه الفريقين، طالما أنه يرأس حركة فيها الوحدوي والإنفصالي يقفان حذوُك الكتف بالكتف، وبينهُما بندقيَّة!

اتساقا مع ما نحن بصدده، أستطيع أن أقول برأي شخصي أن الرَّاحل د. جون كان - كما أشار أموم - يبدو لناظره "فيفتي فيفتي" ولكن ذلك من ناحية نظريَّة أو إن شئت فقل مظهريَّة، لأن منصبه كقائد يحتم عليه أن يمسك بتلك العصا من منتصفها، وإلا تشظت الحركة وراحت شذراً مذراً، بَيْدَ أنني أستطيع أن أقول إنه من ناحية الجوهر، فقد كان وحدوياً بدرجة مائة في المائة، وشاهدي في ذلك: **أولا**، أنه خاض حرباً ضارية بداية تأسيس الحركة، ليس ضد "دولة الجلابة" كما يسميها باقان، ولكن ضد القوى الانفصالية في الحركة.. و**ثانياً**، كان د. جون يُدرك – ورحم الله أمرئ عرف قدر نفسه – أن كارزميَّته القياديَّة بقُدراتها الفكريَّة والسياسيّة أكبر من أن تستوعبها رقعة الجنوب الجغرافيَّة المحدودة، وأنها أرحب أن تتمدَّد في المليون ميل مربع، وتلك مسلمة ربَّما تراءت له إبان نشاطه في إطار التجمُّع الوطني، مثلما تراءت لنا نحن معشر المراقبين! و**ثالثاً**، نظن بغير إثم أنه كان واثق النفس في الأفكار التي تبناها نظريا، بُغية

الوصول عملياً لمفهوم "السُّودان الجديد" وكان عظيم الثقة كذلك في أنها يمكن أن تصلح ما أفسده الدهر والعطار معاً! وأخلاقياً، هذا إرثٌ ينبغي أن يُصان!

لعلَّ باقان يذكُر لحظة أن أشجي جالسيه وأضحكهم حدَّ الثمالة، ذلك حين سأله أحدنا عن المستشار، فمِن باب التفكُّه أورد للحضور النسب التي منحها له د. قرنق في إحدى طُرَفِهِ، ذلك حينما لاحظ بحِسِّه السياسي أن نفس المستشار – وفيها بعض جاهليَّة الأنظمة الشموليَّة كما نعلم – راودته بين الحركة والحزب العتيد، بدلائل أنه صار يومذاك أقرب لزعيمه من حبل الوريد، واستكمالاً للطرفة كانت النسبة الأخرى التي منحها له د. جون يوم أن توزَّع ولاء المستشار بين الحركة وحفيد الملك نمر، وكان الرَّاحل كريماً فيها فقد احتفظ بالرُبع للحركة وذهبت الثلاثة أرباع للمذكور، وكادت أن تصبح واحداً صحيحاً يوم أن انبرى صاحبنا يدافع عنه في أروقة التجمع بمنطق "كل صاحب نعمة محسود"، ذاك كان يوم أن دكَّت صواريخ "توما هوك" منشأة "النعيم ود حمد" دكاً وساوتها بالأرض، ضحكنا جميعاً لدقة الملاحظة يومئذٍ، ونقول الآن رحم الله زعيم الحركة الشعبيَّة بقدر ما أدهش عدوّه فى سُوح المعارك، وبقدر ما شنّف آذان مستمعيه بحديثٍ لا يملون سماعه!

اتصالاً مع ما مضى في مسيرة الصعود نحو مراقي الوحدة أحياناً، والهبوط نحو درك الانفصال أحياناً أخر، يجلس أموم الآن في المحطة الأخيرة على سُدَّة الأمانة العامة للحركة الشعبيَّة، وهو المنصب الأهم في الهيكل التنظيمي، وقد لاحظتُ على عكس ما هو مُفترض أن أموم الأكثر حديثاً فيه عن الانفصال، وكم كنتُ أتمنى أن أكون مُخطئاً لكن الحقيقة ذلك ليس اجتهاداً أو افتراضاً فهو أمرٌ مسنود بالوقائع العمليَّة، فيما قرأته له من تصريحاتٍ أو ندواتٍ أو تصريحات، وجاءت الحلقات الثلاثة المنشورة في الرأي العام والتي أستند عليها هُنا في التحليل، كخاتمة بنيسة في هذا الصدد، فباقان سياسي براجماتي ذكي وجرئ وأخلاقي في تعامُلاته، يُبرِّر الغاية بالوسيلة إن كانتا معاً مشروعتين وهذا يُحمَدُ له، لكنه بنزق الشباب يجنح نحو الانفعال الضار، وتخرُج من كنانته أحيانا سهاما طائشة يصعب التحكم في مساراتها، في حين أن المنصب سواء في التجمُّع الوطني الذي أصبح اثراً بعد عين أو الحركة الشعبيةِ يتطلب التحلي بحكمة الشيوخ، بخاصة أن القضية التي نحن بصددها هي بإختصار رسالة مفاداها أن يكون السُّودان أو لا يكون!

مع التسليم أن تلك ليست بانوراما سياحيَّة في حياة أموم، وإنما خلفيَّة لتفهُّم آراءه حول جدليَّة الوحدة والإنفصال.. ونتابع...

آخر الكلام: لابُدَّ مِنَ الدِّيمُقرَاطِيَّة وإن طَالَ السَّفر!
٢٠٠٧/١٢/٢

حِوارٌ في السّاعة الخَامِسَة والعِشرين مَع باقان أموم (٣)

مواصلةً لحوار الهواء الطلق الذي ابتدرناه مع السيد باقان أموم، استعرضنا في الحلقتين الماضيتين خلفيّة حياته العامّة بمساراتها المتعدّدة داخل وخارج السُّودان، وذلك من زاوية إعتقادنا أنها كانت ذات تأثير مباشر على رؤاه السياسيّة بشكل عام، وجدليَّة الوحدة والانفصال بشكلٍ خاص، وبالطبع ما كان لنا أن نضعها تحت المجهر لولا أن الرَّجُل يجلس الآن على قمّة الهرم التنظيمي كأمين عام للحركة الشعبيَّة، وجاء ذلك في إطار الملاحظة التي أوردناها وقلنا فيها أن كثير من السياسيين الشماليين والجنوبيين دأبوا على ممارسة "أبغض الحلال" في التعامُل مع القضايا الوطنيَّة الكبرى، وذلك بتلبيسها جُلباب تجاربهم الشخصيّة، ومِمَّا يعقد المسألة أكثر أن تلك التجارب بغضِّ النظر عن تواضُعها ومحدوديتها وخيبتها في أحايين كثيرة، فهي دوماً ما تتشابك مع آراء الحزب المُعين او التنظيم، بحيث يجد المراقبون صعوبة في الفصل بين الآراء الشخصيّة لقيادي ما وبين البرامج التنظيمية لهذا الحزب أو ذاك، وهذا ما أصطلح الناس على تسميته بـ"إنعدام المؤسسية" أو إن شئت فقُل الداء الذي تشكو منه كل تنظيمات المجتمع المدني السودانيّة!

مع التسليم أن التجارب الشخصيَّة ليست فيصلاً في القضايا القوميّة، إلا أننا لا نعني أن هذه التجارب كلها شرٌ، بل لا ينبغي لها أن تكون، ففي التقدير إن صاحبتها قناعات راسخة وعضدتها مبادئ سامية، فقد تُثْرِي وجهة نظر صاحبها أياً كان فُجُورها وتقواها، أي نحو مراقي الوحدة أو تجاه درك الانفصال. وفي التقدير وطبقاً لهذا المفهوم نعتقد أن كثير من قيادات الحركة الشعبيّة، أو تحديداً أمثال باقان أموم ورياك مشار ولام أكول ودينق ألور ونيال دينق وإدوارد لينو وبيتر نيوت كوك وآخرين، ليسوا في حاجة للمصطلح الذي شاع بعد نيفاشا وسُمي بـ"الوحدة الجاذبة"، ذلك من منطلق أنهم عاشوا شطراً من حياتهم في الشمال، ولا شك أن ذاك الوجود الحِسِّي قد أتاح لهم معايشة الواقع عملياً والتعرُّف على لُب المشكلة وتعقيداتها، ولا أظن أن أحداً منهم إبتعد عن تشخيص الأزمة وفق المفهوم الذي درجت عليه كل القوي الوطنية الديمقراطيَّة، لا سيَّما وأن غالبيتهم نهل علومه ومعارفه الأكاديميَّة من جامعة الخرطوم معقل تلك الآراء النيرة، ولهذا يبقى تأرجُح بعض هذه القيادات بين خياري الوحدة

والانفصال أمراً غريباً، في حين أن زعيم الحركة د. جون قرنق والذي تثنت له فرصة العيش في الشمال، ولكن بدرجة أقل - كماً ونوعاً - بعد اتفاقيَّة أديس ابابا ١٩٧٢، كان حتى رحيله يُعد حصان الوحدة الرابح وإن إختلفت الطموحات!

ولنضرب مثلاً آخراً يبدو نقيضاً لسابقه، أنظر للرجُل المثير للجدل د. حسن الترابي وتقلبه يسار الوحدة حيناً ويمين الانفصال أحياناً أُخر، فالدكتور العالم الفقيه بدأ حياته السياسيَّة بالعزف على أوتار قضيَّة الجنوب، وقال يومها حديثاً مشبَّعاً بلبيراليَّة أهل الغرب، الذي قدِمَ منهم للتوِ، لكنه حينما دانت له السُّلطة شاء إخضاع الجنوب نفسه بالقوَّة العسكريَّة، وطمح في أسلمته حتى يكون جسراً لتمدُّد طموحه نحو خاصرة القارة، وعندما هربت منه السلطة بـ"الباب" بعد أن تنكر له تلاميذه وفاصلوه بطلاق بائن، طفق يبحث بـ"الشباك" عن ذات الحركة التي قاتلها ووصفها بالكُفر والإلحاد والصهيونيَة!

بمقاربة أخري في الأمثلة التي لا تنتهي، لو أن ياسر عرمان استسلم لرُدود الفعل التي واجهته عشيَّة انضمامه للحركة الشعبيَّة في معسكر "إيتانغ" لكان اليوم أحد كوادر منبر الطيِّب مصطفي بدون منافس، أو كاتباً نجِزيراً في صحيفة 'الإنتباهة' يُذكِّر الناس بفضائل الإنفصال! لكن الذي حدث يومذاك، أن المقادير وضعت رجُلاً حكيماً في طريقه، هو البروفيسور باري ونجي، كان ياسر في ذروة معاناته جرّاء الشكوك التي نسجها البعض حوله بالإرث التاريخي، إنتاشته سهامهم بإعتباره "طابوراً خامساً" أو "غواصة" بلغة شارع اليوم، وأنه محض "جلاَّبي" وفقاً للتوصيف الذي بات يردِّده أموم بكثرة، وقالوا عنه أن حكومة "المُندُكورو" في الخرطوم أرسلته لتَسقُط أخبار الحركة الوليده وكشف أسرارها، لكن نصائح البروفيسور ونجي غسلت دموعه التي ضارعت أمطار الهضبة الأثيوبيَّة في غزارتها، وانتشلته من غياهب اليأس والقنوط، وببساطة ذكَّره ونجي بالحِكمة الأزليَة القائلة أن في الكون أناس صالحين يمكن أن يتفهَّموا دوافعه، مثلما في الكون أيضاً أناس طالحين لا ينظرون للأمور أكثر من أرنبة أنوفهم، وكان ذلك كفيل بأن يُهدِّئ روع القادم الجديد، لكن المفارقة الميلودراميَّة أن ونجي نفسه جرفه تسونامي الانفصال في طوفان ١٩٩١، بينما آوى ياسر إلي جبلٍ آخر يعصمه من ذات الإنفصال، فوجد ضالته في زعيم الحركة الشعبية د. جون قرنق!

في ضوء تداعيات هذه الخلفيَّة، نستمرُّ في مناقشة بعض الأفكار التي وردت على لسان أموم فى الحوار الذي تمَّت الإشارة له ونُشر في 'الرأي العام' في حلقاتٍ ثلاث، وبعض هذه الأفكار تكرَّر ترديدها مِمَّا أعطى الانطباع أنها أصبحت منهجا ثابتاً في سلوك الأمين العام السياسي، وبادئ ذي بدء لا يستطيع المرء أن يُخفي دهشته من الرأي الذي ورد في ديباجة الحوار واحتفت به الصحيفة على لسان أموم، والذي تمثل في وعدٍ قطعه لها قبل إجراء الحوار بقوله

أنه: «**سيتحدَّث عن الوحدة والانفصال بصورة ستدهشهم**».. ووفقاً لهذا الزعم وبناءً على الافتراض الذي ذكرناه أعلاه في انعدام المُؤسَّسيَّة بصورة عامة، لابُدَّ للمرء أن يتساءل: هل الآراء التي ساقها أموم ونعكف الآن على مناقشتها تُعبِّر عن رأيه الشخصي، أم هو رأي الحركة الشعبية؟! ولو أن الإجابة أكدت أنها رأي الحركة الشعبيَّة، فهل يعني ذلك أن هذه الآراء جبَّت ما قبلها من أفكار وبرامج؟! وإن كانت الاجابة بـ"نعم"، فنماذا لم تعلن الحركة الشعبيَّة لجماهيرها بل لجماهير الشعب السُوداني قاطبة عن تغيير أو تبديل أو تحوير طرأ على برامجها؟! ومن جهة ثانية، سواء عبَّر الحديث عن رأيه الشخصي أو رأي الحركة، هل جاء نتيجة رد فعل لتصرُفات الشريك في الأزمة الراهنة؟! أم أنه تطوُّر جديد في تشخيص الحركة الشعبيَّة للواقع وكيفيَّة التعامل معه؟!

إن الدهشة التي توخَّاها أموم بعثت دهشة أخرى بطريقة التناضُح العكسي، ذلك أن دهشته التي عناها هي في التقدير انطوت على قدر كبير من الآراء المتناقضة، ولا شك أنها استلفتت إنتباه القارئ وقبله كانت قد لفتت انتباه الصحفيين اللذين حاورانه، والمثير في الأمر أنه بالإضافة إلى تعدُّدها، فإن بعضها يقع في فقرة واحدة، ولا أدري كيف فعل أموم ذلك وهو الرجل الحصيف! وحتى لا نُتهم بإلقاء القول على عواهنه، نسوق بعض الأمثلة.. ففي سياق ردّه على دور المُستعَمِرين في ترسيم الحدود، قال أموم: «**السودانيون لم يرسمُوا حدود بلادهم.. هذه الحدود رُسمت بطريقة اعتباطيَّة لا تعبِّر عن الواقع، ولكن تعبِّر عن نفوذ استعماريِ للإنجليز، وبالتالي هذه الحدود هي حدود استعمارية**».. الحقيقة أن ذلك يُعد كلاماً عذباً يمكن التأمين عليه، لكن أموم بعد دقائق معدودات، أي في السؤال الثالث في التسلسُل، ناقض نفسه بطريقة لافتة للنظر..

ففي إجابته على سؤالٍ من الصحفيين حول ما إذا كان مؤمناً بأن ترسيم الحدود بواسطة المُستعمِر تمَّ برؤية يمكن أن تكون منتجة للأزمات داخل الدولة الواحدة، أو بين الدول، فقال: «**أنا لا أتفق مع النظرة للحدود بأن ترسيمها يوحي بمؤامرة، أو أن وضعها كان جزءً من مؤامرة استعماريَّة، ولكن أعتقد أن الحدود رُسمت إما بطريقة إعتباطيَّة دون مُراعاة لأي واقع اجتماعي أو سياسي أو ثقافي أو أنها وُضعت كخطٍ فاصل بين مناطق نفوذ استعمارية**».. وبالطبع يحتار المرء بين النقيضين، كأني به لا يريد أن يوافق السائل لمجرَّد الظهور بمظهر المُخالف، فما قاله الصَّحفي هو التفسير الذي استقر عليه رأي المُستعَمِرين والمُستعَمَرين أنفسهم، والدليل هذه الحروب المتصلة سواء داخل الدولة الواحدة أو بين الدولة وجيرانها.. نعم، ترسيم الحدود لم يراع الواقع الثقافي والسياسي والاجتماعي لهذه الدول، لأنه وضع مصالح المُستعَمِر فوق مصالح تلك الدول، وللوصول لهذه الأهداف الخبيثة خلَّف وراءه قنابل موقوته بغية تفجيرها حال رحيله!

في بطن إجابته السالفة الذكر، أطلق أموم سهماً عشوائياً في قوله: «**لو أن الجنرال الفرنسي مارشان لم يتراجع عن منطقة فشودة في القرن التاسع عشر، لكنتُ الآن أتحدَّث معك بالفرنسيَّة، بل ليته لم يتراجع لأنه كان الجنوب سيكون ضمن المستعمرات الفرنسيَّة والشمال تابع للمستعمرات البريطانية، ولما كانت هناك حرب أهليَّة، بل سنكون جيران (زي ما نحن جيران مع أفريقيا الوسطى، لكن الفرنسيين انسحبوا)**».. افتراضاتٍ للأسف كلها خاطئة، وقد سوّلت لي نفسي أن باقان إرتأى المزاح في هذه الاجابة وأتمني أن يكون كذلك، فالحديث عن أن الجنوب كان سيكون مُستعمَرة فرنسيَّة، وبزعمه تلك مزية إيجابيّة هو إفتراضٌ ساذج، فلا اظن أنه لا يعلم أن الاستعمار هو الاستعمار أياً كانت هُويَّته، علاوة على أن عين الرضا في المثل الذي ساقه وضعت أفريقيا الوسطي وتغاضت عن تشاد رغم أن كليهما يتحدثان الفرنسية!

عندما يُعقب عليه الصَّحفي باستنكار مردّه لماذا لا ينظر لسياسة المناطق المقفولة باعتبارها واحدة من معوّقات الترابُط والتفاعُل؟ وبالمناسبة، ليس هذا افتراض الصَّحفي وحده، بل هي الحيثيات ذاتها التي توارثتها النخب السودانيَّة أباً عن جد، وتواصت عليها وإعتبرتها بمثابة "أم الكبائر" في رصد أسباب الحرب والنزاعات الاهليَّة، وأموم نفسه لم يجد عن ذلك التحليل لكنه زاد عليه بلوم بزّ به البروفيسور الكيني على المزروعي في أفكاره القائلة بضرورة عودة المُستعمِرين لأفريقيا بدعوى فشل حُكَامها ونُخبها السياسيَّة، وليت باقان قال ذلك أيضاً، فهو على الأقل حديثٌ جدلي يحتمل الخطأ ويحتمل الصواب بقدرٍ سواء، لكنه عوضاً عن ذلك قال: «**أنا لا ألوم الإنجليز على سياسة المناطق المقفولة فقط، ولكن يمكن أن نلومهم على أنهم جمعوا مجموعات مختلفة في حتة واحدة في منطقة السُّودان، ونلومهم على أنهم وحَّدوا السُّودان ووضعوا الحدود بهذا الشكل، ويمكن أن نلومهم أنهم أعطوا السُّودان الحُكم الذاتي وقرَّروا الجلاء قبل أن يُوحِّدونا، ويمكن أن نلومهم على كل ذلك**»..

مرّة اخرى، أفترض أن أموم يمزح أو أنه إستهواه "سجع اللوم"، فما قاله تُرَّهاتٍ لا أظنها تجد أذناً صاغية في أي من المذاهب السياسيّة، مثلما هو تجديفٌ ضدّ وقائع التاريخ، وتدحضه ديكتاتوريّة الجغرافيا التي جعلت من السُّودان قطراً وسطياً يفترض أن يُجسّر الهُوَّة بين عالمين بثقافتين مختلفتين.

الغريب رغم أنه قول معلول، فهُو يحتوي أيضاً على تناقُض مُربك، فهو يلوم الإنجليز لأنهم «**وحَّدوا السُّودان ووضعوا الحدود بهذا الشكل**»، وفي السطر التالي هو يتحسَّر على أنهم «**قرروا الجلاء قبل أن يُوحِّدونا**»، ويزيد الأمر إرباكاً في فقرة أخرى عندما ينسخ هذه وتلك ويؤكد ما أجمع الناس وتواطأوا عليه في تشخيص الأزمة الوطنيَّة منذ زمن بعيد «**عملية ظهور الدولة السودانية ليست عملية قديمة.. وبالتالي أنا اتحدث عن فشلنا كسودانيين ولا**

الوم الشماليين أو الجنوبيين أو أهل الغرب ولا ألوم أهل الشرق، ولكن ألوم أنفسنا في أننا فشلنا أن نبلور مشروعاً قومياً يضم الكوكتيل الذي جمعه الانجليز في مكان واحد». نعم، هذا حديثُ العقل، فقد كان المأمول أن يكون هذا التنوع الذي حبا به المولي السُّودان مصدرا من مصادر ثراء الوحدة الوطنيَّة، وتأكيداً لهذه الحقيقة الأزليَّة أشار باقان في "لقطة فنية رائعة" إلى قول المولى عزَّ وجلَّ في مُحكم تنزيله **{إنا جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا}**، ولا أظن أن بلداً متعدداً في معتقداته الدينية ومتابيناً في ثقافاته، ومتنوِّعاً في اثنياته مثل السُّودان، يمكن أن ينجز تلك الوحدة المنشودة بطريق غير الطريق الذي أشارت إليه الآية الكريمة، لولا أن أصحاب المشروع المقبور قرأوها "لتتحاربوا".. كما قال أموم!

في تقديري لم يكن أموم أصلاً في حاجة لهذه القفزات التي أوقعته في مغبَّة متناقضات كثيرة، لو أنه احتمى بالحقيقة الأزليَّة التي لهجت بها ألسنة السياسيين وعُلماء الاجتماع والانثروبولوجيا حول موضوع الوحدة واستهلَّ بها هو نفسه حواره مع الصحيفة المذكورة **«إن تحقيق الوحدة يتم عبر الارادة الحرَّة للشعوب المُكوِّنة للسُّودان، وهذا موجود في إتفاقية السلام عبر الآليَّة السياسيَّة التي تضمَّنت حق تقرير المصير لجنوب السُّودان، وعبر التغيير الجذري الكامل في البنية السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة للسُّودان القديم.. في هذه العملية تتم معالجة مكامن الظلم وجذور نزعات الاحتراب والانفصال.. لأن الانفصال ردة فعل لعلاقات جائرة معينة بين الجنوب وبين المركز وليس الشمال»**.. وفي هذا الصدد ليت أموم ضرب مثلاً بتجربةً الولايات المتحدة الأمريكية، ومثلها كندا وأستراليا، هذه دول بنت أمجادها بتطبيق حقيقي لشعار الوحدة في التنوُّع، ومع ذلك لا يدهشنا أن العُصبة المُغرمة بالشعارات الجوفاء وضعت شعاراً مماثلا على القناة الفضائيَّة الرسميَّة، كأنهم يريدون ان يقولوا لنا أنهم قومٌ آخرين غير الذين أسَّسوا ثقافة العُنف والهيمنة السياسيَّة، وفرضوا آحاديَّة مقيتة، وتعمَّدوا إقصاء الآخر كأن الله ما خلق غيرهم!

وبمناسبة الشعارات هذه، لا بأس أن نختم هذه الحلقة بنكتة سياسيَّة مُتداولة.. فقد سُئِلَ الشيطان عن أسباب غضبته المُضرية على جلاوزة العُصبة وعزمه الهجرة من السُّودان، فقال: إنهم تنكَّروا له بعد أن أكرمهم بكل ما يشتهون، وضع كل منهم لوحة مذهَّبة في مكتبه نُسِخَت عليها الآية الكريمة: **«هذا من فضل ربي»**!

وإلى الحلقة القادمة حيث نتبيَّن فيها الخلط الذي وقع فيه أموم بين التكتيكي والإستراتيجي، بوعدٍ لن نتنكر فيه لـ"شيطان التفاصيل" الذي بدأ معنا هذه السلسلة!

آخر الكلام: لابُدّ منَ الدِيمُقرَاطِيَّة وإن طَال السَّفر!
٢٠٠٧/١٢/٩

حِوَارٌ فِي السَّاعة الخَامِسَة والعِشرين مَعْ بَاقان أمُوم (٤)

استكمالاً لحديث التناقُضات الذي أنهينا به الحلقة الثالثة في هذه السلسة، توجَّه الصحفيان المُحاوران للسيِّد أموم بسؤالٍ له، يدخل في سياق ما يلاحظه المراقبون في أداء الحركة الشعبيَّة بشكلٍ عام، وذلك من خلال التصريحات التي يُدلي بها قادتها، ومنهم أموم نفسه.. قالا له: «**هناك قضايا استراتيجيَّة ومهمَة يتم التعامُل معها بصورة تكتيكية؟**».. لكنه لم ينف ولم يُثبت، وعِوَضاً عن ذلك، لاذ بكهف التاريخ البالي، وأعزى المسألة برُمَّتها إلى خللٍ في "الجينات السياسية" السودانية – إن جاز التعبير– بقوله: «**التناول التكتيكي للقضايا الاستراتيجيَّة هو سمة من سمات الواقع السُّوداني، ومظهرٌ من مظاهر المُشكل السوداني.. لقد تمَّ تناوُل القضايا المصيريَّة بصورة تكتيكيَّة منذ البداية، فعلى سبيل المثال، عندما طالب نوَّاب جنوب السُّودان في البرلمان الانتقالي الأوَّل بنظام فيدرالي، تمَّ التعامُل مع هذا الطلب من قِبَلِ ما يُسمَّى بـ"الآباء المُؤسسين للاستقلال" بطريقة تكتيكيَّة، قالوا إنهم سيُعطون الاعتبار لهذا الطلب، وأنهم سيناقشونه.. وكان ذلك تناولاً تكتيكياً أفضى إلى الحرب قبل الاستقلال.. ومنذ ذلك الحين، استمرَّ التناوُل التكتيكي للقضايا الاستراتيجيَّة. كلهم فعلوا ذلك، عبود والنميري والبشير.. ونفس التناوُل لقضيَّة مستقبل السُّودان حول الوحدة والانفصال يتم بصورة تكتيكيَّة**».

كان ذلك قولاً صحيحاً لا ينقضه سِوى مكابر، وطالما هي أخطاءٌ، إذن فمِن غير الصحيح، بل غير الأخلاقي أن تسعى حركة ثوريَّة رفعت شعارات تقدميَّة وناضلت بتضحيات جسام لأكثر من عَقدين من الزمن إلى تكرار ذات الأخطاء التاريخيَّة، لأن ذلك حينئذٍ يكون أشبه بمَن راودته نفسه في الأكل من الشجرة المُحرَّمة، وهو يعلم سلفاً المحاذير والعواقب الوخيمة التي ستلحق به إن فعلها! ويقيني أن أموم اقترب من ذلك، فهو حينما يُؤكِّد أن التعامُل الآن مع جدلية "الوحدة والانفصال يتم بصورة تكتيكية"، يكون حينئذٍ قد أساء لتاريخه النضالي من جهة، وأساء للمسيرة النضاليَّة للحركة الشعبيَّة كلها من جهة أخرى، ذلك لأننا منذ تأسيسها في ١٩٨٣/٥/١٦، لم نسمع من أحد قادتها أو نقرأ في أي من أدبياتها المنشورة أو غير المنشورة، أنها تتعامل مع "أم القضايا" المصيريَّة السودانيَّة وهي "قضية الوحدة" بصورة تكتيكيَّة، علماً بأن التعامُل بصورة تكتيكيَّة في أمَّهات القضايا السودانيَّة هو سِمَة من سِمَات عُصبة الانقاذ منذ تَسَنُّقها السُّلطة في العام ١٩٨٩، وبالتالي إقراره أو تأكيده هو إقرارٌ وتأكيد لحقيقة قائمة، والمُفارقة أن بعض ذوي العُصبة يعدُّونه شرفاً ضمن إنجازات التباهي وهُم يجهلون معنى المصطلح!

أوغل أموم أيضاً في الاساءة بإضفاء صفةٍ غير لائقة لغاية الوحدة النبيلة.. **«السودان يلعب مباراة الوحدة في الوقت بدل الضائع»**، هي أيضاً لم تكن مباراة في يوم من الأيام ولن تكون، وبالتالي ليس هناك وقتاً أصلياً أو إضافياً، القضيَّة برُمَّتها، كما ظللنا نتعلم من الرَّاحل العظيم، هي قضيَّة سامية تتعلق بالمُواطنة وحقوقها السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والثقافيَّة.. هي قضيَّة حريَّات وانحياز للمنهج الديمقراطي الغالب في التجارب الإنسانيَّة.. هي إيمانٌ بمصير مشترك وقدرٌ واحد، هي حتميَّة تاريخيَّة من أجل تكريس الهُويَّة السُّودانويَّة، مزيجاً يجمع الشتيتين! أما الذين حسبوها وسيلة للتسلية الدمويَّة بشعيرة "الجهاد"، فهُم الذين يشاركهم أموم الحُكم الآن، والذين عدُّوها متعة من مُتع الدُنيا الزائلة، هُم الذين يتظاهرون بالمسئوليَّة الوطنيَّة الآن! فإن فرضت معادلات الواقع السياسي أن يشاركهم أموم السُّلطة، نحن نربأ به أن يشاركهم خطاياهم وأوزارهم!

المؤسي أن حديث أموم كثير الثقوب، فقد برزت منه أيضاً نقيصة أخرى، إذ أغفل سهواً أو عمداً نضال القوى الوطنية والديمقراطيَّة في الشمال، وكذلك مواقف قيادات تاريخيَّة جنوبيَّة، جميعهم آمنوا بالوحدة قدراً ينتظر الكيان السُّوداني، وهذه النضالات لم تجيئ بغتةً أو يوم أن تسوَّرت الجبهة الإسلامويَّة حائط السُّلطة، بل هي سبقت الاستقلال وتواصلت بعده، وبالتالي تلك مواقف فرضت نفسها من قبل أن تطلق الحركة الشعبيَّة الرصاصة الأولى، بل قبل أن يصرخ أموم نفسه صرخة الوجود الأولى، حتى وإن لم تأتِ أُكلها!

ثمَّة خطأ آخر وقع فيه أموم، وبإصرار شديد طيلة الحوار، فهو من حيث يدري أو لا يدري اعتبر شريك الأمر الواقع المُسمَى "المؤتمر الوطني" هو ممثلٌ للشمال كله، أو قُل لبقيَّة السُّودان كله، وهو واقع إن كرَّسته نيفاشا وأذعنَا له لاعتباراتٍ أهمُّها "سواد عيون" الحركة نفسها، فلا أظن أن أي مناضل ديمقراطي شريف إستشعر النيران التى "شَوَتَ" بها العُصبة لحم شعبها.. يمكنه الاستسلام لتلك الفرضية، أي فرضيَّة أنها الممثل لكيان الشمال كله، والمعروف أنهم ظلوا يلهثون من وراء هذا الشرف طوال سِنِي حكمهم، ولكنهم لن يبلغوه حتي يدخل الجمل من سُمِ الخيَّاط، أو بلغة كبيرهم المُوغلة في الابتذال، لن ينالوه "حتى ولو لحسوا كوعهم"! فهُم عُصبة سطت بليلٍ على السُّلطة واغتصبت نظاماً منتخباً، وبالتالي أصبح عدم شرعيَّتها ماركة مسجَّلة!

مع أنه ليس هناك أدني حرج، أن نضيف للثلاثي الذي حَكَمَ السُّودان وأشار إليه أموم في حديثه أعلاه، آخرين إختلطت عليهم حسابات البيدر والحقل. أو التدرُّج بين التكتيكي والاستراتيجي في جدليَّة الوحدة والانفصال. مع فارق أن هؤلاء نظل نحن مسئولين عن أفعالهم هذه، سواءً توافقت مع رغباتنا في صراط الوحده، أو تضادَّت معها في اتجاه الانفصال، سواءً نجحت أم خابت، فنحن قد انتخبناهم بِحُرِّ إرادتنا دون إكراه أو إجبار أو تزوير، لكننا بالطبع غير مسئولين

عن الذين ذكرهم، لأنهم جاءوا للسُلطة بطريقة غير ديمقراطيَّة، وحكموا بوسائل تسلطيَّة، وأدمنوا العذاب الذي ساموه شعبهم!

بَيْدَ أنه رغم ذلك، ظلت جمرة المقاومة الوطنية متقده على الدوام، وتلك من النقائص التي أغفلها أموم أيضاً في حواره حين جاء ذكر سُلطة الأمر الواقع هذه، فهُو يقول رداً على سؤالٍ حول الواقع الذي تتحكَّم في مفاصِلِه بقايا الجبهة الإسلامويَّة: «**السياسة التي كانت في السُودان هي سياسة فرض أحادية دينيَّة وثقافيَّة، لذلك أصبحت دولة رساليَّة، عندها رسالة لدين مُعيَّن تحاول فرضه على الآخرين، وتعلن عليهم الجهاد، هذا ما يجب أن يتم إلغائه حتى نتبنى مشروعاً ديمقراطياً يجري فيه حوار بين الثقافات السودانيَّة**».. وبالطبع ذلك تفسيرٌ لنصف الآية، فإكمالها يفترض أن يذكر السيِّد أموم نضال القوى الوطنيَّة والديمقراطيَّة في مناهضة هذا المشروع والحركة جزء منه، لكن السكوت عليه يشي بطريق غير مباشر إلى أن هذه القوى استسلمت للطغيان وخضعت للتدجين الذي مُورس عليها طيلة العقدين الماضيين!

الاشكاليَّة التي نراها أن عُصبة الانقاذ توهَّمت يومذاك أنه بمَقدِمِها "الميمون" في الثلاثين من يونيو ١٩٨٩، أن "طلع البدرُ علينا من فوهات الدبَّابات"، وزعموا أن السُودانيين دخلوا دين الاسلام أفواجاً، ولكن بعد ما يقارب العقدين من التجريب القاسي للنظريَّة التي أثبتت خطلها من اليوم الأوَّل، اكتشف المُنقذون الجُدُد أنهم منذ مجيئهم بـ"الشباك" هرب الوطنيون والماسكون على جمرة دينهم بـ"الباب"! أخشى الآن أن يعتقد أموم بمُجمل حديثه الذي يُغفِل فيه دور الآخرين ويُذكِّي فيه دور الحركة الشعبيَّة وحدها، أن يكون قد جاراهُم في الخطيئة، فالنضال ضد القوى الظلاميَّة لم يبدأ يوم أن وُلدت الحركة الشعبيَّة في العام ١٩٨٣، ولا يوم أن جاءت الإنقاذ في العام ١٩٨٩، ولن تكون نيفاشا ٢٠٠٥ هي محطته النهائيَّة!

إن ما يُزعج الديمقراطيون الآن ليست نيفاشا التي كرَّست الأمر الواقع، ولا الخُضوع لها امتثالاً "لسواد عيون" الحركة الشعبيَّة، ولكن التكلفة الباهظة الثمن التي ترتبت على هذه الوضعيَّة، فالسيِّد أموم، ونتيجة للإشكاليَّة القائمة بين الحركة الشعبيَّة وشريك نيفاشا "المؤتمر الوطني"، فهو يخلص بنظرة قاطعة إلى نتيجة مفادها أن «**الوضع الحالي والعلاقات الحاليَّة، فإن الوحدة ليست في مصلحة الجنوب.. الوحدة بشكلها الحالي مبنيَّة على مصالح مجموعات صغيرة في شمال السودان.. والجنوبيون متضرِّرون منها، هذه حقيقة**».. لكن الحقيقة أيضاً أنه بحديثه هذا يأخذ الشمال كله بجريرة عُصبة الإنقاذ، مع أنه - كما ذكرنا - لم ننتخبهم بل تسلطوا على رقابنا بليلٍ، فهل الرُكون للأمر الواقع في نيفاشا يعني تحمُّل تبعات كل بلاويهم؟!

الغريب في الأمر، أنه حتى لو حدث الانفصال تحت إبط العُصبة الحاكمة، فالسيِّد أموم يرهن العلاقة بين "الدولتين المُفترضين" إلى حُسن سير وسلوك

العُصبة نفسها، فرداً على سؤال من الصحفيين حول أن الحرب الأهليَّة يمكن أن تتحوَّل إلى حربٍ بين دولتين شماليَّة وجنوبيَّة، يقول: «**هذا يتوقف على عمليَّة الانفصال نفسها، إذا كانت الصفوة الحاكمة في شمال السُّودان تحاول أن تقهر الجنوبيين وتفرض عليهم الوحدة لأنها تخدم مصالحهم، في نفس الوقت الذي يرفض فيه الجنوبيون هذه الوحدة لأنها لا تخدم مصالحهم، فإن الفرقة ستؤدي إلى ردة فعل من شأنها أن تشهد علاقات سيئة بين الدولتين، وستضُرُّ بمصالح الشعبين.. وبالتالي وحتى تكون هناك علاقات طيِّبة بين الدولتين المُفترضتين، فمن الضروري أن نحترم رأي الجنوبيين حتى يقرِّروا مصيرهم دون ضغط أو تأثير عليهم**».. سيقول أحدٌ ما أنه لا جناح ولا تثريب في هذا القول رغم غلظته، ولكن نقول للقائل، أن في طيَّاته تنكُّر لعلاقة رفاقيَّة كان يُفترض أن تسود بدلاً عن علاقة انتهازية تدثرت بثوب الواقعيَّة!

إن العلاقة التي افترضنا فيها أن تسود، هي العلاقة بين القوى الثوريَّة في الجنوب ممثلة في الحركة الشعبيَّة، والقوي الوطنيَّة والديمقراطيَّة في الشمال، ذلك لأنها تأسَّست سلفاً على أساس مناهضة المشروع الشمولي، وبالتالي فإن حِلفاً بغايات نبيلة كهذا الحلف ينبغي أن يستمر بشتي الوسائل، حتى يبلغ نهاياته المنطقيَّة، ولا يُعتقد أن ثمة نهاية سعيده مرجوَّة يمكن أن تكون غير عودة الديمقراطيَّة كاملة وغير منقوصة، ففي ظلها يستطيع الجنوبيون أن يعملوا على تحقيق مصيرهم بإرادة حرَّة، وبعيداً عن أساليب الفهلوة والهيمنة والاسترقاق السياسي، وأيا كانت وجهة الاستفتاء، فلسوف تُحترَم نتيجته بلا شك، ولكن ان يقر اموم بأن المؤتمر الوطني ليس في صالح الوحدة «**حتى اليوم الذي أتحدَّث فيه معكم، فإن بقاءهم يضر بمصلحة وحدة السُّودان، إلا إذا غيَّروا برنامجهم، واتفقوا على تنفيذ الاتفاقية بشكل جيِّد**».. فعلام إذا يُعاقب الشمال بالانفصل، أو فلنقُل: لماذا يُعاقب الوحدويين في الشمال والجنوب بالانفصال المقيت؟!

الغريب في الأمر، أنه بذات القدر الذي ابتسر به أموم قضيَّة الوحدة، استهون أيضا قضيَة الانفصال، فهُو علاوة على كونه يفضله خيارا - مثلما أوردنا أعلاه - في ظِلِّ الوضع الحالي، أي الوضع الذي تتحكَّم فيه عُصبة الإنقاذ ما لم تغيِّر من منهجها، فها هو يحصر الأضرار التي يمكن أن يجنيها الجنوب من الانفصال في خسائر مادية فقط.. «**أن يتحوَّل الجنوب لدولة مغلقة لا منفذ لها على البحار، وبالتالي يخسر بورتسودان كميناء**».. ثم يضيف ضرراً آخراً في التفكير بنفس الذهنيَّة التي بدأت تسيطر على بعض قادة الحركة الشعبيَّة، ومنهم أموم نفسه، بعد ظهور النفط ودخوله في معادلات الصراع.. «**يضاف إليه أن اقتصاد الجنوب سينبني على سوق ضيِّق وصغير، وكان يمكن أن يكون الشمال سوقاً لما هو مُنتجٌ في الجنوب، وبالتالي فإن المنافع التي كان يمكن أن يجنيها الجنوب من السُّودان الواحد لن تكون موجودة.. وحتى في نظرنا كحركة شعبيَّة فإن السُّودان ككل سوق صغير، لأن الزمن تجاوز فكرة القوميَّة والحدود التي**

تعوق التجارة». قد يتساءل بعض القراء وأنا منهم: ما الذي تركه أموم لـ"شيلوك" الجبهة الاسلامويَّة بعد هذا الحديث؟! فقد عوَّدونا الإتجار بقضايا الوطن بعقليَّة التاجر المُرابي تلك، دون إحساسٍ بالمُكوِّنات النفسيَّة والروحيَّة والعاطفيَّة والفكريَّة التي تسهم في بناء الأوطان!

إزاء إلحاح الصَّحفي المحاور في استصعاب عمليَّة الانفصال، يلقي علينا أموم حجراً آخراً من شاهقٍ، كأنه استمرأ استسهال قضيَّة معقده.. **«بالمناسبة الناس لديهم تصوُّر عاطفي لموضوع الانفصال لأنهم مربوطون بالخارطة "بتاعة الأطلس".. لكن يجب أن نُبسِّط العملية عبر الإجابة على السؤال: ماذا يعني الانفصال؟!».** ويجيب هو على سؤاله بما هو أنكى: **«الانفصال بصورة واقعيَّة يعني أن يتحوَّل الخط الوهمي بين الشمال والجنوب لخطٍ وهمي دولي.. وحتى يقطع أي مواطن هذا الخط فلابُدَّ أن يكون حاملاً لجواز سفر، وبإمكانه أن يحصل على التأشيرة عند الحدود، ويمكن ألا يسمح له بالدخول إلا إذا كان حاملاً لتأشيرة من السفارة.. ومن المُمكن أن تصل الدولتان لاتفاق بالدخول دون تأشيرات، كما هو الحاصل الآن في "اتفاق الحريات الأربع" بين السُّودان ومصر.. هناك موضوع البضائع المتحرِّكة من الشمال إلى الجنوب أو العكس.. هذه البضائع سيتم فرض جمارك وأتاوات عليها.. هذا كل ما يمكن أن يتغيَّر إذا حدث الانفصال، وليس هناك شيء آخر سيتغيَّر.. وإذا اتفقت الدولتان على إلغاء التأشيرات والجمارك، فلن يكون هناك شيء قد حدث».**

يا سيِّدي، ما العيب أن يكون للناس تصوُّر عاطفي لموضوع الانفصال؟! أقرُّ أنا كاتب هذا المقال أمام القرَّاء، وبكامل قواي العقليَّة والبدنيَّة أن لديَّ تصوُّر عاطفي لهذا الانفصال منذ أن ذرَّ به صديقنا "منقو زمبيري" على مسامعي، وهو تصوُّر مربوط حقاً بالخارطة "بتاعة الأطلس"، لإحساسي بأنه منذ أن التقطتها عيناي في بواكير الصِبا، فقد طفقت كما الشاعر الجاهلي «أحبُّها وتُحبُّني ويُحِب ناقتها بعيري»، فهل بمقدور متبتل مثلي أن ينزع أوردته الطبيعيَّة ليضع مكانها أخرى صناعيَّة؟! فمَن ذا الذي يُعيد سيفاً إلى غمده كان صاحبه قد استله من أجل أن تبقى تلك الخارطة شامخة على الأرض؟! ومن ذا الذي يعيد قصيدة عصماء فرَّت من قسورة إلى سربها، كأن شاعر مسكون بتلك الخارطة قد باح بها في لحظة صدق مع النفس!

إذاً هكذا تحدَّث "زرادشت"، أو الأمين العام للحركة الشعبيَّة لتحرير السُّودان، وأيضاً بكُلِّ صدقٍ يا سيِّدي.. مَن قال لكَ أن الانفصال هُو محضُ "خطٍ وهمي" فقد كذب!

آخر الكلام: لابُدَّ مِنَ الدِّيمُقراطِيَّة وإن طَالَ السَّفر!!
٢٠٠٧/١٢/١٦

حِوَارٌ فِي السَّاعَةِ الخَامِسَةِ والعِشرين مَعَ باقان أموم (٥)

ما زلنا نواصل الحوار الموضوعي وبنفس هادئ مع السيّد باقان أموم، في ضوء ما رَشَحَ من أفكاره، وضمَّنها الحوار الصَّحفي الذي أجرته معه الزميلة 'الرأي العام'، ونُشِر في ثلاثة أجزاء متتالية، وأيضاً يتواصل الحوار باتكاءة على مواقف أخرى له، ذات انعكاساتٍ واضحة على مسار نشاطاته السياسيَّة، وهذه وتلك تركزت بشكلٍ خاص حول جدليَّة الوحدة والانفصال، وهي القضيَّة الإستراتيجيَّة التي نُعِدُّها الآن في صدارة القضايا التي تعج بها الساحة السودانيَّة، فلا غُرُوَّ إن أصبحت بعدئذٍ محكاً يُحدِّد استمراريَّة الدولة ككيان يضُمُّ في أحشائه الشعوب السودانيَّة بمختلف تبايناتها الإثنيَّة والعقائديَّة والثقافيَّة، أو اضمحلال هذه الدولة وفق معايير ابن خلدون الاجتهاديَّة في التاريخ وعلم الاجتماع!

في الحلقة الماضية، أشرنا إلى أن كثير من قيادات الحركة الشعبيَّة أصبحت أكثر ميلاً في أقوالها وتصريحاتها نحو الإنفصال، ويستطيع المرء أن يتبيَّن دونما كثير اجتهاد أن السيَّد أموم أصبح أعلاهُم قامة في هذا المضمار، والشاهد أنه حتى في الحوار مع الصحيفة المذكورة تمنَّع في أن يذكُر رأياً قاطعاً في ردِّه على سؤال لايحتمل من الألوان سوى الأبيض أو الأسود، فقد سُئِلَ حول ما إذا كان سيُصوِّت للوحدة أم الانفصال في الاستفتاء المُرتقب، فقال: **«أوَّل شيء، لازم أعرف على أي نوع من الوحدة سأصوِّت.. إذا كانت وحدة بين العبيد والسادة و.....»**.. وطفِق يداور هذه الأفكار بصورة لولبيَّة في مواجهة إلحاح الصحفي وإصراره على إجابة محدَّدة وواضحة!

قلنا لولا أن أموم يتسنَّم منصب الأمين العام في الحركة الشعبيَّة الآن، لما أعنانا حديثه في كبير شيء، علاوة على أنه لفتنا الانتباه أيضاً إلى الخطأ الإستراتيجي الذي وقع، بل ويقع فيه كثير من قيادات الحركة الشعبيَّة في الوقت الراهن، وهو التعامُل مع شريك الأمر الواقع "المؤتمر الوطني" كأنه يمثِّل كيان الشمال كله، ونموذجاً لذلك، قول أموم: **«إذا قرَّر الأخوة في المؤتمر الوطني عدم تنفيذ اتفاقيَّة السلام فيمكن أن يحدُث انفصال مبكر.. وإذا لم تنسحب القوَّات المسلحة من مناطق البترول، ولم يحل قضيَّة أبيي.. إلى غير ذلك.. فربَّما يصل الوضع إلى انهيار الثقة وحكومة الوحدة الوطنيَّة، وهذا يُؤدي إلى خرق الاتفاقيَّة والدستور.. وبالتالي يكون المجال مفتوحاً للقوَّة أمام الأطراف»**.. ويضيف في

موقع آخر قوله أيضاً: «**إذا انهارت العلاقة بين المؤتمر الوطني والحركة الشعبية ولم يتم تنفيذ الاتفاق، فيمكن أن تُؤدي مشكلة أبيي للحرب**».

يقولون أن النتائج الخاطئة هي بالضرورة محصلة تحليلاتٍ خاطئة، إذا ما لم يجرؤ أموم على قوله صراحة أن السُودانيين مُبشَّرون بتحمُّل أوزار العُصبة الحاكمة، لكأنها عندما سطت على السُلطة في تلك الليلة الغبراء شاورتهم في الأمر، ونحن لا نريد أن نوقظ الفتنة النائمة من مرقدها، ونذكُر بأن تلك واحدة من منغصات اتفاقية السلام، أي حالة كونها اقتصرت تمثيلاً وإخراجاً على طرفين، لكن ما يحدُث أو سيحدُث، هو الابن الشرعي لزواج الإكراه، وعليه لم يكُن غريباً جُنوح بعض قيادات الحركة نحو التفكير بصوتٍ عالٍ في الانفصال، فذلك نتاج سياسة "الفهلوة" و"البهلوانيَّة" والتسويف التي يمارسها شريك "الحَيرة" إزاء اتفاقيَّة السلام، ولكن الغريب أن يتم "تبليس" خطايا وأوزار هذا الشريك و"تلبيسها" لعموم أهل السُودان!

يبدو لكثير من المراقبين أن هذا الشريك الذي تمرَّس على نقض العُهود وخيانة المواثيق، نجح إلى حدٍ ما في استدراج بعض قادة الحركة نحو حبائل الانفصال، علماً أن الانفصال كان في الأصل بنداً صمدياً في طليعة أجندة الشريك الباطنيَّة، وقد تبدلت وتغيَّرت هذه الإستراتيجيَّة طبقاً لظروفٍ لا يتسع المجال لذكرها، وظهرت مُجدَّداً الآن، مع فارق أن عُصبة الإنقاذ ارتأت حدوثها على يد الحركة الشعبيَة حتى لا تتحمَّل تبعات الوزر التاريخي..

بالطبع يستطيع أي مبتدئ في حقل السياسة إحصاء "الفوائد" التي تتوخَّاها العُصبة من وراء الانفصال! أما بالنسبة للحركة الشعبيَّة فغنيٌ عن القول، أن مجرَّد التفكير في الانفصال، ناهيك عن التطبيق العملي لأجندته، يُعَدُّ عقاباً – بلا أدني مبرِّرات – للوحدويين الشماليين والجنوبيين معاً، وقبل هذا، هو بمثابة تنكُّر وخيانة للمبادئ السامية التي ناضل من أجلها الزعيم الراحل د. جون قرنق!

في حواره مع الصحيفة، ركَّز أموم بشكلٍ أساسي، وفي أكثر من فقرة على أن: «**السودان الآن وحتي قبل الاستقلال لم يكن موحداً**».. مشيراً إلى أن برنامج الحركة الشعبيَّة قدَّم طرحاً بديلاً لهذا التفكُّك، واسماه "الوحدة الطوعية"، «**القائمة على أساس المُساواة وليس على أسُس امتيازات السادة على العبيد**»، على حدِّ تعبيره، ويذكر أن الحركة دَرَجَت أيضاً على تسميته بـ"الوحدة الجاذبة"، بيد أننا لن نعِد ما قلناه في الحلقة الأولى عن هذا المُصطلح، وذلك من حيث كونه مجرَّد تحصيل حاصل، وعوضاً عن ذلك نختصر الطلاسم المُرهقة بإحصاء بعض المعطيات التي إبتدعتها الحركة الشعبيَّة – سواء درى قادتها أو لم يدروا – وغدت تلك المعطيات تنخُر كالسوس في جسد ما أسمته بـ"الوحدة الطوعيَّة"، أو "الجاذبة"، وفيما يلي غيضٌ من فيضها:

- **أولاً:** نظرنا في كل القواميس السياسيَّة، فلم نجد مُسوغاً واحداً يبرّر التقسيم الجغرافي الذي أنتج بدعة الضلال المُسمَّاة بـ"قطاع الشمال"، ولا أظن أننا سنظلم المجتهدين في التسمية إن قلنا أنه مجرَّد إعادة إنتاج لقانون المناطق المقفولة سيىء الصيت (١٩٢٢) وتقديمه في ثوب عصري جديد بغية إمتاع الناظرين! وحتى إن أسلمنا جدلاً بنبل المقصد وسلامة النوايا، فالتسمية تبدو أشبه "بالمضاد الحيوي" لمقاومة ما سُمِّي بـ"الوحدة الجاذبة" أو "الطوعيَّة"، وسيقول فقهاء الضرورة أن التسمية جاءت من باب تسهيل الحراك التنظيمي السياسي، ولكننا نقول أن الكسل الذهني الذي خيَّم في مضاربنا، انحاز عمداً للمذهب المادي، دون أن يراعي الجوانب النفسيَّة أو المعنويَّة، أو حتى الاسقاطات التاريخيَّة.. بالتالي، ودونما أدنى مكابرة، لعله يمكن القول أن المصطلح ينطوي على قدر كبير من معاني ما يمكن تسميته بـ"الانفصال الخفي" إن جاز التعبير.. زِدْ على تلك الهواجس، أن الذين تولوا زمام الأمور في القطاع المذكور، هُم من الشماليين، فلو أنهم كانوا من القيادات الجنوبيَّة، لربَّما خفَّف ذلك من وطأة التسليم المطلق بتلك الفرضيَّة، أو دحضها حتى!

- **ثانياً:** بدعة أخرى ذات صلة أو تُماثل سابقتها في التجريم، وهي أنني لم أجد مبرّراً أيضاً لإقصاء الوجوه الشماليَّة من الجهازين التشريعي والتنفيذي في حكومة الجنوب، وقد سأل الصَّحفي أموم عن الحكمة في ذلك، فقال: «**لأن حكومة الجنوب للجنوبيين فقط.. هذا هو الواقع الطبيعي للتقسيمات**».. ولعمري هذا قولٌ معلول، فبِغَضِّ النظر عن أن الواقع لمُشار إليه لم يكُن ضمن آي من نصوص القران ولا الإنجيل، فالثابت أن ذلك الوضع الغريب لم يُراعِ الجوانب النفسيَّة ولا المعنويَّة أيضاً، وطبقاً لذلك يمكن القول بذات المعايير أعلاه، أنه يصُبُّ في مجرى حيثيات الانفصال غير المرئي، ولعلَّ هذه الخطوة قد وجدت هوىً في نفس المؤتمر الوطني، فجاء بمثلها حشفاً وسوء كيله، إذ دفع بممثليه في الحكومات الاقليميَّة والمجالس الولائيَّة، مُستثنياً منها الوجوه الجنوبيَّة، وفي الاتحاديَّة صنع منها ديكوراً يدرأ الحَسَد وشرُّ النفاثات في العقد!

- **ثالثاً:** في ظِلِّ الأوضاع الحسَّاسة، من المؤكد أن المُفردات والمُصطلحات تلعب دوراً هاماً، وفي هذا السياق سَعِدتُ لمساهمة من أحد المشاركين "دوت مجاك" في موقع 'سودانيز أونلاين' نشرها يوم ٢٠٠٧/١١/٣٠ وعقَّب عليها إيجابياً العديد من رُوَّاد المنبر.. وضع مجاك مساهمته في قالب رسالة مفتوحة وجَّهها للسيد باقان أموم، ويبدو أنه لاحظ ما لحظناه سلفاً، وهو إكثار أموم من مصطلح "الجلاَّبة" في أحاديثه، واستخدامه أحياناً في مواقع تشي بغير معنى التسمية، مثل قوله الذي نجتزئ منه: «**فشل آباء الاستقلال كما تُسمُّونهم في الشمال**».. فقاطعه المحاور وقال له: وماذا تُسمُّونهم أنتم؟! فقال له: «**في الجنوب يُسمُّونهم "الجلابة" الذين استلموا السلطة بعد الانجليز**».. والحقيقة

أن ذلك خطأ منهجي افترى على الواقع، فالجيل الذي استلم السُلطة من الإنجليز لم يُطلِق عليه أحداً ذلك اللقب.

عموماً، نعودُ لمبادرة "مجاك"، الذي قال له: «**كثيراً ما تستعمل لفظ "الجلابة" في خُطبك الجماهيريَّة، وأنا أعلم يقيناً أن بهذا اللفظ لا تقصد كل الشماليين، كما أنها في اللغة لا تعني الشماليين أيضاً، ولكن حسابات السياسة في دولتنا مختلفة، إن من تقصدهم بلفظ "الجلابة" استطاعوا تحوير هذا اللفظ لمصلحتهم، ونجحوا كثيرا في جعلها كلمة يعني بها "الشماليين" وطالما أن السياسة حرب "باردة" وإن تصادقت مع الآخرين، فإن المرحلة الحالية تحتم عليك تغيير هذا اللفظ، ليس خوفاً من كائن كان، بل لأن السُودان بلدٌ مبني على القبيلة، وليس هناك سوداني يرضى أن يتحمّل أي شيء تجاه قبيلته أو جماعته الإثنيَة. من تقصدهم بهذا اللفظ يعرفون جيداً أنهم المقصودون، وانك تستطيع أن تخاطب الجماهير بذكر اسم حزبهم في خانة لفظ الجلابة، لتقول بدون أي تورية "حكومة الانقاذ"**».. إلى أن يصل الكاتب إلى نتيجة من وجهة نظره فحواها: «**بذكرك لفظ "الجلابة" في وسائل الاعلام أو اللقاءات الجماهيريّة، فإن قطاع الشمال يخسر مع كل كلمة تقولها بعد نطقك لهذا اللفظ عُضوٌ في الحركة الشعبيَة، آمن ببرنامج الحركة الشعبيَة ونضالها التاريخي من أجل إنسان السُودان، وليس الجنوبيين فقط كما يدّعي بعض دُعاة العنصريّة من الأخوة الشماليين، وأصبحوا يستخدمون هذه الكلمة تحديداً لقطع الطريق أمام كل من يُفكِّر في الانضمام إلى الحركة الشعبية**».. وشخصياً، رغم أننا نرى أن الكاتب بالغ بعض الشيء في المحصلة الأخيرة، إلا أننا نتفق معه في وجهة نظره، ليس من زاوية الحساسيَة في المُصطلح، ولكن من منطلق أن ضبابيَة المعنى وفق ما أشار الكاتب، أصبحت القاعدة في فهم الغالبيَّة الساحقة في الشمال والجنوب معا!

- رابعاً: أشار أموم في الحوار إلى الفريضة الغائبة التي أغفلها اتفاق نيفاشا، وهي ثقافة الاعتذار، في قوله: «**نحن طرحنا ضرورة أن نعتذر لبعض لأن هذا يعالج الجراحات القديمة ويُحرِّرنا من ترسُّبات الماضي.. طبعاً تمَّت مهاجمة هذه الفكرة، هناك أناس يشعرون بالتعالي عن الاعتذار أو الاعتراف بالأخطاء، وهذه إشكاليَّة في الشمال، لأنه تمَ بناء ذهنيَّة سائدة بواسطة المجموعة الحاكمة، هي أنها دائماً على صواب.. نحن التزمنا بالاعتذار إنابة عن الجنوبيين عن الأخطاء التي ارتكبوها أثناء فترة نضالهم، ولم يكُن ذلك لأننا نعتبر أنفسنا مُجرمين، ولكن لأننا نرى أن هذا ضروري، حتى الشخص المظلوم نفسه يقول "معليش"**»، تلك من القضايا الحيويَّة التي كان يُنتظر أن تصُب بطريقٍ غير مباشر في أجندة الوحدة، لكن المُؤسف أن الحركة اعتبرتها يومذاك من النوافل، وجاءت يومئذٍ لتقول للسامعين أنها من الفُروض! لأن ثقافة العفو تُعَدُّ ركناً ركيناً، كان الأجدر أن تُضمَّن ببنود الاتفاق في نيفاشا،

وتُخصّص لها مفوضيَّة بأيَّة تسمية مستمدَّة من ثقافة الاعتذار والعفو والمصالحة والتسامُح، وهي ذات القيم التي تأسَّست عليها تجربة جنوب أفريقيا، والمُفارقة أن هذه التجربة كانت مثلاً يُحتذى لبعض قادة الحركة، ظلوا وما انفكوا يُذكِّرُوننا بضرورة تكرارها في الواقع السُّودَاني! وطالما أن هذا أصبح حلماً أذرته الرِّياح الهوجاء، فالرّاجح عندي أن الاتفاق قد تهيكل على أنقاض مراراتٍ ودماء ومِحَن وإحن ومآسٍ، عوضاً عن ثقافة الاعتذار، الأمر الذي لا يُشكِّل أساساً صلباً لتشييد ناطحة سحاب!

مثلما هو معروف يومذاك، سفَّهت الحركة مبدأ "المحاسبة"، رغم أنها رفعت لواءه مع الرَّافعين في أروقة التجمُّع الوطني الديمقراطي لنحو عُقدٍ من الزمان قبل نيفاشا، وطالما أنها جالست موبقي المُؤتمر الوطني، الذين صُنع ذلك الشعار خصيصاً لمثلهم، فإن البُكاء على اللبن المسكوب لن يُجدِ نفعاً، والمنطق يقول أنه إذا لم ترعوِ عُصبة الإنقاذ في تنفيذ بنود الاتفاق الذي وقعت عليه تحريرياً بشهادة أطراف إقليميَّة ودوليَّة، فهل يعتقد أموم أنها يُمكن أن تنصاع أو ترضخ أو "تجبُر خاطره" شفاهةً وتُلبّي طلبه أعلاه؟!

- __خامساً:__ إن غياب الديمقراطيَّة كما هُو معلوم يُعتبر العقبة الكأداء أمام تنفيذ اتفاق السلام بحذافيره، بل هو كذلك أمام طموحات الحركة الشعبيَّة نفسها، إن صدقت، إذ يقول أموم: «**المشروع الذي نطرحه نحن قائم على الادارة الديمقراطيّة للتبايُنات السودانيّة لخلق مجتمع متعدِّد، قادر على إدارة تلك التبايُنات، بإعطاء المساحة والحريّة لما هو مختلف**».. والحقيقة أن هذا قولٌ جميل، لكن أثبتت الوقائع في تجربة الحركة القصيرة أنه لا يعدو أن يكون سوى محض تنظير، وسيظل كذلك ما لم تُدرك الحركة أن قضيَّة الديمقراطيَّة ليست ترفاً، وإن تجاوز البعض عن غيابها في دهاليزها إبان فترة النضال المسلح بدعاوى تقاطُعها مع ثقافة الميدان العسكريَّة، فلا يمكن التمادي في التجاهُل في ظِلّ الانتقال من الشرعيَّة الثوريَّة للشرعيَّة الدستوريَّة، وكان يُرجى أن تبذَّ الحركة شريكها وتُحرجه بالتطبيق الأمين لهذه الآليَّة، لكن الواقع يقول أن افتقارها الديمقراطيَّة في جسدها أصبح حُجَّةً للمُؤتمر الوطني في تجاهُل مطلبها بحتميَّة التحوُّل الديمقراطي، ومن جهةٍ أخرى، فإن الحديث عن تقرير مصير في ظِلّ غيابٍ قسري للديمقراطيَّة، هو صلاة بلا وضوء في محراب الوطن!

آخر الكلام: لابُدّ مِنَ الدّيمُقرَاطِيّة وإن طَالَ السَّفر!
٢٠٠٧/١٢/٢٣

حِوَارٌ فِي السَّاعَةِ الخَامِسَةِ والعِشرين مَعَ بَاقان أمُوم (٦)

عطفاً على كل ما مضى، نتناول في هذه الحلقة موضوعاً حيوياً، تعرَّض له السيّد باقان أموم في سياق المقابلة التي أجرتها معه الزميلة 'الرأي العام'، والمنشورة في ثلاث حلقات أواخر نوفمبر الماضي، بحسب ما نوّهنا مراراً في هذه السلسلة الحِواريَّة، وأشرنا إلى أنها استندت بشكلٍ أساسي على آراء وأفكار طرحها مع الصحيفة المذكورة، وتركّزت حول جدليَّة الوحدة والانفصال، الأمر الذي حفّزنا لفتح هذا الحوار معه، وتوسَّلنا فيه شفافيَّة نطمحُ أن تقودنا إلى مشارف فهم مشترك للقضايا المصيريَّة ذات الصلة.. ومن جهةٍ أخرى، لعلَّ مبدأ الحوار نفسه يفتح المسارب المُغلقة نحو تحوُّل ديمقراطي حقيقي، وقد يساعد الحركة الشعبيَّة على إنجاز أهدافها الآنية والمستقبليَّة.

الموضوع الحيوي والهام الذي تعرَّض له أموم، كان هو "اللغة"، ويعلم الجميع أنه موضوعٌ شائك ومُعقد، وقد بات حُلم الوصول فيه إلى وفاق واتفاق يمثل حجر الزاوية في القضيَّة الجدليَّة موضع الحوار، "الوحدة والانفصال"، وفي التقدير أن الفهم الملتبس لدور اللغة في حياتنا، إضافة لممارسات الديكتاتوريات الطائشة، كانا سبباً في تعقيدها، وتصنيفها في دائرة الأمور الصعبة ذات الحساسية العالية، ومن ثمَّ أدَّى ذلك إلى تحوير البعض لدورها.. من حيث كونها وسيلة للتواصُل المعرفي والإنساني، إلى أداة تجسد الهويَّة المجرَّدة، وفي ذلك خطلٌ، لو يعلمون عظيم!

ثمَّة قصة خاصة، يجب أن تُروى كتمهيد لمناقشة قضيَّة اللغة، والمُحزن فيها أن طرفها الآخر توسَّد باطن الأرض، وطرفها الثاني حيٌّ يُرزق على ظاهر الأرض، وهو صاحبُ هذه السطور. وفي الحقيقة جَرَت وقائعها بدون ترتيب مُسبَق، أي بصورة أقرب للعفويَّة. كان ذلك ذات يوم من أواخر نوفمبر العام ١٩٩٧، حيث جلستُ إلى د. جون قرنق دي مبيور في حوار صحفي بمقرّ إقامته في "استراحة ميلوتي"، إحدى دور الضيافة الإريتريَّة في العاصمة أسمرا، وبعد أن فرغتُ من الموضوع الأساسي، امتدَّت جلستي لبضع دقائق إضافيَّة، تجاذبنا خلالها أطراف الحديث، "من كل روضة زهرة"، على حدِّ تعبير شاعرنا الفحل محمد بشير عتيق! ولكن قبل مواصلة القصَّة، لابُدَّ من شرح خلفيَّة ضروريَّة، حتى تستقيم بتشويق مشروع في الإثارة!

ليس لديَّ أدنى شك في أن الكاريزما القياديَّة، التي كان يتمتع بها د. جون.. هي ذات سحر خاص، وجاذبيّة قويَّة، وقد لا يستطيع المرء أن يفلت من الإعجاب به متى ما جالسه أو اقترب منه، لهذا أظنُّ نفسي، وناشطين آخرين التمسوا قُدراته السياسيَّة والفكريَّة عن كثب، اقتنعوا به زعيماً متفرّداً في سلوكه وتفكيره ومنهجه، إلى جانب حسّه الإنساني الشفيف، وأسَرَتهُم روح الدعابة التي طالما خفف بها وطأة ورتابة الاجتماعات، وأستطيع أن أقول بكُلِّ ثقة أن الفترة التي جمعته مع المعارضين في إطار التجمُّع الوطني الديمقراطي، بدءً من مؤتمر اسمرا للقضايا المصيريّة وحتى رحيله للدَّار الآخرة، زادت قناعاته الشخصيَّة الوحدويّة. لأنه التمس بنفسه، وبصورة مباشرة، مدى الاحترام الذي يكنه له الكثيرون، رغم الدعاية السوداء لطغمة الإنقاذ، التي استمرأت تصوُّره في "ساحات الخزي والعار" كانتهازي يعيش بلا مبادئ، وتاجر حروب، متعطش للدماء!

في التقدير أن د. جون كان يدرك، ولو بطرفٍ خفي، أن قُدراته السياسيَّة والفكريَّة تلك، إلى جانب تضحياته الجسام قد رسمت له طريقاً ممهَداً نحو ارتياد سنام القيادة، ولم يكُن مستغرباً أن شرعت بعض الدول، إقليمياً ودولياً، في التعامُل معه على هذا الأساس.. زدْ على ذلك، كان لكاريزميّته تأثيرها غير المرئي، على صعيد الحراك التنظيمي المعارض، إذ لا تستطع هيئة قيادة التجمُّع الوطني تحديد اجتماع لا تستشيره في توقيته أولا، بل لا تتفق عليه حتى يراعي ظروفه الخاصة قبل كل شيء، وبعد تحديده، فهو عُرضة أيضاً للفشل إذ قُدر ألا يشرّفه – لأي سببٍ – بالحضور، وكم من مرَّة تأجَّل الانعقاد لموعدٍ آخر غير التاريخ المضروب سلفا، وأحياناً يكون شمل الرفاق قد التأم حينها، ومع ذلك، لا يجرؤ أحد على زمّ شفتيه تبرُماً، أو تبدي عين السُخط المساويا.. طالما أن الأسباب تُعزى دوماً لظروف ميدانيَّة قاهرة! وإن تعذَّر الوصول، واضطرَ المجتمعون لعقد اجتماعهم بدونه، فهُم يعلمون أن اجتماعهم ذاك لن يساوي ثمن الحبر الذي يكُتبون به بيان الختام!

عوداً على بدء، بينما كنتُ في غمرة أُنسي مع الدكتور، على بساط من العهن المنفوش بالإعجاب الخفي، فجأة وبدون أدني مقدِّمات، قلتُ له مقتنصاً رمق ضحكة كانت تصلصل بيننا قبل حين: **«تعرف يا دكتور، أنا أعتقد بأنك قائد قومي I believed you are a national leader، ولو كان لديك طموحٌ في أن تحكم السُودان، فبغضِ النظر عن كونك مُؤهَّلٌ لذلك، وفق ما أري، فهذا طموحٌ مشروعٌ لك ولغيرك، وإن كان كذلك بالنسبة لك تحديداً، فلابُدَّ – من وجهة نظري – أن تجيد الحديث باللغة العربيَّة، مع كامل احترامي لمحاولاتك الحاليَّة»!**

حدَّق د. جون في وجهي ملياً، كأنه بُهتَ بحديثي، أو أنني باغتُّه على حين غِرَّة بأمرٍ جَلل! ولبرهةٍ خُيِّل لي أن غابة من علامات الاستفهام استطالت بيننا، وبعد فترة صمتٍ قصيرة، قال بتعقيبٍ مقتضب، وبرودٍ يشي بأنه لم يستطع إدراك

مرامي حديثي: «وليه يعني؟!».. قلتُ على الفور: **«لأنها، في تقديري، لغة تواصُل للغالبيَّة العُظمي من أهل السُّودان، وأنت أو من يطمح في الرئاسة، لابُدَّ أن يطرح أفكاره لهذه الأغلبيّة، طبعاً باللغة التي يعرفونها، مثلما تفعل أنت الآن مثلاً مع كوادر الجيش الشعبي»!**

أحسستُ أن هذه الإجابة أشاعت راحة نفسيَّة عميقةٍ في دواخله، فقال لي، كأنه يجاملني، أو يشاطرني الرأي فيما رميتُ إليه ضمناً: **«إنت تعرف، أنا بتكلم بالإنجليزي لأنو بقدر أعبّر بيه عن نفسي كويّس، وإنت تعرف كمان أنا ما عندي مشكلة في فهم اللغة العربيَّة، سواءً كانت بالفُصحى ولا عربي جوبا»!** قلتُ: «**مضبوط**».. فردَّ ضاحكاً: **«بس الما مضبوط، اقترح عليَّ دانيال كودي (كان معلماً) ذات يوم في بداية التسعينيات برنامج اسمه "كيف تتعلم اللغة العربيّة"، وأحضر كتب وشرائط مسجَّلة كثيرة، ومشينا كويس في الموضوع، لكن دخل موضوع "صيف العُبُور" (الحملة العسكريَّة مع نظام الخرطوم).. لكن المهم نحن بصراحة ما قدرنا نخلِّص الموضوع»!**

إزاء هذا الاجتهاد المُخلص في الشرح، وجدتُ نفسي أقولُ له، دون إدراكٍ حقيقي بما أعني: «**طيّب، إيه رأيك نكمّل المشروع ده، وأدرّسك لغة عربيَّة؟**».. صمَت لبرهة، ونظر في وجهي ملياً كمن يريد أن يسبر غور حديثي، ويتبيّن هزله من جِدّه: «**وإنت تستفيد شنو؟**».. قلتُ: «**ما في حاجة معيّنة**».. وأردف، كأنه يلقي بآخر سهم صبر من كنانته: «**كيف ما في حاجة يعني، ما هو إنت لازم تكون بتستفيد شيء!**».. فقلتُ له: «**الحقيقة موضوع الفائدة ده ما جاء على رأسي، لكن خطر ببالي أسَّه، إذا إنت قِبلّت أدرّسك اللغة العربية فذلك يعني أنني سألازمك "الحجل بالرّجِل" لمدة ستة شهور على الأقل، ويمكن بعدها تكون أنت عرفت اللغة، وأنا طلعت بكتاب عنك، أو الحركة الشعبيَّة!**».. ابتسم د. جون ابتسامة تدُلُّ على رضاً وجد طريقه بهدوء إلى نفسه، ورغم شغفه بالسُؤال عن كل غريبٍ، إلا أنه تجاهَلَ المثل العامي الذي ذكرته، فلم يسألني عنه، وعوضاً عن ذلك قال بشيءٍ من الثقة: **«This is quite fair»**.. أي أن هذا مُنصِف أو عادل! وأضاف مُوجّهاً حديثه وآمراً ياسر عرمان، الذي ظهر أمامنا في تلك اللحظة: «**خلاص شوف الموضوع ده مع ياسر، هو حيرتب ليك كل حاجة**»!

واقع الأمر، تداخَلت ظروفٌ خاصَّة، طرأت بيني وياسر، حالت دون أن يسأل أحدنا الآخر عن الموضوع.. لكن للأمانة، فقد كان ياسر قبلها شديد الحماس في ترتيب زيارة لي للمناطق المحرَّرة في الجنوب، وظني غير المأثوم، أن ياسر يُسعِدُهُ دوماً أن يكون "بوّابة عبدالقيوم" لكُلِّ شمالي ينوي دخول دار الحركة الشعبيَّة، زائراً كان أو مُقيماً.. وبالطبع، لأسبابٍ تخُصّه، لابُدَّ أن له حِكمة في ذلك! ولكن ليس من الحِكمة أن يفتُر حماس المرء، إذا حاول الرَّاغب في الدُّخول التسلل عبر بوّابة أخرى!

المهم، أن الأمر الذي نحن بصَدَدِه لم يتم، فمِن سوء حظي "المِنيّل"، كما يقول أشقاؤنا في شمال الوادي، أعقبَت تلك الظروف الخاصة دخول الحرب الأثيوبيَّة الإريتريَّة، وهي الحرب المُباغتة التي دحرجت القضيَّة السودانيَّة كلها نحو المتاهة الكُبرى، وقد عزَّ عليَّ أن أقدِّم تبريراً منطقياً لدكتور جون، لعله كُسُوفُ المنطق وخُسُوفُ اللغة! الأمر الذي انعكس على سلوكي الطبيعي معه، إذ أنه كلما تقابلنا، على هامش الاجتماعات، قال لي بروح الدُعابة التي تميّزه: **«وين أنت يا أخونا؟»**.. فأجيبه الإجابة التقليديَّة: **«والله موجود يا دكتور!»**.. فيُردِف، دون أن يستبطئ نفسه في السير أو الحديث: **«ما أنا عارف موجود، لكن في مربَّع وين؟!»**... واستمرَّ الحديث بيننا على هذا المنوال، وقد مُنِيَت النفس بتحقيق تلك الرَّغبة، وزاد أوراها بعد توقيع "مشاكوس"، ولم تنطفئ جذوتها، رغم مغادرتي إريتريا للولايات المتحدة.. وبعد سماعي نبأ رحيله، قُلتُ لنفسي مواسياً: **«لو أن كل منّا ألقم شيطانه حجراً في المُربَّع الذي يقف فيه يا دكتور، لتسنى لأفلاطون رُؤية حُلم مدينته الفاضلة في قرية "أم كدادة"»**!

يقول أموم: **«يجب ألا يكون للدولة لغة معيَّنة هي فقط اللغة الرسميَّة، كل اللغات السودانيَّة هي لغات رسميَّة ومتساوية، ولها الحق أن تعيش وأن تتطوَّر، وإذا كان هناك لغة ليس لديها القدرة على النمو، فأنا أرى أن من واجب الدولة أن تحيي هذه اللغة لكي لا تندثر»**.. شخصياً، أقدِّر المرارات التي حدت بأموم أن يطرح هذا الرأي، ولا أدري إلى أي مدى هو مؤمن به، بخاصة وأن ما قاله ينطوي بعضه على قدر كبير من الشطط والمُغالاة، فكيف لا يكون للدولة لغة رسميَّة؟! وكيف تكون أكثر من ثلاثمائة لغة محليّة لغات رسميَّة؟! فذلك، على حدِّ تأكيد المُحاور، مستحيل عملياً، وقد صَدَقَ الصَّحفي أيضاً في المثل الذي ساقه، وأشار فيه إلى أن أمريكا لم تعتمد لغة الهنود الحمر كلغة رسميَّة! ونزيد نحن بالقول، إن اللغة الرسمية تفرض نفسها بحجم الفراغات التي تغطيها في الدولة!

أيضاً حشر الصَّحفي أموم في زاوية ضيِّقة، حينما سأله، تبعاً للرأي السابق، ما إذا كانت حكومة الجنوب تكتب خطاباتها الرسمية بلغة الدينكا أو الشلك أو النوير؟! فقال له: **«السياسة الجديدة في الجنوب هي أننا نطرح الحريّة والمُساواة بين كل اللغات السودانيَّة»**.. وذلك كلامٌ جميل، ولكن كما هو واضح، لا علاقة له بالسؤال المطروح، الذي يظل هائماً، إلى أن يجد له إجابة!

أيضاً قد يتفق المرء مع أموم في قوله، أنه من واجب الدولة أن تحيي لغة ليست لديها القدرة على النمو، وأصبحت آيلة للاندثار، مثلما يتفق معه أيضاً في قوله في فقرة أخرى: **«...على الدولة أن ترفع يدها عن اعتماد ثقافة معيَّنة، كثقافة رسميَّة مدعومة»**.. ولكني أتحفظ على قوله المُكمِّل: **«...بل على الدولة دعم كل الثقافات بصورة متساوية»**.. الواقع، أنا شخصياً عديم الثقة بالكيفيَّة التي

تدعم بها "دولة الطغمة"، أو "دولة الشراكة" حتى، الثقافات المعنيَّة، وإلا فليقُل لنا أموم، ماذا فعل بنسبة الـ٢٨% في الأجهزة الإعلاميَّة والثقافيَّة؟! المعروف أن الثقافات تنمو وتزدهر وتتلاقح بصورة تلقائيَّة، وتنتشر بوسائل أخرى – يطول شرحها – في إطار الحريَّات المسئولة، فالدول المتخلفة وحدها، هي التي تخصِّص وزارات للثقافة والإعلام، وإن كان هذا عينُ الدعم الذي يعنيه أموم، فتلك مصيبة، وإن اعتمد على الوزارات لتنفيذ برنامج "السُّودان الجَديد" بشكلٍ عام فالمُصيبة أعظم! وقد شهدنا في ديكتاتوريَة الرئيس المخلوع، كيف أنه في إحدى إبداعاته النادرة، ألحق الثقافة والإعلام بوزارة الداخليَة!

نقول مرّة أخري، إن المرء ليقدِّر الظروف النفسيَّة التي حرَضت أموم على التهيُّب من مسألة اللغة، بذلك الحديث الوجل، ولكن ينبغي ألا تتملكه "فوبيا" تلك الظروف، أي يجب ألا نجعل الإجراءات القهرية التي قامت بها الطغمة العسكريَّة الأولى في مسألة التعريب بالقوَّة، ولا صُنُوَتها التي قامت بها العُصبة الإنقاذيَّة الحاليَّة في مسألة الأسلمة بحدِّ السيف، مُبرِّراً للنظر في مسألة اللغة العربيَّة تحديداً بعين الشكِّ والريبة، فلا أظن أن د. جون في محاولاته تجويدها كان دافعه إثنياً، فلا هُو من نسل العبَّاس، ولا ادَّعى صلة قُربي ببلال بن رباح، فهي مجرَّد وسيلة يمكن أن تساعده في توصيل أفكاره للغالبيّة التي تتحدَّثها!

ملحوظة تخص الكاتب: نؤكِّد ما هو معروف سلفاً بأن الدولة المعنيَّة في هذا المقال ليست دولة الإنقاذ أو الشراكة، بل دولة المُواطنة، والحقوق المدنيَّة والديمقراطيّة، التي لم نبلُغها بعد!!

آخر الكلام: لا بُدّ من الدّيمُقرَاطيَّة وإن طَالَ السّفر!!
٢٠٠٧/١٢/٣٠

حِوَارٌ في السَّاعة الخَامِسَة والعِشرين مَعْ باقان أمُوم (٧)

نواصِلُ في هذا المبحث الحديث حول موضوع اللغة، بتأكيدٍ مبدني على أنه رغم تناوُلي لها إضطراراً، إلاَّ أن تقديراتى تشير إلى أن وضوح الرُؤى حولها يمكن أن يُعبِّد الطريق نحو أي من النجدين.. الوحدة أو الانفصال. وطالما أنني لا أخفي تعصُّبي نحو الأولى، فسألقي ببُردة المسئوليَّة الوطنيَّة والأخلاقيَّة على كاهل الحركة الشعبيَّة، وبالطبع لا يوجد سبب يجعلني – وفق قناعاتي الخاصَّة – أن أتأمَّل خيراً في شريكها المُسمَّى "المؤتمر الوطني" حتى وإن إرتدى جلباب نيفاشا توسُّلاً لشرعيَّة مفقودة! بالإضافة إلى أننا حينما تأمَّلنا حسم الجَدَل في الحلقة الماضية لصالح اللغة العربيَّة.. لم يكُن ذلك تطرُّفاً ولا انحيازاً ولا تعصُّباً، ولكن لإدراكنا أن اللغة لا تمنح هُويَّة، فهي مجرَّد وسيلة للتواصُل الإنساني والمعرفي، كذلك فإن شواهد الواقع تقول أنه وبعد أن أصبحت اللغة العربيَّة قاسماً مشتركاً بين قبائل الجنوب نفسه (سواءً اسمها اللغة الهجين أو "عربي جوبا") إضافة إلى أنه وبدون أي مكابرة تعتبر الآن الشعرة الوحيدة التي تربط بين شعوب الكيانين الشمالي والجنوبي إلى حين إشعار آخر، ولكن بعض الذين أصابتهم ما أسميناه "فوبيا اللغة" يرون فيما يجسّده هذا الواقع.. خطيئة وطنيَّة، فظلُّوا وما انفكوا يغرقوننا في "جدل البئر المُعطلة والقصر المُشيَّد" وقد استثنينا منهم زعيم الحركة الرَّاحل دكتور قرنق بالرواية التي شاركناه حبكها.. ونزيد عليها بالتالي:

«في العام ١٩٨٦، فاجأ قرنق مستمعيه الذين جاءوا إلى أثيوبيا للإلتقاء به للمرَّة الأولى في كوكادام، وقد تركوا وراءهم الخرطوم تمضغ بقايا ثورة لم تكتمل، ويحرسها جندٌ معلومون قدَّر قرنق أن يُسميهم "مايو٢"، أي امتداد للنظام الذي ظن القادمون أنهم قبروه، ومن المفارقات وبعد أكثر من عقدين من الزمن أصبح أسمهم في زمن المسغبة السياسية الراهن "مجلس الحكماء"، أي الذين ينتظر شعب السُودان المكلوم أن يجري الله الحِكمة على ألسنتهم ليُخرجوا بها البلاد من الظلمات إلى النور.. قال قرنق: "نحن نتاج لتطوُّر تاريخي، واللغة العربيَّة مع ضعف إلمامي بها وحرصي على إجادتها سريعاً، لابُدَّ أن تكون اللغة الرسميَّة للسُودان الجديد، ونحن صريحون وواضحون في كل شيء، لا يمكن القول أن اللغة العربيَّة هي لغة العرب وحدهم (يقصد عرب

السُودان: د. منصور خالد) وإنما هي لغة السُودان كله، فالإنجليزيَّة هي لغة الأمريكان ولكن القطر الذي يسكنونه هو أمريكا وليس انجلترا، والإسبانية لغة الأرجنتين وبوليفيا وكوبا وكل هذه البلاد معروفة وليست إسبانيا. نحن جادون فيما نريد ولا نحس بمرارة فيما نقول، نحن جادون في خلق سُودانٍ جديد، يخلق حضارة جديدة تضيف إلى العرب وإلى الأفارقة حضارة الانسان. فالحضارة ليست ملكاً لأحد لأن الحضارات جميعها وليدة تلاقح"» (المصدر: مجلة 'كتابات سودانيّة' العدد ٣٣ ص ٢٤).

لمثل هذا الكلام، لا يخالجني أدني شك في أن رئيس الحركة الحالي الفريق سلفا كير ميارديت سيخلع قبعته احتراما وتقديراً، أما أنا فقد أنحنيتُ له تكريما وتبجيلاً حتى كلَّ ظهري!

وأزيد على المثل أمثلةً من الجوار الإقليمي.. تشاد، تلك الدولة التي ظللنا نستعلي عليها سياسياً واجتماعيا وثقافياً، وفي ظِلّ حُكم عُصبة الإنقاذ اشتد ساعدها فاستعلت علينا عسكرياً، هي الدولة الوحيدة خارج حظيرة الجامعة العربيّة التي أقدمت "برضاها" على إقرار اللغة العربيّة في دستورها كلغة رسميّة إلى جانب الفرنسيَّة لغة المُستعمر، أما جيبوتي التي تبدو أكثر إعتزازاً بعُروبتها، فقد فعلت الشيء نفسه، أي إقرار اللغة العربية في الدستور، ورغم أن ذلك أهَّلها لاحتلال مقعد في منظومة الجامعة العربية المذكورة، لكن المُفارقة أن لغة التخاطب في الدوائر الحكوميّة والشارع العام هي الفرنسيّة، إلا من رحم ربي!

أيضا إريتريا، فبرغم أن المُتحدثين بالعربيّة أكثر عدداً من جيبوتي، إلا أن قيادتها تمنَّعت في الانضمام للجامعة العربيَّة لتوهُمها أن ذلك سيشوّش على هُويَّتها، ونضرب كذلك مثلاً بالبلد الذي نعيش على ظهرانيه، وقد ذكره د. جون في سياق حديثه، فالمعروف أن الدستور الأمريكي صمت عن إقرار اللغة الرسميّة، فسادت الانجليزيَّة وهي لغة المستعمر البريطاني بشرعيَّة الأمر الواقع Defacto ويتحدَّثها نحو ٩٦% من السُكان، في الوقت الذي اندثرت فيه لغة أهلها الأصليين "الهنود الحُمْر" رويداً رويدا، وحالياً نتيجة تغييرات ديمغرافيَّة بدأت الإسبانيَّة (يتحدَّثها حوالي ٣٠ مليون نسمة ما يعادل ١٢% من السكان) تفرض نفسها بقوَّة، وقد تصبح اللغة الأولى في السنوات القادمة في بعض الولايات، مثل تكساس وكليفورنيا، ومع ذلك لم يشتك أحداً ولم يقل أن الإسبان قادمون لاستعمار أمريكا.

في التقدير أن كل هذه الأمثلة تؤكِّد ما قلناه آنفاً، أن اللغة لا تمنح هُويَّة، بل حتى بالنسبة للعقيدة الاسلاميَّة فهي "تابعة" وليست "متبوعة"، كما قال شهيد الفكر الحُر، الاستاذ محمود محمَّد طه! إن اللغة ينبغي أن تكون في إحدى غاياتها اسامية عامل توحُّدٍ بين الشعوب، وصحيح أن اللغة العربيَّة التي ظلت تنمو وتزدهر في السُودان لأكثر من سبعة قرون لم تكن كذلك، نسبة لأن البعض

أقحمها بصورة أو أخرى في النزاعات المسلحة والحروب الأهليَّة، وحمَّلها ما لا تطيق حينما اندلع من ركام تلك الحروب والنزاعات سؤال الهويَّة.

كذلك لا يرى المرء سبباً وجيهاً يُفسِّر افتعال البعض معركة في غير معترك، أي إدارة صراع خفي بين اللغتين العربيَّة والانجليزيَّة، رغم أنهما لغتين وافدتان وإن اختلفت طرق انتشارهما في السُّودان، ولعلَّ هذا هُو ما دفعني للتساؤل سرأ بينما كنتُ اشاهد وقائع الاحتفال بالذكرى الثالثة لاتفاقيَّة السلام في أستاد واو يوم الاثنين ٢٠٠٨/١/١٤، إلى من وجَّه المُتحدثون باللغة الإنجليزيَّة حديثهم؟! هل للجالسين على المنصَّة، أم للمنتشرين في الإستاد؟! ويتعقَّد التساؤل أكثر لأن اللقاء مبثوثٌ على الهواء، وبالطبع مقصودٌ به السُّودانيين في الداخل والخارج، وبينهم نسبة معتبرة من غير الناطقين بها!

بما أن الشيء بالشيء يُذكر، بصرف النظر عن المحتوى وطبيعة النظام، من منَّا لم يشعُر بالزهو والاعزاز حينما خاطب الدكتور لام أكول مؤتمر القمَّة العربيَّة الذي انعقد في الخرطوم العام ٢٠٠٦ بلغة عربيَّة فصيحة، حرَّضت الأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى على البَوح بمكنون صدره من إعجابٍ مستتر، وكلنا يعلم آنذاك أن العرب العاربة الذين خاطبهم أكول، منهم من يتعثر في قراءة سطرين، وإذا قيَّض المولى له أن يُكملهُما دون تأتأة، فقد يظن أن تلك درجه تُؤهِّله لأن يُصبح كليم الله.. على كلٍ، أستطيع أن أقول بقرائن الأحوال، إن إجادة لام ورفيقه مشار اللغة العربيَّة كانت حافزاً لدكتور جون في محاولاته تحسين لغته، وأعلم أن أكثر ما ساءه في تنقسامهما الشهير عام ١٩٩١ وترتمائهما في أحضان نظام الخرطوم، كان ظهورهما وآخرين في الأجهزة الإعلاميَّة الرسميَّة واللقاءات الجماهيريَّة ومُخاطبة الناس بلسانٍ عربيٍ مُبين، رغم أنهما لا يمتلكان ذات الكاريزما التي يتمتع بها هو! وكنتُ قد قرأتُ رأياً لرئيس مجلس إدارة الصمغ العربي، المستشار منصور خالد ('الرأي العام' ٢٠٠٣/١١/١١) قال فيه: «**أن د. جون بدأ يتجاوز عقبة الحديث باللغة العربية**»، ويومها كانت نيفاشا تقدِّم رجلاً وتُؤخِّر أخرى!

كذلك أطمحُ من خلال إثارتي قضيَّة اللغة هذه رداً على ما أدلي به أموم على رتق الفتوق التي صاحبت الحرب الأهليَّة في جنوب البلاد، منذ أن بدأت بشرارة تمرُّد العام ١٩٥٥، وقد هالني أثناء إعادة قراءة تقرير لجنة التحقيق الاداري التي عيَّنها وزير الداخلية السيد علي عبدالرحمن "الشيخ الأحمر" كما كانت تطلق عليه صحافة ذاك الزمان، وكانت اللجنة برئاسة قاضٍ فلسطيني مشهودٌ له بالكفاءة والنزاهة، هو توفيق قطران قاضي المحكمة العُليا، وعضويَّة خليفة محجوب مدير عام مشاريع الاستوائيَّة، ولوليك لادو زعيم قبيلة ليريا، وبعد عام كاملٍ من التحقيقات الميدانيَّة في مُدُن مختلفة في الجنوب والخرطوم العاصمة، أصدرت اللجنة تقريرها في ١٩٥٦/٢/١٨ ولم يُنشر حينذاك كاملاً، وهو يُعَدُّ من أهم الوثائق التي وضعت الأصبع على الجرح النازف، ورغم مرور

أكثر من نصف قرن على الحدث، إلا أن ذلك التقرير يُعَدُّ مرجعاً لتفسير كل ما إلتبس في لوح الحرب، وما يهمنا فيه الآن موضوع اللغة وتأثيرها في التمرُّد.

في سياق التسلسُل التاريخي للمُشكلة، أشار التقرير إلى أنه في إطار الحيثيات اختط السكرتير الإداري آنذاك المستر هارولد ماكمايكل مطلع العام ١٩٣٠ سياسة جديدة بالنسبة للجنوب، اقتضت: «**إمداد الجنوب بموظفين لا يتكلمون اللغة العربيَّة من إداريين وكتبة وفنيين، كما شملت الرقابة على هجرة التُجَّار من الشمال واستعمال اللغة الإنجليزية عندما يكون التفاهُم باللهجات المحليَّة مستحيلاً**»، وقد ترتب على هذه السياسة عملياً خمسة سلبيات، يهمنا منها الأخيرة، وتقول: «**ألغى تدريس اللغة العربيَّة كمادة في المدارس**».. وتؤكد الوثيقة التعسُّف الذي صاحب تنفيذ هذه الإجراءات: «**إن المدى الذي أتبع في تطبيق هذه السياسة بلغ حداً صبيانياً. فقد هُجِّرت قرية كافيا كنجي (مديرية بحر الغزال) وخُلقت منطقة حرام بين دارفور وبحر الغزال لمنع اختلاط العرب والزنوج، وحتى المسلمين من الزنوج من الأقطار الأخرى من أفريقيا مثل الفلاتة والهوسة قد أجلوا**».. إلى أن تخلص الوثيقة للنتيجة: «**صار استعمال لغة التخاطب بين القبائل المختلفة "نوعٌ ركيك من اللغة العربيَّة" جريمة يُعاقب من يتكلمها في المدرسة، كذلك أجبر من «كانوا يسمون بأسماء عربية لعدة أجيال على تغيير أسمائهم**».. تلك كانت نطفة المستعمر التي قذفها في رحم الوطن وولدت جنيناً مشوَّهاً ترعرع في كنف الحرب والكراهيَّة، وبالطبع لا يوجد مغامر يرغب في إعادة عقارب الساعة للوراء ليرتكب الخطيئة نفسها، طالما أن هناك عُقلاء مهمتهم هدهدت الفتنة في مرقدها!

لكني أخشي أن يكون أموم قد أومأ في حواره مع 'الرأي العام' إلى إمكانيَّة إعادة عقارب الساعة إلى الوراء بصورة أخرى، حيث أشار إلى اللغة الانجليزيَّة كبديلٍ محتمل رغم أن ذلك قولٌ سبقه نفيٌ منه، والحقَّ يُقال إن صَدَقَ هذا، فقد يكون أشبه بحال المستجير من الرَّمضاء بالنار، وكان الصَّحفي قد سأله عمَّا إذا كانت الانجليزيَّة لغة سودانيَّة؟! فتحذلق قائلاً: «**نعم، الإنجليزيَّة لغة سودانيَّة بحُكم الاستعمار الإنجليزى، والصفوة السودانية تعلمت باللغة الإنجليزيَّة والجامعات السودانيَّة كان التدريس فيها باللغة الإنجليزيَّة، حتى جاءت الإنقاذ بما يُسمَّى ثورة التعليم العالي.. وبالتالي فإن الإنجليزيَّة لغة سودانيَّة بحُكم أننا ورثناها من المستعمر الإنجليزي**».. الواقع أنا لا أعلم رد فعل القارئ فيما قرأ، ولكن شخصاً مثلي يعرف قائله معرفة لا ادِّعاء فيها، لابُدَّ وأن يُقطب جبينه إستغراباً، وتنكمش نفسه استنكاراً، ويتمدَّد عقله في محاولة لمعرفة أي دوافع ميتافيزيقيَّة حدت بالقائل أن يسُمّ طعامه بيده!

لعلَّ أموم يعلم أن استرجاع عقارب الساعة تمثل في أن تماثل اللغتين كاد أن يعصف بمحادثات أديس أبابا بين نظام نميري وحركة تحرير السُودان بقيادة جوزيف لاقو، وذلك من قبل أن تُفضي للاتفاق الشهير في مارس ١٩٧٢..

يومذاك، رفضت الحركة أن تكون اللغة العربيَّة هي اللغة الرسميَّة باعتبارها لغة استعمارية، إلى أن تمَّ تجاوز العقبة بإقرار اللغة العربيَّة، والإنجليزيَّة اللغة الرسميَّة في الجنوب، أي لغة المكاتب، والواقع أن ذلك القرار لم يزد من استخدام اللغة الإنجليزيَّة ولم يحِدّ من انتشار اللغة العربيَّة، وتجدُرُ الإشارة إلى أننا حينما نقول اللغة العربيَّة، فنحن نعني تحديداً اللغة الهجين التي أصطلح على تسميتها بـ"عربي جوبا"، ولعلها بهذه التسمية تدرأ الشُبُهات في نفوس الذين أصابتهم "فوبيا اللغة" كما ذكرنا، وقد أسعدني الجهد الذي أنجزه دكتور بول دينق شول ولعله كان بعنوان "لهجة جوبا العربيَّة"، والذي نوقش في منتدى بمتحف التاريخ الطبيعي في يونيو العام الماضي ٢٠٠٧.

إن حسم الجَدَل حول موضوع اللغة لا يعني بأية حال إهمال اللغات الأخرى، أو الاستعلاء على الثقافات الأخرى، ولعلّ الفرضيَّة الأولى هي التي أدَّت إلى انقراض بعض اللغات واللهجات السودانيَّة، وذلك ما أكده ('الراية' القطريَّة ٢٠٠٧/١٢/١٣) البروفيسور يوسف الخليفة أبوبكر، رئيس دائرة اللغويات في مجمع اللغة العربيَّة في السُّودان: «**بين يدينا سبعُ لغاتٍ لا يتحدَّثُها إلا بضعُ مئات، وأخرى إنقرضت في خلال القرن العشرين، منها لغة حرازة وبِرقِد وقلي**»، والأخيرة هذه للذين لا يعلمون، كانت لغة دولة الفونج، وقال أنه في زيارة للمنطقة عام ١٩٧٧ وجَدَ أربعة أشخاص فقط يتحدَّثونها، كانت أعمارُهُم تجاوزت السبعين!

في ختام مبحث اللغة، أرجو ألا يندهش القرَّاء مثلي إن علموا أن هناك جسماً غير مرئي يُسمَّى "مفوضيَّة اللغات"، ويبدو أنها عاطلة عن العمل مثل صُنُوَّاتها، وما أكثر العاطل عن العمل في أجندة الشريكين!

آخر الكلام: لابُدَّ مِن الدِّيمُقرَاطِيَّة وإن طَالَ السَّفر!
الأحداث ٢٠٠٨/٠١/١٦

حِوَارٌ فِي السَّاعَةِ الخَامِسَةِ والعِشرِين مَعَ باقان أموم (٨)

نُكمِلُ الحوار الذي لم نمِلّه مع السيّد باقان أموم، الأمين العام للحركة الشعبيّة لتحرير السُّودان، ونتابع ما أثرناه في الحلقة الماضية حول اللغة، واستشهدنا فيه بعِبَر ودروس التاريخ، إلى جانب وقائع الجغرافيا، ودعمناهما بشواهِدَ من رُؤى ثاقبة لزعيم الحركة الرّاحل دكتور جون قرنق، وكنا قد دعونا مخلصين إلى الانفكاك من ربقة الماضي الذي نعلم جميعاً انه مليئ بالآثام والخطايا، ويكفي أنه أورثنا تبعات تلك الحرب اللعينة، بعد أن قضت على الأخضر واليابس وسُجّلت كأطول حرب في القارّة الأفريقيّة، وعندما يجنح الناس للسلام، فللسلام أيضاً ضريبته. وكان كاتباً صديقاً من ناشطي الحركة الشعبيّة قد حضّنّا قبل فترة في سلسلة مقالات على أن "نسمو فوق ما يُفرّقنا" في حين نعلم جميعاً أن السُمُو فوق الذي يُفرّقنا يستلزم في البدء لغة مشتركة، نعرف من خلالها كيف نخاطب بعضنا بعضاً، فما جدوى اللغة التي نخاطب بها العالم الخارجي إذا لم ننجح في مخاطبة أنفسنا أولاً؟!

إن كان لكُلِّ أمّة "زرقاء يمامة" تستبصر لها مصائرها المخبوءة، أشهد أن السيّد بوث ديو كان "زرقاء يمامة" هذه الأمّة، فقد نظر الرّجُل في الأفق واقترح علينا في مؤتمر جوبا (١٩٤٧) اقتراحاً، لو عملنا به، لكفانا مغبّة تلك الحرب العبثيّة، اقترح ديو تشجيع وتعزيز تعليم اللغة العربيّة في الجنوب، وذلك لاعتباراتٍ موضوعيّة أقنعت المُشاركين بوضعها ضِمن توصيات المؤتمر، وهي ذات الاعتبارات التي أمّن عليها رئيس مجلس إدارة الصّمغ العربي، المستشار منصور خالد في مؤلفه المُسمّى "السودان: أهوال الحرب وطموحات السلام" (ص ١٧٤)، بقوله أن: «**بوث ديو لم يكن قطعاً ينظر للعربيّة كأداة سيطرة على الجنوب، بل كخطوة مهمّة لتمهيد الطريق لأبناء الجنوب حتى يشُقُّوا طريقهم في سُلم الترقي الاجتماعي مع نظرائهم الشماليين**».. وذكر المستشار أيضاً في نفس الصفحة، أن السيد عبدالرحمن علي طه في خطابه أمام الجمعيّة التشريعيّة (انوفمبر ١٩٤٩)، أعلن: «**بما أن السُّودان قطرٌ واحد تشترك جميع أجزائه في مُؤسّسات سياسيّة واحدة، فإن أوّل ما يجب تحقيقه، هو أن تكون للبلاد لغة واحدة يفهمها ويتحدَّث بها جميع أبنائها، ولا يمكن أن تكون هذه اللغة غير العربيّة**».. وأشار إلى توجيه أصدره بموجب قرار من المجلس التنفيذي أن:

«تتخذ الوزارة الخُطوات المناسبة لجعل اللغة العربيَّة مادة أساسيَّة في مدارس المديريَات الجنوبيَّة بأسرع ما يُمكن، وأن اللغات المحليَّة ستظلَّ تستخدم كوسيطٍ تعليمي في المدارس الصُغري وفي الفرق الأولى من المدارس الأوليَّة».

مؤتمر جوبا مثَّل في تقديرنا أوَّل تلاقي نخبوي بين الشماليين والجنوبيين، وقد انتهت مداولاته بالتأمين على الوحدة، على الرغم من أنه تمَّ في ظِلِّ مستعمر بذر بذرة الانفصال بقانون المناطق المقفولة (١٩٢٢) وكذلك جاء في أعقاب السياسة التعسفيَّة للسكرتير الاداري المستر هارولد ماكمايكل مطلع العام ١٩٣٠ والتي أشرنا لها في الحلقة الماضية ضمن تقرير لجنة القاضي توفيق قطران المسئولة عن تقصِّي أحداث تمرُّد ١٩٥٥، ولا يدري المرء إن كان مؤتمر جوبا في جوانبه الإيجابيَّة مُفعماً بإفرازات ثورة "اللواء الأبيض" (١٩٢٤) أم تجاهلها، لكن الثابت أنها الثورة التي وضعت قضية الوحدة على بساطٍ من التفاعُل الحقيقي، وتمثل ذلك من جهة في علي عبداللطيف وعبدالفضيل ألماظ كقيادات لها، ومن جهة أخرى حسم قادتها صوتاً نشازاً "سليمان كشة" إثر محاولته تقزيم الهويَة السودانيَّة، تماماً مثلما كانت معركة الرَاحل قرنق الأولى في الحركة الشعبيَّة ضدَ الذين أرادوا توجيه دفة الحركة الوليدة نحو الانفصال!

مؤتمر جوبا المُشار إليه كان بنده الوحيد المطروح على أجندة المجتمعين، هُو تقرير مصير الجنوب، وفي ذلك بَرَزَت ثلاثة خيارات، بعضها من حياكة المُستعمرين أنفسهم، ولم تلاق رواجاً، مثل ذلك الخيار القاضي بضمِه لأوغندا، أضعفه تخوُف الأوغنديين من أن يبتلعهم، بدعوى أن مساحته - أي الجنوب - تساوي أضعاف مساحة أوغندا، وطُرِح على الهامش حلاً أراد الالتفاف على ذلك الخيار بتقسيم الجنوب بين دُول شرق أفريقيا المُجاورة، أي ذبحه وتشتيت دمه بين القبائل.. أما الخيار الثاني، أو في الواقع أنه كان الخيار الأوَّل، وهو الوحدة بين الكيانين الشمالي والجنوبي، ولكن بأسُس جديده تضمن الفيدراليَّة مستقبلاً.. أما الخيار الثالث، فقد تمثل في تقسيم الجنوب بين السُودان الجغرافي الشمالي ودول شرق القارة الأفريقيَّة، وهي أيضاً قسمة ضيزي لأنها تأخذ ولا تُعطي الجنوبيين شيئاً، ولرُبَّما من باب الامتثال للمثل الدَارج "العافية درجات"، لم يكن أمام المجتمعين سوى الانحياز لخيار الوحدة بأسُس وضعُوا ضوابطها، ومنها إقتراح ديو. وحريٌ بنا القول أن هناك فرقٌ كبير بين شفافية بوث ديو وواقعيَّة عبدالرحمن علي طه من جهة، وبين سياسة التعريب القسري التي طبَّقها النظام العسكري الديكتاتوري الأوَّل من جهة أخرى، ذلك لأنه بقدر ما يكون استخدام اللغة العربيَة أمراً مطلوباً ومرغوباً كلغة مشتركة تحقق التواصُل الحياتي والإنساني، لكن المُؤكد أن الأمر يختلف جداً عندما تجيء تلك الدعوة في نسق سياسي مغلق، وتنطوي على مفاهيم توحى بالاستعلاء والتفوُق العنصري!

كنا قد أوردنا مأزق وضعيَة اللغة العربيَّة في اتفاقيَّة أديس أبابا، الذي كاد أن يُؤدي إلى إنهيار المفاوضات، ذلك يدعونا أن نُمعِن النظر قليلاً في وضعيَّة

اللغة في الدساتير المُختلفة، بغضِّ النظر عن الأنظمة التي كرَّستها، إذ نُدرك بغير كثير اجتهاد أن المُشرِّعين داروا حولها بصورة تفضح عُمق المأزق، الذي ظللنا نعيشه..

فمثلاً المادة (٥٧) في دستور ١٩٥٦ المُعدَّل ١٩٦٤، تحدَّثت عن اللغة كالتالي: «**مع مراعاة أحكام اللوائح الداخلية الخاصة بالجمعيَّة التأسيسيَّة، تسير الإجراءات باللغة العربيَّة ولكن دون مساس بإستعمال اللغة الإنجليزيَّة متى كان ذلك مناسباً**»..

أما دستور ١٩٩٨، فالمادة (٣) المخصَّصة للغة ذكرت: «**اللغة العربيَّة هي اللغة الرسميَّة في جمهوريَّة السودان وتسمح الدولة بتطوير اللغات المحليَّة والعالميَّة الأخرى**»..

في دستور نيفاشا ٢٠٠٥، أوضحت المادة (٨) المخصَّصة للغة خمسة فروع:

١- **جميع اللغات الأصليَّة السودانيَّة لغات قوميَّة يجب احترامها وتطويرها وترقيتها.**
٢- **العربيَّة هي اللغة القوميَّة الأوسع انتشاراً في السُودان.**
٣- **تكون العربيَّة باعتبارها لغة رئيسيَّة على الصعيد القومي، والإنجليزيَّة، اللغتين الرسميَّتين لأعمال الحكومة القوميَّة، ولغتي التدريس في التعليم العالي.**
٤- **يجوز لأي هيئة تشريعيَّة دون مستوى الحُكم القومي أن تجعل من أي لغة قوميَّة أخرى لغة عمل رسميَّة في نطاقها، وذلك إلى جانب اللغتين العربيَّة والإنجليزية.**
٥- **لا يجوز التمييز ضدَّ استعمال أي من اللغتين العربيَّة أو الإنجليزيَّة في أي مستوى من مستويات الحُكم أو في أي مرحلة من مراحل التعليم».** (انتهى)

وبغضِّ النظر عن ركاكة الترجمة كما في الأخير هذا، يمكن القول أن ذلك مجرَّد "حكِي" كما يقول عرب الشام، ولعلَّ الإسهاب في الشرح، كما في دستور نيفاشا أيضاً، يوضِّح عُمق المأزق، وبالتالي فإن معالجة قضيَّة اللغة في الدساتير الثلاثة (لم يتوفر لنا دستور ١٩٨٥ الانتقالي ودستور ١٩٧٣) هي تجسيدٌ حقيقي لأزمة يظن البعض أن مجرَّد وضعها ضمن مواد الدستور كفيلٌ بحَلِّ إشكاليَّتها، ناهيك عن القول أننا لا نري في الأصل سبباً مقنعاً يستلزم وضع اللغة أو الدين في أي دستور!

بناءً على الآراء التي وردت في الحلقة الماضية وهذه الحلقة نوجز وجهة نظرنا حول موضوع اللغة في نقاطٍ، نعلَّ تسلسُلها يكون مُعيناً على الإقناع وتفهُّم الدوافع التي تقف من وراء القصد:

- **أولاً:** إن حديثنا حول اللغة غير مَعنِي بالحسم الديواني أي وضعيَّة اللغة العربيَّة في الدُستور، سواء أكانت اللغة الرسميَّة الوحيدة أو مشاركة مع أخريات، نحن نقول طالما أن غالبيَّة أهل السُّودان يتحدَّثون اللغة العربيَّة، ينبغي أن يكون ذلك حافزاً يحُثنا على التواصِي والتراضي حولها لكي تكون وسيلة للتواصُل الإنساني والحياتي بين الشعوب السودانيَّة جمعاء، ونعتقد أن ذلك يُمكن أن يعزِّز فرص التعايُش السلمي والسلام الاجتماعي الذي قصُرت عن ذكره نيفاشا، علاوة على أن الاتفاق قد يؤدِّي إلى توفير طاقة مبدَّدة فيما لا طائل يُجنى من وراءه، فمن غير المنطقي أن نتجادل حول اللغة لما يناهز المائتي عام، أي منذ أن وحَّد الاتراك هذه الأمَّة (١٨٢١) بل الأنكى من ذلك ألاَّ نصل في حواراتنا لحُكم قاطع حتى الآن!

- **ثانياً:** المعروف انه ارتضينا "السودانويَّة" هويَّة وسطاً بين هويَّتين، وبالتالى نكرِّر القول أن اللغة لا تمنح هويَّة، سواءً كانت مفقودة أو موجوده، وقد خابت محاولات الذين أرادوا لها أن تكون مُنتِجاً للهويَّة، ليس في السُّودان فحسب، بل في أقطار أخرى أقل تعقيداً إثنياً، فلو كان الأمر غير ذلك لكان دُعاة القوميَّة العربيَّة تبوأوا مكاناً علِيَّاً، ليس في السُّودان وحده، وإنما في أقطار المنبع.. العراق أو سوريا أو مصر، وبالطبع واهمٌ من يظن أن مجرَّد تحدُّثنا باللغة العربيَّة سيضعنا في خانة ذوي الهويَّة العربيَّة الإسلاميَّة، فهذه هي الفكرة الخطأ التي ينبغي محاربتها.. عوضاً عن محاربة اللغة نفسها!

- **ثالثاً:** لأن التقوقع لا يُجدى فتيلا - كما تعلمون - وبعيداً عن السُلطة الحاكمة، كنا قد دعونا إلى ضرورة عدم محاكمة الحاضر بخطايا الماضي وشروره، ولسنا في حاجة لمن يُذكِّرنا بآثام الماضي والحاضر معاً، فقد انتقدناهما وسنظل ننتقدَهُم بتركيز على ممارسات الأنظمة الديكتاتوريَّة الثلاث ليس في مجال التعريب القسري أو الأسلمة الاجباريَّة فحسْب، وإنما في مسئوليتهم الشاملة عن الترذِّي السياسي والأخلاقي الذي أوصل البلاد والعباد إلى دركٍ سحيق، وسيأتي يوماً تُنصَبُ فيه موازين الحساب والعقاب!

- **رابعاً:** بنفس القدر، نحن نتطلع نحو المستقبل، وطالما أن الأمر كذلك فإن أي أفكار أو رؤي طرحناها حول موضوع اللغة لا نرجو لها تحقيقاً إلاَّ في ظِلِّ "دولة مدنيَّة ديمقراطيَّة مُوحَّدة"، أي بعيداً عن العُصبة الحاكمة، سواءً في طبعتها الإنقاذيَّة القديمة، أو الجديدة فيما تسميه بـ"حكومة الوحدة الوطنيَّة"!

- **خامساً:** أعتقد أنه آن الآوان لإزالة التغبيش الذي يرمي باللائمة على اللغة في مسألة التهميش، الذي عانت وتعاني منه كثير من أطراف السُّودان، تُرى كيف كان سيكون حالنا لو أننا أتبعنا تلك النصيحة الغالية التي أسداها لنا السيِّد بوث ديو، "زرقاء اليمامة" ولم نستبنها حتى ضُحي الغد؟!

- **سادساً:** من باب الواقعيَّة، نقول أن الكثير من أبناء الجنوب الذين عاشوا وتعلموا في الشمال، والذين درسوا كذلك في دول عربيَّة مثل مصر وليبيا وسوريا اكتسبوا مهارة التحدُّث باللغة العربيَّة إلى جانب الإنجليزيَّة، وبما أن هؤلاء بدأوا رحلة العودة الطوعيَّة، وإزاء تنمية شاملة منتظرة غداً، يمكن القول أن التحدُّث بالعربيَّة سيكون مزية إضافيَّة ولن يكون خصماً، وأعتقد أن هذا ما عناه بوث ديو تحديداً، والمعروف أن خاصيَّة التحدُّث باللغة العربيَّة تزيد من فرص عمل الذين يعيشون في البلدان الناطقة باللغة الإنجليزيَّة.

- **سابعاً:** لا يعرف المرء مسوغاً مقنعاً يجعل الذين يتحدَّثون اللغة العربيَّة يعملون لحرمان أبنائهم منها، حتماً إنها الأنانيَّة التي تعمي القلوب التي في الصُدُور! المفارقة أنني لم ألتق قيادياً قط في الحركة الشعبيَّة لا يجيد الحديث باللغة العربيَّة، سمِها ما شئت.. عربي جوبا، أو اللغة الهجين، أو العربي المَكسَّر، فالحقيقة نحن جميعاً في السُودان نتحدَّث لغة عربيَّة ليس لها علاقة بالأصل سوى الاسم.. هَبْ أن القادة المشاركين في حكومة الوحدة الوطنيَّة لا يتحدَّثون اللغة العربيَّة.. كيف كان سيتأتي لسواد الشعب معرفة أفكارهُم، وما يجول في خواطرهم؟!

- **ثامناً:** اتساقاً مع أعلاه، وبما أن الشيء بالشيء يُذكر في الأنانيَّة، فليسمح لنا القارئ الكريم أن نضرب مثلاً شخصياً في مهجرنا الحالي.. لقد حرصتُ على تلقين العربيَّة لمن كان في المهد صبياً من أبنائي، وهو أصلاً تعلم الإنجليزيَّة "غصباً عني"، أما من بَلغ منهم الكِبَر، فقد زاد على الحُسنين - العربيَّة والإنجليزيَّة - بثالثة هي الأسبانيَّة، وقبلهم كانوا قد تعلموا التغرينيَّة بحُكم وجودهم في إريتريا، ومع ذلك لم يقُل لي أي واحد منهم أنه تضرَّر من تلك الازدواجيَّة، أو أنني ظلمته في خياراته، مثلما لم أشعُر أنني استلبتُ هويَّته، وبالتالي لم أر أحداً منهم.. تأترر، أو تأسبن، أو تأمرك!

- **تاسعاً:** إن الحسم غير الرسمي للغة العربيَّة لا يعني بأيَّة حال الاستعلاء على اللغات أو الثقافات الأخرى، وكنا قد انتقدنا الإهمال الذي أدَّى إلى انقراض بعض اللغات، وأشرنا إلى ضرورة احتفاظ الناس بلغاتهم الأصليَّة، وأجد نفسي متفقاً مع أموم وآخرين في ضرورة تعليم النشء بما يُسمَّى لغة الأم، فبغير أن الطفل يمكن أن يستوعب أكثر من لغة، نجد أن الدعوة أساساً وردت في خطاب عبدالرحمن علي طه المذكور أعلاه، وأذكر أن دولة إريتريا الشقيقة طبقت التجربة على تلاميذ المراحل الابتدائيَّة، ولكنني لم أتابع مدى الفشل أو النجاح الذي أصاب تجربتهم!

- **عاشراً:** من المهم التأكيد على ما أكدناه سابقاً في أن دعوتي لتغليب اللغة العربيَّة ليس تطرُّفاً أو انحيازاً أو تعصُّباً، فالأمر قد أملته ضرورات موضوعيَّة، في مُقدِّمتها الانتشار الواسع، إلى جانب أن الجدل حول اللغة

أهدر طاقاتنا بلا فائدة. وأقول ختاماً، لو أننا كنا نتحدَّث اليوم لغة الدينكا أو المحس أو البجا بنسبة أكثر من ٨٠% كما اللغة العربيَّة، لظلّ حماسي للسائد كما هو.. ولم ينقُص حبّة خردل!

بهذا التسلسُل نختم حديثنا حول اللغة، آملين أن يكون مُعِيناً لسلالة آل موسى الذين تشابه عليهم البَقَر، فظنوا أن الحِوَار.. خُوَاراً!!

آخر الكلام: لابُدّ مِنَ الدّيمُقراطيَة وإن طالَ السّفر!
٢٠٠٨/١/٦

حِوارٌ فِي السَّاعَة الخَامِسَة والعِشرين مَعْ باقان أُموم (٩)

استعرضنا في الحلقات الماضية الآراء والأفكار التي أفصح عنها السيد باقان أموم في المقابلة الصحفيَّة التي أجرتها معه الزميلة 'الرأي العام' ونُشِرت في حلقاتٍ ثلاث أواخر نوفمبر الماضي، وبدا لنا أنه طالما قائلها هُو الأمين العام، فبالتالي هي تمثل توجُّهات الحركة الشعبيَّة في القضايا المُثارة، وها نحنُ في ختام هذه السلسلة الحواريَّة، ومن باب الإنصاف المتبادل، نُدلي باختصار شديد بملاحظات ثلاثة خاصَّة، والتي نعتقد أنها قد تفسِّر حالة الاضطراب التي اكتنفت توجُّهات الحركة ورُؤها منذ أن طرحتها على الملأ في العام ١٩٨٣. وعلى كلٍ، هو اجتهادٌ ليس من باب التشريح بقدر ما أنه يرمي – إن أسلمنا جدلاً بمُعطياته – إلى البحث عن إجابة واقعيَّة، وتفسير منطقي لتلك "الانعطافة" السياسيَّة والفكريَّة في مسيرة الحركة، ولربَّما خلصنا إلى نتائج يمكن الاستفاده منها، تعين على الأقل في إكمال مشوار نعلم أنه طويل جداً، وبالطبع لابُدَّ من التذكير في أن هذه الملاحظات هي محض اجتهادٍ شخصي.. ورغم أنه اجتهاد يحتمل الخطأ والصواب بقدرٍ سواء، إلا أننا نتمنى ما تمناه الإمام الشافعي لمحاوريه.. فيُسعدنا أن نقول ذات يوم: «أصابت الحركة وأخطانا نحن»، وعليه لا نرى غضاضة في أن تتسع مظلة الحوار هذه لتشمل الذين عبَّر أموم عن أفكارهم ورُؤاهم، فقد أكدنا غير مرَّة أننا نهدف إلى تكريس مبدأ الحوار الديمقراطي الحُر بعد أن تمَّ تغييبه في ظِلِّ دولة المشروع الحضاري!

- أولاً: يقيني أن الموت كان فريضة غائبة، ليس في خُلد كوادر وقيادات الحركة الشعبيَّة فحسب، بل في خُلد زعيمها نفسه، الذي رَحَلَ دون أن يحاول طيلة مسيرة العقدين على ترتيب الأوضاع في حال غيابه بالموت المفاجئ مثلما حدث، أو تغييبه بفضل ثلة من الطامحين فى إرث الحركة، مثلما هو الحال في كل الحركات المسلحة في العالم الثالث، ولهذا عندما غاب الدكتور جون قرنق في الثلاثين من يوليو ٢٠٠٦ عن المسرح السياسي، كادت الحركة أن تفقد بوصلتها.. صحيح أنها استعادتها وحدَّدت اتجاهاتها التنظيميَّة باختيار الفريق سلفا كير ميارديت خلفاً له، لكن عدا الناحية التنظيميَّة هذه، يمكن القول أن كل شيء ظلَّ مُحدِّقاً في الأفق يبحث عن معالجة، وقد أدهشني أن الفريق سلفا نفسه بدأ مشوار رئاسته بانتقاد القبضة المركزية لسلفه، وهو حديثٌ وإن قصد

به الايحاء في رغبته العيش بعيداً عن جُلباب الرَّاحل، لكنه ما كان ليجرُؤ على قوله لولا إدراكه أن الرَّاحل نفسه لن يعودا!

على كلٍ، طالما أن العبرة في الخواتيم لندع ذلك جانباً، ونطرح السؤال الذي نفترض أن كل قيادات الحركة الشعبية وناشطيها قد زيَّنوا به صدورهم كما التمائم.. تُرى لماذا خرجت الملايين وبشكلٍ غير مسبوق لاستقبال قائدٍ سياسي في قلب العاصمة التي قاتلت حركته نفسها أثناء التفاوُض من أجل أن تُستبدل بأخرى لا تذكِّرها بالحرب وأجوائها الكريهة.. على حدِّ تعبير أموم في حواراته المُشار إليها أعلاه؟! الإجابة في تقديرنا ليست بتلك المثاليَّة التي ردَّدها كثير من المحللين السياسيين في زعمهم وبصورة مطلقة أن تلك الجُموع خرجت لأنها تُحِبُّ السلام وتريد أن تقول "لا" للحرب، الحقيقة أن تلك مجرَّد شعيرة من فريضة أكبر تقول أن هذه الملايين خرجت لأنها توَّاقة للتغيير، وأرادت أن تُلقي بمسئولياته الجسام على كاهل الحركة الشعبيَّة، أو زعيمها!

نقولُ ذلك بيقين أن الزَّعم الأوَّل هو ابتسار للحقيقة، وقد روَّجت له عُصبة الإنقاذ، أو أن ترويج الآخرين له وجد هوىً في نفوسهم، ذلك لأنهم يريدون تبرئة انفسهم من خطيئة الحرب قبل كل شيء، يريدون أن يوحوا لنا أن تلك الملايين خرجت لأنهم صنعوا لها السلام.. وهذه محض هُراء وافتراء على الواقع.. فبغضِّ النظر عن أن الذنب لا يمكن أن يصبح حملاً وديعاً، وبغضِّ النظر عن السلام، هذا كان متاحاً من قبل أن تدُكَّ دبَّابتهم نظاماً منتخباً كان قائماً، مع هذا وذاك يصعُب التأكيد أيضاً على أن كل أهل السُّودان استشعروا نيران تلك الحرب اللعينة.. نعم، لم يكونوا كلهم سواء في الضرَّاء.. لأن في هذا السُّودان هناك من ارتضى لنفسه أن يكون حطب الذين أجَّجوا نيران تلك الحرب بـ"خُزْعبُلات" الجهاد لعقدٍ ونصف من الزمن، وفي السُّودان هذا، هناك المُتقاعِسون الذين عزَّ عليهم الدفاع عن مُلكٍ أضاعوه يومذاك وطفقوا يبحثون عنه يومئذٍ، وفي السُّودان كذلك الذين باعوا مبادئهم باتفاقيَّاتٍ سخيفة أضاعوا بها عمراً للكري، مثل تلك المُسمَّاة بـ"اتفاقيَّة الخرطوم للسلام"، وفي السُّودان أيضاً الذين انخرطوا في مهزلة النظام بفرية "التوالي"، وفي السُّودان قطاعاً كبيراً من الصامتين الذين لم يجرأوا على إدانة تلك الحرب القذرة ولو بأضعف الإيمان، ولكن أياً كانت هويَّة المُستقبلين لعلَّ السُؤال الذي يطرح نفسه مباشرة.. ماذا قدَّمت الحركة الشعبيَّة بعد ثلاث سنوات للملايين، الذين وسَّدوها أحلامهم وأمانيهم في التغيير ساعة الاستقبال المهيب؟! الإجابة باختصار شديد: لا شيء؟! ولكن لماذا لا شيء؟! لأن الحركة الشعبيَّة في تقديرنا لا تريد أن تواجه الحقيقة المُؤلمة المتمثلة في افتقارها لأهم شيء يمكن أن يعينها على تنفيذ إلتزاماتها الاخلاقيه حيال شعبها.. وما هو هذا الشيء يا رعاك الله.. إنه يا سادتي الملاحظة القاسية التالية..

- **ثانياً:** جاءت الحركة وفي بطنها "بطيخة صيفي" اسمها نيفاشا، أو "اتفاقيَّة السلام"، في رواية أخرى غير مُتفق عليها، بظنها أن ذلك كافياً لتأهيلها للحُكم، ونسَت أو تناسَت أن للحُكم سُنن وفرائض أخرى اسمها البرامج السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة، ونحن الآن نستحي بعد فترة الاختبار التي قضتها في الحُكم أن نسألها عن برامجها في القضايا المذكورة، ونحن نعلم أن فؤادها أفرغ من جوف أم موسى! فهي لم تطرح أي برنامج في المجالات سالفة الذكر، وفي الواقع نحنُ نربأ بها أن تمارس نفس ممارسات الشريك المُسمَّى بـ"المؤتمر الوطني"، فالجميع يعلم أن هذا الشريك يجلس على سُدَّة السُلطة الآن بـ"الفهلوة" السياسيَّة دون أي برنامج، وحتى مشروعه الذي أطلق عليه زوراً وبهتانا مُسمَّى "المشروع الحضاري" قد شيَّعته نُصُوص نيفاشا "نظرياً" إلى مثواه الأخير، علماً بأن إرادة المحكومين أنفسهم شيَّعته "عملياً" قبل ذلك بسنين عددا.. المُفارقة أن الحركة تجيب من يسألها عن برامجها التفصيليَّة بالقول أنها اتفاقية السلام، وإن تفذلك بعض ناشطيها، قالوا لك: برنامجنا هو برنامج "السُّودان الجديد"، والحقيقة إن ذلك يندرج تحت أفعال "الحواة" على ذات النمط الذي تُمارسه جماعة الإسلام السياسي حينما يسألون عن برنامجهم، فيقولون لك تلك العبارة الفضفاضة: "الإسلام هو الحل"!

بناءً على ذلك، نعتقد أن إنتقاد البعض للحركة في عدم حماسها لدفع الشريك نحو الالتزام بعمليَّة التحوُّل الديمقراطي، أو تلكُّوها هي نفسها في التحوُّل الديمقراطي المُرتقب، هو انتقادٌ يجيب عليه افتقار الحركة لبرنامج سياسي، وقديماً قيل أن: "فاقد الشيء لا يعطيه"! ولابُدَّ أن البعض استذكر التجربة المرَّة في انتخابات المزراعين والأخرى الأشد مرارة في انتخابات المحامين! وعليه ما مِن سببٍ يجعل البعض يتعامل بحُسن نيَّة في مسألة واضحة وضوح الشمس في كبد السماء، ولهذا نقول بذات الوضوح في ظِلِّ غياب البرنامج السياسي لا أحد يعلم إن كانت الديمقراطيَّة الآن "فاعلاً" أو "نائب فاعل" في قاموس الحركة، وكُنا أثناء نضالها المسلح قد غفرنا لها يوم أن كانت "فِعلاً مبنيٌ للمجهول"، ليس لسببٍ سوى إدراكنا أن الديمقراطيَّة في أجندة الحركات المسلحة رجس من عمل الشيطان! وأيضاً في ظِلِّ انعدام البرنامج الاقتصادي لا تستطيع الحركة أن تطرح خُطة تنموية متكاملة عوضاً عن تنمية "رزق اليوم باليوم" السائدة الآن، كما أن انعدام البرنامج الاقتصادي فتح الباب لغول الفساد، وبالتالي لن تستطيع أن تستشعر حجمه سواء في أروقتها أو في ميدان الشريك، رغم أن رائحته زكمت الأنوف، وكذلك فإن غياب البرنامج هو الذي يجعل الحركة تكثر الحديث عن عائدات النفط حتى لا تُسأل عن ما الذي ستفعله بتلك العائدات، وبنفس القدر لا تستطيع الحركة أن تؤمن على ما تقول في جدوى التحوُّلات الاجتماعيَّة والفكريَّة والثقافيَّة في إطار ما تسميه بـ"السُّودان الجديد"، ما لم تكشف عن مكنون سِرِّها العظيم في برنامج تفصيلي في هذا الصَدَد، بل حتى إن وُجدت هذه البرامج، فالمعروف أنها تكون في

حاجة لترجمة نصوصها على أرض الواقع، وهذا هو محور حديثنا في النقطة التالية..

- ثالثاً: إن دُمغت القوى السياسيَّة الشماليَّة تاريخياً بمُصطلح "نقض المواثيق" وخيانة العُهود مع الجنوبيين، وفق ما تفتق عنه ذهن مولانا أبيل ألير، فمن حق هذه القوى وبخاصَّة المُنضوية تحت لواء التجمُّع الوطني الديمقراطي أن تَرُدَّ هذه البضاعة للحركة الشعبيَّة، التي كانت جزءً فاعلاً في ذلك الكيان، ولكن منذ التوقيع على بروتوكول "مشاكوس" في العام ٢٠٠٢، بدأت الحركة الابتعاد رويداً رويدا عن شواطئه حتى أدارت له ظهرها بالكامل، وقد تسبَّب ذلك في ضعضعة الكيان الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ذات يوم، ونحن لا نريد أن ننكأ جراحاً، أو ننبش ماضياً لا ترغب الحركة ولا الآخرين في مواجهته، لكن الحقيقة مهما كانت الأسباب والذرائع لم تنظر الحركة للمستقبل حينما فرضت عليها الظروف الدخول في تفاوض مع النظام، كان بمقدروها آنذاك ابتداع وسيلة تجعل من التجمُّع الوطني - مع علاته - جزءَ فاعلاً يشد من أزرها أثناء وبعد التفاوض.

لكن الذي حدث، أنها تلذذت في إقصائه، وكان ذلك مصدر سعادة، بل شماتة الشريك، وحتى عندما أصبحت نيفاشا أمرا واقعاً، لم تكتف الحركة بإدارة ظهرها للتجمُّع، ولكن نشط بعض منسوبيها في اتجاه وضع كل بيضها في سلة المُؤتمر الوطني، بدعوى أنه الشريك الضَّامن للاتفاق وبذريعة أن البعض في منظومة التجمُّع له ملاحظاتٌ سالبة على الاتفاق، وبذلك خلطت الحركة خلطاً مريعا بين تحالفٍ مرحلي إقتضته ظروف الاتفاق مع الشريك وبين تحالف استراتيجي مع القوى الديمقراطية تتكئ عليه لاكمال مشروعها الوطني، ولعلَّ أكبر الدُروس التي نتجت عنها الأزمة الأخيرة مع الشريك، اتضاح خطل تلك الحسابات بعد أن وجدت الحركة نفسها تخوض معركتها معه بظهر مكشوف، ورأيناها كيف أنها في تلك الليلة الظلماء طفقت تبحث عن حليف الأمس!

حتى تكون لمُلاحظاتنا الثلاث معنيً دعونا نلجأ إلى أمثلة نعضّد بها وجهة نظرنا، فنحن حينما نقول أن الجماهير التي خرجت لاستقبال الرَّاحل قرنق كانت تطمح للتغيير وانها وضعت غاياتها تلك بين يدي الحركة، نعلم جميعاً أن الحركة خيبت ظنها في انشغالها بقضايا لا يمكن أن تعُد كترياق لتلك الهموم، إلى جانب أنها لا تُحظي بالأولويَّة في دائرة اهتمامات تلك الملايين، الأمانة تقتضي الآن وبعد ثلاثة سنوات من توقيع الاتفاق أن نقول أن الحركة شغلتنا بقضايا من شاكلة: "اعتزل ياسر عرمان"، "اعتكف عبدالعزيز الحلو" و"غادر نيال دينق" ثم الحديث السَّمِج والمكرور عن عائدات النفط وما أدراك ما عائدات النفط، وعندما تهدأ أنفاسنا المُتقطعه من اللهث الماراثوني تبدأ بعدئذٍ أسطوانة أبيي وشكوى المذلَّة المستمرَّة.. والحقيقة نحن لا نقلل من شأن أبيي ولا العائدات، ولكن أين القضايا التي ينبغي أن تكون همَّاً وطنياً، وعلى رأسها قضية التحوُّل الديمقراطي؟! هذا

هو المحك الأساسي، ففي ظِلِّ الديمقراطيَّة تستطيع أن تعالج عائدات النفط وأبيي وتفسِّر لنا ما استعصى بشفافيَّة كاملة!

لكن فيما يبدو حتى الفرعيات التي شغلت بها الحركة نفسها لم تُحسِن صناعتها، من المُؤكد أن كلنا يتذكر ما حدث لوزيرها الهُمام الدكتور محمَّد يوسف أحمد المُصطفي، وزير الدولة للعمل حينما غمرته تلك المشاعر "الثوريَّة" المنحازة لقضيَّة المفصولين تعسُّفياً، الذي حدث أن الوزير صَمَتَ بعدئذٍ لأنه ببساطة حُورب من قِبَلِ حركته أكثر مِمَّا حاربه خفافيش المُؤتمر الوطني، لقد كانت تلك القضيَّة مثالاً واقعياً للرغبة الجماهيريَّة العارمة في التغيير، ومثال أيضاً لنوعية قضاياهم التي انتظروها طويلاً بعد أن ذاقوا الأمرين، لا أظن أن الحركة تعوزها الصيغ الجاذبة التي تجعل أفئدة الجماهير تهوى إليها، وقد لفت نظري إقتراحاً طرحه رائد من رُوَّاد أحد المواقع الإلكترونيَّة، تمنى فيه أن تعمل الحركة لاستيعاب جحافل المفصولين من القوَّات المسلحة والقوَّات النظاميَّة في صفوف الجيش الشعبي، والحقيقة وجدتُ نفسي أتأمَّل وجاهة ذلك الاقتراح ولكن بصورة أكثر رحابة تشمل كل المفصولين تعسُّفياً من جهاز الخدمة المدنيَّة، إن لم يكُن من أجل سواد عيونهم، فعلى الأقل نكاية في سياسات الشريك الجائرة.. تُرى ماذا سيكون مردود هذه القضيَّة إن نطقت بها الحركة ناهيك عن تبنيها؟!

عِوَضاً عن كل ذلك، المؤسي حالة اللامبالاة التي تدثرت بها الحركة الشعبيَّة نفسها.. تنظر لجُموع المفصولين وهُم يرفعون المذكرة تلو الأخرى وتتأمَّلهم وهُم يتظاهرون أمام ناظريها ولا تحرِّك ساكناً.. يُضرِب عمَّال السكة حديد في عطبرة فتصُمُّ أذنيها كأنما الأمر لا يعنيها.. يُقدِّم المُراجع العام تقريراً يندى له الجبين، وعضويتها في المجلس الوطني تُخرس صوتها بيدها.. يتمادى "الشريك" في اعتقال السياسيين والصحفيين ويلحق بهم منسوبيها فتبعث بمندوبيها لزيارتهم في السُجون والمعتقلات.. قوانين التحوُّل الديمقراطي المُرتجي إما مُؤجلة أو تُجاز لتكريس دولة شموليَّة أخرى وهي ما زالت ترفع شعار لا أسمع ولا أرى ولا أتكلم.. المواطن المقهور تُلهب ظهره سياسات السُّلطة الحمقاء من جوع ومرض وعطالة فتقول له: أذهب انت وربُّك فقاتلا، إنَّا ها هُنا قاعدون!

بودِّي فقط أن يعرف عبدالصبور، بعيداً عن دعاوى الشراكة، هل الحركة الشعبيَّة مع الشعب وفقاً لتسميتها وتوجُّهاتها، أم مع المؤتمر الوطني الذي تتقاطع مصالحه مع هذا الشعب، ولم يكن بنداً ذات يوم في دائرة اهتماماته؟! نعم، هو سؤالٌ بسيط.. ومع ذلك فإن الإجابة عليه تضع النقاط على حروف قضايا كثيرة، فافتونا في الأمر أيها القوم إن كُنتُم في حلِّ "الفوازير" شاطرون!!

آخر الكلام: لابُدَّ من الدِّيمُقرَاطِيَّة وإن طَالَ السَّفر!
٢٠٠٨/١/١٦

حِوَارٌ في السَّاعَة الخَامِسَة والعِشرين مَعَ باقان أمُوم (١٠)

في ختام هذه السلسلة الحوارية مع السيّد باقان أموم، والتي نهضت على خلفيَّة أفكاره، وتمحوُرها حول جدليَّة الوحدة والانفصال، نطرحُ على أنفسنا مباشرة السؤال الذي نحاول من خلاله قراءة المخبوء في رحم الغيب، وهو: مَن الذي سيُحدِّد انفصال أو بقاء الجنوب داخل الدولة السودانيَّة الحاليَّة عند إجراء الاستفتاء العام ٢٠١١، وفق ما حدَّدت اتفاقية السلام؟! البديهي أن تكون الإجابة المباشرة هي أن الجنوبيين الذين سيُستفتون هُم بالضرورة من يُحدِّد أي من الخيارين المذكورين، بَيْدَ أن هذا ليس ما نتوقع حدوثه يومذاك، ففي تقديرنا أن تلك قضيَّة سودانيَّة لكن ستحسمها أيادٍ غير سودانيَّة، بمعنى أن الذي سيُحدِّد مصير الجنوب منفصلاً أو مُوحَّداً هو المجتمع الدولي، وإن شئت بعبارة أخرى دقيقة، فقُل شركاء الإيغاد، وإن رأيت أن تكون أكثر دقة فقُل الولايات المتحدة الأمريكيَّة، صحيح أن هذه إجابة قد تبدو للوهلة الأولى عصيَّة على الفهم والهضم معاً، لكن ثمَّة حيثيَّات لا علاقة لها بالسيادة أوالوطنيَّة أوالشرعيَّة، ليس لأن هذه مصطلحات تضعضعت بعد التجارب التي عايشناها في يوغسلافيا – سابقاً – والكويت والعراق وأفغانستان والصومال، بل والسُّودان نفسه الذي يتهيأ لهذا الدور، ولكن لأن القدح المُعلى سيكون للغة المصالح التى ستتجاوز تلك الكلاسيكيات، لا سيَّما في ظِلِّ دولة صُنِّفت أصلاً في عداد الدول الفاشلة!

تقول الحيثيات أن شركاء الإيغاد بصورة عامَّة والإدارة الأمريكيَّة بصفة خاصَّة، هُم من جعل المستحيل ممكناً في الوصول لاتفاق في نيفاشا، وكانت تلك عمليَّة طويلة ومُعقَّده لم تتم بين عشيَّة وضُحاها، فقد استلزمت الكثير من "الآليات" والصبر والمثابرة، وبالتالي لن يتوقف دور هذه الاطراف في وقف حرب تُعَدُّ أطول حروب القارَّة الأفريقيَّة، ولن يتوقف دورها في رعاية الاتفاق فقط، بل من الطبيعي أن تذهب بهذا الإنجاز إلى نهاياته المنطقيَّة. ومن جهة أخرى وبعيد عن أي مثاليَّة لن يضير الاتفاقيَّة شيء إذا قيل عنها أنها صنيعة "أجنبيَّة" فمُعظم الاتفاقيَّات التي تتم في العالم بين خصمين، أحدهما حاكماً والآخر معارضاً تتم باختراق طرف ثالث، وهذا ما لا يعيب الاتفاقيَّات، لكن الذي يعيبها وينقص من قدرها أن تُعلي مصالح الأطراف "الأجنبيَّة" على المصالح الوطنيَّة، ودونما مكابرة، لا أحد يستطيع أن ينكر أن الأطراف أو الطرف الذي اجتهد في صناعة نيفاشا لم يفعل ذلك من أجل سواد عيون السُّودانيين، ولا من أجل نفحة إنسانيَّة

غشته بين عشيَّة وضحاها، وإنما كانت المصالح هي باعثه ومحرِّضه ودافعه الاساسي في تسهيل الاتفاق وشاهدنا في ذلك التالي:

- **أولاً:** كلنا يعلم أن نظام الإنقاذ كان متعنتاً حول مبادرة الإيغاد وظلّ يراوغ منذ أن طُرحت في العام ١٩٩٣، ونتيجة لظروف كثيرة يصعُب حصرها في هذا الحيِّز، فاجأ النظام الأوساط الإقليميَّة والدوليَّة بقبولها في العام ١٩٩٧، وهو التحوُّل الذي نعى المشروع الحضاري ابتداءً، ثم ازداد التداعي بسقوط ورقة التوت التي كانت تغطي عورة المشروع كله انتهاءً، وأدَّى هذا وذاك إلى صراع السُلطة فيما سُمِّي بـ"المفاصلة" بين الشيخ وتلاميذه، أو إنقسام القصر والمنشيَّة، وعليه عندما وصل أهل النظام لعتبة التفاوُض الأولى في مشاكوس (يوليو ٢٠٠٢) جاؤوها مُرهقين، ولم يكن ثمَّة مناص من الإذعان لإرادة من رفع العصا بيدٍ وبسط الجزرة باليد الأخرى، بل إن الأمر لم يتوقف عند حدود التوقيع على الاتفاق، فقد كان ذلك إيذاناً بتنازُلاتٍ بدأت تترى منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم! (دعك عن التنازُلات السياسيَّة، هل تأمَّل أحدكم في واقعة استجواب فريق الـ'إف بي آي' الأسبوع الماضي لصحفية في قلب الخرطوم وبحضور ضُبَّاطٍ أشاوس من إدارة التحقيقات الجنائيَّة) المفارقة أن الايام أبدت ما كان خافياً وكشفت عن أن المعاداة العلنيَّة لـ"الشيطان الأكبر" كانت تنطوي على تنازُلاتٍ سريَّة، بما لا عين رأت ولم يخطر على قلب بشر!
- **ثانياً:** لم تكن الحركة الشعبية في حاجة للتمرُّد على الدور الأمريكي، يبدو لنا – والله أعلم – أن الحركة إقتبست من آليات النظام جريرته المُسمَّاة بـ"فقة الضرورة" وأخضعتها لمنهجها في التعامُل مع الإدارة الأمريكية، ولظروف قد تبدو موضوعيَّة بالنسبة لها وعكسها لآخرين، لن تجد الحركة حرجاً في التسليم بقضاء الإدارة الأمريكيَّة وقدرها، فوقائع الأحداث تقول أنها حركة إنتهجت أسلوب النضال المسلح لتحقيق اهدافها المشروعة، ولم يكن للسياسة نصيبٌ إلا بقدر ضئيل يساعد على شرح أهدافها تلك، ولكنها الان تخوض غمار تجربة العمل السياسي المكثف بكل التعقيدات البيروقراطيَّة التي تكتنف أطر الحُكم، وبعبارة أخرى يمكن القول أن الحركة الشعبيَّة وجدت نفسها بين سندان المؤتمر الوطني ومطرقة واقع تتوزَّعه الولاءات السياسيَّة التقليديَّة "شمالاً" والولاءات القبلية وضعف التجرب السياسية "جنوباً"!

وسواء لهذه المُعطيات أو نتيجة قناعات أخرى، يبدو لنا أن الحركة ترى ضرورة وجود "رافع" يعينها في إجتياز حقول الالغام هذه، بدليل أنه حينما احتدم الخلاف بينها والشريك المراوغ، دعا قادتها جميعهم الإدارة الأمريكية جهرةً وبلسان سُوداني مُبين إلى ضرورة التدخُّل لحماية الاتفاق، ذلك على غير المألوف في مثل هذه الحالات.. إذ أنه غالباً ما تلجأ الحركات والتنظيمات لقواعدها الجماهيريَّة، بخاصَّة أن هذه الجماهير هي المناط بها إنجاز عمليَّة التحوُّل التاريخي في تقرير المصير، بل على غير ما يظن البعض أنه تمادَى في تجاهُل

قواعدها.. عَبَرَ قادة الحركة الأطلسي ليسمعوا المُنادَى عن كثب، ومع ذلك نعتقد أن الحركة كانت متصالحه مع واقعها للأسباب سالفة الذكر!

إن أسلمنا جدلاً بفرضيَّة أن الادارة الأمريكيَّة، هي التي ستلعب دوراً مؤثراً ومحورياً في عملية الاستفتاء المتوقع، لعلَّ غريزة حُب الاستطلاع قد تحرَّكت في دواخل البعض بُغية إستنكاه ما تطويه "الأقدار السياسيَّة" في صفحاتها، أي كشف أستار الدور الأمريكي فيما هو متوقع، وبالطبع لا يستطيع المرء أن يدَّعي معرفة كل ما يحيط بهذا الدور، ولكننا نمتلك القليل سواءً من مصادر نثق في حُسن تصويبها للأمور أو جرَّاء قراءات نعتد بها رغم تواضُعها، وخلاصة هذا وذاك يمكن التأكيد على أن ما تسمِّيه الدوائر الأمريكيَّة بقضيَّة جنوب السُّودان (على عكس ما ناضلت من أجله الحركة طويلاً لتغيير هذا المفهوم) تعد ضمن القضايا الاستراتيجيَّة الثابتة، أي تلك التى لا تتأثر بهوية الادارة السياسيَّة، مع مشروعيَّة تباين المعالجات بين الجمهوريين والديمقراطيين، وبناءً عليه يمكن القول أن خيار بقاء السُّودان مُوحداً يُعَدُّ قاسماً مشتركاً بين الطرفين، وثمَّة أسباب ثلاث فليعذرنا القارئ الكريم إن لم نُسهب في سردها، إلا بالقدر الذي يعين على التفكير وحُسن التدبير.

- **<u>أولاً:</u>** تسعى الإدارة الأمريكيَّة من خلال عمليَّة الوحدة إلى ترسيخ مفهوم الاستقرار القُطري كأولويَّة، وتعد تلك فريضة في بلدٍ كانت وما زالت جغرافيَّته سبباً رئيسياً في عدم استقراره، وبلغة المصالح آنفة الذكر، فإن حالة الاستقرار الجغرافي، تقود إلى ضمان الثروة البتروليَّة وفق ما خُطط لها سلفاً في أن تكون الاحتياطي المُفترض للادارة الأمريكيَّة في القرن الحالى، وبالطبع ارتفعت مؤشرات ذلك في ضوء التقارير التي تتحدَّث عن بدائل لبترول الخليج والعراق، ومن البديهي بعدئذٍ أن ينتُج الاستقرار الجغرافي استقراراً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.. هذا بزعم أن للبشر في حساباتها نصيب!

- **<u>ثانياً:</u>** يمكن لخيار الوحدة أن يُرسل إشاراتٍ مُوجبة وقويَّة لدُول القارَّة الأفريقيَّة الهشَّة والتي يتململ بعضها تحت نير التشرذُم والتفتت والانفصال، ومن المُؤكد أن الإدارة الأمريكيَّة فى ظِلِّ وحدانيَّة القطب لا ترغب بفتح باب يمكن أن يفتح عليها أبواب جُهنَّم، ولو أنها تنحو نحو مثل هذه الخيارات لكان قد دعمت تجربة شمال الصومال "صومالي لاند" التى أعلنت دولتها منذ ما يُقارب العقدين، ولم تَحظَ حتى الآن باعتراف أي من دُول العالم، رغم حالة الاستقرار الذى تعيشه، وعلى عكس بقيَّة الدولة الصوماليَّة ودول أخرى في المنطقة!

- **<u>ثالثاً:</u>** لا يستطيع أي مراقب إغفال الدور المصري، في ضوء التناضح العكسي لنظرية الأمن القومي الإستراتيجي بين البلدين، وكذلك في ضوء الثقل الإقليمي لمصر والعلاقة الراسخة والمتميّزة بينها والولايات المتحدة الأمريكيَّة.. يمكن

القول أن الوحدة تعد ترياقاً لكُلِّ هذه المُعطيات، وذلك بغضِّ النظر عن أشياء لا تدخُل في دائرة الاستراتيجيَّات المذكورة، مثل المحاولات الاسرائيليَّة الدؤوبة، والتى ظلت تحاول باستمرار ومنذ أمدٍ بعيد التسلل للسُّودان من خاصرته.

ثمَّ يأتي السؤال الأخير، الذي نحاول أن نلخِّص به مدى قدرة الحركة على إنجاز عمليَّة التحوُّل التاريخي.. هل يعني كل هذا أن الحركة الشعبيَّة ستنتظر آخر المصب – وفق المثل الصيني – لينقل لها النهر جثة "عدُوِّها"، أو بلغة المتنبي فلنقل "شريكها" الذي ليس من صداقته بُدٌّ؟! الاجابة ببساطة، على الرغم من أننا ذكرنا في الحلقة الماضية ثلاثة أسباب رئيسيَّة قُلنا أنها تفسِّر من خلال وجهة نظرنا، حالة العجز والجُمود والكسل الذهني السياسي الذي ظلَّ يحيط بالحركة إحاطة السوار بالمعصم منذ رحيل قائدها الفذ الدكتور جون قرنق، ومع ذلك يمكن القول إجمالاً أن الحركة الشعبيَّة لا ينقصها التنظير لبرامج سياسيَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة، فقد انتظر الناس منها تفعيل ما بين يديها من أدبٍ تنوء بحمله الجبال في المجالات المذكورة، وهي لا تعاني أزمة قاعديَّة، ولكن يعوزها الابتكار الذي يوصلها لهذه القواعد، وهي لا تشكو عِلَّة قيادة، لكن بعض قيادتها اختلطت عليهم حسابات الحقل والبيدر فاستصعبوا الانتقال من خندق الشرعيَّة الثوريَّة إلى خندق الشرعيَّة الدستوريَّة؟! وكم عزَّ علينا في هذا الصدد أن نرى الحركة الشعبيَّة لا تكتفي بالشراكة، وإنما تهتدي بتقليد الشريك في بدع الضَّلالة.. مثل دغدغة مشاعر الجماهير بذرِّ الوعود البرَّاقة، ومحاكاة أساليبه الغوغائيَّة في الحشد والتنظيم، وتذبذُب التحالفات السياسيَّة التي قد ترقى لدرجة الانتهازيَّة، وخفة اليد "الثوريَّة" في الفساد، وإتباع طرق غير ديمقراطيَّة في معالجة قضايا تنظيميَّة، واضطراب الأولويات وتغليب المهام الأمنيَّة على المهام الخدميَّة.. إلخ، ولبعض مما ذكرنا نماذج..

بعد ثلاثة أعوام من الاتفاقيَّة، بشَّرنا الأسبوع الماضي (السُّوداني ٢٠٠٨/٢/٨) رمضان محمد عبدالله، الناطق الرسمي لقطاع الشمال أن: «**الحركة الشعبية تعمل كحزب شريك في الحُكم على إنزال نصوص اتفاقية السلام لأرض الواقع، مبيناً أن هناك اتجاهاً برز لدى قيادة الحركة بتبصير المواطنين بالسلام والتنمية والديمقراطية، وأكد أن الحركة ستشرع بالتنسيق مع شريكها في الحكم المؤتمر الوطني إلى التبصير ببنود إتفاقية السلام وإشاعة ثقافته إعلامياً**»، ومن أجل هذه المُحصِلة الأخيرة فقد زفَّ لنا رمضان أيضاً خبراً مُفرحاً قال فيه أن: «**الحركة شكلت لجنة فنيَّة للشروع في إنشاء محطة فضائية وإذاعية للسلام لنشر ثقافة السلام إلى جانب التطرق لقضايا التنمية والديمقراطية والانتخابات**».. ذلك حديثٌ كان أجدر بالذين سلخوا النُخبة السودانيَّة بأقلام حِداد أن يقولوه وينفذوه عشيَّة أن "توهَّطوا" في القصر الذي أعاد بناؤه "بهاء الدين"! ولكن عوضاً عن ذلك هرعوا للتفيوء بظلال شجرة الهشَّاب، ولن نخفي دهشتنا من سرعة تطبع المستشار مع ثقافة "طق الصمغ"، فقد كتب بقلمه السيَّال العام الماضي حلقات

متسلسلة عن اتفاقية السلام، ولم يجد أروع من أن يختار لها عنوان "عامان من السَّلام. حسابات الربح والخسارة"، كأنه لا يعلم أن مثل هذه العناوين مكانها سوق "المَلَجَة" أما السلام فقيمته معنويَّة لا تُقاسُ بالقناطير المُقنطرة ذهباً كانت أم فضة!

لكن هل أتاكم حديث القانوني الضليع الذي يُفترض أن يكون أحد المُبشِّرين ببرنامج "السُّودان الجَديد"؟! أدلى السيِّد غازي سُليْمَان بحديثٍ ('آخر لحظة' ٢٠٠٧/١٢/٦) يحتار قارؤه أن يُصنف قائله في دائرة الجد أو الهزل:

لماذا الغياب والصمت أستاذ غازي، هل هو زُهدٌ في السياسة، ولماذا لم تتول منصباً ضمن قيادات الحركة؟

= ليس لديَّ طموح سياسي أسعى من خلاله لتولي منصب، ومنصب النائب الأوَّل لن "انفع" فيه.. "إيه رأيك"..

هل تعني إنك أكبر من المنصب أم...؟

= مقاطعاً بعُنف: يا أخي أنت عارف أنا "بنفع شنو" ... صمت.

- **بتنفع شنو يا استاذ غازي؟**

= بنفع رئيس جمهورية "بس".

- **لماذا رئيس جمهورية؟**

= علشان اتحكَّر فيها "أسوي الدايرو".

- **هل تتوقع أن "تلقاها" وتصبح رئيس جمهورية؟**

= يا أخي "ألقاها" أنا، ولا الله "يقسما" لي...

(قالها والضحك يملأ المكان والمُصوِّر سُفيان يستلقي على "قفاه" من الضَّحك)

- **وإذا الله "قسم ليك"، ماذا بعد ذلك؟**

= في زول الله "بقسم ليهو" حاجة "بياباها"؟!

- **وما هو أول قرار سوف تتخذه إذا أصبحت رئيساً للجمهوريَّة؟**

= "أشيل" عصاتي و"ألبس" جلابيتي وأذهب للقصر الجمهوري و"أطلع" قراراتي الجمهورية ثم أرجع لبيتي وانا مرتاح البال..

يكاد المرء يتخيَّل عظام الرَّاحل قرنق وقد تململت في قبره، والحقيقة أن نوعيَّة الحوار نفسه يكشف عن مدى عُمق الأزمة التي تعيش فيها الصحافة السودانيَّة، ولو أن أحداً حَجَبَ اسم غازي لما توانينا لحظة في نسبه لأحد أساطين المؤتمر الوطني، نسبة لأنهم ظلوا يُتحفون أهل السُّودان في أحاديث من هذه الشاكلة سنين عددا.. بل ما زالوا في غيِّهم سادرون!!

آخر الكلام: لا بُدَّ مِنَ الدِّيمُقراطِيَّة وإن طَالَ السَّفَر!
٢٠٠٨/١/٢٥

مِن قَبل أن يَطوِي عَامٌ آخَر مِحنَتِنَا!

مضى عامٌ وحلّ عام جديد. وما بينهما كان لزاماً علينا الصَّبر حتى تُرفع سُرادق العزاء التي انبرى لإقامتها كثير من الكُتَّاب والمُراقِبين والمُعلِّقين، تأسياً لمحنة وطن نحن صانعوها، ولو بصورة نسبيَّة. وفي واقع الأمر، تلك عادة دَرَجَ عليها المُتشائمون والمُخذِّلون والمُبتئسون والعَاجزون.. الذين يَهلون علينا كل عام ليتلون على مسامعنا آيات الحزن والأسى والألم، لكأننا في حاجة لمزيد من نكء الجراح وتطابُق المحن على الإحن. ومن مساوئ الصُدف لتي كان ينبغي أن تكون محاسن، أن ذكرى الاستقلال ارتبطت بحلول العام الميلادي الجديد. فبدلاً من الاحتفاء الخاص بهاتين المناسبتين في أجواءٍ مفعمة بالأمل والرجاء حينما عزَّ الاحتفاء العام، يهل علينا الآمرون بالوطنية والناسون أنفسهم ليجعلوا منهما منطلقاً لمصارعة "طواحين الهواء" فيحسُبُون أطناناً من اللعنات على الوطن والزمن معاً، بشوفينيَّة تنُمُ عن مرضٍ دفين، وذلك في تقديري هُراءٌ لن تجد له مسرورين سِوَى العُصبَة الحاكمة.. بمنظور ما تواطأ الرياضيون على تسميته بإستراتيجيَّة "تشتيت الكورة" طمعاً بفوزٍ فطير!

نعم، هو عامٌ جاء كسائر الأعوام التي مضت، مُثقلاً بالهموم التي تكاثرت، والمشاكل التي تفاقمت، والتحديات التي تعاظمت، بل ثمَّة حقيقة ماثلة تؤكد لنا أن الوطن الذي ورثناه كابراً عن كابر، بات يقف الآن على حافة الهاوية، ولم يعُد بينه وبين القبر سوى بضعة أشبار كتلك التي يعدها الناس لما يلحِدون. ومن نكد الدنيا على هذا الوطن أيضاً، أن تلك الحالة لم تداهمه بغتةً كما يُصوّر لنا أصحاب "البيات الوطني"، فقد كانت حقيقة جَهَرَ بها الحاكمون عشيَّة استيلائهم على السُلطة، ثمَّ مارسوها قهراً على مدى أكثر من رُبع قرن. بنظرية تجُب أخرى، ونحن ننظر إليهم بلسان عقدته الدهشة، حتى لم يبقَ من درنهم شيء ينضحونه. أما وقد بلغت الأزمة الوطنية منتهاها الآن، وبعيداً عن السفسطة التي لن تُجدي نفعاً، تجدنا نتساءل، ما إذا كنا سنمضي في ذات طريق الآلام، أي نسُبُّ الوطن مرَّة ونلعن الزمن مرَّات؟! هل سنستمر في ذات الدهشة البلهاء ونحن نرى النيرونيين الجُدُد يقفون عند مُقرن النيلين، ليشهدوا منافع لهم من أشلاء وطن تحترق أطرافه وتتبعثر إرباً إرباً؟!

إلى متى ونحن ننهض من منامنا كل يوم لنشهد فاصلاً من البؤس المُقرَّر علينا في مسرح العبث؟! فما الذي تبقى ولم يُقل، وما الذي تُرك ولم يُفعل؟! ممارسات وسلوكيات تنهال على رؤوسنا بلا هوادة، ولا نجد لها ترياقاً سوى الدهشة التي تُسلمنا لدهشة أخرى.. هل ضُربت علينا الذِلّة والمَسْكَنَة ونحن نرى آل فرعون يسوموننا سوء العذاب.. يذبحون أبناءنا ويستبيحون نساءنا؟!

لقد استمرأ هذا النظام لا مبالاة الذين يحلمون بالتغيير ويلقون بتوابعه على كاهل الآخرين، فلماذا إذن تعلو الدهشة جباهنا ونحن نصعر له خداً يفعل به ما يشاء كأنه ولي حميم؟! كم من الأرواح أزهقت؟! وكم من النفوس عُذبت؟! وكم من الحروب أشعلت؟! الحادبون يُصحِفُون والمكتوون يقرأون والصابرون يجأرون بالشكوى، فلا ارعوى النظام ولا رُفعت الأقلام ولا جفَّت الصُحُف.. فالنظام الذي تبارينا في وصفه بكل الموبقات، لم يعُد في حاجة لأن يسمع المزيد، إذ أن الحديث عن ديكتاتوريته لن يجعله ينقِص منها حبة خردل، بمثل ما أن الكلام عن فساده لن يزيده إلا تجبراً وتعنتاً وخيلاء.. فهل ثمَّة شيء ينبغي إتباعه حتى لا يطوي عام آخر محنتنا وخيبتنا معاً؟!

ذلك هو سؤال المليون – كما يقولون – والذي ينبغي علينا أن نجد له إجابة شافية. وبالطبع لن نجد له هذه الإجابة المتوخاة، ما لم نُدرك حجم الكارثة المُحدِقة بالوطن، ونتخلَّص من الصَّمت الذي يحاصرنا، ونجتث جذور التفكير النمطي الذي يهدد مصيرنا ووجودنا!

بناءً عليه، نضع بين يديك – يا عزيزي القارئ – بضع اجتهاداتٍ، قد تصيب وقد تخطيء، ويمكن أن تزيد أو تنقص في محنة وطن قد تبدو للرائي كأنها أعجزت من يداويها، ولكننا نعتقد أنه عبر حوار موضوعي نستطيع الوصول إلى قواسم مشتركة تقودنا إلى برّ الأمان وفجرٌ صادقٌ طال انتظاره!

- **أولاً:** طالما أن التشخيص الخاطئ يؤدِّي بالضرورة إلى نتائج خاطئة، تجنُّباً لذلك علينا الاتفاق أولاً على توصيف هذه الأزمة. ونحن نميل إلى أنها وإن بدت كأزمة سياسة انقضَّ فيها عسكرٌ على نظام برلماني منتخب، إلا أنها تمظهرت بعدئذٍ إلى أزمة أخلاقيَّة، تسربل فيها النظام بالدين الإسلامي مُكرّساً أسوأ نموذج لدولة ثيوقراطيَّة!

- **ثانياً:** لعله من نافلة القول – بعد أكثر من رُبع قرن – التأكيد على أن أي حديث يهدف إلى تعرية فساد النظام وتسليط الضوء على ممارساته الديكتاتوريَّة بعدئذٍ، سيُعَدُّ مجرَّد مضيعة للوقت وحرثٌ في البحر. ومن المفارقات – في مسرح اللامعقول – أن تلك المهمة أصبح يقوم بها زبانية النظام أنفسهم، لعلهم هدفوا من وراء ذلك ألاَّ يُرهِقُوا معارضيهم فيما كانوا هُم فيه خائضون!

- **ثالثاً:** إن الشفافية تحتم علينا الجهر بأن القوى السياسية المعارضة تخوض معتركاً بفؤاد أفرغ من جوف أم موسى. وعوضاً عن اقتحام "التابو" الذي يُكبّل العقول، صار الكثير من منافحيها يثقبون الآفاق بنظراتٍ حيرى، لعلهم يجدون في طياتها حلاً يُنبئهم بسقوط وزوال النظام. وعندما يرتد إليهم بصرهم خاسئاً وهو حسير، يقفزون إلى النهايات دون المرور على البدايات، فيلجأون إلى ترديد السؤال اللولبي الذي لن يجدوا له إجابة سوى صداه حينما يقولون: ما الذي طرأ علينا نحن السُّودانيين حتى نرزح في هذا العذاب المهين؟!

- **رابعاً:** إن الصِدق مع النفس والقراءة الموضوعية للواقع يحتمان علينا القول بأن العجز الذي حاق بالقوى السياسة كان واحداً من أسباب تطاول سني النظام. وهي فرضية تجرَّعتها الجماهير الصابرة سُمَّاً زعافاً، إذ زعزع قدراتها وباتت سماؤها لا تمطر إلا لماماً. ومن هنا، نحن ندعو القوى السياسية المعارضة أن تعلن صراحة عن تخليها مؤقتاً عن نشاطها – إن جاز التعبير– الذي كان هادفاً إلى إسقاط النظام. على أن تشرع في بناء مرحلة أكثر صعوبة، بتجرُّدٍ وطني وتصالح من الذات. وذلك في لملمة أطرافها وبناء تنظيماتها مؤسَّسياً، ومن ثمَّ سيستقيم حديثها حول مسألة إسقاط النظام. بيد أننا لسنا في حاجة للتذكير، على أن حزب الأغلبيَّة الصامتة المُكبّل بعجز القادرين على التمام سيتولى زمام المسئولية التاريخيَّة. ومن يرى أن هذه الدعوة لا تعنيه فليتقدَّم الصفوف!

- **خامساً:** بنفس القدر تحتم الشفافية علينا التأكيد على أن الحرب التي تخوضها القوى المسلحة المعارضة في الأطراف، هي حرب إستنزافيَّة قد تأتي بمردودها ولكن على المدى الطويل، يكون زمنذاك قد هلك الزرع والضرع، والنظام – كما تعلمون – غير معني إلا بالذي يبقيه على سُدَّة السلطة حتى لو كان الثمن جثة آخر مواطن. وموازاة مع ذاك السجال، يقوم النظام باستهداف المدنيين في وجبات بمتوالية عددية (عدد الطلاب الذين استهدفهم وخطفهم وقتلهم بدم بارد بلغ منذ يونيو ١٩٨٩ وحتى آخر من استشهد الشهر الماضي وهو الطيب صالح ٥١١ طالباً وطالبة) علماً بأن ذلك ليس في الولايات التي تدور الحروب في رحاها، ولكن في قلب العاصمة المثلثة ومُدُن أخرى من السودان. بناءً عليه يُصبح لزاماً على التنظيمات المسلحة أن تطور قدراتها النضالية لحماية المدنيين من التعذيب والتقتيل والتنكيل والاغتصابات. وذلك لن يتأتى إلا بإحداث نُقلة نوعيَّة يتم خلالها الإعلان الصريح باعتبار النظام ومنسوبيه أهدافاً مشروعة مِمَّا تمَّ المساس بأي مواطن في أي بقعة من السودان!

- **سادساً:** إن الشفافية تقتضي أيضاً تمييز "عجز القادرين على التمام"، فإذا ما أسلمنا جدلاً أن الأحزاب السياسية تتحمَّل الوزر الأكبر من الضَّعف الذي

سرى في أوساط الجماهير، يجب الإقرار بأن الحزب الاتحادي الديمقراطي يحمل لواء المُتقاعسين. ومن المفارقات أن البعض دُهش عندما كشفت العُصبة عن عزم زعيمه السيد محمد عثمان الميرغني المشاركة في مهزلة الانتخابات، كأنه لم يكن ذاك الحزب الذي سبق له النهل من ذات المورد قبل سنوات، وكأنه لم يكن ذاك الحزب الذي يشارك النظام منذ ما يُسمَّى بـ"اتفاقية القاهرة" العام ٢٠٠٦، ولو شئنا العودة للوراء كثيراً فلن تجد لهذا الحزب في ظِلّ الحسيب النسيب موقفاً وطنياً واحداً يرفع مقامه ويُعلي شأنه. وبالتالي، يجب التأكيد على أن هذا الحزب وزعيمه شركاءٌ في جرائم النظام منذاك التاريخ المذكور، وبالتالي تجب محاسبته والنظام بقدرٍ سواء!

- **سابعاً:** نعلم جميعاً أن النظام المتعطش للدماء أشعل الحروب وأزكى أوارها في دارفور وجنوب كُردُفان والنيل الأزرق، وقد مارس في كلٍ الإبادة الجماعية والتطهير العرقي، بل جعل من الاغتصابات سلوكاً ممنهجاً. وفي خِضَمِ كل ذلك، تجلت العنصريَّة في أسطع معانيها. ومن عجبٍ، أن هذه العدوى أصابت بعض ضعاف النفوس من معارضيه، فشاركوا النظام ضرائه بترديد ذات العنصرية البغيضة، لكأنها ديدن الشعب السوداني برمته، ولكأنه – أي الشعب – مسئول عن جرائر النظام برُمَّتها. علماً أن ذات النظام الذي يمارسها قسراً، يضم عدداً وافراً من كل الإثنيات، وبعضهم مِمَّن تطحن الحرب أسرهم الممتدَّة، فهل يمكن تبرئة المشاركين من تلك الخطيئة؟!

- **ثامناً:** ثمَة مصطلحات حُوِّرت وكادت أن تصيب الوجدان الوطني بالتبلد. ونضرب في ذلك مثلاً يُردِّده البعض فيما يُسمَّى بتصنيف "المركز" و"الهامش". وهو تحويرٌ وجد هوىً في نفس النظام، فقد حدا من خلاله إلى تعضيد ممارساته العنصريَّة. لا أعتقد أن هناك من يجادل في أن التهميش الذي يعيشه السُّودانيون، هو تهميشٌ سياسي واقتصادي وثقافي، وليس تهميشاً جغرافياً كما يزعُمون. بجانب أنه ليس قصراً على جنسٍ واحد من أجناس السُّودان المُتعدِّدة، إذ لم تستثن آفاته سوى المستجير من الرمضاء بالسُّلطة. بدليل أن الظاهرة بصُورها المعروفة تجدها في همشكوريب وكبكابية وشنقلي طوباية وديم زبير والقويز والمتمة وحلفا.. إلخ، بنفس الصورة التي يلحظها المرء دون عناء في أطراف العاصمة المثلثة نفسها، وكلنا يعلم أن التهميش لم يولد من رحم الغيب، فهو نتاج فشل النُخبة السودانية في استغلال ثروات البلاد المتنوّعة لصالح بناء دولة عصرية حديثه، يكون مرتكزها الإنسان السُّوداني، بغضِّ النظر عن لونه أو عرقه أو دينه أو مناطقيته. ولو كانت المقاييس بمثل ما يدَّعون، فليقُل لنا عاقل ماذا نصنع مع الجنرال عثمان كِبِر الذي يقود حملات الإبادة الجماعيَّة؟! وماذا نفعل مع أحمد هارون وهو يجهر بتطهير عرقي لم يمارسه أدولف هتلر رائده؟! وماذا نحن قائلون عن التيجاني السيسي وبحر أبوقردة وحسبو عبدالرحمن والحاج آدم وتابيتا بطرس ودانيال

كودي وأحمد كرمنو ومسار ونهار وهلمَّجرًّا؟! والقاسم المشترك بينهم حُبُّ السُّلطة الذي وأد أي ذرَّة إنسانيَّة في نفوسهم!

صفوة القول، أما الآن وقد بلغنا منعرج اللِوى، نستطيع أن نقول: لقد اتسعت المحنة بالفعل حتى ضاقت العبارة في ظِلِّ نظام متجبِّر. وبرغم إيماني الذي لا يتزعزع في دُنُوِّ ساعة رحيله، إلا أنه لابُدَّ من التذكير أن تلك غاية لن نبلغها بالتمنيات الطيِّبة، وإنما باستشعار كل فردٍ لمسؤوليته الوطنيَّة. وليتنا نسأل أنفسنا فجر كل يوم: ماذا فعلنا من أجل إسقاط نظام يتهيأ الآن – بعد ربع قرن – للانتقال من ديكتاتورية الجماعة إلى ديكتاتورية الفرد؟!

ولكن كيف السبيل للإجابة وبيننا "آل بوربون"، الذين يتساءلون عن اختراق هذا الفرد المذكور للدستور، وكأنهم لا يعلمون أن شرعيَّته المفقودة لن تسقط بالتقادُم حتى بلغ عمر نوح عليه السلام!

آخر الكلام: لا بُدَّ منَ الدِّيمُقرَاطِيَّة وإنْ طَال السَّفَرْ!!
١٩/٠١/٢٠١٥م

الفهرس